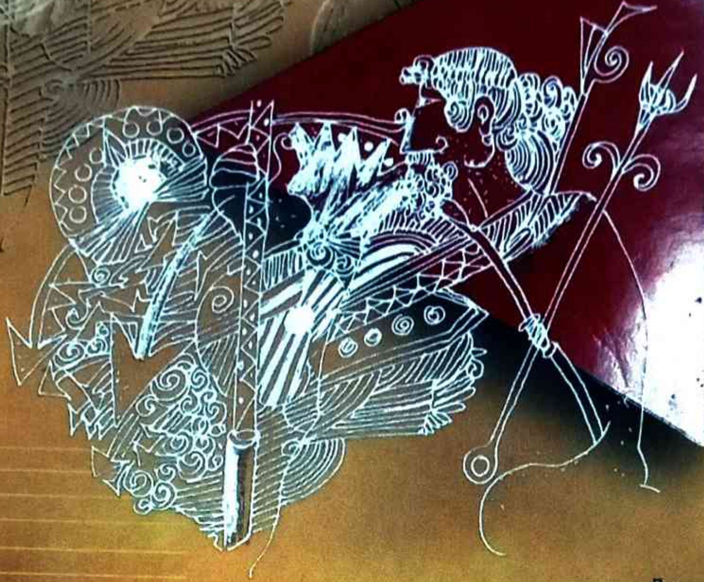




ثيوسيديدس

THUCYDIDES
HISTORY OF THE PELOPONNESIAN WAR

تاريخ
الحرب البيلوبونيزية

ترجمة

دينا الملاح ▬ عمرو الملاح



938.05
ث وت ا
ثوسيديدس، حوالي، 460 - 400 ق.م.
تاريخ الحرب البيلوبونيزية / ثوسيديدس؛ ترجمة دينا الملاح وعمرو الملاح.- أبوظبي؛ المجمع الثقافي، 2003.
728 ص.
1- الحرب البيلوبونيزية.
2- اليونان - تاريخ قديم.
أ- دينا الملاح، مترجم.
ب- عمرو الملاح، مترجم.
ج- العنوان.

أبوظبي-الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380- هاتف: 6215300
Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae
http:/www.cultural.org.ae



تاريخ الحرب البيلوبونيزية

هذه الترجمة العربية

قدم ثوسيديديس لأثره الهام« تاريخ الحرب البيلوبونيزية » بانه أراد أن يجعله مرجعاً للبشرية عبر العصور ،والحق أنه ما من حرب قبل هذه التي عرض فيها للصراع الدامي بين أثينا وإسبارطة ولا بعدها عرفت إلاّ بفضل الرجل الذي أرخ لها؛ لأنه قدم أول تحليل سياسي وأخلاقي للسياسة الدولية وعرض لمصالح الدول وتناقضتها وللتحالفات التي كانت ما إن تقوم حتى تنهار لتقوم محلها تحالفات أخرى ،وتجعل من عدو الأمس صديق اليوم.

والمساهمة الهامة التي قدمها ثوسيديديس هي دأبه على استقصاء أحداث تلك الحرب الكبرى وتفاصيلها عن الجانبين المشاركين في ذلك الصراع الدامي الذي دار بين القطبين الأعظميْن في ذاك الزمان؛ وكان بذلك أول رائد محقق في تدوين التاريخ بصورة موضوعية إذ يوازن بين الأطراف دون أن يسمح للهوى أن يطغى عليه، وينال من استنتاجاته أو القوانين العامة التي بلغها في مؤلفه ،وهذا ما جعل علماء التاريخ يعدونه مرجعهم الأول في التاريخ وقواعد الكتابة التاريخية.

وكانت مأثرته الثانية أنه رأى التاريخ محكوماً بقوانين تقبل التعميم ،وليس رواية أحداث تعرض في زمان أو مكان معينين ثم تغيب ولا يبقى منها سوى الرواية .ولذلك صار كتابة « تاريخ الحرب البيلوبونيزية » الأساس لما يعرف اليوم بالمدرسة الواقعية في علم التاريخ، وجعل هذا العمل الرائد موضع اهتمام بعيد صدوره حتى اشتهر وذاع صيته منذ ذلك الحين. والجدير بالذكر أن هذا « التاريخ » قد بدأه صاحبه منذ الأيام الأولى لاندلاع الحرب بين القطبين الأعظميْن في العالم الهيلينون، وكأنما كان يدرك أنه سيكون لهذه الواقعة أثر خطير في هذا العالم .إلا أن عمله اقتصر على ثمانية كتب،استمد معلوماته في تدوينها ممّا استقاه من المشاركين في الحرب وما خبره بنفسه وهو يخوضها شخصياً

في الميدان، وكان يريد أن يتم تاريخه بوصف سياسة أثينا في الداخل، إلا أن ذلك لم يتحقق له لأمر ظل مجهولاً، ويستدل على ذلك من أن الكتاب الثامن ظل بلا خاتمة، ليكمله مؤرخون آخرون. ومع ذلك فإن الشروح والتعليقات على هذا التاريخ استمرت دون انقطاع في مكتبات الغرب.

ولايعرف الكثير عن حياة ثوسيديدس سوى ما أشار هو إليه في سياق تاريخه وبعض من كانت لهم صلة به،وهي إشارات مقتضبة تفيد باسم والده أولوروس،يرجح بأنه تراقي الأصل من ناحية الأم، ويتصل قرابة بالسياسي والقائد العسكري ميلتياديس الشهير الذي تزوج بابنة أمير تراقي يحمل اسم أولوروس.وكان ثوسيديديس ذاته يملك بعض الأطيان في تراقية، ومنها حق التنقيب في مناجم الذهب قبالة جزيرة ثاسوس، ويخبرنا أنه كان ذا شأن هناك.كذلك عرف عنه أنه عين في منصب عسكري كبير عام ٤٢٤ ق.م .كما عرفنا أنه قد أصيب بالوباء العظيم الذي اجتاح أثينا مابين ٤٣٠ و٤٢٩ ق.م لكنه شفي منه ووصف آثاره في تاريخه .وفي عام ٤٢٤ ق.م كان من بين الأعضاء العشرة في مجلس الحرب، وتولى قيادة الأسطول في منطقة تراقية، ومقره ثاسوس، لكنه أقصي عن مهامه وحكم عليه بالنفي حين فشل في منع القائد الإسبرطي براسيداس من الاستيلاء على مدينة أمفيبوليس الهامة. وقد أتاحت له حياة المنفى فرصة تفرغ لكتابة تاريخه دون عوائق والاتصال بالبيلوبونيز وحلفائهم ليجمع الأخبار ممن شهدوا الحرب.

ولقد استمرت فترة النفي زهاء عشرين عاماً وانتهت بسقوط أثينا عام ٤٠٤ق.م. ولايعرف متى توفي الرجل ولا كيف انتهت حياته على وجه التحديد ويرجح أنه مات بعيد عام ٤٠٤ق.م وهناك من يذهب إلى أنه قتل في الاضطرابات التي اندلعت بعد عام ٤٠٤ق.م، حيث تنقطع رواية تاريخه فجأة، وكان يريد أن يكمله ببحث أحوال أثينا وأثرها في الحرب ، فبقي مبحثه بلا تكملة أو خاتمة. وكان من يزور أثينا في

القرن الثاني الميلادي يرى ضريحه هناك.

يعدّ هذا التاريخ الأول في بابه وشموله من حيث اهتمامه بأحوال الحرب وتقلبات التحالفات وربطها بالمصالح الاقتصادية للدول، وإبراز أثر الصراع في مصائر الأمم، وعنايته بتنظيم الحرب ومستوياتها وتأثيرها في اقتصاد الدول وقوتها. كما كان صاحب الريادة في بحث أثر طبائع الأمم في الإستراتيجيات والتكتيك،على نحو ما عرض لسجايا الأثينيين والإسبارطيين في خوض الحرب والمناورة والموازنة بين هذين القطبين.

ولهذا كله عدّ هذا «التاريخ» من ضمن الكتب المئة الأساسية في الفكر الإنساني شأنه في ذلك شأن كتاب هيرودوت والإلياذة والأوديسة... ومازال حتى الآن مرجعاً أساسياً في مناهج الجامعات في الغرب، ومازال المترجمون يقدمونه في طبعات متوالية بمختلف اللغات، ولكن دون أن نجد له ترجمة في المكتبة العربية، فحملنا ذلك على النهوض بترجمة هذا الكتاب معتمدين على طبعة دار بنجوين عام ١٩٥٤م بترجمة ركس وارنر، ولقد واجهنا ما واجه المترجم الإنكليزي - وهو ذو باع طويل في الترجمة الإغريقية - من المشقة في نقل الكتاب إلى العربية، ومرده ما عرف به نص ثوسيديديس من صعوبة الأسلوب والتجريد البالغ، ولذلك عدّ الباحثون نصه أصعب من نصوص أفلاطون الفلسفية. وهذا ما دفعنا إلى بذل الجهد لتذليل هذه الصعوبة ما أمكن كي يخرج النص بلغة عربية واضحة تفي بما قصد إليه المؤرخ من تحقيق الفائدة.

وكان المترجم وارنر قد اجتزأ من النص بعض المقاطع ووضعها في هوامش، فوجدنا أن ذلك يفسد السياق ويثقل النص، فأرجعنا تلك المقاطع إلى مواقعها تيسيراً للقارئ. ولما كان«تاريخ الحرب البيلوبونيزية» وتاريخ هيرودوت يتكاملان وتتردد فيهما أسماء الشخصيات والبلدان نفسها، فقد حافظنا على رسم أسماء الأعلام والأماكن كما وردت في تاريخ هيرودوت طبعة «المجمع الثقافي».

ولمّا تضحتلنا مسالك الترجمة رجعنا إلى القائمين على« المجمع الثقافي »، إذ زنه المقصد الطبيعي،وهو الذي ينفرد بمشروعه الضخم لإصدار أمهات الأعمال في تراث الإنسانية، فوجدنا منهم كل اهتمام وترحيب،وخصوصاً سعادة الوكيل المساعد الأستاذ جمعة عبدالله القبيسي، الذي أحاطنا منذ البداية بالعناية والرعاية، فله منا تقديرنا وعرفاننا. وشكرنا الجزيل للسيد عادل العبيدلي نائب رئيس قسم النشر لما لمسناه من دماثة ولطف واهتمام.

وكان من حسن حظنا أن وجدنا في خبرة الوالد السيد عبد الإله الملاح ما جنبنا الكثير من مواقع الزلل بقراءته النص وتدقيق الترجمة، وأفدنا كذلك من مطالعة الوالدة السيدة عطاف مارديني وملاحظاتها النقدية أحسن الفائدة.

وجل ما نأمله بعد هذا أن نكون قد أدينا واجباً تجاه المكتبة العربية يلقي من قرائه حسن القبول.

دمشق، الروضة، خريف عام ٢٠٠٢م

دينا وعمرو الملاح

مقدمة

١- المؤرخ

كان الفيلسوف توماس هوبز من بين أوائل الذين تولوا ترجمة ثوسيديديس وأحد أعاظمهم. وقد كتب مخاطباً قرّاءه : "بالرغم من أن ثوسيديديس لم يكن يستطرد في الحديث ليلقي موعظة أخلاقية أو سياسية، وما كان يحاول أن يدخل إلى قلوب الرجال بأكثر مما تسمح به وقائع الأحداث، فهو أعظم مؤرخ سياسي على مر الزمن. وما دفعني إلى اعتباره كذلك أنه كان شديد الحرص في اختيار موضوعه والعناية بالتعبير (كما يقول بلوتارك) والتأني في إصدار الأحكام، ما جعل مستمعه شاهداً على الأحداث التي يرويها، ومن ذلك أنه يضع قارئه في اجتماعات الناس، ومجالس الشيوخ، وهم يتداولون شؤونهم، كما يجعله حاضراً مظاهرات الناس في الشوارع، وفي ساحات القتال حيث تدور المعارك."

إن ما أود التشديد فيه هو قول هوبز في وصف ثوسيديديس: إنه "أعظم المؤرخين السياسيين على مر الزمن." فباعتقادي أن ثوسيديديس في كتابه "تاريخ الحرب البيلوبونيزية" قد كتب أعظم مدوّنة في السياسة، بالمعنى الأوسع للكلمة – في أي وقت. وبقدر روعة رواياته عن المعارك والثورات، فإن الأهمية القصوى لتاريخه تتجلى في أنه حمل طابع عقله الناشط والممحص، والذي لا يستسلم للحظة واحدة ولا يحيد عن موضوعه بتأثير من إغراء الإثارة أو الرأي الشائع. ولا يقتصر ثوسيديديس على العناية بالصراع العسكري والروحي معاً بين أثينا وإسبارطة، بل نجده يعني أيضاً بالطبيعة البشرية ذاتها كما تعبر عن نفسها في العمل السياسي.

والحق أن ثوسيديديس يقدم في تاريخه أكثر مما يقوى الكثير من قراء التاريخ على استيعابه، وفي هذا نجد هوبز مضطراً للاعتراف: "وجدت معظم الناس يقبلون على قراءة

التاريخ بالحماس ذاته الذي كان أهل روما يحملونه وهم يشهدون المبارزات، فيسرون بمشهد الدماء أكثر مما يتمتعون بمهارة المتبارزين."

وفي إحدى المناسبات النادرة التي يتحدث فيها ثوسيديديس عن نفسه، كتب قائلاً: "لعل كتابي في التاريخ يبدو صعب القراءة لافتقاره إلى عنصر الرومانسية المشوقة. ولكن حسبي من ذلك – على كل حال –أن يجد في كلماتي فائدة أولئك الذين يسعون إلى استيعاب أحداث الماضي والتي سوف تتكرر في وقت من الأوقات في المستقبل، مادامت الطبيعة البشرية على ما هي عليه. إن كتابي هذا ليس بالكتاب الذي يلائم قراء اليوم؛ إذ قصدت به أن يدوم إلى الأبد".

لقد مضى نحو ألفين وخمسمئة سنة منذ أن خطت هذه الكلمات، وتحقق للكتاب الغاية التي أرادها له كاتبه، ومازال ينجز ما أراده له. وما زال الساعون إلى فهم صيرورة التاريخ يجدون كلماته "مفيدة". وهناك الكثيرون منا لا يرون ثوسيديديس مفيداً وحسب، بل يرونه كذلك فذاً لا يضاهيه أحد في مجاله؛ لأن لدى ثوسيديديس أكثر من مجرد "الموضوعية" التي يستحق عليها الإعجاب حقاً. ولئن ظل عقله الجبار لغزاً محيراً إلى حد بعيد، شأنه في ذلك شأن عقل بعض أعظم الكتاب (مثل هوميروس أو شكسبير)، فإنه يشق على كل من أمضى بضع سنوات في دراسته بشيء من الانتباه ألا يشعر تجاه هذا المؤلف الذي بلغ هذا القدر العظيم من النزاهة الفكرية بالإعجاب الكبير – الذي هو جدير به – وحسب، بل كذلك بشعور غريب من المودة والمحبة الشخصية؛ لأن ثوسيديديس ذاته ينطوي على مشاعر قوية، ولهذا فإن من الخطأ وصف بيانه بـ "الجفاف"، إنما الأقرب إلى الصحة ما قاله البروفسور ويد جيري بعبارات رائعة في وصف نثر ثوسيديديس: "يمتلك في عباراته دقة الشاعر واتحاد العاطفة والصدق".

كان ثوسيديديس محباً لأثينا ولزعيم الإمبريالية الديمقراطية الأثينية بيركليس. ولقد

رأى بوضوح كل الانتقادات التي كان يمكن أن توجه لأثينا من رعاياها ومن أولئك الذين يخشون توسعها، وقدمها لنا ببيان واضح جلي. والأدعى إلى التنويه بعد عرضه لنا كيف ظهرت الدعوة في أثينا - إبان الحرب - إلى إخضاع الأقوام الأخرى لحكمها، وطرحت لتمثل "الإنصاف" أو "النبالة على الأقل، وتم التعبير عنها - عبر منطق تطور الأحداث - بأشد الأساليب استخفافاً وازدراء بعقول الناس. لكن ذلك لم ينل قط من إيمانه بأثينا أيام بيركليس والمثال الذي تقدمه، ولم يتزعزع ذلك الإيمان الذي نشأ عليه، ولم يكن لينال منه الشك بأن القضية - وإن انتهت بالخسارة - جديرة بكل تضحية مهما تكن. ولا يملك المرء - حين يتأمل مآثر مدينته وما بلغته من إنجازات في غضون جيلين أو ثلاثة دونها إنجازات التاريخ كله - إلا أن يقر بصواب رأيه.

إن ثوسيديديس لم ير - قبيل وفاته - سقوط إمبراطورية أثينا فحسب، بل لاحظ كذلك أمراً أدعى إلى الفجيعة من خسارة الطاقة البشرية وضياع الثروات، ودونه لنا بعناية، ذلكم هو الانهيار الأخلاقي المطرد الذي أصاب عالم الإغريق المتحارب؛ فلقد رأى "المحررين" المنتصرين ينشئون نظاماً من القمع ليس فيه شيء من الفكر وروعة التنظيم الذي أطاحوا به، والذي لا يمكن أن يقال فيه سوى أنه كان أضعف من أن يصمد. ولئن كان حقاً أن تاريخ اليونان قد بدأ لتوه، وقدر للهيلينية خلال المئة سنة التالية أن تتوسع من النيل إلى نهر الهند الكبير، فإن تلك الحرب أتت على أمر لا يقدر بثمن؛ فضاع إلى الأبد.

هذا الحب المضطرم الذي كان ثوسيديديس يحمله لأثينا وإحساسه العميق بمأساة انحدارها ليست المشاعر "الشخصية" الوحيدة التي يكتشفها المرء في كتابه. فبقدر ما كان يعجب ببيركليس كان يمقت كليون . وإن نفوره الشديد من كليون ليحمل المرء على الإحساس بأن موقفه هذا ربما نال من صحة أحكامه - وإن كان هذا القول في حق ثوسيديديس ينطوي على جرأة كبيرة. ومع ذلك، فإنه يبدو أمراً لا يصدق أن يشغل

كليون منصباً ويتولى المسؤولية، إن كان على هذا القدر من الجبن والافتقار للكفاءة بالصورة التي قدمت لنا. كذلك نجد أن معالجته لموضوع نيسياس تلقي مزيداً من الضوء على طبيعة ثوسيديديس. فلو أن نيسياس لم يمض إلى صقيلية لمات قائداً طيب السمعة. ولكنه سلك في صقلية مسلكاً ربما كان حاسماً في خسارة أثينا الحرب. وقد رأى ثوسيديديس الوجهين فعرض لنا قائداً محترماً ومثيراً للشفقة في الوقت ذاته، وتناوله برفق، مبرزاً خصاله العظيمة التي تجلت في معالجة وضع يائس كان هو مسؤولاً عنه أصلاً إلى حد بعيد. ويمكن أن يكون ثوسيديديس هو أول من يسلم بأن الأخيار لا ينالون في الحياة دائماً ما يستحقونه، ومع ذلك فقد وجدناه يتأثر بالمصير الذي انتهى إليه نيسياس. كما يكشف عن مثل هذا القدر من الإنسانية حين يعرض للآلام التي نزلت بالأبرياء والمذنبين – على حد سواء – في تلك الحرب الطويلة القاسية. ثم إنه يتألم ويشعر بالذعر على وجه الخصوص من الوضع الذي يفقد فيه الدين والأخلاق والكرامة كل قوة لهم، مثلما حدث إبان الوباء الذي اجتاح أثينا، أو في أثناء الثورة التي قامت في كورسيرا. وهو يصف لنا ويحلل مثل هذه الأوضاع بدقة وعناية؛ ولكن لا العناية في الكتابة ولا الدقة في استخدام اللغة يمكن أن تخفي حدة العاطفة التي كانت تجيش في صدره وهو يعرض تلك الأحداث.

إن الصفات الإنسانية من إحساس بالشفقة، والاشمئزاز، والاحتقار، والإعجاب الشديد، والوطنية المتقدة، ظاهرة ماثلة في هذا المؤرخ "الموضوعي" و"العلمي" ، وتلكم خصال تزيد من دقة أحكامه ولا تخفف منها، وتوسع مجال بحثه ولا تحدّ منه.

ويا له من موضوع ذلك الذي تصدى له وهو مزود بتلك الخصال العظيمة من حدة الفكر وقوة المشاعر !. كانت تلك الحرب حرباً عظمى؛ عظمى في ذاتها وبالنتائج التي نجمت منها. كانت صراعاً ليس بين أثينا الديمقراطية الإمبريالية وأعدائها فحسب، وإنما

بين نهجين في الحياة متناقضين لا يحتملان التوفيق بينهما . فماذا لو أن أثينا كسبت الحرب وتحققت المطامع التي نسبت إلى ألسيبياديس؟ إننا لا نملك - طبعاً - سبيلاً إلى معرفة ما كان يمكن أن يحدث عندئذ، ولكن من المحتمل - على الأقل - أن تكون أثينا لا مقدونيا من تحمل الهيلينية إلى ضفاف نهر الإندس، وأن تكون امبراطورية أثينية لا رومانية هي التي تتولى تمدين سواحل أوربا، والقارة الأوروبية ذاتها .

ثوسيديديس ما كان يعنى - طبعاً - بمثل هذه التأملات، غير أنه كان يدرك أهمية الحرب التي يصفها . كما أنه أدرك ما وصور لنا بمهارة وبراعة المأساة والفاجعة في صراع لم يدر على الصعيد المادي وحسب بل على الصعيد الأخلاقي أيضاً . وكان إدراكه من الحدة ما جعل روايته هذه تبدو لنا أكبر من مجرد وصف حرب بين مدينتين إغريقيتين عريقتين؛ إنها رواية الحرب ذاتها، أو كل الحروب التي يتدخل في أمرها شيء من المبادىء . ولذلك لم يكن التاريخ آسراً في حد ذاته وحسب، وإنما لا بد أن يكون "ذا فائدة" - كما أراد ثوسيديديس - لينتفع به من يرى في التجربة عظة .

٢- حياته

ولد ثوسيديديس بن أورولوس نحو عام ٤٥٥ ق.م، وتوفي بعيد انتهاء الحرب نحو عام ٤٠٠ ق.م. وهو ينتمي إلى اسرة تملك حصصاً في منطقة المناجم في تراقية، وتتصل بالقائد العظيم والزعيم الأثيني سيمون، رئيس حزب المحافظين والموالين لإسبارطة، والذي بات بيركليس يناهضه ثم أطاح به .

كان ثوسيديديس شاباً في مقتبل العمر حين اندلعت الحرب سنة ٤٣١ ق.م، ولربما كانت له مشاركة في معاركها الأولى . وقد علمنا من أمره أنه ما بين عامي ٤٣٠ و٤٢٧ ق.م أصيب بالطاعون وكان من بين الناجين من ذلك الوباء . وعين بعدئذ قائداً عسكرياً سنة ٤٢٤ ق.م. ونظراً لصغر الأسطول الذي كان بحوزته فقد وصل بعد فوات الأوان ولم

يتمكن من إنقاذ مستوطنة أمفيبوليس الأثينية الهامة من الوقوع في قبضة القائد الإسبارطي براسيداس الذي تمكن بهجماته الفعالة وأساليبه الحاذقة وحسن تدبيره من الاستيلاء على المستوطنة، ومع أنه أفلح في الاستيلاء على مرفأ إيون القريب وصدَّ هجمات براسيداس عليه، فقد حكم عليه بالنفي لفشله في إنقاذ أمفيبوليس، ولم يعد من منفاه إلى أثينا إلا بعد عشرين عاماً، ولم تدم حياته بعد ذلك سوى أربع سنوات.

تثير حياة ثوسيديديس جملة من الأسئلة، منها: كيف أمضى سنوات المنفى؟ ومتى وضع مختلف أجزاء مؤلفه في التاريخ؟ وأي منها قام هو بتنقيحه، إن كان ذلك قد تم فعلاً؟ تلك أسئلة هامة وجديرة بالعناية، لكننا لا نملك إجابة شافية عنها. إلا أن هذه الحقيقة لم تحل دون الباحثين ومحاولة استخلاص إجابة ما، وإن لم يبلغ هؤلاء المشتغلون بثوسيديديس وتاريخه درجة إجماع الرأي. ومبلغ علمنا أن مؤرخنا أراد أن يبلغ بتاريخه سنة ٤٠٤ ق.م، ثم توقف عند شتاء ٤١١ ق.م. وإن أفضل عرض مختصر للقضايا التي تتصل بتأليف "التاريخ"، وأفضل الروايات عن ثوسيديديس ذاته ما يجده القارىء في مادة ثوسيديديس في قاموس The Oxford Classical Dictionary.

٣- الترجمة

إن في التصدي لترجمة تاريخ ثوسيديديس إلى الإنكليزية مشقة ومتعة، وتقتضي من صاحب المحاولة جرأة. والصعوبات هنا على وجوه عديدة؛ فالأمر لا يقتصر على قضاء الساعات الطوال في العمل، فهذا من طبيعة التاريخ الذي يتسم بالطول، بل ثمة مشكلة تتصل بأسلوب ثوسيديديس؛ فالبرغم من أن معانيه تتصف عادة - وليس دائماً - بالوضوح، إلا أنه يعبر عنها بأسلوب يصعب نقله إلى لغة أخرى؛ فالمرء قد يضيق أحياناً ببيان المؤرخ لما يبدو فيه من تكلف وصنعة، وإسراف في استخدام الطباق والجناس، أو فجاجة لا مبرر لها في بناء الجملة والنحو والصرف. ولكن القارىء سرعان ما يحترم هذه

الخصائص؛ لأنها من علائم عقل فذ يعبر عن أصالته وهو يعالج أفكاراً جديدة، وأصيلة، ومستنيرة. وهذا أسلوب – ربما فيه من إضاءات مفاجئة وما يتمتع به من قوة وعنفوان – لا يمكن أبداً – باعتقادي – أن ينقل إلى الانكليزية. بل إن التصدي لترجمة أعمال أفلاطون قد يكون أسهل من ذلك. أما المسرات التي تنطوي عليها الترجمة فحسبنا القول: إن من يحب مؤلفاً تطيب له صحبته.

وبالنسبة إلى جرأة المحاولة فإنها تقتضي منا قول بضع كلمات للدفاع عنها؛ إذ ثمة ترجمان ممتازتان لثوسيديديس بالإنكليزية. وسلف أن ذكرنا ترجمة هوبز، وهو أقدر من سواه بما يتمتع به من فكر يعينه على استيعاب عظمة النص وتذوق الأصل، ولا نجد في أسلوبه ركاكة في بناء الجملة أو ضعفاً، أو تهافتاً في المعنى والمبنى أو تردداً، وعهدنا بهوبز أنه حازم صارم. لكن مثلبه الوحيد افتقاره إلى الدقة، وهو أمر لا يمكن تفاديه، إلى حد بعيد، آخذين بعين الاعتبار الخطوات التي تحققت في ميدان نقد النصوص منذ أيام هوبز. وحري ببعض القراء في عصرنا أن يضيقوا بلغته التي يعود عهدها إلى القرن السابع عشر، أكثر من أن ينجذبوا إليها. ولعل من المشروع، إذن، أن نتمهل في المسير حيث لم يكن هوبز ليتردد غير أننا لا نملك إلا أن نعبر عن تقديرنا العظيم لفيلسوف كبير وصاحب بيان رائع وأحد أعاظم المترجمين.

وهناك بعد كرولي الذي صدرت ترجمته الممتازة سنة ١٨٧٦ م وواضح أنه كان هو أيضاً تحت تأثير هوبز. وكم من مرة كنت أرجع إلى هوبز لأستعين بعباراته – بعد أن أكون قد أمضيت وقتاً وأنا أقدح زناد الفكر محاولاً العثور على عبارة، إن لم تكن أفضل من عبارة كرولي، تكون على الأقل مناسبة للمقام – فأجد أنه قد خبر ما خبرت من المعضلات في معالجة النص، واستعان بعبارات الفيلسوف العظيم في القرن السابع عشر وفي مثل هذه الأحوال كنت أقتدي به، كما كنت أقتطف منه بعض عباراته، وأنا أشعر

بأنه ربما كان يود مني أن أنشد العون منه، مثلما أطمح أنا وتقر عيني إذا ما وجد مترجم ذات يوم ما ينتفع به من كلماتي وعباراتي. ولست أزعم بأني في ترجمتي هذه زدت على كرولي؛ فالحق أنه رجل دقيق العبارة، بينما لم يكن هوبز كذلك ثم إنه متحمل لمؤلفه شغوف به، ويتسم أسلوبه بالوضوح والسلاسة والجزالة. وإني لأقر له بدين عظيم قدر دين هوبز عليَّ، أما ترجمتي فلست أزعم أن لها فضيلة سوى الحداثة وهي فضيلة موضع جدل. وخير دليل على ذلك أن قِدَم العهد لم ينل من قيمة النص مع مرور أكثر من ثلاثمئة عام على الترجمة التي قدمها هوبز وثمانين عاماً منذ أن صدرت ترجمة كرولي. ومازال ثوسيديديس حياً، ولسوف يكون مدعاة للأسى إن حمل المرء سوء الفهم فأعرض عن قراءة تاريخ ثوسيديديس بدعوى قِدَمه وبعده عن العصر الحديث. وبعد، فلا بد لي من الإقرار بالتقدير للبروفسور كيتو، الأستاذ بجامعة بريستول، لفضله الكبير بقراءة (تجربة) الطباعة وتصويب الأخطاء واقتراحاته الثمينة.

ر.و.

تاريخ الحرب
بين أثينا وإسبارطة
لثوسيديديس الأثيني

الكتاب الأول

الفصل الأول : أهمية الحرب ، ضعف التأثير النسبي للماضي البعيد ، أهمية القوة البحرية ، مناهج التاريخ و غاياته

بدأت بتدوين هذا التاريخ لحظة اندلاع الحرب، لاعتقادي بأنها ستكون حرباً عظمى وأجدر بالتدوين من كل الحروب التي دارت في الماضي. وقد قام اعتقادي هذا على حقيقة أن كلا الطرفين فيها كان في ذروة قوته واستعداده، ورأيت فوق ذلك أن العالم الهيليني قد انقسم بين مؤيد لهذا الطرف أو ذاك بل حتى أولئك الذين لم يزجوا بأنفسهم في أتون الحرب منذ لحظة اندلاعها كانوا يجيلون النظر ويبحثون في الطرق التي سوف يسلكونها لاحقاً. وكانت تلك الحرب أعظم اضطراب يقع في تاريخ الهيلينيين، وامتد أثره فشمل جزءاً كبيراً من العالم غير الهيليني، حتى ليمكنني القول: إنه شمل البشرية كلها. ولئن تعذّر علي – بسبب بعد العهد– الإلمام بالتاريخ القديم أو حتى السابق لفترتنا، فإن الدلائل تحملني على الاستنتاج – بعد امعان النظر إلى أبعد فترة ممكنة من التاريخ – بأن تلك العهود لم تكن بالعهود العظيمة في فن الحرب أو غيره.

ويبدو لنا – على سبيل المثال – أن البلاد المعروفة اليوم باسم هيلاس لم تعرف في ماضيها القديم مستوطنات مستقرة؛ وإنما كانت عرضة لسلسلة من الهجرات من قبائل مختلفة هرباً من الغزاة الأقويْن منهم، وهذا ما جعلهم دائماً على استعداد لهجرة أوطانهم الأصلية. ولم تعرف تلك الأقوام التبادلات التجارية أو طرق المواصلات المأمونة، براً أو بحراً، وكانت زراعتهم تقتصر على إنتاج الضروريات لحياتهم، فلم يكن لديهم فائض لتكوين الرأسمال، ولا كانوا يعرفون الزراعة المنتظمة، وظلوا بلا نظام من الحصون يدفع عنهم الغزاة حين يهاجمونهم وينتزعون منهم أرضهم، وهكذا وجدناهم يقنعون بكفاف يومهم الذي يمكن تدبره في أية بقعة من الأراضي الواسعة، ولا يترددون في ترك بيوتهم،

ولذلك لم يتكلفوا عناء بناء المدن مهما يكن حجمها، أو امتلاك أي ثروة ذات شأن. وكانت تبدلات السكان على أشدها حيثما كانت الأرض أكثر خصباً، كالأرض المعروفة اليوم باسم ثيسالي وبويوطيا، ومعظم بلاد البيلوبونيز (باستثناء أركاديا) وسواها من الأراضي الأكثر خصباً في هيلاس. ذلك أنه كان من الأيسر على هؤلاء الناس امتلاك قوة أكبر مما هو متاح لجيرانهم وكان من شأن ذلك نشوء الشقاق الذي كثيراً ما أدى إلى انهيار تلك الدول، وهي التي كانت - على كل حال - تستدعي اهتمام الغزاة الأجانب أكثر من سواها.

ومن الجدير بالملاحظة أن أتيكا التي نجت من التفكك السياسي، بسبب فقر أرضها، كانت موطناً لنفس العنصر على الدوام. وهذا مثال هام للنظرية التي آخذ بها وهي أن الهجرة كانت السبب في اختلال العمران في كل مكان؛ ذلك أن أقوى الأقوام التي تطرد من أرضها في بلاد الإغريق بسبب الحرب أو الاضطرابات السياسية كانت تلجأ إلى أثينا لكونها مجتمعاً مستقراً، ثم يغدو هؤلاء مواطنين فيها، وسرعان ما يزيدون في عدد السكان وحجم المجتمع، وهذا يؤدي إلى ضيق أتيكا بسكانها؛ فترسل الكثير منهم لإقامة المستوطنات في إيونيا.

وثمة نقطه أخرى أجدها دليلاً قوياً على ضعف السكان الأوائل في البلاد، وهي أننا لا نملك سجلاً يفيد بقيام قوم هيلاس بأي عمل مشترك قبل حرب طروادة. والحق أنني أرى أن المنطقة بأسرها لم تكن يومذاك تعرف باسم "هيلاس". بل إن هذا الاسم لم يكن معروفاً قبل هيلين بن ديوكاليون أبداً. وكانت المناطق تعرف باسم العشائر المختلفة التي تسكنها، وكانت نسبة "البلاسجة" منهم هي الغالبة. وبعد أن ازدادت سطوة هيلين وأولاده في فثيوطيس وحالفتهم الدول الأخرى، وازدادت صلات تلك الدول بأسرة هيلين، بدأت كل منها بمعزل عن الأخرى تنسب إلى الهيلينية. لكن نسبة الهيلينية لم ترسخ وتطغى على التسميات الأخرى إلا بعد عهد طويل. ولعل أفضل دليل على ذلك

نجده عند هوميروس الذي لم يستخدم اسم الهيلينية في الإشارة إلى الجيش الذي سار إلى طروادة، فقد احتفظ بهذا الاسم لأتباع أخيل الذين قدموا من فثيوطيس، وكانوا في الواقع الهيلينيين الأصليين، ثم يستخدم في بقية قصائده اسم "داناويون" و"أرجوس" و"آخيون". بل إنه لا يستخدم حتى عبارة "الغرباء"، وسبب ذلك – في رأيي – أن الهيلينيين لم يكونوا قد عرفوا بعد بهذا الاسم، ولهذا عدّوهم شعباً قائماً بذاته ومنفصلاً عما يحيط به. أقصد بالـ "هيلينيين" أولئك الذين أخذوا الاسم مدينة بعد مدينة نتيجة للغة المشتركة فيما بينهم، وأولئك الذين أصبحوا جميعاً يعرفون فيما بعد بهذا الاسم المشترك. ولكن المهم في الأمر – على كل حال، أن هذه الدول الهيلينية كانت ضعيفة بذاتها وتفتقر إلى طرق النقل والاتصال بعضها ببعض، ولم يسبق أن كان لها نصيب من العمل المشترك قبل فترة حرب طروادة. وما كان لها في الواقع أن تتحد للاشتراك في الحملة على طروادة حتى توفرت لها معرفة بخوض المعارك في البحار أفضل مما كان لها في السابق.

كان مينوس حسب الرواية أول من أنشأ أسطولاً، وكانت له السيطرة على الجزء الأعظم مما يطلق عليه اليوم اسم "البحر الهيليني" – بحر ايجة – وكان يحكم سيكلاديس، وهو الذي عمر معظمها بالمستوطنات وأقام أبناءه حكاماً عليها بعدما طرد الكاريين. ولنا أن نفترض أنه قد بذل قصارى جهده لقمع القرصنة ليضمن الحفاظ على ما يبلغه من الموارد.

ففي تلك الأيام الخوالي – حين أصبح الانتقال بالبحر أيسر– غدت القرصنة كذلك مهنة شائعة عند الهيلينيين والأجانب الذين يسكنون الساحل والجزر. وكان قادة القراصنة قوماً ذوي بأس وسطوة امتهنوا القرصنة ليجنوا لأنفسهم المكاسب ويؤازروا الضعفاء من قومهم، وكان هؤلاء القراصنة يهاجمون المدن التي ليس لها أسوار تحميها، والتي لا تزيد في الواقع عن مستوطنات متناثرة، وبذلك يكسبون رزقهم بنهب مثل هذه

الأماكن، وكانت هذه المهنة تعدّ يومذاك مهنة شريفة، وليس فيها ما يضير صاحبها. ومازالت هذه النظرة شائعة حتى في يومنا هذا، ويأخذ بها بعض سكان البر الذين يعتبرون القرصنة سبباً للفخر والاعتزاز كذلك نطالع عند الشعراء القدامى السؤال المعتاد الذي يطرح على القادمين بطريق البحر: "هل أنتم من القراصنة؟" ولم يكن ليخطر ببال أحد أن في هذا السؤال إحراجاً لمن يُسأل؛ فيتفادى الإقرار بحقيقة أمره، أو أن السائلين يقصدون التأنيب بسؤالهم.

كان السلب والسطو المسلح في البر شائعين وما زال الكثير من بلاد هيلاس على هذا النهج في الحياة إلى يومنا هذا – ومن الأقوام التي تأخذ بقطع الطرق على سبيل المثال الأوزوليون اللوكريون والآيتوليون والأكارنان وسواهم من أهل البر في تلك النواحي. ومازالت عادة حمل السلاح شائعة بين هذه الأقوام ورثوها من العهود التي كان فيها السطو سائداً؛ ففي وقت مضى – حين كانت البيوت غير محمية وطرق النقل غير مأمونة في هيلاس كلها– دأب الناس على حمل السلاح في كل مناسبة، وأصبحت هذه العادة الآن شائعة بين الأغراب. أما أن الأقوام الذين ذكرت أنهم مازالوا على هذا النهج، كما كانوا في القديم فدليل على أن حمل السلاح كان القاعدة في هيلاس كلها.

كان الأثينيون أول من تخلى عن عادة حمل السلاح والأخذ بنهج في الحياة أكثر سهولة ورخاء. والواقع أن الشيوخ في الأسر الثرية ذات الذوق المترف لم يقلعوا إلا مؤخراً عن ارتداء الملابس الداخلية من الكتان وربط شعورهم خلف رؤوسهم بحلي من الذهب، وانتقلت هذه العادات إلى أهلهم في أيونيا، وظلت شائعة بينهم ردحاً من الزمن. أما الإسبارطيون فهم أول من بدأ باللباس البسيط الذي يتفق وذوقنا الحديث، حيث يسلك الأغنياء سلوكاً أقرب إلى حياة الناس العاديين. وكانوا أيضاً أول من مارس الألعاب الرياضية وهم عراة، فكانوا يخلعون ملابسهم أمام الجميع، ويدلكون أجسادهم بزيت

الزيتون بعد الانتهاء من تمارينهم الرياضية. بينما كان الرياضيون في القديم - حتى أثناء الألعاب الأولمبية - يرتدون ما يستر عوراتهم، والحق أن هذا النهج ظل شائعا حتى عهد غير بعيد. ومازال الكثير من الغرباء - وخاصة في آسيا - يرتدون هذه الستور في مباريات الملاكمة والمصارعة. وللمرء أن يستشهد في الواقع بعدد من الأمثلة حيث تذكَر عادات الغرباء اليوم بنهج الناس في العالم الهيليني القديم.

وفي العهود المتأخرة شيدت المدن على نحو يختلف عما كان مألوفاً؛ ذلك أن شيوع السفر في البحر وازدياد المحاصيل والسلع وتخزينها فرض بناء مدن جديدة وراء أسوار تحيط بها على السواحل، وتم احتلال البرازخ لأسباب تتعلق بالتجارة والدفاع عن الممتلكات في وجه القوى المجاورة لها. وكان شيوع القرصنة في القديم قد فرض بناء المدن في الجزر والبر بعيداً عن البحر، ومازالت تلك المدن القديمة في مواقعها الأصلية إلى اليوم؛ لأن القراصنة لم يكتفوا بنهب بعضهم بعضاً بل نهبوا كل من يصادفونه على امتداد السواحل سواء كان مبحراً أم مقيماً .

وكانت القرصنة شائعة في الجزر بين الكاريين والفينيقيين الذين كانوا في الواقع قد استوطنوا معظمها. وهذا ما ثبت أثناء الحرب الراهنة، حين قام الأثينيون بتطهير ديلوس من سكانها ونبشوا القبور في الجزيرة، وكان أكثر من نصف القبور للكاريين، كما يستدل من الأسلحة المدفونة مع الموتى وطريقة الدفن التي مازالت تمارس في كاريا إلى اليوم. لكن المواصلات البحرية تحسنت منذ أن أنشأ مينوس أسطوله وأرسل المستوطنين إلى معظم الجزر وطرد عتاة القراصنة؛ فأتاح لأولئك الذين يعيشون على السواحل فرصة للكسب وجمع الثروات والعيش بصورة أقرب إلى الاستقرار. وأخذ بعض هؤلاء يبنون الأسوار حول مدنهم بفضل ما توفر لهم من الرخاء والثروة الجديدة، بينما قنعت أضعف الأقوام - بسبب تلك الرغبة العامة في كسب الثروات - بحكم الأقوى علها تفيد منه،

أما تلك الأقوام التي اكتسبت القوة بفضل ما جنت من الثروات فقد عمدت إلى إخضاع المدن الصغرى وأحكمت سيطرتها عليها. وعلى هذا النحو كانت هيلاس قد نمت حين قامت الحملة على طروادة.

لا ريب في أن أجاممنون – على ما يبدو لي – كان أقوى الحكام في زمانه؛ وهذا ما حمله – في رأيي – على إنشاء الجيش والمسير به إلى طروادة، وليس لأن من يطلبون هيلين سيتبعونه بحكم قَسَمهم أمام تينداريوس. وتذهب الرواية الموثوقة في البيلوبونيز إلى أن بيلوبز قدم من آسيا حاملاً معه ثروة طائلة، وبما أنه استقر في أرض فقيرة، فقد تحققت له سطوة بالغة جعلت الأرض كلها تنسب إليه، بالرغم من أنه كان غريباً فيها. وأصبح أبناؤه أكثر غنى منه. وكان أوريسثيوس قد قتل في أتيكا على يد أبناء هيراكليس، وكان قبل خروجه قد عهد بميسينا وحكمها إلى خاله أتريوس، الذي كان والده قد نفاه بسبب قتله خريسيبوس. فلما لم يرجع أوريسثيوس تولى أتريوس – الذي عرف عنه القوة والبأس، الحكم بناء على طلب أهالي ميسينا، وبذلك أصبح ملك ميسينا وكل الأراضي التي كانت تحت حكم – أوريسثيوس. وهكذا طغى سلطان أبناء بيلوبز على أولاد برسيوس. وكانت تلك هي الإمبراطورية التي ورثها أجاممنون، وكان لديه في الوقت ذاته أسطول أقوى مما توفر لأي حاكم آخر وهكذا كان للخوف – في رأيي – دور أعظم من الولاء في قيام الحملة على طروادة. ويبدو أنه كان بإمرة أجاممنون – إذا أخذنا برواية هوميروس – عدد من السفن لم يتوفر مثله لأي حاكم آخر، بالإضافة إلى أنه زود الاركاديين في الوقت ذاته بأسطول آخر. وقد وصف هوميروس الملك الذي ورثه أجاممنون بقوله: **ملك آرجوس كلها والكثير من الجزر**

ولما كانت قوته تقوم على اليابسة، فلا يمكن أن تمتد سلطته إلى الجزر، باستثناء بعضها القريبة من الساحل، إلا إذا كان بحوزته أسطول ضخم. ولنا أن نستخلص من

هذه الحملة نتائج معقولة من الحملات الأخرى السابقة.

لا ريب أن ميسينا كانت منطقة صغيرة، والعديد من المدن في ذلك العهد، قد تبدو لنا اليوم بعيده عن المهابة والجلال اللذين عرفت بهما سابقاً؛ ومع ذلك، فليس هذا بالدليل الجيد لرفض وصف الشعراء ورواة السير للحملة وحجمها. فلو تصورنا - مثلاً - أن إسبارطة قد هجرها أهلها ذات يوم، ولم يعد فيها إلا المعابد وأساسات المباني، فأحسب أنه سوف يشق على الأجيال القادمة أن تصدق ما كان يقال عن هذا البلد من القوة والجبروت. ومع أن إسبارطة لا تشغل من مساحة منطقة البيلوبونيز سوى الخُمسْين، لكنها لا تتزعم بلاد البيلوبونيز بأكملها وحسب، بل إن نفوذها يمتد إلى الكثير من الحلفاء خارج حدودها أيضاً. ولما كانت المدينة تفتقر للتخطيط المنظم وليس فيها معابد أو صروح على أي قدر من الروعة - إذ إنها ليست سوى مجموعة من القرى اجتمع بعضها إلى بعض على النهج الهيليني القديم - فإن مظهرها لا يتفق مع التوقعات. ومن جهة أخرى، لو أن مثل هذا حدث لأثينا لحسب الناظر أن لها من القوة ضعف ما كان لها في الحقيقة.

لذلك لا يحق لنا أن نحكم على المدن بمظهرها، بل يجدر بنا أن نحكم عليها حسب قوتها الحقيقية، وليس ثمة سبب يحملنا على عدم اعتبار الحملة على طروادة أضخم الحملات التي عرفت في الماضي. والحقيقة - كذلك - أن تلك الحملة دون الحملات التي جرت في الحروب الحديثة. وهناك ما يحملنا على التردد في محض الأرقام التي يوردها هوميروس الثقة التامة، فلعلّه قد استسلم لفن الشعر؛ فبالغ وضخم. ولكن إذا ما سلمنا بصحة ما قاله هوميروس، فإن القوات التي كانت بإمرة أجاممنون كانت دون حجم القوات التي نعرفها اليوم. ويذكر هوميروس أن عدد السفن كان ١٢٠٠ سفينة، وأن على متن كل سفينة بويوطية ١٢٠ بحاراً، وطاقم البحارة الفيلوكتيتيين ٥٠ بحاراً لكل

سفينة. وقد قصد هوميروس بتقديم هذا الوصف - على ما أظن - أن يعطينا الحدين الأعلى و الأدنى لمختلف مجموعات السفن. غير أنه لا يقدم لنا أرقاماً عن عدد البحارة على ظهر السفن الأخرى. وكان البحارة لا يكتفون بالتجديف بل يحاربون في صفوف الجيش أيضاً، على نحو ما هو واضح في المقطع الذي يتحدث فيه هوميروس عن سفن الفيلوكتيتيين، إذ يصف البحارة الذين يقومون بالتجديف و لكنهم يصبحون رماة إذا ما استدعى الأمر ذلك. ولست أحسب أنه كان في الأسطول عدا الملوك وكبار القادة الكثير من الرجال من غير البحارة و يصدق هذا خصوصاً إذا كان على أولئك الرجال قطع البحر، حاملين معهم تجهيزاتهم في سفن لا مقدمة لها، و إنما بنيت على النمط القديم المعهود في سفن القراصنة. فإذا حسبنا المتوسط بين أضخم السفن و أصغرها، لوجدنا أن تلك الأرقام ليست بالضخمة، آخذين بالاعتبار أن تلك القوة تعكس جهداً شاركت فيه بلاد هيلاس كلها.

إن السبب في ذلك لا يعود إلى قلة الموارد البشرية بل إلى قلة المال؛ إذ إن شحّ المؤن فرض تخفيض أعداد المشاركين في الحملة إلى الحد الذي يسمح لهم بالعيش بما يتوفر في الأرض التي يقاتلون عليها. و حتى بعد النصر الذي تحقق لهم بعد نزولهم إلى اليابسة - واضح أن النصر قد تحقق للإسبارطيين، وإلا لما أقاموا حول معسكرهم التحصينات إتقاء لهجمات محتملة يقوم بها العدو - لا يبدو أنهم دخلوا الميدان بكامل تعدادهم؛ بل إنهم بدلاً من ذلك شرعوا بزراعة أرض خيرسونيز والسلب والنهب تعويضاً من قلة المؤن. وكان من شأن تشتت قواتهم على هذا النحو أن تمكن الطرواديون من الصمود طوال عشرة أعوام، طالما كان الوضع يسمح لهم بالتفوق دائماً لدى تعاملهم مع تلك الأقسام من جيش الإغريق التي كانت تبقى في الميدان. أما لو أن أجاممنون كان يتمتع بوفرة من المؤن حين نزل في تلك المنطقة، واستمر في استخدام كامل القوات المتوفرة لديه، وشن الحرب دونما انقطاع، ودون التوقف للنهب والسلب وزراعة الأرض، لتيسر له النصر

بسهولة، كما هو واضح من تغلبه على الطرواديين حين كان يزج بما يتوفر له من القوات حتى ولو لم يكن الجيش بأكمله. فلو أنهم قاموا بأعمال الحصار فور نزولهم لأمكن لهم الاستيلاء على طروادة في وقت أقصر وبجهد أقل. والواقع أنه كما كان شح الأموال السبب في صغر شأن الحملات السابقة حقاً، كذلك كان الأمر في هذه الحملة أيضاً، رغم أنها فاقت سابقاتها شهرة، ولسوف نجد عند التمحيص في حقيقة أمرها بالشواهد والأدلة، أنها لم تكن بالأهمية التي ظهرت عليها والتي ما يزال الإعتقاد بأنها كذلك سائداً بوحي من الشعراء.

كانت بلاد هيلاس – حتى بعد ما وضعت حرب طروادة أوزارها – في حالة من القلق والهياج ما دفع الأقوام إلى تغيير أماكن استيطانها بشكل دائم، وهكذا لم يكن أمامها أية فرصة للنمو في سلام. كذلك كان قد انقضى زمن طويل قبل أن يعود الجيش من طروادة، وهذه بذاتها أدت إلى تغييرات كثيرة. وعم الصراع بين الأحزاب في المدن كلها تقريباً، وأسس أولئك المنفيون مدناً جديدة. وبعد ستين سنة من سقوط طروادة، أخرج الثيساليون البويوطيين من آرنة، فاستقروا في الأرض التي تعرف الآن باسم بويوطيا، وكانت تعرف من قبل باسم كادميس – كان قسم من القوم قد استوطنوا بويوطيا قبل هذا الوقت، وانضم إليهم بعض الذين شاركوا في الحملة على طروادة –. وبعد عشرين سنة غدا الدوريون ومعهم أحفاد هيراكليس سادة البيلوبونيز.

وهكذا مرت سنوات عديدة واجهت خلالها بلاد هيلاس مصاعب كثيرة قبل أن تتمتع بأي قدر من السلام أو الاستقرار، وتحظى بانتهاء عهد ارتحال الأقوام. ثم جاءت بعدئذ فترة إقامة المستعمرات؛ فاستعمر الأثينيون أيونيا ومعظم الجزر، وقام البيلوبونيز بتأسيس المستعمرات في إيطاليا وصقلية، وبعض الأجزاء الأخرى من بلاد هيلاس، وهذه المستوطنات جميعها قامت بعد حرب طروادة.

كان نظام الحكم القديم يقوم على الملكية الوراثية وفق حقوق وواجبات معينة، لكن لما ازدادت بلاد هيلاس قوة وازدادت أهمية المال للدول، فشا الاستبداد في كل المدن تقريباً، وازدادت الضرائب وازدهرت صناعة السفن، واتجهت المطامح إلى امتلاك القوة البحرية.

ويعتقد أن الكورنث كانوا أول من أخذ بالأساليب الحديثة - قليلاً أو كثيراً - في بناء السفن، ويقال: إن أول السفن الثلاثية المجاذيف المصنوعة في هيلاس نزلت البحر في كورنثة. وأمينوكليس الكورنثي هو الذي صنع على ما يبدو سفن ساموس الأربع. وقبل ثلاثمئة عام - من نهاية الحرب التي نتحدث عنها - رحل أمينوكليس إلى جزيرة ساموس. وقد دارت أول معركة بحرية معروفة بين كورنثة وكورسيرا، قبل مئتين وستين سنة.

كانت كورنثة الواقعة على برزخ كورنثة مركزاً تجارياً هاماً منذ أقدم العصور، وإن كانت حركة النقل تجري على البر أكثر منها في البحر. وقد فرض موقعها أن يتم الاتصال بين الذين يعيشون داخل البيلوبونيز والذين يعيشون خارجها عبر كورنثة فكان أن قويت شوكتها بفضل ما تحقق لها من الثروات، كما يتبين من صفة "الغنية" التي ألصقها الشعراء الأقدمون باسمها. ولما شرع الإغريق بارتياد البحر أسرع الكورنث إلى بناء أسطولهم وقمع القرصنة، وأفادوا من عوائد المرور البرية والبحرية المتحققة من قدرتهم على توفير التسهيلات التجارية؛ فأكسبوا مدينتهم قوة وبأساً.

ولقد تبعهم الأيونيون فأصبحوا فيما بعد قوة بحرية عظيمة. وكان ذلك في أيام أول ملوك الفرس قورش، ثم ابنه قمبيز. والحق أنهم كانوا أثناء قتالهم قورش سادة البحر الأيوني، وظلت لهم السيادة لفترة من الزمن.

ثم فرض بوليكراتيس - طاغية ساموس - سلطانه بفضل قوته البحرية؛ فاستولى على

عدد من الجزر منها رينيا التي خصّها أبولو الديلياني. كذلك استطاع الفوكيون، حين كانوا يؤسسون مرسيليا، أن يهزموا القرطاجيين في معركة بحرية.

تلكم هي أعظم القوى البحرية الكبرى في الماضي، لكن تلك الأساطيل العظيمة لم تكن تضم الكثير من السفن الثلاثية المجاذيف، حتى بعد انقضاء عدة أجيال منذ أن وضعت حرب طروادة أوزارها، فيلوح أنها كانت ماتزال تتألف كما في الماضي من القوارب الطويلة ذات الخمسين مجذافاً. وأول من استخدم السفن الثلاثية المجاذيف هم طغاة صقلية والكورسير، وكان هذا قبل قيام الحرب مع فارس وموت داريوس الذي خلف قمبيز في ملك فارس. وعهدنا أنه لم يكن في هيلاس أية قوة بحرية ذات شأن قبل حملة أحشويرش، ولعل أثينا وإيجينا مع بعض الدول الأخرى كان لديهما ما يشبه الأساطيل، لكنها كانت تتألف من القوارب ذات الخمسين مجذافاً. وفي نهاية هذه الفترة - حين كانت أثينا في حرب مع ايجينا، وكان غزو القوات الأجنبية متوقعاً - استطاع ثيميستوكليس إقناع مواطنيه الأثينيين ببناء السفن وبها خاضوا معركة سلاميس ضد الفرس، ولكن حتى هذه السفن لم يكن قد اكتمل بناء سطوحها بعد.

وهذه الأساطيل الهيلينية - على كل حال - كانت مصدر قوة عظيمة لمختلف القوى البحرية، سواء في الماضي البعيد أم في العهود اللاحقة، بالرغم من أنها كانت على النحو الذي وصفته؛ ذلك أنها أتت بالعوائد الكبيرة، وكانت الأساس الذي قامت عليه الإمبراطورية. فبالعمل العسكري في البحر هزمت الجزر وتم الاستيلاء عليها، وكان أصغرها أول من سقط. فليس ثمة حرب برية انتهت بقيام إمبراطورية. وجلّ ما كان على الأرض مجرد مناوشات على الحدود ولم تجرد حملة برية أراد منها أصحابها قهر قوة أخرى، كذلك لم تقم تحالفات بين دول صغيرة بزعامة قوى كبرى، ولم تقم الدول الصغرى بتشكيل أحلاف لخوض الحرب على أساس من المساواة بين أعضائها. وكانت الحروب مجرد أحداث محلية بين جيران. وأقرب توجه إلى العمل المشترك هو ما كان في

الحرب القديمة بين خالكيس وإيرتريا، التي انضمت فيها الدول الأخرى في العالم الهيليني إلى جانب هذا الطرف أو ذاك في القتال الدائر بينهما.

لقد واجهت مختلف الدول عوائق مختلفة في مسار تطورها؛ فكان الأيونيون - على سبيل المثال - قوة امتازت بسرعة صعودها لكن الملك قورش وقومه الفرس، بعدما أزاح كرويسوس من طريقه - غزا الأرض بين نهر خالص والبحر، وضم المدن الايونية على البر إلى الإمبراطورية الفارسية. وفيما بعد قام داريوس - بمساعدة الأسطول الفينيقي - بإخضاع الجزر أيضاً.

في الدول الهيلينية التي يحكمها الطغاة كان الشاغل الأول والدائم للطاغية الاهتمام بنفسه، وسلامته الشخصية، وعظمة أسرته. ولهذا كان الأمن المبدأ الأساسي في سياسة تلك الحكومات، ولم يعرف عنها أنها أتت بعمل عظيم . والحق أن هذه الحكومات لم تتجاوز في مسالكها نطاق مصالحها المحلية، أما طغاة صقيلية الذين اتسع سلطانهم كثيراً، فكانوا استثناء لهذه القاعدة. وهكذا كانت الأحوال في بلاد هيلاس لا تدع مجالاً لأي مجموعة من القوى للقيام بأي أمر ذي شأن حتى إن المدن المنفردة بقيت خاملة.

وفي النهاية قضى الإسبارطيون على الطغيان في بقية أنحاء بلاد الإغريق التي عانت حكم الطغاة فترة أطول مما عانته أثينا. حين استقر الدوريون في إسبارطة شاع الاضطراب السياسي الذي استمر لفترة طويلة، ومع ذلك فإن دستور إسبارطة كان يعود إلى عهد قديم ولم تخضع لحكم الطغاة أبداً. واستمر القوم على نظام الحكم الذي ألفوه منذ أكثر من أربعمئة عام بعد نهاية الحرب الأخيرة، ولم يكن هذا مصدر قوتهم الداخلية فحسب، بل أتاح لهم التدخل في شؤون الدول الأخرى أيضاً.

عندما دارت معركة الماراثون بين الفرس والأثينيين، لم تكن قد انقضت سنوات طويلة

على سقوط أنظمة الطغيان في بلاد هيلاس. وبعد هذه المعركة بعشر سنين عاد العدو بأسطول ضخم يقصد غزو هيلاس، وفي لحظة الخطر هذه تولى الإسبارطيون قيادة تحالف القوى الهيلينية، باعتبارهم القوة الكبرى بين هذه القوى. وكان قرار الأثينيين أمام هذا الغزو هجر مدينتهم، فهدموا بيوتهم ولجؤوا إلى سفنهم، وأصبحوا قوماً من البحارة. وأمكن دحر هذا الغزو الخارجي بتضافر جهود الجميع، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى انقسم الهيلينيون - الذين تحالفوا في أثناء الحرب والذين ثاروا فيما بعد على ملك الفرس - إلى فئتين، إحداهما تبعت أثينا والتحقت الأخرى بإسبارطة. وكانت هاتان أقوى الدول بلا ريب؛ إحداهما أقوى الدول البرية والأخرى أقوى الدول البحرية. ولقد ظل التحالف بينهما الذي قام في زمن الحرب متماسكاً لبعض الوقت، ثم مالبث الصراع أن احتدم ودارت الحرب بين أثينا وإسبارطة، وإلى جانب كل منهما حلفاؤها، ثم انضمت بقية الدول الإغريقية التي كانت تشغلها من قبل الخلافات بين بعضها البعض، إلى هذا الجانب أو ذاك. ومع أن الفترة ما بين نهاية حرب فارس حتى بداية الحرب البيلوبونيزية قد تخللتها بعض الفترات من السلم، إلا أن القوتين الكبيرتين كانتا على العموم إما في حرب مع بعضها مع بعض أو تعملان في قمع ثورات حلفائهما، ونتيجة لتلك الأوضاع كانتا على درجة عالية من الاستعداد العسكري، واكتسبتا خبرتهما الحربية في مدرسة معايشة الخطر القاسية.

لم يفرض الإسبارطيون على حلفائهم دفع ضريبة، لكنهم حرصوا على أن تتولى حكمهم أقلية حاكمة - اوليجاركية - ترعى مصلحة إسبارطة. ومن جهة أخرى فقد استولت أثينا مع مرور الزمن على أساطيل حلفائها - عدا خيوس وليسبوس - وفرضت عليهم المساهمة بالمال بدلاً من دفع الضريبة. وهكذا توفر لأثينا وحدها من القوات لخوض الحرب ما لم تبلغه القوى المتحالفة حين كانت بكامل قوتها.

ولا بد من الاعتراف - عند تفحص تاريخ الماضي، واستخلاص النتائج التي توصلت إليها، بأنه ليس بوسع المرء الاعتماد على كل تفصيل بلغنا بالرواية؛ ذلك أن البشر يجنحون إلى التسليم بالروايات المتداولة عن العهود الماضية دونما تمحيص ونقد حتى حينما تكون تلك الروايات تتصل بأوطانهم؛ فمعظم أهل أثينا، مثلاً يحملون الانطباع بأن هيباركوس المقتول بيد هارموديوس وأرسطوجيتون كان طاغية يومذاك، ولا يدركون أن هيبياس كان أكبر أبناء بيزيستراتوس والمقدم بينهم، وأن هيباركوس وثيسالوس هما أخواه الأصغران. وما حدث هو التالي: في نفس اليوم المحدد لتنفيذ المؤامرة للقضاء على هيبياس، بل في اللحظة الأخيرة توفرت الأسباب لهارموديوس وأرسطوجيتون للاعتقاد بأن سرهما قد افتضح لهيبياس بوساطة بعض المتآمرين؛ ولذلك فضلا الابتعاد عنه، إلا أنهما آثرا القيام بعمل مؤثر قبل اعتقالهما فعمدا إلى اغتيال هيباركوس حين صادفاه في الليوكوريوم وهو يقوم بتنظيم احتفال الأخوة الأثيني. وقد يقع بقية الهيلينيين أيضاً في الوهم في أمور لا تقتصر على الماضي وحسب، بل بما يتصل بأحداث التاريخ المعاصر أيضاً، ومن ذلك الاعتقاد الشائع بأن لكل ملك من ملوك إسبارطة صوتين، بينما الحق أن للملك صوتاً واحداً وكذلك من المعتقد أيضاً أن لدى الاسبارطيين فوجاً من الجنود يسمونهم "بيتان". ولكن هذا الفوج لا وجود له. ومعظم الناس لا يكلفون أنفسهم، في الواقع، عناء البحث عن الحقيقة، بل إنهم أشد نزوعاً للقبول بما يبلغ أسماعهم.

وعلى كل حال، فإنني أرى أن المرء لا يخطىء كثيراً إن قبل بالنتائج التي توصلت إليها باستقراء الدلائل التي بسطتها أمامه؛ ذلك أن الدلائل التي أقدمها أفضل من روايات الشعراء الذين يبالغون في تضخيم موضوعات قصائدهم، أو رواة التاريخ الذين لا تعنيهم الحقيقة بقدر ما يعنيهم اهتمام جمهورهم بما يروون، بالإضافة إلى أنه لا يمكن التحقق من مصادر رواياتهم بعد مرور الزمن واختلاط الرواية بسيل من الأساطير. ولنا أن نزعم عوضاً من ذلك بأننا لم نأخذ إلا بأبسط الأدلة، وبلغنا استنتاجات هي إلى الدقة

أقرب، علما بأننا كنا نتصدى لتاريخ قديم. أما هذه الحرب الراهنة - وإن جنح الناس إلى اعتبارها أعظم الحروب بسبب مشاركتهم فيها، ثم عادوا بعد أن تضع أوزارها إلى إعجابهم بالماضي - فإن المرء إذا نظر إلى الحقائق ذاتها، فسيرى فيها أعظم الحروب قاطبة.

ولقد أفدت في هذا التاريخ من مجموعة من الخطب التي أُلقي بعضها قبيل نشوب الحرب وبعضها في أثنائها. وعانيت في هذا صعوبة استذكار ما سمعت من العبارات على وجه الدقة أو ما بلغني من الرواة الذين عانوا نفس الصعوبات التي عانيتها؛ لذلك كان منهجي أن أدع المتحدثين يروون ما يتفق وسياق الأحداث، وظللت ملتزماً قدر المستطاع بالمعنى العام للكلمات التي استخدمت.

أما فيما يتصل برواية أحداث الحرب كما وقعت فقد اتخذت مبدأ ألا أدون أول قصة تبلغني وألا أجعل انطباعاتي العامة دليلي، وكنت لا أروي إلا الأحداث التي شهدتها بنفسي أو كانت من رواية الشهود العيان بعد التمحيص والتدقيق قدر المستطاع. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أن الحقيقة سهلة المنال؛ إذ إن رواية حادثة معينة قد تأتي بأشكال مختلفة باختلاف رواتها، فالمرء قد ينحاز إلى هذا الجانب أو ذاك في واقعة معينة، أو يختلط أمرها على الذاكرة. ولربما وجد المرء صعوبة في قراءة هذا التاريخ لجفاف مادته وافتقاره للعاطفية والتشويق. ولكن حسبي من ذلك - إن كان من ينشد فهم الأحداث ووقائع الماضي، والتي سوف تتكرر بالطرق ذاتها تقريباً ، وذلك مما ألفناه في طبيعة البشر - أنه وجد كلماتي مفيدة؛ فإنني لم أقصد بهذا العمل استرضاء الناس في زماننا وإنما أردت له الدوام إلى الأبد.

كانت الحرب الفارسية أعظم حروب الماضي، ومع ذلك فقد حسمت بسرعة بنتيجة معركتين بحريتين ومثلهما على البر. أما الحرب البيلوبونيزية فإنها لم تستمر طويلاً وحسب، بل أنزلت - مادامت رحاها دائرة - عذاباً ومعاناة لم تعرف بلاد هيلاس لهما

مثيلاً من قبل. وآية ذلك العدد العظيم من المدن التي سقطت فيها، ثم نالت من العسف والترويع ما لم يسبق أن عرفت البلاد مثلهما في الماضي، سواء بفعل الجيوش الأجنبية أو على يد القوى الهيلينية ذاتها. فبعد أن سقطت بعض المدن تم توطين سكان جدد فيها. ولم تشهد البلاد مثل أعمال الترحيل هذه كما خبرتها في هذه الحرب، ولا عرفت مثل هذا العدد الكبير من الضحايا في ساحات القتال والثورات الداخلية أيضاً. وما كان يروى من أحداث رهيبة وخراب عظيم في الماضي بات يجد مصداقاً له في واقع اليوم، ومن ذلك الخراب الكبير الذي نزل بمناطق شاسعة بفعل الهزات الأرضية وتكرار كسوف الشمس كما لم يعرف من قبل، ثم شيوع الجفاف والقحط وما يعقبهما من مجاعة، وهناك بعد وباء الطاعون وما أتى به من موت للناس أكثر من أي سبب آخر. وقد نزلت هذه المصائب كلها مجتمعة ببلاد هيلاس بعد اندلاع الحرب.

اندلعت الحرب حين خرق الأثينيون والبيلوبونيز هدنة الثلاثين عاماً التي قامت بعد الاستيلاء على يوبوية. وفيما يتصل بالأسباب التي حملت أطراف النزاع على خرق الهدنة فإنني أعتزم أن أعرض أولاً شكاوى كل طرف من الطرف الآخر، وإيراد أمثلة محددة من اصطدام مصالحهما؛ وذلك لتبديد الشكوك من العقول حول دوافع هذه الحرب الكبرى التي نزلت بالهيلينيين. وبالنسبة للسبب الحقيقي لاندلاع هذه الحرب فإنني أرجح أنه يتخفى وراء مثل هذه الحجة. إن الذي فرض تلك الحرب وحتم وقوعها هو تنامي قوة أثينا وما كان لذلك من وقع على إسبارطة. وأما أسباب خرق الهدنة وإعلان الحرب التي صرح بها كل من الطرفين فهي مايلي:

الفصل الثاني : النزاع على إبيدامنوس

تقع مدينة إبيدامنوس إلى الجهة اليمنى من الممر المؤدي إلى الخليج الأيوني، وهي منطقة أجنبية يسكنها قوم من الآيليريين هم التولانت، والموقع هذا مستوطنة من أعمال كورسيرا أسسها فاليوس، وهو ابن ايراتوكليدس الذي كان كورنثياً من أسرة هيراكليدس. ووفقاً للتقليد القديم فإن مؤسس هذه المستوطنة قد لقي التشجيع والدعم من المدينة الأم. وكان من بين المستوطنين عدد من الكورنث وبعض الدوريين.

غدت إبيدامنوس مع مرور الأيام مدينة قوية ومكتظة بالسكان، ثم مرت بها سنوات من الاضطرابات السياسية، سببها – كما يقال – حربها مع السكان الغرباء؛ فأصاب المدينة الانحطاط وفقدت الكثير من قوتها. وأخيراً قام الحزب الديمقراطي في المدينة – قبيل اندلاع الحرب بين أثينا وإسبارطة – بطرد الحزب الأرستقراطي فانضم هؤلاء – فيما بعد – إلى الغرباء أعداء المدينة وشاركوهم في أعمال القرصنة ضدها براً وبحراً. وهذا ما جعل الديمقراطيين داخل المدينة يواجهون المتاعب؛ فبعثوا بسفارة إلى كورسيرا يناشدون البلد الأم ألا يتركوهم يتعرضون للفناء، ويطلبون المساعدة في الوصول إلى تسوية مع المنفيين وإنهاء الحرب مع الغرباء. ولما اتخذ السفراء موقعهم في معبد هيرا في كورسيرا، عرضوا مطالبهم، لكن أهالي كورسيرا رفضوا استقبالهم وردوهم خائبين. حينما أدرك الناس في إبيدامنوس أنهم لن ينالوا أية مساعدة من كورسيرا استولت عليهم الحيرة ولم يدروا كيف يتدبرون أمرهم، فما كان منهم إلا أن أوفدوا من يسأل الإله في دلفي ما إذا كان عليهم أن يسلموا مدينتهم إلى الكورنث الذين أسسوها؛ وبذلك ينالوا العون منهم. وكان الجواب من دلفي بأن يسلموا مدينتهم لكورنثة ويقبلوا بقيادتها. وهكذا، امتثالاً لقول العرافة، أرسلوا إلى الكورنث وعهدوا بالمستوطنة إليهم، وأشاروا إلى أن أول من أسسها كان كورنثياً وأعلنوا الجواب الذي تلقوه من دلفي، وتوسلوا إلى الكورنث أن

يأتوا لنجدتهم ويمنعوا عنهم الدمار.

وافق الكورنث على المجيء لمساعدتهم، وهم يشعرون بأن لديهم حقاً مشروعاً في نجدة من استغاثوا بهم؛ إذ كانوا يعدّون المستعمرة تابعة لهم بقدر ما هي تابعة لكورسيرا، وفي الوقت ذاته كانوا يبغضون الكورسير لتقصيرهم في إظهارهم لكورنثة الاحترام الواجب من مستعمرة إلى المدينة الأم؛ فخلافاً لما درجت عليه مستعمراتهم، لم يقدم الكورسير للكورنث فروض الطاعة والولاء المعتادة في المهرجانات العامة أو يتيحوا لهم التسهيلات المناسبة لتقديم القرابين، بل كانوا عوضاً عن ذلك ينظرون بازدراء إلى مدينتهم الأم، مدعين بأن قدرتهم المالية في هذا الوقت جعلتهم مساوين لأغنى الدول في هيلاس، وأن قدراتهم العسكرية أعظم من تلك التي لدى كورنثة. وكانوا يتبجحون – على وجه الخصوص – بتفوقهم البحري، حتى إنهم كانوا أحياناً يدعمون ادعاءهم هذا بالاستناد إلى أن الفايكيين أولئك الملاحين الشهيرين كانوا قد سكنوا كورسيرا قبلهم. والحقيقة أن هذا الاعتقاد قد شجعهم على إيلاء بحريتهم عناية خاصة، والتي لم تكن بالمتواضعة بأي حال من الأحوال. فقد كان لديهم عند اندلاع الحرب أسطول مؤلف من مئة وعشرين سفينة ثلاثية المجاذيف.

ولقد سبب هذا كله شعوراً بالعداء لدى الكورنث، ما جعلهم يهرعون لتلبية نداء إبيدامنوس ويقدمون لهم النجدة المطلوبة بسرور بالغ، فأعلنوا عن الحاجة إلى متطوعين ليستوطنوا هناك، وأرسلوا قوة مؤلفة من الأمبراس والليوكاد، ومن مواطنيهم، فسارت هذه القوة براً نحو أبولونيا، وهي مستعمرة كورنثية، وتفادوا الطريق البحرية خشية أن يعترض الكورسير سبيلهم.

عندما اكتشف الكورسير أن المستوطنين والقوات العسكرية قد وصلوا إلى إبيدامنوس وأنه تم تسليم المستعمرة إلى كورنثة، كانت ردة فعلهم عنيفة. فحالما وصلتهم الأنباء

زجوا في البحر بخمس وعشرين سفينة، ثم سرعان ما لحق بها أسطول آخر. وأرسلوا وهم يبحرون إلى إبيدامنوس يطالبونهم بلغة ملؤها التهديد والوعيد وأقذع العبارات بأنه يجب عليهم أولاً أن يعيدوا المنفيين إلى موطنهم، وكان المنفيون قد التجؤوا إلى الكورسير لصلة القربى التي تجمعهم بهم - أشاروا إلى قبور أجدادهم هناك - وتوسلوا إليهم أن يساعدوهم للعودة إلى موطنهم، وثانياً أن يقوموا بإبعاد القوات والمستوطنين الذين جاؤوا من كورنثة.

رفض أهالي إبيدامنوس كلا المطلبين، فبادر الكورسير إلى التحرك ضدهم والقيام بعمليات عسكرية بأسطول مؤلف من أربعين سفينة. وكان معهم المنفيون الذين وعدوهم بإعادتهم إلى السلطة، بالإضافة إلى الجيش الآيليري. ولما اتخذوا مواقعهم أمام المدينة، أعلنوا الأمان لكل من يتركها، سواء كان مواطناً أم لا، أما أولئك الذين يقصرون في اغتنام الفرصة، فتهددوهم بمعاملتهم معاملة الأعداء. ولما لم تبلغهم أي استجابة لعرضهم هذا، شرعوا في تضييق الحصار على المدينة التي تقوم على برزخ.

وسرعان ما وصل الرسل إلى كورنثة حاملين الأنباء التي تفيد بحصار إبيدامنوس، فبدأ الكورنث بتجهيز قوة عسكرية لنجدتها. وفي الوقت ذاته أعلنوا عن حاجتهم لمتطوعين لإقامة مستعمرة جديدة في إبيدامنوس، وأن الذين يهاجرون إلى هناك سيحصلون على حقوق تامة، أما أولئك الذين لم يكونوا مستعدين للإبحار على الفور، لكنهم يرغبون في الحصول على نصيب في المستعمرة، فبإمكانهم شراء الحصة التي يرغبون فيها، بالإضافة إلى الحق في البقاء في مكانهم، بأن يدفعوا مبلغاً مقداره خمسين دراخما كورنثية. ولقد لقي هذا العرض استجابة واسعة سواء من الذين كانوا يودون الإبحار فوراً أم من أولئك الذين دفعوا مبلغ التأمين. كذلك طُلب من مدن عديدة أن تساعد بالسفن لمواكبة القافلة بقصد حمايتها إذا ما حاول الكورسير اعتراض سبيلها. فقدمت ميجارا

ثماني سفن، وباليه وهي مدينة سيفالينية، أربعاً، وجاءت خمس سفن من إبيداروس وواحدة من هيرميونة، واثنتان من ترويزين، وعشر من ليوكاس، وثمان من أمبراسيا وطلبوا من أهل طيبة والفيلياس أن يمدوهم بالمال، ومن الإيليين أن يزودوهم بالمال وهياكل السفن أيضاً. وجهز الكورنث أنفسهم أسطولاً قوامه ثلاثون سفينة وثلاثة آلاف محارب من الهوبليت (المشاة الثقيلة).

حينما بلغ الكورسير أنباء هذه الاستعدادات أرسلوا سفارة إلى كورنثة، يرافقهم بعض الرسل من إسبارطة وسيكيون لدعمهم. وهناك طالبوا الكورنث بأن يسحبوا القوات والمستعمرين الذين أرسلوهم من إبيدامنوس، باعتبار أنه لا شأن لهم بإبيدامنوس. ومع ذلك فقد أبدوا الاستعداد للقبول بالتحكيم، إذا ما أرادت كورنثة التقدم رسمياً بدعوى مضادة، على أن يتم اختيار المدن البيلوبونيزية التي تقوم بمهمة التحكيم بالاتفاق المشترك، ويتعين على المستعمرة أن تكون من نصيب الطرف الذي يحكم له المحكمون. ثم عرضوا اقتراحاً بديلاً بأن يرفع الأمر إلى العرافة في دلفي. وشددوا على كورنثة ألا تبدأ الحرب، وإلا فإنهم سيضطرون إلى البحث عن أصدقاء آخرين والسعي عند من لا يرغبون في صداقتهم، وذلك في سبيل الدفاع عن أنفسهم.

ورد الكورنث على ذلك العرض بأن البحث في حل للمشكلة يكون مفيداً، إذا سحب الكورسير أسطولهم وجيش الأجانب من إبيدامنوس، وأن الحديث عن التحكيم هو ضرب من الهراء بينما المدينة تحت الحصار. فقابلهم الكورسير بالقول إنهم يقبلون بسحب قواتهم، إن انسحبت القوات الكورنثية بالمثل من إبيدامنوس، وإلا فليبق كلا الجانبين في مواقعهما وتكون بينهما هدنة حتى تعلن نتيجة التحكيم.

ولكن الكوررنث لم يرضوا أن يقبلوا بأي من هذه الاقتراحات. وبينما الأمور تجري على هذا النحو كانت السفن تتجهز والحلفاء يستعدون ويتهيؤون. وأرسلوا منادياً

يتقدمهم ليعلن نشوب الحرب، ثم زجوا بقوة من خمس وسبعين سفينة وألفين من المشاة الثقيلة لقتال الكورسير في إبيدامنوس. وكان الأسطول بقيادة أرسطيوس بن بليخاس وكاليكراتيس بن كالياس وتيمانور بن تيمانتيس. أما القوات البرية فكانت بقيادة أرخيتيموس بن إريتيموس وايزارخيداس بن إيزارخوس. اتجهت السفن في الحملة إلى أكتيوم في أناكتوريا، عند ثغر الخليج الإمبراسي، حيث معبد أبولو. وهناك التقى الجمع بموفد الكورسير، وكان هذا قد أبحر في قارب وهو يحمل تعليمات بأن يحثهم على ألا يندفعوا إلى القتال. وكان الكورسير يعملون في غضون ذلك على إصلاح سفنهم وتجهيزها فدعّموا القديمة منها بعوارض جديدة لتتمكن من الخوض في البحر وقاموا بتفقد بقية الأسطول ليتأكدوا من جاهزيته للقتال. ولما عاد موفدهم وأفاد بأن عرض السلام قوبل بالرفض كانت السفن – وقد بلغ عددها الثمانين – وأربعون سفينة ماتزال في حصار إبيدامنوس، وجمعيها معبأ بالرجال. فهبوا عندئذ للخوض في البحر للقاء العدو في خط منتظم متأهبين لمباشرة القتال. وانتهت المعركة بنصر حاسم للكورسير، حيث دمروا للكورنث خمس عشرة سفينة. وقد صادف أن تمكنت القوات التي تحاصر إبيدامنوس من فرض الاستسلام على المدينة بشروط منها بيع القوات الأجنبية والمستوطنين رقيقاً وسجن مواطني كورنثة حتى يبت في مصيرهم.

وبعد المعركة وضع الكورسير نصباً تخليداً لذكرى الموقعة في لوكيمة، وهي الأرض التي تستقبل كورسيرا، ثم عمدوا إلى قتل كل السجناء، عدا الكورنثيين الذين ظلوا في الأسر.

وكان من أمر الكورنثيين وحلفائهم أن عادوا بعد هزيمتهم في المعركة البحرية إلى أوطانهم، وباتت لكورسيرا الآن السيطرة التامة على البحار المحيطة بها. ثم هاجم أسطول كورسيرا ليوكاس، وهي من مستعمرات كورنثة، وتغلبوا عليها وأحال جندهم أرضها

إلى يباب. كذلك عمد الكورسير إلى إحراق المرفأ الأيلي سيلينة عقاباً للأيليين لرفدهم كورنثة بالسفن والمال. وهكذا ظل الكورسير يهيمنون على البحار وأرسلوا الأساطيل لمهاجمة حلفاء كورنثة. وفي النهاية أرسلت كورنثة في بداية الصيف التالي أسطولا وجيشاً لدعم حلفائها بعد أن رأت المصاعب التي يواجهونها. فقامت هذه القوة بالاستيلاء على مواقع في أكتيوم وحوالي خميريوم في تيسبروتيس وعمدت إلى تحصينها حماية لليوكاس والمدن الصديقة الأخرى. كذلك عمد الكورسير إلى اتخاذ مواقع لهم في لوكيمة مقابل الكورنث بما لديهم من قوات برية وبحرية. وهنا أقاموا معظم الصيف دون أن يقوم أحد من الجانبين بأي حركة، فظلوا على هذه الحال حتى مطلع الشتاء ثم عادوا إلى قواعدهم في أوطانهم.

الفصل الثالث: كورنثة وكورسيرا تعرضان قضيتهما

كانت مشاعر الناس متقدة في كورنثة والغضب يشتد بينهم في أمر الحرب مع كورسيرا. فأمضى الكورنث العام التالي للمعركة البحرية ثم العام الذي تلاه وهم يبنون السفن ويبذلون ما في طاقتهم لرفع كفاءة أسطولهم؛ وكان من ذلك أنهم أتوا بالمجذفين من جزر البيلوبونيز وقدموا أحسن الشروط ليأتوا بهم من أنحاء بلاد هيلاس الأخرى أيضاً.

ولقد كان لتلك الأخبار عن الاستعدادات الجارية وقع شديد في كورسيرا ورأوا أنها منذرة بالشر؛ ذلك أنه لم يكن للكورسير في بلاد هيلاس حلفاء يستندون إليهم، فلم يكونوا حلفاء لإسبارطة ولا لأثينا أيضاً. وعليه استقر لديهم العزم على الانحياز إلى أثينا والانضمام إلى الحلف الأثيني، واستطلاع إن كانوا يستطيعون الحصول على دعم من هذا الطرف.

ولما بلغ الكورنث ما عزم عليه الكورسير أوفدوا السفراء من جهتهم إلى أثينا خشية أن تجتمع عليهم قوى الأساطيل الأثينية والكورسيرية فتحبط جهودهم ويمتنع عليهم تدبر أمر الكورسير. وكان أن عقد الأثينيون اجتماعاً ليعرض فيه كل منهما قضيته أمام المجلس. وبسط سفراء كورسيرا أمرهم كالتالي:

"أيها الأثينيون، في وضع كهذا الذي نواجهه لا بد من توضيح نقاط معينة. لقد جئنا نسألكم العون، لكننا لا نزعم أن هذا العون حق لنا وأنكم مدينون لنا به لمعروف عظيم أسديناه لكم ذات يوم أو بسبب من حلف يجمع بيننا. ولذلك لا بد لنا من إقناعكم أولاً بأنكم إنما تخدمون مصالحكم حين تقدمون لنا هذا العون، أو أنكم تقومون بالأمر الذي لا يضر بهذه المصالح، ثم لا بد لنا من أن نثبت لكم أن اعترافنا بالجميل أمر يمكن الوثوق به. فإذا لم تجدوا في هذه النقاط ما يقنعكم فلن نعجب إن انتهت مهمتنا

إلى الفشل. وبعد فلقد أوفدتنا كورسيرا إليكم قناعة منها بأن في التحالف وإياكم فائدة لكم أيضاً فيما يتصل بالنقاط التي عرضناها لكم. وما حدث هو أننا قد سرنا في الماضي على سياسة يبدو أنها مناقضة لمصالحنا الراهنة، وفي الوقت ذاته جعلت طلب العون منكم يبدو غير منطقي ، ولا ريب بأننا نجافي المنطق حين نأتي إليكم نسألكم العون، بينما كنا في الماضي نتجنب كل التحالفات والحق أننا باتباعنا هذه السياسة عينها أصبحنا وحدنا لنواجه كورنثة في الحرب. ولقد كنا نحسب حيادنا حكمة؛ لأن هذا الحياد حال دون انجرارنا بسياسة الآخرين ولكن ها نحن نرى ذلك النهج بوضوح قصر نظر منا وسبباً للضعف.

"وإنه لحق أننا هزمنا الكورنث في المعركة الأخيرة وحدنا، ولكنهم يعودون إلينا الآن بقوة أكبر جاؤوا بها من الجزر البيلوبونيزية وباقي بلاد هيلاس. إننا نقر بأنه يستحيل علينا أن نصمد أمامهم، إن اقتصرنا على قدرات بلدنا وحده، ونستطيع أن نتخيل ما سيكون عليه الحال إن تغلبوا علينا؛ ولذلك فنحن مضطرون لطلب العون منكم ومن كل جهة؛ فلا ينبغي أن يؤخذ علينا إذا كنا نواجه الآن الحقائق ونهجنا نهجاً يناقض سياستنا القديمة بالانطواء على أنفسنا والانشغال بمشاغلنا، إننا لا نضمر سوءاً بهذا العمل، وإنما نقر بخطأ ما ارتكبناه.

"وإذا أجبتم مطلبنا فلسوف ترون أننا فعلنا حسناً من عدة وجوه؛ إذ جئناكم في هذا الوقت بالذات. إنكم أولاً وقبل كل شيء لن تعينوا غاصباً بل قوماً هم ضحايا العدوان، وثانياً، إننا نواجه الآن خطراً عظيماً فإذا قبلتم بمحالفتنا في هذه اللحظة نلتم منا تقديراً لا ينقطع. فنحن - بعدكم - أعظم قوة بحرية في بلاد هيلاس كلها. ولعلكم تستطيعون بذل مال كثير، إلا أننا نظل نحمل نفعاً عظيماً ولسوف تكونوا، بعد، مقدرين لما يمكن أن نسديه إليكم، ونحن إلى جانبكم. أفليس إذن من قبيل الحظ الخارق

- وهو حظ سوف يسبب غيظاً وكمداً في قلوب أعدائكم - أن ننضم إلى معسكركم طواعية، ونسلمكم زمام أمورنا دونما مخاطرة بأي شكل أو كلفة. إنه لوضع تجدوننا فيه، نحن من تمدون إلينا يد العون والمساعدة، ممتنين لكم، وينظر إليكم العالم إعجاباً بكرمكم، وتكونون فيه، بعد، أقوى مما كنتم عليه. إن التاريخ يكاد لا يعرف حالة توفرت فيها كل هذه المزايا دفعة واحدة، ولم يحصل كثيراً من قبل أن قوة تنشد حلفاً وجدت نفسها تقول لأولئك الذين تطلب منهم العون: إنها تستطيع أن تحمل إليهم من الشرف والأمن قدر ما يوفرونه لها منهما.

"وإنه لغني عن القول أنكم سوف تجدون في تحالفنا فائدة إذا ما اندلعت الحرب، وإن اعتقد بعضكم أن خطر اندلاعها بعيد. ومن يزيّن له الفكر استبعاد خطر الحرب إنما يخدع نفسه ولا يرى الحقيقة، وهي أن إسبارطة تخشاكم وتسعى إلى الحرب، وأن كورنثة عدو لكم، ولها نفوذ في إسبارطة. لقد هاجمتنا كورنثة أولاً لتهاجمكم لاحقاً؛ ذلك أنها لا تريد أن تجعل منا - نحن وإياكم - أعداء في وقت واحد فتجدنا نقف متحدين في مواجهتها. إن ما ترغب فيه هو أن تحقق تفوقاً أولياً عليكم في أحد الأمرين إما بتدمير قوتنا وإما بقسرنا على استخدامها على نحو يخدم مصالحها. ولكن السياسة التي نتبعها تقتضي أن نسبقها خطوة واحدة، ولذلك تجدوننا نسعى إلى قبول التحالف الذي نعرضه عليكم؛ ففي هذه الأمور يستحسن أن يملك المرء المبادرة بأن نبدأ باتخاذ الإجراءات المناسبة لنا، وبذلك لا نضطر لمواجهة المؤامرات التي يحيكها الغير ضدنا.

"وإذا قال الكورنث: إنه ليس لكم الحق في قبول إحدى مستوطناتهم في حلفكم فينبغي أن يكون الرد بأن كل مستوطنة - إن لقيت معاملة حسنة - رفعت مقام المدينة الأم وأحاطتها بالتكريم، ولا تنأى عنها إلا إذا أساءت إليها. إن المستوطنين لا يرسلون إلى الأصقاع البعيدة ليكونوا عبيداً للذين خلفوهم وراءهم وإنما ليكونوا أنداداً لهم. وإنه

لواضح للعيان أن كورنثة أخطأت في معاملتها لنا؛ فلقد سألناهم تسوية قضية إبيدامنوس بالتحكيم، ولكنهم آثروا فرض دعاواهم حرباً عوضاً من البحث عن تسوية معقولة. والحق، أن في معاملتهم لنا – ونحن من أهلهم – تذكرة لكم بما ينبغي أن تتوقعوا منهم وحري به أن يردعكم عن الوقوع فيما ينصبون من أفخاخ خادعة أو الإصغاء لما يبدو منهم من مطالب تتزين برداء الصراحة. إن التنازل للأعداء مجلبة للندم، وكلما قلت التنازلات كانت أسباب السلامة أكبر.

"إنكم إذ تقبلون محالفتنا لا تنتقصون من معاهدتكم وإسبارطة فنحن محايدون، وقد نصت صراحة على أن لكل دولة هيلينية تأخذ بالحياد الحرية للانضمام لأي طرف تختار. وإنه لأمر رهيب حقاً أن تستطيع كورنثة أن تجد بحارة لسفنها من بين حلفائها ومن بقية هيلاس، بما فيهم رعاياكم، بينما محظور علينا الدخول في تحالف مشروع، بل الحصول على العون من أي بقعة من البقاع، وفوق هذا كله ترونهم يتهمونكم بنكث العهود إن لبيتم نداءنا. والحق أننا نحن من سيكون لدينا أشد الأسباب وجاهة للشكوى منكم إن امتنعتم عن مساعدتنا؛ فإن أعرضتم عن إجابتنا – ونحن لسنا من أعدائكم، في ساعة المحنة، بينما لا تأتون بما يمنع الآخرين من العدوان، وهم أعداؤكم أيضاً – فإنكم بذلك تدعون المعتدين يبنون قوتهم من طاقات امبراطوريتكم. أفليس هذا صحيحاً؟. والخيار واضح أمامكم فإما أن تمنعوهم من تجنيد رعاياكم في جيوشهم وإما أن تنجدونا بما ترونه مناسباً. والأفضل من هذا وذاك أن تقبلوا بحلف صريح؛ فتساعدوننا بذلك على ردع العدوان.

"ولقد سبق لنا القول إن في عملٍ كهذا خدمة عظيمة لمصالحكم. و لعل أجل فائدة تجنونها أنكم تستطيعون الاعتماد علينا كل الاعتماد، فأعداؤكم هم نفس أعدائنا، وهم أقوياء أيضاً، وقادرون كل القدرة على إيذاء من يخرج عنهم. ولكن الأمر يختلف إن

أعرضتم عن محالفة قوة بحرية عما لو قبلتم بمحالفة قوة برية. فالأجدر بكم بلا ريب أن تحولوا - إن أمكنكم - دون أن يتمتع أي طرف آخر بأسطول مهما يكن، والأمر الثاني الأفضل هو أن تكسبوا إلى جانبكم أقوى أسطول في البحر.

"وقد يسلمٍّ البعض منكم بأننا قدمنا أقوى الحجج على ما في التحالف وإيانا من خدمة لمصالحكم، ثم تراودهم مع ذلك الخشية من أن يكون في هذا خرق لمعاهدتكم وإسبارطة. ومن يفكر على هذا النهج حري به أن يتذكر - أحب أم كره - أنكم إنما تزدادون قوة بحلفكم وإيانا، ولسوف تحمل هذه الحقيقة أعداءكم على إمعان الفكر قبل أن يقدموا على مهاجمتكم؛ أما إذا رددتمونا فلسوف تكونون الأضعفين، مهما بلغتم من الثقة بقدراتكم؛ لأنكم لن تحظوا بالنتيجة بمعاملة تقوم على الاحترام من عدو قوي. وتذكروا بعد أنه سيكون لقراركم الأثر الكبير في أثينا قدر ما له من الأثر في كورسيرا. إن خواطركم منشغلة الآن بالحرب التي لا بد واقعة حرب تكاد تكون في الواقع قائمة، وأنتم قطعاً لا تبدون تبصراً عظيماً بمصير مدينتكم إن ترددتم بين رأيين في كسب قوة مثل كورسيرا إلى جانبكم، وهي التي يمكن أن تفيدوا من صداقتها وتتضرروا بعداوتها. وإذا أسقطتم من الحساب كل المزايا الأخرى فإن كورسيرا تحتل موقعاً ممتازاً على الطريق الساحلية إلى إيطاليا وصقيلية، وهي إذن قادرة على منع وصول التعزيزات البحرية إلى جزر البيلوبونيز من تلك الأصقاع أو الانتقال من البيلوبونيز إلى تلك البلاد.

"وخلاصة القول - وهذه الكلمات القلائل توفر لكم زبدة القضية وتوضح لكم ما يحملكم على عدم التخلي عنا -: فاعلموا أن في بلاد هيلاس ثلاث قوى بحرية، هي: أثينا، وكورسيرا، وكورنثة. وإذا ما تمكنت كورنثة من السيطرة علينا أولاً وتركتم أسطولنا ينضم إلى أسطولها كان مآلكم أن تواجهوا أساطيل كورسيرا والبيلوبونيز مجتمعة، أما إذا قبلتم بالحلف معنا فسوف تخوضون الحرب وسفننا إلى جانبكم كما لو

كانت من سفنكم."

وبعد هذا الخطاب من الجانب الكورسيري تحدث ممثل كورنثة وطرح مقالته كما يلي:

"إن هؤلاء الكورسير لم يقصروا حجتهم على ما إذا كان ينبغي قبول محالفتهم؛ فلقد قالوا فينا: إننا معتدون وذهبوا إلى وصف حالهم بأنهم ضحايا حرب ظالمة. ولكن قبل أن ننتقل إلى عرض بقية حجتنا، علينا أولاً أن نقدم لكم فكرة واضحة عما نطلب منكم ونعرض لكم الأسباب الوجيهة التي ينبغي أن تحملكم على رد مطلب الكورسير.

"لقد استخدمت كورسيرا كلمتين هما: "الحكمة" و"الاعتدال" لوصف سياستها القديمة في تفادي الدخول في أحلاف. والحق أن ما حفزها إلى ذلك دوافع كلها شر، وليس لها من الخير نصيب؛ فإذا كانت قد أبت أن تتخذ حلفاء؛ فلأن تصرفاتها ضلال، وهي تخجل من أن تدعو إليها آخرين ليشهدوا على سوء أفعالها. إن موقع كورسيرا الجغرافي يوفر لسكانها شيئاً من الاستقلال، وسفن الدول الأخرى مضطرة لزيارة مرافئها أكثر مما تضطر سفنها لطرق مرافىء تلك الدول. وهكذا إذا ارتكب أحد الكورسير ما يضر بأحد أبناء الدول الأخرى غدا الكورسير أنفسهم الحَكَم في القضية، ولا مجال في هذا أن ينظر فيها قضاة محايدون معينون بمعاهدة. وهكذا كان حيادهم – وإن بدا بريئاً – قناعاً يمكنهم من عدم تحمل تبعات أفعال الآخرين، ويطلق يدهم لارتكاب المساوىء؛ فيعملون في أملاك الآخرين سلباً ونهباً متى امتلكوا من القوة ما يمكنهم من ذلك، ولا يتورعون عن الغش ما أمكنهم ويتمتعون بثمار أعمالهم دونما خجل من أفعالهم. ومع ذلك إن كانوا حقاً أهل الشرف الذي يدعونه فإن الأحرى بهم أن يجدوا في هذا الاستقلال أفضل فرصة لبيان حسن خصالهم بإقامة العلاقات التي توفر العدل لكل الدول.

"الحق أن الكورسير لم يأخذوا بمذهب الشرف في سلوكهم سواء حيالنا أو حيال أي

طرف آخر. وآية ذلك أنهم كانوا من بناة المستوطنات لدينا إلا أنهم لم يبدوا لنا إخلاصاً في يوم من الأيام وها هم يعلنون علينا الحرب الآن. إنهم لم يخرجوا لبناء المستوطنات، ليظلموا على حد قولهم. ونحن نقول: إننا لم نقم المستوطنات لننال منها الإهانة، وإنما لنبقي على ريادتنا ومقابلتنا بالاحترام الواجب. ولقد كنا نلقى على الدوام الاحترام من المستوطنات الأخرى، بل الحق أن تلك المستوطنات كانت تقابلنا بعظيم الود. فغني عن البيان، إذن، أنه مادامت أغلب المستوطنات ترتاح إلينا، فليس لكورسيرا أي سبب وجيه لتنفرد بالتذمر منا؛ وإذن فنحن لا نعلن الحرب عليهم ظلماً وعدواناً، وإنما بعد تحرش واستفزاز وغلو. ولو سلمنا بأننا أخطأنا في حقهم فإن الأجدر بهم الاستسلام لنا، وإلا حاق بنا العار إن قابلنا حسن المعاملة بالإساءة والجور. ولكن واقع الحال هو أن غرورهم وتيههم بسبب ما يملكونه من ثروات قد حملاهم على سلوك مسلك الرعونة تجاهنا في العديد من المناسبات، وخاصة في مسألة إبيدامنوس التي تخصنا. ومن ذلك أنهم حين عانت هذه المدينة لم ينهضوا لفرض سيطرتهم عليها، ولكن حين أتينا لإغاثتها استولوا عليها بالقوة ومازالوا يحتلونها إلى اليوم.

"ولقد قالوا: إنهم كانوا على استعداد لعرض الأمر للتحكيم، ولكن ذلك قول لا معنى له حين ينطق به من سلب شيئاً ثم راح يقدم عرضاً وهو قابض على موقعه؛ وذلك نهج لا يكون إلا حين يتخذ المرء لنفسه موقفاً حقيقياً لا زائفاً من خصومه، قبل إشهار السلاح. ثم إنهم لم يأتوا في عرضهم على ذكر فكرة التحكيم الممتازة، قبل بدئهم بحصار إبيدامنوس، ولم يتفوهوا بهذه الكلمة إلا حين خطر ببالهم أننا لن نقبل منهم هذا المسلك.

"وها هم يقصدونكم الآن، بعد أن أخطؤوا السبيل في موضوع إبيدامنوس، لا ليطلبوا منكم التحالف بقدر ما يسألونكم التواطؤ وإياهم في جريمتهم. إنهم يسألونكم التحالف

معهم في الوقت الذي نحن فيه متحاربان. والحق أنه كان الأجدر بهم أن يقصدوكم في تلك الأيام التي كانوا مطمئنين فيها إلى مواقعهم، وليس في هذه اللحظة حين أساؤوا إلينا وباتوا في خطر. إنكم إذا ما استجبتم لهؤلاء في الظروف الراهنة إنما تقدمون العون لقوم لم يشركوكم في سلطانهم في يوم من الأيام، وتفرضون علينا أن نعدّكم مسؤولين وإياهم في هذا الأمر سواء بسواء، مع أنه لم يكن لكم ضلع فيما أتت به أيديهم من سيء الأعمال. وإذا كانوا يتوقعون منكم أن تشاركوهم بما لديكم اليوم فالأجدر بهم أن يكونوا قد شاركوكم فيما نالوه من نعم في الماضي.

"لقد أوضحنا لكم – كما أظن – أن لدينا من الأسباب الوجيهة ما يوجب الشكوى، وعرضنا بجلاء أن مسلك كورسيرا كان مسلك العدوان والصلف معاً. ونود منكم بعد هذا أن تقدروا أنه ليس من الصواب أو العدل أن تقبلوا بمحالفة هؤلاء القوم. ولئن يكن في المعاهدة ما ينص على حق الدولة الحرة بالانضمام إلى الاتفاقية الأساسية – وإن لم تكن مشمولة بها من قبل، ومهما يكن الطرف الذي تنحاز إليه – فالحق أن هذا لا يشير إلى الحالات التي يكون فيها الغرض من الانضمام إلى التحالف إلحاق الأذى بدول أخرى، كما أنها لا تشير إلى حالة مدينة لا تسعى إلا إلى المحافظة على سلامتها أثناء قيامها بالثورة، بحيث تكون نتيجة القبول بمحالفتها، إذا نظر المرء إلى الأمر بعين متجردة عن الهوى، لا السلم وإنما الحرب. ذلكم ما ستواجهونه إذا ما أعرضتم عن نصيحتنا. فأنتم لا تقدمون بذلك عوناً لهؤلاء القوم وإنما تشنون علينا حرباً، ونحن حلفاء لكم بموجب المعاهدة. ولسوف نضطر لمواجهتهم وإياكم دفاعاً عن النفس، إن انضممتم إليهم في مهاجمتنا.

" والطريق الأقوم هو بلا ريب أن تلتزموا بالحياد التام أو تختاروا الانضمام إلينا في محاربتهم؛ فأنتم – على الأقل – مرتبطون مع كورنثة بمعاهدة ملزمة لكم، بينما ليست

لديكم اتفاقية سلام مع كورسيرا أبداً. أما ما ينبغي عليكم أن تقوموا به فهو ألا تؤسسوا السابقة بإمكانية قبول قوة ما بمحالفة الرعايا العصاة لقوة أخرى. وحينما ثارت ساموس عليكم وانقسمت دول البيلوبونيز حول موضوع مساعدة أهل تلك الجزيرة أم لا، فإننا لم نكن بين الذين صوتوا ضدكم؛ بل على العكس من ذلك فقد عارضنا الآخرين صراحة وقلنا يومئذ: إن من حق كل قوة تدبير أمر حلفائها. والآن إذا كنتم بصدد الترحيب بقوم أخطؤوا في حقنا ومؤازرتهم، فلسوف تجدون الكثيرين من قومكم ينحازون إلينا، وبذلك تكونون قد أسستم لسابقة تضر بكم أكثر مما تضر بنا. وما سبق أن عرضناه أمامكم هو حق لنا لا تشوبه شائبة ويفرضه القانون الهيليني والأعراف والتقاليد. ونود بعدُ أن نقدم لكم بعضاً من النصح وأن نذكركم بمعروف قدمناه لكم: إننا لسنا أعداء لكم يعتزمون مهاجمتكم، ولا تربط بيننا علاقات صداقة تجعل تقديم هذه الخدمات أمراً عادياً بين الأصدقاء؛ لذلك نقول لكم: إن الوقت قد حان لتردوا لنا ما سبق أن قدمناه لكم في الماضي من خدمات.

"كنتم تعانون من نقص في سفن الحرب يوم قاتلتم إيجينا قبيل غزو الفرس. فقدمت لكم كورنثة عشرين سفينة، وكان أن تمكنتم بهذا الصنيع أن تقهروا إيجينا، وبجميل آخر منا لم نمكن دول البيلوبونيز من مساعدة ساموس؛ فاستطعتم أن تنزلوا العقاب بتلك الجزيرة. ولقد جاءت تلك المبادرات من جانبنا في أوقات عصيبة، أوقات يغلب أن ينقض فيها الناس على أعدائهم ويسقطوا من اعتبارهم أي أمر سوى تحقيق النصر. وفي هذه الأوقات ينظرون إلى أعداء الأمس كأصدقاء طالما كانوا في صفهم، ويرون حتى الأصدقاء الصدوقين أعداء إن كانوا عقبة في طريقهم؛ بل إن رغبتهم المستبدة في النصر لتجعلهم يهملون أهم مصالحهم.

"إننا نود منكم إيلاء النقاط التالية كل تفكيركم، وأن تتبصروا فيها كل التبصر، وأن

يسأل شبابكم كبارهم في هذه الأمور، ثم أن تختاروا أن يكون سلوككم نحونا كما كان سلوكنا تجاهكم في الماضي. أتعتقدون أن الكورنث محقون فيما يقولون، أم أن ليس لذلك أهمية حين تنشب الحرب؟ إن أفضل سياسة على العموم أن يتجنب المرء الأخطاء في التقدير قدر المستطاع، وعليكم أن تتذكروا أن كورسيرا بالرغم من أنها تحاول إثارة الذعر بينكم لتقترفوا خطأ بالأخذ بفكرة أن الحرب وشيكة، إلا أنه ليس ثمة يقين بأن الحرب ستقع. وقد تعتقدون أن كورنثة عدو لكم في المستقبل، ولكن ليس من المفيد لكم أن تحملكم هذه الفكرة بعيداً وتجعلوا منا أعداء صريحين لكم منذ الآن. فالأقرب إلى الحكمة أن تزيلوا الظنون التي تراودنا حيالكم في موضوع ميجارا، ولسوف ترون أن للصنيع الطيب في اللحظة المناسبة قوة تبدد الضغائن القديمة بصورة لا تتناسب و الفعل ذاته.

"ولا يغرنكم منهم عرضهم لكم حلفاً بحرياً عظيماً؛ فالقوة التي تعامل نظراءها معاملة الأنداد تجد أمناً يفوق الذي تجده قوة تسرع إلى اغتنام فرصة تبدو وكأنها مفيدة، بينما هي تنطوي على خطر كبير. إننا لنجد أنفسنا في الموقف ذاته الذي كنتم فيه حين طرحنا في مداولاتنا في إسبارطة المبدأ الذي يقول بحق كل قوة بعقاب حلفائها. ونحن نقول: إن عليكم مناصرة هذا المبدأ، ثم إنه لما كان صوتنا قد حقق لكم فائدة يومذاك، فحري بكم ألا تلحقوا بنا ضرراً الآن بأن تدلوا بصوت ضدنا، بل إنه لحري بكم أن تقابلونا بمثل ما بدر منا، ولتعلموا أننا في ظرف حرج إن ساعدتمونا فيه كسبتم منا الصداقة الحقة والعداوة المقيمة إن ناهضتمونا. فلا تسيئوا إلينا بقبول الكورسير في حلفكم، ولا تساعدوا هؤلاء القوم ولا تعينوهم في جرائمهم، وبذلك ستقومون بما يجدر بكم القيام به، وفي الوقت ذاته تكونون قد اتخذتم قراراً حكيماً يخدم مصالحكم على أحسن وجه".

كان ذلك خطاب وفد كورنثة. أما الأثينيون فقد أخذوا يتداولون الأمر في اجتماعين، بعد أن استمعوا إلى طرفي النزاع. وكان الرأي في الاجتماع الأول ينزع إلى الأخذ بحجج كورنثة، ولكن الرأي تحول في الاجتماع الثاني و رجح لصالح قيام ضرب من التحالف مع كورسيرا، دون أن يكون ذلك حلفاً كاملاً يفرض على الطرفين القتال في صف واحد متى خاض أحدهما الحرب؛ وكان السبب في ذلك إدراك الأثينيين بأن خوض الحرب إلى جانب كورسيرا ضد كورنثة متى دعتهم يعني خرق معاهدتهم ودول البيلوبونيز، أما هذا التحالف فقد كان حلفاً دفاعياً بطبيعته، ولا يوضع موضع التنفيذ إلا إذا هوجمت أثينا أو كورسيرا أو أي من حلفائهما من جهة خارجية.

وكان الاعتقاد السائد يومئذ أن الحرب مع البيلوبونيز لابد واقعة مهما يكن مجرى الأحداث. ولم تكن أثينا تريد أن يقع أسطول كورسيرا القوي في يد كورنثة، ولم يكن ليضيرها في الوقت ذاته أن يقتتل الطرفان و يضعف أحدهما الآخر؛ ذلك أن الاقتتال بين هذين الطرفين – إن وقعت الحرب – كفيل بأن يجعل أثينا في الموقف الأقوى، سواء تجاه كورنثة، أو تجاه القوى البحرية الأخرى. كذلك أخذ في الحسبان وقوع كورسيرا في موقع ممتاز على الطريق الساحلية إلى إيطاليا و صقيلية. وهكذا أقامت أثينا حلفها مع كورسيرا على أساس هذه الاعتبارات.

الفصل الرابع: التدخل الأثيني ضد كورنثة

قفلت السفارة الكورنثية عائدة إلى كورنثة، وما هو إلا حين حتى أرسلت أثينا عشر سفن كتعزيزات إلى كورسيرا. و كانت السفن بقيادة كل من لكديمونيوس بن سيمون، وديوتيموس بن سترومبيكوس، وبروتياس بن إبلكليس، و كانت الأوامر المعطاة لهؤلاء القادة هي تفادي الاشتباك مع الكورنث إلا في الأحوال التالية: إذا توجه الكورنث إلى كورسيرا بقصد النزول في الجزيرة نفسها أو في أي منطقة تابعة لها، فلهم أن يقوموا بكل ما هو ممكن لمنعهم من ذلك. وقد صدرت تلك الأوامر لتفادي خرق المعاهدة القائمة.

كانت السفن العشر قد بلغت كورسيرا حين أتم الكورنث استعداداتهم ووجهوا أشرعتهم نحو الجزيرة بأسطول من مئة وخمسين سفينة، ساهمت إيليس بعشر منها واثنتي عشرة من ميجارا وعشر من ليوكاس، وسبع وعشرين من أمبراسيا، وواحدة من أناكتوريوم وتسعين من كورنثة ذاتها. وكان لكل مجموعة من هذه السفن قادتها وعلى رأسهم أمير البحر الكورنثي، أكزينوكليدس بن أيوثيكلنس، وبإمرته أربعة من الضباط القادة.

أبحر هذا الأسطول من ليوكاس ووجهته البر الرئيسي قبالة كورسيرا، وألقى مراسيه في خميريوم في منطقة ثيسبروتيس، وفيها ميناء، وفوقه على مسافة من البحر مدينة إيفيرة في المنطقة الأيلية. وبالقرب من إيفيرة هذه تصب مياه البحيرة الأخيروسية في البحر؛ وقد سميت كذلك لانتسابها إلى نهر أخيرون الذي يمر بثيسبروتيس ثم يصب في البحيرة. وهناك نهر آخر في المنطقة يدعى ثياميس ويشكل الحد الفاصل بين ثيسبروتيس وسيسترينة. وبين مصب هذين النهرين ينتصب جبل خميريوم الشاهق الذي يمتد إلى البحر. و في هذه النقطة من تلك الأراضي ألقى الكورنث مراسيهم وأقاموا معسكرهم.

ولقد جهز الكورسير – حالما بلغتهم أخبار اقتراب الأعداء – مئة وعشر سفن بقيا
ميكياديس وإيسيماديس واوربياتوس، وأقاموا معسكراتهم في مجموعة من الجزر المعرو
باسم "سيبوتا" . وكان في ذلك الأسطول السفن الأثينية العشر . أما قواتهم البرية فق
وضعت عند لسان لوكيمة البحري وتم تعزيزها بقوة من ألف من المشاة الثقيلة م
زاكينثوس. كذلك تلقى الكورنث المعسكرون على البر الرئيسي تعزيزات كبيرة م
أهالي تلك الأنحاء، الذين كانوا يرتبطون بهم على الدوام بعلاقات طيبة.

وكان الجنود الكورنث قد حملوا معهم في جملة استعداداتهم من المؤن ما يكفيه
ثلاثة أيام، ثم أسلموا أشرعتهم للرياح تحت جنح الليل من خميريوم وقصدهم الاشتبا
مع العدو وفي الفجر كانوا على مرمى النظر من سفن الكورسير في عرض البحر
فاندفعت باتجاهها تريد القتال، فاتخذ الطرفان عندئذ مواقعهما تهيئة للاشتباك، وكانت
السفن الأثينية على ميمنة خط الكورسيرية، التي تتألف من ثلاث مجموعات؛ كل منها
بقيادة أحد أمراء البحر. وبهذا الشكل كان ترتيب القتال على الطرف الكورسيري.
وعلى الطرف الآخر كانت سفن ميجارا وأمبراسيا على الميمنة، وفي الوسط سفن الحلفاء
الآخرين، أما الكورنث – ولديهم أفضل السفن – فكانوا في الميسرة، بمواجهة الأثينيين
والجناح الأيمن للكورسير .وبعد أن تبادل الطرفان رفع الشارات اندفعا للقتال . وكانت
أساليب الحرب في هذه المعركة قديمة تقليدية تقريباً؛ لأن كلا الطرفين كان مايزال متخلفاً
في أمور البحر، وكلاهما يحمل عدداً من المشاة الثقيلة على ظهر السفن مع رماة السهام
و الرماح، لكن القتال كان حامي الوطيس بالرغم مما بدا من افتقار المقاتلين للمهارة، بل
لقد دارت المعركة وهي أشبه بالمعارك البرية منها بالمعارك البحرية . فلما التحمت السفن
بعضها ببعض كان من الصعب فك الاشتباك بينها لكثرة عدد السفن و شدة قرب بعضها
من بعض . والواقع أن الطرفين كانا يعتمدان في تحقيق النصر على المشاة الثقيلة الذين
كانوا على ظهر سفنهم ، ويقاتلون أشد قتال، ويتسمون بالاندفاع للالتحام مع

خصومهم في معركة حامية الوطيس بينما كانت السفن ثابتة لا تتحرك؛ ولم يحاول أحد يومئذ القيام بعمليات الالتفاف والمناورة والحق أن تلك كانت معركة كان للقوة والشجاعة فيها دور أعظم من أساليب القتال العلمية. وقد سادت الفوضى أجواء المعركة حيثما دارت وسط الصيحات من كل جانب.

كانت سفن الأثينيين تندفع لمؤازرة الكورسير كلما وجدتهم في ضيق، وتقدم لهم النجدات مما يثير مخاوف أعدائهم، ولكن دون أن يزجوا بأنفسهم في المعركة، خشية من القادة بأن يأتوا بما يخالف التعليمات التي تلقوها من أثينا.

ولقد وجدت ميمنة خط القتال الكورنثي نفسها في أشد المصاعب، بعد أن تمكنت مجموعة من السفن الكورسيرية قوامها عشرون سفينة من دحر السفن المعادية، واضطرتها للانسحاب عشوائياً وقد دبت في صفوفها الفوضى. ومن ثم مضت تلك السفن إلى حيث كانت المعسكرات المعادية فأشعلت النار في الخيام الخالية، وقام الجنود بنهب كل ما وقعت عليه أيديهم. وهنا حقق الكورسير، إذن، نصراً مؤزراً، بينما نال الكورنث وحلفاؤهم الهزيمة. ولكن الأمور كانت على غير هذا النحو على الميسرة، حيث كان الكورنث في وضع أفضل، في حين أن الكورسير كانوا أقل عدداً ويفتقرون للدعم من السفن العشرين التي كانت منشغلة بالمطاردة. وأخذ الأثينيون عندئذ، حين وجدوا الكورسير يعانون المصاعب – يتدخلون في المعركة على نحو أشد وضوحاً من ذي قبل – إذ كانوا يمتنعون في بادئ الأمر عن التصدي لأي سفينة كورنثية، ولكنهم حسموا أمرهم في النهاية؛ إذ وجدوا الهزيمة محققة والكورنث يدأبون على الضغط بقواتهم، وهكذا اشترك الجميع في هذا القتال المحتدم وزال كل محظور. وكان أن بلغ الوضع حداً راح فيه الكورنث والأثينيون يقتتلون صراحة دونما حرج.

وبعد أن حقق الكورنث نصرهم هذا، تحولوا إلى جند الأعداء، عوضاً من جر سفنهم

المعطوبة لإصلاحها، ومضوا بين الحطام والخرائب وعملوا في أعدائهم قتلاً غير مبا
بأخذهم أسرى. وكان أن قتلوا بين من قتلوا بعض مشايعيهم والأصدقاء دون قص
جهلاً منهم بأن الذين كانوا على ميمنتهم قد انهزموا. وكان كلا الطرفين قد زج بالك
من سفنه في تلك المعركة المحمومة؛ فلم يكن بالأمر الهين أن يميز المرء بين المنتصر والمه
في حماة القتال. أما عدد السفن فكان كبيراً، وكانت هذه أضخم معركة دارت ب
دولتين من الدول الهيلينية.

بعد طرد الكورسير وردهم إلى اليابسة التفت الكورنث إلى السفن المحطمة والعنا
بالقتلى من رفاقهم، وقد أمكنهم انتشالهم وحملهم إلى سيبوتا، وهي مرفأ غير مأهول
حيث كانت تعسكر القوات لتقديم الدعم لهم. ثم قاموا بعدئذ بتنظيم قواتهم م
جديد وعادوا إلى البحر لمطاردة الكورسير مرة أخرى.

أما الكورسير فإنهم إذ خشوا أن يحاول الكورنث النزول على جزيرتهم خرجو
للقائهم بكل سفينة لديهم، فضلاً عن السفن الأثينية العشر وما تبقى من أسطولهم.

كان اليوم قد انصرم إلا أقله، وتعالت أصوات الطرفين بنشيد الحرب قبل البدء
بالهجوم، حين أخذت سفن الكورنث تتراجع فجأة، فقد لاحت لها عن بعد نحو عشرين
سفينة من سفن أثينا، أرسلتها لتعزيز السفن العشر الأولى؛ إذ خشي الأثينيون – وكانوا
على حق في خشيتهم، كما تبين فيما بعد– أن يُهزم الكورسير ولا تفي السفن العشر في
دعمهم. فكانت هذه القوة الجديدة هي التي رآها الكورنث، وخشوا أن يكون مصدرها
أثينا وتليها سفن أخرى تلحق بها، فعمدوا إلى التراجع.

وكان الكورسير يشنون هجومهم في ذلك اليوم من موقع لا يساعدهم على الرؤية،
فلم يتمكنوا من تبين السفن القادمة، فعجبوا إذ رأوا الكورنث يتراجعون وينسحبون،
وفي النهاية ظهر من تبين تلك السفن فصاح معلناً وجود سفن في الطريق إليهم. وكان

أن تراجع الكورسير أيضاً بسبب حلول الظلام، وتراجع الكورنث وفك الاشتباك معهم، فقفلوا عائدين إلى معسكرهم في لوكيمة، بينما توجهت السفن الأثينية العشرون، بقيادة جلاوكون بن ليجروس وآندوكيديس بن ليوجراس إلى معسكرها، وهي تشق طريقها بين حطام السفن وجثث القتلى. فوصلت هذه السفن بعد حين من ملاحظتها، ولكن الليل كان قد حل فالتبس أمرها وخشي الكورسير أن تكون سفناً معادية، غير أنهم تأكدوا من حقيقتها فتمكنت من الرسو بأمان. وفي اليوم التالي رفعت السفن الأثينية الثلاثون والكورسيرية كلها أشرعتها واتجهت مبحرة إلى ميناء سيبوتا حيث ألقى الكورنث مراسيهم، ليتأكدوا من مدى استعدادهم للقتال.

وخرج الكورنث بسفنهم في خط إلى عرض البحر، وظلوا هناك على هذا النحو، وهم لاينوون أن يكونوا البادئين بالقتال، بعد أن رأوا أن أسطولاً جديداً قد قدم من أثينا، وهم مدركون المصاعب في وضعهم؛ إذ كان عليهم حراسة المساجين على ظهر سفنهم، وتدبر شؤون هذه السفن في تلك المنطقة الخالية من كل وسيلة لإصلاح الأعطال. وكان أشد ما يقلقهم هو مسألة العودة إلى الوطن، فقد كانوا يخشون أن يرى الأثينيون في القتال الأخير ما يعني انتهاك المعاهدة فيقطعون عليهم الطريق؛ فعمدوا عندئذ إلى وضع بعض رجالهم الذين لا يحملون عصا الإنذار (لأن وجودها معهم يعني أن الكورنث يعتبرون أن الحرب قد قامت) على ظهر أحد القوارب وأرسلوهم إلى الأثينيين ليستطلعوا أحوالهم ويقفوا على الرأي السائد لديهم.

ولما تم لرسل الكورنث ما قصدوا من مهمتهم ألقوا الكلمة التالية: "اعلموا أيها الأثينيون أنكم تخطئون السبيل؛ فها أنتم تشعلون حرباً وتنتهكون المعاهدة. إننا هنا لنعالج وضع أعدائنا، وأنتم تقفون في طريقنا وقد رفعتم السلاح في وجوهنا. فإذا كان غرضكم منعنا من الإبحار إلى كورسيرا أو أي منطقة أخرى نقصدها، وبكلمة أخرى، إذا

كنتم تعتزمون العدول عن المعاهدة، فخذونا أول الأسرى، ولتعاملونا معاملة الأعداء".

ولما انتهت خطبة الكورنث تعالت صيحات قوات الكورسير، وكانوا على مقربة من المشهد وسمعوا المقالة، وراحوا يؤيدون اعتقال جمع الكورنث وقتلهم. أما الأثينيون فكان ردهم – على كل حال – كما يلي: "اعلموا أيها البيلوبونيز أننا لن نبدأ حرباً ولن ننقض معاهدة، ولكن لتعلموا أن هؤلاء الكورسير حلفاء لنا، وقد أتينا الآن لنساعدهم، ولن نعترض طريقكم إن شئتم الإبحار في أي اتجاه؛ إلا إذا كنتم تبغون قتال كورسيرا أو الهجوم على أي أرض من أراضيها، فعندئذ سوف نبذل ما بوسعنا لمنعكم من مبتغاكم".

فلما سمع الكورنث رد الأثينيين أخذوا يتهيؤون للسفر إلى بلدهم، وأقاموا نصباً على البر الرئيسي لسيبوتا تخليداً لذكرى انتصارهم. وكان الكورسير قد تمكنوا من سحب سفنهم المحطمة وانتشال جثث قتلاهم التي حملها إليهم تيار مياه البحر والريح التي هبت في الليل ونثرتها في كل اتجاه. ولقد أقاموا بعد هذا نصباً على جزيرة سيبوتا، باعتبار أنهم المنتصرون في تلك المعركة.

أما الأسباب التي استند إليها كل طرف بادعاء النصر وإقامة النصب فهي كما سيرد: كانت الغلبة للكورنث في القتال حتى أرخى الليل سدوله، ثم تمكنوا من انتشال معظم السفن المعطوبة وجثث القتلى، كذلك كان بين أيديهم ألف أسير على الأقل، كما استطاعوا إغراق نحو سبعين سفينة معادية. أما الكورسير فكان نصيبهم تدمير نحو ثلاثين سفينة، ثم أمكن لهم بعد وصول الأثينيين استعادة ساحلهم وانتشال جثث القتلى والسفن المعطوبة من غمار مياه البحر. ثم انسحب الكورنث عند رؤية أسطول الأثينيين بعد يوم واحد من المعركة، ولم يخرجوا من سيبوتا للقتال بعد وصول الأثينيين. وهكذا كان لكل من الطرفين ادعاء النصر.

قام الكورنث بالاستيلاء على أناكتوريوم الواقعة عند ثغر الخليج الأمبراسي، وهم في طريق عودتهم إلى بلادهم. وكانت أناكتوريوم موقعاً تتمتع فيه كل من كورنثة وكورسيرا بحقوق معينة حتى سلم إلى الكورنث بالخديعة. وقبل أن يبحروا إلى موطنهم أقاموا مستوطنين من طرفهم في أناكتوريوم وباعوا ثمانمئة من الكورسير كأرقاء، وأبقوا مئتين وخمسين في الأسر، وتولوهم بكثير من العناية والاهتمام، أملاً بأن تحظى هذه المعاملة بالتقدير؛ فيكسبوا عطف القوم هناك حين يعودون إلى الجزيرة ذات يوم. وجدير بالذكر أن معظم هؤلاء كانوا على قدر عظيم من المكانة في كورسيرا، ولهم بين قومهم شأن ونفوذ.

وهكذا فإن كورسيرا لم تهزم في حربها مع كورنثة، فغادر أسطول الأثينيين الجزيرة بعد أن اطمأن إلى سلامة وضع الكورسير. غير أن الأمر كله وفر للكورنث أول الأسباب لشن الحرب على أثينا؛ لأنها قاتلتهم إلى جانب الكورسير، وإن ظلت معاهدة السلام قائمة.

الفصل الخامس: النزاع على بوتيدايا

صادف أن نشب بعيد ذلك مباشرة نزاع آخر بين أثينا والبيلوبونيز. وقد ساهم هذا النزاع في توفير الأسباب لنشوب الحرب. وكان هذا النزاع يتصل بأهل بوتيدايا الذين يقيمون في برزخ بالينة، وكانوا حلفاء لأثينا من فئة الأتباع، رغم أنهم كانوا مستوطنين من كورنثة. فقد كانت كورنثة تبحث عن طريقة للرد على أثينا، ولم تراود هذه أية أوهام عن حقيقة الحقد الذي تكنه لها كورنثة؛ ولذلك طلبت من بوتيدايا سلسلة من المطالب، نوردها كما يلي: تزيل بوتيدايا كافة التحصينات التي ترصد بالينة، وترسل رهائن إلى أثينا، وتقوم بطرد الإداريين الكورنث، وتمتنع مستقبلاً عن استقبال أولئك الذين توفدهم كورنثة كما اعتادت كل عام ليحلوا محل زملائهم. وكان ما حمل أثينا على طرح هذه المطالب خشيتها من أن تلجأ بوتيدايا إلى الثورة بتأثير من بيرديكاس؛ فتلحق بها المدن الحليفة الأخرى في تراقية. وقد لجأ الأثينيون إلى اتخاذ هذه الإجراءات الوقائية في أعقاب المعركة البحرية قبالة كورسيرا. وكانت كورنثة قد أسفرت الآن عن عدائها لأثينا دون مواربة، ومع أن بيرديكاس بن الإسكندر ملك مقدونيا، كان صديقاً وحليفاً، فقد تحول وأصبح الآن عدواً، وسبب ذلك تحالف الأثينيين مع أخيه فيليب ودرداس اللذين اتحدت قوتهما ضد بيرديكاس. ولقد خشي بيرديكاس هذه التطورات فأرسل أعوانه إلى إسبارطة وحاول إدخال أثينا في حرب مع البيلوبونيز، كما اتصل بكورنثة لدعمه في إثارة ثورة في بوتيدايا، وكذلك بالخاليكيد في تراقية والبوتيان، وهو يحث القومين في الوقت ذاته على الثورة. وكانت هذه المواقع تقع كلها على حدود بلده، وغرضه من ذلك أن يكسب هذين البلدين لحلفه وينال منهما الدعم الذي يجعله في وضع عسكري أفضل.

كان الأثينيون يعلمون بما كان بيرديكاس يخطط له فأرادوا أن يستبقوا عصيان تيْنك

المدينتين بعمل يجهض ما يدبر لهم. فاستعدوا يومئذ لتوجيه حملة إلى مقدونيا قوامه ثلاثون سفينة وألف من المشاة الثقيلة، وأقاموا على رأسها أرخيستراطوس ب ليكميديس يعاونه عدد من القادة الآخرين ووجهوهم إلى أخذ الرهائن من بوتيدايا وتدمير التحصينات ورصد الأحوال في المدن المجاورة للحيلولة دون وقوع عصيان عليهم.

ولقد أرسل البوتيد سفارة لاقناع الأثينيين بعدم الإتيان بأي عمل من شأنه إحداث تغيير في الوضع الراهن. وأوفدوا كذلك سفارة مماثلة مع الكورنث إلى إسبارطة لكسب تأييدها حين تدعو الحاجة. ولم تأت المفاوضات المطولة في أثينا بأي نتيجة تذكر وبالرغم مما بذلوه من جهود، صدرت الأوامر للأسطول المتوجه إلى مقدونيا أن يقوم بالحملة عليهم أيضاً، غير أن السلطات في إسبارطة قطعت وعداً مع ذلك بغزو أتيكا إذا ما قام الأثينيون بمهاجمة بوتيدايا. ولقد رأى البوتيد أن في هذا الوعد فرصتهم؛ فتعاهدوا مع الخاليكيد والبوتيان،ثم ثاروا على أثينا.

استطاع بيرديكاس هنا إقناع الخاليكيد بالانسحاب والتخلي عن مدنهم الواقعة على الساحل، والبقاء في منطقة في البر عند أولينثوس ليجعلوا منها مدينة كبيرة. أما أولئك الذين هجروا بيوتهم على هذا النحو فإنه قدم لهم بعض أرضه الخاصة في مجدونيا عند بحيرة بولبه ليقيموا عليها مادامت الحرب مع أثينا دائرة. وهكذا استقر الخاليكيد بعد تدميرهم لمدنهم، في البر داخل البلاد وأخذوا يتهيؤون للحرب. ولما وصلت السفن الثلاثون الأثينية إلى تراقية وجدوا بوتيدايا والمدن الأخرى قد أعلنت الثورة، فرأى قادتهم أنه يستحيل عليهم القتال بما لديهم من القوات ضد بيرديكاس وحلف المدن الثائرة؛ فما كان منهم إلا أن التفتوا لقتال مقدونيا، وكانت هدفهم أصلاً. فنزلوا على الشاطىء وقاتلوا مع فيليب وإخوة درداس الذين قدموا لغزو البلاد من الداخل.

أما وقد ثارت بوتيدايا وباتت السفن الأثينية على مقربة من ساحل مقدونيا، فقد

خشي الكورنث سقوط الموقع معتبرين أن مسؤولية سلامته تقع عليهم؛ ولذلك وجهوا قوة من المتطوعة من كورنثة ذاتها والمرتزقة من كافة أنحاء البيلوبونيز، وبلغ تعداد هذه الحملة ألف وستمئة من المشاة الثقيلة وأربعمئة من الخفيفة، بإمرة أرستيوس بن أديمانتوس الذي عرف بأنه صديق شعب بوتيدايا المنافح دوماً عنهم، ويرجع الفضل في إقبال المتطوعة الكورنث على الانضمام إلى هذه الحملة إلى حد بعيد للشعبية التي يحظى بها بين الناس. ووصلت هذه القوة إلى تراقية بعد أربعين يوماً من قيام ثورة بوتيدايا.

ولقد تلقى الأثينيون الأنباء أيضاً بعيد إعلان المدينتين العصيان، وبلغهم كذلك خبر التعزيزات القادمة بإمرة أرستيوس، فوجهوا جيشاً من ألفي مواطن وأسطولاً من أربعين سفينة لإخماد الثورة. ووضعوا على رأس هذه الحملة كالياس بن كلياديس وبإمرته أربعة آخرون من القادة. فحطوا أولاً في مقدونيا، ووجدوا القوة الأولى من ألف من المشاة قد استولوا لتوهم على ثيرمة وباتوا يحاصرون بيدنه الآن، فما كان منهم إلا أن انضموا إلى العمليات الجارية هناك. واستمر الحصار فترة من الزمن، وفي النهاية تم الاتفاق مع بيرديكاس وأقاموا معه حلفاً، ولقد اضطرهم إلى ذلك حاجتهم للإسراع بإنجاز الحملة في بوتيدايا ووصول أرستيوس إليها.

وهكذا كانت بيرويا المحطة التالية في هذه الحملة، بعد الخروج من مقدونيا، ومنها مضوا إلى ستريبسا. ثم سارت الحملة براً، بعد محاولة فاشلة للاستيلاء على هذا الموقع، فبلغت بوتيدايا. وكان لديهم قوة من ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة، فضلاً عن قوة كبيرة من قوات الحلفاء وستمئة من فرسان فيليب وباوسانياس. أما السفن السبعون فأبحرت معهم بمحاذاة الساحل، ثم بلغوا في اليوم الثالث جيجونس، وهناك أقاموا معسكرهم.

وكان أهالي بوتيدايا وجيش البيلوبونيز بقيادة أرستيوس ينتظرون الأثينيين؛ فأقاموا

معسكرهم على البرزخ قبالة أولينثوس، كما أقاموا سوقاً للجند خارج المدينة. وقد اختا الحلفاء أرستيوس قائداً عاماً لكل المشاة، وأولوا قيادة الفرسان لبيرديكاس، وكان هذا ق خرق لتوه معاهدته وحلفه مرة أخرى مع أثينا وأصبح يحارب إلى جانب البوتيد، وقد أرسل ايولاوس لينوب عنه في القيادة، بدلاً من أن يشارك في القتال بنفسه. وكانـ خطة أرستيوس كالتالي: يتمركز بقواته على البرزخ منتظراً هجوم الأثينيين، أما الخاليكيد والحلفاء الآخرون من خارج البرزخ بالإضافة إلى مئتين من فرسان بيرديكاس فيظلون في أولينثوس، وعلى هذه القوة أن تضرب مؤخرة العدو حين يأخذ الأثينيون بمهاجمة المواقع على البرزخ فيقعون بين الجيشين.

ولكن حدث أن القائد كالياس الأثيني قد وجه ورفاقه فرسانهم المقدونيين وقوة من جنود الحلفاء إلى أولينثوس لمنع وصول التعزيزات من تلك المنطقة وتقديم الدعم للقوات الأخرى. ولما تم ذلك تركت قوات الحلف الأثيني معسكرها وسارت إلى بوتيدايا، فلما بلغت البرزخ وجدت العدو يتهيأ للمعركة. وهناك نظموا صفوفهم كذلك لخوض المعركة، وما هو إلا حين حتى نشب القتال بين الجمعين. وقد أمكن للجناح الذي كان يقوده أرستيوس – حيث كان الكورنث وسواهم من صفوة القوات يخوضون القتال – من دحر القوات أمامهم ومضوا يلاحقونهم فترة من الزمن. ولكن بقية جيش البوتيد والبيلوبونيز بقي ليعاني الهزيمة على يد الأثينيين، ثم انكفأ للاحتماء وراء تحصيناتهم. وهكذا وجد أرستيوس نفسه في وضع صعب، حين عاد من مطاردته لتلك الفلول، ليرى القسم الآخر من جيشه قد دحر، وبات من الصعب عليه أن يحزم أمره ويختار الطريق الأسلم، فيلجأ إما إلى أولينثوس أو يدخل بوتيدايا. واستقر عزمه في النهاية على تركيز قواته في أقل مساحة ممكنة وشق طريقه بسرعة إلى بوتيدايا. واستطاع ذلك بأن سلك طريق مكسر الماء في البحر، ولم تكن بالعملية السهلة، إذ كانت السهام؛ والرماح تتساقط على رجاله خسر عدداً منهم، وإن استطاع النجاة بمعظمهم.

كانت الشارات قد رفعت إعلاناً ببدء المعركة، وتقدمت قوات من أولينثوس - وهي تبعد سبعة أميال من بوتيدايا وعلى مرأى منها - مسافة من الطريق للانضمام إلى المقاتلين ومؤازرة البوتيد. وفي غضون ذلك اتخذ الفرسان المقدونيون مواقعهم لاعتراض تلك القوات، غير أن النصر سرعان ما أصبح للأثينيين فنكست الرايات. وتراجعت القوات القادمة من اولينثوس من جديد وانضم المقدونيون إلى الأثينيين، وبذلك لم يتدخل الفرسان من أي من الطرفين في المعركة. وأقام الأثينيون بعد المعركة نصباً تذكارياً تخليداً لانتصارهم ، ومنحوا البوتيد هدنة من القتال ليحملوا قتلاهم من ساحة القتال، الذين بلغ عددهم من البوتيد وحلفائهم نحواً من ثلاثمئة قتيل، وكانت خسارة الأثينيين مئة وخمسين من مواطنيهم، بمن فيهم القائد كالياس.

وكان من أمر الأثينيين أنهم التفتوا فوراً لبناء سور مقابل السور الواقع إلى شمال البرزخ، ولكنهم لم يعنوا بإنشاء تحصينات مقابل بالينه؛ لأنهم لم يجدوا لديهم القدرة الكافية لحماية سورهم على البرزخ والانتقال إلى بالينه لإقامة سور آخر هناك، فقد خشوا أن يبادر البوتيد وحلفاؤهم إلى الهجوم عليهم، حين تتوزع قواتهم بين الموقعين.

حين وصلت الأنباء إلى أثينا بأن ليس ثمة تحصينات في مواجهة بالينة ترد الهجوم على قواتهم، أرسلت حامية من ألف وستمئة من المشاة الثقيلة بقيادة فورميو بن أسوبيوس. فلما وصل هذا إلى بالينة اتخذ أفايتس قاعدة له، وتحرك ببطء نحو بوتيدايا وهو يعمل تدميراً في كل بقعة يمر بها. ولما لم يخرج البوتيد للقتال، أخذ ببناء السور المطلوب فعزلهم عن بالينة. وهكذا أصبح البوتيد محاصرين في البر بالأسوار على الجانبين والسفن الأثينية تسد عليهم طريق البحر. وفقد أرستيوس كل أمل بالبقاء، وقد بات مطوقاً على هذا النحو، إلا بمعجزة أو إذا اتخذت الأحداث في البيلوبونيز منحى مختلفاً، وكانت نصيحته للبوتيد أن يرقبوا هبوب ريح مناسبة والإبحار حين تلوح

الظروف السانحة، مخلفين في الموقع حامية من خمسمئة جندي مع مؤن قليلة، وتطوع هو بالبقاء مع هذه الحامية، غير أن القوم، على كل حال، لم يأخذوا بنصيحته، وإذ رغب في القيام بما اعتقد أنه الأفضل في تلك الظروف والعمل في الوقت ذاته على الإتيان بالعون من الخارج، تسلل عبر القوات المحاصرة وانطلق مبحراً من البلدة. ثم أقام بعدئذ مع الخاليكيد وقدم لهم المؤازرة في القتال. وكان من أعماله الأخرى نصب كمين بالقرب من مدينة سرميله والقضاء على عدد من الرجال هناك. كذلك اتصل أرستيوس بالبيلوبونيز وحاول الحصول على مساعدتهم.

أما فورميو فإنه توجه برجاله الستمئة والألف، بعد أن أحكم الحصار على المنطقة، وراح يعمل تدميراً وخراباً في بلاد الخاليكيد وبوتيايا، كما استولى على بعض البلدات في تلك الأنحاء.

الفصل السادس: بحث الأوضاع في إسبارطة وإعلان الحرب

كانت الأوضاع قد سارت بما يوفر لكل من الأثينيين والبيلوبونيز أسباب الشكوى بعضهم من بعض. وكانت شكوى الكورنث من حصار الأثينيين لمستوطنتهم بوتيدايا، مع أن الكورنث والبيلوبونيز الآخرين كانوا موجودين في المنطقة. أما أثينا فكانت لها، من ناحية أخرى، أسباب للشكوى من البيلوبونيز؛ لأنهم أيدوا ثورة المدينة التي تحالفها وتقدم لها الضريبة، كما أنهم انضموا صراحة إلى بوتيدايا في القتال ضدها. وبالرغم من ذلك كله فقد ظلت الهدنة سارية والحرب لم تقم بعد. فما جرى من الأمور حتى هذا الحين كان أمراً قامت به كورنثة من طرفها.

أما الآن فقد طرحت كورنثة الأمور علناً؛ فبوتيدايا باتت محاصرة وبعض مواطنيها محاصرون فيها، وهي تخشى سقوط الموقع وضياع الأراضي؛ فكان أن أسرعت تحث حلفاءها على إيفاد السفارات إلى إسبارطة. وهناك قام موفدوها بالهجوم العنيف على الأثينيين لخرقهم الهدنة والعدوان على البيلوبونيز. وكان أهالي إيجينا إلى جانب كورنثة، لكنهم امتنعوا عن إرسال وفد رسمي إلى إسبارطة خوفاً من أثينا، إلا أنهم عملوا على تأجيج نار الحرب سراً، وكانت شكواهم أن الاستقلال الذي وعدوا به ونصت عليه المعاهدة لم يتحقق. كذلك وجه الإسبارطيون الدعوة إلى حلفائهم وأي طرف آخر يعاني من عدوان أثينا. وبعد ذلك عقد الإسبارطيون مجلسهم على مألوف العادة، وأفسحوا المجال للسفراء ليبسطوا وجهات نظرهم.؛ فعرض العديد منهم شكواهم على اختلافها. وقد أبرز سفراء ميجارا على الخصوص - بعد أن ذكروا عدداً من أسباب شكواهم - موضوع منعهم من الرسو في مرافىء إمبراطورية أثينا وسوق أثينا ذاتها، وكان الكورنث آخر من تقدم للكلام، بعد أن تركوا لمن سبقهم القيام بدورهم في تأليب إسبارطة ضد أثينا، فخاطبوا المجتمعين بما يلي:

"أيها الإسبارطيون، إن ما يجعلكم تترددون بعض الشيء في الاستماع إلينا نحن الآخرين، إذا كان لدينا أفكار لنطرحها عليكم، فهو ما تحملونه من ثقة عظيمة بدستور بلادكم ونهجكم في الحياة، وتلك خصلة تجعلكم تنزعون للاعتدال في أحكامكم ولعلها هي السبب أيضاً فيما تظهرونه من جهل في الشؤون الخارجية. فلطالما قلنا لكم أنكم سوف تعانون على الأرجح من أثينا، فكنتم تظنون بدوافعنا الظنون في كل مناسبة نحذركم فيها مما قد يتأتى من الركون إليها، وتحسبون أننا إنما نقول ذلك بدافع من نقمة تعتمل في أنفسنا. وكانت النتيجة أنكم لم تدعوا إلى اجتماع الحلفاء هذا إلا بعد أن وقعت الواقعة؛ وقد آثرتم الانتظار إلى الآن حتى غدونا نعاني جميعاً هذا الخطب. ولما كان لدينا أكثر الشكاوى جدية، فلربما كنا من بين هؤلاء الحلفاء جميعاً أكثر من يحق له التحدث إليكم. إننا نشكو من أثينا لتماديها في العدوان ، ومن إسبارطة لإعراضها عما قدمنا لها من النصح.

"ولو كان هناك شيء من الشك أو الالتباس في هذا العدوان الذي طال بلاد هيلاس كلها، لكان علينا أن نعرض الوقائع أمامكم ونبين لكم ما خفي عليكم. ولكن بما أن الأمور واضحة فإن هذا يعفينا من الخطابات المطولة. ولكم أن تروا كيف انتزعت أثينا من بعض الدول حريتها وغدت تحيك المكائد لتكرر الأمر مع دول أخرى، وخاصة بين حلفائنا، ثم إنها كانت تعد نفسها منذ زمن طويل للحرب، وإلا كيف انتزعت منا السيطرة على كورسيرا؟ ولم تراها تقوم بحصار بوتيدايا؟. إن السبب في ذلك هو أن بوتيدايا تشكل أفضل قاعدة تنطلق منها أية حملة على تراقية، ولدى كورسيرا أسطول ضخم ومن شأنه أن يدعم حلف البيلوبونيز.

"إنكم مسؤولون عن هذا كله. فأنتم من سمح للأثينيين في المقام الأول بتدعيم مدينتهم وبناء الأسوار الطويلة بعد حرب الفرس. ثم إنكم ما انقطعتم تنكرون الحرية

منذ ذلك الحين وحتى اليوم، ليس على أولئك الذين استرقتهم أثينا وحسب، بل حتى على حلفائكم أيضاً. والمرء إذ يحرم من الحرية محق في الشكوى ممن يكبله بالأصفاد، ومن ذاك الذي يملك القوة لمنع هذا العمل وامتنع، وخاصة إذا أصاب هذا صيتاً مدوياً ونال مجداً باعتباره محرر هيلاس.

"إنه لم يكن بالأمر اليسير حتى في هذه المرحلة تدبير هذا اللقاء، بل ولم نجد حتى في هذا اللقاء اقتراحات محددة نتداولها. فلماذا نحن مانزال ننظر إن كان ثمة عدوان قد وقع بدلاً من أن نتدارس السبل اللازمة لمقاومته؟ إن الرجال القادرين على العمل الحق يعدون الخطط أولاً ثم يمضون دون تردد وأعداؤهم لم يحزموا أمرهم بعد. أما الأثينيون فإننا نعلم أساليبهم وكيف يتدرجون في التجاوز على جيرانهم. إنهم الآن يمضون في أسلوبهم ببطء لاعتقادهم بأن عدم تحسسكم بالوضع يمكنهم من السير في نهجهم دونما ملاحظة، ولسوف تجدونهم قد عبؤوا قواهم كاملة حالما يدركون أنكم تحيطون بما يجري، ولا تأتون بما يحبط مسعاهم.

"إنكم أيها الإسبارطيون الشعب الوحيد في بلاد هيلاس الذي ينظر بهدوء إلى مجريات الأحداث، معتمدين على الدفاع لا على الفعل، وإنما على الإيحاء للناس بأنكم مقبلون على تصرف. وأنتم وحدكم لا تأتون بأي عمل في المراحل الأولى يمنع العدو من التوسع؛ بل تؤثرون الانتظار حتى يكون العدو قد ضاعف من قوته. ومن المؤكد أنكم اشتهرتم بالهدوء والتماس اليقين حتى تتبين لكم الأمور؛ إلا أن المرء ليتساءل إن كنتم تستحقون هذه السمعة حقاً. لقد جاء الفرس من أقاصي الأرض وبلغوا البيلوبونيز قبل أن تعدوا القوة اللازمة للقائهم، أما الأثينيون فإنهم – على العكس من الفرس – مجاورون لكم، ومع ذلك فإنكم لا تعيرونهم اهتماماً، بل تؤثرون الانتظار حتى يبدأوا الهجوم بدلاً من الخروج لقتالهم، وبذلك تجازفون بكل شيء حينما تقاتلون خصوماً باتوا أكثر قوة من

ذي قبل.

"والواقع أنكم تعلمون أن السبب الرئيس في فشل غزو الفرس كان السياسة الخاطئة التي انتهجوها، كما تعلمون أيضاً أنه كانت هناك مناسبات عديدة أفلحنا فيها بمواجهة عدوان الأثينيين، وكان الفضل في ذلك لأخطائهم أكثر مما هو بسبب أي عون نلناه منكم. والحق أننا نستطيع أن نذكر مناسبات أصيب فيها بالخراب أولئك الذين عولوا عليكم فأهملوا الإعداد لمواجهة الخطوب لثقتهم بكم.

"إننا لا نود أن تظنوا بنوايانا الظنون ونحن نخاطبكم الآن، بل قصدنا التذاكر وإياكم كما هو العهد بين الأصدقاء حين يرتكبون خطأ. فالاتهامات إنما يوجهها المرء لأعدائه.

" إن من حقنا – كأي شخص آخر – الإشارة إلى أخطاء جيراننا، خاصةً حين نرى الفارق الكبير بينكم والأثينيين. فنحن نرى أنكم لا تدركون هذا الاختلاف جيداً؛ ذلك أنكم لم تحاولوا بعد معرفة أي قوم هم هؤلاء الأثينيون الذين سوف تضطرون لقتالهم، وما مدى اختلافهم العظيم عنكم. فالأثيني أبداً مبتكر، سريع إلى بلوغ القرار، سباق إلى التنفيذ، أما أنتم، من الناحية الأخرى، فتحسنون الإبقاء على الأمور كما هي، وإذا ما بادرتم إلى أمر وقفتم دون بلوغ الهدف. ثم إن جرأة الأثينيين تعود عليهم بأضعاف ما بذلوا، وهم يجازفون ولو زينت لهم الحكمة كبح نزعاتهم، ويظلون مع ذلك على ثقتهم بصواب عملهم وسط الأخطار من حولهم. وأما أنتم فإن طبعكم ينزع بكم دائماً لبذل ما هو دون استطاعتكم، والشك بصواب تقديراتكم وإن كانت صائبة، والظن بأن الأخطار قائمة إلى الأبد. وهاكم بعدُ هذا: إنكم تحجمون، وهم يقبلون ولا يترددون، إنكم تلزمون دياركم، وهم أبداً يرتادون الأراضي البعيدة؛ ومذهبهم في هذا كله أنهم كلما بعدوا عن ديارهم كانت مغانمهم أعظم، بينما يزين لكم فكركم أن كل حركة تنطوي على خطر يهدد ما لديكم بالزوال. والأثينيون إن تحقق لهم نصر اتبعوه في التو

بعمل يضاعفه، وإذا حاقت بهم هزيمة لم ينكفئوا. أجسامهم ترخص في سبيل مدينتهم، وكأنما تلك الأجساد ليست لهم، بل إن كل شخص يرقّي عقله وقصده أن يأتي بأمر لم يسبقه إليه أحد فيزيد في مجد مدينته. وهم إذا قصدوا أمراً ولم يتحقق لهم اعتقدوا أنهم منعوا مما هو حق لهم حكماً، أما إذا صادفهم النجاح فإنهم يرونه دون ما سيقومون به لاحقاً. وإذا ما فشلوا في أمر عمدوا إلى تعويض الخسارة فوراً بأن يوجهوا آمالهم وجهة أخرى. ويمكن للمرء أن يخصهم بالقول دون سواهم: إنهم قوم ينالون ما يبغون حالما تتجه إليه رغبتهم بامتلاكه، فالعمل عندهم يتبع القرار. وهكذا يمضون للعمل وسط الصعاب والأخطار طوال أيام حياتهم، ويكادون لا ينعمون بما هو في حوزتهم لانشغالهم دائماً بأن يزيدوا ما لديهم. ويوم الراحة عندهم مكرس لإنجاز ما ينبغي إنجازه، وهم قوم يؤثرون معاناة الصعاب والعمل على الراحة والسكون. وخلاصة القول أنهم قوم لا يقدرون بطبعهم على الحياة الهادئة، ولا يستطيعون أن يدعوا سواهم يعيش في هدوء.

"تلكم هي طبيعة المدينة التي تناوئكم، ومع ذلك فأنتم مازلتم على إحجامكم. إنكم لا ترون أن الطريق الأقرب لحفظ السلام لا يكون بأن يضع المرء قوته لتحقيق العدل وحسب، بل أن يبين عزمه على التصدي للعدوان أيضاً. وعلى العكس، فإن الفكرة التي تأخذون بها عن المسلك اللائق تنحو – أولاً – إلى اجتناب إلحاق الضرر بالآخرين، ثم تفادي نزول الأذى بكم، حتى لو كان الأمر يتعلق بالدفاع عن مصالحكم. وإنه ليصعب على المرء أن يتبين كيف يمكن لسياسة كهذه أن تصادف نجاحاً، حتى لو كانت تقف على حدودكم قوة تشارككم القناعة بالمبادىء نفسها التي تأخذون بها. أما اليوم فإن نهجكم في الحياة – كما سبق لنا القول– لا يتفق مع ما يتطلبه هذا الزمان، إذا ما قارناه بنهجهم. وهذا يصدق على السياسة كما يصدق على أي فن أو حرفة؛ إذ لا بد للطرائق الجديدة من أن تطرد القديمة منها. ولا ريب في أن التقاليد القديمة الراسخة هي الفضلى

حين تستطيع المدينة أن تنعم بالسلام والسكينة، ولكن على المرء أن يواجه المشكلات الجديدة بأسلوب مبتكر، حين لا تفتأ تلح عليه. وهكذا فإن أثينا دولة تفضلكم حداثة بسبب اتساع تجربتها وتنوعها.

" إن تقاعسكم قد ألحق بكم ما يكفي من الضرر، فاحزموا أمركم وأقلعوا عن هذا النهج. قدموا لحلفائكم – وخاصة بوتيدايا – العون الذي وعدتم به، وامضوا لغزو أتيكا فوراً، ولا تدعوا أصدقاءكم وأهلكم يسقطون في قبضة أعدائهم الألداء. ولا تكرهوا البقية منا على دخول حلف آخر ليأسهم منكم. ولو سلكنا هذا الدرب لما حق لأحد أن يلقي اللوم علينا، لا الآلهة الذين كانوا شهوداً على عهودنا ولا أي إنسان ممن بمقدورهم إدراك الوضع الذي نواجهه. فالذين خرقوا معاهدة التحالف هم أولئك الذين تخلوا عن إمداد الحليف بالعون الذي أقسموا على تقديمه، وليس أولئك الذين باتوا مضطرين للتحول إلى جهة أخرى؛ لأنهم تعرضوا للخذلان في وقت الشدة. أما إذا حزمتم أمركم وشددتم العزم للعمل فسنقف إلى جانبكم. ولسوف يكون أمراً مجافياً لطبيعة الأمور أن نتحول عن نهجنا، كما أننا لا نستطيع أن نجد حلفاء آخرين تربطنا بهم ما يربطنا بكم من علاقات وثيقة. وها قد سمعتم ما أردنا قوله، فلتفكروا ملياً في قراركم. لقد ورثتم عن آبائكم زعامة البيلوبونيز، فاحرصوا على عظمة هذا الإرث".

ذلكم هو ما قاله الكورنث. وكان قد صادف حضور بعض ممثلي أثينا في إسبارطة لأمور أخرى، فلما سمعوا تلك الكلمات رأوا أن عليهم أن يسمعوا الآخرين وجهات نظرهم أيضاً، ولم تكن غايتهم رد ما وجه إلى أثينا من الاتهامات من مختلف المدن، بل كانوا راغبين في الإدلاء ببيان عام والإشارة إلى أن هذه القضية ينبغي عدم التسرع في حسمها بل تحتاج إلى تمحيص وتدقيق. ثم إنهم أرادوا الإفادة من المناسبة لعرض مبلغ قوة مدينتهم، وتذكير الأعضاء الكبار في المجلس بحقائق معروفة لديهم، وإعلام الأصغرين

سناً بامور يجهلونها. وكانوا يأملون بن يتمكنوا بهذه الطريقة من حمل مستمعيهم على طرح فكرة الحرب من أذهانهم وترك الأمور تهدأ؛ لذلك تقدم هؤلاء إلى الإسبارطيين طالبين الإذن بمخاطبة المجلس، إن لم يكن هناك ما يمنع ذلك؛ فأجابوهم إلى طلبهم، فكان للأثينيين الخطاب التالي:

"إن وفدنا هذا لم يأت للخوض في جدل مع حلفائكم، وإنما للبحث في موضوع كلفتنا به مدينتنا، بيد أننا لاحظنا تعرضنا لهجمات شديدة غير مألوفة؛ لذلك عزمنا على التقدم ومخاطبتكم. إننا لن نرد على ما وجهت إلينا تلك المدن من اتهامات. إن مجلسكم ليس محكمة لتنظر في الادعاءات، سواء من طرفهم أو من طرفنا. وغرضنا هنا أن نحول دونكم واتخاذ القرار الخاطىء في أمر ذي أهمية بالغة، بإيلائكم آراء حلفائكم الكثير من الاهتمام. ونود منكم في الوقت ذاته أن تتفحصوا المبادىء العامة التي تحكم الحجة التي استخدموها ضدنا ، وتتبينوا أن مكاسبنا كانت في حدود المعقول، وأن مدينتنا جديرة بقدر من الاعتبار.

"إننا لسنا بحاجة للحديث فيما جرى قبل زمن طويل؛ إذ إن دليلنا هنا سيكون مجرد قيل عن قال، عوضاً عن حديث شهود عيان من مجلسنا. ولكن لا بد لنا من الإشارة إلى حرب الفرس وأحداث تعرفونها جميعاً جيداً، وإن كنتم ربما قد سئمتم ذكرها لكثرة ترداد روايتها. إننا بذلنا التضحيات في كل أفعالنا في تلك الحرب من أجل الخير العام، وقد كان لكم نصيبكم من الغنيمة، فلا تحرمونا من نصيبنا من المجد ومن الخير الذي سيأتي به. إننا لا نتكلم بروح من يسأل فضلاً، وإنما بروح من يملك الحجة والدليل. إن هدفنا هو أن نبين لكم أية مدينة سوف تواجهون حين تخطئون القرار.

"وإليكم تاريخنا: لقد تصدينا للفرس في معركة الماراثون وواجهناهم وحدنا في الميدان، وفي الغزوة التالية خرجنا وكل قومنا بما لدينا من السفن يوم كنا لا نقدر على

مواجهة العدو على اليابسة وشاركنا في القتال في سلاميس، وأدت هذه المعركة إلى من الفرس من الإبحار وقتال البيلوبونيز وتدمير مدنها، مدينة تلو الأخرى؛ فما كان ثمة نظام للدفاع المشترك يقف في وجه تفوق الفرس في البحر. وأفضل شاهد على هذا مسلك الفرس أنفسهم؛ ذلك أنهم أدركوا - حين خسروا المعركة في البحر - أن قوتهم قد شلت، فما كان منهم إلا أن قاموا بسحب معظم جيشهم من القتال. وهذه، إذن، كانت النتيجة، والبرهان على أن قدر بلاد هيلاس يتوقف على أسطولها. وبعد، فلقد أسهمنا في هذه النتيجة عبر ثلاث طرق هامة: فكنا نحن من صنع أكثر هذه السفن، ونحن الذين قدموا أفضل القادة حصافة، وأظهرنا أشد الشجاعة؛ فكان نصيبنا من السفن الأربعمئة الثلثيْن تقريباً، أما القائد فهو ثيميستوكليس الذي يعود إليه الفضل في تحقيق النهاية المظفرة في معركة المضائق؛ وهذا ما أنقذنا بلا جدال. وأنتم أنفسكم قدمتم له بسبب بلائه تكريماً لم تقابلوا به أي زائر آخر من قبل. ولقد أظهرنا من الشجاعة والجرأة في هذه الحرب ما عز نظيره، ولما افتقدنا المؤازرة من البر - بعدما غدت الدول حتى حدود بلادكم مستعبدة - اخترنا أن نهجر مدينتنا ونضحي بأملاكنا وأرزاقنا، ولكننا لم نتخل عن حلفائنا في القضية المشتركة، ولم نشتت قوانا ونجعل من أنفسنا عبئاً عليكم، بل هرعنا إلى سفننا وركبنا بحر الأخطار، دون أن نحمل لكم ضغينة، لأنكم لم تبادروا إلى نجدتنا في وقت أبكر. وإذن فلنا أن نقول: إننا قد بذلنا أكثر مما تلقينا. وكان ما يزال هناك أناس يسكنون المدن التي غادرتموها، وكنتم تقاتلون للحفاظ عليهم، وعندما أرسلتم قواتكم للقتال كان ذلك بدافع من الخوف على أنفسكم أكثر مما كنتم تخشون علينا - وعلى كل حال فإنكم لم تظهروا في الميدان، إلا بعد ما فقدنا كل ما لدينا -. وكان وراءنا - من جهة أخرى - مدينتنا التي نالها الدمار وأصبحت أثراً بعد عين؛ ومع ذلك ثابرنا وجازفنا بحياتنا من أجل هذه المدينة التي بدا أنه من المستحيل استعادتها. وهكذا انضممنا إليكم وقدمنا العون لا لإنقاذ أنفسنا وحسب، وإنما لإنقاذكم أيضاً. ولو

أننا خشينا مثل الآخرين على أرضنا وصانعنا الفرس قبل وصولكم، أو اعتبرنا أنفسنا فيما بعد قد خسرنا على نحو لا ينفع معه رجاء، وافتقدنا الشجاعة لركوب سفننا لما كان ثمة جدوى من قتالكم العدو في البحر، بما أنه ليس لديكم من السفن ما يكفي لهذا الغرض. ولولا ذلك لتحققت أماني الفرس بسهولة وهدوء.

"إن الشجاعة والتصميم اللذين أبديناهما أيها الاسبارطيون، ينبغي ألا يقابلا بعداء مفرط من الهيلينيين، وخاصة ما يتصل بإمبراطوريتنا. إننا لم نكسب هذه الإمبراطورية بالقوة، إنما دانت لنا حين كنتم تعرضون عن قتال الفرس حتى النهاية. ففي ذلك الحين جاء حلفاؤنا بمحض إرادتهم ورجونا أن نتولى زمام القيادة. ولقد اضطرتنا مجريات الأحداث لزيادة قوتنا إلى حدها الراهن، وكان حافزنا الأول الخوف من فارس، وإن أخذنا بعدئذ بالتفكير أيضاً بكرامتنا ومصالحنا الخاصة. وأخيراً جاء وقت وجدنا فيه أنفسنا مطوقين بالأعداء، بعدما أخمدنا بعض الثورات، عندما فقدتم مشاعر الود التي كنتم تمحضوننا إياها؛ فانقلبتم علينا وأخذتم تثيرون شكوكنا تجاهكم. وكان واضحاً هنا أنه لم يعد من المأمون أن نجازف بضياع إمبراطوريتنا، خاصة وأن أي حليف يتركنا لا بد أن ينتقل إلى صفكم، وحين يعم الخطب لا حرج على المرء إن سعى لما هو في صالحه.

"والحق أنكم أيها الإسبارطيون، قد عملتم في قيادتكم للبيلوبونيز على تدبير أمور الدول لتكون ملائمة لكم. ولو كنتم قد ثابرتم على القيام بدور ناشط في الحرب، في السنوات التي نحن بصدد الحديث عنها، لغدوتم ممقوتين مثلنا، وفيما يتصل بفرض زعامتكم، فلا شك لدينا بأنكم ستكونون قساة على حلفائكم كما كان شأننا؛ إذ إن الخيار أمامكم إما أن تحكموا بحزم وإما أن تجازفوا بأمنكم وتخاطروا بسلامتكم.

"وكذلك هي حالنا اليوم، إننا لم نأت بما هو خارق، ولا بما يخالف طبيعة البشر حينما قبلنا بإمبراطورية قدمت لنا ثم رفضنا التخلي عنها. وهناك ثلاثة دوافع قوية تمنعنا

من ذلك: الأمن والشرف والمصلحة. وإننا لسنا السباقين إلى هذا النهج، بل العكس
ذلك. فقد كانت القاعدة التي درج عليها البشر أن يخضع الضعيف للقوي، بالإ
إلى أننا نعدّ أنفسنا جديرين بما لدينا من قوة. ولقد كنتم حتى هذه اللحظة توافق
الرأي الذي كنا نعتقده بأنفسنا، أما الآن – بعد أن أخذتم مصالحكم بعين الاعتبا
فأصبحتم تتكلمون عن الصواب والخطأ. إن اعتبارات من هذا النوع لم تجعل البش
يتعففون أبداً عن اغتنام فرص امتلاك العظمة التي توفرها لهم القوة العظمى. و
يستحقون الثناء فعلاً هم أولئك الذين لهم من طبيعة البشر ما يجعلهم يتمتع
بالسلطة، لكنهم مع ذلك يراعون العدل ولا يسمحون لمناصبهم أن تشغلهم عنه. و
نعتقد أنه لو قدر لسوانا أن يكون في الوضع الذي نحن فيه لتبين لكل ذي عينين إن ك
سلوكنا معتدلاً أم لا. ومع ذلك، فإن ما نأخذ به من مراعاة الآخرين قد أتى لنا بالملام
بالرغم مما في هذا من مجافاة للعقل – أكثر مما حمل إلينا من ثناء. وعلى سبيل المثا
أننا في التقاضي وحلفاءنا في مسائل تتصل بالمواثيق جعلنا أنفسنا في الموقف الأضعف
فلما طلبنا أن تنظر في هذه القضايا محاكم محايدة في أثينا قال الناس فينا: إننا نهو
اللجوء إلى رفع الدعاوى إلى المحاكم. وليس هناك من يكلف نفسه مشقة السؤال، لماذا
تتعرض قوى امبريالية أخرى على هذا النحو من التنديد الذي تناولونا به، وهي الت
تعامل رعاياها بعسف دونه نهجنا؟ فالحقيقة هي طبعاً أنه لا ضرورة للاحتكام إلى القانو
حين يمكن استخدام القوة. إن رعايانا، من الناحية الأخرى، قد ألفوا معاملتهم بالمساواة
ولذا، فإنهم حين يشعرون بخيبة الأمل فيما يعتقدون أنه حق ويضيقون بأقل حيف
نزل بهم في محاكمنا أو بسبب ما توفره لنا إمبراطوريتنا من أسباب القوة، يتوقفون ع
الشعور بالتقدير لنا بالرغم من المزايا التي خلفناها لهم، بل الحق أنهم يزدادون شعو
بالمرارة لهذا التفاوت البسيط بيننا، مرارة تفوق ما قد يراودهم لو أننا منذ البداية طرح
القانون جانباً وغدونا نثري أنفسنا صراحة على حسابهم. وما كان لهم عندئذ أن يخالف

بالتأكيد القضية الثابتة وهي أنه لا محيص للضعيف من أن يستسلم للقوي ويقدم له الطاعة. ويبدو أن الناس في الواقع أشد برماً بظلم القوانين منهم بعسف القوة؛ ذلك أنهم يرون في الحالة الأولى أن جوراً نزل بهم على يد من هو مساوٍ لهم، أما في الحالة الثانية فلقد خضعوا مجبرين لطرف أقوى منهم. ولا جدال في أنهم عرفوا معاناة أشد تحت نير الفرس، بيد أنهم يعتقدون أن حكمنا يتصف بالطغيان والعسف. وقد تكون هذه نزعة طبيعية، فالأقوام التابعة تجد الحاضر دائماً أشد وطأة عليها، لكننا واثقون من أمر واحد وهو: إن قدر لكم القضاء علينا والاستيلاء على إمبراطوريتنا، فلسوف تخسرون كل ما فزتم به من الثقة بسبب خوف الآخرين منا، ولو التزمتم بقواعد السلوك التي أظهرتموها من قبل، في الفترة القصيرة التي كانت لكم فيها قيادة هيلاس ضد الفرس. فنهجكم في الحياة لا يتفق ونهج الآخرين. وإنها لحقيقة أيضاً أن أحدكم إن انتقل إلى بلد غريب فإنه لا يعمل بالقواعد التي درج عليها ولا بما تأخذ به بقية بلاد هيلاس.

" عليكم إذن بالأناة، ولتتمهلوا حتى تبلغوا قراركم، فإنه قرار خطير، ولا تدعوا آراء الآخرين وشكواهم أن تقحمكم فيما سيكون مبعثاً لضيقكم. ولتنظروا كذلك في الدور الخطير التي تضطلع به المجاهيل والمصادفات وما لا يمكن التنبؤ به في الحرب. تدبروا هذا الأمر قبل أن تزجوا بأنفسكم في حمأة القتال؛ ذلك أن الحرب كلما طالت أصبحت مصائرها تعتمد الصدف. وتلك تصاريف لا نملك لا نحن ولا أنتم أن نتبينها، ولسنا نملك معها إلا انتظار ما ستأتي به. وحين يخوض قوم حرباً فإنهم يخطئون التصرف؛ فللأفعال عندهم المقام الأول، ولا يلتفتون لإعمال الفكر إلا بعد أن تكون قد نزلت بهم النازلة. غير أننا مازلنا ننأى بأنفسنا عن مثل هذا النهج الخاطىء، وأنتم كذلك، على ما يزين لنا اعتقادنا. ولذلك فإننا نحثكم الآن – ونحن نتمتع كلانا بالحرية لاتخاذ قرارات عقلانية – ألا تقطعوا السلم، وألا تحنثوا بالأيمان الذي أقسمتم بها، بل دعونا نسوي ما نختلف فيه بالتحكيم كما نصت المعاهدة بيننا. فإن أبيتم فستكون الآلهة التي سمعت

عهودنا وما أقسمنا عليه شهوداً لنا، ولسوف تكونون أنتم البادئين بالحرب، وسنحاول نواجهكم في كل ساحة تختارونها".

كان ما عرضته هو قول الأثينيين. وهكذا فقد سمع الإسبارطيون دعاوى حلفائهم ضد الأثينيين، كما سمعوا رد الأثينيين. ولذلك طلب الإسبارطيون من الحضور الأجانب مغادرة المكان وراحوا يتداولون ما عرض عليهم من الدعاوى والردود. ومال معظم الناس إلى الرأي بأن أثينا أخذت بالعدوان ولا بد من إعلان الحرب دون إبطاء. فنهض ملك إسبارطة أرخيداموس، الذي عرف بالذكاء والاعتدال، وألقى الكلمة التالية، قال فيها:

"اعلموا أيها الإسبارطيون أني شاركت في حياتي في حروب عديدة، وأرى بينكم الآن أناساً في مثل سني. ولقد كانت لنا أنا وهؤلاء خبرة بالحرب؛ ولذلك فليس يرجع أن نشارك فيما قد يكون حماساً عاماً لخوضها، ولا في الاعتقاد بأنها أمر مستحسن مأمون. ولسوف تجدون – إن أنعمتم النظر في المسألة – أن هذه الحرب الراهنة التي تتداولونها، لن تكون على الأرجح ضيقة النطاق. حين يحتدم القتال مع البيلوبونيز والجوار، فإن القوى على الجانبين تكون من النمط ذاته، ونستطيع توجيه ضربتنا بسرعة حيث نشاء، أما مع أثينا فالأمر مختلف؛ فلسوف نشتبك في هذه الحالة مع قوم يقيمون بعيداً عنا، قوم لهم أطول باع في البحر، قوم يتمتعون بأحسن العتاد في كل المجالات الأخرى، وهم على ثراء عريض، بوصفهم أفراداً أو دولة، ويتمتعون بالسفن والفرسان والمشاة الثقيلة، وبأكبر كثافة من السكان، فضلاً عن الحلفاء الذين يدفعون لهم الضرائب. فكيف نندفع ونبدأ حرباً على قوم كهؤلاء؟ ، وماالذي لدينا لنعتمد عليه إن اندفعنا لخوضها دون أن نكون مستعدين لها؟ هل هو أسطولنا؟، إنه دون أسطولهم، ولو التفتنا إليه بالعناية اللازمة وزدنا في قوته، لاستغرق منا الأمر زمناً طويلاً، أم ترانا نعتمد على ثروتنا؟ إننا هنا دونهم ثراء؛ إذ ليس لنا مال عام، ولا هو باليسير لنا أن نحوز

المساهمات من المصادر الخاصة. وقد يكون لنا ما يبرر الثقة بتفوق مشاتنا الثقيلة وعدد من الجند والإمكانات ما يتيح لنا غزو بلادهم وترويع أهلهم؛ غير أن لأثينا أرضاً واسعة تهيمن عليها خارج أتيكا، ولها أن تستورد ما تريد بحراً. ولو حاولنا حمل حلفائها على الثورة عليها، فلسوف نضطر عندئذ لمؤازرتهم بأسطول من عندنا؛ لأن معظم هؤلاء يقيمون في جزر في البحر. فأية حرب إذن سوف نخوضها؟ إذا كنا لا نقوى عليهم في البحر ولا نستطيع أن ننتزع منهم أسباب القوة التي يعتمد عليها أسطولهم فإننا سوف نلحق الضرر بأنفسنا أكثر مما نجني مكسباً. ثم إننا لن نتمكن بعد هذا حتى من عقد سلم مشرف، خاصة إذا رأى القوم أننا كنا البادئين بالعراك. وإنني أقول هذا لئلا نخدع أنفسنا بأمل كاذب بإنهاء الحرب سريعاً متى أنزلنا الخراب والدمار بأرض هؤلاء القوم. والحق أني أخشى أن الأرجح هو أننا سوف نخلف هذه الحرب لأولادنا ليرثوها من بعدنا. ويقيني هو أن للأثينيين من الكرامة و الاعتزاز ما يجعلهم يأبون أن يكونوا عبيداً لأرضهم، أو التهرب من الحرب كما لو أنهم لم يخبروها.

"ولست أقصد من هذا القول أن علينا أن نسلم لهم، وندعهم يلحقون الأذى بحلفائنا، ونتجاهل ما يحيكون من المؤامرات، بل قصدت من ذلك أن ندع السلاح جانباً في هذه اللحظة، ونرسل سفارة إلى الأثينيين ونعرض لهم شكوانا، وينبغي علينا عندئذ ألا نجاهر بالتهديد بالحرب، بل يجدر بنا في الوقت ذاته أن نبين لهم أننا لن نسمح لهم بالتصرف على هواهم. ولنا في غضون ذلك أن نعد للأمر عدته؛ فنعمل على اكتساب حلفاء جدد من الهيلينيين والأجانب من أي منطقة إلى صفنا، لنزيد في قوة أسطولنا ومصادرنا المالية. وليس هناك من يستطيع أن يلقي علينا اللوم إن عملنا لضمان أمننا وسلامتنا بالتحالف مع الأجانب والإغريق في وقت يعمل فيه الأثينيون على تهديد أوضاعنا، كما هو الحال فعلاً. وعلينا أن نعمل في الوقت ذاته على ترتيب شؤوننا. فإن راعوا شكوانا التي نعرضها بالطرق الدبلوماسية وفروا علينا مرارة الحرب، أما إذا أعرضوا

فسوف تكون لنا مهلة من سنتين أو ثلاث سنوات نعد فيها أنفسنا ونقوّي موق
لنستطيع مهاجمتهم، إن شئنا ذلك. ولعل الأثينيين يجنحون لمسايرتنا متى وجدوا قو
تضارع اللغة التي نستخدمها، وبما أن أرضهم بقيت دون مساس وأملاكهم ظلت سال
فعليكم أن تنظروا إلى أرضهم باعتبارها رهينة بين أيديكم، وهي تزداد قيمة
أحطتموها بالعناية. فاحرصوا عليها حتى اللحظة الأخيرة، وحذار من أن تدفعوا بهم إل
اليأس فعندئذ سوف يشق عليكم التعامل وإياهم. وإني لأحذركم من التسرع، ونحن
على هذه الحال من ضعف الاستعداد، وتدمير أرضهم بسبب شكاوى حلفائنا؛ فتأتي
للبيلوبونيز بعار عظيم ونكبات كبرى. أما المظالم فيمكن تدبيرها سواء أتت من المدن
من الأفراد؛ أما حين يعلن اتحادنا كله الحرب من أجل مصالح بعضنا، وحين يستحيل
التنبؤ بأي مسار سوف تسير فيه تلك الحرب، فليس من اليسير بلوغ تسوية مشرفة فيه
أبداً.

"ولا يذهبن الاعتقاد بأحدكم بأنه من الجبن أن نتردد قبل الهجوم على مدينة واحدة
وحشدنا كبير؛ ذلك أن للأثينيين من الحلفاء مثل ما لنا، وحلفاؤهم يدفعون لهم
الإتاوات. ثم إن الحرب ليست مسألة سلاح بقدر ما هي مسألة مال؛ لأن المال هو الذي
يجعل الأسلحة ماضية فعالة، ويصدق هذا على وجه الخصوص على الحرب بين قوة برية
وأخرى بحرية. وإذن فلنتعهد خزائننا بالعناية أولاً، وحذار- حتى تستقيم أمورنا المالية -
أن تطيح خطب حلفائنا بعقولكم. إننا نحن الذين سوف ننهض بمعظم المسؤولية لما
سوف تؤول إليه الأمور فيما بعد، حسنة كانت أم سيئة؛ فعلينا إذن بالتروي وتفحص
بعض هذه الاحتمالات بأناة "

"أما البطء والتزام الحذر - وهما ما يؤخذ علينا عادة - فليس فيهما ما يدعو
للخجل. فإذا هرعتم إلى أمر قبل أن تستعدوا له، كان معنى السرعة في البداية الإبطاء

في النهاية. فضلاً عن ذلك، فإن المدينة التي نعيش فيها كانت حرة ومشهورة على الدوام. فـ "البطء" و"الحذر" قد يعنيان "الحكمة" و"التعقل" أيضاً. والحق أننا بسبب هاتين الخصلتين كنا الشعب الوحيد الذي لا يصاب بالخيلاء والتيه حين يحقق النجاح، ولا يجنح إلى الاستسلام في أوقات المحن. ونحن لا تأخذنا النشوة عند سماع مديح الناس لنا؛ فنندفع لركوب مخاطر نراها في غير محلها، كذلك من المرجح أن الخجل لن يدفعنا إلى أن نستسلم لآراء الآخرين الذين يحاولون حثنا على ذلك بكيل الاتهامات لنا. إننا بفضل حياتنا المنظمة أصحاب شجاعة وإقدام في الحرب وحكمة في النقاش. أقول شجعاناً؛ لأن ضبط النفس يقوم على مفهوم الشرف، والشرف يقوم على الشجاعة. ونحن نتصف بالحكمة؛ لأننا لم نبلغ درجة من التعليم تجعلنا نزدري قوانيننا وعاداتنا، فقد دربنا على ضبط النفس وأُحسن تدريبنا حتى إننا لم نعد نملك إلا أن نطيع هذه القوانين والأعراف. ولقد دربنا على تفادي الوقوع فيما لا طائل من ورائه – مثل أن نمتلك القدرة على الإتيان بنقد فذ لمواقف أعدائنا، ثم إذا وقعت الواقعة قصرنا عن التصدي لهم – بل تعلمنا على العكس من ذلك، أن ليس ثمة اختلاف ذو بال بين نهجنا في التفكير ونهجهم، وأن من المستحيل حساب ما تأتي المصادفة به من أحداث على وجه الدقة. فالإجراءات العملية التي نتخذها تقوم دائماً على الافتراض بأن أعداءنا لا يفتقرون للحصافة والذكاء. وإذن فالمنطق والحكمة تفرضان أن نتدبر الأمور بالاحتياط وألا نعقد الآمال على احتمال ارتكاب أعدائنا الأخطاء. وليس ثمة جدوى في الافتراض باختلاف البشر بعضهم بعضاً اختلافاً ذا شأن؛ والحق أن الفوز لمن ركب الطريق الأصعب.

"فلنحرص على اتباع هذا النهج الذي أخذناه عن آبائنا ومازلنا نحافظ عليه، والذي انتفعنا به أشد النفع. ولنتمهل ولا نستعجل الأمور فنتخذ في يوم واحد قصير قراراً يكون له أعظم الأثر في حياة الرجال ومصائرهم ومقادير المدن وشرفها، بل الأحرى بنا أن

نعتمد الرؤية عند اتخاذ مثل هذا القرار. ونحن نملك الوقت أكثر من سوانا بفضل ما
من القوة. أما الأثينيون فإني أنصح بأن نوفد إليهم سفارة لبحث موضوع بوتيدايا وسو
حيث واجه حلفاؤنا العنت. وهذا عندي عين الصواب طالما أن الأثينيين أنفسهم
أبدوا استعداداً للقبول بالتحكيم. وحين يعرض طرف هذا فإن مما يجافي القانون أن نبادر
إلى الهجوم عليه أولاً، وكأنه الخاطىء بلا جدال؛ لذلك عليكم أن تمضوا في الوقت ذا
بالإعداد للحرب. ذلكم هو القرار الأفضل لكم، كما أنه كفيل بأن يثير الخوف في قلوب
أعدائكم."

بعد خطاب أرخيداموس هذا تقدم ستينلَيادس وهو أحد الإيفور لهذا العام (الإيفور
أحد قضاة خمسة كانت لهم سلطة الإشراف على الملك الإسبارطي، ويتم انتخابهم كل
عام) وألقى كلمة اختتام الجلسة:

"إني لعاجز عن استيعاب تلك الخطب المطولة التي يحلو للأثينيين إلقاؤها. ونحن
لاحظت في خطبتهم أنهم وإن أطنبوا في مديح أنفسهم لم يأتوا بما يناقض الحقيقة وهي
أنهم يسلكون مسلك العدوان تجاه حلفائنا والبيلوبونيز. وإنها لواقعة لا ريب فيها وهي
أنهم إن كانوا أبلوا بلاء حسناً في الماضي في مقارعة الفرس فإنهم يسيئون التصرف الآن
معنا؛ لذلك حق عليهم أن يدفعوا الثمن مضاعفاً جزاء عملهم، إذ كانوا ذات يوم
يحسنون العمل ثم ساءت سيرتهم الآن. أما نحن فمازال حالنا اليوم كما كان في
الماضي، ومع أننا متعقلون فلن نسمح بأن ينال من حلفائنا عدوان، ولن نتمهل في تقديم
العون لهم، وهؤلاء لن ينتظروا حتى ينالهم العسف. وقد يكون الآخرون يملكون المال
الكثير والأساطيل والخيل، أما نحن فلدينا حلفاء يعتد بهم، وينبغي ألا نغدر بحلفائنا
ونسلمهم للأثينيين. وليس هذا بالأمر الذي يحسم بالتقاضي والقانون والكلام: . إن
الكلمات ليست هي السبب فيما تعانيه مصالحنا. فعلينا أن نهرع لإعانة حلفائنا وبكل

ما أوتينا من قوة بدلاً من اللجوء إلى الكلام. ولا يقولن أحد أن علينا الجلوس ومناقشة الأمور بينما نحن نتعرض للهجوم؛ فالأجدر بهذه المناقشات المطولة هم أولئك الذين يفكرون بشن العدوان. وإذن فلتدلوا بأصواتكم، أيها الإسبارطيون لصالح الدفاع عن شرف إسبارطة والحرب! ولا تدعوا للأثينيين الفرصة ليزدادوا قوة ! ولا تخونوا حلفاءكم ! بل لنمض قدماً، بعون السماء، لمواجهة المعتدي ! "

وبعد أن ألقى ستينلايدس كلمته، طرح الأمر– بحكم موقعه كأحد أعضاء الإيفور– أمام المجلس التشريعي لإسبارطة. وكان أن اتخذ هؤلاء قراراتهم بالهتاف، وليس بالتصويت، فقال ستينلايدس بادئ الأمر: إنه لا يستطيع أن يحدد أي الفريقين، المؤيد أو المعارض، كان هتافه الأعلى. وكان يريد بقوله هذا أن يحمل أعضاء المجلس على التعبير عن آرائهم صراحة وأن يزيد من حماسهم للحرب. فقال مخاطباً إياهم: "أيها الإسبارطيون، من كان منكم يعتقد أن المعاهدة قد انتهكت وأن الأثينيين معتدون فلينهض ويقف في جانب واحد، ومن كان له غير هذا الرأي فليقف على الجانب الآخر"، ثم أشار إلى حيث ينبغي عليهم الوقوف؛ فنهض المجلس وقوفاً وانقسموا إلى فريقين. وكان رأي الأغلبية العظمى أن المعاهدة قد انتهكت.

وقاموا بعدئذ باستدعاء حلفائهم إلى المجلس وأخبروهم بقرارهم بأنهم يرون في تصرفات أثينا مسلكاً عدوانياً، ولكنهم شاؤوا أن يكون حلفاؤهم كافة حاضرين عند طرح الأمر للتصويت ليكون القرار– إن كان بالحرب– بالإجماع.

ولما تم الأمر ونال موفدو الحلفاء ما سعوا إليه قفلوا عائدين إلى وطنهم. وكان ذلك ما فعله وفد الأثينيين أيضاً بعد أن أنجزوا مهمتهم في تلك البقاع. وقد تم اتخاذ القرار بأن المعاهدة انتهكت فعلاً في السنة الرابعة عشرة من معاهدة هدنة الثلاثين عاماً التي عقدت بعد واقعة يوبوية، ولم يكن تصويت الإسبارطيين لصالح الرأي الذي يقول: إن المعاهدة

قد انتهكت بسبب من تأثرهم بالخطب التي ألقاها حلفاؤهم بقدر ما هو خشيتهم
ازدياد قوة الأثينيين، بعدما وجدوا أكثر بلاد هيلاس بات يخضع لسلطان أثينا.

الفصل السابع: استطراد، بدايات قوة أثينا

يعرض هذا الفصل كيف أصبحت أثينا في الموقع الذي مكنها من امتلاك هذه القوة.

بعد انسحاب الفرس من أوروبا، بعدما أنزل بهم الهيلينيون الهزيمة في البحر والبر، والقضاء على فلول الذين هربوا إلى ميكاله عن طريق البحر، قفل ملك إسبارطة ليوتيخيديس الذي تولى قيادة الهيلينيين في ميكاله عائداً إلى بلده مصطحباً معه الحلفاء من البيلوبونيز. بينما تلكأ الأثينيون ومن كان معهم من الحلفاء من أيونيا والهليسبونت (مضيق الدردنيل) الذين كانوا قد ثاروا على الملك الفارسي في العودة، وأحكموا الحصار على مدينة سيستوس التي كان الفرس يحتلونها. ولقد أمضى الأثينيون وحلفاؤهم فصل الشتاء في تلك الأصقاع حتى ملكوها أخيراً بعدما جلا عنها الفرس، ثم خرجوا بسفنهم من الهليسبونت ليتفرقوا عائدين إلى مواطنهم الأصلية.

وكان الأثينيون قد أخذوا في غضون ذلك يعودون بأطفالهم ونسائهم وما بقي لهم من متاع من مخابئهم، ومضوا في إعادة بناء مدينتهم وتحصيناتهم؛ إذ لم يكن هناك من مبانيها سليماً إلا أجزاء بسيطة من سورها القديم، أما بيوتهم فكان معظمها خراباً، ولم يسلم منها إلا ما كان مقراً لكبار القادة الفرس.

ولقد أوفد الإسبارطيون حين بلغتهم هذه الأخبار سفارة إلى أثينا، وكان بعض السبب في هذه المبادرة، أنهم لم يكونوا ليرتاحوا إلى فكرة تحصين أثينا أو سواها، والأهم من ذلك هو إلحاح حلفائهم عليهم لتدبر الأمور، وقد أثار خشيتهم نمو الأسطول الأثيني المفاجىء وما أبداه الأثينيون من جرأة وإقدام في حربهم ضد الفرس. وقد طلب السفراء الإسبارطيون أن تتوقف أثينا عن بناء التحصينات، كما طالبوها كذلك بأن تنضم إليهم في إزالة التحصينات التي مازالت قائمة في المدن خارج البيلوبونيز. وكان الإسبارطيون يخفون عند تقديم هذا العرض مقصدهم الحقيقي وما يراودهم من مخاوف من الأثينيين،

وكانت حجتهم تقوم – فيما قالوا– على أن الفرس إن أقدموا على غزوهم ثانية
تكون لديهم قواعد قوية ينطلقون منها، كما كان أمرهم في طيبة، ثم إن البيلو
كفيلة بأن توفر احتياجات الجميع من حيث الملجأ والقاعدة التي ينطلقون منها للهجو

بعد الخطاب الذي ألقاه الإسبارطيون، عجل الأثينيون – بناء على نصيحة ثيميستوكليس – بإعادتهم إلى بلدهم حاملين الرد بأنهم سوف يبعثون بسفارة لمناق إسبارطة في النقاط التي أثاروها أمامهم. واقترح ثيميستوكليس بأن يوفدوه إلى إسبار فوراً، دون أن يرافقه موفدون آخرون في الوقت الراهن، وألا يرسلوهم حتى تبـ تحصيناتهم من الارتفاع ما يسمح لهم بالدفاع عنها، وأن يقوم السكان جميعاً بالعمـ المتواصل من أجل الإسراع في بناء الأسوار، وألا يدعوا بيتاً أو مبنى عاماً يمكن الإفادة مـ سليماً، بل يجب هدمه لاستخدام مواده في بناء التحصينات.

وهكذا انطلق ثيميستوكليس إلى وجهته، مخلفاً تلك التعليمات ليعمل بها النـ قائلاً : إنه سوف يتولى كل ما يلزم لتدبير الأمور في إسبارطة. ولما وصل إلى إسبارطـ تفادى الاتصال بالحكومة وأخذ يتذرع بمختلف الحجج ليرجىء البحث في القضايا التي تنتظر الحسم ، وإذا ما سأله أحد المسؤولين هناك عن سبب تأخره في المثول أمام المجلـ كان يرد بأنه مازال بانتظار وصول زملائه أعضاء السفارة، الذين تأخروا لانشغالهم بأمور طارئة في أثينا، وهو ينتظر قدومهم ويعجب لعدم حضورهم حتى ذلك الوقت. أمـ الإسبارطيون فقد صدقوا ما قاله ثيميستوكليس بسبب الاحترام الذي كانوا يكنونه له، ولكن مع توارد الأخبار التي حملها لهم الآخرون، وجميعها تؤكد قيام الأثينيين ببناء التحصينات، وأنها بلغت ارتفاعاً ملحوظاً، لم يعد بوسعهم الشك فيما كان يجري في تلك الأصقاع. وكان رد ثيميستوكليس أنه يجدر بهم ألا يقعوا فريسة للشائعات، بل الأحرى أن يبعثوا ببعض أهل الثقة ليأتوهم بالخبر الصحيح. وكان أن بعث الإسبارطيون

بجماعة منهم لاستجلاء الأمور، بينما أرسل ثيميستوكليس سراً من يطلب من الأثينيين استبقاء المبعوثين الإسبارطيين عندهم تجنباً - إن أمكن - لحرج السؤال الصريح، وألا يدعوهم يعودون حتى يعود وزميليه؛ ذلك أن رفيقيه أبرونيخوس بن ليسكليس، وأريستريديس بن ليسيماخوس كانا قد لحقا به في تلك الأثناء، وأخبراه بأن القوم قد قطعوا شوطاً كبيراً في بناء التحصينات، فخشي من أن يمنعهم الإسبارطيون من العودة إلى أثينا حين تبلغهم الأخبار بما جرى.

امتثل الأثينيون لتعليماته؛ فعملوا على إبقاء الاسبارطيين وتأخير عودتهم. وقابل ثيميستوكليس المسؤولين الإسبارطيين وتحدث إليهم أخيراً حديثاً صريحاً، فقال لهم: إن أثينا باتت حصينة الآن بما يوفر لها المنعة وحماية أهلها، فإذا شاء الإسبارطيون وحلفاؤهم إرسال سفارات إليها في أي أمر فعليهم أن يذهبوا إليها وهم مدركون أن الأثينيين قادرون على اتخاذ القرار بشأن مصالحهم الخاصة ومصالح بقية بلاد هيلاس، وبيّن أنه حين اتخذ الأثينيون قرارهم الجريء بهجر مدينتهم وركوب سفنهم لم يطلبوا المشورة من إسبارطة، وحين يتشاورون مع الإسبارطيين في أمر يتضح أن ليس ثمة من يمكنه أن يقدم لهم نصيحة أفضل مما قرروه. وهاهم اليوم يرون أن صواب الرأي يقضي بتحصين مدينتهم، وهو خير لمواطنيهم وللحلف كله؛ لأن المصلحة المشتركة لا تصان إلا على أساس تساوي القوى والمناقشات التي تقوم على العدل، وهذا يعني إما أن تبقى كل المدن في الحلف بلا تحصين، وإما أن تتم الموافقة على ما قام به الأثينيون.

ولم يبد على الإسبارطيين بعدما استمعوا إلى مقال الرجل ما ينم النفور من أثينا. والواقع أن سفارتهم إلى أهل أثينا لم تقصد التعبير عن إرادة منع إقامة التحصينات بل تقديم النصح وحسب. كذلك كان هذا هو الوقت الذي كانت فيه إسبارطة تظهر الود لأثينا، لما أبدته من ضروب الشجاعة في تصديها للفرس. ولكن الإسبارطيين باؤوا

بالفشل على كل حال، وانتابهم شعور بالضيق لهذا الإحباط. وعاد الوفدان، كل دولته، دون أن يقدم أي شكوى.

وهكذا فإن الأثينيين قد حصنوا مدينتهم في فترة قصيرة. ومازال بوسع المرء أن اليوم أن البناء تم على عجل؛ فالأساسات خليط من الأحجار، وبعضها متنافر لم يعمل فيه إزميل البناء، وإنما وضع كما هو يومذاك، كذلك هناك العديد من الأعمدة جُلبت من المقابر وأجزاء من تماثيل اختلطت مع أحجار أخرى، وكان السبب في ذلك ترامي حدود المدينة من كل جانب ففرضت العجلة أن يستخدم البناؤون كل ما تقع عليه أيديهم في بناء الأسوار.

ولقد نصحهم ثيميستوكليس بعدُ بإكمال بناء أسوار بيرايوس التي بدأ العمل فيها من قبل، خلال العام الذي أمضاه في منصب الأرخون – الحاكم الأول للمدينة –. وكان ثيميستوكليس معجباً بموقع المدينة بمرافئها الطبيعية الثلاثة، وقد رأى أنه إذا قدر للأثينيين أن يصبحوا من الأمم البحرية فسوف يجدّون في ركوب البحر بفضل تلك المزايا التي تزيد من قوتهم. والحق أنه كان أول من بادر بالقول للأثينيين: إن مستقبلهم في ركوب البحر. وهكذا انضم الرجل للعمل في إرساء أسس إمبراطوريتهم.

كان السور قد بني من حيث العرض وفق المواصفات التي حددها لهم، ويمكن للمرء أن يراها في السور الذي يحيط ببيرايوس اليوم. وهناك مسافة تسمح لمرور عربتين تحملان أحجار البناء، والمساحة بين السطحين الخارجيين خالية من الركام أو الآجر، وقد استعاض منها البناء بقطع ضخمة مقطوعة وملتصقة بعضها ببعض مع مشابك من الحديد والرصاص على الطرف الخارجي. أما ارتفاع السور عند اكتماله فيبلغ نصف ما كان قد خطط له. وقد أراد من هذه الأسوار الضخمة العريضة أن ترد عن المدينة هجمات العدو مهما كان نوعها، فبوجود تلك الأسوار– في رأيه– يمكن لقلة من الجند الأغرار الدفاع

عنها بشكل جيد، بحيث يمكن للآخرين الخدمة في البحر. والجدير بالذكر أن أفكاره كانت تنصب بصورة أساسية على البحرية؛ ذلك أنه كان يدرك – على ما أحسب– أن من الأيسر على القوة الفارسية الهجوم على أثينا من ناحية البحر أكثر منها من ناحية البر، ثم إن بيرايوس كانت في رأيه ذات موقع أهم من مدينة أثينا. والحق أن النصيحة التي يرددها باستمرار على الأثينيين هي أن ينزلوا إلى بيرايوس حين يشتد الضغط عليهم من البر فيلجؤوا إلى سفنهم ويتحدوا الغزاة.

وهكذا قام الأثينيون بتحصين مدينتهم بعد انسحاب الفرس مباشرة، وعززوا موقعهم على وجه العموم.

ولقد أُرسل باوسانياس بن كليوبروتوس بُعيد ذلك من إسبارطة على رأس القوات الهيلينية. وكان بإمرته عشرون سفينة من البيلوبونيز، وانضم إليه بعدها حشد من ثلاثين سفينة من أثينا وعدد من السفن الأخرى زج بها الحلفاء الآخرون. فاتجه هؤلاء إلى قبرص أولاً، وفازوا بمعظم أراضي الجزيرة، ثم اتجهوا بعدئذ ضد بيزنطة التي كانت تحت احتلال الفرس؛ وهناك فرضوا على تلك المواقع الاستسلام والقوات ماتزال بإمرة باوسانياس، غير أن باوسانياس كان قد بدأ عندئذ يكشف العجرفة التي تلازم طبعه، فأخذ الهيلينيون يضيقون به، وكذلك الأيونيون وأولئك الذين كانوا قد تحرروا لتوهم من تحكم الفرس. فاتصلت تلك الدول بأثينا تسألها بحكم روابط القربى أن تشملها بحمايتها، وتردع باوسانياس إن تصرف تصرف الطغاة. ولقد رحب الأثينيون بتلك الاتصالات، وكانوا قد حزموا أمرهم على وضع حد لباوسانياس وترتيب الأمور عموماً على نحو يلائم مصالحهم.

وفي تلك الأثناء استدعى الإسبارطيون باوسانياس للتحقيق بما بلغهم من مختلف التقارير عن سلوكه؛ فقد وجه إليه الهيلينيون الذين وصلوا إلى إسبارطة اتهامات خطيرة، ومفادها أنه بدلاً من التصرف كقائد عام للقوات بدا منه ما يوحي بأنه يحاول فرض نفسه

دكتاتوراً. ثم صادف أن جاء استدعاؤه في الوقت الذي أخذ فيه الحلفاء، ناهيكم الجند من البيلوبونيز، ينتقلون إلى صف الأثينيين، بسبب من سوء مسلكه الذي أدى تفشي الضيق منه.

وفي إسبارطة أُدين باوسانياس لارتكابه المظالم في حق الأفراد، لكنه بريء الدعاوى الأساسية ضده، وأخطرها التواطؤ مع الفرس، وتلك تهمة كان لها على ما يبدو سند قوي من الحقيقة. وبدلاً من تكليفه بمهمة القائد العام من جديد، أرسل الإسبارطيون دورسيس وضباطاً آخرين على رأس قوة صغيرة، غير أن الحلفاء لم يعودوا يقبلون الآن بهؤلاء ليتولوا القيادة العليا. فلما أدرك الإسبارطيون هذا التحول قفلوا عائدين من حيث أتوا، وانقطعت إسبارطة عن إرسال قادة آخرين من طرفها. وكانوا يخشون أن يصيب الفساد قادتهم حين يركبون البحر، كما حصل في حالة باوسانياس، كما أنهم باتوا الآن زاهدين في تحمل أعباء الحرب على الفرس، ورأوا أن الأثينيين قادرون على تولي القيادة فضلاً عن اعتبارهم أصدقاء لهم.

وهكذا تولت أثينا القيادة وقابل الحلفاء – بسبب من نفورهم من باوسانياس- مبادرتها بالابتهاج. وبعد ذلك قام الأثينيون بتحديد المساهمات اللازمة من مختلف الأطراف في الحرب على الفرس، فقرروا أي الدول التي يتوجب عليها توفير المال ومن عليها أن تقدم السفن؛ وذلك للتعويض ممّا لحق بهم من خسائر بتدمير المنطقة التي يحتلها ملك فارس. وقام الأثينيون في ذلك الوقت بتعيين أول من عرفوا بـ "مسؤولي الخزانة الهيلينية" . وكان هؤلاء يتسلمون الإتاوات، وهو الاسم الذي سميت به المساهمات المالية، وقد حدد مبلغ الإتاوة أصلاً بأربعمئة وستين تالنت. وكان مقر خزانة الحلف في ديلوس، أما اجتماعات أعضاء اللجنة فكانت تعقد في المعبد هناك. وكانت القيادة أثينية، إلا أن الحلفاء كانوا من الدول المستقلة أصلاً، وقراراتهم يتخذونها في اجتماع عام.

الفصل الثامن: استطراد، نمو الإمبراطورية الأثينية

هاكم الآن ما قاموا به في الحرب وفي تصريف الأمور، خلال الفترة الممتدة ما بين الحرب التي شنّها الفرس حتى بداية حرب البيلوبونيز. وبعض هذه الأعمال موجه ضد الفرس، وبعضها موجه ضد حلفائهم حين يثورون، وبعضها الأخر ضد القوى البيلوبونيزية التي كانت لهم وقائع مع الحلف في مناسبات مختلفة، وأنا أقدم هذه الرواية وهذا الاستطراد بعيداً عن روايتي الأساسية؛ لأن هذه الفترة لم تحظ بعناية من سبقني من الكتاب الذين كانت عنايتهم منصبة على موضوعات تتصل إما بالتاريخ الهيليني وإما بحروب الفرس ذاتها. وكان هيلانيكوس الوحيد بين هؤلاء الذي تناول هذه الفترة في كتابه "التاريخ الأتيكي"، لكنه لم يفسح لهذا الموضوع مساحة كبيرة، ثم إنه يفتقد للدقة في تعيين المواعيد. كما أن تاريخ هذه السنوات كفيل بأن يعرض في الوقت ذاته كيف ظهرت الإمبراطورية الأثينية.

كان أول عمل قام به الأثينيون هو حصار أيون، وهي بلدة تقع على نهر الستريمون ومحتلة من الفرس؛ فاستولوا عليها بقيادة سيمون بن ملتيادس واستعبدوا سكانها. والتفتوا بعدئذ إلى جزيرة سكيروس في بحر إيجة وسكانها من الدولوبيين فاسترقوهم واستوطنوا ذلك المكان، ثم الحرب على الكاريستين الذين لم يحظوا بالدعم من بقية يوبوية. وكان أن استسلموا في النهاية وفق شروط. بعد هذه الواقعة انسحبت ناكسوس من الحلف، فشن عليها الأثينيون الحرب وحاصروها، وأجبروها على العودة إلى الحلف. وكان ذلك أول خرق لدستور الحلف وخسارة مدينة حليفة لاستقلالها، وتكررت العملية مع حلفاء آخرين في ظروف أخرى. والأسباب الرئيسة لهذه الثورات هي العجز عن تقديم المساهمة المالية المُعينة أو السفن المحددة، وأحياناً رفض تقديم أي سفينة البتة؛ ذلك أن الأثينيين كانوا يصرون على الوفاء بالالتزامات، وكانوا يثيرون على أنفسهم

النقمة بما يمارسونه من ضغط على حلفاء لم يألفوا البذل والتضحية، بل ولا يرغبون ذلك. كذلك أخذ الأثينيون كحكام يفقدون شعبيتهم القديمة لأسباب أخرى أيضا ومنها: أنهم كانوا يتحملون أكثر من قسطهم في القتال، غير أن هذا سهل لهم إجبار دولة على العودة إلى صفوف الحلفاء، إن رغبت في الانسحاب. ولكن الذنب في هذا يقع على الحلفاء ذاتهم؛ لأن معظم تلك الدول، بسبب تخاذلها عن مواجهة أعباء الخدمة العسكرية، عمدت إلى رصد الأموال وبذلها بدلاً من تقديم السفن. وكان من نتيجة ذلك أن تضخم الأسطول الأثيني على حساب تلك الدول، فإذا أعلنت العصيان وجدت نفسها في المواجهة قليلة السلاح والخبرة في خوض الحروب.

ولقد وقعت بعدئذ معارك نهر الأوريميدون في بامفاليا، التي شنها الأثينيون وحلفاؤهم على الفرس في البر والبحر. وكان النصر في هذه المعارك للأثينيين بقيادة سيمون بن ملتياديس، وتمكنوا في اليوم ذاته من الإيقاع بالأسطول الفينيقي المؤلف من مئتي سفينة ثلاثية المجاذيف؛ فدمروا منها مادمروا واستولوا على مااستولوا.

وبعد حين قامت ثورة ثاسوس. وسببها نزاع على الأسواق في البر الرئيسي قبالة تراقية والمنجم الذي يسيطر عليه الثاسيون. فأبحر الأثينيون إلى ثاسوس بأسطولهم وحققوا فوزاً في معركة بحرية، ثم نزلت قواتهم على أرض الجزيرة، وفي الوقت ذاته تقريباً أرسلوا عشرة آلاف شخص من مواطنيهم ومواطني الدول الحليفة إلى نهر الستريمون للاستقرار في المنطقة المعروفة يومئذ بـ"الدروب التسعة"، وتسمى اليوم "أمفيبوليس". فاحتل هؤلاء "الدروب التسعة"، وطردوا منها سكانها الأيدونيين، ولكنهم حين توغلوا في داخل تراقية ووصلوا إلى مدينة درابيسكوس الأيدونية تعرضوا للتمزق باجتماع جيش من التراقيين الذين رأوا في تأسيس مستوطنة عند "الدروب التسعة" عدواناً عليهم.

وفي تلك الأثناء ناشد أهل ثاسوس الذين هزموا في المعركة، وأصبحوا الآن تحت

الحصار، إسبارطة أن تمد لهم يد العون بغزو أتيكا. ولقد تعهد الإسبارطيون بالمعونة، دون أن يخطروا أثينا بنواياهم، لولا أن اعترضهم الزلزال في بلادهم وعصيان الهيلوت – أرقاء إسبارطة– وبعض البيريوك، وهؤلاء هم الثوريون والأثينيون، أما الأرقاء فمعظمهم من نسل الميسينيين القدماء الذين استرقوا في الحرب الشهيرة؛ ولذلك أطلق عليهم جميعاً اسم الميسينيين، وقد انحازوا إلى إيثوم. وهكذا وجدت إسبارطة نفسها تخوض حرباً على العصاة في ايثوم، واضطر الثاسيون في السنة الثالثة من الحصار لقبول شروط الأثينيين من تدمير الأسوار التي أقاموها وتسليم أسطولهم، ثم فرض عليهم دفع التعويض فوراً جزاء ما تجشمه أصحاب الحملة فضلاً عن الإتاوة مستقبلاً، كما قُضي بأن يتنازلوا عن حقوقهم في البر الرئيسي وتسليم المنجم أيضاً.

ولما وجد الإسبارطيون الآن أن حربهم في إيثوم لا تومىء بنهاية سألوا العون من حلفائهم بمن فيهم أثينا، فأتى الأثينيون إلى إسبارطة بقوة ضخمة وعلى رأسها سيمون. وكان السبب الأساس الذي حمل الإسبارطيين على طلب المساعدة من الأثينيين، ذيوع صيتهم في أعمال الحصار، فبعد حصارهم الطويل لإيثوم اتضح للإسبارطيين افتقارهم للخبرة في هذا المجال، ولولا ذلك لاستولوا على المنطقة بعمل هجومي. وكانت هذه الحملة فاتحة أول نزاع صريح بين أثينا وإسبارطة؛ فحين عجز الإسبارطيون عن أخذ ايثوم اقتداراً، انتابتهم الخشية من جرأة الأثينيين ومكرهم، كذلك راودتهم فكرة أن هؤلاء ينتمون إلى قوم غير قومهم، وخشوا إن طال مقامهم في البيلوبونيز أن يصغوا إلى أهل إيثوم وقد يقومون برعاية بعض السياسات الثورية؛ ولذلك أعادوا الأثينيين إلى بلدهم بينما احتفظوا ببقية حلفائهم، دون أن يفصحوا عن حقيقة مخاوفهم، مقتصرين على القول: إنهم لم يعودوا بحاجة إلى المزيد من عون الأثينيين. ولكن هؤلاء عرفوا بأنهم إنما يبعدون لسبب غير هذا السبب المحمود، ورأوا أنهم باتوا على نحو ما موضع شك وريبة. ولقد شعروا بإهانة جارحة لهذه المعاملة؛ إذ لم تكن هذه بالمعاملة التي يجدر أن ينالوها

من إسبارطة، وهكذا ما إن عادوا إلى الوطن حتى أنكروا معاهدة الحلف بينهم ضد الفرس، وأعلنوا انحيازهم إلى آرجوس، عدو إسبارطة. كذلك عقدت آرجوس وأثينا حلفاً وفق الشروط ذاتها مع الثيسال. وكان العصاة في إيثوم قد نال منهم اليأس بعد عشر سنوات من القتال، ولم يعد بوسعهم الصمود بعد هذا؛ فاتفقوا وإسبارطة على أن يسمح لهم بمغادرة البيلوبونيز بأمان وألا يعودوا إليها أبداً، وإذا ما قبض على أحدهم فيها في المستقبل، فإنه سيصبح عبداً لمن قبض عليه. وهناك نبؤة نطقت بها عرافة دلفي وأخذ بها الإسبارطيون، وتقضي بأن يترك الذين يصلون لزيوس في إيثوم يمضون بسلام. وهكذا غادر هؤلاء المنطقة ومعهم أزواجهم وأطفالهم، فتلقاهم الأثينيون وأسكنوهم نكاية بإسبارطة في بلدة نوبكتوس التي كانوا قد انتزعوها قبل عهد قريب من الأوزوليين اللوكريين.

وفي ذلك الحين انضمت ميجارا أيضاً إلى الحلف، متخلية عن حلفها وإسبارطة، بسبب هجوم الكورنث عليها في حرب سببها نزاع حول الحدود بين البلدين. وهكذا سيطر الأثينيون على ميجارا وبيجاي وبنوا للميجار أسوارهم الطويلة من المدينة حتى نيسايا، وقاموا على حراستها بجند أثينيين. وكان هذا السبب الأساس الذي جعل الكورنثيين يحملون هذا القدر من الضغينة لأثينا.

قرابة ذلك الوقت قام إيناروس بن بسميتاك - وكان ليبياً وملكاً على الليبيين عند حدود مصر - بتنظيم ثورة على الملك الفارسي أحشويرش، انطلاقاً من ماريا جنوب فاروس لتعم مصر كلها. وبعد استيلائه على السلطة طلب المساعدة من الأثينيين. وصادف يومئذ أن كان الأثينيون منهمكين في حملة على قبرص بأسطول من مئتين من سفنهم وسفن حلفائهم، ولقد تخلى هؤلاء عن حملتهم وتوجهوا إلى مصر من البحر في أعلى النيل، فسيطروا على النهر وثلثي أرض ممفيس، ثم حاولوا إخضاع الثلث الباقي

والذي يعرف بالقلعة البيضاء، حيث كان الفرس والميديون الذين هربوا، والمصريون ممن لم يشاركوا في التمرد.

وكان الأثينيون قد وجهوا في ذلك الوقت أيضاً أسطولاً نزل في هالياي. وهنا تصدت لهم قوة من الكورنث والإبيداريين، وكان النصر في هذه الموقعة للكورنث. ثم وقعت بعد ذلك معركة بحرية بين الأسطولين البيلوبونيزي والأثيني عند سيكريفاليا، وكان النصر فيها للأثينيين.

بعد هذا نشبت الحرب بين أثينا وإيجينا، ودارت معركة بحرية كبرى عند إيجينا بين الأثينيين والايجينيين، والحلفاء على الجانبين. كان النصر في هذه المعركة للأثينيين الذين استولوا فيها على سبعين من سفن الأعداء. ثم نزل هؤلاء في إيجينا وأحكموا الحصار على المدينة بقيادة ليوكراتيس بن سترويبوس. ولما بلغت الأمور هذا الحد تدخل البيلوبونيز لتخفيف العبء عن إيجينا فنزلوا في الجزيرة بقوة ثلاثمئة من المشاة الثقيلة الذين سبق لهم الخدمة إلى جانب الكورنث والأبيداريين. وقد استولى الكورنث وحلفاؤهم في الوقت ذاته على مرتفعات جيرانيا، وتقدموا لمهاجمة الميجاريين، وهم يعتقدون بأن من المستحيل أن يأتي الأثينيون لنجدة ميجارا؛ نظراً لانشغال قوتين كبيرتين من قواتهم في إيجينا ومصر؛ وذلك اعتقاداً منهم بأنه لا بد لأثينا، إن أرادت إنقاذ ميجارا، من أن تسحب قواتها من ايجينا. ولكن الأثينيين لم يقوموا بشيء من هذا القبيل، بل عمدوا إلى إنشاء قوة لحماية مدينتهم من الشيوخ والفتية، وساروا بقيادة مايرونيديس إلى ميجارا. وهنا دارت معركة حاسمة بينهم وبين الكورنث، واعتبر كل طرف عندما انتهت أنه كان الرابح فيها. ولكن الأثينيين الذين كانوا قد تفوقوا في واقع الحال في القتال هم من أقام نصباً تخليداً للنصر، بعد انسحاب الكورنث. وبعد اثني عشر يوماً قام الكورنث، الذين عانوا من سخرية الشيوخ في مدينتهم بإعداد العدة

وخرجوا ليقيموا نصبهم برهاناً على أنهم كانوا المنتصرين؛ فخرج الأثينيون إليهم من ميجارا، وكانت لهم الغلبة على تلك الفرقة من الجيش الذين كانوا يعملون في إقامة النصب، ثم تابعوا القتال حتى دحروا بقية أعدائهم. وفيما كان الكورنث المهزومون يتراجعون، دخل جزء كبير من جيشهم - وهم تحت تأثير الضغط الشديد الذي يتعرضون له، ولا يدرون حقاً أين يتوجهون - في أملاك شخص ما، وكان يحيط بها خندق عميق فلا مخرج لها. فقام الأثينيون بإغلاق المدخل الرئيسي - بعد أن شاهدوهم على هذه الحال - بمشاتهم الثقيلة، وطوقوا الموقع بقوات خفيفة السلاح وراحوا يمطرون كل من كان في ذلك المكان بالحجارة حتى ماتوا بالرجم ولم يبق منهم أحد. أما الجسم الرئيس من جيشهم فقد تراجع متجهاً إلى كورنثة.

وفي تلك الأثناء تقريباً بدأ الأثينيون بناء سورين طويلين حتى تخوم البحر؛ أحدهما في فاليريوم والآخر في بيرايوس. وفي غضون ذلك كان الفوك قد جردوا حملة على دوريس، وهي منبت الإسبارطيين الأصلي، وتضم بلدات بويوم وكيتنيوم وإيرنيوم. فلما تمكنوا من الاستيلاء على إحدى هذه المواقع هرع الإسبارطيون لنجدة الدوريين بقوة من ألف وخمسمئة من مشاتهم الثقيلة وعشرة آلاف من جانب حلفائهم. وكانت هذه القوة بقيادة نيكوميديس بن كليومبروتوس بصفته نائباً للملك بليستوناكس الذي كان مايزال حدثاً قاصراً. وحمل الإسبارطيون الفوك على القبول بشروطهم وإعادة البلدة بعد احتلالها، ثم شرعوا في تدبر رحلة العودة، ورأوا أنهم لو عادوا عن طريق البحر، عبر خليج كريسا، لاعترضهم الأثينيون بأسطولهم وقطعوا عليهم طريق العودة، كذلك لم يبد لهم الطريق عبر جيرانيا آمناً، نظراً لوجود الأثينيين في ميجارا وبيجاي. والممرات أعلى جيرانيا صعبة ويقوم الأثينيون على حراستها دوماً، وفوق هذا كله كان الأثينيون كما بلغ الإسبارطيين من أخبار عازمين على الحيلولة دونهم وسلوك هذا الطريق؛ لذلك فقد بدا من الأفضل البقاء في بويوطيا والانتظار وتبين أفضل الطرق للمسير. وقد

حملهم على هذا النهج أيضاً وجود حزب في أثينا كانوا يتفاوضون وإياهم سراً للعمل على الإطاحة بالحكومة الديمقراطية ومنع إقامة الأسوار الطويلة.

ولقد خرج إليهم الأثينيون بكل قواتهم يدعمهم ألف جندي من آرجوس وأفواج من حلفائهم الآخرين، فبلغ عددهم جميعاً أربعة عشر ألف رجل. ويعود بعض السبب في هذا الهجوم إلى اعتقاد الأثينيين أن الاسبارطيين يواجهون مصاعب في العودة، وفي بعضه الآخر شكوكهم بوجود مؤامرة للإطاحة بالحكم الديمقراطي في أثينا.

دارت المعركة عند تناجرا في بويوطيا، وكان النصر فيها للإسبارطيين وحلفائهم، بعد أن تكبد الجانبان فيها خسائر فادحة. ثم سار الإسبارطيون إلى الميجاريين، وبعد أن قطعوا بعض الأشجار عادوا إلى وطنهم عبر جيرانيا واجتازوا البرزخ. أما الأثينيون فقد دخلوا بويوطيا في اليوم الثاني والستين بعد المعركة بقيادة مايرونيديس، فدحروا البويوطيين في معركة عند أوينوفيتا، واستولوا على بويوطيا وفوكيس بالكامل. وهناك أزالوا التحصينات حول تناجرا وأخذوا مئة رهينة من أغنى الرجال الأوبنتيين اللوكريين. وكانوا قد أنجزوا في غضون ذلك بناء أسوارهم الطويلة. وما هو إلا حين حتى استسلمت إيجينا، واضطر أهلها لتدمير تحصيناتهم وتسليم أسطولهم ودفع الضريبة بعدئذ للمنتصرين. وكان الأثينيون قد ركبوا البحر بدورهم وداروا حول البيلوبونيز بقيادة تولميديس بن تويمايوس، فأحرقوا أحواض السفن الإسبارطية هناك، واستولوا على مدينة خالكيس الكورنثية، وتم لهم النزول في سيكيون ثم دحر أهلها.

وكان الأثينيون وجيش الحلفاء في مصر في غضون ذلك منهمكين في الاقتتال، وعانوا كل مصادفات الحرب وتقلباتها. ففي البداية كان الأثينيون سادة مصر، ثم أرسل ملك فارس إلى إسبارطة شخصاً فارسياً يدعى ميجابازوس يحمل مالاً لرشوة إسبارطة لتغزو أتيكا وتجبر الأثينيين على استدعاء أسطولهم من مصر، غير أن تلك المفاوضات لم

تكلل بالنجاح وذهب المال هباء دون طائل، واستدعي ميجابازوس ومعه ما بقي من المال إلى آسيا. ثم أرسل الملك إلى مصر فارسياً آخر هو ميجابازوس بن زوبيروس بـ جيش عرمرم، فوصل هذا إلى مصر براً، وقاتل المصريين وحلفاءهم ودحرهم ثم الهيلينيين من ممفيس. وفي النهاية حاصرهم في جزيرة بروسوبيتس، واستمر حصارهم ثمانية عشر شهراً. وعمد بعدئذ إلى قطع الماء عن القنوات حول الجز بتحويله إلى مناطق أخرى؛ وبذلك جفت المياه وأصبحت السفن بلا جدوى، واستو على الجزيرة بالسير على الأقدام، نظراً لاتصال معظمها بالبر.

وهكذا انتهت مغامرة الهيلينيين الكبرى بعد ست سنوات من الحرب إلى لا شي ولم يستطع العودة من ذلك الجيش العرمرم إلا قلة تمكنوا من شق الطريق عبر ليبيـ والوصول إلى كيرينة، أما الجزء الأعظم منه فقد انتهى أمرهم. وعادت مصر مرة أخر تحت سلطان ملك فارس إلا أميرتايوس ملك منطقة المستنقعات، فظل محافظاً علم استقلاله. وكان السبب في ذلك اتساع تلك المنطقة، فضلاً عن بأس المصريين الذي يعيشون فيها وتفوقهم على غيرهم في الحرب. أما إيناروس ملك الليبيين الذي أشعر ثورة المصريين فقد وقع ضحية الخيانة وانتهى بالصلب على يد الفرس. وكانت خمسـ سفينة ثلاثية المجاذيف قد وجهت في تلك الأثناء من أثينا وبقية دول الحلف إلى مصـ لتحل محل قواتهم هناك. فرست هذه السفن عند الثغر المنديسي في مصب النيل وقادتها لا تخامرهم فكرة عما حدث. وهنا أصبحت قواتهم عرضة للهجوم من جيـ الفرس براً والأسطول الفينيقي بحراً؛ وبذلك دمرت معظم السفن ولم ينج منها إلا تلك التي تمكنت من الهرب من المهاجمين. وكانت هذه نهاية الحملة الكبرى التي قام بـ الأثينيون وحلفاؤهم على مصر.

وفي تلك الأثناء استطاع أوريستيس ابن ملك ثيسالي أخيكراتيديس، المنفي

بلده إقناع الأثينيين بإعادته إلى ملكه. فاصطحبوه مع قوة من البويوط والفوك، الذين غدوا الآن حلفاء لهم، وزحفوا إلى فرسالوس في ثيسالي، فهيمنوا على المنطقة، رغم أنهم لم يتمكنوا من التوغل بعيداً عن معسكرهم، إذ اعترضهم الخيالة الثيسال وحالوا دونهم والتقدم في مسيرتهم. غير أنهم عجزوا عن الاستيلاء على البلدة أو تحقيق أي من أهداف الحملة، فعادوا من حيث أتوا ومعهم أوريستيس دون تحقيق أي نتيجة.

وبعد تلك الواقعة بقليل انطلق ألف من الأثينيين من بيجاي – التي أصبحت الآن تحت سيطرة أثينا – مبحرين بمحاذاة الشاطىء إلى سيكيون. وكانت هذه القوة بقيادة بيركليس بن اكسنثيبوس. فألقوا مراسيهم في سيكيون وتمكنوا من دحر القوات التي تصدت لهم في المعركة. فلما تم لهم الأمر انطلقوا ومعهم الآخيون عبر الخليج، وهاجموا بلدة أونيداي الأكارنانية؛ فأحكموا عليها الحصار، ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها، ثم قفلوا عائدين إلى موطنهم.

وبعد ثلاثة أعوام قامت بين أثينا والبيلوبونيز هدنة استمرت خمسة أعوام. ولما وجد الأثينيون أنفسهم بلا حرب تشغلهم مع الهيلينيين، قاموا بحملة على قبرص بقيادة سيمون عدتها مئتا سفينة من سفنهم وسفن حلفائهم. فوجهوا ستين من هذه السفن إلى مصر بطلب أميرتايوس ملك المستنقعات، أما بقية السفن فوجهوها لحصار سيتيوم. ولكن وفاة سيمون ونقص المؤن أيضاً فرضا عليهم ترك حصارسيتيوم، ثم دخلوا في قتال مع جيش وأسطول الفينيقيين والقبارصة والكيليكيين في البحر والبر، وهم عند سلاميس في قبرص. وقد انتصروا في المعركتين، وقفلوا بعدئذ عائدين إلى بلادهم ومعهم السفن الستون التي عادت من مصر.

وبعد هذا جرد الإسبارطيون حملة عرفت بالحرب المقدسة؛ فاستولوا على معبد دلفي وأعادوه إلى الدلفيين. فلما انسحبوا خرج الأثينيون واستعادوا المعبد من جديد، وسلموه

للفوك.

بعيد ذلك استولى حزب المنفيين البويوطيين على أورخومينوس وخايرونيا وبعض البلدات الأخرى في بويوطيا. أما الأثينيون فساروا بقيادة تولميديس بن تولمايوس إلى المواقع المعادية هذه بقوة من ألف من مشاتهم الثقيلة وكتائب من حلفائهم. فاستولوا على خايرونيا وأخضعوا سكانها، ثم تركوا في البلدة حامية قبل انسحابهم منها، فاعترضهم في طريق عودتهم جمع من البويوطيين المنفيين من أورخومينوس يؤازرهم حشد من اللوكريين والمنفيين من يوبوية وآخرون يشايعونهم في آرائهم السياسية عند كورونيا، فألحقوا الهزيمة بالأثينيين في تلك الموقعة، وقتلوا منهم عدداً وأسروا عدداً آخر؛ فعقد الأثينيون مع هؤلاء معاهدة استعادوا فيها أسراهم مقابل إخلاء بويوطيا كلها. وعاد حزب المنفيين البويوطيين إلى السلطة، واستعادت الدول الأخرى استقلالها.

ولم يمض إلا زمن قصير حتى ثارت يوبوية على أثينا. وكان بيركليس قد وصل إلى الجزيرة بجيش من الأثينين حين تلقى نبأ ثورة ميجارا، واعتزام البيلوبونيز غزو أتيكا، كما بلغه قيام الميجار بإفناء الحاميات الأثينية، إلا من استطاع الفرار منهم إلى نيسايا. وكان هؤلاء الميجار قد استعانوا في ثورتهم بكورنثة وسيكيون وإبيداروس، فأسرع بيركليس بسحب الجيش من يوبوية، وسرعان ما قام البيلوبونيز بقيادة بليستوناكس بن باوسانياس بغزو أتيكا وتخريب البلاد حتى إليوسيس وثيريا، ولكنه لم يواصل تقدمه وعاد إلى موطنه.

عاد الأثينيون بقيادة بيركليس إلى يوبوية، واجتاحوا الجزيرة من جديد، وأخضعوا سكانها ثانية. أما وضع الجزيرة مستقبلاً فقد تحدد بشروط معاهدة الصلح، عدا هيستايا التي طردوا سكانها منها، وحلوا هم محلهم فيها.

ولم يمض وقت على عودة الأثينيين من يوبوية حتى عقدوا هدنة مع إسبارطة

وحلفائها تمتد ثلاثين عاماً، تخلت بموجبها أثينا عن نيسايا وبيجاي وترويزين وآخاية، وهي مناطق كانوا قد انتزعوها من البيلوبونيز.

وفي السنة السادسة من هذه المعاهدة نشبت الحرب بين ساموس وملطية حول قضية برينه. وقد عانت ملطية من هذه الحرب أشد المعاناة، فلجأت إلى أثينا وقدمت أعنف الشكاوى ضد الساميان. وناصرها في هذه الدعاوى عدد من أهالي ساموس ذاتها الذين كانوا يأملون بأن يقوم فيها شكل مختلف من أشكال الحكم؛ ولذلك أبحر الأثينيون إلى ساموس بأربعين سفينة وأقاموا فيها حكومة ديمقراطية، وأخذوا من بين سكانها خمسين رجلاً وخمسين فتى رهائن وأودعوهم في ليمنوس. ثم قفلوا عائدين إلى موطنهم بعد أن تركوا في ساموس حامية منهم، غير أن بعض الساميان آثروا الفرار إلى البر الرئيسي عوضاً من البقاء في الجزيرة. وقد اتصل هؤلاء بالمؤيدين لحكم الأقلية في المدينة ثم عقدوا حلفاً مع بيسوثنيس بن هيستاسبيس، وكان يومئذ الحاكم الفارسي في سارديس، فجندوا قوة من سبعمئة من المرتزقة، وتسللوا معهم تحت جنح الظلام إلى ساموس. وأول ما قاموا به هو مهاجمة الحزب الديمقراطي ثم اعتقلوا معظم زعماء المدينة، وأنقذوا الرهائن من ليمنوس وأعلنوا الاستقلال من جهتهم، وعمدوا عندئذ إلى تقديم جنود الحامية والمسؤولين الأثينيين في المدينة إلى بيسوثنيس، والتفتوا فوراً للإعداد للهجوم على ملطية. وفي تلك الأثناء انضمت إليهم بيزنطة في إعلان العصيان على أثينا.

ولما بلغت هذه الأنباء الأثينيين وجهوا ستين سفينة إلى ساموس، إلا أن ست عشرة منها لم تشترك في القتال؛ إذ توجه بعضها إلى كاريا لرصد تحركات الأسطول الفينيقي، وبعضها الآخر إلى خيوس وليسبوس لجلب التعزيزات. وقد دخلت المعمعة أربع وأربعون سفينة بقيادة بيركليس وتسعة قادة آخرين، ونشب القتال قبالة جزيرة تراجيا بينها وبين أسطول ساموس المؤلف من سبعين سفينة كانت في طريق عودتها من ملطية، ومن بينها

سفن للنقل. وكانت نتيجة المعركة نصراً للأثينيين.

ولقد جرى تعزيز ذلك الأسطول فيما بعد بأربعين سفينة من أثينا وخمس وعشرين سفينة أخرى من خيوس وليسبوس. ولما نزلت قوات الأسطول وفرضت سلطانها بقواتها البرية، قاموا ببناء ثلاثة أسوار لتطويق المدينة من ناحية البر بعدما كفل البحر تطويقها من الناحية الأخرى. وبعد ذلك قام بيركليس بأخذ ستين سفينة من الأسطول الراسي في ساموس وأسرع بها إلى كاونوس وكاريا، بعدما بلغه أن الأسطول الفينيقي في طريقه للاشتباك معهم. والواقع أن ستيساجوراس وآخرون كانوا قد غادروا ساموس في خمس سفن لطلب معونة الفينيقيين. وفي غياب بيركليس خرج الساميان في هجوم مباغت من البحر؛ فأطبقوا على معسكر الأثينيين الذي كان يفتقر للتحصين، ودمروا سفن الرصد كما دحروا في المعركة السفن الأخرى التي زج بها في مواجهتهم. وهكذا تمت لهم السيطرة على البحر حول جزيرتهم طوال أربعة عشر يوماً، وغدوا أحراراً في أن يجلبوا إلى جزيرتهم ما يريدون أو يخرجوا منها ما يشاؤون. ولكنهم عادوا إلى حالة الحصار من البحر من جديد حين عاد بيركليس. ثم جرى رفد الأسطول الأثيني بأربعين سفينة من أثينا، وكانت بقيادة ثوسيديديس وهاجنون وفورميو، وعشرين سفينة أخرى بقيادة تيبوليموس وأنتيكليس، وثلاثين سفينة أخرى من خيوس وليسبوس. ولقد أبدى الساميان بعض المقاومة في البحر، لكنهم عجزوا عن الصمود والاحتفاظ بقوتهم فاضطروا للاستسلام بعد تسعة شهور من الحصار، فقاموا بتحطيم أسوارهم وتقديم الرهائن وتسليم أسطولهم، ووافقوا على دفع التعويضات بأقساط تُؤدى في أوانها. كذلك وافقت بيزنطة على العودة إلى وضعها السابق مدينة تابعة.

الفصل التاسع: مؤتمر إسبارطة الثاني

خطاب الكورنث، التصويت للحرب

كانت المدة التي استغرقتها تلك الأحداث التي سبق العرض لها بضع سنوات ليس إلا - قضية كورسيرا وقضية بوتيدايا والأحداث التي كانت سبب الحرب بين أثينا وإسبارطة- والأعمال التي قام بها الهيلينيون بعضهم ضد بعض وضد القوى الأجنبية وذكرتها فيما سلف قد دارت كلها خلال السنوات الخمسين بين تراجع أحشويرش وبداية الحرب الحالية. وقد عمل الأثينيون في هذه السنوات على أن يجعلوا إمبراطوريتهم تزداد قوة فوق قوة، وزادوا من قوتهم في الداخل أكثر. أما الإسبارطيون فإنهم- وإن كانوا يرون ما يحدث - لم يأتوا بأي أمر ذي بال يحول دون ذلك؛ فظلوا جل الوقت مكتوفي الأيدي على ما عرف عنهم من التمهل في دخول الحرب، إلا إذا أُكرهوا على ذلك، كما أنه حال دونهم والمبادرة إلى عمل يؤدي إلى وقوع حرب في منطقتهم ذاتها. وهكذا بلغت أثينا ذروة من القوة بينة لكل من يرى، وراح الأثينيون يعتدون على حلفاء إسبارطة. ولما بلغت الأمور هذا المبلغ شعرت إسبارطة بأن الوضع تجاوز حدود الاحتمال؛ فقررت حين بدأت هذه الحرب الراهنة أن تزج بكل طاقاتها في مهاجمة قوة أثينا وتدميرها، إذا أمكن ذلك. وبالرغم من أن الإسبارطيين كانوا قد بلغوا قرارهم بأن العدوان الأثيني أنهى الهدنة بينهما، فقد أرسلوا مع ذلك من يسأل الإله في دلفي إن كان من الحكمة دخول الحرب. ويقال: إن الإله أجاب أن النصر سيكون حليفهم إن قاتلوا بكل ما لديهم من بأس، ولسوف يكون هو إلى جانبهم، سواء طلبوا منه العون أم لم يطلبوا. ومع ذلك فقد طلب الإسبارطيون اجتماع حلفائهم مرة أخرى للتصويت في موضوع إعلان الحرب. فجاء ممثلو الدول الحليفة كلها، واجتمعوا في مؤتمر عام طرحوا فيه آراءهم، فقام أكثرهم يندد بالأثينيين داعياً إلى إعلان الحرب. وكان

الكورنث يخشون أن يؤدي تأخير إعلان الحرب إلى خسارتهم بوتيدايا؛ فبعثوا بسفارات إلى الدول الحليفة كلها يحثونها على التصويت تأييداً للقتال. ولقد حضر الكورنث أيضاً هذا المؤتمر، وكان لمثلهم فيه كلمة الختام وهي كما يلي:

"أيها الزملاء الحلفاء، لقد كفانا الإسبارطيون اليوم مؤونة الشكوى؛ ذلك أنهم قد صوتوا واختاروا الحرب، ودعونا إلى الاجتماع هنا لنقوم بمثل ما قاموا به. والحق أن هذا واجب أي قائد يرعى مصالحه، كما يفعل كل إنسان آخر، إنما عليه أن يولي المصلحة العامة عناية خاصة لقاء التكريم الذي يتلقاه من الآخرين.

"وبعد، فلسنا بحاجة بعد تجاربنا مع الأثينيين لمن ينصحنا بأن نأخذ جانب الحذر في التعامل وإياهم، غير أنه يجدر بأولئك الذين يعيشون في داخل البلاد أو على أطراف طرق التجارة أن يدركوا أنهم إذا قصّروا عن دعم القوى البحرية فلسوف يصعب عليهم تأمين منفذ لصادراتهم وتلقي السلع المستوردة عبر البحر؛ فعليهم إذن أن يزنوا بعناية ما يقال في هذا المكان، وألا يعرضوا عنه كأمر لا يعنيهم، بل الأحرى بهم أن يعدّوا النفس لمواجهة امتداد الخطر إليهم سريعاً، فإن خُذلت القوى البحرية، فسيصبحون هم أيضاً مهددين، ولهذا النقاش بالتالي مساس بهم كما له مساس بنا؛ لذلك كان عليهم ألا يخشوا اختيار الحرب عوضاً من السلم. ولا ريب أن الحكماء من الرجال يؤثرون الحياة الهادئة، طالما أنهم آمنون من العدوان، لكن الرجال الشجعان حين يتعرضون للهجوم سيرفضون السلم وسيدخلون الحرب، مع أنهم كانوا مستعدين كل الاستعداد للصلح والحرب دائرة. والواقع أن هؤلاء لا يأخذهم التيه إن صادفهم التوفيق في الحرب، ولا يجعلهم جمال السلم ومنافعه يحتملون العدوان ويقصرون في الرد عليه. ومن شغلته ملذاته وخشي الحرب قمين بأن يفتقد تلك الملذات عينها بسبب من تردده ووهن عزيمته، أما من مضى بلا روية لنجاح أصابه في الحرب؛ فلأنه لم يدرك أن الثقة التي

تحمله على المضي في ذلك هي زائفة. وهناك العديد من المشاريع التي ساء تخطيطها وحققت نجاحاً؛ لأن العدو لم يواجه الأمر بأي قدر من الذكاء. وهناك حالات أكثر كان التخطيط فيها محكماً وبالنتيجة أبعد ما تكون عن التوفيق، بل انتهت بكارثة. وما من إنسان يستطيع أن يتدبر الأمور بفكره ثم يُقدِم بنفس الروح من الثقة؛ ذلك أننا نكون في أمن وطمأنينة حين نجري تقديراتنا، أما عند الامتحان وحين يظهر عامل الخوف، فإننا نقصِّر عن المثال الذي رسمناه.

"وبعد، فإن ما حملنا على خيار الحرب في هذه الحالة الراهنة، هو أننا كنا ضحايا عدوان، بالإضافة إلى أسباب أخرى كافية. فإذا جعلنا أنفسنا بمأمن من الأثينيين عدنا في الوقت المناسب للسلم. وثمة أسباب كثيرة تجعل النصر في متناولنا؛ فنحن، أولاً: أكثر عدداً وخبرة بالحرب، وثانياً: أننا فرادى وجماعات نطيع ما نتلقاه من أوامر. أما في البحر – وهم أقوياء في هذا المجال – فلسوف نبني أسطولنا بما هو متوفر لدى تحالفنا من ثروات، ومن مصادر المال في أوليمبيا ودلفي. فإذا اقترضنا المال منهما استطعنا اجتذاب البحارة الأجانب العاملين في الأسطول الأثيني ببذل مرتبات أعلى مما يدفعه لهم أسطولهم؛ ذلك أن قوة أثينا تقوم على المرتزقة أكثر مما تعتمد على مواطنيها، أما نحن فلن يضيرنا أي شيء؛ لأن قوتنا في رجالنا واعتمادنا عليهم أكثر من اعتمادنا على المال. والأرجح أنهم متى خسروا معركة في البحر انتهى أمرهم معها. وإذا افترضنا أنهم تمكنوا من الصمود، فلسوف يوفرون لنا الوقت لترقية أساليبنا في المناورة والهجوم والدفاع في البحر، فإذا بلغنا مبلغهم من المهارة تفوقنا عليهم بشجاعتنا، وهي أكبر مما لديهم؛ ذلك أنهم لا يستطيعون أن يكسبوا بالتعليم الخصال الحميدة التي هي من طبيعتنا. إننا نستطيع من جهة أخرى ببذل الجهد أن نلغي تفوقهم في المهارة علينا. ولسوف نحتاج للمال لتنفيذ هذه المشاريع، ولسوف نبذله. وما يشق تصوره هو أنه بينما لا ينقطع حلفاؤهم عن دفع الإتاوات للبقاء على عبوديتهم، نتردد نحن الذين غايتنا الانتقام والبقاء في البذل لنمنع

اقتناص الأثينيين لهذا المال ليستثمروه في إذلالنا!

"وهناك بعدُ طرق أخرى نستطيع التوسل بها في تنفيذ الحرب: فلنا أن نشعل الثورات في صفوف حلفائهم، وهذه أفضل طريقة لحرمانهم من العوائد المالية التي عليها تقوم أسباب قوتهم، كذلك يمكننا أن نبني لنا مواقع حصينة في بلادهم. وهناك طرق ووسائل أخرى لا يتوقعها المرء الآن؛ لأن الحرب من الأمور التي لا تمضي وفق نمط محدد، بل إن الحرب تأتي عادة بظروفها وشروطها، وعلى المرء أن يتكيف معها. وإذن حينما ينخرط المرء في حرب ما فعليه أن يضبط نفسه فيسلم، فالطرف الذي تغلب عليه الإثارة هو الذي يرجح أن يخطئ في المعمعة.

"وهناك أمر آخر جدير بالنظر؛ إن هذا الوضع ما كان على هذا القدر من الخطر لو أن القضية تتعلق بنزاع على الحدود بين أنداد وتدور بين دول أخرى فرادى، ولكن الحال هو أن خصمنا في القتال هي أثينا، وأثينا أقوى من أي دولة منفردة في حلفنا، وقادرة على مواجهتنا جميعاً. وإذن فإن لم نمض إلى الحرب ضدها بكل ما لدينا من القوة ومعنا كل مدينة وقوم يشاركوننا الهدف، فسوف تجدنا أثينا منقسمين على أنفسنا ويسهل عليها إخضاعنا. ولنكن على ثقة من أن الهزيمة – وهي كريهة مقيتة – لن تعني إلا أمراً واحداً هو العبودية المطلقة لمن تنزل به. إن مجرد ذكر احتمال الهزيمة هو عند البيلوبونيزي مدعاة للخجل، ومثله أن تضطهد دولة مثل هذا العدد الكبير من الدول. ولو قدر لهذا أن يقع، لقال الناس أن ما وقع بنا إما عقاب نحن جديرون به، أو أننا إنما نحتمل منهم ما نحتمل بسبب جبن كامن ، وبذلك نظهر أنفسنا دون آبائنا؛ فلقد أشاع آباؤنا الحرية في بلاد هيلاس كلها، بينما نحن لم نقصر في حماية حريتنا وحسب، بل سمحنا بقيام دولة طاغية في بلاد هيلاس، مع أننا وضعنا مبدأ جرت عليه كل دولة أخرى بأن تطيح بالطاغية فيها. ومثل هذه السياسة ينبغي توخي الحرص فيها على أن تكون خالية من

الأخطاء القاتلة الثلاثة: افتقار الذكاء، وانعدام الحزم، وعدم تحمل المسؤولية. كما أننا لا نتصور أن يكون بوسعكم تفادي هذه العيوب بادعاء التفوق على أعدائكم، فلطالما كان هذا الشعور بالتفوق الطريق الذي سارت به أقوام قبلنا إلى الهاوية، بل الحق أن هناك شواهد عديدة على أن الشعور بالتفوق كانت له أوخم العواقب حتى عرف ليس باسم التفوق وإنما الغباء.

"وإذا جئنا بهذه الأمثلة من الماضي فلنفيد منها في استيعاب أحداث الحاضر الماثل. أما المستقبل فلكم أن تتطلعوا إليه بأن تحرصوا على ما تملكون الآن، وبالاستعداد للتضحية. لقد جبلتم على اعتبار أشكال التفوق كلها جوائز يفوز بها الفائز بالكد والعرق، وحري بكم أن تبقوا على هذه النظرة إلى الأمور، ولو كنتم اليوم أفضل حالاً من سواكم ثراء وقوة؛ ذلك أنه من الخطأ أن تخسروا؛ لأن الكثير قد أتى بفضل الحرص عوضاً من الإسراف. الحق أنه حري بنا أن نمضي ونخوض غمار هذه الحرب ونحن مدركون أن لشعورنا بالثقة من الأسباب ما يبرره؛ فنحن نقدم مسترشدين بالإله الذي وعدنا بعونه، ثم إن بقية هيلاس سوف يقفون إلى جانبنا في هذا الصراع، إما خوفاً من الاستعباد أو أملاً بالتحرر من العبودية. ولن تكونوا أول من انتهك المعاهدة؛ لأن الإله اعتبرها منتهية الأجل حين أمرنا بشن الحرب. والحق أنكم إنما تنفذون بذلك معاهدة انتهكت مقوماتها. وما يشكل انتهاكاً لمعاهدة من المعاهدات هو أول مبادرة بالعدوان، لا إجراءات اتخذت دفاعاً عن النفس.

"إن لديكم – إذن – السبب الوجيه من كل وجهة نظر باللجوء إلى الحرب، وهو الطريق الذي نصحنا به باعتباره في صالحنا جميعاً، ونحن نتذكر بأن بيان المصلحة المشتركة بين المدن والأفراد هو الضمان الفضلى. فلنقدم ولا نتأخر في مؤازرة شعب بوتيدايا. إنهم من الدوريين ويحاصرهم الأيونيون وهذه حالة مختلفة كل الاختلاف

عما عهدناه في الماضي، فلا تتوانوا في طلب الحرية لكل المدن والأقوام الأخرى، كما نالها سواهم من قبل. إن الانتظار مستحيل؛ لأن البعض منا يعانون من العدوان، ولا ريب أنه لن يمضي وقت طويل حتى يخبر بقيتنا هذه الحال، متى عرف بلقائنا في هذا المؤتمر ولن نجرؤ على اتخاذ إجراءات للدفاع عن أنفسنا. لا، أيها الحلفاء! إن علينا أن ندرك أن اللحظة الحاسمة قد حانت، وما النصيحة التي نتقدم بها إلا أفضل نصيحة تعرض، ولا مناص لكم من التصويت لدخول الحرب. ولا تخشوا رهبة اللحظة، إنما ليكن شاغلكم السلم المقيم الذي سوف يعقب الحرب. الحرب تعطي السلم ضمانه، ولكن المرء لن يأمن الخطر إن أبى القتال وآثر السلام والسكينة. أما المدينة المتسلطة التي قامت في بلاد هيلاس، فليقرّ في عقولنا أن الهيمنة على الدول الأخرى هي شغلها الشاغل، وأنها ترسم لإخضاع من لم يتم بعد إخضاعه. فلنمض إذن للتصدي لها وتدميرها، ولنعش حياتنا مستقبلاً بدون خوف، ولنحرر الهيلينيين المستعبدين الآن!".

كان هذا خطاب الكورنث. وقد سمع الإسبارطيون الآن رأي كل طرف، وطرحوا الأمر لتصوت عليه كل مدينة من حلفائها الحاضرين، صغيرة كانت هذه المدينة أم كبيرة. وكان تصويت الأكثرية إلى جانب الحرب. ولقد استقر الرأي مع ذلك على أنه من المحال القيام بالهجوم فوراً، وهم على ما هم عليه الآن من ضعف الاستعداد، فكان الاتفاق على أن تقوم كل مدينة باستعداداتها، وألا تبطئ فيما عليها أن تتخذه. ثم ما هو إلا عام أو أقل، وفيما هذه المدن منهمكة بإنجاز هذه اللوازم، حتى كان غزو أتيكا، واندلعت الحرب.

الفصل العاشر : فاصل قبل الحرب

أخبار باوسانياس وثيميستوكليس

مضت الفترة قبل اندلاع الحرب في توجيه السفارات إلى أثينا حاملة مختلف الدعاوي لتكون ذريعة جيدة لشن الحرب، إن أهملتها أثينا ولم تولها اهتماماً .

وكانت السفارة الأولى التي أرسلتها إسبارطة إلى أثينا قد وجهت لنطلب من الأثينيين أن يعملوا على "استرضاء الآلهة لتزيل لعنتها" . وكان معنى الطلب هو ما يلي : كان في قديم الزمن أثيني يدعى سيلون، وهو من أبطال الألعاب الأوليمبية، ومن أسرة نبيلة، ورجل ذو شأن . ولقد تزوج سيلون هذا بابنة ثياجينس الميجاري، وكان ثياجينس الحاكم المستبد في ميجارا . وذات يوم مضى سيلون إلى دلفي ليشاور الإله في أمره، فكان رده أن عليه أن يستولي على جبل الأكروبول في أثينا أثناء عيد زيوس الكبير . فقدم له ثياجينس بعض قواته، ثم انضم إليه أصدقائه القدامى، حتى إذا حان وقت الاحتفال الأوليمبي في البيلوبونيز استولى على الأكروبول، وغرضه أن يعلن نفسه متسلطاً، وفي ظنه أن العيد الأوليمبي هو "عيد زيوس الكبير" ، وقد رسخ لديه أن ذلك ما يناسبه، خاصة، وأنه كان قد حقق نصراً في الألعاب الأوليمبية . والواقع أن الأثينيين يحتفلون بعيد يسمى دياسيا، وهو عيد زيوس الكبير، ويجري الاحتفال به خارج المدينة، فيقدم الناس فيه القرابين التي لا تتضمن الذبائح، بل هو مألوف في البلد . أما إن كان العيد المقصود هو ما تحتفل به أتيكا أو أي مكان آخر فأمر لم يبحث فيه الرجل، ولا دلت عليه النبوءة . ولما استقر في اعتقاده صواب هذا الرأي هبَّ للاستيلاء على السلطة، غير أن الأثينيين تصدوا له حين اكتشفوا الأمر، وخرجوا من أطراف البلاد بكل ما لديهم من قوة فطوقوا حزب سيلون وسدوا عليهم المنافذ من الأكروبول . ثم مل الأثينيون الحصار بعدما طال أمده، فانسحب معظمهم وتركوا الأرخون التسعة – وهم أصحاب السلطة في أثينا

في ذلك الوقت - وخولوهم صلاحيات مطلقة في تنفيذ الحصار أو تسوية المسألة على النحو الذي يرونه مناسباً. وكانت أحوال حزب سيلون وأنصارهم المحاصرين في تدهور في تلك الأثناء؛ نظراً لنقص المؤن والماء. ولقد أمكن لسيلون وأخيه أن يهربا من الحصار، أما البقية فإنهم أصبحوا في حالة مزرية، بل إن بعضهم باتوا على شفير الموت من شدة الجوع، فراحوا يتضرعون أمام المذبح في معبد الأكروبول. فلما رأى الحراس الأثينيون أن هؤلاء باتوا قاب قوسين من الموت أو أدنى حملوهم على ترك المكان بأن قطعوا لهم الوعود بألا يمسهم ضير، فأخرجوهم من المعبد، ثم عملوا فيهم قتلاً، وكذلك قتلوا سواهم ممن كانوا قد لجؤوا إلى مذبح الآلهات الرهيبات من قبل. ولذلك عرف هؤلاء الذين قاموا بقتلهم وذريتهم من بعدهم بالملعونين وكانوا آثمين أمام الآلهة. وقد طرد الأثينيون هؤلاء الآثمين. وفيما بعد أعاد الكرة كليومينيس الإسبارطي مع الحزب الأثيني الذي قدم له المؤازرة؛ فلاحقوا الأحياء منهم وقاموا بنفيهم، ثم نبشوا عظام الموتى وبعثروها في كل مكان. ولكن هؤلاء عادوا بعد حين ومازالت ذريتهم تعيش في أثينا.

وهذه اللعنة هي ما أصبح الإسبارطيون يطالبون بالتكفير عنها. وغرضهم من هذا المطلب كما يقولون هو تكريم الآلهة، إلا أنهم كانوا يعلمون أن لبيركليس بن اكسانثيبوس صلة بهذه اللعنة من جهة والدته، فقدروا أنهم يستطيعون تدبر أمرهم وأثينا، إن تم لهم إقصاءه. وفي الحقيقة أنهم ما كانوا يتوقعون حصول هذا الأمر، إلا أنهم أملوا أن يفقده ذلك شعبيته بين الأثينيين فيكفون عن موالاته؛ لأن بعضاً من أسباب الحرب سوف تكون بجريرته. وكان بيركليس أقوى رجل في زمانه وأثناء زعامته للمدينة لم ينقطع عن معارضة إسبارطة في كل أمر، ولم يكن ليقدم لها تنازلاً، ولا ينقطع عن حث أثينا على الحرب.

ولقد رد الأثينيون على طلب إسبارطة بمطالبتها بالتكفير عن لعنة تايناروس. وقصة

ذلك أن الإسبارطيين كانوا في الماضي قد أنهضوا بعض المتضرعين من الهيلوت - عبيد إسبارطة - عن مذبح الإله بوسيدون ثم عملوا فيهم قتلاً. فاعتقد الإسبارطيون أن الزلزال العظيم الذي وقع في إسبارطة كان نتيجة هذه الفعلة. كما طالب الأثينيون إسبارطة بالتكفير عن لعنة إلهة البيت النحاسي. وتفصيل ذلك هو مايلي:

بعد أن استدعت الحكومة باوسانياس الإسبارطي أول مرة من مقر قيادته في الهليسبونت ومثلَ للمحاكمة ثم برئت ساحته، لم يوفد إلى الخارج بعدها بأية صفة رسمية. غير أنه بادر من تلقاء نفسه ودون تخويل من إسبارطة فأخذ سفينة من بلدة هرميونة واتجه بها إلى الهليسبونت بدعوى الانضمام للكفاح الوطني ضد فارس، بينما كان غرضه الحقيقي من الرحيل إلى هناك التآمر وملك فارس، وهو ما كان قد بدأه قبل ذلك، وهدفه أن يصبح حاكم بلاد هيلاس. وكانت أول مناسبة لجعل الملك يلتزم تجاهه هي ما سوف نتحدث عنه بالتفصيل، ومن هنا بدأت المكيدة كلها. فعندما كان في المنطقة سابقاً، بعد عودته من قبرص، استولى على بيزنطة، وكانت قبلئذ في قبضة الفرس، وفيها أصدقاء وأقارب لملك الفرس تم أخذهم سجناء. فأعادهم باوسانياس إلى الملك، خفية عن الحلفاء الآخرين، مدعياً أن هؤلاء السجناء قد أفلتوا وتمكنوا من الهرب. وكان هذا الأمر قد تم بوساطة جونجيلوس الأرتيري المسؤول عن سجناء بيزنطة حصراً. ثم أوفده بعد ذلك حاملاً رسالة إلى الملك الفارسي، وكان نصها- كما عرف لاحقاً- كالتالي: "إنني باوسانياس القائد العام في إسبارطة، أرسل لكم هؤلاء الرجال الذين أسرتهم في الحرب، رغبة مني في نيل عطفكم. كذلك أعرض عليكم المصاهرة بيننا بأن توافقوا على زواجي بابنتكم ووضع إسبارطة وبقية بلاد هيلاس تحت سيطرتكم، وأعتقد أن لدي المقدرة لإنجاز هذا الأمر، إن تضافرت مساعينا وعملنا معاً في التخطيط له. فإذا وقعت هذه الفكرة موقعاً حسناً في نفسكم فابعثوا لنا في الساحل رجلاً تثقون به ليكون صلة الوصل بيننا".

كـان ذلك فـحوى الكتـاب، وقـد وقع في نفس أحـشـويرش مـوقـعـاً طيبـاً. فبعث بأرطبازوس بن فارناسيس إلى الساحل، حاملاً الأوامر بتـسلم ولاية داسكيليوم من الحاكم ميجاباتيس آنذاك. و أعطى أرطبازوس رداً على رسالة باوسانياس في بيـزنطة ليسلمها له بأقصى سرعة ويظهر له خاتم الملك، ويقـدم التأييـد والدعم لكافة مقـترحـات باوسانياس ويبذل له أقصى ما يستطيع بكل إخلاص.

ولقد قام أرطبازوس بما عُهد إليه حال وصوله وأنفذ الرسالة إلى بيزنطة. وكان رد الملك على الرسالة كـما يلي: "من الملك أحشويرش إلى باوسانيـاس: إن مـا قـمت به من إنقاذ الرجال الذين بعثت بهم إلي عبر البحر من بيزنطة لجدير بالتقدير ولسوف تذكر لك هذه المأثرة في بيتنا مدى الدهر. كذلك سرني منكم ما بلغني من العبارات ورجوت ألا يشغلك الليل أو النهار عن إنجاز الوعود التي قطعتها لي، وألا تقصر عنها لحاجة من الذهب أو الفضة أو لنقص في القوات. ولقد أوفدت إليك أرطبازوس، وهو رجل ثقة ومقـدرة. فامض قدماً معه وارع مصالحك ومصالحي على أفضل نحو تراه وبما يكفل التوفيق لكلينا."

وقبل هذا كان باوسانياس قد أصاب شهرة عظيمة بين الهيلينيين بسبب بلائه في معركة بلاطية، أما الآن، وبعد أن بلغته هذه الرسالة فقد ازداد إعجاباً بنفسه ولم يعد يطيق أن يحيا حياة عادية؛ فأخذ يخرج منذ ذلك الحين من بيزنطة مرتدياً الأزياء الفارسية، ويحف به في رحلاته عبر تراقية حرس من الفرس والمصريين، ويقيم المآدب والولائم على نحو ما عرف عن الفرس، وكانت مظاهره تكشف حتى بهذا القدر عن حقيقة نيّاته، وبدا جلياً ما يعتزم القيام به لاحقاً وعلى نطاق أوسع. ثم أخذ ينأى عن الاتصالات العادية ويتصرف حيال الجميع بلا استثناء بتعال وترفع حتى لم يعد أحد يستطيع الاقتراب منه. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي جعلت القوات المتحالفة

تلتفت نحو أثينا.

وكـان هذا المسلك قـد عُـرف عن باوسـانيـاس من قـبل، وبلغت أخـبـاره مـسـامع الإسبارطيين وهو ما حملهم يومئذ على استدعائه. وها هو ذا قد خرج الآن من جديد دون تخويل منهم في سفينة من هيرميونة، وبدا أنه أخذ يعيد سيرته الأولى من جديد. ولما خرج مطروداً من بيزنطة بعد حصارها من الأثينيين، لم يعد إلى إسبارطة وإنما رحل كما قيل وأقام قواعده في كوموناي في ترواد ليتابع تآمره مع فارس ويطيل إقامته في الخارج دون مبـرر وجيه. فبلغت الأمور عندئذ حداً لم يعد بوسع مجلس الإيفور في إسبارطة الانتظار أكثر من ذلك، فأرسل إليه عاملاً يحمل شارة للعودة، على أن يكون مفهوماً أنه إن أبى الخضوع أُعتبر عدواً للشعب.

وكان باوسانياس حريصاً على أن يبقى بعيداً عن الشبهات، وشعر في ذلك الحين بالثقة بقدرته على تبرئة ساحته بالرشوة. وهكذا عاد مرة ثانية إلى إسبارطة، فرمى به مجلس الايفور في السجن عند عودته – وكان ذلك المجلس يتمتع بالصلاحية لسجن الملك– إلا أنه – أي باوسـانيـاس – تمكن من الخروج من السجن، وعرض أن يجيب عن كل ادعاء ضده عند المساءلة.

ولم يكن الإسبارطيون – سواء كانوا من أعدائه أو الدولة ذاتها – يملكون دليلاً مباشراً على تورطه فيما يؤخذ عليه، أو شيئاً محدداً يبرر إدانة رجل هو من الأسرة المالكة، ويحتل في الوقت ذاته منصباً سامياً، إذ كان الوصي على ابن عمه الحدث الملك بليستراخوس بن ليونيداس؛ غير أنه بازدرائه للقوانين وتقليده طرق الغرباء ونهجهم جعل من نفسه موضع شك وريبة؛ لأنه لم يخضع للأعراف المتبعة، ثم جرت مساءلته عن مناسبات عديدة اتخذ فيها منهجاً مختلفاً عما هو من القواعد المألوفة في السلوك، وقد ورد في هذه القضية موضوع النصب الذي قدمه الهيلينيون في دلفي، وكان أول ما

غنموه من الفرس، وقد حفر عليه باوسانياس السطرين التاليين:

هذا نصب أقامه زعيم الهيلينيين في الحرب والمنصور على الفرس

باوسانياس تكريماً للإله فويبوس.

ولقد قام الإسبارطيون بإزالة هذين السطرين فوراً، وعمدوا إلى حفر أسماء المدن كلها التي شاركت في دحر الفرس وإقامة هذا النصب. ومع ذلك فإن هذا العمل الذي يؤخذ على باوسانياس الآن، بسبب نشاطاته الأخيرة، لا يبدو مجافياً لنهجه في التفكير الذي بات يطغى عليه. وذكر بعدُ أن باوسانياس تواطأ مع الأرقاء، وهذا قول صحيح. وآية ذلك أنه عرض عليهم إعتاقهم من العبودية ومنحهم حقوق المواطن كاملة إن انضموا إليه في الثورة وأعانوه في تنفيذ خططه.

وظل مجلس الإيفور في إسبارطة يعرض حتى ذلك الحين عن الأخذ بهذه المعلومات التي استقاها من بعض الأرقاء وإنزال العقاب بباوسانياس. وكان مسلكهم يتفق في هذا ونهجهم في الأمور التي تتصل بقومهم، ويقضي بأخذ الأمور حين تتعلق بمواطن من إسبارطة بالروية والتمهل وعدم اتخاذ قرار حاسم لا رجعة عنه إلا بعد توفر الدليل القاطع في الموضوع تحت النظر. ويقال: إن هذا الدليل قد توفر لديهم أخيراً مما أخبرهم به الرجل الذي عهد إليه باوسانياس بحمل آخر رسالة إلى أرطبازوس لينقلها إلى ملك فارس. وكان هذا الرجل من أهل أرجيلوس وصديق لباوسانياس شديد الوفاء له، حتى تحول عنه أخيراً وأفشى سره. فقد لاحظ هذا الرجل أن كل مراسل سبقه ذهب ولم يعد إلى مقره؛ فانتابه الخوف من أن يكون نصيبه مثل من سبقوه. فقام بفتح رسالة باوسانياس وزور خاتمه ليعيد الرسالة إلى حالها السابق إن كانت شكوكه في غير موضعها أو طلبها صاحبها ليجري فيها تعديلاً. ولما فتح الرسالة وجد فيها ما كان يتوقع، وكان ذلك حاشية يطلب فيها باوسانياس قتل حاملها.

ولما أطلع الرجل أعضاء المجلس على الرسالة قام لديهم الدليل الذي لا يُدحض على صحة الشكوك في مسلك باوسانياس، لكنهم أرادوا أن يكون لديهم الدليل ليسمعوه بآذانهم أيضاً، وهو اعترافه بلسانه. فتدبروا ذلك مع الرجل الذي ذهب متضرعاً إلى معبد تايناروس، وأقام في كوخ مقسوم إلى قسمين، واختبأ بعض أعضاء المجلس في الجزء الآخر منه. فلما جاءه باوسانياس وسأله عن سبب مجيئه إلى ذلك المعبد والتضرع إلى الإله، سمعوا القصة كاملة؛ إذ بدأ الرجل يلوم باوسانياس على الحاشية التي أوردها في الرسالة من توجيه بقتله؛ ثم مضى يعرض التفاصيل الأخرى، وهو يذكر بأنه في كل ما أجرى مع الملك من مفاوضات لم يساوم قط في مصلحة باوسانياس، الذي كافأه بأن وضعه على قدم المساواة مع الخدم ووجه بقتله. وكان باوسانياس يقر بكل ما يذكر الرجل، ثم رجاه أن يهدىء من ثورته عليه، ورفعه من وضع المتضرع، وهو يقطع له الوعود بضمان سلامته، راجياً إياه أن يمضي إلى مهمته بأسرع ما يمكن وألا يؤخر المفاوضات .

وكان أعضاء مجلس الإيفور الحاضرون يصغون بعناية للحديث الدائر في الطرف الآخر من الكوخ، ثم غادروا المكان واثقين من صحة المعلومات، فوضعوا خطة لاعتقال باوسانياس في المدينة. ويُقال: إنه أدرك ما كان قد دبر له، حين شاهد من يريد أن يعتقله في الشارع، وكان أحد أعضاء المجلس، فلمح في أساريره ما أنبأه بسبب قدومه إليه؛ كما قيل إن أحد الايفور – وكان صديقاً له – بعث إليه سراً بتحذير من الخطر القادم، فأسرع بالهرب واللجوء إلى معبد إلهة البيت النحاسي القريب من المكان، حيث وجد حجرة صغيرة اختبأ فيها من قسوة المناخ وبعيداً عن العيون. وراح الإيفور في تلك الأثناء يبحثون عنه، ولكنهم أزالوا سقف الحجرة، في النهاية أثناء بحثهم، ولما تبينوا وجوده فيها ثبتوا أبواب المعبد وطوقوا المكان بالحراس، وأخذوا بتجويعه. فلما وجدوا أنه بات قاب قوسين أو أدنى من الموت، أخرجوه من المعبد وهو يكاد يلفظ أنفاسه، فلما أُخرج مات الرجل. وكان القوم قد عزموا في مبدأ الأمر على رمي جثته في الكايداس، حيث

ترمي جثث المجرمين، إلا أنهم قرروا في النهاية دفنه في مكان قريب. ثم أمر إله دلفي بـ ينقل الإسبارطيون قبره إلى المكان الذي مات فيه. وتشهد الكتابة المحفورة على الأعمـ القائمة في تلك الناحية المقدسة على أن جثمانه مدفون هناك، ولما كان ذلك الفعل قد جلب اللعنة لهؤلاء القوم، أمر الإله الإسبارطيين بإعادة جثتين لإلهة البيت النحاسي بدلا من جثة واحدة وهكذا نصب الإسبارطيون تمثالين من البرونز عملاً بأمر الإله ليحلا محل باوسانياس، ولأن الإله ذاته اعتبر ذلك الحدث لعنة رد الأثينيون على سفراء إسبارطة بطلب التكفير عنها.

ولقد أوفد الإسبارطيون، بعد افتضاح تواطؤ باوسانياس والفرس، سفارة إلى أثينا واتهموا ثيميستوكلس بناء على الأدلة التي توصل إليها المحققون بالتهمة ذاتها، وطالبوا بإنزال العقوبة به بالمثل. وقد وافق الأثينيون على هذا المطلب. وكان ثيميستوكليس على كل حال منفياً يعيش في جزيرة آرجوس، وإن كان يكثر من السفر في بقية أنحاء البيلوبونيز. وبناء على هذا الطلب بعث الأثينيون ببعض ضباطهم لمرافقة الإسبارطيين الذين أبدوا كل استعداد لاقتفاء أثره، وزودوهم بالأوامر لاعتقال ثيميستوكليس هذا حيثما عثروا عليه وجلبه إلى أثينا. وكان ثيميستوكليس قد أدرك ما يدبر له ففر من بلاد البيلوبونيز إلى كورسيرا التي أحلته محل التكريم باعتباره من أهل الفضل، بيد أن الكورسيريين صارحوه بأنهم لا يجرؤون على المجازفة باستعداء أثينا وإسبارطة عليهم، إن وفروا له الملجأ، لذلك أعادوا الرجل إلى البر الرئيسي قبالة الجزيرة. وهناك شعر الرجل بوطأة الضباط الأثينيين الذين في أثره واكتشافهم تحركاته، ولم يعد لديه إلا أن يلجأ إلى دار أدميتوس، ملك مولوسي، مع أنه لم يكن صديقاً له. وصادف أن كان الملك أدميتوس غائباً آنذاك عن مقره، فطلبت منه زوج الملك، التي سألها إغاثته أن يحمل ولدها بين ذارعيه ويستريح في فناء الدار. وما هو إلا حين حتى عاد أدميتوس فقدم له ثيميستوكليس نفسه وروى له قصته، وختم روايته بالقول: "قد كنت عارضتك حين

جئت تطلب من أثينا العون، ولكنك سوف تجلب العار لنفسك إذا انتقمت مني الآن وأنا منفي عن بلدي، وفي إثري قوم دونك قوة وبأساً. وليس في الانتقام مني وأنا في هذه العثرة ما يزهو به المرء. وإني حينما عارضتك لم يكن الأمر يتعلق بحياة أو موت وإنما في أمر كنت تريده؛ أما إذا سلمتني – وأخبره عندئذ بمن كانوا يلاحقونه وما يقصدون عمله – فإنك بلا ريب سوف تقضي على حياتي".

أصغى أدميتوس لما قاله ثيميستوكليس، ثم مد يده وأنهضه على قدميه مع طفله الذي كان يحمله بين ذراعيه وهو قاعد في ذلك المكان، والحق أنه كان لهذا الموقف أعظم الأثر في نجاح ضراعته. وما هو إلا بعض الوقت حتى وصل الإسبارطيون والأثينيون، ولكنهم لم يفلحوا بالرغم من كل ما قالوه في حمل أدميتوس على تسليم هذا اللاجئ. وحين رغب ثيميستوكليسس في الرحيل إلى حمى ملك فارس أرسله براً إلى مدينة الاسكندر بيدنا في بحر إيجة، حيث صادف سفينة تجارية متجهة إلى أيونيا فاستقلها، إلا أن السفينة واجهت عاصفة رمت بها نحو الأسطول الأثيني الذي كان يحاصر جزيرة ناكسوس. وكان ثيميستوكليسس مجهولاً من الركاب، إلا أنه خشي من أن ينكشف أمره فأخبر قبطان السفينة بحقيقته والسبب في هربه، وهدده بالادعاء أنه تناول منه رشوة لقاء تهريبه إن رفض إنقاذه، وقال: إن سلامتهما مضمونة إذا لم يسمح لأحد بمغادرة السفينة حتى تهدأ الأحوال وتصبح مستعدة للإبحار ثانية، ووعده بمكافأة مناسبة إن اتبع تعليماته. وامتثل القبطان لما قاله ثيميستوكليس وبعد أن رست السفينة نهاراً وليلة على مقربة من الأسطول الأثيني عادت فاستأنفت الإبحار حتى بلغت أفسوس بعد مدة.

وهنا كافأ ثيميستوكليس القبطان بكمية من المال الذي كان بعضه قد جاءه من أصدقائه في أثينا وبعضه الآخر مما حمله معه من آرجوس. وبعد ذلك تابع السفر براً برفقة

أحد الفرس الذين يقيمون على الساحل وأرسل إلى الملك أرتحششتا بن أحشويرش الذي كان قد تولى العرش منذ عهد قريب بالرسالة التالية: "أنا ثيميستوكليس، وقد جئتُ إليك وكنت سبباً في إلحاق الأذى ببيتك أكثر من أي هيليني آخر يوم كنت أقف مدافعاً عن نفسي أمام الغزو الذي قام به والدك، ومع ذلك فإني قدمت له من الخير أثناء الانسحاب - وكنت يومئذ آمناً وهو في موقف الخطر - ما يفوق كل الضير الذي ناله مني. وإني أستحق رد الجميل لما أسديت له من العون حينذاك - وهنا راح يروي قصة التحذير الذي وجهه إلى أحشويرش وإشارته له بالانسحاب والتحذير الذي أرسله له من سلاميس، والاحتفاظ بالجسور على الهليسبونت سليمة، والتي ادعى - وكان زعمه باطلاً تماماً - بأنها كانت تحت سيطرته - وأنا هنا في الوقت الحالي ولدي المقدرة على أداء خدمات جلى لك، والهيلينيون في إثري يتعقبونني بسبب ما أكنّه لك من المودة، غير أنني أرغب في إمهالي عاماً قبل أن أعرض لك بنفسي الأسباب التي حملتني على القدوم إليكم."

ويقال: إن الملك فوجئ كثيراً بما بدا من تصميم الرجل وترك له الحرية ليفعل ما يشاء وعلى النحو الذي يراه مناسباً. وخلال هذا العام أخذ ثيميستوكليس يتعلم لغة الفرس وعاداتهم قدر المستطاع. ولما انصرم العام حضر إلى البلاد وغدا شخصاً ذا شأن خطير، بل أصبح يتمتع هناك بنفوذ لم يحظ هيليني بمثله قط، ومرد ذلك جزئياً إلى الصيت الواسع الذي كان قد سبقه، وبسبب الآمال التي كان يعقدها بإخضاع بلاد هيلاس للملك، لكن السبب الرئيس ما كان يبدو منه دائماً من الكفاءة والذكاء.

والحق أن ثيميستوكليس كان ذا عبقرية فطرية فذة لا يخطئ المرء في ملاحظتها، وكان في هذا رجلاً لا نظير له، وهو أجدر الرجال بالإعجاب. وكان يتمتع بالمقدرة على بلوغ الاستنتاج المناسب إذا ما عرض عليه موضوع يحتاج حلاً سريعاً، ولا يقبل التمهل

والمناقشة المطولة، فيصل إلى الحل دون دراسة مسبقة أو دراسة بعد حين، متوسلاً بذكائه الفطري، فيقدر الأمور حق قدرها وما يتوقع حدوثه، وكانت توقعاته للمستقبل دائماً أقرب إلى الدقة من توقعات الآخرين. وكان الرجل يحسن عرض أي موضوع له إلمام به. كما يملك أن يقدم بعدُ رأياً محكماً حتى في القضايا التي تقع خارج نطاق خبرته. كذلك كان على قدرعظيم من المقدرة على التنبؤ بأحداث المستقبل والكشف عن الإمكانات الخفية في الأمور خيراً كانت أم شراً. وخلاصة القول كان ثيميستوكليس لا مثيل له بما له من عبقرية ماضية وما يتمتع به من سرعة في المبادرة والعمل ليأتي بالفعل الصحيح وفي اللحظة المناسبة بالضبط.

ولقد توفي الرجل بسبب مرض أصابه، وإن هناك من يقول أنه آثر الانتحار بالسم حين وجد أنه لن يستطيع إنجاز وعوده للملك. ومع ذلك فهناك تمثال له في سوق مجنيسيا في آسيا، وهي مقاطعة ولاه الملك عليها ليكسب خبزه من نتاجها – ويقدر إنتاجها بخمسين تالنت في السنة–، كما ضم إليه لامبساكوس لنبيذه – وكانت هذه تشتهر يومئذ بأنها أفضل منطقة لإنتاج النبيذ– ومايوس لنصيبه من اللحم. ويقال: إن رفاته نقل، حسب وصيته، سراً إلى بلده على يد أقاربه ودفن في أتيكا. وكان التزام السرية في هذا ضرورياً؛ لأن قوانين أتيكا تحظر دفن رفات من نفي من البلد بسبب الخيانة.

وهكذا كانت خاتمة باوسانياس الإسبارطي وثيميستوكليس الأثيني، وكانا في أيامهما أشهر الناس في بلاد هيلاس.

الفصل الحادي عشر: إنذار إسبارطة ورد بيركليس عليه

كانت السفارة الأولى التي أوفدها الإسبارطيون على نحو ما سبق لي عرضه: طلب الإسبارطيون طرد من حلت عليهم اللعنة، وتلقوا من أثينا بالمقابل طلباً مماثلاً. ثم أرسلوا بعدئذ سفارة أخرى للطلب من أثينا فك الحصار عن بوتيدايا ومنح إيجينا استقلالها. ولكن النقطة الأهم والأكثر وضوحاً هي أنه يمكن تفادي الحرب إن ألغت أثينا القرار الميجاري الذي يمنع الميجاريين من دخول كافة المرافئ في الإمبراطورية الأثينية ومن سوق أتيكا نفسها.

ولقد رفض الأثينيون البنود الأولى، كما لم يقبلوا بإلغاء القرار. وكان ردهم باتهام الميجاريين بحرث أرض مقدسة، وزرع أرض لا يملكونها، وإيواء رقيق فارين من أثينا.

وأخيراً وصلت من إسبارطة سفارة تحمل إلى أثينا إنذاراً. وكانت هذه السفارة مؤلفة من رامفياس وميليسيبوس وأجيساندر. ولم يعرض هؤلاء أياً من الموضوعات المعتادة والتي سبق الحديث فيها، بل اختصروا الحديث على النحو التالي: "إن إسبارطة تنشد السلم، وهو مازال ممكناً، إن أعطيتم الهيلينيين حريتهم".

وقام الأثينيون عندئذ بعقد اجتماع فيما بينهم للتداول، وتقرر النظر في الموضوع وبلوغ القرار النهائي ثم إبلاغ إسبارطة بالرد. ولقد تعاقب الخطباء في الحديث وعرضت آراء كلا الجانبين، فقال بعضهم بضرورة شن الحرب، بينما قال آخرون بضرورة إلغاء القرار الخاص بميجارا فلا يكون حائلاً دون السلم. وكان من بين المتحدثين في ذلك الاجتماع بيركليس بن أكسانتيبوس زعيم الأثينيين في زمانه والأقوى فعلاً والأبلغ في النقاش. وقد كانت نصيحته لقومه كما يلي:

"أيها الأثينيون، إن آرائي هي ما عرفتم: إنني أعارض تقديم أي تنازل للبيلوبونيز، وإن كنت أدرك أن الحماس الذي يستبد بعقول البعض للحرب يقصر حين يطلب اقتران

الفكر بالعمل، كما أعي أن الأفكار تتغير مع تغير الأحوال. وأراني في هذا المقام مضطراً مع ذلك لتكرار النصيحة ذاتها، وهي ما سبق أن أعلنته لكم في الماضي، وأدعو من أقنعته كلماتي بتأييد ما سوف نعمل معاً على إصداره من القرارات، وأحث على الالتزام بها وإن واجهتنا بعض المصاعب أحياناً، وإن قصرتم عن ذلك فلن يكون بوسعكم الادعاء بامتلاككم الحصافة حين تسير الأمور كما نريد لها أن تسير. فلطالما افتقرت الأحداث للمنطق في مسيرتها، كما تفترق خطط الإنسان عن المنطق، ولذلك جرينا على عادة إلقاء التبعة على الحظ حين نصادف أموراً لم نكن لنتوقع حدوثها.

"لقد كان من الجلي لنا أن إسبارطة كانت تحيك لنا المؤامرات، وهذا أمر بات مشهوداً. فالمعاهدة بيننا نصت أن يفصل التحكيم فيما نختلف فيه، وتبقى الأمور على حالها الراهن حتى يكون الحكم. ولكن الإسبارطيين ما طالبوا بالتحكيم يوماً، ولا هم قبلوا بعروضنا باللجوء إليه في فض الخلافات. وهم يؤثرون تسوية أمورهم بالحرب على التفاوض سلماً، وها هم يأتوننا اليوم ولا يبدون حتى الاحتجاج، بل يحاولون إلقاء الأوامر علينا؛ فيأمروننا برفع الحصار عن بوتيدايا، ومنح إيجينا استقلالها، وإلغاء القرار الخاص بميجارا. ثم ها هم يأتوننا أخيراً بإعلان يفرض علينا منح الهيلينيين حريتهم.

"ولا يظن أحداً منكم أننا نختار الحرب لأمر تافه، حين نرفض إلغاء القرار الميجاري. إن هذا موضوع يثيرون حوله جلبة عظيمة جداً، ويقولون: إن الحرب ليست بالأمر المحتم، بل حسبنا أن نقوم بإلغاء هذا القرار حتى تزول مبررات الحرب، لكن إذا دخلنا الحرب، فلا يدخلن قلوبكم أي شك بأن الحرب إنما تندلع من أجل مسألة بسيطة. والأمر البسيط بالنسبة لكم هو التأكيد على توفر التصميم لديكم وهو البرهان على هذا التصميم. فإن سلمتم بما يطالبونكم به طالعوكم للتو بطلب أكبر وأعظم، اعتقاداً منهم بأنكم إنما قبلتم بما يطلبون بدافع من الخوف، أما إذا وقفتم وقفة الثبات على الرأي فإنكم إنما تبلغونهم

بوضوح أن عليهم أن يعاملوكم معاملة الأنداد. والآن عليكم أن تحسموا أمركم وتحددوا مساركم، فإما أن تذعنوا لهم قبل أن ينزلوا بكم أي أذى، أو إذا مضينا إلى الحرب - واعتقد بوجوب ذلك - فسيتبين لكم عندئذ إن كان سببها عظيماً أم صغيراً، فلن نسقط ولن نظل نحمل ممتلكاتنا تحت التهديد المستمر بالتدخل. فعندما يطرح الند مطالب على جيرانه ثم يصوغها بلغة الأوامر، قبل الاحتكام، فيظل من الاستعباد أن يقبل بها المرء، مهما تكن هذه المطالب، كبرت أم صغرت.

"أما الحرب وما لدى كل طرف فيها من موارد فإني أود منكم سماع عرض مفصل لتدركوا أننا لسنا الطرف الضعيف. إن البيلوبونيز يحرثون أرضهم بأنفسهم، وهم أفراداً ودولاً لا يملكون موارد مالية، ويفتقرون للخبرة بالقتال في البحار، وليست لديهم خبرة في الحرب الطويلة، ولأن خبرتهم تقتصر على القتال بعضهم مع بعض بسبب فقرهم، كانت حروبهم قصيرة الأمد. ومثل هؤلاء القوم لا يستطيعون في الغالب تعبئة أسطول أو الزج بجيش، لأن مؤدى ذلك الغيابَ عن أرضهم وتكبيدَ خزانتهم أعباءً، بينما لنا نحن، فوق ما تقدم السيطرة على البحر. ثم إن الذين يحرثون الأرض يخشون في الحرب على أموالهم أكثر من خوفهم على حياتهم؛ فهؤلاء يأخذون بفكرة حصيفة وهي أنهم سوف يخرجون من الحرب سالمين، لكن إن نجوا لم تسلم أموالهم بعد أن يكونوا قد أنفقوها في الحرب، خاصة إذا دارت فترة أطول مما هو متوقع لها. وفي معركة واحدة قد يتمكن البيلوبونيز وحلفاؤهم من مواجهة بقية بلاد هيلاس، إلا أنهم لا يستطيعون خوض حرب أمام قوة تختلف عنهم، طالما أنهم يفتقرون لسلطة مركزية ذات رأي وتدبير تملك أن تأتي بالعمل السريع الحاسم، فهم متساوون جميعاً عند التصويت، بالرغم من أنهم ينتمون إلى أقوام مختلفة، وكل منهم منشغل بمصالحه الخاصة، والنتيجة المألوفة هي بقاء أمورهم على حالها دون إنجاز، ومنهم من شاغلُه الأساس الانتقامُ من عدو، ومنهم من يحرص على سلامة شخصه ومصالحه، ثم ينفرط عقدهم ولا يجتمع بعضهم إلى بعض

إلا بين الحين والآخر، وإذا اجتمعوا لم يكرسوا لمصالحهم المشتركة إلا بعض الوقت، بيد يقضي كل منهم معظم الوقت في ترتيب مصالحه الخاصة. ولا يخطر ببال أي منهم أن عدم المبالاة من أحدهم كفيل بأن يلحق الضرر بالجميع، بل إن كل دولة تعتقد بأن مسؤولية مستقبلها تقع على دولة أخرى، ولذا فإنه بينما ينطوي كل فرد منهم على فكرة هي عين ما يحمله الآخر، لا ترى بينهم من يلحظ من وجهة نظر عامة تدهور الأحوال.

"وما قصدت من هذا القول هو أن الافتقار للمال سيجعلهم عاجزين، ولسوف يبددون الوقت في البحث عنه، غير أن الفرصة في الحرب لا تنتظر أحداً.

"وبعد فإننا لا نخشى شيئاً من أسطولهم ولا يجزعنا احتمال بنائهم التحصينات في أتيكا، بل الحق أنه ليس من اليسير حتى في زمن السلم بناء مدينة واحدة تكون من القوة ما يُمكّنها من أن تهيمن على أخرى، وهذا أمر أشد صعوبة حين يكون في أرض معادية وحين يواَجَه بتحصيناتنا، وهي لا تقل قوة ومنعة عن تحصيناتهم. ولئن كان بوسعهم حقاً أن يلحقوا بعض الضرر بأرضنا بمجرد بناء موقع متقدم لهم هناك، ينطلقون منه في الإغارة أو استقبال الفارين، فليس من شأن ذلك أن يحول دوننا والرد باستخدام قوتنا البحرية والوصول إلى مناطقهم بحراً وإقامة التحصينات عليها هناك؛ لأننا اكتسبنا خبرة بالقتال على اليابسة عبر عملياتنا البحرية أكثر من خبرتهم بالقتال بحراً بالإفادة من عملياتهم في البر. أما في البحر فدونهم الدرس الصعب. وقد كنتم تتعلمون هذا الدرس منذ انتهاء حروب الفرس، ومازلتم دون إتقان ما تعلمتم عبر تلك الخبرة. فكيف لنا أن نفترض؛ بهم القدرة إذن، على قطع الشوط الكبير إطلاقاً ؟ إن هؤلاء القوم من المزارعين وليسوا بأهل بحر، ولن يقيض لهم فرصة لممارسة هذا الجانب؛ لأننا سوف نحكم عليهم الحصار بقواتنا البحرية القوية. ولعلهم يأنسون في أنفسهم استعداداً

للمجازفة لو كانوا يقابلون قوة حصار ضعيفة، وهم يعولون على ذلك بكثرتهم، إلا أنهم لن يغامروا بالخروج والتصدي إذا كان قبالتهم أسطول أضخم، ويزيد من ضعفهم قلة حيلتهم بسبب افتقارهم إلى الممارسة، وافتقارهم إلى الخبرة تجعلهم أقل قبولاً للمغامرة. وركوب البحر، كأي أمر آخر، هو فن. وهو ليس بالأمر الذي يعرض للمرء ويأخذ في درسه في أوقات الفراغ؛ والحق أن ركوب البحر دراسة تستغرق من المرء الوقت كله ولا تدع له فسحة من الوقت لأي أمر آخر.

"ولنفترض أنهم وضعوا أيديهم على الأموال في أوليمبيا أو دلفي، وحاولوا إغراء البحارة الأجانب وضمهم إلى أسطولهم بدفع أجور أعلى لهم، ولسوف يكون هذا أمراً خطيراً إن لم نضاههم بأنفسنا وبمن هم على سفننا من البحارة الأجانب والمقيمين على أرضنا. ولكن لما كانت الأمور على عهدكم بها فإننا نملك أن نضارعهم على النحو الذي ذكرت. ثم إن لدينا بين مواطنينا - وهذه ناحية ذات أهمية بالغة - من قادة السفن والبحارة ما يزيد على كل من في بلاد هيلاس مجتمعين، كما يفضلونهم خبرة وتأهيلاً. وبعد فكم من بحارتنا الأجانب يقبلون بالمجازفة بالقتال في صف الطرف الآخر، لقاء أجر أعلى لأيام معدودات، لا ليواجهوا الاندحار والهزيمة وحسب بل لتطاردهم مدنهم أيضاً؟

"أحسبني قد قدمت لكم عرضاً لا بأس به لوضع البيلوبونيز. أما نحن فلا يعتور موقفنا شيء من الضعف الذي لحظته في موقفهم، وهو يتميز بعد بقوة أصيلة هم دونها. فإن غزوا بلدنا من البر غزوناهم من البحر، ولسوف يتبين أن دمار بعض بلاد البيلوبونيز أشد ضرراً لهم من دمار أتيكا كلها بالنسبة لنا؛ ذلك أنهم لن ينالوا بعدئذ شيئاً من الأرض حتى يقاتلوا في سبيلها، بينما لدينا نحن الكثير من الأرض، سواء في الجزر أو في القارة.

"إن للقوة البحرية أهمية عظيمة. فانظروا إلى الأمر من هذه الناحية. لنفترض أننا

جزيرة، أفلا نكون عندئذ في أمان من الهجوم علينا ؟ وإذن فعلينا أن نعدّ أنفسنا من أهل الجزر، وعلينا أن نتخلى عن أرضنا وبيوتنا، وأن نحمي البحر والمدينة، وعلينا أن نحذر الاشتباك مع قوات البيلوبونيز التي تتفوق علينا كثيراً، تحت تأثير الغضب من خسارة الأرض والبيت. وإن حققنا عليهم نصراً كان علينا أن نتابع القتال من جديد بعد بالعدد ذاته، وإذا عانينا هزيمة خسرنا في الوقت ذاته حلفاءنا الذين تعتمد عليهم قوتنا؛ لأنهم سوف يثورون علينا فوراً بعد ما أصبحنا أقل عدداً ولم يعد بوسعنا الالتفات إليهم والسيطرة عليهم. فما يجدر بنا الأسف عليه هو خسارة أرواح الجنود، لا البيت والأرض. فالرجال في المقدمة والباقي هو ثمار جهودهم. وإذا كنت أملك أن أقنعكم بأمر، فإني كنت أحثكم على النهوض وتدمير ممتلكاتكم بأيديكم ليعلم البيلوبونيز بأنكم تسترخصون هذا المتاع ولا تستسلمون لهم.

"وإني أستطيع أن أعدد لكم أسباباً أخرى تحملكم على الثقة بأن النصر في النهاية حليفكم، إن حزمتم أمركم على ألا تتوسع الإمبراطورية مادامت الحرب جارية، وألا تتورطوا في مخاطر جديدة. وإنني لا أخشى خطط العدو وأساليبه، إنما أجزع من أخطائنا. ولسوف أتناول هذه الأمور كلها في مناسبة أخرى، حينما تسير الأفعال مع الأقوال. أما الآن فإني أنصح بإنهاء مهمة سفارة إسبارطة لتحمل الرد التالي، وهو: أننا نقبل بدخول ميجارا إلى سوقنا ومرافئنا، شريطة أن تقوم إسبارطة بإلغاء الحظر المفروض علينا وعلى حلفائنا – إذ ليس في المعاهدة ما يمنع إسبارطة من فرض هذا الحظر أو يحول دون إصدارنا قانون استثناء ميجارا من التعامل –، كذلك نقبل بمنح حلفائنا الاستقلال، إن كانوا يتمتعون به يوم عقدنا المعاهدة، وحين يمنح الإسبارطيون كل دولة حليفة لهم الحق بإقامة الحكم الذي تختاره عوضاً عن ذاك الذي يلائم مصلحة إسبارطة. وليعلموا بعد بأننا على استعداد – وفق بنود المعاهدة – للقبول بالتحكيم، وألا نكون البادئين بالحرب، إنما سوف نقاوم من يبدأها. ذلكم هو الرد السليم وهو ما ينبغي لمدينتنا أن

تعتمده. ولنعلم أن هذه الحرب قد فرضت علينا، وكلما كنا مستعدين لقبول التحدي وجدنا خصومنا أقل إقبالاً على الهجوم. وعلينا أن ندرك بعد أن أعظم الأمجاد، للمدن كما للأفراد، إنما تنتزع من أدهى الأخطار. فعندما خرج آباؤنا ليواجهوا الفرس لم يكونوا يملكون من أسباب القوة ما نملكه الآن، بل الحق أنهم تجردوا مما يملكون، وحين تحقق لهم رد الغزو الأجنبي وجعلوا مدينتنا ما هي عليه اليوم كان ذلك بفضل الحكمة لا بالحظ الحسن، وبالجرأة والإقدام لا بالقوة المادية. فعلينا أن نحافظ على القيم التي وضعها هؤلاء الآباء، وعلينا أن نقاوم أعداءنا بأية طريقة وبكل طريقة".

كانت هذه خطبة بيركليس. ورأى الأثينيون أنها أعظم ما ألقي من الخطابات؛ فصوتوا كما أراد منهم التصويت. وكان ردهم على الإسبارطيين على نحو ما أراد منهم جملة وتفصيلاً، فهم لن يقبلوا بإملاء الأوامر عليهم، لكنهم مستعدون للتوصل إلى تسوية حول مختلف الدعاوى والشكايات، وفق ما نصت عليه المعاهدة وعلى أساس من العدل والمساواة. ولقد عاد السفراء إلى إسبارطة، وبعد هذه السفارة انقطعت عن إرسال المزيد من السفارات.

تلكم هي، إذن، أسباب الشكاوى والخلاف بين القوتين قبل اندلاع الحرب ونشأت عن قضيتي أبيدامنوس وكورسيرا. وكانت الاتصالات ما تزال تجري بين الدولتين والناس يسافرون بينهما دون إعلان، وإن كان ذلك لا يخلو من الشكوك والارتياب؛ لأن الأحداث كانت ماتزال تجري بما يعني ذلك من إلغاء المعاهدة وتوفير المبرر للحرب المفتوحة.

الكتاب الثاني

الفصل الأول : الهجوم على بلاطية، اندلاع الحرب ،
الحلفاء على كلا الجانبين

وصلنا الآن إلى اللحظة الفعلية لاندلاع الحرب بين الأثينيين وحلفائهم من جهة والبيلوبونيز وحلفائهم من جهة أخرى. وكانت الاتصالات بين الجانبين قد توقفت واقتصرت على الرسل. وما إن بدأت الحرب حتى تواصلت دونما انقطاع. ولقد دونت الوقائع كما جرت كل صيف وشتاء.

كانت هدنة الثلاثين عاماً التي تم إبرامها بعد إعادة فتح يوبوية قد صمدت أربعة عشر عاماً. وفي السنة الخامسة عشرة التي تصادف السنة الثامنة والأربعين على تسلم خريسيس عرافة آرجوس، وهي السنة التي كان فيها إينيسياس من الإيفور في إسبارطة، وقبل شهرين من نهاية ولاية الأرخون بثودوروس في أثينا. وبعد مضي ستة أشهر على موقعة بوتيدايا، عند بداية فصل الربيع، وصلت قوة مسلحة من طيبة قوامها أكثر من ثلاثمئة رجل بإمرة بيثانجيلوس بن فيليديس، وديمبوروس بن أونيتوريديس وهما من بويوطيا، نحو الهزيع الأول من الليل ودخلوا بلاطية، وهي مدينة في بويوطيا وحليفة لأثينا. وقد أتوا بدعوة من فريق من أهالي بلاطية بزعامة نوكليديس وأصدقائه الذين فتحوا لهم أبواب المدينة. وكان هدف هذا الحزب أن تزداد قوتهم بالتخلص من خصومهم السياسيين واستمالة بلاطية إلى التحالف مع طيبة. وتمّ إعداد الخطة مع أوريماخوس بن ليونتياديس، أحد كبار أعيان طيبة. ولما كان أهالي طيبة يدركون أن الحرب واقعة لامحالة، فقد تاقت نفوسهم إلى بسط نفوذهم على بلاطية أولاً – لأن بلاطية كانت معادية لهم على الدوام– طالما كان السلم ما يزال سائداً والحرب لم تندلع بعد. والواقع أن هذا كان السبب الذي مكنهم من دخول المدينة دون أن يلاحظهم أحد،

نظراً لعدم وجود حراس على أبواب المدينة.

تقدمت القوات الطيبية نحو السوق، وهناك وضعوا أسلحتهم على الأرض، إلا أنهم لم يتبعوا نصيحة الحزب الذي كان قد استدعاهم بأن يباشروا العمل فوراً بالتوجه إلى دور أعدائهم. وعوضاً عن ذلك قرروا إصدار بيان معتدل اللهجة؛ نظراً لميلهم إلى الوصول إلى اتفاق ودي إذ حسبوا أنهم بهذه الطريقة سوف يكسبون المدينة إلى جانبهم بسهولة. ولذلك أعلن رسولهم أن على كل من يرغب في العودة إلى موقعهم التقليدي المناسب في حلف بويوطيا كلها أن يأتي وينضم إليهم في السوق.

أما البلاطيون، فإنهم حينما أدركوا أن الطيبيين أصبحوا داخل مدينتهم وأنهم قد استولوا عليها في برهة وجيزة، اتخذوا أهبتهم للتوصل إلى إتفاق. ومرد هذا في بعضه إلى الرعب الذي وقع في نفوسهم، وفي بعضه الآخر إلى ظنهم أن الأعداد التي دخلت المدينة كانت أكبر مما هي عليه في حقيقة الأمر؛ إذ لم يكن بمقدورهم رؤية ما كان يحدث فعلاً في ظلام الليل. وهكذا قبلوا بمقترحات الطيبيين ولم يقوموا بأي عمل مناهض لهم، خاصة وأن الطيبيين أنفسهم لم يتخذوا أي إجراءات عنيفة بحق أحد.

ولكنهم تنبهوا بينما المفاوضات جارية إلى أن تعداد قوات طيبة لم يكن كبيراً وخلصوا إلى نتيجة مفادها: أنهم إذا ما قاموا بمهاجمتهم يستطيعون التغلب عليهم بسهولة. وكان معظم الأهالي لا يؤيدون ترك الحلف الأثيني، لذلك عزموا على القيام بالمحاولة، ولكي لا يمكنوا الأعداء من مشاهدتهم وهم يعبرون الشوارع، شقوا ممرات عبر الجدران التي تصل بين بيوتهم وتجمعوا بأعداد كبيرة. وأقاموا المتاريس بأن جروا العربات إلى الشوارع، ورتبوا كل شيء آخر على نحو يكون فيه أكثر ملاءمة ونفعاً لهم في وضعهم الحالي. وعندما اكتملت استعداداتهم قدر المستطاع، راحوا ينتظرون حتى قبيل الفجر حيث يكون الظلام مازال سائداً وعندئذ يخرجون من بيوتهم بغتة ويهاجمون

الطيبيين. وكانت فكرتهم أنهم إذا ما شنّوا هجومهم في وضح النهار فإن أعداءهم سيكونون أكثر ثقة بأنفسهم وأقدر على مقابلتهم بشروط متكافئة، في حين أنهم في ظلام الليل سوف يكونون أقل ثقة بأنفسهم وفي ظرف غير مؤات لجهلهم بالمدينة التي يعرفها أهلها حق المعرفة. وحينما حانت الساعة شنّوا هجومهم على الفور، واندلع القتال.

وحالما أدرك الطيبيون أنهم قد وقعوا في شرك عمدوا إلى رص صفوفهم وأخذوا يقاتلون كلما تعرضوا لهجوم. ولقد أفلحوا مرتين أو ثلاث مرات في رد الهجمات عليهم، وكانت صيحات المهاجمين تتعالى مدوية وتختلط بصراخ النساء والعبيد على الأسطح، وهم يقذفون الطيبيين بالحجارة والقرميد، كما أن الأمطار كانت تهطل غزيرة بلا انقطاع طوال الليل. وفي النهاية خارت قواهم ووهنت عزائمهم، وراحوا يولون الأدبار هاربين عبر المدينة، ومعظمهم لا يدرون – في الظلام الدامس والوحل، وفي ليلة ليلاء غاب عنها القمر عند نهاية الشهر – أي طريق يسلكونها للنجاة، بينما كان مطاردوهم يعلمون كيف يسدون عليهم طرق الفرار. فكانت النتيجة هلاك معظمهم. أما الباب الذي دخلوا منه وهو الباب الوحيد المفتوح، فقد قام أحد البلاطيين بإغلاقه باستخدام رمح قصير كمسمار أدخله في المزلاج، ليسد عليهم كل مخرج. وفي أثناء محاولتهم الفرار اعتلى بعضهم السور ورموا بأنفسهم إلى الجانب الآخر، لكن معظمهم لقي حتفه في هذه المحاولة. وأفلح فريق منهم بالعثور على باب بلا حراسة. وأعطتهم امرأة فأساً حطموا به المزلاج، لكن سرعان ما تمت ملاحظتهم، ولم يفلت منهم إلا القلة وحسب. ولقي بعضهم الآخر مصرعه في أنحاء متفرقة من المدينة. واندفعت الكتيبة الكبرى التي ظلت صفوفها متراصة أكثر من البقية باتجاه عمارة ضخمة تشكل جزءاً من سور المدينة؛ إذ اتفق أن أبواب هذه العمارة كانت مفتوحة، وظن الطيبيون أنها من أبواب المدينة وأن ثمة ممراً عبرها إلى خارج المدينة. وحينما رأى البلاطيون أن أعداءهم قد خدعوا على

هذا النحو، راحوا يتشاورون ما إذا كان عليهم أن يضرموا النار في العمارة ويحرقوهم فيها وغير ذلك من الأعمال. وأخيراً قام الطيبيون الذين في العمارة وجميع الناجين الذين يتجولون في المدينة بتسليم أسلحتهم للبلاطيين، واستسلموا لهم بلا قيد أو شرط. ذلك ما كان من أمر أولئك الذين دخلوا المدينة.

أما بقية الطيبيين الذين كان يجب عليهم أن يكونوا بكامل قوتهم أثناء الليل، لمساعدة الذين كانوا داخل المدينة إذا لم تسر الأمور على النحو المناسب، فقد بلغت مسامعهم أنباء ما حدث وهم في طريقهم إلى بلاطية، فأسرعوا لنجدتهم، لكن بلاطية كانت تبعد نحو ثمانية أميال عن طيبة، وأعاقت الأمطار التي هطلت في الليل تقدمهم، وفيضان نهر أسوبس جعل من العسير عليهم اجتيازه. وهكذا فإن الأمطار المتساقطة وصعوبة اجتياز النهر لم يمكناهم من الوصول إلا بعد أن كان رجال مفرزة المقدمة بأكملهم قد أصبحوا بين قتيل وأسير.

وعندما عرفوا ما حدث، أخذوا يفكرون في القيام بعمل ضد البلاطيين الذين كانوا خارج المدينة. نظراً لوجود الرجال والأمتعة في الحقول خارج المدينة؛ ذلك أن الهجوم كان قد وقع وقت السلم ولم يكن متوقعاً أبداً. ولذلك أراد الطيبيون — إن استطاعوا — أن يمسكوا ببعض الأسرى لمبادلتهم، إذا ما وقع أحدهم أسيراً. وتلك كانت خطتهم، لكن بينما كانوا ما يزالون يتدارسونها، خامر البلاطيون شك بأن ذلك ما سيقومون به، ولما كانوا قلقين على سلامة من كانوا خارج الأسوار، فقد أوفدوا رسولاً إلى الطيبين. وبينوا لهم أن محاولتهم هذه للاستيلاء على المدينة في وقت السلم غير مبررة أبداً وحذروهم من مغبة إلحاق الأذى بأولئك الذين كانوا خارجها، وأنهم إذا ما قاموا بذلك فسوف يقتلون الطيبيين الذين وقعوا في أسرهم. أما إذا انسحبوا من أرضهم، فسيعيدون لهم الأسرى. تلك هي رواية الطيبيين عن هذه القضية، وهم يزعمون بأنه تم إقرار الاتفاق

والقسم على تنفيذه. لكن البلاطيين، على أية حال ينكرون أنهم وعدوا بإعادة الأسرى على الفور، قائلين: إن ذلك سيكون بعد المفاوضات والاتفاق وحسب. وهم ينفون كذلك مسألة القسم. ومهما تكن الحقيقة، فقد انسحب الطيبيون من منطقة بلاطية دون أن يلحقوا ضرراً بأحد، فسارع البلاطيون إلى إعادة متاعهم إلى المدينة، ثم عمدوا إلى قتل الأسرى على الفور. وكان عددهم مئة وثمانين أسيراً، ومن ضمنهم أوريماخوس، الذي كان الخونة البلاطيون قد تفاوضوا معه.

وبعد ذلك أوفدوا رسولاً إلى أثينا، واتفقوا على هدنة لإعادة جثث القتلى إلى الطيبيين، واتخذوا في مدينتهم كل التدابير التي بدا أنها الفضلى لهم في هذه الظروف الراهنة. وكانت أنباء ما حدث في بلاطية قد بلغت أثينا فور وقوعها؛ فاعتقل الأثينيون في التو واللحظة البويوط المقيمين في أتيكا جميعاً، وأوفدوا رسولاً إلى بلاطية مزوداً بتعليمات بأن يخبر البلاطيين ألا يقطعوا بأمر الأسرى حتى تقول أثينا رأيها فيهم، فمقتلهم لم يكن قد بلغ مسامع الأثينيين بعد؛ لأن الرسول الأول غادر المدينة أول ما دخلها الطيبيون، وكان الرسول الثاني قد خرج بعد هزيمة الطيبين ووقوعهم في الأسر، فلم يعلما شيئاً مما حدث فيما بعد. وهكذا أرسل الأثينيون تعليماتهم دون أن يكونوا على اطلاع بما حدث، وعندما وصل الرسول وجد أن الأسرى قد قتلوا وقضي الأمر. بعد ذلك سار الأثينيون إلى بلاطية وزودوها بالمؤن، وتركوا فيها حامية، ثم غادروا المكان مصطحبين معهم النساء والأطفال والرجال غير القادرين على حمل السلاح.

إن مسألة بلاطية هذه تبين بوضوح تام أن المعاهدة قد انتهكت، وبات الأثينيون الآن مستعدين لخوض الحرب، شأنهم في هذا شأن الإسبارطيين وحلفائهم. وقد عزموا يومئذ على إرسال سفارات إلى ملك فارس وكل قوة أجنبية أخرى كانوا يأملون في الحصول على دعمها، وحاولوا أن يتحالفوا مع الدول الهيلينية الأخرى التي لم تكن منحازة بعد

إلى أي من الطرفين. أما الإسبارطيون فقد أمروا الدول الحليفة لهم في إيطاليا وصقيلية ببناء عدد من السفن لتضاف إلى الأسطول الذي كان لديهم. وكان العدد المطلوب من كل مدينة يتناسب مع مساحتها، فكان المجموع أسطولاً يتألف من خمسمئة سفينة. كذلك طلب من كل مدينة أن تقدم مبلغاً معيناً من المال. وإلى أن تكتمل استعداداتهم، عليهم البقاء على الحياد والسماح للسفن الأثينية فرادى بدخول موانئهم. وعمد الأثينيون من جهتهم إلى إحكام قبضتهم على حلفائهم الحاليين، وأرسلوا على وجه الخصوص سفارات إلى مناطق مجاورة للبيلوبونيز أي كورسيرا وسيفالينيا وأكارنانيا وزاكينثوس، إدراكاً منهم بأن بإمكانهم مواصلة الحرب في كافة أرجاء البيلوبونيز، إن استطاعوا إقامة علاقات متينة وودية مع هذه المناطق.

ولم يكن أي من الطرفين يعتزم الدخول في حرب محدودة أو قصيرة الأمد، فوضع كلاهما كل شيء في خدمة المجهود الحربي، وكان هذا أمراً طبيعياً تماماً. والمألوف في كل مشروع أن يبدأ دوماً والحماس في ذروته، وكان كل من البيلوبونيز وأثينا عامرتين بشباب لم يخوضوا غمار حرب من قبل ولذا كانوا بعيدين كل البعد عن معارضة هذه الحرب. وفي غضون ذلك حافظت سائر الدول الأخرى في بلاد هيلاس على اتزانها إزاء هذا الحدث، حيث دخلت المدينتان الكبريان في الصراع. وكانت تتردد كافة أنواع النبوءات وما توحي به الآلهة معاً في المدن التي كانت على وشك الانخراط في الحرب، وفي مناطق أخرى سواها أيضاً. علاوة على ذلك ضربت هزة أرضية ديلوس قبيل اندلاع الحرب - وهو أمر لم يعهده الهيلينيون من قبل - فقيل: إن هذه إشارة إلى أحداث وشيكة، وإذا ما وقع أمر آخر مشابه، كانت دلالاته تمحص وتدرس بعناية.

كانت مشاعر الناس عموماً تميل إلى جانب الإسبارطيين، وخاصة أنهم أعلنوا أن هدفهم هو تحرير بلاد هيلاس. وكانت الدول والأفراد على حد سواء مفعمين بالحماس

لتأييدهم بكل ما في وسعهم بالقول والفعل. وكان الجميع يعتقدون بأنهم إذا لم يسهموا في مجريات الأمور، فإن كافة الجهود المبذولة ستصبح بلا جدوى. وكانت المرارة هي الشعور السائد تجاه أثينا، سواء لدى أولئك الذين يرغبون في الخلاص من حكمها أو الذين يخشون الوقوع تحت سيطرتها.

تلكم هي الاستعدادات وذلكم هو الشعور السائد عند اندلاع الحرب. وكان لكل دولة حلفاؤها وهم كما يلي: كان إلى جانب إسبارطة كافة الدول في البيلوبونيز داخل البرزخ ما عدا آرجوس وآخيا، اللتين كانت لهما علاقات ودية مع الطرفين. وكانت بيلينة الدولة الآخية الوحيدة التي انضمت إلى إسبارطة في البداية، وإنْ حذت جميع الدول الأخرى حذوها فيما بعد. أما حلفاء إسبارطة خارج البيلوبونيز فكانوا الميجار والبويوط واللوكر والفوك والأمبراس والليوكاد والأناكتور. أما الدول الحليفة التي تزودها بالسفن فهي كورنثة وميجارا وسيكيون وبيلينة وإيليس وأمبراسيا وليوكاس. وكان البيوط والفوك واللوكر يقدمون الخيالة، بينما ساهمت الدول الأخرى بتقديم كتائب المشاة.

كانت تلك هي قوى الحلف الإسبارطي. وكان إلى جانب أثينا خيوس وليسبوس وبلاطية والميسينيون في نوبكتوس ومعظم أكارنانيا وكورسيرا وزاكينثوس ومدن أخرى من مرتبة المدن التي تدفع الإتاوات في المناطق التالية: الساحل الكاري - بما في ذلك المدن الدورية المجاورة - وأيونيا والهيليسبونت وتراقية والجزر الواقعة بين البيلوبونيز وكريت من جهة الشرق وسيكلاديس كلها عدا ميلوس وثيرا. وكانت كل من خيوس وليسبوس وكورسيرا تقدم المشاة والمال.

هؤلاء هم الحلفاء على كل جانب، وتلك هي عدتهم للحرب

الفصل الثاني: البيلوبونيز يجتاحون أتيكا،
موارد أثينا وإجراءاتها المضادة

على إثر مسألة بلاطية بعثت إسبارطة رسلاً إلى البيلوبونيز وإلى حلفائها في الخارج. وكانت تعليماتها أن يوجه هؤلاء قواتهم ويتزودوا بالمؤن اللازمة لتجريد حملة بعيدة، كان هدفها غزو أتيكا. وقد تم تنفيذ ذلك، وفي الوقت المحدد احتشدوا عند البرزخ، وأتت كل دولة بثلثي ما لديها من قوات. وعندما تجمع الجيش كله، قام ملك إسبارطة أرخيداموس الذي كان يتولى قيادة هذه الحملة، بدعوة قادة جيوش هذه الدول كلها والشخصيات ذات الشأن والنفوذ فيها إلى اجتماع وخاطبهم قائلاً:

"أيها البيلوبونيز، أيها الحلفاء، لقد خاض آباؤنا العديد من الحملات سواء داخل البيلوبونيز أم خارجها، والكبار في جيشنا هذا لا تعوزهم الخبرة في الحرب. ومع ذلك فإننا لم نخرج بقوة أعظم مما لدينا الآن، كما أننا أكثر عدداً ومعنوياتنا أفضل من أي وقت مضى، كذلك فإن المدينة التي نتقدم نحوها في ذروة قوتها. فعلينا إذن ألا نقصر عن بلوغ الشأو الذي بلغه آباؤنا، وألا يعجزنا أمر عن بذل حياتنا حفاظاً على مالنا من سمعة؛ ذلك أن هيلاس كلها ترصدنا لترى أفعالنا، وتتطلع بلهفة وترقب معركتنا هذه، وبسبب الشعور العام بالكراهية تجاه أثينا، يرجون لنا التوفيق فيما نسعى إليه. ولئن كنا نخرج للغزو بقوة هائلة فإن ثمة شيئاً من المجازفة بأن يخرج عدونا للقائنا في معركة، فيجب ألا يكون ذلك عذراً للتقاعس عن اتخاذ الحيطة والحذر أثناء زحفنا، وعلى الضباط والجنود من كل دولة أن يكونوا متهيئين باستمرار ليجدوا مواقعهم الخاصة بهم قد تعرضت للخطر. إن في الحرب مفاجآت ومصادفات لا يمكن التنبؤ بها، وعادة ما تشن الهجمات نتيجة نزوة مفاجئة، وكثيراً ما نجد أن قوة قليلة العدد تخشى على سلامتها، تتغلب على عدو يفوقها عدة وتعداداً، لكنه اغتر بقوته فأهمل أسباب الوقاية. ولا ريب

أن على المرء أن يتقدم بجرأة وثقة في بلد معادٍ، لكن عليه أيضاً أن يتخذ تدابير عملية مبنية على أساس فكرة الأمن. فإن أخذت الجيوش بهذا الرأي فإنها ستكون على الأرجح أكثر إقداماً في الهجوم كما يعتمد عليها في الدفاع بكل ثقة.

"والمدينة التي خرجنا لغزوها بعيدة كل البعد عن أن تكون عاجزة عن الدفاع عن نفسها، كما أنها مجهزة أفضل تجهيز ومعدة أحسن إعداد في نواحٍ كثيرة؛ لذلك يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أنه من المحتمل أن يخرجوا للقائنا في معركة، وإذا لم يخرجوا لقتالنا قبل أن نبلغ أراضيهم، فإنهم سوف يقوموا بذلك عندما يروننا نعمل تخريباً وتدميراً في بلادهم وممتلكاتهم؛ فالناس يزداد غضبهم حينما يعانون ما لا عهد لهم به وعندما تقع هذه الأمور أمام أعينهم، فإنهم لا ينتظرون ليفكروا، بل يندفعون بسرعة للقتال بدافع من ثورتهم. وسوف يكون هذا على الأرجح تصرف الأثينيين على وجه الخصوص لأنهم يعتقدون بأن لهم الحق بالسؤدد وهم أكثر اعتياداً على غزو أراضي الأقوام الأخرى من رؤية ذلك يحدث لأرضهم. تذكروا إذاً أنكم سائرون إلى مدينة بالغة العظمة، كذلك فكروا بالمجد، أو بالعار الذي تجلبونه لأسلافكم وأنفسكم إذا ما انتهت الأحداث إلى غير ما نرضاه، واتبعوا قادتكم آخذين هذا كله بعين الاعتبار، وأعيروا جل انتباهكم للانضباط والسلامة، وامتثلوا للأوامر التي تتلقونها على الفور، فالأفضل والأسلم للقوة الكبيرة أن تأخذ بالانضباط الشديد حتى لتبدو أثناء العمل وكأنها رجل واحد."

وبعد أن ألقى أرخيداموس خطابه القصير هذا أوعز للجمع بالانصراف. وقبل أن يأتي بأي خطوة أرسل الإسبارطي ميليسيبوس بن دياكريتوس إلى أثينا ليستطلع إن كان الأثينيون يأنسون للصلح الآن، بعد أن بدأ أعداؤهم في الزحف باتجاههم، لكن الأثينيين رفضوا السماح له بدخول مدينتهم وأنكروا عليه حق مخاطبة مجلسهم. وذلك بسبب قرار كان بيركليس قد أصدره يمنع استقبال أي رسول أو سفارة من الإسبارطيين عندما

يخرجون من بلدهم لغزوهم. وهكذا ردوا ميليسيبوس على أعقابه دون الإصغاء إليه، وأوعزوا إليه بالابتعاد عن حدود المدينة في ذلك اليوم، وزادوا بأن قالوا له إن كان لدى الإسبارطيين ما يريدون قوله مستقبلاً فعليهم بالانسحاب إلى داخل حدودهم ثم يوفدون إليهم سفارة. وبعدها أرسلوا معه حراساً لمرافقته ليحولوا دون اتصاله بأحد. ولما بلغ ميليسيبوس الحدود التفت إلى مرافقيه قبل أن يتابع طريقه وقال لهم: "سيكون هذا اليوم بداية كوارث عظيمة سوف تنزل ببلاد هيلاس."

وبعد عودته إلى الجيش أدرك أرخيداموس أن الأثينيين مازالوا على موقفهم ولا يقبلون بأي تنازل. وهنا قام بالتحرك إلى الأمام والتوجه نحو أتيكا. وكان البويوط قد زجوا بقوات من المشاة والخيالة لتكون في عداد القوة الأساسية بينما توجهت بقية قواتهم إلى بلاطية وأحالت أرضها خراباً.

وبينما كان البيلوبونيز منشغلين إما بحشد قواتهم عند البرزخ وإما بالمسير قبل اجتياح أتيكا، أدرك بيركليس بن أكسانثيبوس – وهو أحد القادة الأثينيين العشرة– أن الغزو محقق، ولاح له أن أرخيداموس – وهو أحد أصدقائه – قد يمر بمزارعه ويدعها دون أن يمسها بأذى، إما رغبةً منه بمراعاة صداقته، وإما تنفيذاً لأمر من الإسبارطيين لإثارة الأحقاد عليه، كما كان شأنهم في الماضي حين طالبوا بطرد اللعنة ولذلك بادر بالإعلان للأثينيين المجتمعين في المجلس بأن أرخيداموس وإن كان صديقاً له فلن يكون في ذلك ما يضر بمصالح أثينا، وعرض التخلي عن أملاكه من مزارع وبيوت إذا ما أبقاها العدو سليمة من الأذى، لتصبح من الأملاك العامة، لئلا يراود أحدهم شك في أمره أو تواطئه، ثم تابع وتناول الوضع الراهن وكرر النصيحة ذاتها التي سبق أن قدمها من قبل من أن عليهم الاستعداد للحرب، وطلب منهم نقل مالهم في الريف إلى داخل المدينة. وحذرهم من الخروج من المدينة للقتال، بل عليهم البقاء في المدينة، وحراستها. أما

الأسطول فدعا إلى رفع كفاءته إلى أقصى حد، كما دعا إلى الحزم في معاملة الحلفاء؛ لأن قوة أثينا - كما قال - فيما يردها من الإتاوات التي يدفعها هؤلاء، والنصر يعتمد على الجمع بين القرار العقلاني والمال. وهنا حث بيركليس على اعتماد الثقة، مشيراً إلى أن متوسط ما يرد إلى الخزانة سنوياً من كافة المصادر الأخرى قد بلغ ستمئة تالنت، ثم هناك ستة آلاف تالنت أخرى من النقود الفضية ما تزال في الأكروبول. ويقدر المبلغ الاحتياطي بتسعة آلاف وسبعمئة تالنت وجمع من أجل بروبيلايا ومنشآت عامة أخرى وبوتيدايا. وهناك بعد قطع غير مسكوكة من الذهب والفضة من النذور المقدمة من الأفراد أو من الدولة، بالإضافة إلى الأوعية المقدسة والأثاث الذي يستخدم في الاحتفالات والألعاب؛ ثم غنائم الحرب مع الفرس وسوى ذلك، ويبلغ مجموع قيمتها ما لا يقل عن خمسمئة تالنت، ويضاف إلى هذا وذاك الأموال الموجودة في المعابد الأخرى مما يمكن الإفادة منها والتي قد وصلت إلى مبالغ كبيرة. وتابع بيركليس القول: إن بوسعهم عند الضرورة القصوى نزع الذهب عن تمثال الإلهة أثينا، الذي يبلغ وزنه - كما قال - أربعين تالنتاً وهو من الذهب الخالص، ويمكن نزعه بسهولة. ولكنه أشار بأن عليهم إعادة هذا الذهب، إن استخدموه للحفاظ على سلامتهم، ليكسوا به التمثال من جديد أو يزيدوا عليه مقداراً أعظم.

وهكذا طمأنهم بيركليس إلى قوة وضعهم المالي. أما الجيش فلديهم ثلاثة عشر ألفاً من المشاة الثقيلة فضلاً عن ستة عشر ألفاً آخرين موزعين بين الحاميات، هم الجنود الذين يتولون الدفاع عن المدينة. وكان هذا عدد الجنود المناط بهم الدفاع عن البلد عند الغزو. وقد تشكلت هذه القوة من كبار السن وأصغر المواطنين في الجيش إلى جانب الغرباء المقيمين الذين يصلحون لأعمال المشاة الثقيلة. وكان سور فاليروم يمتد أربعة أميال من البحر إلى محيط المدينة، وهناك نحو خمسة أميال من السور المحيط بالمدينة كان محروساً وإن يكن بعضه - المقطع ما بين الأسوار الطويلة وسور فاليروم - قد ترك دون حراسة.

وهناك بعدُ الأميال الأربعة ونصف الميل من الأسوار الطويلة حتى بيرايوس، السور الخارجي منها محروس، وفضلاً عن ذلك كله كان هناك سبعة أميال ونصف الميل من التحصينات التي تحيط ببيرايوس ومونيخيا، نصفها يقوم الحراس بخفارته. وكان قوام هذا الجيش اثني عشر ألفاً من الخيالة والرماة الراكبة، فضلاً عن ألف وستمئة من الرماة الراجلة وثلاثمئة من السفن الطويلة الثلاثية المجاذيف الجاهزة للقتال. -وهذا تقدير دقيق، أو لعله متحفظ، لكل سلاح لدى أثينا قبيل نشوب الحرب وفي بدايتها-. كذلك توسل بيركليس بالحجج المألوفة ليزيد من ثقتهم بالنصر النهائي.

ولقد أخذ الأثينيون بنصيحته فأتوا بنسائهم وأولادهم من الأرياف، وحملوا معهم متاعهم، بل نزعوا من بيوتهم الخشب أيضاً. وأرسلوا ماشيتهم من الغنم والبقر إلى يوبوية والجزر قبالة الساحل، غير أن هذه الخطوة كانت تجربة شديدة الوطأة عليهم؛ لأنهم اعتادوا العيش في الأرياف.

والحق أن هذا النهج في الحياة كان سمة الأثينيين منذ عهود سحيقة القدم. فلقد دأب أهل أتيكا على العيش منذ أيام سيكروبس والملوك الأوائل حتى عهد ثيسيوس في مدن مستقلة، لكل منها بلديتها وحكومتها الخاصة. وكانوا لا يجتمعون إلا في أوقات الخطر الداهم للتشاور مع الملك في أثينا، وسوى ذلك كانت كل دولة تعنى بشؤونها الخاصة وتتخذ قراراتها على هذا النحو. ولقد كانت هناك في الحقيقة مناسبات تشن فيها بعض تلك الدول الحرب على أثينا، مثل مدينة إليوسيس في عهد يومولبوس، حينما شن هذا حرباً على الملك إريختيوس، ولكن لما أصبح ثيسيوس ملكاً برهن على ذكائه وقوته وبأسه. وكان من أهم الأمور التي نهض بها حين أعاد تنظيم البلد حل المجالس العديدة وحكومات المدن الصغيرة ثم قام بتوحيدها جميعاً في أثينا الحالية، كما أقام مجلساً واحداً للشورى وحكومة واحدة لتكون مرجعاً للبلاد كافة. وظل المواطنون كأفراد يرعون

ممتلكاتهم كما كان شأنهم في السابق، سوى أن ثيسيوس فرض عليهم الرجوع إلى مركز واحد في أمورهم السياسية – هو أثينا بالذات – وفيما أصبح الجميع مواطنين أثينيين، غدت هذه المدينة التي سلمها ثيسيوس لمن جاء بعده مدينة عظيمة. ويعود عيد اتحاد أتيكا بتاريخه إلى أيامه، ومازال الأثينيون يحتفلون بهذا العيد إلى اليوم تزلفاً للإلهة أثينا، ويتم الإنفاق على هذا الاحتفال من الأموال العامة. وكانت المدينة، قبل ذلك العهد تتألف من الأكروبول الحالي والجزء الواقع أسفله قبالة الجنوب.

والدليل على هذا وجود معابد الآلهة الأخرى في الأكروبول ذاته فضلاً عن معبد أثينا، والمعابد خارج الأكروبول تقع بشكل أساسي في هذا الجزء من المدينة – مثل معبد زيوس الأوليمبي، وأبولو البيثياني، وإلهة الأرض، وديونيسيوس في السبخة، الذي ماتزال تقام تكريماً له الأعياد الديونيسية الأقدم، في شهر أنثيستيريون، وهذا تقليد مازال الأيونيون الذي قدموا من أثينا يأخذون به إلى اليوم – وهناك بعد معابد قديمة أخرى تقع في هذا الجزء من المدينة. كذلك هناك الينبوع المعروف باسم "الينابيع التسعة" تذكرة بالطغاة الذين أمروا بعمارته، وكان يعرف من قبل باسم كاليرهوه أو "الجدول المستقيم"؛ لأنه شق الأرض حين ظهر. وقد اعتاد الناس استعمال هذا الينبوع في مختلف الأغراض لقربه منهم، وهو أصل عادتهم منذ القدم باستخدام مياهه في طقوس الزواج والطقوس الدينية الأخرى. ومازال الأثينيون يشيرون إلى الأكروبول باسم "المدينة"؛ لأنهم كانوا يعيشون هناك في ماضي الزمن.

ولقد عاش الأثينيون زمناً طويلاً في جماعات مستقلة في أتيكا كلها، وظل الناس هناك يأخذون بالعادات القديمة التي درجوا عليها حتى بعد توحيد أتيكا، والسبب في ذلك أن أغلب الأثينيين قد ولدوا وترعرعوا منذ القدم حتى زمن الحرب الراهنة في الريف. ولذلك كرهوا أن تنتقل أسرهم كلها، وتستقر في غير مكانها، خاصة وأنه لم

يمض عليهم إلا القليل منذ العودة والاستقرار هناك من جديد بعد الحرب مع الفرس. ولم يهجروا بيوتهم ومعابدهم التي ورثوها عن ماضيهم الوطني إلا وبهم ضيق، ولذلك وبعد تردد وامتناع قبلوا بتغيير نهجهم في الحياة كله، تاركين وراءهم ما كان في نظر كل واحد منهم مدينته.

حين وصل هؤلاء إلى أثينا لم يكن بينهم إلا قلة يملكون بيوتاً يحلون فيها، وأقل منهم من كان يستطيع أن يتدبر لنفسه مأوى لدى أصدقائه أو أقربائه، غير أن أغلب هؤلاء اضطروا للاستقرار في تلك الأجزاء التي لم يكن العمران قد بلغها بعد، ونزل بعضهم الآخر في المعابد والعمائر المكرسة للأبطال- عدا الأكروبول ومعبد ديميتر الإيليوسينية وبعض الأماكن الأخرى المحرمة – وكانت هناك بقعة معينة أسفل الأكروبول يطلق عليها اسم "أرض البلاسجة"، أنزلت اللعنة على من يسكنها؛ إذ جاء في نبوءة العرافة البيثيانية ما يحرم السكن والإقامة في ذلك الموقع: "من الأفضل لأثينا أن تدع الركن البلاسجي"، غير أن هذه الأرض تحولت تحت ضغط الأحداث المفاجئة إلى عمائر. ويلوح لي أن النبوءة قد تحققت على نحو مغاير لما توقعه الناس؛ فالنكبة التي حلت بأثينا لم يكن سببها نزول الناس غير الشرعي في هذه الأرض، بل إن الاستقرار فيها تم بسبب الحرب، ولم يرد في النبوءة ذكر للحرب، مع أن النبوءة قد توقعت أن يتم استيطانها وأن ذلك سيكون حين تواجه أثينا ظروفاً صعبة. كذلك نزل عدد منهم في الأبراج على امتداد الأسوار، بل وحيثما وجدوا فسحة للنزول فيها؛ ذلك أنه لم يكن ثمة مساحة كافية لكل الذين تدفقوا على المدينة، بالرغم من أنهم فيما بعد تقاسموا أجزاء من الأسوار الطويلة ومعظم بيرايوس واستقروا فيها.

وفيما كانت الأمور تجري على هذا النحو، كان كل من في البلد يتأهب لخوض الحرب. وبدأت الاتصالات بالحلفاء، وتم تجهيز أسطول من مئة سفينة للإبحار إلى البيلوبونيز. وهكذا كانت أثينا مستعدة للحرب.

الفصل الثالث : السنة الأولى من الحرب

في تلك الأثناء كان جيش البيلوبونيز يتقدم زاحفاً إلى الأمام. وكان أول ما قصده هذا الجيش في أتيكا هو أوينوي، ومنها كانوا يعتزمون التوغل في البلاد. وهناك أقاموا معسكراتهم وتهيؤوا لمهاجمة السور بآلات الحصار وسواها من الأساليب. وتقع أوينوي هذه على الحدود بين أتيكا وبويوطيا، وقد جعل منها القوم هناك قلعة حصينة استخدمها الأثينيون في حراسة الحدود خلال الحرب. وهنا أعد البيلوبونيز العدة للقيام بهجوم، وبددوا في ذلك وقتاً دون طائل، وبسببه تعرض أرخيداموس للنقد الشديد. وكان الناس يرون فيه – حتى في الفترة التي سبقت الحرب – رجلاً ضعيفاً ومحابياً لأثينا؛ لأنه لم يكن قد ذهب في أحاديثه للدعوة إلى حرب شاملة. ثم زاد الناس في التعريض به في الفترة التي أعقبت التعبئة بسبب التأخير عند البرزخ والبطء في الزحف، وكان هذا التلكؤ أمام أوينوي أسوأ ما نال من سمعته؛ فقد كان الأثينيون يجلبون ممتلكاتهم وأرزاقهم في تلك الأثناء إلى المدينة، ورأى البيلوبونيز أنه لولا تكتيكات التأخير التي لجأ إليها أرخيداموس لكان لهم أن يحققوا تقدماً سريعاً، ولاستطاعوا وضع أيديهم على كل ذلك المتاع وتلك المؤن وهي ماتزال خارج الأسوار. ولذلك كانت مشاعر المرارة حيال أرخيداموس تعتمل في نفوس أفراد الجيش أثناء حصار أوينوي. وكان الجيش يرى أن السبب في امتناعه عن الهجوم أنه كان يرى أن الأثينيين لن يقبلوا بدمار أرضهم، ولا بد وأن يقوموا ببادرة مصالحة ما قبل أن تمس.

ولكن بعد هجوم غير موفق من الإسبارطيين على أوينوي وفشل كافة المحاولات الأخرى للاستيلاء على الموقع، ثم عدم ورود رسول من أثينا، تحرك جيشهم أخيراً لغزو أتيكا. وقد بدأ الغزو بعد مضي ثمانين يوماً على قضية بلاطية في منتصف الصيف في موسم الذرة. وكان على رأس هذا الجيش الملك أرخيداموس بن زوكسيداموس. في البدء

أقاموا معسكرهم بالقرب من إليوسيس، وعملوا في أنحاء هذه المنطقة والمناطق المجاورة لها وللسهل الثرياسي هدماً وتخريباً. وهزموا جماعة من الفرسان الأثينيين في مكان يدعى راتي أو "الينابيع". ثم تحركوا قدماً - وجبل إيجاليوس إلى يمينهم - عبر كروبيا حتى بلغوا أخارناي، وهي أكبر الوحدات الإدارية في أتيكا، فنزلوا وأقاموا معسكرهم، وذهبوا يعملون في المنطقة كلها هدماً وتخريباً، وظلوا على هذه الحال فترة طويلة.

ويقولون: إن أرخيداموس وضع خطة لبقائه في أخارناي، وجيشه على أتم الاستعداد لخوض المعارك، ولم يضع في حسبانه أن ينزل في هذا الغزو إلى السهل. وكان يأمل أن تتحقق توقعاته بأن يخرج الأثينيون إليه، وجلهم من الشباب الذين لم يتفوق عليهم أحد، وبلغوا من الاستعداد للحرب حداً لم يبلغوه من قبل، كي لا يدعوا الخراب ينال أرضهم. ولما لم يخرجوا إليه عند اليوسيس أو في السهل الثرياسي رغب في أن يرى هل سيخرجون إليه إذا أقام معسكره عند أخارناي؟. وقد بدت له هذه المنطقة موقعاً جيداً ليعسكر فيه، ورجح لديه في الوقت ذاته أن الأخارنيين الذين لديهم من المشاة الثقيلة ما تعداده ثلاثة آلاف، يشكلون عاملاً هاماً في الدولة، ولن يسمحوا بتدمير ممتلكاتهم، بل سوف يقسرون الآخرين على الخروج والقتال لحمايتها. أما إذا لم يخرج الأثينيون للقتال في هذه الحملة فسوف يكون للبيلوبونيز ثقة أعظم بقدرتهم على تخريب السهل والتقدم حتى أسوار أثينا في الحملة التالية. وإذا استمر الحال على هذا المنوال فسوف يكون الأخارنيون قد فقدوا ممتلكاتهم وأصبحوا عندئذ أقل استعداداً للمجازفة بحياتهم دفاعاً عن ممتلكات الآخرين، وسيكون ذلك بالتالي سبباً في تشتت الرأي في مجالس أثينا. تلكم كانت هي سياسة أرخيداموس التي حملته على البقاء في أخارناي.

أما الأثينيون فقد ظلوا يأملون - طالما أقام جيش العدو عند اليوسيس والسهل الثرياسي - بألا يتقدم نحوهم والذي حملهم على هذا الأمل تذكرهم ما كان من أمر

ملك إسبارطة بليستونكس بن باوسانياس الذي كان قد غزا أتيكا بجيش من البيلوبونيز قبل أربعة عشر عاماً، وبعد أن بلغ اليوسيس وثيريا، عاد على أعقابه من حيث أتى، دون أن يتقدم أبعد من تلك المنطقة. والواقع أنه قد حكم عليه بالنفي من إسبارطة، لاعتقاد قومه بأنه تلقى رشوة ليتخلى عن حملته، ولكن لما رأى الأثينيون الجيش يبلغ أخارناي على بعد سبعة أميال فقط من أثينا، وجدوا أنهم لا يستطيعون صبراً على هذا الوضع، حيث أرضهم تتعرض للخراب أمام أعينهم – وكان ذلك أمراً لم يشهده شبابهم من قبل ولم يخبره شيوخهم إلا يوم غزاهم الفرس – ولذلك انتشر الضيق بين الناس، وخاصة الشباب منهم بطبيعة الحال لهذا المشهد فهبوا للمسير ووضع حد لهذا العدوان. ودارت المناقشات يومئذ بلا انقطاع وتأججت المشاعر على الجانبين، وكان بعضهم يطالب بأن يخرج بهم القادة إلى ساحة المعركة للقتال، وبعضهم الآخر يقف معارضاً. ثم جاء محترفو التنبؤ والعرافون بنبوءات من كل نوع فأقبل الناس على اختلاف أحزابهم على الإصغاء إليها. أما الأخارنيون فإنهم حين وجدوا أن لهم مكانة هامة في الدولة كلها وباعتبار أن أرضهم هي التي تتعرض للخراب، أخذوا يضغطون أشد الضغط للخروج للقتال. وهكذا باتت المدينة في حال من الهياج العارم، فكان الناس غاضبين على بيركليس، وأهملوا نصيحته التي سبق أن عرضها، وراحوا يوجهون إليه أقذع الكلمات؛ لأنه القائد ولا يخرج بهم إلى المعركة، وحملوه مسؤولية ما كانوا يعانونه من ضيق.

أما بيركليس فكان مقتنعاً بصواب رأيه بعدم الخروج وطلب القتال، إلا أنه لما رأى الأثينيين تسوقهم في تلك اللحظة مشاعر الغضب وتذهب بهم إلى الضلال، فقد امتنع عن دعوة المجالس العامة للاجتماع أو طلب الناس لاجتماع خاص، خشية أن يؤدي النقاش العام إلى اتخاذ قرارات خاطئة، وراح يتفقد في تلك الأثناء خطوط الدفاع عن المدينة حرصاً على إشاعة الهدوء والسكينة قدر الإمكان. ومع ذلك فقد دأب الرجل على توجيه الفرسان للخروج ومنع دوريات العدو من دخول المنطقة القريبة من المدينة والعبث

فيها. ولقد وقعت معركة غير ذات شأن عند فريجيا بين كوكبة من الفرسان الأثينيين الذين تدعمهم قوة من الثيسال من جهة، والخيالة البويوط من جهة ثانية، وقد ظلت الغلبة للأثينيين والثيسال حتى خرج المشاة الثقيلة لدعم البويوط، فتراجع الأثينيون والثيسال مخلفين بعض القتلى وراءهم، غير أنهم استطاعوا استعادة جثث قتلاهم في اليوم ذاته دون طلب الهدنة. وفي اليوم التالي رفع البيلوبونيز نصباً احتفالاً بمناسبة النصر، وكان الدعم الذي قدمته ثيساليا لأثينا وفق ما نصت عليه المعاهدة القديمة. وقد شارك في هذه المعركة من الثيسال: اللاريسان والفارسال والكرانون والبيراسان والجيترون والفيريان. وكان على رأس الحملة اللاريسية بوليميديس وأرسطونوس، وكل منهما يقود فرقة، وقد تولى قيادة الفارسال مينون كذلك كان لكل مدينة أخرى قادة منها يتولون قيادة قواتها.

أخيراً، حين ظل الأثينيون يعرضون عن القتال، ترك البيلوبونيز معسكرهم في أخارناي وراحوا يعملون تخريباً وتدميراً في بعض المناطق الأخرى بين جبلي بارنيس وبريليسوس. وأثناء وجود البيلوبونيز في أتيكا أرسل الأثينيون أسطولاً من مئة سفينة كانوا قد جهزوها من قبل لتدور حول ساحل البيلوبونيز وعلى متنها ألف من المشاة الثقيلة وأربعمئة من الرماة، وكان قادة هذه الحملة كارسيوس بن زينتيموس وبروتياس بن أبيكليس، وسقراطيس بن أنتيجينيس. أما البيلوبونيز فبعد أن مكثوا في أتيكا مادامت مؤنهم تكفيهم في تلك البقاع، عادوا أدراجهم عبر بويوطيا، لكنهم لم يسلكوا نفس الطريق التي سلكوها حين خرجوا إلى أتيكا، فلما مرت حشودهم بأوروبوس راحوا يخربون الأرض المعروفة بمنطقة جرايان والتي كان أهل أوروبوس يعملون في زراعتها، وهم من رعايا أثينا.

ولما انسحب البيلوبونيز قام الأثينيون بتأسيس مواقع لهم في البر والبحر، ووضعوا لها

الحاميات لحراستها مادامت الحرب قائمة. وكانوا قد قرروا تخصيص مبلغ ألف تالنت من أموال الأكروبول وعدم المساس به، وأن تدفع نفقات الحرب من مصادر أخرى، وعقوبة الموت هي جزاء كل من تسول له نفسه أن يطلب استخدام هذا المال في أي طريقة سوى استخدامه في الدفاع عن المدينة إذا ما هاجمهم أسطول الأعداء من البحر. وإلى جانب هذا المبلغ وضعوا أسطولاً احتياطياً من مئة سفينة ثلاثية المجاذيف من أفضل ما يخرج به الصناع كل عام، وعينوا لها قادة يتولون قيادتها، وهذه أيضاً لا تستخدم إلا لذات الأغراض التي ينفق فيها ذلك المال ولمواجهة الخطر ذاته إذا داهمهم.

وفي الوقت ذاته كان الأسطول الأثيني بسفنه المئة الذي أمر بالدوران حول البيلوبونيز يتابع رحلته. وكان الأثينيون قد نالوا دعماً من خمسين سفينة من كورسيرا وسفن أخرى من حلفائهم في المنطقة. وبعد أن أشاعوا الخراب في مختلف المناطق نزلوا في منطقة إسبارطة عند ميثونة وهاجموا التحصينات، وكانت تلك مواقع ضعيفة متروكة دون حامية، ولكن صادف أن كان في المنطقة براسيداس بن تيليس، وهو ضابط إسبارطي، ومعه فوج من صفوة الرجال، فلما أدرك ما كان يجري بالقرب منه هرع لمؤازرة المدافعين عن الموقع، ومعه مئة من المشاة الثقيلة. ولما وجد جيش الأثينيين مشتتاً في كافة أنحاء المنطقة وكل اهتمامه منصباً على التحصينات اندفع يشق الصفوف ليصل إلى ميثونة، دون أن تزيد خسارته على بضعة رجال، ويفلح في إنقاذ المدينة من السقوط وبسبب هذه المأثرة أصبح أول من ينال التهنئة رسمياً في الحرب في إسبارطة.

بعد هذه الواقعة استمر الأسطول الأثيني متابعاً رحلته حول الساحل البيلوبونيزي، وقد نزل الأثينيون قرب فياية، في إيليس حيث أمضوا يومين وهم يعملون في الأرض تخريباً وتدميراً، وهزموا في المعركة قوة من ثلاثمئة رجل خرجوا لهم من وادي إيليس وغيره من الأماكن الأخرى في الجوار، غير أن ظهور بوادر عاصفة بحرية في تلك النواحي

وازدياد الأخطار التي تتهدد بقاءهم في منطقة تفتقر لمرفأ حمل معظمهم على الرجوع إلى سفنهم والإبحار التفافاً حول رأس بري يعرف بـ "السمكة" ودخول مرفأ فياية. وفي غضون ذلك سار الميسينيون وآخرون تعذر عليهم ركوب السفن حتى بلغوا مدينة فياية واستولوا عليها. ثم اتصلوا ببعض تلك السفن وهي مبحرة عند الساحل فحملتهم على ظهرها، فتركوا فياية وتابعوا الإبحار من جديد؛ لأن الجسم الرئيس من جيش الإيليين كان قد خرج في تلك الأثناء لمقاومتهم. وقد تابع الأثينيون رحلتهم بعدئذ وهم ينزلون الدمار والخراب حيثما توجهوا.

أرسل الأثينيون في ذلك الحين تقريباً ثلاثين سفينة للإبحار حول لوكريس ومراقبة يوبوية، وكان على رأس هذا الأسطول كليومبوس بن كلينياس. وقد قام هذا بعدة عمليات إنزال في مواقع مختلفة من الساحل وراح يشيع الخراب والدمار في البلاد، مستولياً على ترونيوم حاملاً الرهائن منها. كذلك أمكن لكليومبوس إنزال الهزيمة باللوكران عند آلوبة حين خرجوا للتصدي له.

وفي ذلك الصيف قام الأثينيون بطرد الإيجيين وزوجاتهم وأطفالهم من إيجينا، متهمين إياهم بأنهم كانوا مسؤولين إلى حد كبير عن قيام الحرب. كذلك خيل إليهم أنهم يحصنون أنفسهم بإنزال مستوطنين من بني جلدتهم في إيجينا واحتلالها، نظراً لقربها من ساحل البيلوبونيز، ولم يمض وقت طويل حتى أرسلوا قوماً منهم لاحتلالها. أما المنفيون من إيجينا فقد أنزلتهم إسبارطة في بلدة ثيريا ليقيموا فيها، ومنحتهم أرضاً ليعملوا في زراعتها. وكان مرد ذلك ما يكنونه لأثينا من عداء من جهة، ومكافأة لأهالي إيجينا على ما قدموه لإسبارطة من مساعدة هامة يوم الزلزال وثورة العبيد عليها من جهة أخرى. وتقع ثيريا عند الحدود بين أرجوليس ولاكونيا، وتمتد نزولاً إلى البحر. وفي حين أن بعض الإيجيين استقر في تلك المنطقة راح بعضهم الآخر بالانتشار مبعثرين في أرجاء

بلاد هيلاس كلها.

وفي الصيف ذاته، عند بداية الشهر القمري حدث كسوف للشمس -يبدو أنها الفترة الوحيدة التي يمكن أن يحدث فيها مثل هذا الأمر - بعد العصر؛ فبدت الشمس أقرب إلى شكل الهلال وظهرت بعض النجوم قبل أن تعود إلى شكلها العادي.

وفي ذلك الصيف أيضاً عين الأثينيون نيمفودوروس بن بايثيس، ممثلاً لهم في تراقية واستدعوه إلى أثينا، مع أنهم كانوا سابقاً يعتبرونه معادياً لهم، وهو من أبديرا، وله نفوذ عظيم عند زوج أخته سيتالكيس. وكان الهدف من ذلك ضمان قيام تحالف بينهم وبين ملك تراقية سيتالكيس بن تيريس، وكان تيريس والد سيتالكيس مؤسس مملكة أودريساي العظيمة، التي تمتد فوق الجزء الأكبر من تراقية، وإن كان جزء لا بأس به من تراقية مستقلاً. وتيريس هذا ليس له أي صلة بتيريوس الذي كان متزوجاً ببروكنة بنة بانديون الأثيني، بل ولا ينتميان إلى منطقة واحدة من تراقية.، فقد عاش تيريوس في داوليس، وهي من أعمال المنطقة المعروفة اليوم باسم فوكيس، وكان التراقيون يسكنونها في تلك الأيام، وفي هذا البلد أقدمت النساء على ارتكاب الجريمة المشهودة بقتل إيتيس، وكان العديد من الشعراء يشيرون إلى العندليب بـ "الطائر الداولاني". كذلك من المحتمل أن يكون بانديون قد أراد من زواج ابنته أن يضمن فوائد التحالف بينه وصهره، نظراً لقرب المسافة بين داوليس وأثينا مما يجعل أمر المنفعة المتبادلة عملياً، في حين أن الرحلة بين أثينا وأودريساي تستغرق عدة أيام، بالإضافة إلى اختلاف الأسماء بين تيريس وتيريوس؛ وتيريس هذا كان أول ملك بين الأودريساي. وقد أراد الأثينيون من هذا الحلف مساعدته لهم في إخضاع بيرديكاس والمدن التراقية. وعندما جاء نيمفودوروس إلى أثينا عمل على عقد حلف بين أثينا وسيتالكيس، وجعل سادوكوس بن سيتالكيس مواطناً أثينياً ووعد بإنهاء الحرب في تراقية بإقناع سيتالكيس بمؤازرة

الأثينيين بجيش من الخيالة والمشاة الخفيفة التراقية. كذلك أقنع بيرديكاس بالوقوف في صف الأثينيين وأن يعيد الأثينيون له منطقة ثيرمة. بعد ذلك انضم بيرديكاس إلى الأثينيين تحت قيادة فورميو في خوض حملة ضد الخاليكيد. وهكذا استطاعت أثينا كسب سيتالكيس بن تيريس، ملك تراقية إلى حلفها وبيرديكاس بن الإسكندر ملك مقدونيا.

وكان الأسطول الأثيني المؤلف من مئة سفينة مايزال في تلك الأثناء في مياه البيلوبونيز. وقد تمكن الأثينيون من الاستيلاء على بلدة سوليوم الكورنثية ثم قدموها وأرضها إلى الأكارنان في باليرا، ثم اجتاحوا أستاكوس، التي كان يحكمها المستبد ايفارخوس، ولما تمَّ لهم طرده منها ضموها إلى حلفهم، ومن ثم أبحروا إلى سيفالينيا، التي تقع قبالة أكارنانيا وليوكاس، وتتألف من أربع مدن يسكنها الباليون والكرانيون والساميون والبرونيان، فكسبوا الجزيرة إلى صفهم دون قتال. ولم يمض إلا حين حتى عاد الأسطول أدراجه إلى أثينا.

وفي خريف ذلك العام خرج جيش أثينا، وكان في تعداده الأجانب المقيمون في أراضيها لغزو الميجار، بقيادة بيركليس بن أكسانثيوس. وصادف أن كان الأسطول المؤلف من مئة سفينة والذي يدور حول البيلوبونيز قد بلغ إيجينا في طريق عودته إلى الوطن، فلما وردت إليه الأخبار بأن جيش أثينا كله في ميجارا، توجّه إلى المنطقة لينضم إلى الجيش. وكان هذا قطعاً أضخم جيش زجت به أثينا في ساحة الحرب على الإطلاق. وكانت أثينا يومئذ في ذروة قوتها، ولم يبلغها الطاعون بعد. وكان جيشها يضم ما لا يقل عن عشرة آلاف من المشاة الثقيلة من المواطنين – عدا ثلاثة آلاف آخرين في بوتيدايا– وثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة من الأجانب المقيمين الذين انضموا إلى الغزو، بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة الخفيفة. وقد عاد هؤلاء إلى أثينا بعد أن أشاعوا الخراب

والدمار في ميجارا. وتلا هذا الغزو غزوات أخرى إما بالخيالة وإما بالجيش كله في كل عام خلال الحرب حتى وقت استيلاء الأثينيين على نيساية.

وفي نهاية هذا الصيف أيضاً أقام الأثينيون موقعاً محصناً في أتلانتا، وهي جزيرة لم تكن مأهولة من قبل وتقع قبالة ساحل لوكريس الأوبونتية، لمنع القراصنة من الخروج من أوبوس وأجزاء أخرى من لوكريس وإلحاق الأذى بيوبوية.

وقد جرت هذه الأعمال كلها خلال فصل الصيف بعيد انسحاب البيلوبونيز من أتيكا. وفي شتاء ذلك العالم ذاته أقنع إيفارخوس الأكارناني - وكان يريد العودة إلى أستاكوس - الكورنث بالإبحار إلى هناك بأربعين سفينة وألف وخمسمئة من المشاة الثقيلة وإعادته إلى السلطة. وقام بتجنيد عدد معين من المرتزقة للمشاركة في هذه الحملة، وكان قادتها كل من اوفاميداس بن أريسطونيموس، وتيموكسينوس بن ثيموكراتيس وأوماخوس بن خريسيس. وبعد الإبحار إلى أستاكوس وإعادة إيفارخوس إلى السلطة جرت عدة محاولات فاشلة لكسب بلدات أخرى على ساحل أكارنانيا؛ ولذلك عادت هذه الجماعة أدراجها إلى الوطن، وفي طريقها على امتداد الساحل نزلت في سيفالينيا، في أرض الكرانيين، وهناك أوقع بهم هؤلاء الكرانيون في فخ، إذ تظاهروا بمحالفتهم ثم أطبقوا عليهم، فسقط لهم بعض الضحايا، لكنهم استطاعوا ركوب سفنهم بعد شيء من العناء، وقفلوا عائدين إلى كورنثة.

الفصل الرابع: خطاب بيركليس التأبيني

وفي الشتاء من ذلك العام أقام الأثينيون - كما جرت العادة كل عام - احتفالاً عاماً لتأبين أولئك الذين كانوا أول من سقط في الحرب. وكانت هذه الجنازات تقام كما يلي وصفه: تحمل عظام قتلى الحرب قبل يومين من بدء الاحتفال وتوضع في خيمة معينة حيث يقدم الناس ما شاؤوا من القرابين لقتلاهم، ويُسير بعدئذ موكب الجنازة من عربات تحمل النعوش المصنوعة من خشب السرو، حيث تختص كل قبيلة بنعش واحد يضم عظام أبنائها. وهناك بعدُ نعش واحد خاوٍ ومزين ويسير في هذا الموكب، ويرمز هذا إلى المفقودين الذين لم يُعثر على جثثهم. ويشارك في هذا الموكب من يشاء من المواطنين والأجانب معاً، فضلاً عن قريبات الموتى من النساء ليشاركن في النشيج والنواح عند القبر. وفي النهاية تسجى العظام في المقبرة العامة، التي تقع في أجمل بقعة خارج الأسوار، وهناك دأب الأثينيون على دفن كل من يسقط في الحرب. والاستثناء الوحيد لهذا التقليد الذين سقطوا في الماراثون، فكانت لهم مراسم خاصة، تليق بإنجازهم الخارق، إذ تم دفنهم في ساحة المعركة.

وقد جرت العادة على أن تكلف المدينة رجلاً مشهوداً له بألمعية الفكر ومعروفاً بحسن السيرة لإلقاء خطاب لائق بالمناسبة، بعد أن يهال التراب على العظام، ثم يفترق الجمع بعدها. ذلكم هو التقليد المتبع في هذه الجنازات، وظل الأثينيون على هذا التقليد القديم طوال الحرب كلما دعت الضرورة. وكان أن وقع الخيار في هذه المناسبة على بيركليس بن أكسانثيبوس ليلقي خطاب الوداع لأولئك الذين سقطوا في الحرب. فلما حانت اللحظة تقدم من القبر، ووقف على منصة عالية ليسمع أكبر عدد من الحشد صوته:

"كثيرون ممن ألقوا كلمات هنا في الماضي قرظوا هذا التقليد في خاتمة احتفالنا،

وكانوا يرون أنه من قبيل التكريم لجنودنا الذين سقطوا في الحرب، ولكنني لست أرى هذا الرأي؛ فلقد أظهر هؤلاء الرجال شجاعتهم بالأفعال، ويكفيهم في رأيي أن يتم إبراز أمجادهم بالأفعال، على نحو ما رأيتم في هذه الجنازة التي أقامتها الدولة؛ إذ ينبغي ألا يقوم إيماننا بشجاعة ورجولة هذا العدد الغفير من هؤلاء الذين قضوا على حسن خطاب فرد أو سوئه، ولكن ليس من اليسير بعد الكلام بإحساس سليم بالتوازن حين يشق على المستمعين تصديق مقالة القائل، وقد يخامر الرجل العارف بالحقائق والذي يكن الحب للقتلى الاعتقاد بأن الخطبة تقصر عما يعلم ودون ما يحب أن يسمع، وقد يشعر آخرون لا يعرفون الكثير بالحسد من الموتى ويحسبون أن الخطيب يبالغ في الثناء عليهم وأنه يتحدث عن مآثر تفوق قدراتهم. فالثناء على الآخرين إنما يحتمل إلى حد معين، الحد الذي يعتقد المرء أنه قادر على الإتيان ببعض ما أتى به من هو موضوع الخطبة. ولكن ما إن يتجاوز هذه النقطة حتى تجدوا الناس قد غلبت عليهم الغيرة وطغى عليهم الشك. وعلى كل حال فإن هذا التقليد أرساه الأجداد وارتضوه، والواجب يفرض عليَّ أن أتبع هذا النهج وأبذل أفضل ما لدي لألبي ما يراود كل منكم من الرغبات وأحقق لكم توقعاتكم.

"ولسوف أبدأ بالحديث عن أسلافنا؛ لأن الحال يقتضي منا تكريمهم باستذكار أفعالهم ومآثرهم. ولقد كانت أرضنا هذه عامرة دائماً بالقوم ذاتهم يتعاقبون عليها من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا، ثم أورثوها لنا بفضل شجاعتهم وفضائلهم بلداً حراً. وهؤلاء يستحقون منا الثناء قطعاً. وآباؤنا جديرون أكثر بالثناء؛ ذلك أنهم زادوا في الإرث الذي بلغهم وكونوا هذه الإمبراطورية التي لدينا الآن، ولم يكن ما أورثونا إياه، نحن أبناء هذا الجيل خالياً من الكد والتعب والدماء التي سفكوها من أجله. ولقد أضفنا نحن المجتمعين هنا، وجلنا في ذروة الشباب، وزدنا في مختلف النواحي من قوة إمبراطوريتنا وقمنا بتنظيم دولتنا على نحو يجعلها قادرة على العناية بنفسها في السلم

والحرب معاً.

"إنني لا أود أن ألقي عليكم خطاباً طويلاً في موضوعات مألوفة لديكم، وإذن فلن أحدثكم عن الأعمال التي ترقى إلى الحروب وبها بلغنا قوتنا أو المعارك التي خضنا غمارها أو خرج إليها آباؤنا مقاومين أعداءنا، من الإغريق أم من الغرباء، في قتال مجيد. وما أود أن أعرضه لكم في المقام الأول الروح التي واجهنا بها المحن، ودستورنا ونهجنا في الحياة اللذين جعلا منا أمة عظيمة، ثم أنتقل للثناء على القتلى، اعتقاداً مني أن مثل هذا الخطاب لا يجافي هذه المناسبة، وقد يفيد منه هذا الجمع من المواطنين والأجانب.

"واسمحوا لي بأن أقول: إن النظام الذي نأخذ به في الحكم لا يقلد مؤسسات جيراننا فنحن أقرب إلى أن نكون المثل الذي يُقتدى به، من أن نكون مقلدين لأي كان. ودستورنا يعرف بالديمقراطي؛ لأن السلطة ليست بيد القلة وإنما هي بيد الشعب كله. وإذا اتصل الأمر بحل النزاعات الخاصة بين الأفراد كان الجميع سواسية أمام القانون . وإذا تعلق الأمر بتقديم شخص على آخر في مواقع المسؤولية العامة فلا يؤخذ في الحسبان المنبت الطبقي، وإنما يكون التقدير للكفاءة الحقّة لصاحب الموقع؛ فلا ينكر على امرئ يملك القدرة على خدمة الدولة أن يحتل موقعاً سياسياً بسبب فقره. وكما أن حياتنا السياسية حرة ومفتوحة كذلك هي علاقات كل فرد منا بالآخر في حياته اليومية. وليس من شيمنا أن نتخاصم مع الجار إن اتبع في حياته منهجاً خاصاً به، ولا ننظر إليه بغضب فذلك قد لا يلحق به أذى لكنه يؤذي مشاعر الناس. إننا قوم أحرار ومتسامحون في حياتنا الخاصة، أما في القضايا العامة فإننا نلتزم بالقانون؛ وهذا لأننا نجل القانون أعظم إجلال.

"إننا نطيع من نصبناهم في مواقع السلطة، ثم إننا نطيع القوانين ذاتها، وخاصة ما وُضع منها لحماية المضطهدين، ونرى أن من العار خرق تلك القوانين غير المدونة.

"وهاكم نقطة أخرى: إننا متى أنجزنا عملنا حق لنا أن نستمتع بكل أسباب الترفيه لترقية معنوياتنا؛ فلدينا مختلف أشكال المباريات والقرابين التي تقام في مواسمها على امتداد السنة، وفي بيوتنا نجد الجمال والذوق الحسن لننعم بهما كل يوم ويبددا عنا همومنا. ثم إن عظمة مدينتنا تجتذب لنا البضائع الجيدة فتتدفق علينا من أرجاء العالم كله، حتى ليبدو لنا أن من الطبيعي أن نستمتع بالبضائع الأجنبية قدر استمتاعنا بصناعاتنا المحلية.

"وهناك بعد فارق عظيم بيننا وبين خصومنا، من حيث نهجنا حيال الأمن العسكري. وهاكم بعض الأمثلة: مدينتنا مفتوحة للعالم ولا نعرف الترحيل الدوري لمنع الناس من ملاحظة أو اكتشاف أسرار قد يفيد منها العدو عسكرياً. والسبب في ذلك أننا لا نعتمد على أسلحة سرية، وإنما اعتمادنا على شجاعتنا الحقيقية وإخلاصنا. ثم إن هناك فارقاً آخر بين أنظمتنا التربوية؛ فالإسبارطيون يُخضعون منذ أوائل يفاعتهم لأقسى التدريب لاكتساب الشجاعة، ونحن نمضي حياتنا دون أن نعرف هذه القيود والمحظورات كلها، ومع ذلك فنحن أنداد لهم في الاستعداد للتصدي لذات الأخطار. وإليكم الدليل على ذلك: حين قام الإسبارطيون بغزو أرضنا لم يأتوا وحدهم، وإنما جلبوا معهم حلفاءهم كلهم أيضاً، أما نحن فإننا حين قمنا بهجوم خارجي لم نستعن بأحد، وإنما نهضنا بالمهمة وحدنا، ومع أننا كنا نقاتل على أرض أجنبية فإننا قلما كنا نقصر في دحر أعداء يقاتلون دفاعاً عن مقدساتهم وبيوتهم. والواقع أنه ما من أحد من أعدائنا قد واجهنا بعد ونحن بكامل قوتنا؛ لأننا مضطرون لتوزيع اهتمامنا بين أسطولنا والمهمات العديدة التي نرسل قواتنا البرية لأدائها، ومع ذلك فإن أعداءنا إن اشتبكوا مع فرقة من قواتنا وتمكنوا من دحرها نسبوا لأنفسهم المجد بدحر جيشنا كله، أما إذا خسروا كان زعمهم أنهم إنما اندحروا أمامنا ونحن بكامل قوتنا. وباعتقادي ثمة فوائد معينة في نهجنا بالتصدي للخطر طواعية ببال مرتاح، عوضاً من القتال بعد إعداد شاق، وبشجاعة هي من طبيعة

النفس لا الشجاعة التي تحض عليها الدولة. وليس من دأبنا أن نبدد وقتنا بالإعداد لمواجهة الآلام التي ماتزال بعيدة وأمرها من شؤون المستقبل، وإذا ذرت المحن بقرنها وداهمتنا فعلاً أبدينا من الشجاعة ما يبدي سوانا الذين دأبوا على التدريب الصارم. تلكم ناحية أعتقد بأن مدينتنا تستحق عليها الإعجاب. وهناك بعدُ نواح أخرى جديرة بالتنويه:

"إن ما نحمله من الحب للجمال لا يورطنا في التظاهر، كذلك فإن الحب الذي نكنه لأعمال العقل لا يجعلنا من أهل اللين. كما أننا نعتبر الثروة أمراً ينبغي التصرف فيه على الوجه المناسب لا مادة للمفاخرة. أما الفقر فينبغي ألا يخجل المرء من الاعتراف به، فالعار كل العار أن يتقاعس عن الخلاص منه بالعمل والتدبير. وهنا لا يقتصر المرء على العناية بمصالحه الخاصة وحسب وإنما يعنى بشؤون الدولة أيضاً؛ فترون حتى هؤلاء الذين تشغلهم مصالحهم جل الوقت مطلعين أحسن الاطلاع على قضايا السياسة العامة وهذا أمر تميزنا به. إننا لا نقول فيمن لا يبدي عناية بالسياسة أنه رجل منصرف لشؤونه وإنما نقول إنه بلا شأن البتة. إننا معشر الأثينيين نتخذ قراراتنا بأنفسنا أو نعرضها للنقاش السليم، ذلك أننا لا نعتقد بعدم الاتفاق بين الأقوال والأفعال؛ فأسوأ الأمور عندنا أن نندفع إلى العمل قبل أن نحيط بالعواقب بالنقاش على الوجه الصحيح. ونحن قادرون في الوقت ذاته على المجازفة وتقديرها قبل الإقدام. وهناك آخرون غيرنا يبدون شجاعة بسبب من جهلهم، هؤلاء إذا ما توقفوا برهة للتفكير أخذوا بالخوف. أما الرجل الشجاع حقاً فهو الذي يعرف حقاً ما هو حلو المذاق وما هو المخيف المفزع في الحياة، ثم يمضي قدماً لا ينال من جانبه الخوف.

"ثم إن ثمة تناقضاً عظيماً بيننا وبين معظم الأقوام في القضايا المتصلة بالشعور بالاطمئنان عموماً. إننا نكسب الأصدقاء بفعل الخير للآخرين، لا بما نتلقاه منهم؛ وذلك مما يزيد من متانة الصداقات التي نعقدها، ولما كنا نريد أن نبقي ذكر حسناتنا حياً في

نفوس الذين يدينون لنا فإننا لا ننقطع عن إبداء حسن النية، بينما تفتقر مشاعر المدي لنا لذلك الحماس ذاته؛ لأنه يعلم أنه حين يرد على حسن صنيعنا إنما يسدد ديناً أكثر مـ يعطي شيئاً عن أريحية. ونحن في هذا قوم لا نظير لنا. وآية ذلك أننا إذا عاملنا الآخرين بالحسنى لم يكن ذلك بحساب الربح والخسارة، بل إننا لا نمعن النظر بعدئذ فيما فعلنا؛ ذلك أن ما نقوم به إنما يقوم على مذهبنا في الحرية. وإذا أخذنا الأمور بمجملها قلت لكم أن مدينتنا هي مدرسة لبلاد الإغريق، وعندي أن كل فرد من مواطنينا قادر على البرهان على أنه في كل مظاهر الحياة على تعددها سيد نفسه ومالكها، ويملك أن يعلن نفسه هكذا بجلال فائق وحذق لا يضارعه فيه مضارع. وللبرهان على أن هذا ليس تفاخراً أجوف أملته المناسبة، وإنما هو حقيقة ملموسة حسبكم أن تتأملوا ما تتمتع به مدينتنا من قوة ظفرنا بها بفضل تلك الخصال التي ذكرتها. فأثينا وحدها من بين ما نعرف من مدن تقترب من لحظة الامتحان بعظمة تفوق ما كان يُظن بها. وليس هناك من عدو غازٍ يخجل في حالتها - دون سواها- من الاندحار أمامها، وما من أحد من الرعايا يملك أن يشكو أنه محكوم من قوم ليسوا أهلاً للمسؤوليات الملقاة عليهم. إنها لشواهد جبارة وعلامات ضخمة لهذه الإمبراطورية التي شيدناها وأقمنا عليها. ولسوف تنظر العصور القادمة إلينا بإعجاب، كما ينظر إلينا هذا العصر بإعجاب. إننا لسنا بحاجة إلى من يضارع هوميروس ليقول القصائد في مدحنا، لا ولسنا بحاجة إلى أي شخص آخر قد تبهجنا كلماته لحظة، لكننا نحتاج إلى من يكون تقديره للحقائق أقل مما هو عليه واقع الحال. فلقد حملتنا روحنا المغامرة على الخوض في كل بحر وبر، وكنا نخلف وراءنا في كل مكان شواهد مقيمة لما أسدينا لأصدقائنا أو ما كبدنا أعداءنا أو أنزلناه بهم من أسباب المعاناة.

"ذلكم هو معدن المدينة التي قاتل هؤلاء الرجال في سبيلها بشرف، وقضوا بنبل بعد ما شق عليهم تحمل فكرة فقدانها. وإنه لأمر تمليه الطبيعة أن يقبل كل من بقي منا

بعدهم بخوض الصعاب في سبيلها. وهذا ما حملني على الاسترسال في الحديث عن مدينتنا لأبين أن في الدفاع عنها فوائد لنا أكثر مما للآخرين، كذلك أردت لعبارات الثناء على القتلى أن تكون ظاهرة في ضوء الأدلة ولقد ذكرت لكم أهم خصال هؤلاء الرجال وشدوت في مدح مدينتنا، غير أن ما جعل هذه المدينة على ما هي عليه من الروعة هو ما أبداه هؤلاء الرجال وأمثالهم من ضروب الشجاعة والشهامة. ولن تجدوا مثالاً على هذا بين الإغريق، والحقيقة أن الكلمات لتقصر عن وصف الأفعال التي قاموا بها.

"إني لأرى في هذا السعي نحو الكمال الذي استولى على هؤلاء الرجال ما يبين لنا معنى الرجولة في أول تجلّياتها، وهو أيضاً البرهان النهائي عليها. لقد كان لبعضهم مثالبه بلا ريب، ولكن ما ينبغي علينا أن نتذكر من أمرهم هو إقدامهم في مواجهة العدو دفاعاً عن أرض الوطن. فلقد طغى خيرهم على مثالبهم، كما أنهم أدوا من الخدمات للخير العام ما يفوق كل ضرر قد يكون صدر عنهم في حياتهم الخاصة. ولم يكن بين هؤلاء من ضعفت همته فغلبت عليه شهوة الاستمتاع بما ملك، وليس من بينهم من تفادى يوم الواقعة أملاً بكسب يهرب فيه من عوزه ويوفر له الثراء، بل كان مطمحهم أكثر من ذلك؛ فسعوا للقضاء على عنجهية العدو، فكان هذا عندهم أمراً أعظم من كل أمر آخر، وقد قبلوا المجازفة، راضين بقهر العدو مضحين بكل شيء في سبيل هذا الإنجاز. أما النجاح أو الفشل فقد تركوا أمرهما للأمل الذي لا يُركن إليه، فلما واجهوا واقع المعركة أمامهم، وضعوا ثقتهم بأنفسهم. ولما دار القتال كان اعتقادهم أن الشرف في الصمود؛ فآثروا الموت على الاستسلام وإنقاذ حياتهم. وهكذا تفادوا تقريع الناس، محتملين ما تفرضه الحياة وعبء المعركة، وفي لحظة قصيرة من الزمن، هي ذروة حياتهم وقمة المجد لا الخوف، رحلوا عنا.

"هكذا كان هؤلاء الرجال الجديرين بمدينتهم، وهكذا كان شأنهم. أما نحن الذين

بقينا وراءهم فقد نأمل بألا يصيبنا ما أصابهم به القدر، إلا أن علينا أن نعقد العزم على أن نحافظ على روح الجرأة ذاتها هذه متقدة في وجه العدو. فليست القضية قضية تقدير المزايا نظرياً. ولعلي أروي لكم حكاية طويلة – تعرفونها جميعاً كما أعرفها – عن فوائد دحر العدو. وما أؤثره أن تثبتوا أبصاركم كل يوم على مبلغ عظمة أثينا كما هي حقاً، وأن تقعوا في حبها، ثم تروا أسباب عظمتها في رجال تنطوي جنباتهم على روح المغامرة، رجال يدركون واجبهم، رجال لا يرتضون لأنفسهم الانحدار دون معيار معين. فإن قصروا في أمر، جعلوا نصب أعينهم ألا تفتقد فيهم مدينتهم البسالة فمنحوها من أنفسهم وبذلوا الغالي والنفيس، فبذلوا لها ولنا حياتهم، وفازوا بثناء لا ينضب تذكره لهم الأجيال من بعدهم، وحظوا بأروع الأضرحة ، لا الأضرحة حيث تستودع أبدانهم، وإنما حيث يبقى مجدهم خالداً في عقول الرجال، ماثلاً أبداً يحملهم على ذكره في الحديث أو يحفزهم على العمل؛ ذلك أن الأرض كلها هي نصب مشاهير الرجال، وما يميزهم ليس ما ينقش على قبورهم في بلادهم وحسب، بل وفي قلوب الناس في البلاد الغريبة أيضاً، حيث تسكن ذكراهم وتنمو. وعليكم أنتم أن تتخذوا من هؤلاء قدوة تقتدون بها. فلتكن لديكم القناعة بأن سعادتكم تقوم على كونكم أحراراً، والحرية تقوم على شجاعتكم. فلا تتقاعسوا في مواجهة مخاطر الحرب. فأكثر الناس استخفافاً وهزءاً بالموت ليسوا البؤساء والتعساء الذين لا يحملون أملاً بنيل ثروة أو جاه، وإنما هم أولئك الذين يقبلون المجازفة بتغير أحوالهم وانقلابها تماماً، ويشعرون باختلاف الحال وشدة وطأته، إن سارت الأمور على غير ما يرام. إن أي رجل على قدر من الذكاء يشعر بمهانة التقاعس أكثر إيلاماً من الموت، ويرضى بالموت حين يداهمه في ساحة المعركة وهو مطمئن إلى أنه يقوم بواجب يحمله عليه حبه لوطنه.

"لذلك فإني لن أقوم بتقديم العزاء لآباء القتلى وأمهاتهم الثكالى الحاضرين هنا بيننا، بل سأقوم بدلاً من ذلك بمواساتهم؛ ذلك أنهم يعلمون علم اليقين أنهم نشؤوا في عالم

حافل بالتغيرات والفرص. غير أنه من حسن الحظ أن تنتهي حياة المرء بشرف كما انتهت حياة هؤلاء بشرف، وأن يكون لكم شرف رثائهم، فقد كان من شأن الحياة التي أمضوها أن تبين كيف أن الموت والسعادة يسيران يداً بيد. إني أعلم أنه من الصعب إقناعكم بهذا الرأي. فحين ترون سواكم سعداء سوف تتذكرون في الغالب من كانوا يجعلونكم سعداء أيضاً. والمرء لا يشعر بالتعاسة إذا لم يمتلك ما لم يخبره؛ فالأسى الحقيقي إنما يشعر به المرء حين يفتقد ما كان مألوفاً له. وعلى كل حال فالحري بمن كان منكم في عمر مناسب للإنجاب أن يحتمل مصابه وحسبه من هذا كله أن ينجب من الأبناء المزيد؛ فهؤلاء الأطفال الجدد في بيوتكم سوف يحولون دونكم والتفكير في أولئك الذين غابوا ولن يعودوا، ثم إنهم سوف يكونون عوناً للمدينة، سواء في ملء ما أحدثه الغائبون من فراغ أو في ضمان أمن المدينة وسلامتها؛ ذلك أنه من المستحيل على المرء أن يطلع بآراء سليمة ونزيهة في شؤوننا إن لم يكن لديه أطفال حياتهم عرضة للأخطار، شأنه في ذلك شأن الآخرين. أما من كان قد بلغ منكم من العمر ما لا يسمح له بالإنجاب فإني أسألكم أن تروا في الجزء الأعظم الذي قضيتموه من حياتكم ترفلون فيه بالسعادة مكسباً، وتذكروا أن ليس في العمر أكثر مما مضى، ولتنتعش قلوبكم وأنتم تذكرون الصيت العطر الذي ناله الموتى. فشعور المرء بالشرف وحده الذي لا يشيخ، والمتعة الأخيرة حين يستهلك العمر المرء، كما قال الشاعر، ليس في كسب المال وإنما في أن يحظى المرء باحترام إخوته الرجال.

"أما أبناء الموتى وإخوتهم فإني أرى أمامهم صراعاً شاقاً ينتظرهم. إن الناس يحسنون دائماً القول في الموتى، وحتى لو قدر لكم أن تبلغوا أعلى ذرى الشجاعة فلسوف يشق عليكم أن تبلغوا من الصيت ما يقارب مستواهم، ناهيكم عن أن تكونوا أنداداً لهم. وعندما يكون المرء حياً يكون عرضة لغيرة منافسيه، أما إذا مات فإن الشرف الذي يكرم به يكون صادقاً ولا ينال منه الشك بأي مقدار.

"ولعلي أقول كلمة أو اثنتين في واجبات النساء اللواتي غدون الآن أرامل بعد أن رحل عنهن أزواجهن. وما سوف أقوله إنما هو نصيحة مختصرة. إن مجد كن العظيم يكمن في أن تكن كما أراد الله لكن. وأعظم مجد للمرأة أن تصون نفسها من أن تلوكها ألسنة الرجال مدحاً أو نقداً. وها إني قلت كل ما يوجب علي القانون قوله. ولقد قدمنا الآن الفروض للموتى، أما أبناؤهم فسوف تتكفل المدينة برعايتهم مستقبلاً من المال العام حتى يبلغوا سن الرشد. ذلكم هو ذروة التكريم منها للموتى ولأطفالهم جزاء ما احتملوه من المصاعب وواجهوه من المحن. وحيث تكبر جوائز الشجاعة والبسالة تجدون أفضل الأرواح وأشجع الناس. أما وقد أبديتم حزنكم على هؤلاء الأعزاء لديكم، فإن الوقت أزف الآن لتغادروا هذا المكان."

الفصل الخامس: السنة الثانية من الحرب،

الوباء وآثاره

هكذا سارت الجنازة الرسمية في فصل الشتاء الذي صادف نهاية السنة الأولى من الحرب. وفي بداية الصيف التالي قام البيلوبونيز وحلفاؤهم بغزو أتيكا بقوات تبلغ ثلثي مجموع ما لديهم، وعلى رأسها الملك أرخيداموس الإسبارطي ابن زيوكسيداموس. ولما اتخذت هذه القوات مواقعها تهيأت لتعمل في البلاد خراباً ودماراً.

وما هي إلا أيام قليلة بعد حلولهم في أتيكا حتى ضرب الطاعون ضربته الأولى بين الأثينيين. وكانت الأخبار قد تناقلت تفشي الوباء في أماكن عدة بالقرب من ليمنوس وسواها، ولكن ليس هناك ما يفيد بأن هجمات الوباء كانت على هذا القدر من الحدة التي عرفت بها الآن، أو أنها تسببت في هذا القدر الكبير من الموت كما حدث في أثينا. وقد كان الأطباء عاجزين في بداية الأمر عن معالجة المرضى بسبب جهلهم بأساليب العلاج الصحيحة. والحق أن حوادث الموت بين الأطباء كانت الأعلى من بين الجميع، لكثرة اتصالهم بالمرضى. كذلك لم يجد في الحد من الوباء أي فن أو علم من علوم البشر، ولا أفادت في ذلك صلوات المصلين في المعابد أو نبوءات العرافات أو سوى ذلك من الأساليب. والحق أن عذاب الناس قد طغى عليهم حتى لم يعد هناك من يلتمس هذه الطرائق أو يأبه لها في الحد من هذه الجائحة.

وكان مصدر هذا الوباء الحبشة في أعالي مصر على ما قيل، ومنها انتشر إلى مصر ذاتها وليبيا وعم الكثير من الأراضي الخاضعة لملك فارس. ولقد ظهر المرض بعدئذ فجأة في أثينا، وكانت أولى الإصابات بين أهالي بيرايوس، فذهب البعض إلى القول: إن البيلوبونيز هم مصدر البلاء بأن سمموا آبار المياه في المنطقة، علماً بأن بيرايوس كانت خالية من الآبار. على كل حال فإن الوباء ظهر فيما بعد في أعالي المدينة أيضاً، وارتفع

عندئذ عدد المصابين ارتفاعاً عظيماً. أما أسباب المرض وانتشاره وأثره القوي في الطبيعة فأمور أدعها لكتاب سواء من ذوي الخبرة بالطب أو ممن يجهلونه. ولسوف أقتصر على وصف المرض وأعراضه توخياً للفائدة إن عاد للظهور مرة أخرى. وكنت قد أصبت بهذا الوباء ورأيت الآخرين يعانونه.

كان ذلك العام كما هو مشهود بصورة عامة قد خلا من كل الأمراض الأخرى، وإن يكن قد نال الوباء من أولئك الذين سبق لهم أن أصيبوا بأمراض أخرى. أما الذين لم يعانوا من مرض آخر فلم تعرف أسباب إصابتهم به. وقد وجدنا الأصحاء يعانون فجأة آلاماً شديدة في الرأس، ثم تغدو عيونهم حمراء قانية ويصاحبها الالتهاب، وتتقرح أفواههم من الداخل ويظهر النزيف من البلعوم واللسان، ويرافق ذلك اضطراب في التنفس الذي تصبح رائحته كريهة. ثم يظهر العطاس وبحة الصوت، ويحل الألم في الصدر ويرافقه السعال الشديد. ويلي ذلك آلام حادة تصيب المعدة وتقيؤات من كل نوع يعرفه الطب، مع آلام ووهن شديد. ويعاني المريض في معظم الحالات نوبات التقيؤ ما يؤدي إلى تقلصات عنيفة، وهذه كانت تنتهي أحياناً في تلك المرحلة. وقد تستمر طويلاً في أحيان أخرى. وخارجياً إذا لمسنا بدن المريض نجد أن حرارته غير مرتفعة كثيراً وليس ثمة أي أثر لشحوب اللون، بل إن لون البشرة أميل إلى الاحمرار والزرقة، والجلد متقرح وتنتشر فيه البثور الصغيرة. أما داخلياً فإن المريض يشعر بحرارة شديدة في داخله حتى لا يقوى على احتمال لمسه أو ملامسة القماش مهما كان لطيفاً لبدنه، وتشتد حاجته للتعري تماماً، بل يطلب معظمهم الغطس في الماء البارد. حتى أن البعض ممن لا يجدون من يعتني بهم يرمون بأنفسهم في خزانات المياه فعلاً للتخلص من الشعور بالعطش الشديد الذي لا يطفأ سواء شربوا القليل أو الكثير من الماء. وكان هؤلاء يصابون بالأرق ولا يستطيعون النوم ولا يقوون على التزام الهدوء.

ولقد كان جسم المريض يبدي في ذروة المرض قوة غير مألوفة على مقاومة كل ألم، بدلاً من أن يذوي، بحيث كان المرء يلمس في هذا البدن بعضاً من القوة في اليوم السابع أو الثامن من إصابته، حين كان الموت يداهمه من شدة الحمى الداخلية. أما إذا تجاوز المرء هذه المرحلة الدقيقة فإن المرض كان ينتقل إلى أمعائه، فينجم عنه تقرحات ويصاب المرء بإسهال شديد لا يقوى على تداركه ما يؤدي إلى الموت لشدة الضعف. فالمرض الذي يبدأ بالرأس ينتقل إلى كل جزء من الجسم تباعاً، ثم يترك آثاره في الأطراف، حتى لو نجا الناس من أشد تأثيراته فتكاً. فكان يؤثر في أعضائهم التناسلية وأصابع اليدين والقدمين، ولا يرجى لهم شفاء، ولو أبل المريض من مرضه، بل وقد يصاب بعضهم بالعمى. وكان هناك، بعدُ، من يصاب بفقدان الذاكرة، حين يبدو وكأنه يتعافى من مرضه، فلا يعود يعي حقيقته ويعجز عن تعرّف أصدقائه.

والحق أن الكلمات لتعجز عن وصف الحالة العامة للمرضى، أما الآلام التي تصيبهم فتتجاوز قدرة البشر على الاحتمال، وفي هذا يختلف هذا الوباء عن الأمراض المألوفة كل الاختلاف؛ ذلك أن الطيور والحيوانات التي تألف نهش لحم البشر نراها لا تقرب جثث من ماتوا بهذا الوباء، أو أنها تموت إن نالت منهم شيئاً. وقد نجد شواهد على هذا ابتعاد الكواسر عن مواقع المرض، غير أن الكلاب، وهي حيوانات أليفة، توفر أفضل فرصة لملاحظة أثر هذا الوباء.

تلكم هي إذن المظاهر العامة للمرض، وإن كنت قد أغفلت الإشارة لكل خصوصياته التي كانت تظهر في كل حالة. وقد لوحظ غياب أي نوع من أنواع الأمراض المألوفة أثناء انتشار الوباء، أما إذا وقعت إصابة بأي مرض فسرعان ما تتحول إلى حالة من حالات هذا الوباء. وكان بعض المصابين يموتون بسبب الإهمال، بينما يموت البعض الآخر بالرغم من كل عناية حظوا بها. أما الأسلوب المتبع في العلاج فالحق يقال أنه لم يكن هناك أسلوب

واحد متفق عليه، فما كان يفيد في بعض الحالات رأيناه مؤذياً في حالات أخرى. ولم يكن حال ذوي الأبدان القوية بأفضل من حال الضعفاء في مقاومة المرض، وإن نالوا أعظم قدر من العناية. وكان أدهى ما في هذا الوباء اليأس الذي كان يصيب ضحاياه حين يدركون إصابتهم، فيصبحون فوراً ضحايا اليأس ويستسلمون له دون أي قدرة على مقاومته. وكان من أسباب الرهبة أيضاً مشهد الناس،وهم يموتون كالأغنام بعد إصابتهم بالوباء نتيجة العدوى من أشخاص كانوا يتولون العناية بهم. وكان هذا في الواقع أعظم أسباب الموت. ولخشية الناس من زيارة المرضى فإن الموت كان يداهمهم دون أن يعنى بهم أحد، والواقع أن أسراً عديدة أصابها الفناء؛ لأنه لم يكن هناك من يعنى بها. وإذا ما قام الناس بزيارة المرضى، من جهة أخرى، فإنهم يفقدون حياتهم ويصدق هذا خاصة على أولئك الناس الذين يفرض عليهم الشرف أن يتصرفوا وفق مقتضيات الواجب. فأمثالهم يخجلون من التفكير بسلامتهم الشخصية مما يحملهم على زيارة بيوت أصدقائهم، بينما أهل البيت أنفسهم باتوا يهملون عادة النواح على الموتى تحت ثقل المصائب التي حلت بهم. ومع ذلك فإن أكثر الناس إشفاقاً على المرضى والذين يعانون الموت هم من كانوا قد أصيبوا بالوباء وأبلوا منه. ولذلك كانوا يعلمون حال المريض ويشعرون بالأمان في الوقت ذاته، إذ ليس هناك من أصيب بهذا الوباء مرتين، أما إذا تكررت الإصابة فإنها لن تكون مميتة أبداً. وكان هؤلاء الذين ينجون يقابلون بالتهاني لشفائهم حتى ليحسبون أنهم قد نجوا من كل مرض آخر وقيضت لهم الحياة فلن ينالهم الموت بسبب المرض بعد هذا.

ومما زاد في سوء الحال أكثر ما كان عليه نقل الناس من الريف إلى المدينة، فكان لذلك أسوأ الأثر في هؤلاء الوافدين؛ ذلك أنه لم يكن في المدينة مكان يأوي إليه القادمون فكان مصيرهم – وهم ينزلون في أكواخ سيئة التهوية وفي الحر الشديد– الموت كالذباب. فتراكمت جثث الموتى بعضها فوق بعض أكواماً، أما أشباه الموتى فكان المرء

يصادفهم يتعثرون في الأزقة والحارات أو يتدافعون إلى ينابيع الماء يريدون إطفاء عطشهم. وكانت المعابد التي يلوذون بها تمتلئ كلها بجثث الموتى. ولقد بلغت الكارثة يومئذ حداً جعل الرجال – وقد باتوا لا يدرون ما سوف يكون من أمرهم في الغد – لا يبالون بشيء من أوامر الدين أو القانون. فأصبحت مراسم الجنازات تدب فيها الفوضى، بعدما كان الناس يولونها أشد المراعاة، فباتوا الآن يقومون بدفن الموتى على أفضل ما يتفق لهم. وأخذ الكثيرون – وقد أعوزتهم الوسائل اللازمة لكثرة الموتى في بيوتهم – يتبعون أحط الطرق في الدفن. فكانوا يسبقون غيرهم إلى المحرقة التي جهزها سواهم، فيرمون بجثث موتاهم فوقها ثم يوقدون فيها النار، أو إذا وجدوا محرقة مشتعلة يرمون الجثة فوقها، ثم يديرون ظهورهم ويغادرون المكان.

وكان من آثار الوباء بداية عهد من الفوضى لم تعرفها أثينا من قبل؛ ذلك أن الناس قد رأوا كيف تتبدل الأحوال والمصائر بسرعة وبدون تدبير ووجدوا الأغنياء يموتون فجأة فيرث ثرواتهم من كانوا بالأمس فقراء لا يملكون قوت يومهم؛ فراح الناس يبذخون عن سعة، وهم لا يدرون ما يخبئه لهم الغد بعد أن كانوا يمسكون عن الصرف. وهكذا راح الناس ينفقون أموالهم ويسرعون في الإنفاق على الملذات، إذ بدا لهم المال والحياة كلاهما إلى زوال. أما ما كانوا يسمونه شرفاً، فقد غدا الناس يعرضون عن قوانينه وأعرافه، حتى فقد معناه ولم يعد أحد يدري إن كان ستقيض له الحياة لينعم بها. ولقد غدا الناس يومئذ على اتفاق بأن الشرف وكل القيم يكونان في انتهاب اللذة في اللحظة الراهنة وكل ما يزيد في شدة المتعة. ولم يكن ليردع الناس أمر إلهي أو قانون. أما الآلهة فلم يكن ليضير المرء إن تولاها بالعبادة أم أعرض عنها، بعدما وجد أخيار الناس وأشرارهم يموتون دون تمييز. وأما انتهاك قوانين البشر فلم يكن هنا من يتوقع أن يعيش طويلاً ليواجه محاكمة أو يلقى عقاباً لجرم ارتكبه؛ ذلك أن كل فرد كان ينتابه شعور بأنه قد وقع به حكم أشد من أي حكم وهو مسلط فوق رأسه ينزل متى يشاء، وإذن فإنه من

طبيعة الأمور أن يسرع المرء لاقتناص ملذات الحياة قبل أن يسقط السيف المسلط.

تلكم هي إذن النازلة التي حلت بأثينا، حتى بات الناس في حال عصيب والرجال يموتون داخل المدينة، وخارجها خراب. وكان من طبيعة الأمور أن يستذكر الناس في ضيقهم النبوءات القديمة، ومنها قول ينسب للأقدمين وهو يجري على النحو التالي:

الحرب مع الدوريين سوف تأتي، وسيأتي الموت معها في الوقت نفسه.

ولقد حار الناس في تفسير هذا القول القديم، فذهب بعضهم إلى القول: إن المقصود هو المجاعة DEARTH لا الموت DEATH لكن القول الذي ساد في هذه الظروف كان بطبيعة الحال "الموت"، وذلك شأن الناس يكيفون ذكرياتهم لتفسير تعاستهم. وإني لأعتقد أنه لو وقعت حرب أخرى مع الدوريين بعد هذه وحلت المجاعة بنتيجتها لأخذ الناس عندئذ بالتفسير الآخر.

وكانت هناك نبوءة أخرى قدمت للإسبارطيين وتذكرها من عرف بها، وكانت جواباً على سؤالهم للإله إن كان عليهم خوض الحرب، فكان رده أنه سيكون إلى جانبهم، إن قاتلوا بكل ما لديهم، وسيكون النصر عندئذ حليفهم. ولقد بدت الوقائع مصداقاً للنبوءة التي بلغتهم، إذ انتشر الوباء وعم بعيد غزو البيلوبونيز مباشرة، وظلوا هم في أمان منه، أو لعله لم يصبهم إلا بضير لا يذكر، أما وطأته الشديدة فكانت على أثينا، ثم ما تلاها من البلدات المكتظة بالسكان.

تلكم هي وقائع الوباء. وبينما الأحوال تجري على هذا النحو كان البيلوبونيز بعد أن عملوا تخريباً وتدميراً في سهل أتيكا، انتقلوا إلى منطقة باراليا حتى وصلوا إلى لاوريوم حيث مناجم الفضة الأثينية. فأخذوا بادىء ذي بدء بتدمير الجانب المقابل للبيلوبونيز، ثم الجانب المقابل ليوبوية وأندروس.

وكان بيركليس مايزال القائد العام، وهو مقيم على قناعته، كما في الغزو الأول، ولا يريد للأثينيين أن يخرجوا للقتال. لكنه كان يعمل على تنظيم قوة بحرية من مئة سفينة يهاجم بها بلاد البيلوبونيز، بينما الغزاة مايزالون في السهل قبل أن يتحركوا نحو باراليا. فلما تمَّ التحضير وتجهيز الحملة أرسل هذه القوة إلى البحر، وعلى ظهرها أربعة آلاف من المشاة الثقيلة من المواطنين وثلاثمئة آخرون من الخيالة. ولقد جرى تحويل السفن القديمة في هذه الحملة إلى وسائط للنقل، فاستخدمت لأول مرة في حمل الخيول. ثم انضمت إلى هذه الحملة خمسون سفينة من خيوس وليسبوس، ولما ركبت القوة الأثينية البحر كان البيلوبونيز في أتيكا قد أصبحوا في منطقة باراليا. وقد نزل رجال هذه القوة إلى البر في أبيداروس في بلاد البيلوبونيز وراحوا يعسفون ويخربون معظم أرضها، ثم قاموا بالهجوم على المدينة. وبدا في لحظة من اللحظات أنهم على وشك الاستيلاء على ذلك الموقع، لولا أن ذلك الهجوم باء بالفشل. فعاد رجال الحملة وركبوا البحر من جديد من إبيداروس، ثم نزلوا في ترويزين فعملوا فيها وفي هيلياي وهيرميونة وكافة المواقع على الساحل البيلوبونيزي تدميراً وتخريباً. ثم انطلقوا من جديد حتى بلغوا براسياي، وهي موقع حصين على ساحل لاكونيا. وهنا أيضاً عملوا عسفاً وتخريباً ونهباً بالمكان. ولما تم هذا كله قفل رجال الحملة عائدين إلى بلدهم، فوجدوا البيلوبونيز قد انسحبوا من أتيكا ولم يعد لهم في المنطقة أثر.

كان الناس من رجال الجيش وأهل المدينة يتساقطون موتى بسبب ذلك البلاء، فيما البيلوبونيز يشنون حملتهم في أتيكا والأثينيون منشغلون بحملتهم البحرية. وقيل: إن البيلوبونيز أسرعوا إلى مغادرة أتيكا خوفاً من أن يدركهم الوباء وتسري إليهم العدوى - وكان قد بلغهم من الفارين نبأ اجتياح المرض المدينة كما رأوا بأنفسهم الجنازات تخرج بالموتى-. ومع ذلك فقد استمر هذا الغزو ردحاً من الزمن أطول مما عهدته الحملات الأخرى، وأشاعوا الخراب والدمار طوال استمرار الحملة في أتيكا، التي دامت أربعين

يوماً.

وفي فصل الصيف هذا كان هاجنون بن نيسياس وكليوبموس بن كلينياس – وهما من رفاق بيركليس في القيادة العليا، قيادة القوة التي استخدمها بيركليس في التصدي للبيلوبونيز وباشرا على الفور حملة على تراقية – ضد الخاليكيد وبوتيدايا وكانت ماتزال محاصرة. فلما بلغا مقصدهما نصبا آلات الحصار عند بوتيدايا، وبذلا ما بوسعهما للاستيلاء عليها، غير أن الأمور لم تجر على الوجه المراد، فلم يحوزا على المدينة ولم ينجزا شيئاً مما يتوقع من مثل هذه القوة إنجازه. وكان السبب في هذا الوباء الذي انتشر بين أفرادها وكان له أشد الأثر في الجيش. وقد بلغ من انتشاره أنه أصاب بالعدوى القوات الأثينية الموجودة هناك من قبل إذ انتقل إليها من رجال هاجنون. أما فورميو ورجاله الألف والستمئة فقد أسعفهم الحظ بأن غادروا منطقة الخالكيد. وفي النهاية عاد هاجنون وسفنه إلى أثينا، وقد فقد في غضون الأربعين يوماً تقريباً ألف وخمسين من مجموع المشاة الثقيلة البالغ عددهم أربعة آلاف جندي. أما القوات التي كانت هناك قبل وصول الحملة فظلت في مواقعها القديمة واستمرت في حصار بوتيدايا.

الفصل السادس: تعليل سياسة بيركليس

بعد غزوة البيلوبونيز الثانية طرأ تحول على فكر الأثينيين. فقد تعرضت أرضهم للخراب مرتين، وكان عليهم أن يواجهوا الحرب والوباء في آن معاً. وأخذوا الآن يلقون التبعة على بيركليس، فهو الذي أقنعهم بدخول الحرب ثم حملوه مسؤولية ما نزل بهم من محن، وهاهم يتلهفون الآن على مصالحة إسبارطة، بل أوفدوا الوفود إليها لعقد هذا الصلح، فلم يبلغ سفراؤهم شيئاً مما كانوا يهدفون إليه. وانتابتهم عندئذ مشاعر القنوط واليأس، فحولوا مشاعر الغضب الذي تملكهم إلى بيركليس.

رأى بيركليس مبلغ الضيق الذي تملك القوم لهذا الوضع الذي وجدوا أنفسهم فيه، والحق أن مارآه كان مصداقاً لما توقعه منهم. ولذلك دعا- بصفته القائد العام - إلى مجلس أراد استغلاله لينفث في مواطنيه روحاً جديدة من الشجاعة، ويوجه ما يعتمل في نفوسهم من النقمة حتى يصبحوا في مزاج رائق وتصفو عقولهم. وفي ذاك المجلس ألقى بيركليس الخطاب التالي: "لقد كنت أتوقع منكم هذه النقمة التي تشعرون بها نحوي، وإني لأعلم أسبابها، ولذلك دعوتكم إلى اجتماع لتذكيركم بما سبق أن اتخذتموه من قرارات ولعرض دعواي أمامكم، ولنر إن كان في نقمتكم عليَّ شيء من العسف أو استسلام لا عقلاني أمام تقلبات مصائركم. والقول عندي أن الخير يتحقق لكل فرد حين تكون الدولة سائرة على الطريق الصحيح، وذلك حال أفضل من أن تتحقق المصالح الخاصة بينما الدولة في انحدار. وليس للمرء ما يطمئن إليه ولو كان النجاح يحالفه في حياته الخاصة إن كانت بلاده في خراب، أما إذا كانت الدولة راسخة الأركان فإن حظ الأفراد في الإبلال من المحن أعظم. وإذن أفليس من الصواب أن نهرع للدفاع عن الدولة، طالما أنها الملجأ الذي يلجأ إليه الأفراد في ملماتهم، بينما لا يستطيع أحد بمفرده أن يحمل العبء الذي تحمله؟ أفليس من الخطأ أن تسلكوا هذا المسلك الذي تسلكونه؟

فـها أنتم تتراخى قبضـاتكم عوضاً من أن تحكمـوها في قضيـة السلامـة العامة تحت تأثير النكبـة التي حلت ببيـوتكـم، وها أنتم توسعـونني نقـداً وهجـوماً؛ لأني وقـفت مؤيداً للحرب وقد أدليتم أنتم بأصواتكم مؤيدين لها أيضاً.

أمـا مـا يتـصل بي فـأقـول إن كنتم تنقـمـون عليّ فـإنكم تنقـمـون على من هو، في اعتـقـادي، ليس دون أي شـخص آخـر مـقـدرة على تبين مـا ينبـغي عـمله وعـرض ما يرى، رجل يحب مدينته وأسمى من أن يفسده المال. إن حـال من يملك المعرفة ويفتقد المقدرة على التعبير عنها بوضوح ليس بأفضل من حـال من ليس لديه أي فكرة أبداً. أما من كان يتـمتع بالمعرفة والقـدرة على التـعبير عنهـا، ولكنه يفـتـقد روح الـوطنية، فلن يستطيع أن يعبر عن قومه كما ينبغي عليه التعبير. وحتى لو كان المرء وطنياً، لكنه لا يقوى على مقاومة الرشوة فإن هذا المثلب الوحيد بالـذات سوف يجعل كل أمر عرضة للبيع والشراء. ولقد كـانت هذه الأمور موضع نظركم حين أخذتم بمشورتي ومضيتم إلى الحرب فوجدتم لدي من هـذه الصفـات مـا يجـعلني أفـضل ولو قـليلاً مـن الآخرين، وإذن فـإنه من غير المعقول اتهامي باقتراف الخطأ.

"لو كـان للمرء حرية الاختيـار والانزواء بنفسـه ليعيش آمناً مطمئناً لغدا الذهاب إلى الحرب حماقة. ولكن لنفترض أن المرء فرض عليـه أحد الأمـرين فـإما الخضـوع والعبودية وإما ركـوب الخطـر والأمل بالبقـاء، وإذا كـان هذان هـمـا الخيـارين المتـاحين فإني لأؤثر من ينهض لمواجهـة الخطر على من يهرب منه. وبالنسبـة لي فإنني ما زلت كعـهدكم بي، ولن أحيد عن الدرب الذي سرت عليه؛ لأن من تغير هو أنتم، ومـا حدث هو ما أنا منبئكم به: لقد أخـذتم بمشورتي حين لم يكـن قد مسكم بعد أي ضـيـر، ثم ندمتم لما تغيرت الأحوال؛ ولأن عزيمتكم واهنة ساورتكم الظنون بسياستي ورأيتـموها خاطئة. إنها سياسة تستلزم المعاناة، وكل منكم يدري مـا المعاناة، غيـر أن ما تنطوي عليه هـذه السياسـة من

فوائد مازال بعيداً عنكم وليس واضحاً لكم جميعاً. ولذلك حين حلت بكم مصيبة عظيمة ومفاجئة، وهنت بكم العزيمة ولم تقووا على المضي بما عزمتم عليه حتى النهاية. وعندما يفاجئ المرء أمر ما ويأخذه على حين غرة، ولا يتفق مع حساباته، فإنه يذهب بلبه، وهذا بالتأكيد ما أصابكم، ثم أتى الوباء ليزيد في معاناتكم. ولكن عليكم أن تتذكروا مع ذلك أنكم مواطنو مدينة عظيمة وقد نشأتكم على نهج في الحياة مناسب لعظمتها، فيجب عليكم إذن أن تكونوا مستعدين لمواجهة أعظم النكبات وأنتم مصممون على ألا تفرطوا في المجد الذي هو حق لكم. إننا ننفر جميعنا من قوم ينسبون إلى أنفسهم مجداً زائفاً لا حق لهم فيه، كذلك هو شأن من يقصرون بسبب ضعف نسيجهم الأخلاقي عن النهوض بما يفرضه عليهم مجدهم التليد. فعلى كل منكم، إذن، أن يحاول كتم حزنه الخاص وهو ينضم إلى البقية في العمل لتأمين السلامة والطمأنينة لنا جميعاً.

"وإذا اعتقدتم بأن آلامنا في زمن الحرب سوف تتعاظم ولا تدنينا من النصر، فحسبكم أن تقنعوا بما كنت أعرضه من الحجج في مناسبات أخرى لتتبينوا ضلال هذه المخاوف. ولكن ثمة فكرة أود عرضها أمامكم. فثمة ميزة أحسب أنكم لم تأخذوا بها في الحسبان، عند النظر في عظمة إمبراطوريتنا، ولا أنا أشرت إليها في خطاباتي سابقاً. وما كنت لأرغب في التطرق إليها الآن حقاً لما تنطوي عليه من إيحاء بالتفاخر والمباهاة، لولا أني أجدكم تعانون شعوراً بالغاً بالإحباط يثقل عليكم. وبيت القصيد في هذا أنكم تحسبون أن إمبراطوريتكم إنما تتألف من حلفائكم وحسب. والحق أنكم تستطيعون تقسيم العالم أمامكم إلى قسمين: اليابسة والبحر، وكلاهما مفيد ونافع للإنسان. وأنتم تحكمون بسيطرتكم على أحد هذين القسمين ولا يقتصر سلطانكم على المنطقة التي تخضع لكم الآن فعلاً وحسب، وإنما يمتد إلى مناطق أخرى أيضاً، إن شئتم المضي إلى أبعد من هذا. فليس هناك قوة على الأرض لا ملك فارس أو أي شعب تحت الشمس

بقادرة على منعكم بما لديكم من أسطول من الإبحار أينما شئتم. وهذه القوة التي تملكونها هي شيء يختلف كل الاختلاف عن العمائر أو الأراضي المستصلحة. وقد يذهب بكم الظن فتحسبون أنكم تتكبدون خسارة عظيمة حين تخسرون هذه أو تلك، ولكن الأحرى بكم ألا تبالغوا في تقدير الخسارة، بل الأجدر أن تزنوا هذه الأملاك مقابل المصدر الحقيقي لقوتكم لتروا بالمقارنة أنها لا تزيد قيمة عن الحدائق ومظاهر الزينة الأخرى التي عهدناها ترافق الثراء. ولتتذكروا أيضاً أن الحرية – إن حفظنا حريتنا بجهودنا– كفيلة بأن تعيدنا إلى موقعنا القديم، أما الخضوع لإرادة الآخرين فيعني خسارة الأشياء التي مازلنا نملكها، بل عليكم ألا تنحدروا دون مكانة آبائكم الذين لم يفوزوا بإمبراطوريتهم إلا بالتعب والعرق، ولم يرثوها عن أحد، ثم حرصوا على أن يقدموها لكم آمنة مصونة. ولتعلموا أن العار الذي يلحق بالمرء حين ينتزع منه ملكه أكبر من العار الذي يلحق به حين يفشل في تولي أمر جديد. إذن فليست الشجاعة وحدها هي ما ينبغي أن يحفزكم وأنتم تمضون قدماً إلى الإمام بل إحساسكم الحقيقي بالتفوق هو الذي يدفعكم لمواجهة العدو. أما الثقة المتأتية عن امتزاج الجهل والحظ فيمكن أن يشعر بها حتى الجبناء؛ ولكن هذا الشعور بالتفوق لا يشعر به إلا من كانوا مثلنا لديهم أسباب حقيقة لأن يدركوا بأنهم في وضع أفضل من خصومهم. فإذا تساوت الحظوظ على الجانبين فإن الذكاء هو الذي يدعم الشجاعة ، الذكاء الذي يتيح للمرء أن ينظر من علٍ إلى خصمه، وهو لا ينمو بتمني الفوز – فذلك نهج لا يفيد إلا في الأوضاع اليائسة–، بل بتقدير واقع الأمور على حقيقتها، وبذلك تتوفر له رؤية أوضح لما ينتظره.

"ثم إن من الحق والصواب أن تؤازروا عزة إمبراطورية أثينا. وذلك أمر هو مصدر زهو لكم جميعاً، ولن يكون لكم أن تستمروا في التمتع بامتيازاتكم إلا إذا نهضتم بأعباء الإمبراطورية أيضاً. ولا يذهبن بكم الخيال فيتهيأ لكم أننا إنما نقاتل في سبيل مجرد قضية الخيار بين الحرية والعبودية، فهناك بعد قضية ضياع إمبراطوريتنا والأخطار الناجمة

عن الكراهية التي أذكينا أوراها ونحن نقوم بإدارتها. كذلك لم يعد بوسعكم التخلي عن هذه الإمبراطورية، مع أنه ربما كان هناك البعض ممن داهمهم الجزع فجأة وطغت عليهم روح اللامبالاة في النظر إلى الشأن السياسي حتى باتوا يعتقدون بأن التخلي عن الإمبراطورية أمر جليل وينطوي على الرفعة. والحق أنكم إنما تحتفظون الآن بإمبراطوريتكم بما لكم من القوة، ولعله كان من الخطأ حيازة هذه الإمبراطورية، إلا أنه من الخطر المؤكد تركها تفلت من قبضتنا. وهؤلاء الذين يتحدثون على هذا النحو ويستميلون الآخرين ليأخذوا بوجهة نظرهم سيجلبون الخراب في وقت قريب، ولسوف يكون هذا شأنهم ولو عاشوا وحدهم منعزلين بأنفسهم؛ ذلك أن لا حياة لمن أصابتهم اللامبالاة السياسية إلا إذا أعانهم على أمرهم القادرون على المبادرة بالعمل. وهؤلاء لا قيمة لهم في مدينة تسيطر على إمبراطورية، وإن كان سينتهي بهم الأمر ليصبحوا عبيداً آمنين في مدينة يحكمها سواهم.

"ولكن يجب ألا يضلّنّكم أمثال هؤلاء المواطنين، كما ينبغي عليكم ألا تضيقوا بي. أنتم الذين بلغتم الاستنتاج ذاته الذي بلغته أنا بضرورة خوض الحرب. فلا ريب في أن العدو قد قام بغزو بلدنا وتصرف كما يتوقع منه منذ أن رفضتم الاستسلام له؛ ثم داهمنا الوباء، وهو ما لم نكن نتوقعه. وإني لأعلم أن ذلك هو السبب إلى حد بعيد في شيوع النفور مني على غير وجه حق، إلا إذا نسبتم إليّ الفضل في كل ما صادفكم من حظ جيد غير متوقع. ولكن من المناسب أن يحتمل المرء ما ترسله الآلهة بالتسليم وأن يواجه أعداءه بشجاعة. وقديماً قالت أثينا: لا تدعوا أي عمل أن يمنعكم عما يجب عليكم القيام به. وتذكروا بعد أن ما جعل اسم أثينا يعلو ويدوّي في العالم كله هو أنها لم تستسلم في حرب، إنما بذلت من الأرواح والجهد في الحرب أكثر من أي دولة أخرى، وبذلك بلغت من القوة ما لم تبلغه دولة في التاريخ، قوة سوف يذكرها أبداً أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا، حتى لو قُدِّر الآن – ولكل موجود نهاية – أن يأتي وقت نضطر فيه

إلى اللين. ومع ذلك، فإن ما سيبقى حياً في الذاكرة، أننا كنا دون كل القوى الهيلينية نملك أوسع النفوذ، وكنا الصامدين في أعظم الحروب أمام قواتهم مجتمعة، وكل دولة على حدة، وأننا قد عشنا في مدينة كاملة التجهيز في كل ناحية وكانت أعظم المدن في بلاد هيلاس.

"ولا ريب بأن هذا كله سوف يقابل بالاستخفاف من الذين أصابهم الوهن، وأما هؤلاء الذين يؤثرون حياة الأفعال شأننا فسوف يحاولون محاكاتنا، فإن قصروا عن بلوغ ما بلغناه امتلؤوا حسداً. وكل من أخذ على عاتقه حكم الآخرين استجلب لنفسه الكراهية ونفور الآخرين لفترة من الزمن، أما إذا كان المرء يطمح إلى غاية عظيمة وسعى إليها فلا مناص له من أن يقبل بالحسد، ومن الحكمة له أن يقبل به. وأما الكراهية فلا تدوم طويلاً، إلا أن بهاء الحاضر هو في المجد الذي يخبئه المستقبل ليبقى ماثلاً إلى الأبد في ذاكرة الإنسان. وإنها لمهمتكم أن تحرصوا على المجد الذي سيأتي به المستقبل وألا تأتوا بأمر مشين لكم. والآن حان الوقت لتكشفوا عن همتكم وتبلغوا هذين الأمرين. فلا ترسلوا سفارات إلى إسبارطة، ولا تدعوا مجالاً لقيام انطباع بأنكم تخضعون بسبب معاناتكم الراهنة!. إن القوة الحقيقية في المدينة كما في الفرد هي بمواجهة المصيبة بعقل صاف قدر الإمكان والرد عليها سريعاً".

على هذا النحو حاول بيركليس صرف الأثينيين عن غضبهم منه، وتوجيه خواطرهم عن همومهم القريبة. ولقد قبل الناس منه ما ساق من الحجج، بقدر ما يتصل الأمر بالسياسة العامة، من الامتناع عن إيفاد الرسل إلى إسبارطة وبذل المزيد من النشاط في الحرب؛ ولكنهم ظلوا كأفراد يشعرون بوطأة المصائب التي نزلت بهم. وكان الناس يعانون أصلاً ضيق الحال وقلة ما يملكون، أما الآن فقد باتوا محرومين حتى من هذا القليل؛ فأبناء الطبقات الأكثرون ثراء فقدوا ممتلكاتهم وضاعت بيوتهم المرفهة المفروشة الحسنة التجهيز

في الريف، وغدوا يعانون الحرب بدلاً من أن ينعموا بالسلم، وهو أسوأ ما في الأمر. والواقع أن الشعور العام بالضيق من بيركليس استمر على حاله ولم يذهب عن القوم حتى اضطروه لدفع الغرامة. وما هو إلا حين حتى جدد الناس انتخابه، وهذا شأن الجماهير أبداً، وولوه قيادة الجيوش ووضعوا مقاليد أمورهم كلها بين يديه. ولما مضى حين ولم يعد الناس يتبينون على وجه الدقة مبلغ معاناتهم، رأوا أن بيركليس خير ما عندهم ليتولى أمور الدولة ومقتضياتها. والحق أنه كان طوال عهد السلم كله، وهو القيم على شؤون الدولة، يتولاها بحكمة ويرعاها بحزم، وفي عهده بلغت أثينا ذروة عظمتها. ولما نشبت الحرب بدا أنه هنا أيضاً قد قدَّر بدقة حقيقة قوة أثينا. ولقد استمر في السلطة مدة عامين وستة شهور بعد اندلاع الحرب، وبعد وفاته غدا عمق بصيرته فيما يتصل بالحرب ومصائرها أكثر وضوحاً. ويتجلى ذلك في قوله: إن النصر سيكون لأثينا إن هي تمهلت واعتنت بأسطولها، ولم توسع إمبراطوريتها أثناء الحرب، وحرصت على سلامة المدينة ذاتها. ولكن خلفاءه نهجوا نهجاً معاكساً لنهجه، وساروا بالأمور في قضايا أخرى ليس لها صلة واضحة بالحرب وفق المطامح الخاصة والفائدة الشخصية. ما أدى إلى سياسات كان لها أثر سيء للأثينيين أنفسهم ولحلفائهم. وكانت هذه السياسات حين يصادفها النجاح تعود بالفائدة على أفراد وإليهم ينسب الفضل فيها، أما عند الفشل فكانت تضر بقدرات الدولة الحربية كلها. والسبب في ذلك أن بيركليس كان بحكم منصبه وذكائه ونزاهته المشهودة يحفظ للناس حريتهم ويلزمهم بالحدود في الوقت ذاته. فقد كان هو الذي يقودهم، وليس العكس، وبما أنه لم يكن يسعى إلى السلطة لغرض في نفسه فلم يسع إلى تملقهم، بل الحق أنه كان يحظى بقدر من الاحترام كان يسمح له بأن يثقل عليهم بالكلام ويعارضهم في آرائهم. والحق كذلك أنه كان يملك أن ينبه القوم إلى الأخطار المحدقة بهم، حين يراهم قد اشتطوا في الثقة بالنفس، أما إذا أصابهم الإحباط دون سبب معقول فكانت لديه المقدرة لإعادة الثقة إلى نفوسهم. وهكذا كانت السلطة

فعلاً - فيما هو اسماً بلد ديمقراطي - بيد المواطن الأول. أما خلفاؤه، وكانوا على سوية واحدة وكل منهم يهدف إلى احتلال الموقع الأول- فقد اتبعوا أساليب تملق الجماهير - الديماغوجية - وهذا أدى إلى فقدانهم السيطرة على مجرى الأمور حقيقة. وقد أدت تلك السياسة في مدينة عظيمة تحكم إمبراطوية إلى عدد من الأخطاء بطبيعة الحال، وكان من بينها الحملة على صقيلية، ولم يكن السبب في هذا الخطأ سوء تقدير للمعارضة المتوقعة لها بقدر ما كان مرجع ذلك الخطأ قصور القائمين على الأمور في أثينا عن توفير الدعم اللازم لقوات حملتهم؛ ذلك أنهم كانوا أكثر انشغالاً بمؤامراتهم يحيكونها ليكفلوا بها الزعامة على الشعب؛ فتركوا الحملة تفقد قوة اندفاعها، فضلاً عن اقتتالهم فيما بينهم ما أشاع الاضطراب في سياسة الدولة. ومع ذلك فقد صمد هؤلاء مدة ثماني سنوات أمام أعدائهم في الأساس، حتى بعد أن فقدوا معظم أسطولهم وجميع قواتهم على أرض صقيلية، وقيام الثورات في أثينا، بينما أخذ أولئك الأعداء الآن يتلقون الدعم من الصقيليين، كما صمدوا في وجه حلفائهم، بعد أن ثار عليهم معظمهم، وكذلك في وجه قورش ابن ملك فارس الذي انضم فيما بعد إلى الطرف الآخر باذلاً المال للبيلوبونيز ليدعموا أسطولهم. وفي النهاية اضطر هؤلاء للاستسلام بسبب الدمار الذي جلبوه لأنفسهم باقتتالهم فيما بينهم. وكانت القوة المتوفرة لأثينا من الضخامة ما حمل بيركليس يومئذ للتنبؤ بنصر سهل على البيلوبونيز وحدهم.

الفصل السابع: نهاية السنة الثانية من الحرب وسقوط بوتيدايا

في صيف ذلك العام وجه الإسبارطيون وحلفاؤهم حملة من مئة سفينة على جزيرة زاكينثوس التي تقع مقابل إيليس. وسكان زاكينثوس هذه مستوطنون قدموا من آخيا في شبه جزيرة البيلوبونيز، وكانوا يحاربون إلى جانب أثينا. وكان على ظهر تلك السفن ألف من المشاة الثقيلة الإسبارطية بقيادة كنيموس وهو من مرتبة القادة في إسبارطة. وقد نزل أفراد هذه الحملة على أرض الجزيرة، ثم عملوا فيها تدميراً وخراباً، ولكن أهل الجزيرة لم يقبلوا بالاستسلام فعادت تلك القوة من حيث أتت.

وفي نهاية ذلك الصيف توجهت سفارة عن الحلف الإسبارطي إلى آسيا، وكانت تتألف من أرسطيوس عن كورنثة وأنريستوس ونيقولاوس واستراتوديموس عن إسبارطة، وتيماجوراس عن تيجيا، ورجل من آرجوس يدعى بوسيس انضم بمبادرة منه ودون تفويض، وكان غرضهم إقناع ملك الفرس بتقديم المال ودخول الحرب إلى جانب إسبارطة. وكان أول ما قام به هؤلاء أن قصدوا سيتالكيس بن تيريس في تراقية بهدف حمله إن أمكن على التخلي عن حلفه مع أثينا وإرسال جيش لفك حصار القوات الأثينية لبوتيدايا. كما أرادوا منه بعدُ أن يساعدهم في عبور الهليسبونت للوصول إلى وجهتهم في آسيا، للالتقاء بفارناسيس بن فارنابازوس الفارسي، الذي كان عليه تدبير أمر إيصالهم إلى الداخل ومقابلة الملك. ولكن صادف أن كان سيتالكيس يجتمع بموفدين أثينيين هما ليارخوس بن كاليماخوس وأمنياديس بن فيليمون. وقد اقترح هذان الموفدان على سادوكوس بن سيتالكيس الذي كان قد أصبح مواطناً أثينياً تسليمهما هؤلاء السفراء ومنع وصولهم إلى ملك فارس لئلا يلحقوا الأذى بمدينة شاء أن يكون مواطناً فيها، فوافق سادوكوس على ما طلبه الموفدان، وهكذا بينما كان السفراء في طريقهم عبر تراقية إلى السفينة التي ستجتاز بهم الهليسبونت، أمر سادوكوس الجنود الذين كان قد كلفهم

بمرافقة الأثينيين باعتقال رجال السفارة وتسليمهم إلى ليارخوس وأمنياديس ولما تم ذلك حمل الرجلان هؤلاء المعتقلين إلى أثينا، وهناك أسرع الأثينيون إلى إعدامهم خشية أن ينالهم من أرسطيوس ضرر كبير إن أفلح في الهرب منهم، بعد أن تبين لهم قبل زمن مبلغ الضرر الذي سببه لهم في بوتيدايا وتراقية، ولم يتح الأثينيون للسجناء فرصة المحاكمة والدفاع عن أنفسهم، فنُفذ حكم الإعدام بهم فوراً ثم رُمي بجثثهم في حفرة أُعدت لهذا. وقد اعتبر الأثينيون هذا التصرف انتقاماً مشروعاً للنهج الذي نهجه الإسبارطيون الذين سبق أن قتلوا كل من وقع في أيديهم من الأثينيين وحلفائهم التجار ممن كانوا على ظهر السفن التجارية التي تبحر عند شبه جزيرة البيلوبونيز. والواقع أن الإسبارطيين كانوا يقتلون في بداية الحرب كل من يصادفهم في البحر باعتباره عدواً، سواء كان من حلفاء أثينا أم كان حيادياً.

وفي تلك الفترة، والصيف يقترب من نهايته، سار الأمبراس بقواتهم وجيش ضخم كانوا قد قاموا بتشكيله من أهالي البلاد، وزحفوا على آرجوس الأمفيلوخية وبقية أرجاء أمفيلوخيا. أما أصل عدائهم لآرجوس فهو كما يلي: كان آمفيلوخوس بن أمفياراوس قد عاد إلى موطنه في آرجوس البيلوبونيزية بعد انتهاء حرب طروادة، ولكنه ضاق بالأحوال السائدة هناك فرحل إلى الخليج الأمبراسي وأسس آرجوس الأمفيلوخية واستعمر أمفيلوخيا كلها. ولقد أطلق على المدينة اسم آرجوس تيمناً بموطنه الأصلي، وكانت أعظم مدينة في أمفيلوخيا، وأهلها من أشد الناس. غير أن شعب آرجوس مرَّ بعد عدة أجيال بوقت عصيب فدعوا الأمبراس - وكانوا يعيشون على حدود أمفيلوخيا - للانضمام إلى مستوطنتهم، وعن هؤلاء، الذين غدوا مواطنين لهم أخذوا اللغة الهيلينية، أما بقية الأمفيلوخ فمازالوا محافظين على لسانهم القديم. وبعد فترة قام الأمبراس بطرد الأرجوس واستأثروا بالمدينة وحدهم. ثم مضى الأمفيلوخ إلى الأكارنان، وطلبا معاً المساعدة من أثينا. فأرسلت إليهم القائد فورميو وتحت إمرته أسطول يتألف من ثلاثين

سفينة، فلما وصل استولى على آرجوس كالعاصفة واستعبد الأمبراس هناك. واستقر الأمفيلوخ والأكارنان في المدينة معاً. وقد كانت هذه الواقعة مبدأ الحلف بين الأثينيين والأكارنان. أما عداء الأمبراس للأرجوس فبدأ مع استرقاق جماعتهم. وحين نشبت الحرب فيما بعد جمع هؤلاء القوة التي ذكرتها، وكانت تتألف منهم والخاونيين والعشائر المقيمة في الجوار، وقد زحفت تلك القوة على آرجوس وسيطرت على الريف، لكنها لم تستطع أن تستولي على المدينة عنوة. ولذلك تراجعت وتفرق الجيش، وعادت كل سرية إلى قومها.

جرت تلك الوقائع كلها في الصيف. وفي الشتاء التالي أرسل الأثينيون عشرين سفينة لتطوف حول البيلوبونيز. وكان هذا الأسطول بقيادة فورميو الذي فرض حصاراً من موقعه في نوبكتوس، ليمنع دخول أحد إلى كورنثة وخليج كريسا أو الخروج منهما. وقد أرسلت ست سفن بقيادة ميليساندر إلى كاريا وليسيا لتحصل الإتاوة من المنطقة ومنع القراصنة البيلوبونيز من استخدامها كنقطة لمهاجمة السفن التجارية التي تبحر من فاسيليس وبلاد الفينيقيين والساحل الآسيوي. وقد قتل ميليساندر بعد زحفه براً إلى ليسيا مع قوة من الأثينيين ممن كانوا على متن السفن وبعض الحلفاء بعد معركة خسر فيها عدداً من رجاله.

وفي فصل الشتاء ذاته توصل أهالي بوتيدايا والأثينيون إلى اتفاق بعدما اشتد عليهم الحصار وضاقت بهم الأحوال. وكانت الغزوات التي قام بها البيلوبونيز على أتيكا قد فشلت في حمل الأثينيين على سحب قواتهم من المنطقة؛ ولما نفذت المؤن وشاعت المآسي بسبب الجوع وقعت حالات أخذ الناس يأكلون فيها بعضهم بعضاً، وهكذا اضطروا لطلب الاستسلام في النهاية من القادة الأثينيين، وهم زينوفون بن يوريبديس وهيستيودوروس بن أرسطوكليديس، وفانوماخوس بن كاليماخوس. فأبدى القادة

استعداداً للإصغاء لطلب البيوتيديين، نظراً للضيق الذي كان فيه الجيش في موقعه المكشوف، ولما تكبدته أثينا في هذا الحصار الذي بلغت نفقاته ألفي تالنت. وتم الاتفاق وفق الشروط التالية: يسمح للبوتيديين وزوجاتهم وأطفالهم والقوات الخفيفة بمغادرة البلدة، وأن يحمل كل واحد منهم قطعة ثياب لا غير، وللمرأة قطعتان، كما سُمح لهم بحمل مبلغ محدد من المال لإنفاقه في الرحلة. وهكذا غادر البوتيد البلد وفق هذه الشروط فمضوا إلى خالكيديا أو حيثما وجدوا لأنفسهم مكاناً يلجؤون إليه، غير أن الأثينيين لاموا القادة على إبرام هذا الاتفاق دون مشاورة حكومتهم، اعتقاداً منهم بأنه كان من الممكن أن ينالوا من البوتيد استسلاماً غير مشروط. وفيما بعد أرسل الأثينيون مستوطنين من أبنائهم إلى بوتيدايا حيث استقروا هناك. وكان هذا ما جرى في ذلك الشتاء، وهو خاتمة السنة الثانية من هذه الحرب التي دون وقائعها ثوسيديديس.

الفصل الثامن : السنة الثالثة، حصار بلاطية

في الصيف التالي زحف البيلوبونيز وحلفاؤهم على بلاطية عوضاً عن غزو أتيكا. وكان على رأس هذه الحملة الملك أرخيداموس بن زيوكسيداموس. وكان أرخيداموس قد أقام معسكره مقابل بلاطية وتهيأ لتخريب الأرض حين أوفد إليه البلاطيون سفارة، وخاطبوه على نحو ما يلي:

"يا أرخيداموس ويا أيها الإسبارطيون، ليس هناك ما يبرر هذا الغزو لأرض بلاطية. بل إنه حقاً عمل لا يشرفكم ولا يشرف آباءكم. وتذكروا ما فعله باوسانياس بن كليومبروتوس. فبعدما حرر بلاد هيلاس من الفرس بمساعدة الهيلينيين جميعاً الذين نهضوا بعبء المعركة التي دارت بالقرب من مدينتنا، قدم القرابين لزيوس المحرر في سوق بلاطية، واستدعى الحلفاء كلهم، وأعاد لشعب بلاطية أرضهم ومدينتهم ليقيموا دولة مستقلة إلى الآن وكفل لها هذا الوضع، إذا تعرضت لهجوم دون ذنب أو واجهت هيمنة أجنبية؛ ودعا الحلفاء الحاضرين لمساعدتنا قدر استطاعتهم. ذلكم هو الوعد الذي قطعه آباؤكم على أنفسهم لما رأوا من شجاعتنا وهمتنا في أوقات الشدة وأمام الخطر. أما أنتم فتتصرفون بما ينقض ذلك العهد؛ فقد حالفتم أهل طيبة وهم أعداؤنا الألداء، وها قد قدمتم معهم لتجعلوا منا أرقاء. لذلك نضرع إلى الآلهة الذين كانوا شهوداً على العهود ولآلهة آبائكم وآلهة بلادنا، ونسألكم ألا تنقضوا العهد بعدوان غير مبرر على أرض بلاطية وأن تحفظوا لنا استقلالنا، كما أراده لنا باوسانياس."

ولما بلغ القوم هذا الحد من الخطاب قاطعهم أرخيداموس قائلاً: "إن ما قلتموه يا أهل بلاطية حق طالما كانت أفعالكم تطابق أقوالكم. ولكم أن تستمروا كما أراد باوسانياس لكم أن تكونوا، أي أن تتمتعوا باستقلالكم وتشاركوا في تحرير الهيلينيين الآخرين الذين كان لهم نصيب في مجابهة أخطار الماضي، وتبادلوا وإياكم العهود، وهم اليوم تحت هيمنة أثينا. فلتحرير هؤلاء وأمثالهم أنشئ هذا الجيش وقامت هذه الحرب. إن

أفضل ما يمكنكم القيام به هو أن تؤدوا دوركم في التحرير وتحافظوا على عهودكم. أما إذا تعذر عليكم هذا فلكم أن تقوموا بما طلبناه منكم: ابقوا على الحياد، وانهجوا نهج الاستقلال في حياتكم؛ ولا تنحازوا إلى أي من الطرفين، اسمحوا للفريقين بدخول مدينتكم، ولكن لا تدعوا أياً منهما أن يفيد منها في الحرب. وحسبنا هذا منكم."

بعد أن سمع الموفدون من بلاطية مقالة أرخيداموس، عادوا أدراجهم إلى المدينة ونقلوا إلى مجلس المدينة ما سمعوا. وقد عاد هؤلاء إلى أرخيداموس برد بلاطية، وهو أنهم لا يملكون الاستجابة لما طلب منهم دون مشاورة الأثينيين، نظراً لوجود نسائهم وأطفالهم في أثينا. وقالوا بعد إن القلق يساورهم من الوضع الذي يحيط بمدينتهم. فقد كانوا يخشون أن يعمد الأثينيون متى انسحب جيش البيلوبونيز، إلى مهاجمتهم وفرض هيمنتهم، أو أن يقوم الطيبيون بمحاولة أخرى لأخذ المدينة عنوة، مادام سيكون لهم حق الدخول إلى بلاطية حسب بنود المعاهدة المقترحة.

حاول أرخيداموس أن يبدد مخاوفهم بالقول: "إن ما عليكم عمله هو أن تسلموا لنا نحن الإسبارطيين مدينتكم وبيوتكم. بينوا لنا حدود أرضكم وأعلمونا بعدد الأشجار المثمرة عندكم وكل ما يتعلق بممتلكاتكم التي يمكن حصرها بالعدد، ثم امضوا حيثما شئتم وأقيموا أينما طاب لكم مادامت الحرب قائمة، فإذا انتهت أعدنا إليكم كل ما استلمنا منكم، ويكون ذلك كله في عهدتنا أمانة إلى أن تنتهي الحرب، ونقوم نحن بزراعة الأرض والعناية بها، ونقدم لكم جعالة تصلكم بانتظام وتكون كافية لتأمين احتياجاتكم".

ولما سمع وفد بلاطية هذا قفل عائداً إلى بلده من جديد وعرض ذلك الاقتراح أمام مجلس المدينة. ولقد قالوا عندئذ أنهم يودون أولاً إعلام الأثينيين بما اقترحه أرخيداموس، فإن وافقت أثينا قبلوا اقتراحه. وبينما الأمور تجري على هذا النحو طلبوا منه هدنة يمتنع خلالها عن تخريب بلدهم، فوافق أرخيداموس على هدنة لأيام معدودات

تكفي للذهاب إلى أثينا والعودة منها، وامتنع خلالها عن إلحاق الأذى ببلدهم.

مضى ممثلو بلاطية إلى أثينا، ثم عادوا إلى بلاطية بعد التشاور حاملين الرسالة التالية: "يارجال بلاطية، يقول الأثينيون كما أننا لم نتخل عنكم طوال حلفنا وإياكم لمعتدٍ قط، كذلك لن نتخلى عنكم الآن، بل سنبذل لكم كل عون في طاقتنا، ونناشدكم أحر المناشدة باسم العهود التي قطعها آباؤكم ألا تبدلوا شيئاً من الحلف القائم بيننا".

أصغى البلاطيون إلى هذه الرسالة التي حملها ممثلوهم وقرروا ألا يتخلوا عن الأثينيين، وأن يصبروا – إن اضطرتهم الظروف- لرؤية بلدهم يمتحن واحتمال ما قد ينزل بهم من الشدائد. فقرروا ألا يبعثوا بعد هذا وفوداً إلى الإسبارطيين، ويعلنوا ردهم من سور المدينة بأنه ليس بوسعهم العمل بما عرضه الإسبارطيون.

وكان أول ما قام به الملك أرخيداموس، حين بلغه رد البلاطيين، أن رفع نداءه للآلهة وأبطال البلد: "أيتها الآلهة ويا أبطال بلاطية، اشهدوا على أننا منذ البدء لم نغز هذه الأرض بدافع من روح العدوان، وإنما لأن هؤلاء القوم كانوا البادئين بنقض ارتباطاتهم معنا، فهذه الأرض هي التي رفع منها آباؤنا صلواتهم إليكم قبل أن يدحروا الفرس وجعلتم منها بشارة طيبة لحرب الهيلينيين، كذلك لن نسلك في أعمالنا الآن مسلك العدوان. ولقد تقدمنا منهم بعدة عروض، ولكنها لم تلق لديهم قبولاً. فأعينونا على أمرنا وليكن أمركم أن ينزل العقاب بمن يبادر إلى الشر، وأن نبلغ غايتنا، وذلك هو الانتقام العادل".

بعد هذه الضراعة للآلهة، وجه أرخيداموس جيشه إلى العمل. وكان أول ما قام به هو أن استخدم الأشجار التي قطعها في إقامة سياج قوي حول المدينة ليحول دون قيام البلاطيين بشن الهجمات عليه. ثم أمر ببناء المتاريس قبالة سور المدينة، وقدَّر بعدئذ أن الاستيلاء على بلاطية لن يستغرق طويلاً، نظراً لحجم القوة التي كانت تتولى العمل.

وكان العاملون قد قطعوا الأخشاب التي أتوا بها من سيثايرون وعملوا منها إطاراً تتقاطع أطرافه في زوايا قائمة عند طرفي المتاريس لتثبيت المواد في مكانها ثم بنوا المتاريس نفسها من الأخشاب والحجارة والتراب وكل ما يمكن أن يملأ الفراغ. وقد استمر هذا العمل سبعين يوماً بلياليها، وكان يجري على نوبات يتوالى عليها العاملون، فلا ينقطع أحد منهم إلا قليلاً للنوم حتى يحين دوره ليستأنف العمل، فيما رفاقه يقومون بنقل ما يلزم للبناء، ويشرف عليهم قادة إسبارطيون معينون لإمرة فصائل الحلفاء، ولا ينقطع هؤلاء عن توجيههم إلى أشغالهم.

ولقد عمد البلاطيون حين رأوا المتاريس تعلو وترتفع إلى تشييد جدار من الخشب ثبتوه على سورهم مقابل المتاريس وبنوا داخل الإطار الخشبي جداراً من القرميد الذي انتزعوه من البيوت في الجوار، وكان من شأن الأخشاب أن تشد البنيان بعضه بعض وتحول دون ضعفه وهو يرتفع. كذلك أضيف إليه غطاء واق من جلود الحيوان لتمنع إصابته بالأسهم النارية وتحمي العاملين في بنائه. وهكذا ما هو إلا حين حتى ارتفع الجدار ارتفاعاً عظيماً والمتاريس مقابله لا تقل عنه ارتفاعاً. ولقد خطر ببال البلاطيين فكرة تخريب جزء من سورهم مقابل المتاريس التي يتم بناؤها ونقل التراب إلى داخل مدينتهم. فلما اكتشف البيلوبونيز الأمر عمدوا إلى ملء الفجوة بدك جوف أعواد القصب بالصلصال لتقوى وتتماسك مما يحول دون نقلها كما نقل التراب من موضعه. ولما قُطع على البلاطيين السبيل تخلوا عن هذا الأسلوب، وعمدوا بدلاً من ذلك إلى حفر نفق من داخل مدينتهم حتى مسافة معينة تحت المتاريس، وعبر هذا النفق عادوا ينقلون من جديد المواد التي صنعت منها هذه المتاريس. وقد ظل القائمون على حصارهم يجهلون ما كان يقوم به المحاصَرون، وبالرغم من انشغال البيلوبونيز بالبناء ليلاً نهاراً فإنهم عجزوا عن الارتفاع به إلى الحد اللازم، نظراً لاستمرار البلاطيين في نقل التراب من تحته، وانهيار الجزء الأعلى منه ليستقر في الفجوة أسفله.

ولكن البلاطيين ظلوا يخشون بالرغم من ذلك ألا تستطيع القوة الصغيرة لديهم الصمود في وجه هذا العدد الضخم من الجنود، فتفتق ذهنهم عن وسيلة أخرى بعد للدفاع. فأوقفوا العمل في بناء الحاجز الضخم قبالة المتاريس وبدءاً من الطرفين، حيث بدأ الجدار الأصغر الأصلي، وأخذوا ببناء جدار داخلي منحنٍ على شكل هلال يتجه قوسه نحو المدينة، بحيث يوفر لهم هذا الجدار الجديد الحماية إن سقط الجدار العالي، ويضطر العدو لإقامة متاريس أخرى، وبذلك تتجدد متاعبه حين يتقدم إلى الداخل ويصبح معرضاً للخطر أكثر من ذي قبل.

وفيما كان البيلوبونيز يقيمون المتاريس نصبوا المنجنيقات، ووضعوا إحداها عند الحاجز الضخم قبالة المتاريس، وحطموا جانباً كبيراً منه فأثاروا فزعاً عظيماً بين البلاطيين. ولقد أتى البيلوبونيز بعد ذلك بآلات حصار أخرى ونصبوها عند أجزاء مختلفة من سور المدينة، واستطاع البلاطيون سحب بعضها ثم عملوا فيها تحطيماً؛ كذلك نصبوا عوارض ضخمة معلقة بسلاسل حديدية طويلة مشدودة إلى طرفي أعمدة تبرز أفقياً من أعلى السور، فكان كلما نصب البيلوبونيز آلة في موقع سحب البلاطيون العارضة لتشكل والآلة زاوية وأطلقوها مع السلاسل المتدلية فتنزل مسرعة وتلتقط مقدمة المنجنيق.

ولقد توصل البيلوبونيز بعد حين مع فشل آلات الحصار وبناء الجدار مقابل متاريسهم إلى استنتاج مفاده أنه من المستحيل عليهم أخذ المدينة بأي أسلوب من أساليب الحرب عملوا به حتى ذلك الوقت، فبدؤوا بالإعداد لإحاطة المكان بجدار. لكن رأوا أن يجربوا أولاً مدى تأثير النار، ومعرفة إن كان بوسعهم إحراق المدينة حين تهب عليها الرياح، نظراً لأنها لم تكن بالمكان الواسع. والواقع أن البيلوبونيز درسوا كل خطة ممكنة تتيح لهم السيطرة على المدينة دون أن يتكلفوا عبء الحصار الطويل. فأتوا بأكوام من الأخشاب وألقوا بها من أعلى المتاريس أولاً في الفراغ ما بينها وبين الجدار. وسرعان ما امتلأ هذا

الفراغ بفعل مشاركة الأعداد الغفيرة من القوات في هذا العمل، ثم استمروا حتى أخذت الأخشاب تتراكم وراء الجدار وداخل المدينة ثم أشعلوا النار في الخشب مستخدمين الكبريت والقطران ليزيدوا في احتراقه، فارتفعت ألسنة اللهب وهبت الحرائق وتسارعت وعمت كما لم يُر مثل هذه النار الهائلة يشعلها البشر من قبل؛ وإن عرف الناس حرائق كبرى تشب في الغابات على الجبال، وكانت تندلع تلقائياً وتنتشر بين الأغصان بفعل الرياح. أما هذه النار فكانت ناراً عظيمة وكادت تقضي على البلاطيين، بعد أن نجوا من الهجمات الأخرى عليهم. فقد انتشرت الحرائق وعمت حتى بات جزء كبير من المدينة خراباً لا يمكن العيش فيه، ولو قدر للريح أن تشتد وتنفخ في النار كما أمل العدو، لما استطاع البلاطيون النجاة من دمارها. لكن ذلك لم يحدث على كل حال، ويقال الآن أيضاً: إن عاصفة هبت يومذاك وأسقطت أمطاراً عظيمة أخمدت النيران وأنقذت القوم من المحنة.

بعد هذا الفشل الأخير قام البيلوبونيز بتسريح القسم الأعظم من جيشهم مبقين على عدد من القوات التي استخدمت في بناء جدار من المتاريس يطوق المدينة. وكانت الحلقة كلها قد قسمت بين مختلف دول الحلف. وكانت هناك حفر أخذوا منها القرميد الذي صُنع داخل الجدار وخارجه. وقد تم الانتهاء من بنائه في موسم السمك الرماح. ومن ثم غادر البيلوبونيز تاركين وراءهم ما يكفي من الرجال لحراسة نصف الجدار، وعدد من البويوطيين لحراسة النصف الباقي من الجدار؛ وانسحبوا مع بقية قواتهم الذين تفرقوا بين مختلف المدن. وكان البلاطيون قد أرسلوا إلى أثينا من قبل زوجاتهم وأطفالهم والشيوخ الذين لا يصلحون للخدمة العسكرية. أما من بقي منهم وعانى الحصار فقد بلغ عددهم الأربعمئة بالإضافة إلى ثمانين أثينياً ومئة وعشرة نساء بقين لطبخ الطعام للجند. وكان هذا مجمل العدد عند بداية الحصار، ولم يكن هناك وراء السور سوى هؤلاء، سواء من الرقيق أم من الأحرار. وهكذا بدأ حصار بلاطية.

الفصل التاسع: فشل البيلوبونيز في البر والبحر.

انتصارات فورميو

في ذلك الصيف ومع موعد الحملة على بلاطية، سار الأثينيون بجيش من المواطنين قوامه ألفان من المشاة الثقيلة ومئتي خيال لقتال الخاليكيد في تراقية والبوتيان. وكان ذلك موسم نضج الذرة. وكان على رأس هذا الجيش زينوفون بن يوريبيديس، وقائدان آخران.

وقد توجهت هذه القوة إلى سبارتولوس في بوتيايا وهناك أتلفت المحاصيل، وكانت تأمل باستسلام المدينة بمعونة الحزب المناصر لأثينا في الداخل. ولكن كان هناك من أهل المدينة من يرى غير هذا الرأي فأرسلوا يطلبون النجدة من أولينثوس، فأرسلت لهم قوة من المشاة الثقيلة ووحدات أخرى للدفاع عن البلدة. ثم خرجت هذه القوة للقتال فقابلها الأثينيون في ظاهر المدينة. فدحر الأثينيون المشاة الثقيلة الخاليكيد ومن معهم من القوات المؤازرة فانسحبوا إلى سبارتولوس، لكن الخيّالة الخاليكيد والقوات الخفيفة تمكنوا من هزيمة المشاة الثقيلة والقوات الخفيفة على الجانب الأثيني. وكان لدى الخاليكيد قليل من المشاة الخفيفة جاؤوا معهم من كروسيس. فلما رأت القوات الخفيفة من سبارتولوس وصول التعزيزات الجديدة، زادت ثقتهم بالنصر فوق ما كسبوا من الثقة بأنفسهم بصمودهم. وقد شجعتهم هذه الثقة على شن هجوم آخر على الأثينيين تدعمهم الخيالة الخاليكيد والقوات التي وصلت حديثاً. وارتد الأثينيون على الفرقتين اللتين عُهد إليهما بحراسة المتاع. وكان الأعداء يخلون للأثينيين السبيل كلما وجدوهم يهاجمون، فإذا بدؤوا يخلدون للراحة هاجموهم وراحوا يمطرونهم برماحهم القصيرة. كذلك واصل الخيالة الخاليكيد هجماتهم كلما لاحت لهم فرصة للهجوم. والواقع أنه كان لهؤلاء الفرسان الباع الأطول في إثارة الذعر في صفوف الأثينيين الذين نالتهم الهزيمة

ثم صار الخيالة يلاحقون فلولهم مسافة طويلة من الطريق. وقد تمكن هؤلاء في النهاية من الإفلات والهرب إلى بوتيدايا، واستعادوا بعدئذ جثث قتلاهم وفق شروط الهدنة. ثم عادوا إلى أثينا مع من بقي من جيشهم. وقد قتل في هذه الحملة كافة قادتهم وثلاثمئة وأربعون من الجنود. أما الخاليكيد والبوتيان فإنهم أقاموا نصباً بمناسبة النصر وحملوا موتاهم من ساحة القتال ثم تفرقوا، ورجع كل إلى مدينته.

وفي ذلك الصيف، وبعيد هذه الواقعة، أقنع الأمبراس والخاونيون الإسبارطيين بتجهيز أسطول من الحلفاء وتوجيه فوج من المشاة الثقيلة إلى أكارنانيا لاكتساح المنطقة كلها وانتزاعها من الحلف الأثيني وزينوا الأمر بأنه إذا ما اشترك الإسبارطيون معهم في عمليات برية وبحرية فإن الأكارنان في الساحل لن يتمكنوا من التجمع بعضهم مع بعض للدفاع عن أنفسهم، وبعد الاستيلاء على أكارنانيا فمن اليسير إخضاع زاكينثوس وسيفالينيا، وهذا ما سوف يجعل من العسير على الأثينيين إرسال أساطيلهم والالتفاف حول البيلوبونيز، وقد يكون لهم فوق هذا إمكانية الاستيلاء على نوبكتوس.

وبهذه الحجج تمَّ كسب الإسبارطيين الذين وجّهوا مشاتهم الثقيلة فوراً على ظهر بضعة سفن بقيادة كنيموس، وكان مايزال أميراً للبحر. فأمروا الأسطول بالاستعداد للإبحار بأسرع ما يمكن إلى ليوكاس. وكان الكورنث في هذا كله نشيطين أشد النشاط في دعم الأمبراس، وكان هؤلاء عمالهم في المستوطنات. وهكذا استعدت السفن القادمة من كورنثة وسيكيون والبلدات الأخرى في تلك المنطقة للرحلة المقررة، بينما بقيت السفن المقدمة من ليوكاس وأنكتوريوم وأمبراسيا، وكانت السابقة إلى القدوم تنتظر في ليوكاس. وفي تلك الأثناء عبر كنيموس ومشاته الثقيلة الألف البيلوبونيز دون أن يلاحظه فورميو الذي كان بإمرته عشرون سفينة أثينية لحراسة نوبكتوس. ومن ثم تهيأت هذه القوة للمسير فوراً براً. وكانت القوات الهيلينية بقيادة كنيموس تتألف من الأمبراس

والليوكان والأناكتور، بالإضافة إلى ألف من الإسبارطيين الذين كانوا معه عند الوصول. وكان معه بعد وحدات من القوات المحلية وقوامها: ألف من الخاونيين، وهؤلاء عشيرة لا يحكمها ملك ويقودهم فوتيوس ونيكانور، وهما من الأسرة الحاكمة في هذا العام. ثم كان هناك مع الخاونيين الثيسبروط، وهؤلاء لا ملك لهم أيضاً. أما المولوص والأتينتان فكان قائدهم سابيلينثوس الوصي على الملك ثاريبس القاصر. أما البارافيون فقائدهم الملك أوررويدوس وكان معهم ألف من الأورستيين، وهؤلاء رعايا الملك أنطيوخوس، الذي جعلهم بإمرة أوررويدوس. كذلك أرسل بيرديكاس دون أن يكشف عن نواياه للأثينيين ألف مقدوني، وصلوا متأخرين فلم يشاركوا في الحملة. وهكذا شرع كنيموس في مسيرته، دون أن ينتظر قدوم الأسطول من كورنثة. وفيما كان رجال الحملة يمرون في آرجوس الأمفيلوخية قاموا بنهب قرية ليمنيا، وكانت بلا تحصين، ثم بلغوا قبالة أستراتوس، أكبر بلدة في أكارنانيا، واعتقادهم أنهم إن تمكنوا من الاستيلاء عليها أولاً فإن بقية البلاد سوف تسقط بيسر في أيديهم.

ولما رأى الأكارنان أنهم يتعرضون للغزو براً من جيش ضخم وقدروا أنهم سيواجهون قريباً بأسطول معاد من جهة البحر، ظلوا على مواقعهم ولم يجمعوا قواهم للدفاع، وكل منهم يقوم على حماية منطقته. وأرسلوا إلى فورميو يطلبون العون، لكنه رد عليهم بأنه لا يستطيع في تلك اللحظة أن يدع نوبكتوس دون دفاع وهناك أسطول معاد يوشك على الإبحار من كورنثة. وفي تلك الأثناء كان البيلوبونيز وحلفاؤهم يزحفون في ثلاث فرق للاستيلاء على أستراتوس. وكان عزمهم أن يعسكروا قريباً من المدينة، فإذا فشلوا في استمالتها بالمفاوضة هاجموا تحصيناتها. وكان تشكيلهم أثناء الزحف يجعل الخاونيين والقوات المحلية الأخرى في القلب، وعلى الميمنة الليوكاد والأناكتور ومن حالفهم، وعلى الميسرة كنيموس ومعه البيلوبونيز والامبراس. وكان ثمة فجوة كبيرة تفصل بين هذه الفرق ما يجعلهم لا يرى بعضهم بعضاً أحياناً. وتقدم الهيلينيون في نظام حسن، وقد

حرصوا على الاستطلاع الجيد، حتى أقاموا معسكرهم في موقع مناسب. غير أن الثقة بالنفس بلغت بالخاونيين - وهم الذين اشتهروا بنزعتهم إلى القتال وتفوقهم على كل القبائل في تلك الأصقاع - ما حملهم على الإسراع بالتقدم مع القوات المحلية الأخرى، اعتقاداً منهم بأنهم سيتمكنون من الاستيلاء على البلدة في ضربة واحدة، وبذلك يكون لهم الفضل في المعركة كلها.

ولما أدرك الأستراتوسيون بأن هؤلاء مازالوا يتابعون تقدمهم توصلوا إلى استنتاج بأنهم إن استطاعوا هزم هذه الفرقة المنعزلة من الجيش فإن الهيلينيين في القوات لن يقووا في الأرجح على مهاجمتهم لاحقاً. لذلك نصبوا كمائن حول المدينة، فلما اقترب الخاونيون شنوا عليهم هجوماً مركزاً من المدينة ذاتها والكمائن معاً فأثار هذا الهجوم الذعر في صفوف الخاونيين، وسقط منهم عدد كبير من القتلى، ولما شاهدتهم القوات المحلية المرافقة لهم يبتعدون ويفسحون المجال للمهاجمين توقفوا بدورهم عن القتال وانطلقوا هاربين. وكانت الفرقتان الباقيتان لا تدريان بالمعركة الجارية لأن الخاونيين كانوا يتقدمونهم بعيداً عنهم، وذهبت الظنون يومئذ إلى أنهم إنما كانوا يسرعون للعثور على موقع لمعسكرهم. ولكن حينما جاءهم الجيش المكون من أهل المنطقة مسرعاً في هربه أخذوهم إلى ما وراء خطوطهم، ثم ضموا الفرقتين معاً ومكثوا هناك طوال اليوم. أما الأستراتوسيين فلم يقتربوا منهم؛ لأن التعزيزات لم تكن قد وصلتهم بعد من بقية أكارنانيا، غير أنهم ظلوا على مناوشتهم لهم عن بعد بالمقاليع وعرقلوا حركتهم على هذا النحو؛ لأنه كان يستحيل عليهم التحرك إلا تحت تغطية بالأسلحة. والحق أن الأكارنانيين كان لهم الأثر العظيم باتباعهم هذا الشكل من الحرب.

وما إن حل الليل حتى تراجع كنيموس بجيشه على عجل إلى نهر الأنابوس الذي يبعد نحو تسعة أميال عن استراتوس. وفي اليوم التالي استعاد جثث القتلى من جيشه

بعد عقد الهدنة. وكانت عشيرة الأونيداي الصديقة معه، واستطاع الانسحاب عبر أراضي هذه العشيرة قبل وصول التعزيزات من أكارنانيا ومن هناك تفرقت أفواج جيشه، وعاد كل إلى موطنه. وقد أقام أهل أستراتوس نصباً بمناسبة النصر على الخاونيين.

وفي غضون ذلك كان من المفترض أن الأسطول القادم من كورنثة والدول المتحالفة الأخرى في خليج كريسان سوف يقدم المؤازرة لكنيموس بحيث يحول دون الأكارنانيين وتقديم العون لمواطنيهم في الداخل. ولكن ذلك أمر لم يتمكن الأسطول من القيام به. وفي نحو ذلك الوقت تقريباً الذي فرضت فيه المعركة في أستراتوس، كان فورميو ومعه زهاء عشرين سفينة أثينية متأهبة في نوبكتوس.

كان فورميو قد اقتصر في عمله على مراقبة السفن المعادية وهي تبحر في الخليج، إذ كان يعتزم مهاجمتها في عرض البحر. أما الكورنث وحلفاؤهم فلم تكن تراودهم فكرة خوض معركة في البحر؛ إذ تم إعدادهم كوسائل نقل عسكرية للحملة في أكارنانيا، ولا هم كانوا يتخيلون أن تغامر عشرون سفينة بخوض معركة مع أسطولهم الذي يضم خمساً وسبعين سفينة. أما الآن فقد وجدوا وهم يبحرون بالقرب من ساحل بلادهم أن الأثينيين يبحرون على خط واحد معهم، ولما حاولوا العبور من بتراي في آخيا إلى البر المقابل، في طريقهم إلى أكارنانيا، رأوا الأثينيين يخرجون إليهم من خالكيس ونهر الأفينوس. وبالرغم من أنهم انسلوا من مراسيهم وهربوا في أثناء الليل فقد ظلوا مراقبين، واضطروا في النهاية لشق طريقهم بالقتال نصف المسافة بين الساحلين. وكان على رأس كل فوج من الأفواج التي زجت بها مختلف الدول المتحالفة قائد يختص بفوجه. أما القادة الكورنث فكانوا مخاون وإيسوقراطيس وأجاثارخيداس.

أبحر البيلوبونيز بسفنهم في تشكيل دائري، المقدمات إلى الخارج، والمؤخرات إلى الداخل. وكانت الدائرة كبيرة قدر الإمكان دون أن تترك فجوات عريضة تتيح للعدو

المناورة واختراقها، وفي داخل الدائرة وضعت القوارب الخفيفة التي كانت تشكل جزءاً من الحملة مع خمس من أسرع السفن الحربية وأفضلها تجهيزاً، وهي على استعداد دائم للبروز ونجدة أي جزء من محيط الدائرة قد يتعرض للهجوم من العدو.

أما السفن الأثينية - وهي في تشكيل خطي - فراحت تطوف حول السفن البيلوبونيزية مرة بعد مرة، وتقسرهم على تقليص قطر الدائرة، بينما هي تقترب من السفن المعادية في سيرها وتتظاهر بأنها توشك على الاصطدام بها. والواقع أن الأوامر التي تلقتها تلك السفن من فورميو تقضي بألا تقوم بأي هجوم إلا عندما يصدر إشارة بذلك. وكان يتوقع أن السفن الحربية لن تحافظ على تشكيلها ولا بد من أن يصطدم بعضها بعض، شأنها في ذلك شأن القوات البرية، ولا بد أن تزيد القوارب الصغرى في الاضطراب والفوضى، وكان ينتظر بعدُ وهو يطوف حول السواحل البيلوبونيزية أن تهب رياح الخليج، كعادتها عند الفجر، وإذا هبت فسوف يكون ذلك مصدراً للمتاعب للعدو. وكان رأيه أنه مادام يتمتع بسفن أفضل مما لدى العدو فيستطيع المبادرة بالهجوم متى شاء، وذهب إلى أن اللحظة الفضلى للهجوم هي عند اشتداد الريح. فلما هبت الريح اضطرب البيلوبونيز وتزاحموا واحتشدوا، ولما كان عليهم التعامل مع الريح والسفن الصغرى، فقد اشتد بهم الاضطراب والفوضى. وتصادمت السفن حتى أن البحارة اضطروا لدفعها بالزانات لإبعاد بعضها عن بعض؛ وكان يستحيل مع تعالي الأصوات بالغضب والشتائم واللعنات من سفينة لأخرى سماع ما يقوله القباطنة وما يصدرون من أوامر إلى البحارة؛ ولما كان هؤلاء يفتقرون للخبرة فقد ظلوا يعانون الأمرّيْن في التعامل مع البحر الهائج بمجاذيفهم ما زاد من صعوبة سيطرة الموجهين على سفنهم. وفي تلك اللحظة أعطى فورميو الإشارة. وشن الأثينيون هجومهم، ولما أغرقوا سفن أحد أمراء البحر أولاً تابعوا هجومهم، وتمكنوا من تدمير كل سفينة صادفتهم. وفي هذا الاضطراب الذي عم ساحة المعركة توقف العدو عن المقاومة وهربت فلوله إلى بتراي ودايمة في آخاية.

فلحق بهم الأثينيون وتابعوا مطاردتهم واستولوا على اثنتي عشرة سفينة وأسروا معظم أفراد بحارتها ثم أبحروا إلى موليكريوم وأقاموا نصباً على الرأس عند رايوم، وقدموا إحدى السفن إلى بوسيدون - إله البحر - ثم قفلوا عائدين إلى نوبكتوس. أما البيلوبونيز فإنهم أخذوا ما بقي من أسطولهم وأبحروا في التو على امتداد الساحل من دايمة وبتراي إلى الحوض الإيلي في سيلينة. ومرة أخرى، بعد معركة أستراتوس، وصل كنيموس من ليوكاس مع السفن التي كان مقدراً لها أن تكون جزءاً من الأسطول المشترك.

ولقد بعث الإسبارطيون الآن إلى كنيموس وأسطوله هيئة استشارية تتألف من تيموقراطيس وبراسيداس وليكوفرون، مزودة بالأوامر للاستعداد لمعركة بحرية أخرى والبلاء فيها بلاء أفضل وألا تطرد من البحر ببضع سفن. ذلك أن الإسبارطيين شق عليهم أشد المشقة إدراك ما حدث، خاصة وأن هذه كانت أول تجربة لهم يتذوقون فيها طعم الاشتباكات البحرية، ولم يكن ليخطر لهم ببال أن العلة في أسطولهم، فخلصوا إلى أن سبب الهزيمة هو الجبن، ولم يأخذوا في الحسبان الفارق الكبير بين خبرة الأثينيين الطويلة وقصر مدة التدريب الذي تلقاه بحارتهم، وهكذا كان الغضب قد استولى عليهم؛ ولذلك أرسلوا هذه الهيئة من المستشارين بدافع من الغضب.

ولما وصل هؤلاء المستشارون أخذوا يعملون بالتعاون مع كنيموس وبعثوا إلى مختلف الدول يطلبون مزيداً من السفن، ثم أعادوا تجهيز السفن المتوفرة لتكون مستعدة للقتال في البحر. كذلك أرسل فورميو رسلاً إلى أثينا يعلمها بالاستعدادات التي يتخذها العدو ويخبرها بالمعركة التي كان له الفوز فيها. فأرسل له الأثينيون عشرين سفينة، ولكن بتوجيه إلى قائدها بالإبحار أولاً إلى كريت. وكان السبب في ذلك أن نيسياس - وكان من جورتين في كريت ويمثل الأثينيين فيها - قد أقنعهم بالهجوم على سيدونيا، وهي مدينة معارضة لأثينا، بحجة كسبها إلى صفهم. والحق أنه كان يهدف من وراء ذلك

كله إلى خدمة البوليخنتيين، وهم جيران السيدونيين. وهكذا ركب البحر مع هذا الأسطول متوجهاً إلى كريت، فعملوا دماراً وخراباً في البلاد، يساعدهم في ذلك البوليخنتيون. وهبت في تلك الأثناء رياح عاتية أدت إلى تبديد الكثير من الوقت.

وفيما كان الأثينيون قد تأخروا في كريت، قام البيلوبونيز في سيلينة الذين استعدوا أتم الاستعداد للمعركة بالإبحار على امتداد الشاطئ إلى بانورموس في آخاية حيث كان جيشهم قد زحف ليقدم له الدعم. كذلك كان فورميو قد أبحر أيضاً على امتداد الساحل المقابل إلى رايوم الموليكريانية، حيث ألقى مراسي السفن العشرين التي خاض بها المعركة السابقة خارج هذا الموقع. وكانت رايوم هذه صديقة لأثينا. أما رايوم الأخرى – وهي في البيلوبونيز – فتقع قبالتها، ويفصل بين الاثنتين مسافة ثلاثة أرباع الميل من البحر، وتشكل مدخل الخليج الكريساني. وفي رايوم هذه في آخاية – وهي لا تبعد كثيراً عن بانورموس، حيث كان جيش البيلوبونيز – رست سفنهم السبع والسبعون وشاهدوا الأثينيين يلقون مراسيهم قبالتهم.

وظل الطرفان مرابطين هكذا، كل في موقعه مقابل الآخر طوال ستة أو سبعة أيام، يتدرب ويتهيأ استعداداً للمعركة. وكانت خطة أحدهما تقضي بألا يخرج من قناة رايوم إلى عرض البحر خوفاً من أن تتكرر تجربته السابقة. وأما الطرف الآخر فكان لا يريد الخوض في المجاري الضيقة، اعتقاداً منه بأن العدو يفيد من المعركة إن جرت في مجال ضيق. وكان كنيموس وبراسيداس يريدان والقادة البيلوبونيز الآخرين البدء بالمعركة في أسرع وقت قبل أن تصل إلى الخصم التعزيزات من أثينا، لكنهم لاحظوا أن الوهن قد أصاب عزيمة معظم الرجال بعد هزيمتهم في المعركة السابقة، ولم يجدوا فيهم أي قدر من الإقبال على خوض المعركة المعتزمة. لذلك دعا هؤلاء القادة المحاربين إلى اجتماع، وسعوا إلى رفع معنوياتهم بمناشدتهم على النحو التالي:

"أيها البيلوبونيز ، إن كان منكم من يخشى أن يصادف في المعركة التي سنخوضها الآن ما صادف في تلك السابقة فليعلم إذن أن ليس ثمة سبب قوي يبرر هذا الخوف . ففي المعركة السابقة لم نكن، كما تعلمون، مستعدين لها كما ينبغي أن يكون الاستعداد، ولا كنا قد أعددنا أنفسنا لمعركة بحرية، وإنما لحملة برية. وقد صادف بعد أن كان جلّ الحظ يجري عكس ما نشتهي، ولربما كان من أسباب فشلنا في أول معركة بحرية نخوضها افتقارنا للخبرة في حروب البحر. وإذن فلم نهزم لجبن بنا، ولا ينبغي أن نفقد تفوق عزيمتنا بسبب تلك الحادثة، وأنتم تعلمون أنه لم تلن لنا من قبل قناة، ومازال لدينا الكثير من قوة العزيمة لتشهد على حالنا، بل الأحرى بنا أن نتذكر أن الأحداث تعرُض لكل الرجال، لكن الشجاعة الحقيقية تبقى راسخة ولا تنال منها الوقائع العارضة، ومن كانت لديه الشجاعة لا يتذرع بافتقاره للخبرة وإنما يظهر معدنه الجسور. وقد تفتقدون ما للعدو من الخبرة ولكن جرأتكم تفوق ما لدى العدو منها وتعوض من هذا النقص وتزيد. أما مهارتهم هذه – وهي أشد ما تخشون – فلن تجدي شيئاً إلا إذا اجتمعت معها الشجاعة. فإذا وقعت الواقعة تذكروا في ساعة الشدة ما سبق أن تعلموا ما ينبغي عليهم عمله. أما إذ افتقد المرء شجاعة الفؤاد فلن تجدي معه كل ما في العالم من المهارة في مواجهة الخطر؛ ذلك أن الخوف يطرد من الذاكرة كل ما تلقاه المرء من دروس، وبدون إرادة المقاومة لن يكون للمهارة جدوى. وهكذا عليكم حين تفكرون بخبرتهم الأوسع من خبرتكم أن تأخذوا في الحسبان ما تتمتعون به من شجاعة تفوق شجاعتهم، وعليكم أن تتذكروا عندما تشعرون بالخوف بسبب الهزيمة التي تكبدتموها أنكم إنما أُخذتم يومذاك على حين غرة وكنتم غير مستعدين. وهناك مزايا ذات بال تتمتعون بها ؛ فلديكم أسطول أضخم مما لديهم، ثم إنكم تقاتلون متكئين على سواحل بلادكم حيث يقف المشاة الثقيلة متأهبين لمساندتكم ، والقاعدة تقول: إن الطرف الذي يفوز هو الطرف الذي يتمتع بكثرة العدد والعتاد. وإذن فليس هناك سبب واحد

يجعلكم تخسرون المعركة. بل إن ما ارتكبتموه من الأخطاء هي الآن عامل في مصلحتكم، فمن هذه الأخطاء نتعلم، وهي عظة. إننا نتوقع من قادة السفن والبحارة سواء بسواء أن يؤدوا واجبهم بروح من مبدأ الثقة والاعتداد، فلا يغادر أحدهم موقعه المكلف به. وثقوا بأننا لن نكون أقل كفاءة من قادتكم الذين أخذنا القيادة عنهم. ولسوف نعد للمعركة على نحو لا يدع لامرئ عذراً للتظاهر بالجبن. فإذا ما شاء أحدكم أن يتكلف هذا الوضع فلسوف ينزل به العقاب الذي يستحق، أما المقدامون فسوف يلقون التكريم الذي يليق بالشجاعة.

على هذا النحو كان القادة البيلوبونيز يشجعون رجالهم. وكان فورميو أيضاً يزيد القلق من المعنويات السائدة بين رجاله؛ ذلك أنه وجدهم يتجمعون في جماعات فيما بينهم، وكان واضحاً أنهم يخشون كثرة عدد الطرف الآخر. فما كان منه إلا أن دعاهم ليبث فيهم روح الشجاعة اللازمة ويقدم لهم النصح لمواجهة الظروف المستجدة، وهو الذي اعتاد أن يخاطبهم من قبل في شؤونهم، وقد أقنعهم بأن ليس ثمة أسطول مهما كان عظيماً إلا ويستطيعون مواجهته في المعركة، وظل بحارته عهداً طويلاً يزهون بأنهم، كأثينيين، لن يتراجعوا أمام سفن البيلوبونيز مهما بلغ عددها. أما الآن فقد أدركوا أن للمشهد أمام أعين الرجال أثره في تثبيط هممهم وخطر بباله عندئذ أن يعيد الثقة للنفوس الخائرة. ودعا إليه جمع الأثينيين، ورا [illegible] هم:

"أراكم يا رجالي قد فزعتم من كثرة ال[illegible] وت[illegible] الاجتماع؛ لأني لا أريد أن يغشاكم الخوف حيث لا داعي ل[illegible] [illegible] على تجهيز هذا العدد الكبير [illegible] السفن، وما [illegible] سبق لهم أن هُزموا من قبل، [illegible] لا يرون [illegible] بالنفس في مواجهتنا هو [illegible] لديهم [illegible] ان هذا

الاعتقاد المطمئن إنما يقوم على خبرتهم في القتال على اليابسة التي مكنتهم من تحقيق العديد من الانتصارات، ويعتقدون أن خبرتهم هذه سوف يفيدون منها في البحر كما أفادتهم في البر، وهم قطعاً ليسوا أكثر شجاعة منا، أما الثقة بالنفس فكلانا سواء في هذا الإحساس مع الأخذ بعين الاعتبار ما نتمتع به من خبرة عظيمة. ثم إن قادتهم الإسبارطيين إنما يعملون من أجل شرف إسبارطة، ومعظم رجالهم يسيرون إلى وسط الأخطار رغماً عنهم، وإلا ما كانوا ليقبلوا مواجهة احتمال خوض معركة بحرية أخرى بعد الهزيمة الكبرى التي لحقت بهم قبل حين. وإذن فليس ثمة ما يدعوكم للخوف من أن يظهروا جرأة أعظم مما خبرتم منهم. والحق أن هؤلاء يخافونكم لسبب وجيه، فقد سبق لكم أن هزمتموهم، وهم يعتقدون أنكم ما كنتم لتظهروا لهم لو لم تكونوا قد دبرتم لهم أمراً يليق بالمناسبة. وعندما يكون أحد الطرفين يتفوق على الطرف الآخر عدداً كما هو حال عدونا، فإنه يعتمد في هجومه على القوة لا على التدبير والحزم. أما إذا قبل الطرف الآخر التحدي وهو أقل عتاداً، دون أن يكون ثمة ما يجبره على قبول هذا التحدي، فمعنى ذلك أن هذا الطرف قد دبّر لخصمه أمراً عظيماً وخطيراً. وهذا ما يجيل فيه أعداؤنا الفكر، وهم أشد خشية من مفاجأتهم بعمل لا يخطر بالبال مما لو كانوا سيقابلوننا ونحن متماثلون في العدد والعتاد. فلقد عرفنا قوات عظيمة هزمت في الماضي على يد قوات قليلة، لافتقادها hالمهارة وأحياناً لافتقارها للجرأة. ونحن لا نفتقر لهذه ولا نفتقد لتلك.

"وأما المعركة فإني لن أقاتل في الخليج، إن أمكنني ذلك، ولن أبحر فيه كذلك وأنا أدرك تماماً أن ضيق المجال عقبة أمام تشكيل سريع وصغير وذي خبرة يقاتل مع سفن عديدة سيئة الإدارة. والمرء لا يستطيع الإبحار على الوجه السليم ليشن هجوماً بالسرعة القصوى، إلا إذا كانت لديه نظرة بعيدة المدى إلى العدو، ولا يملك المرء أن يتراجع في اللحظة المناسبة إذا كان قد وجد نفسه في وضع لا يملك أن يدفعه عنه، كذلك يستحيل

يجعلكم تخسرون المعركة. بل إن ما ارتكبتموه من الأخطاء هي الآن عامل في مصلحتكم، فمن هذه الأخطاء نتعلم، وهي عظة. إننا نتوقع من قادة السفن والبحارة سواء بسواء أن يؤدوا واجبهم بروح من مبدأ الثقة والاعتداد، فلا يغادر أحدهم موقعه المكلف به. وثقوا بأننا لن نكون أقل كفاءة من قادتكم الذين أخذنا القيادة عنهم، ولسوف نعد للمعركة على نحو لا يدع لامرئ عذراً للتظاهر بالجبن. فإذا ما شاء أحدكم أن يتكلف هذا الوضع فلسوف ينزل به العقاب الذي يستحق، أما المقدامون فلسوف يلقون التكريم الذي يليق بالشجاعة.

على هذا النحو كان القادة البيلوبونيز يشجعون رجالهم. وكان فورميو أيضاً يراوده القلق من المعنويات السائدة بين رجاله؛ ذلك أنه وجدهم يتجمعون في جماعات فيما بينهم، وكان واضحاً أنهم يخشون كثرة عدد الطرف الآخر. فما كان منه إلا أن دعاهم ليبث فيهم روح الشجاعة اللازمة ويقدم لهم النصح لمواجهة الظروف المستجدة، وهو الذي اعتاد أن يخاطبهم من قبل في شؤونهم، وقد أقنعهم بأن ليس ثمة أسطول مهما كان عظيماً إلا ويستطيعون مواجهته في المعركة، وظل بحارته عهداً طويلاً يزهون بأنهم، كأثينيين، لن يتراجعوا أمام سفن البيلوبونيز مهما بلغ عددها. أما الآن فقد أدركوا بأن للمشهد أمام أعين الرجال أثره في تثبيط هممهم وخطر بباله عندئذ أن يعيد الثقة للنفوس الخائرة. ودعا إليه جمع الأثينيين، وراح يخاطبهم:

"أراكم يا رجالي قد فزعتم من كثرة الأعداء فدعوتكم إلى هذا الاجتماع؛ لأني لا أريد أن يغشاكم الخوف حيث لا داعي له. فأقول لكم بادئ ذي بدء أن ما حملهم على تجهيز هذا العدد الكبير من السفن، وما جعلهم لا يبرزون لنا بمثل عددنا هو أنه سبق لهم أن هُزموا من قبل، وحتى إنهم لا يرون أنفسهم أنداداً لنا. وما يمنحهم أشد الثقة بالنفس في مواجهتنا هو تصورهم بأن لديهم ضرباً من احتكار الشجاعة، ومع ذلك فإن هذا

الاعتقاد المطمئن إنما يقوم على خبرتهم في القتال على اليابسة التي مكنتهم من تحقيق العديد من الانتصارات، ويعتقدون أن خبرتهم هذه سوف يفيدون منها في البحر كما أفادتهم في البر، وهم قطعاً ليسوا أكثر شجاعة منا، أما الثقة بالنفس فكلانا سواء في هذا الإحساس مع الأخذ بعين الاعتبار ما نتمتع به من خبرة عظيمة. ثم إن قادتهم الإسبارطيين إنما يعملون من أجل شرف إسبارطة، ومعظم رجالهم يسيرون إلى وسط الأخطار رغماً عنهم، وإلا ما كانوا ليقبلوا مواجهة احتمال خوض معركة بحرية أخرى بعد الهزيمة الكبرى التي لحقت بهم قبل حين. وإذن فليس ثمة ما يدعوكم للخوف من أن يظهروا جرأة أعظم مما خبرتم منهم. والحق أن هؤلاء يخافونكم لسبب وجيه، فقد سبق لكم أن هزمتموهم، وهم يعتقدون أنكم ما كنتم لتظهروا لهم لو لم تكونوا قد دبرتم لهم أمراً يليق بالمناسبة. وعندما يكون أحد الطرفين يتفوق على الطرف الآخر عدداً كما هو حال عدونا، فإنه يعتمد في هجومه على القوة لا على التدبير والحزم. أما إذا قبل الطرف الآخر التحدي وهو أقل عتاداً، دون أن يكون ثمة ما يجبره على قبول هذا التحدي، فمعنى ذلك أن هذا الطرف قد دبّر لخصمه أمراً عظيماً وخطيراً. وهذا ما يجيل فيه أعداؤنا الفكر، وهم أشد خشية من مفاجأتهم بعمل لا يخطر بالبال مما لو كانوا سيقابلوننا ونحن متماثلون في العدد والعتاد. فلقد عرفنا قوات عظيمة هزمت في الماضي على يد قوات قليلة، لافتقادها hالمهارة وأحياناً لافتقارها للجرأة. ونحن لا نفتقر لهذه ولا نفتقد لتلك.

"وأما المعركة فإني لن أقاتل في الخليج، إن أمكنني ذلك، ولن أبحر فيه كذلك وأنا أدرك تماماً أن ضيق المجال عقبة أمام تشكيل سريع وصغير وذي خبرة يقاتل مع سفن عديدة سيئة الإدارة. والمرء لا يستطيع الإبحار على الوجه السليم ليشن هجوماً بالسرعة القصوى، إلا إذا كانت لديه نظرة بعيدة المدى إلى العدو، ولا يملك المرء أن يتراجع في اللحظة المناسبة إذا كان قد وجد نفسه في وضع لا يملك أن يدفعه عنه، كذلك يستحيل

اختراق خط العدو ثم الالتفاف والعودة إليه ثانية، وهذه هي الأساليب السليمة وسمة الأسطول الذي يمتلك قياد البحر. والمرء يضطر بدلاً من ذلك لخوض المعركة البحرية وكأنما هي معركة برية، والكفة ترجح في مثل هذه الظروف لمن كان لديه العدد الأكبر من القوات. وإذن فلكم أن تثقوا بأني سوف أتابع هذه الأمور بالرصد قدر ما أعانتني قدراتي. أما أنتم فعليكم بملازمة مواقعكم في سفنكم، واحرصوا على النظام وكونوا يقظين، ترصدون كل أمر. وهذا أمر بالغ الأهمية؛ لأن الأعداء سوف يلقون مراسيهم بقربنا. وإذا انتقلنا إلى العمل فضعوا ثقتكم بالنظام والصمت، وهذان أمران لهما خطرهما في كل ضرب من الحرب، وخاصة في المعركة البحرية. فاظهروا للعدو وتصدوا له على صورة جديرة بتاريخكم في القتال. إن هناك الكثير مما يترتب عليكم في هذا الصراع ، فإما أن تقضوا على آمال العدو بامتلاك السيادة على البحر، وإما أن تجعلوا مخاوف الأثينيين من البحر ترسخ. فدعوني أذكركم مرة أخرى بأنه سبق لكم أن دحرتم معظم أسطول العدو، فاعلموا إذن أن المهزومين لا يبقون على عزيمتهم ذاتها حين تصادفهم الأخطار ذاتها في المرة الثانية" .

وهكذا قام فورميو بإشعال الحماس في قلوب رجاله أيضاً. ولما امتنع الأثينيون عن دخول مياه الخليج الضيق، أراد البيلوبونيز فرض ذلك عليهم، أحبوا أم كرهوا. ولذلك خرجوا عند الفجر وأبحرت سفنهم في أربعة خطوط وساحل البيلوبونيز وراءهم، وأخذوا يبحرون متوغلين داخل الخليج، يقودهم جناحهم الأيمن بذات الترتيب الذي ألقوا فيه مراسيهم. وقد وضعوا حينئذ في هذا الجناح عشرين من أسرع سفنهم وأفضلها، وما حفّزهم على هذا اعتقادهم بأن فورميو سيلحق بهم، ظناً منه أنهم يتجهون إلى نوبكتوس، فتقوم سفن الجناح الأيمن بقطع الطريق على الأثينيين ومنعهم من اختراق خط البيلوبونيز الذين سيلتفتون ويهاجمونهم. وقد حصل ما توقعوه إذ خشي فورميو أن تتهدد سلامة الموقع الذي ترك بلا حامية، ولذلك حين وجدهم يخرجون أسرع رغم

إرادته بالإبحار على امتداد ساحله بينما كانت قوات برية من الميسينيين تزحف موازية لتقديم الدعم له.

وإذ رأى البيلوبونيز الأثينيين يبحرون على امتداد الساحل في صف واحد وقد دخلوا الخليج وعلى مقربة من البر – وهذا ما كانوا ينشدونه – التفتوا فجأة وهاجموا الخط الأثيني، وكل سفينة تسير بأقصى ما تملك من السرعة لتقطع الطريق أمام الأسطول الأثيني. غير أن السفن الإحدى عشرة في المقدمة استطاعت الهرب من الجناح البيلوبونيزي واستدارته السريعة وبلغت عرض البحر. أما السفن الأخرى فقد وقعت في الفخ، فضيق عليها الخناق ودفع بها إلى الشاطئ، وتم تحييدها عن العمل، وقد قُتل من الأثينيين كل من لم يسبح ويبلغ الشاطئ، وقام البيلوبونيز بسحب بعض السفن فارغة، كما استولوا على إحداها وعليها بحارتها، إلا أن بعضها الذي تمَّ سحبه أنقذ على يد الميسينيين الذين هرعوا إلى البحر بأسلحتهم وركبوا السفن وراحوا يقاتلون من فوق أسطحها.

هنا كان النصر إذن حليف البيلوبونيز، دمروا السفن الأثينية التي اعترضتهم. وفي تلك الأثناء كانت السفن العشرون من جناحهم تطارد السفن الأثينية الإحدى عشرة التي نجت من حركة الاستدارة في عرض البحر. وقد أفلتت هذه السفن الإحدى عشرة جميعها عدا واحدة، ووصلت نوبكتوس حيث تجمعت عند معبد أبولو ومقدماتها تتوجه نحو العدو، مستعدة للدفاع عن النفس إذا ما هاجمها البيلوبونيز. وسرعان ما لحق هؤلاء بها وهم ينشدون نشيد النصر وقد تراصت صفوفهم. وكانت تتقدمهم على مرحلة سفينة من ليوكاس وهي تطارد سفينة أثينية كانت السفن الأخرى قد سبقتها وخلفتها وراءها. وقد صادف أن كانت إحدى السفن التجارية راسية بعيداً عن الشاطئ، فقامت السفينة الأثينية بالدوران حولها، ثم صدمت السفينة الليوكاسية التي كانت

تطاردها وأغرقتها. وكانت تلك حركة مفاجئة أخذتهم على حين غرة في لحظة كانت نشوة النصر قد استبدت بهم، وهم يبحرون في غير انتظام فأسقط بعضهم المجاذيف وفقدوا اتجاههم ليتيحوا لبقية السفن أن تلحق بهم ، وكان ذلك ينطوي على خطورة كبيرة نظراً لقرب الأثينيين منهم وهم على استعداد للهجوم، بينما نزل الآخرون في المياه الضحلة، بسبب جهلهم بطبيعة الساحل.

ولما رأى الأثينيون مجرى الأمور انتعشت نفوسهم واستعادوا ثقتهم، فأطلقوا صرخة بصوت واحد وانقضوا على أعدائهم. ولم يبد البيلوبونيز بعد ما ارتكبوه من الأخطاء وبسبب ما كانوا فيه من فوضى إلا مقاومة قصيرة ثم فرّوا باتجاه بانورموس التي انطلقوا منها أصلاً. واستولى الأثينيون الذين كانوا في أعقابهم على السفن الست الأقرب من متناولهم، واستعادوا سفنهم التي أعطبت في بداية المعركة بالقرب من الشاطئ، وقتلوا بعض البحارة وأسروا البعض الآخر. وكان تيمقراطيس الإسبارطي على ظهر السفينة الليوكاسية التي أُغرقت بالقرب من السفينة التجارية، فلما دمرت سفينته قتل نفسه وحملت الأمواج جثته وطفت في ميناء نوبكتوس.

وقد أقام الأثينيون عند عودتهم نصباً في الموضع الذي التفوا فيه على العدو وفازوا بالنصر، واستعادوا حطام السفن وجثث القتلى على شاطئهم وأعادوا للعدو قتلاه بعد عقد الهدنة. كذلك أقام البيلوبونيز نصباً لتخليد نصرهم في إعطاب السفن عند الشاطئ، وبالقرب من نصبهم في رايوم بآخاية، قدموا على سبيل التضحية إحدى السفن التي غنموها. بعدئذ أبحر الجميع، عدا الليوكاد، خشية وصول التعزيزات من أثينا، ودخلوا الخليج الكريساني وتابعوا طريقهم إلى كورنثة. ولم يمض إلا حين على تراجعهم حتى وصل إلى نوبكتوس الأسطول الأثيني المؤلف من عشرين سفينة من كريت الذي كان مقدراً له أن ينضم إلى فورميو قبل المعركة.

وهكذا بلغ الصيف نهايته. ولكن قبل صرف الأسطول الذي انكفأ إلى كورنثة والخليج الكريساني، وفي بداية الشتاء قرر كنيموس وبراسيداس وقادة آخرون من البيلوبونيز بناء على نصيحة الميجاريين القيام بهجوم على بيرايوس، وهي ميناء أثينا، وقد تركت مفتوحة وغير محمية، وهذا أمر طبيعي، نظراً لتفوق الأثينيين في البحر. وكانت الخطة تقضي بأن يذهب كل بحار براً من كورنثة إلى شاطئ البحر قرب أثينا، حاملاً مجذافه ووسادة الجلوس وربطة محبس المجذاف، فإذ بلغوا ذلك المكان مضوا بأسرع ما يمكن إلى ميجارا لإنزال أربعين سفينة كانت راسية في أرصفة نيساية والإبحار بعد ذلك فوراً إلى بيرايوس. وكان أولئك القادة يعلمون أنه ليس في بيرايوس أسطول يحميها. والحق أنه لم يكن لإنسان أن يتوقع قيام العدو بهجوم مباغت من هذا القبيل؛ ذلك أن الأثينيين كانوا يعتقدون بأن ليس هناك من يجرؤ على الهجوم صراحة على المرفأ بأمل ألا يلقى مقاومة، إذ لا بد من أن يُكتشف أمر المعتدي أولاً، وإن راودهم هذا الخاطر.

كانت تلك خطة البيلوبونيز فراحوا يعملون فوراً على تنفيذها. فوصلوا نيساية ليلاً ثم أنزلوا السفن إلى البحر، لكنهم لم يتوجهوا إلى بيرايوس فوراً، كما قضت الخطة أصلاً. فقد كان هؤلاء البحارة يخشون ما ينطوي عليه الأمر من خطر، وذهبوا إلى القول أيضاً: إن اتجاه الرياح عرقل الخطة. فأبحروا إلى نقطة عند سلاميس تتجه نحو ميجارا. وكان في ذلك الموقع حصن صغير ومجموعة من ثلاث سفن وضعت لاعتراض كل داخل إلى ميجارا أو خارج منها. فقاموا بالهجوم على هذه القوة، وعمدوا إلى قطر تلك السفن وهي فارغة وباغتوا سلاميس بالهجوم، وراحوا يعملون خراباً وتدميراً في أجزائها الأخرى.

وأشعلت المنارات لتحذير أثينا من هجوم معادٍ، وعمَّ المنطقة فزع شديد لا يقل عن أي حالة فزع أخرى شهدتها الحرب، إذ اعتقد الناس في المدينة أن العدو قد دخل

بيرايوس، واعتقد أهل بيرايوس أن سلاميس قد سقطت وأن الأعداء على وشك الإبحار إلى المرفأ. والحق أنه كان من اليسير عليهم القيام بذلك، لو أنهم تمالكوا أنفسهم وتغلبوا على مخاوفهم، ولا شك أن الريح لم تكن لتمنعهم من ذلك.

ولقد تجمع الأثينيون عند الفجر في بيرايوس بكامل العدة والعتاد، وأسلموا أشرعتهم للريح وانطلقوا بسرعة عظيمة وصراخ وضجيج. وتوجهوا بأسطولهم إلى سلاميس وحرسوا بقواتهم البرية مواقع الدفاع عن بيرايوس. أما البيلوبونيز فقد اجتاحوا معظم سلاميس، ولما أدركوا أن قوة المؤازرة في الطريق لنجدة المدينة أسرعوا بالعودة إلى نيساية ومعهم أسراهم وما نهبوه من المدينة والسفن الثلاث من المخفر في بوروم. وكان من أسباب خوفهم الحالة التي كانت عليها سفنهم التي لم تستخدم منذ عهد طويل بل تركت في المياه. ولما بلغ البيلوبونيز ميجارا عادوا أدراجهم براً إلى كورنثة. وكذلك قفل الأثينيون عائدين من حيث أتوا حينما لم يجدوا القوة المغيرة في سلاميس. وبعد هذا اتخذوا إجراءات تضمن حراسة أفضل لبيرايوس لئلا تتكرر تلك الواقعة مستقبلاً، من إغلاق مداخل الموانئ وسوى ذلك من الإجراءات الوقائية.

الفصل العاشر : حملة سيتالكيس في مقدونيا

عودة فورميو

في ذلك الوقت، أي في مطلع هذا الشتاء، زحف سيتالكيس بن تيريس ملك تراقية الأودريسي لمهاجمة بيرديكاس بن الإسكندر ملك مقدونيا، والخالي كيد في المنطقة التراقية. وكان غرض سيتالكيس أن يفرض تحقيق وعد كان قد قُطع له، وينجز وعداً قطعه على نفسه. وتفصيل ذلك أن بيرديكاس كان يعاني عند بداية الحرب بعض المصاعب، فارتبط بعهد لسيتالكيس مقابل أن يصلح ما بينه وبين الأثينيين ويمتنع عن تسليم أخيه فيليب العرش، وكان هذا يناهضه؛ لكن بيرديكاس لم يبر بالعهد الذي قطعه. ثم وافق سيتالكيس الأثينيين – حين تحالف وإياهم – على وضع نهاية للحرب الخاليكيدية في تراقية. وإذن فقد كان لديه سببان للقيام بهذه الحملة. فاصطحب معه فيها أمينتاس بن فيليب، لينصبه ملكاً على مقدونيا، فضلاً عن بعض السفراء الأثينين، الذين صادف أن كانوا يقومون في تلك الأثناء بزيارته لهذا الغرض، وهاجنون ليتولى قيادة الجيش، إذ كان يفترض بالأثينيين أن يؤازروه في حملته على الخاليكيد بأسطول وأكبر عدد ممكن من القوات.

وقد بدأ بالأودريسيين أولاً، واستدعى القبائل التراقية الخاضعة له في المنطقة بين جبلي هايموس ورودوبة حتى البحر، ثم طلب قبيلة الجيطاي على الجانب الآخر من هايموس والعشائر الأخرى التي تعيش جنوب نهر الدانوب وأكثرها في نواحي بحر أوشينة – الأسود– وهؤلاء الجيطاي والعشائر الأخرى جيران للسكيث وسلاحهم واحد، وكلهم رماة من على ظهور الخيل. كما استنفر عدداً من القبائل المستقلة التي تسكن التلال التراقية وسلاحهم السيف، ويعرفون بالدايين، ومعظمهم يعيشون في جبل رودوبة. فتبعه بعضهم كجنود مرتزقة بينما التحق به البعض طواعية. ثم استدعى الأجريان والليان والبايون الخاضعين لسيطرته. وتقيم هذه القبائل في الأطراف البعيدة من

إمبراطوريته وأقصاهم الليان والبايون ويحدهم نهر الستريمون الذي ينبع من جبل أسكمبروس ويجري في منطقة الأجريان والليان، وما بعدهم أرض البايون المستقلين. وباتجاه التريبال وهم قبيلة مستقلة أيضاً، يحد إمبراطوريته التريريس والتيلاتاي شمال جبل اسكمبروس وتمتد غرباً حتى نهر أوسكيوس الذي ينبع من الجبال ذاتها التي ينبع منها نهر النيستوس والهيبروس. وهذه سلسلة جبلية تكاد تخلو من السكان، وتتصل بجبل رودوبة.

وكان للإمبراطورية الأودريسية ساحل يمتد من أبديرا حتى مصب الدانوب في بحر أوشينة. وتستغرق الرحلة على امتداد الساحل بالسفينة التجارية بسلوك الطريق الأقصر واتباع الريح أربعة أيام بلياليها، أما براً فإن المسافر من أبديرا إلى الدانوب يستغرق أحد عشر يوماً، إذا ركب الطريق الأقصر والأسرع. أما السفر في الداخل فإن الرحلة تستغرق ثلاثة عشر يوماً من بيزنطة إلى الليان ونهر ستريمون، وهو أبعد نقطة في الداخل. وقد بلغ مجموع الإتاوات في عهد خلف سيتالكيس، سيوثيز الذي رفعها إلى أقصى حد، وهي حصيلة الواردات من أقاليم البلاد والمدن الإغريقية نحو أربعمئة تالنت كانت من الذهب والفضة، وما يعادل ذلك من الذهب والفضة على سبيل الهدية فضلاً عن المنسوجات العادية والمطرزة وغير ذلك من الأشياء. ولم تكن هذه الهدايا تقدم للملك وحده وإنما لكبار الأودريس وأعيانهم أيضاً. والحق أن العادة جرت هنا وبين التراقيين الآخرين أيضاً على نقيض ما هو شائع في مملكة فارس؛ فالعرف السائد هنا هو تفضيل الأخذ على العطاء، وكان من العار أن يقصر المرء في تقديم الهدية إن طلبت منه، أكثر مما لو طلب المرء الهدية ولم تُعط له. وهذا شاهد على قوة الأودريس التي جعلت هذه العادة شائعة بينهم وتكاد تقتصر عليهم، إذ كان من المستحيل أن ينجز المرء شيئاً قبل أن يقدم أولاً الهدية. وهكذا كانت أودريسيا مملكة قوية ذات شأن. وكانت قدراتها المالية والرخاء الذي تنعم به الأعظم بين كافة الدول الأوروبية التي تقع بين خليج أيونية وبحر أوشينة،

وإن كانت من حيث القوة وضخامة قواتها المسلحة قطعاً دون السكيث، الذين كانوا بالمقارنة أضخم من أي شعب أوربي. والواقع أنه لو اتحد السكيث لما استطاع قوم حتى في آسيا أن يتصدى لهم وحده، وإن كانوا طبعاً دون الوسط من حيث مقدرتهم على حسن حكم أنفسهم واستخدام ثرواتهم استخداماً حصيفاً.

ولتلك الأسباب غدا سيتالكيس الذي كان يعد العدة للغزو ملكاً لإمبراطورية عظيمة. فلما أصبحت الأمور كلها مهيأة خرج للزحف على مقدونيا، فقطع أولاً أراضي بلده ثم سلسلة جبال السيرسين غير المأهولة والتي تشكل الحد بين السنتيان والبايون. وذلك عبر طريق يمر بالغابات كان قد شقّه حين كان يقاتل البايون. وبعد أن قطع هذه السلسلة من الجبال من أراضي الأودريس أصبح البايون عن يمينه والسنتيان والمديان عن يساره. وعلى الجانب الآخر من الجبال وصلوا دوبيروس في بايونيا، ولم يفقد الجيش طوال زحفه أحداً من رجاله، إلا من مات بمرض. بل ازداد عدده في الواقع، إذ التحق به الكثير من التراقيين المستقلين طواعية بأمل أن يكون لهم نصيب من النهب والسلب، حتى بلغ تعداده، على ما قيل، مئة وخمسين ألف رجل. وكان معظم هذه القوة من المشاة، والثلث فقط من الفرسان، وأغلب هؤلاء من الأودريس والجيطاي. أما الأشد شراسة بين المشاة فهم حملة السيوف المستقلون الذين نزلوا من جبل رودوبة. وكانت قوة بقية الحشد الذي تبعه أساساً في الأعداد الغفيرة التي ضمها.

وقد اجتمعت هذه القوة في دوبيروس وتهيأت للنزول من الجبال إلى مملكة بيرديكاس في مقدونيا السفلى. وكان في الداخل أقوام من المقدونيين أيضاً واللينسيست والأليميوت وقبائل أخرى ، وهم حلفاء وموالون للملك المقدوني، لهم ملوك يختصون بهم أيضاً ، وكان هذا الجزء من البلاد على الساحل، والمعروف بمقدونيا، قد حازه الإسكندر، والد بيرديكاس وأسلافه، وهم تيمونيديون من آرجوس أصلاً، وأصبحوا ملوكاً بعد دحر البيريين وطردهم من بيريا، وقد استوطن هؤلاء فيما بعد فاجريس

ومناطق أخرى أسفل جبل بنجايوس وراء نهر الستريمون. ومازالت الأرض الواقعة ما بين البحر وأسفل سفوح بنجايوس تدعى الخليج البيرياني. وقد طردوا معهم البوتيان (وهم جيران الخاليكيد الآن- من بوتيايا. كذلك حازوا شريطاً ضيقاً من الأرض في بايونيا على طرف نهر الأكسيوس، ويمتد هذا الشريط من الجبال حتى بيلاّ والبحر. كما أنهم دحروا الأيدونيين، وخضعت لهم المنطقة التي تسمى مجدونية وتقع بين الأكسيوس والستريمون. كما طردوا اليورديين من المنطقة التي يطلق عليها اسم يورديا، وقد قتل معظم هؤلاء، وإن مازالت هناك قلة منهم تعيش حول فيسكا. كما طردوا الآلموب من آلموبية. وغلب المقدونيون القادمون من مقدونيا السفلى بعد على أراض ومناطق كانت تختص بها قبائل أخرى وهي أنتيموس وكريستونيا وبستاليتا ومساحات واسعة من مقدونيا العليا - مازالت في ملكهم. وأصبحت تعرف المنطقة كلها الآن باسم مقدونيا، وكان برديكاس بن الاسكندر الملك عليها يوم قام سيتالكيس بغزوها.

وقد عجز المقدونيون عن التصدي لأعدائهم، وهم يواجهون جيشاً ضخماً لا قبل لهم به، فتراجعوا إلى شتى المواقع والحصون القائمة في البلاد، ولم تكن بالكثيرة، فالحصون الموجودة في مقدونيا الآن كانت قد بنيت في وقت لاحق على يد أرخيلاوس بن بيرديكاس عند توليه الملك. كما شقّ أرخيلاوس هذا طرقاً مستقيمة في البلاد كلها، وأعاد تنظيم الفرسان وقام بتسليح المشاة، ووفر التجهيزات عموماً لتكون البلاد في وضع أقوى لخوض الحرب مما كانت عليه تحت حكم أي من الملوك الثمانية الذين سبقوه.

وكان أول ما قام به الجيش التراقي بعد ما تحرك من دوبيروس أن غزا الأرض التي كانت ملكاً لفيليب، فأخذ أيدومينة عنوة، ثم انضمت إليهم جورتينيا، وأتلانتا وبعض المناطق الأخرى صلحاً بدافع من الإخلاص لابن فيليب أمينتاس الذي كان مع سيتالكيس. وقاموا بعدئذ بحصار أوروبوس، ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء عليها.

وبعد هذا تقدم سيتالكيس في مناطق أخرى من مقدونيا إلى اليسار من بيلا وكوروس. ولم يتقدم الجيش أبعد من ذلك ليستولي على بوتيايا وبيريا، إنما ذهب يعمل خراباً بمجدونية وكريستونيا وأنثيموس. ولم يكن ليخطر ببال المقدونيين طوال هذا أن يتصدوا لهم بالمشاة، بل ذهبوا يطلبون من حلفائهم في الداخل المزيد من التعزيزات بالخيالة، وبالرغم من قلة عددهم، أخذوا يدفعون بهم في مهاجمة الجيش التراقي كلما لاحت لهم الفرصة. ولم يكن هناك من يستطيع الصمود أمام هجمات هؤلاء نظراً لتفوقهم في الفروسية وارتدائهم الدروع، ولكن الخطر الذي واجههم كان احتمال تطويقهم من أعدائهم الذين يتميزون بكثرة العدد، فاضطروا في النهاية للتخلي عن شن هذه الهجمات، إدراكاً منهم بأنه ليس لديهم ما يكفي للمجازفة بخوض المعارك أمام جحافل الخصم.

وهنا راح سيتالكيس يتفاوض وبيرديكاس حول الأهداف المتوخاة من حملته، ولما لم يظهر الأثينيون وأسطولهم - ولم يكن هؤلاء يعتقدون بأنه جاد في زحفه -، مع أنهم أرسلوا إليه السفراء محملين بالهدايا، فقد وجّه بعض جيشه للهجوم على الخاليكيد والبوتيان، وأكرههم على التراجع وراء تحصيناتهم، ثم عمل في بلادهم خراباً ودماراً.

وبينما كان ستالكيس يجري أعماله في تلك الأصقاع، راودت الخشية أولئك الذين يسكنون الجنوب، وهم الثيسال والمجنيط ورعايا الثيسال الآخرون والهيلينيون الذين يسكنون ثيرموبلاي في أقصى الجنوب، من أن يداهمهم أيضاً جيشه فراحوا يستعدون للحرب. ومثل هذه المخاوف كانت تراود التراقيين في الشمال وراء نهر الستريمون، الذين يسكنون السهول، وهم البانيان والأودومنت والدرواي والدرسيان، وجميعهم قبائل مستقلة بذاتها ولا تخضع لأحد. كذلك كان الحديث يدور بين الهيلينيين من أعداء أثينا حول سيتالكيس، خشية أن يغريه الأثينيون بتنفيذ حلفه بالزحف عليهم أيضاً.

ولكن ما حدث هو أنه اجتاح خاليكيديا وبوتيايا ومقدونيا، وخرب البلاد، غير أنه لم يوفق في إنجاز أي من الأهداف التي أرادها من الغزو، وأخذت المؤن لديه تنضب وبات جيشه يعاني البرد، وما كان منه عندئذ إلا أن أخذ بنصيحة ابن أخيه سيوثيز، فتراجع بأسرع ما أمكنه. وكان بيرديكاس قد استمال سيوثيز إليه سراً بوعده بأن يزوجه ابنته ويقدم له مبلغاً كبيراً من المال أيضاً. فأخذ سيتالكيس بنصيحة سيوثيز واستدار بجيشه سريعاً إلى بلده بعد أن دامت حملته كلها ثلاثين يوماً، منها ثمانية أيام أمضاها في خاليكيدية. ولقد برَّ بيرديكاس بوعده فزوج سيوثيز ابنته ستراتونيكة. وهكذا كانت نهاية حملة سيتالكيس.

وفي الشتاء ذاته قام الأثينيون في نوبكتوس، بعد تشتيت أسطول البيلوبونيز، بحملة كان على رأسها فورميو. وقد أبحر أسطولهم على امتداد الساحل متجهاً إلى أستاكوس، وثم نزلوا وتقدموا داخل أكارنانيا، بقوة من أربعمئة من المشاة الثقيلة من الأثينيين من الأسطول وأربعمئة من الميسينيين. فطردوا من أستراتوس وكورونتا وسواهما من البلدات كل من كانوا لا يطمئنون إليهم، وأعادوا كينيس بن ثيولينوس إلى كورونتا، ثم قفلوا عائدين إلى سفنهم. أما أونيداي، وهي المدينة الوحيدة في أكارنانيا التي كانت معادية دائماً لأثينا، فإنهم رأوا أنه يستعصي عليهم أخذها في الشتاء. وذلك بسبب البحيرات التي تتشكل من نهر أخيلوس الذي ينبع من جبل بندوس ويمر بدولوبيا فبلاد الأجريان والأمفيلوخ وسهل أكارنانيا، ثم يمر طرفه الأعلى باستراتوس ثم يصب في البحر بالقرب من أوينيداي فيطوقها ويغمر الأراضي من حولها بالمياه كالطوفان طوال الشتاء. ومقابل أونيداي تقع بعد الجزر التي تعرف باسم الأخنادية. والواقع أن هذه الجزر تقع عند ثغور أخيلوس، وهو جدول قوي ولا ينقطع عن سد القنوات ما أدى إلى اتصال بعض الجزر بالبر، والمرجح أنه لن يمضي وقت طويل حتى تكون جميعها قد اتصلت باليابسة. ذلك أن تيار هذا النهر سريع، وهو عريض ومليء بالطمي، أما الجزر فقريبة بعضها من بعض

وعندما يصب النهر ما فيه تتراكم الرواسب الترابية والرمل؛ لأن هذه الجزر مبعثرة بغير انتظام لا تدع للنهر مجالاً ليتدفق ويصب ما فيه في البحر. وهي خالية من السكان وصغيرة جداً. وتذهب إحدى القصص التي تدور عنها وعن ألكمايون بن أمفياراوس، إلى أنه بينما كان يجول شريداً بعد أن قتل أمه طلبت منه عرافة معبد أبولو أن يقيم في هذا المكان. وتقول النبوءة: إنه لن يعرف السكينة وتهدأ نفسه حتى يجد مكاناً يستقر فيه، لم تسطع عليه الشمس ولم يكن قد وُجد بعدُ يوم قتل أمه؛ أما بقية الأرض فلا تصلح له. فاحتار ألكمايون كما تذهب القصة ولم يعرف كيف يتدبر أمره، لكنه لاحظ أخيراً الطمي الذي يصبه نهر أخيلوس واستنتج أنه ربما تكون كمية كافية من الأرض قد تشكلت ما يمكن العيش فيها، منذ أن قتل أمه - وكان ألكمايون قد أمضى ردحاً من الزمن في الترحال منذ ذلك الحين-. وهكذا أقام قريباً من أونيداي وأصبح يحكم تلك النواحي، ثم سمّى المنطقة كلها باسم ابنه أكارنان. وهذا ما بلغنا من قصة ألكمايون.

أبحر فورميو والأثينيون من أكارنانيا فبلغوا نوبكتوس ثم أبحروا من جديد في بداية الربيع إلى أثينا، وجلبوا معهم ما استولوا عليه من السفن وجميع الرجال الأحرار الذين وقعوا في الأسر أثناء المعارك البحرية. وقد تمَّ تحريرهم بالمقايضة، رجلاً برجل. وهكذا كانت خاتمة الشتاء والسنة الثالثة من الحرب التي دونها ثوسيديديس.

الكتاب الثالث

الفصل الأول: السنة الرابعة للحرب، ثورة ميتيلينة، فرار بعض البلاطيين

في الصيف التالي، وفي موسم نضج الحنطة والذرة، غزا البيلوبونيز وحلفاؤهم أتيكا بقيادة الملك الإسبارطي أرخيداموس بن زيوكسيداموس، ونزلوا في الريف وجعلوه خراباً. ومثلما جرى في مناسبات سابقة، راح الفرسان الأثينيون يقاتلون في كل الميادين وحيثما أمكنهم وبذلك منعوا جحافل القوات الخفيفة للعدو من الابتعاد عن الجسم الأساسي للجيش وحمايته، فلم تتمكن من إلحاق الأذى بالمناطق القريبة من مدينة أثينا. وقد استمر البيلوبونيز في البقاء في أتيكا ما دامت المؤن متوفرة لهم، ثم انسحبوا بعدئذ، وتفرقوا عائدين إلى مدنهم.

وبعيد غزو البيلوبونيز مباشرة، ثارت جزيرة ليسبوس على أثينا، ما عدا ميثيمنة. وكان الليسبيون يسعون للثورة حتى قبل اندلاع الحرب، لولا أن الإسبارطيين لم يكونوا على استعداد لقبولهم في حلفهم، أما الآن فقد اضطروا للقيام بالثورة قبل الموعد الذي حددوه لها. وكانت خطتهم أن ينتظروا حتى الانتهاء من تضييق مداخل موانئهم وإنجاز التحصينات والفراغ من بناء السفن التي بين أيديهم، ووصول مختلف المؤن المتوقع وصولها من بونتوس، من رماح وحنطة وذرة وأشياء أخرى كانوا قد أرسلوا في طلبها. لكن أثناء ذلك قام أعداؤهم التينيديون، والميثيمنيون وجماعة معينة من الأفراد في المدينة ذاتها وهم الذين يمثلون المصالح الأثينية في ميتيلينة بإعلام الأثينيين بأن الميتيلينيين يعملون على توحيد ليسبوس كلها قسراً في دولة واحدة بإمرة ميتيلينة، وأن النشاطات المتنوعة التي ينشغلون بها إنما خطط لها بالتعاون مع الإسبارطيين والبويوط، أبناء عمومتهم بهدف القيام بالثورة، فإذا لم تتخذ إجراءات وقائية فوراً، فإن أثينا سوف تخسر ليسبوس.

إلا أن الأثينيين كانوا يعانون في ذلك الحين الطاعون وشدة وطأة الحرب التي اندلعت قبل فترة وجيزة وحسب. فاعتقدوا أنه سيكون أمراً خطيراً بالفعل أن يضطروا إلى محاربة ليسبوس فوق ذلك، وأسطولها سليم وطاقاتها ومواردها لم تمس. لذلك زينت لهم أمانيهم في البداية اعتبار تلك الاتهامات كاذبة. لكن عندما أرسلوا فيما بعد ممثلين عنهم وفشل هؤلاء في إقناع الميتيلينيين بالتخلي عن فكرة توحيد ليسبوس أو التخلي عن استعداداتهم الحربية، راودهم الخوف وقرروا اتخاذ التدابير للقيام بعمل ما قبل فوات الأوان. فأرسلوا على عجل أسطولاً من أربعين سفينة كانت جاهزة للإبحار حول البيلوبونيز، بإمرة كليبيدس بن دينياس واثنين آخرين. ووردت الأخبار إلى أثينا عن احتفال يقام خارج المدينة تكريماً لأبولو المالييني، ويشارك فيه سكان ميتيلينة كلهم، فإن أمكنهم القيام بعمل سريع، تصبح الفرصة سانحة أمامهم لمباغتتهم وأخذهم على حين غرة. فإذا نجحت الخطة، كان الخير في ذلك، أما إذا فشلت، فلهم أن يفرضوا على سكان ميتيلينة تسليم سفنهم وتهديم تحصيناتهم، وإلا كانت الحرب.

وهكذا أبحر الأسطول. أما السفن الميتيلينية الثلاثية المجاذيف العشر والتي صادف أنها كانت تعمل مع الأسطول وفقاً لشروط التحالف، فقد احتجزها الأثينيون واعتقلوا بحارتها. إلا أن أنباء الحملة وصلت إلى ميتيلينة بالرغم من ذلك، إذ حملها إليهم رجل، انتقل من أثينا إلى يوبوية، ثم ذهب إلى جيريستوس سيراً على الأقدام، حيث وجد سفينة تجارية على وشك الإبحار، فوصل إلى ميتيلينة عن طريق البحر في اليوم الثالث لمغادرته أثينا. لذلك لم يخرج أهالي ميتيلينة إلى المعبد في ماليا، بل انصرفوا إلى تعزيز الأقسام التي لم يتم استكمالها من أسوارهم وموانئهم، ووقفوا على أهبة الاستعداد لمواجهة الموقف.

سرعان ما وصل أسطول الأثينيين إلى الميناء. وعندما رأى القادة ما هو عليه الوضع نقلوا للميتيلينيين مطالب أثينا وأوامرها، ولما رفض هؤلاء الامتثال لها، أعلنوا الحرب

عليهم. ولكن الميتيلينيين الذين وجدوا أنفسهم فجأة مرغمين على خوض حرب لم يكونوا مستعدين لها بعد، بادروا إلى الإبحار بأسطولهم للقتال على مسافة قريبة من مينائهم، لكن سرعان ما طاردتهم السفن الأثينية وأعادتهم ثانية، فشرعوا فوراً بالتفاوض مع القادة الأثينيين، وهم يتمنون أن يتوصلوا - لو أمكنهم ذلك - إلى اتفاق على سحب الأسطول الأثيني بأي شروط معقولة. وكان القادة الأثينيون أنفسهم متشككين في قدرتهم على التعامل مع ليسبوس كلها، وهكذا قبلوا بالعروض التي قدمت لهم. فعقدت الهدنة بين الطرفين، وأرسل الميتيلينيون وفداً إلى أثينا كان من بين أعضائه أحد الذين كشفوا ما يدبر ضد أثينا، إلا أنه ندم على فعلته، وكان هدف الوفد السعي لإقناع الأثينيين بسحب أسطولهم وأن ليس ثمة خطر من قيام ثورة في ميتيلينة. كما أرسلوا في الوقت ذاته وفداً إلى إسبارطة في سفينة ثلاثية المجاذيف تمكنت من التسلل دون أن يلحظها الأسطول الراسي في ماليا شمال المدينة؛ لأنهم لم يكونوا متفائلين بأن يتمكن ممثلوهم في أثينا من إحراز أي نجاح في مهمتهم.

كانت البعثة إلى إسبارطة قد بلغت وجهتها بعد رحلة شاقة في عرض البحر، وبدأت المباحثات بين الطرفين للحصول على مساعدات عسكرية. أما الوفد الذي أرسل إلى أثينا فقد عاد دون أن ينجح في تحقيق أي من أهدافه، فقامت الحرب بين أثينا وميتيلينة وبقية ليسبوس، ما عدا ميثيمنة؛ إذ وقف الميثيمنيون إلى جانب أثينا، شأنهم في ذلك شأن الإمبريين والليمنيين وعدد من الحلفاء الآخرين.

خرج الميتيلينيون الآن بكامل قوتهم لمهاجمة المعسكر الأثيني، وساعدتهم الظروف أكثر من غيرهم في تلك المعركة التي دارت رحاها بين الطرفين، لكن الثقة بالنفس كانت تعوزهم فانسحبوا إلى حمى مدينتهم دون أن يجرؤوا على أن يعسكروا في العراء. ثم خلدوا إلى السكينة والهدوء، ولم يرغبوا في تجربة حظوظهم مرة أخرى حتى يحصلوا على دعم القوات التي كان يفترض قدومها من البيلوبونيز. وفي هذا الوقت وصل

ميلياس اللاكوني وهيرمايونداس الطيبي. وكانا قد أرسلا إليهم قبل قيام الثورة، لكنهما لم يتمكنا من الوصول إلى ليسبوس قبل ظهور الأسطول الأثيني. أما الآن فقد استطاعا - بعد المعركة - أن يتسللا إلى المكان في سفينة ثلاثية المجاذيف وأقنعا الميتيلينيين بإرسال سفينة مثلها وعلى متنها سفراء ليعودوا معهم إلى إسبارطة. وهذا ما قام به الميتلينيون.

وإن ما بدا من ضعف الهمة بين الميتيلينيين قد شجع الأثينيين كثيراً، فطلبوا من حلفائهم إرسال قوات، فأتت تلك القوات بسرعة؛ لأنها لم تر ما ينم عن استعداد الليسبيين للقيام بعمل خطير. وتحرك الأثينيون بأسطولهم وانعطفوا به إلى جنوب المدينة حيث أرخوا مراسيهم هناك، وأقاموا معسكرين حصينين على جانبي المدينة، يسدان المنافذ إلى الموانئ. وبذلك حالوا دون استخدام الميتيلينيين للبحر. وبالرغم من أنهم كانوا والليسبيون الذين يساندونهم يسيطرون على اليابسة، فإن الأثينيين لم يحتفظوا إلا برقعة صغيرة في محيط معسكراتهم، واستخدموا ماليا فقط ميناء لسفنهم وسوقاً لهم.

وبينما كانت الحرب دائرة في ميتيلينة، كما سبق الوصف، وحوالي الوقت ذاته من الصيف، أرسل الأثينيون أسطولاً مؤلفاً من ثلاثين سفينة ليدور حول البيلوبونيز بإمرة أسوبيوس بن فورميو؛ ذلك أن الأكارنان طلبوا أن يكون القائد المرسل إليهم إما ابناً لفورميو أو قريباً له. ولما غادر هذا الأسطول لاكونيا أخذ يعمل تخريباً وتدميراً في عدة بقاع على الساحل. وبعد ذلك قام أسوبيوس بإعادة معظم السفن إلى أثينا ووصل إلى نوبكتوس ومعه اثنتا عشرة سفينة. ثم جمع جيشاً من كافة أرجاء أكارنانيا وزحف لقتال أوينيداي. وأبحر الأسطول أسفل نهر أخيلوس بينما أتلف الجيش الزرع والضرع على اليابسة، لكن أوينيداي لم تظهر ما ينبئ بالاستسلام، فقام أسوبيوس بالإبحار إلى ليوكاس، بعد أن أذن لجيشه بالانصراف، ورسا في نيريكوس، لكنه قتل في طريق عودته وقضي على أعداد كبيرة من قواته على يد سكان المناطق التي ثارت عليه، بدعم عدد

قليل من جنود الحامية. ثم أبحر الأثينيون مبتعدين بعد أن استعادوا جثث قتلاهم من الليوكاد بموجب الهدنة بينهما.

في تلك الأثناء كان سفراء ميتيلينة الذين أرسلوا على ظهر السفينة الأولى قد طلب منهم الإسبارطيون الحضور إلى أوليمبيا ليتمكن الحلفاء الآخرون من سماع ما يريدون عرضه ومناقشتهم فيه. ولذلك ذهبوا إلى أوليمبيا في مهرجان المباريات الذي أحرز فيه دوريوس من جزيرة رودوس فوزه الثاني. وبعد انتهاء الاحتفال عقد الحلفاء اجتماعاً، فألقى الوفد الخطاب التالي: " أيها الإسبارطيون، أيها الحلفاء، إننا نعلم القاعدة التي يعتمدها الهيلينيون في هذا الموضوع. وهي: عندما تثور دولة والحرب دائرة وتتخلى عن حلفائها السابقين، فإن الذين يستقبلونها في حلفهم لن يطمئنوا إليها، ولن يقبلوا بها حليفاً إلا بقدر ما يفيدون منها، وما عدا ذلك فإنهم سيظنون بها أسوأ الظنون لخيانتها أصدقاءَها السابقين. وهذه طريقة منصفة في النظر إلى الأمور، مادام هناك تماثل في الرأي في السياسة والشعور، وتساوٍ في القوة والموارد بين الدولة الثائرة وتلك التي ثارت عليها، ولا يوجد ما يبرر القيام بالثورة. لكن هذه الشروط لا تنطبق على حالنا والأثينين، ولذلك يجب ألا يأخذ علينا أحد أننا ثرنا عليهم في وقت الخطر، بعد تكريمهم لنا وقت السلم.

"إن العدل والإخلاص هما أول الموضوعات التي سوف نتناولها بالحديث، خاصة أننا ننشد التحالف وإياكم، ونحن نعلم أنه لن تكون هناك صداقة متينة بين رجلين أو اتفاق بين دول مختلفة إن لم يكن هنالك إيمان راسخ من الطرفين بصدق وإخلاص الطرف الآخر واتفاق الرأي في جوانب أخرى، فإذا اختلف الناس في تفكيرهم اختلفوا في سلوكهم كذلك.

"إن التحالف الذي يجمعنا والأثينيين يعود إلى نهاية حرب الفرس، عندما انسحبتم من القيادة واستمر الأثينيون لإتمام ما كان يجب إنجازه، إلا أن هدف التحالف كان تحرير

الهيلينيين من فارس، وليس خضوعهم لأثينا. وطالما دأب الأثينيون في قيادتهم على احترام استقلالنا فإننا تبعناهم بحماس. ولكن عندما رأينا أن عداءهم لفارس أخذ يقل مع الوقت في حين يزداد اهتمامهم باستعباد حلفائهم، انتابنا الخوف. وبسبب نظام التصويت المرحلي، أصبح الحلفاء عاجزين عن الاتحاد للدفاع عن أنفسهم، فغدوا جميعاً مستعبدين باستثنائنا نحن وخيوس. ولقد ساهمنا نحن الذين يفترض بأننا دولة مستقلة وأحرار اسماً بأفواج منا في القوات المتحالفة. ولكن مع الأمثلة المتوفرة أمامنا عما جرى لم نعد واثقين بالقيادة الأثينية. فبعد أن جعلوا الدول الحليفة لنا تحت سيطرتهم، يبدو أنه من غير المستبعد أن يحجموا عن التصرف تجاهنا بالطريقة نفسها، إذا ما شعروا أنهم أقوياء بدرجة كافية.

"لو أننا بقينا مستقلين جميعاً، لكانت لنا ثقة أكبر في ثباتهم وعدم تغييرهم للأوضاع القائمة. ولكن مع خضوع معظم الحلفاء لهم ونحن نعامل باعتبارنا على قدم المساواة معهم، فمن الطبيعي إذن أن يعترضوا على وضع كانت الأغلبية فيه قد استسلمت ونقف نحن وحدنا مستقلين بالرأي، ومما زاد الطين أنهم كانوا يزدادون قوة فوق قوة، ونحن نفقد كل ما كان لدينا من قوة من قبل. وأنتم تعلمون أن الضمانة الوحيدة التي يأمن لها المرء في أي حلف هي الخوف المتبادل؛ لأن الطرف الذي تراوده النية بنقض العهد تردعه فكرة أن الحظ لن يكون بجانبه.

"والواقع أن السبب الوحيد لبقائنا مستقلين إنما يعود إلى أن الأثينيين اعتقدوا وهم يبنون إمبراطوريتهم أن الاستيلاء على السلطة سوف يسهل عليهم بطرح بعض الدعاوي الخداعة واستخدام أساليب السياسة عوضاً عن القوة المجردة. فكنا نافعين لهم إذ بمقدورهم أن يضربوا بنا مثلاً بالقول: إننا نحن المساوون لهم في التصويت قد انضممنا إليهم بملء إرادتنا، إذ من المستحيل أن نكون قد انضممنا إليهم قسراً في حملاتهم العديدة، وأننا شاركنا في الحملات لمجرد أن الشعوب التي كنا نقاد للهجوم عليها كانت على خطأ.

وبهذه الطرق قادوا بادئ الأمر الدول الأقوى لمواجهة الدول الأضعف، تاركين الأكثر قوة إلى آخر المطاف لتأكدهم من أنهم سيجدونهم أقل بأساً بكثير، بعد أن انضوى تحت لوائهم الجميع. ومن جهة أخرى، لو أنهم بدؤوا بنا عندما كانت الدول الأخرى لاتزال على قوتها، ولديها مركز يمكنها أن تستند إليه، لما كان بمقدورهم عندئذ أن يخضعوهم لسيطرتهم بهذا اليسر. كذلك راودهم الشعور ببعض الخطر يتهددهم من أسطولنا البحري في حال وحدنا قوانا وانضممنا إليكم أو إلى بعض الدول القوية الأخرى، فنكون بذلك مصدر خطر على أثينا. وثمة عامل آخر ساهم في ضمان استقلالنا هو المشقة التي تجشمناها لنكون على وفاق مع المجلس الأثيني ومختلف رجال الدولة لديهم. ولكن مع الأمثلة التي لدينا عن كيفية تعاملهم مع الآخرين، لم نتوقع أبداً أن نصمد طويلاً أمامهم، لو لم تنشب هذه الحرب.

"كيف لنا أن نحمل أي صداقة حقيقية أو أي ثقة باستمرار حريتنا حين نكون في موقف كهذا؟ إن الشروط التي قبل بعضنا بعضاً بموجبها كانت مغايرة للمشاعر الحقيقية من كلا الطرفين. ففي أوقات الحرب كانوا يبذلون قصارى جهدهم ليكونوا على وفاق معنا؛ لأنهم كانوا يخشوننا، وقد حاولنا للسبب نفسه أن نبقي على صلاتنا معهم في أوقات السلم. وفي معظم الحالات تكون النيّات الطيبة هي أساس الإخلاص، أما في حالتنا فقد كان الخوف هو الرابط، فما جمعنا في التحالف هو الرعب أكثر من الصداقة. وكان من المحتوم أن يفصم عرى التحالف في أي لحظة الفريق الذي يطمئن إلى أن خطوته مأمونة ولا تنطوي على مجازفة. وإذن فمن الخطأ أن تأخذوا علينا المبادرة بالانفصال لمجرد أن الأثينيين لم يهاجمونا بعد، أو القول: إنه كان يتوجب علينا الانتظار حتى يثبت لنا أنهم مقبلون على عمل ضدنا؛ ذلك أنه لو كانت لدينا قدرتهم على التخطيط للحروب والتملص والخداع، لكنا مساوين لهم، وإذن ليس ثمة داع لأن نخضع لهم. ولكن كما هو الحال إنهم دوماً في موقع يمكنهم من المبادرة إلى العدوان؛ فيجب أن يسمح لنا

بالمبادرة إلى الدفاع عن أنفسنا.

" أيها الإسبارطيون، أيها الحلفاء، كانت هذه هي الأسباب والدواعي لثورتنا. وإنها لجلية بما يكفي لتقنع مستمعينا بأننا لم نخطئ التصرف، كما أنها تشكل أساساً كافياً لكي نشعر بالخطر ونبحث من حولنا عما يكفل لنا الأمن. في الواقع أننا أردنا القيام بهذه الثورة منذ زمن بعيد، وأرسلنا لكم السفراء لهذا الأمر وكان السلام ما يزال سائداً، لكننا لم نستطع الحصول على مساعدتكم؛ إذ رفضتم القبول بنا في حلفكم. والآن استجبنا على الفور لمبادرة البويوط وقررنا قطع صلتنا بالماضي مع الجهتين – أي مع كل من الهيلينيين والأثينيين، أما الهيلينيون فلن نشترك من الآن وصاعداً مع الأثينيين في الاعتداء عليهم، ولكن سنقدم لهم يد العون في أعمال التحرير، وأما الأثينيون فسوف نبادر بالانفصال عنهم، عوضاً من الانتظار ليقضوا علينا لاحقاً.

" إن ثورتنا حصلت في وقت أبكر مما كان مقدراً لها ودون إعداد مناسب. وهذا سبب آخر لتضموننا إلى حلفكم وتمدونا بالعون سريعاً، وبذلك تظهرون أنفسكم قوماً قادرين على نجدة من هم في ضيق ويحتاجون للمساعدة؛ وقادرين في الوقت ذاته، على إيذاء أعدائكم. ولم يسبق أن أتيحت لكم فرصة كهذه من قبل قط. فالأثينيون مستنزفون اليوم بسبب الطاعون الذي نكبوا به والتكاليف التي ترتبت عليهم؛ وقسم من أسطولهم يبحر بالقرب من شواطئكم، والبقية منهمكة في حصارنا. ومن المستبعد أن يكون لديهم احتياطي من السفن، فإذا ما غزوتموهم للمرة الثانية في هذا الصيف مستخدمين قواتكم البحرية والبرية في آن معاً، لوجدتموهم عاجزين عن مقاومة أسطولكم أو مضطرين لسحب أسطولهم من شواطئكم وشواطئنا.

"ولا تعتقدوا أنكم تخاطرون برجالكم من أجل بلد لا علاقة لكم به، وقد يحملكم الظن فتحسبوا أن ليسبوس تبعد عنكم كثيراً، لكنكم ستجدون الخير الذي ستسديه لكم هو في متناول أيديكم. فالحرب لن تحسم في أتيكا كما يعتقد البعض، بل في

البلدان التي تستمد أتيكا منها قوتها؛ فطاقاتها المادية تأتي من الإتاوات التي يدفعها حلفاؤها، والتي ستتعاظم أكثر إن تم لهم قهرنا؛ لإنه أنه لن يكون هناك بعد هذا ثورات أخرى، ولسوف تضاف مواردنا إليهم، وسنعامل بقسوة أكثر ممن أستعبدوا قبلنا. ولكن إذا ما قدمتم لنا دعمكم الكامل، فستكسبون دولة لديها أسطول كبير - وهو ما أنتم بحاجة إليه- وستكونون في موقع أفضل لتحطيم قوة أثينا بفصل حلفائها عنها؛ لأن الآخرين سيتشجعون كثيراً للانضمام إليكم، ثم إنكم سوف تبرئون أنفسكم من التهمة بأنكم تمسكون عن معونة الثائرين. وحالما تتقدمون للقيام بدور المحرر، ستجدون أن قوتكم في الحرب قد تعاظمت كثيراً.

"لهذا نسألكم أن تستجيبوا للآمال التي عقدها الهيلينيون عليكم، وأن تحترموا زيوس الأوليمبي الذي نقف في معبده ضارعين. هبّوا لنجدة ميتيلينة. كونوا حلفاءنا ولا تخذلونا. إنها أرواحنا التي نجازف بها، إلا أننا نقوم بهذا بطريقة تخدم الصالح العام حين يتحقق النصر لنا، أما إن لم تصغوا إلينا، فإن كارثة أعم ستكون نتيجة فشلنا. وإذن كونوا رجالاً كما هو حالكم في مخيلة الهيلينيين وكما تقتضي مخاوفنا أن تكونوا."

كانت تلك هي خطبة الميتيلينيين، وعندما سمعها الإسبارطيون وحلفاؤهم قبلوا المقترحات المقدمة ورحّبوا بالليسبيين في حلفهم. قرر الإسبارطيون غزو أتيكا فأصدروا التعليمات لحلفائهم الحاضرين بالاجتماع في برزخ أشموس -ممر كورنثة- بأسرع وقت وأن يكون مع كل منهم ثلثا قواته الكاملة. وكانوا هم أول الواصلين هناك، ومعهم أدوات جاهزة لسحب السفن من كورنثة إلى البحر بجانب أثينا، بحيث يمكنهم الهجوم براً وبحراً في آن واحد. وأظهروا في هذا كله حماساً عظيماً وهمة عالية، لكن الحلفاء الآخرين تقاعسوا في المجيء، لانهماكهم في حصاد الغلال من حنطة وذرة، بالإضافة إلى أنهم كانوا متعبين من الخدمة العسكرية.

كان الأثينيون يدركون أن هذه الاستعدادات قد اتخذت بناء على الافتراض بأنهم

ضعفاء، فأرادوا أن يوضحوا بشكل جلي خطأ هذا الافتراض، وأن بمقدورهم صد أي هجوم يقوم به أسطول البيلوبونيز عدا، ودون استدعاء أسطولهم من ليسبوس. ولهذا زودوا مئة سفينة بالرجال من مواطنيهم – باستثناء الفرسان وقوات النخبة – وأبحروا مع الأجانب المقيمين إلى أشموس، حيث أجروا استعراضاً لقوتهم وأشكال رسو السفن والإنزال قدر ما شاؤوا على طول ساحل البيلوبونيز. ولما وجد الإسبارطيون أن الأمور لم تكن أبداً كما توقعوا، توصلوا إلى الاستنتاج بأن الليسبيين لم يصدقوهم القول، كما واجهتهم مصاعب أخرى بسبب عدم ظهور حلفائهم والأنباء عن قيام السفن الأثينية الثلاثون التي تدور حول البيلوبونيز بتخريب المناطق الريفية بالقرب من إسبارطة ذاتها. ولهذا قفلوا عائدين إلى الوطن، إلا أنهم عمدوا فيما بعد إلى تجهيز أسطول ليرسلوه إلى ليسبوس. كما طلبوا ما مجموعه أربعين سفينة من مختلف حلفائهم، وعُيّن ألسيداس أميراً للأسطول. وقد عاد الأثينيون كذلك إلى أثينا ومعهم سفنهم المئة عندما رأوا الإسبارطيين يعودون أدراجهم.

في الوقت الذي كان هذا الأسطول في البحر، يبدو أن أثينا كانت تملك تقريباً أكبر عدد من السفن العاملة في تاريخها، والمجهزة على أحسن وجه. ومع ذلك فإن الأعداد كانت بهذه الضخامة أو أكثر في بداية الحرب. ففي ذلك الوقت كانت هنالك مئة سفينة تحمي أتيكا ويوبوية وسلاميس، ومئة أخرى تدور حول البيلوبونيز، بالإضافة إلى سفن أخرى في بوتيدايا وعدة محطات أخرى، ما يجعل العدد الكلي مئتين وخمسين سفينة عاملة في صيف واحد. وقد كانت هذه السفن بالإضافة إلى الحملة على بوتيدايا السبب الرئيس في استنزاف العوائد فكل فرد من المشاة الثقيلة في الحامية عند بوتيدايا كان يدفع له دراخمتان يومياً –دراخما للجندي وأخرى لخادمه–. وفي البداية بلغ عددهم ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة، ولم يخفض العدد حتى انتهاء الحصار. وكان هناك أيضاً ألف وستمئة رجل بإمرة فورميو الذي غادر قبيل نهاية الحصار. وكان يدفع لبحارة

السفن الأجر ذاته. وتلك هي جملة النفقات في بادئ الأمر، حين كاد لدى أثينا العدد الأكبر من السفن العاملة.

عندما كان الإسبارطيون في ممر كورنثة زحف الميتيلينيون براً ومعهم قوة من المرتزقة لمهاجمة ميثيمنا، وفي اعتقادهم أن المكان سيسلم لهم بالخيانة؛ فهجموا على المدينة، لكن الأمور لم تجر كما توقعوا؛ فانسحبوا إلى أنتيسا وبيره وإيريسوس، وقاموا ببعض الإجراءات لحماية الأمن داخل هذه المناطق وتدعيم أسوارها، ثم عادوا إلى الوطن بسرعة.

بعد انسحاب الميتيلينيين هاجم أهالي ميثيمنا أنتيسا لكن الأنتيسيين ومن معهم من المرتزقة خرجوا لقتالهم عند الأسوار وتغلبوا عليهم ودحروهم. وقتل العديد من الميثيمنيين وانسحب البقية مولين الأدبار بأقصى ما لديهم من سرعة. وعندما علم الأثينيون بذلك وأدركوا أن الميتيلينيين هم سادة البلد بأكملها وأن ما لديهم من جنود هو أقل من أن يمكنهم من التصدي لهم، أرسلوا في أول الخريف باخيس بن أبيكوروس وبإمرته ألف من المشاة الثقيلة من المواطنين. وقد قام هؤلاء بالتجذيف في السفن بأنفسهم، وعندما وصلوا ميتيلينة قاموا ببناء سور واحد يحيط بالمكان بأكمله، وله حصون يحرسها الجنود في عدة نقاط قوية. وهكذا غدت ميتيلينة الآن محاصرة حصاراً محكماً براً وبحراً، والشتاء على الأبواب.

كان الأثينيون بحاجة للمزيد من المال من أجل الحصار، بالرغم من أنهم جمعوا لأول مرة من مواطنيهم مساهمة مالية قدرها مئتا تالنت. وأرسلوا الآن اثنتي عشرة سفينة لتحصيل الأموال من حلفائهم بقيادة ليسيكليس وأربعة آخرين. وبعد أن قام بالإبحار إلى عدة أماكن وجمع الأموال منها، تابع رحلته عن طريق البحر من ميوس في كاريا عبر سهول مياندر صعوداً إلى المرتفعات في سانديوس. وهناك هاجمه الكاريون وأهالي أنايا؛ فقتل وعدد كبير من جيشه.

في ذلك الشتاء كان البلاطيون الذين مازال البيلوبونيز والبويوط يحاصرونهم، قد

وجدوا أنفسهم في ضيق شديد لنفاد المؤن لديهم، ولما كانوا قد فقدوا الأمل في حصولهم على مساعدة الأثينيين أو أي فرصة للبقاء بأي وسيلة أخرى، وضعوا خطة مع الأثينيين المحاصرين معهم، تقضي بأن يغادروا المدينة ويشقوا طريقهم عنوة بالنزول من فوق سور العدو الذي كان يطوقهم. كان مدبرا الخطة ثيانيتوس بن تولمسيديس وهو عراف، ويوبومبيديس بن ديماخوس وهو أحد قادة الجيش. وكان قصدهم الأساسي أن يشترك الجميع في المحاولة. لكن نصفهم تراجع فيما بعد وأبى المشاركة في أمر رأوا فيه مغامرة محفوفة بالأخطار. وبقي نحو مئتين وعشرين متطوعاً تمسكوا بالاستمرار في الخطة وكسر الحصار. وكان نهجهم في ذلك كالتالي: قاموا بصنع سلالم لتصل إلى أعلى سور العدو، وعمدوا إلى حساب ارتفاع السور من عدد طبقات القرميد في منطقة مواجهة لهم لم تكن قد كسيت بالجص بعد. وقام الكثيرون بعدّ الطبقات في آن واحد، ورغم أن الكثيرين يمكن أن يخطئوا في إحصاء الطبقات، فإن الأغلبية ستتمكن من الوصول إلى العدد الصحيح، وخاصة أنهم كرروا التعداد مرات عديدة ولم يكونوا بعيدين عن السور بحيث يصعب عليهم رؤيته جيداً وتحقيق غايتهم. وهكذا بوساطة تخمين مقدار سماكة قطعة الآجر، تمكنوا من حساب الطول الذي يجب أن تكون عليه السلالم.

كان سور البيلوبونيز قد بني على النحو التالي: كان يحيط بالموقع سوران، كل منهما بشكل دائرة، أحدهما موجه ناحية بلاطية، والآخر نحو الخارج لتأمين الحماية ضد أي اعتداء محتمل من أثينا. وكان يفصل بين السورين فراغ طوله ست عشرة قدماً، وداخل هذه المساحة الفارغة بنيت الأكواخ التي يقيم فيها الحراس. وكان البناء متصلاً، يترك انطباعاً بأنه سور واحد عريض وعلى جانبيه الشُرَفْ – فتحات منتظمة في أعلى السور لإطلاق السهام أو النار–. وعند كل عشر شرف بنيت أبراج كبيرة تقريباً وعرضها يساوي عرض السور، وتصل بين السورين الداخلي والخارجي، وتمَ بناؤها بحيث لا يمكن

تفاديها أو تجاوزها؛ فالطريق الوحيدة تمر عبر منتصفها. وفي الليالي الماطرة والعاصفة لا تتم الحراسة عن طريق الشرف بل عن طريق الأبراج، لأنها مسقوفة ولا يبعد بعضها عن بعض كثيراً.

تلكم هي بنية السور الذي كان البلاطيون محاصرين داخله. والآن، بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، انتظر هؤلاء إلى أن حلت ليلة ليلاء عصفت فيها الرياح والأمطار وغاب عنها القمر، فانسلوا عندئذ خارج المدينة، يقودهم واضعا الخطة. وفي البداية اجتازوا الخندق المحيط بالمدينة، ثم صعدوا سور العدو دون أن يلحظهم الحراس الذين لم يكن بمقدورهم رؤيتهم في الظلام أو سماع ما أحدثوه من ضجيج عند اقترابهم منهم؛ لأن صوت العاصفة غطى على أي صوت آخر. كما حافظوا على الابتعاد بعضهم عن بعض مسافة مناسبة، لدرء خطر احتكاك أسلحتهم وانكشاف أمرهم. وكانت أسلحتهم خفيفة وانتعلوا زوجاً واحداً من الأحذية في قدمهم اليسرى للحيلولة دون انزلاقهم في الوحل. وقد وصلوا إلى الشرف الواقعة في منتصف المسافة بين برجين والتي يعلمون بأنها غير محروسة. وكان أول من تقدم منهم الرجال الذين يحملون السلالم، فنصبوها في أماكنها؛ ثم لحقهم اثنا عشر رجلاً مسلحين بأسلحة خفيفة، من خناجر وصفيحة معدنية لوقاية الصدر بقيادة أمياس بن كورويبوس الذي كان أول الصاعدين. ثم تبعه رجاله، وإلى كل من هذين البرجين ذهب ستة منهم. ولحقتهم أعداد أكبر من الجنود خفيفي السلاح ويحملون رماحاً، أما تروسهم فيحملها من هم وراءهم، والذين عليهم تقديمها لهم عندما يصبحون على تماس مع العدو. ولقد سارت الأمور جيداً، ولم يكتشفهم الحراس إلا بعد أن ارتقى معظمهم السور. وذلك حين أسقط أحد البلاطيين قطعة آجر من إحدى الشرف وهو يحاول الإمساك بها، فأحدثت صوتاً عند سقوطها. فانتهبوا للخطر في الحال، وهرعت القوات إلى السور. ولم تكن لديهم أي فكرة عن ماهية الخطر وسط الظلام والعاصفة، وفي تلك اللحظة قام البلاطيون الموجودون في

المدينة بمهاجمة السور في نقطة مقابلة للمكان الذي كان رفاقهم يتسلقونه، بغية صرف انتباه الحراس عنهم قدر الإمكان. وهذا ما أوقع القوات المحاصرة في حالة من الحيرة والإرباك فوقفت بلا حراك، ولم يجرؤ أحد منهم على مغادرة مكانه لتعزيز النقاط الأخرى ما جعله غير قادر على معرفة ما حدث. وعلى أية حال فإن أفراد المفرزة التي تتألف من ثلاثمئة رجل ممن تم اختيارهم للمهمات الخاصة بحالات الطوارئ، انطلقوا إلى خارج السور وساروا باتجاه وسائل الإنذار، وتمكنوا من إطلاق إشارات نارية لطيبة تشير إلى وقوع هجوم، لكن البلاطيين داخل المدينة أطلقوا أيضاً إشارات نارية من فوق سورهم، كانوا قد أعدوها مسبقاً لهذا الغرض، وذلك لجعل إشارات العدو غامضة لا يمكن فهمها، وهذا يوقف إرسال المساعدات من طيبة، ويمنع الطيبيين من تكوين فكرة واضحة عما يحدث، إلى أن يتمكن رجالهم الذين خرجوا من الفرار الوصول إلى بر الأمان.

وأثناء هذا كله كان البلاطيون يواصلون تسلق السور. ذلك أن أول الصاعدين قد استولوا على البرجين وقتلوا الحراس فيهما. ثم أخذوا مواقعهم في الطريق ما بين البرجين للحيلولة دون وصول الإمدادات ضدهم كما نصبوا سلالم من فوق السور وأرسلوا عدداً من الرجال إلى أعلى البرجين، وهكذا عاقوا اقتراب العدو منهم برمي القذائف من الأعلى والأسفل. وفي الوقت ذاته كان الجسم الأساسي من المجموعة قد نصبوا عدداً من السلالم على السور الخارجي وهدموا الشرف وواصلوا العبور بين البرجين. وبعد أن يعبر الرجل منهم ينتظم مع رفاقه عند حافة الخندق، ومن هناك يطلقون سهامهم ويقذفون رماحهم على كل من يأتي بمحاذاة السور ليمنع رفاقهم من العبور من فوقه. وأخيراً بعد أن عبر البقية، نزل الرجال من البرجين وهرعوا إلى الخندق. وفي تلك اللحظة جاءت مفرزة الطوارئ المؤلفة من ثلاثمئة جندي وهم يحملون المشاعل. ولقد تمكن البلاطيون القابعون في الظلام عند حافة الخندق من رؤيتهم على نحو أفضل ودون أن يراهم أحد، فسددوا سهامهم وقذفوا رماحهم على الأجزاء غير المحمية بالدروع من أجسامهم. كما أن

أضواء المشاعل زادت من صعوبة رؤيتهم في الظلام، حتى إن البقية الباقية منهم تمكنوا من عبور الخندق، بالرغم مما فيه من مشقة وما يكتنفه من صعوبات؛ ذلك أن الجليد الذي تشكل على سطح الخندق، لم يكن صلباً بما فيه الكفاية ليتمكن المرء من السير عليه، بل كان من النوع الرقيق الذي يتشكل عندما تكون الرياح شرقية أكثر منها شمالية. وقد أدى الثلج الذي تساقط في الليل والريح العاصفة القوية إلى رفع مستوى المياه في الخندق حتى إنها غمرت أجسامهم ولم يبق سوى رؤوسهم فوق الماء. ومع ذلك فلولا تلك العاصفة الهوجاء لما تمكنوا من الفرار أبداً.

غادر البلاطيون الخندق في كتلة واحدة متراصة وساروا في الطريق الذي يتجه نحو طيبة، وإلى يمينهم مزار البطل أندروكراتيس.؛ لأنهم تصوروا أن هذا الطريق الذي يؤدي إلى بلاد أعدائهم سيكون آخر مكان يشتبه بأنهم سلكوه. وفي الواقع، أنهم عندما كانوا على هذا الطريق رأوا البيلوبونيز وبأيديهم المشاعل يحاولون العثور عليهم على الطريق إلى أثينا باتجاه سيثايرون ودروس–كيفالاي. وبعد أن قطع البلاطيون مالا يقل عن نصف ميل على الطريق إلى طيبة، انحرفوا عنه وسلكوا الطريق المؤدي إلى الجبال باتجاه إريثراي وهيسيا. وبعد أن وصلوا الجبال شقوا طريقهم بأمان إلى أثينا، وكان عددهم مئتين واثنى عشر رجلاً؛ ذلك أن بعضهم قد عاد إلى المدينة قبل اجتياز السور، وتم أسر أحد الرماة عند القناة الخارجية.

وأخيراً تخلى البيلوبونيز عن ملاحقتهم وعادوا إلى مواقعهم. أما البلاطيون في المدينة فلم تتوفر لهم معلومات عما جرى، وأخبرهم الرجال الذين رجعوا إلى المدينة أن الفارين بأكملهم قد أبيدوا. ولذلك أرسلوا مع تباشير الصباح مبعوثاً لطلب الهدنة ليتمكنوا من استعادة جثث قتلاهم، لكنهم تخلوا عن الفكرة عندما عرفوا الحقيقة. وهكذا تمكن البلاطيون الذي أقدموا على هذه المحاولة من اجتياز السور والوصول إلى الأمان.

في نهاية الشتاء أرسل سالينوس من إسبارطة إلى ميتيلينة في سفينة ثلاثية المجاذيف، فاتجه إلى بيره بحراً، ومن هناك ذهب سيراً على الأقدام بمحاذاة قناة المياه إلى حيث يمكنه عبور السور المحيط، وهكذا انسل إلى ميتيلينة في غفلة عن الحراس، وهناك أخبر الحكام بأن غزو أتيكا وشيك، وأن السفن الأربعين التي ستقدم لهم المساعدة في طريقها إليهم، وأنه قد أوفد ليحمل إليهم تلك الأخبار ويتسلم زمام الأمور بشكل عام. وهذا ما جعل الميتيلينيين يتشجعون ويصبحون أقل ميلاً إلى الصلح مع أثينا. وبذلك انتهى الشتاء، وانتهت السنة الرابعة لهذه الحرب التي سجل وقائعها ثوسيديديس.

الفصل الثاني: استسلام ميتيلينة. عجز أسطول البيلوبونيز

في الصيف التالي أرسل البيلوبونيز اثنتين وأربعين سفينة إلى ميتيلينة بقيادة أمير البحر ألسيداس، أما هم فقاموا مع حلفائهم بغزو أتيكا، ليضيقوا على الأثينيين بفتح جبهتين في آن واحد، ويجدوا أنه يشق عليهم مهاجمة الأسطول المتجه نحو ميتيلينة. كان قائد هذا الغزو كليومنيس، باسم الملك القاصر باوسانياس بن بليستوناكس. وكليومنيس هذا هو شقيق بليستوناكس. وقد قامت القوات الغازية بإتلاف كل ما بدأ ينمو من جديد في المناطق التي دمروها من قبل، وتابعوا تخريب الممتلكات التي سلمت في الغزوات السابقة. وهكذا كانت هذه أسوأ غزوة مرت بأتيكا باستثناء الغزوة الثانية. ولقد أطال الأعداء الإقامة في أتيكا واجتاحوا معظم البلاد؛ لأنهم كانوا بانتظار سماع ما قام به أسطولهم في ليسبوس، الذي كانوا يعتقدون أنه وصل إلى هناك في ذلك الوقت. وفي النهاية عندما لم تتحقق آمالهم ونفذت مؤونتهم، ارتدوا عائدين إلى مختلف المدن التي قدموا منها.

وإبان ذلك اضطر الميتيلينيون إلى التوصل إلى اتفاق مع الأثينيين لنفاد مؤنهم من الطعام، بالإضافة إلى أن السفن البيلوبونيزية مازال وصولها إلى الموانئ بعيداً جداً، لاستمرارها في تبديد الوقت في الطريق إليهم. وتم الاستسلام بسبب الظروف التي يلي شرحها: كان ساليثوس نفسه قد فقد الأمل بوصول السفن، فأخذ يزود الناس بدروع ثقيلة – وهم الذين اقتصر تجهيزهم في السابق على عتاد المشاة الخفيفة–، وقصده قيادتهم في مواجهة الأثينيين. ولكن ما إن وجد الناس أنفسهم مسلحين تسليحاً جيداً حتى رفضوا الانصياع لأوامر الدولة. وعقدوا الاجتماعات فيما بينهم وطالبوا السلطات بإخراج كافة المواد الغذائية للملأ وتوزيعها عليهم جميعاً، وإلا فسيعملون على التوصل لاتفاق مع الأثينيين وتسليمهم المدينة.

أدرك أعضاء الحكومة أنهم عاجزون تماماً عن منع هذا الأمر وأنهم سيواجهون الأخطار، إن تم الاتفاق بمعزل عنهم. ولهذا اشتركوا في التوصل إلى اتفاق مع باخيس والجيش الأثيني. وكانت شروط الاتفاق هي التالية: لأثينا الحق في السلوك تجاه الشعب الميتيليني وفق ما تراه مناسباً، وأن يسمح للجيش بدخول المدينة، وأن يرسل الميتيلينيون ممثلين عنهم إلى أثينا ليعرضوا قضيتهم، ويتعهد باخيس بألا يسجن أو يسترق أو يقتل أياً من السكان حتى عودة هؤلاء.

بالرغم من أن تلك كانت شروط الاستسلام، إلا أن أفراد الفريق الأكثر نشاطاً في خدمة المصالح الإسبارطية في ميتيلينة ظلوا على حالهم من الخوف، حتى إنهم سارعوا إلى مغادرة المدينة ما إن دخل الجيش إليها، والتجؤوا إلى المزارات والمعابد وهم يتضرعون. فأنهضهم باخيس من وضع التضرع ووعدهم بألا ينالهم أذى، ثم سجنهم في تنيدوس حتى يعلم قرار الأثينيين بشأنهم. كما أرسل سفناً ثلاثية المجاذيف إلى أنتيسا واحتلها، واتخذ عدة إجراءات عسكرية وجد أن الضرورة تستدعي اتخاذها.

في تلك الأثناء كان البيلوبونيز في السفن الأربعين، والذين يفترض بهم أن يسرعوا لإنقاذ ميتيلينة، قد أضاعوا الكثير من الوقت في دورانهم حول البيلوبونيز، ثم تابعوا طريقهم متمهلين وكأنهم في رحلة استجمام، حتى وصلوا أخيراً إلى ديلوس، دون أن يلحظهم الأثينيون في أثينا.

ومن ديلوس توجهوا إلى إيكاروس وميكونوس، وهناك سمعوا لأول مرة بأنباء سقوط ميتيلينة. ورغبة منهم في الحصول على المزيد من المعلومات، أبحروا إلى أمباتوم في إريثراي، فوصلوا إليها بعد سبعة أيام من استسلام ميتيلينة. ولما حصلوا على بغيتهم من المعلومات، أخذوا يناقشون ما ينبغي عليهم القيام به في ضوء ما حدث. فقام تيوتيابلوس – وهو رجل من ايليس – بإلقاء خطبة قدم فيها النصيحة التالية:

"يا ألسيداس ويا رفاقي القادة البيلوبونيز، إنني أقترح أن نركب البحر إلى ميتيلينة على الفور قبل أن نستلفت الانتباه ويعلموا بوجودنا هنا. ولما كانوا قد استولوا على المدينة للتو، فمن المرجح أننا سنجد أنهم خففوا من حذرهم كثيراً، ومن المؤكد أن هذا ما سنجده من جهة البحر أيضاً؛ إذ لن يخطر ببالهم بأن الهجوم سيداهمهم، والواقع أن في هذه المفاجأة تكمن قوتنا الأساسية. كذلك من المحتمل أن تكون قواتهم البرية بعد الانتصار الذي تحقق لهم منتشرة بين بيوت المدينة بصورة تفتقر إلى النظام. لذا أعتقد أننا إذا قمنا بهجوم مفاجئ ليلاً، فسيكون بإمكاننا السيطرة على المكان بمساعدة أنصارنا في المدينة. فلنطرح عنا الخوف، ولنتذكر أن هذا مثال عن العامل المجهول في الحرب، وأن القائد الجيد هو الذي ينتبه لمثل هذه العوامل المجهولة في الحال الذي يعترضه، لكنه يستغلها للهجوم عند التعامل مع العدو."

إلا أن ألسيداس لم يقتنع بهذه النصيحة، فاقترح عليه عندئذ بعض المنفيين الأيونيين والليسبيين الذين كانوا في أسطوله أن يسيطر على إحدى المدن الأيونية أو كوماي في ايوليا - إن بدت له مخاطر تلك النصيحة كبيرة -، وأن يستخدمها قاعدة لتنظيم ثورة في أيونيا. وزعموا أن هذا أمر ممكن بشكل جلي، وأنهم سيلاقون الترحيب في كل مكان. وكان هدفهم من ذلك فصل أيونيا عن أثينا، وهي التي تشكل أكبر مصدر للدخل لها، وفي الوقت ذاته تكبيدها المزيد من النفقات إذا قررت الإنفاق على أسطول لقتالهم. وأضافوا أنهم يعتقدون أن بمقدورهم كسب بيسوثنيس إلى صفهم.

لكن حتى هذه الخطة لم ترق لألسيداس الذي كانت فكرته الأساسية العودة إلى البيلوبونيز بأقرب وقت ممكن، بعدما تأخر كثيراً عن الوصول إلى ميتيلينة. ولهذا أبحر من أمباتوم وتابع الإبحار على طول الشاطئ إلى مدينة ميونيسوس في تيان. وهناك أعدم معظم السجناء الذين أخذهم في رحلته. وفي وقت لاحق حين كانت سفنه راسية في أفسوس، جاءه وفد من الساميان من أنايا، وقالوا له: إن الطريقة السليمة لتحرير هيلاس

لا تكون بذبح من لم يقوموا بأي شيء ضده، وما كانوا أعداء له، فهؤلاء ما هم إلا قوم فرض عليهم أن يكونوا حلفاء لأثينا. وأنه بدلاً من أن يجعل من أعدائه أصدقاء له سوف يحيل أصدقاءه إلى أعداء، إن استمر في هذه المذابح.

أدرك ألسيداس قوة هذه الحجة فأطلق جميع السجناء من خيوس الذين مازالوا لديه وبعض السجناء من أماكن أخرى؛ ذلك أن الناس عندما شاهدوا أسطوله لم يحاولوا الفرار، بل أتوا للقاء السفن لاعتقادهم بأنهم من الأثينيين، إذ لم يتخيلوا أبداً أن يقدم أي أسطول من البيلوبونيز على العبور إلى أيونيا، والأثينيون مسيطرون على البحر.

ولقد أبحر ألسيداس من أفسوس بسرعة ولاذ بالفرار؛ ذلك أنه بينما كان راسياً في كلاروس، شاهدته السفينتان الأثينيتان سلامينيا وبارالوس اللتان صادف أن كانتا تبحران من أثينا، ولقد أبحر في عرض البحر خوفاً من الملاحقة، وهو عازم على ألا يرسو في أي ميناء إن استطاع، حتى يصل البيلوبونيز.

وأثناء ذلك وصلت أنباء وجوده في تلك الأصقاع إلى أسماع باخيس والأثينيين من إريثراي، وفي الواقع من جميع الجهات. ذلك أنه لما كانت مدن أيونيا غير محصنة، فقد خشي سكانها أن يقوم البيلوبونيز أثناء إبحارهم بالنزول إلى اليابسة وتخريب تلك المدن، ولو لم يكن في نيتهم البقاء فيها. والآن وصلت السفينتان بارالوس وسلامينيا ومعهما نبأ رؤيتهما أسطول العدو عند كلاروس. فخرج باخيس إلى البحر على الفور بحثاً عنه وراح يطارده حتى جزيرة باتموس، ثم قفل عائداً، بعد أن اتضح أن ألسيداس قد فرَّ وبات بعيداً عن متناوله. ولما لم يتمكن من اللحاق بالبيلوبونيز في عرض البحر، دار في خلده أن من حسن الحظ أنهم لم يكتشفوا في مكان آخر؛ إذ كانوا سيضطرون إلى بناء معسكر لإقامتهم وتحصينه، مما سيجشم الأثينيين عناء تنظيم حصار دائم من البر والبحر معاً.

وبينما كان باخيس يبحر بمحاذاة الساحل في طريق عودته، ألقى مراسيه في عدة

مواقع، منها نوتيوم وهي ميناء كولوفون، حيث استقر الكولوفونيون فيها بعد أن تم احتلال المدينة العليا على يد إيتامينيس وقواته الأجنبية، الذين استدعاهم البعض لتحقيق مطامحهم السياسية. وقد تم احتلال المدينة نحو زمن غزوة البيلوبونيز الثانية لأتيكا. وعلى أية حال، فإن المنفيين الذين استقروا في نوتيوم انقسموا مرة ثانية إلى حزبين متصارعين. واستدعى أحدهما الأركاد ومرتزقة أجانب من بيسوثنيس، وأنزلوهم في قسم من المدينة كانوا قد عزلوه عن باقي المدينة بسور، وبذلك أقاموا دولة منفصلة بمساعدة الحزب المؤيد للفرس من الكولوفونيين في المدينة العليا. بينما فرَّ الحزب الآخر في نوتيوم إلى المنفى وراح يطالب بقدوم باخيس، الذي حين وصل دعا هيبياس قائد المرتزقة الأركاد الموجودين داخل التحصينات، للقائه والتباحث معه، متعهداً بعودته سالماً إلى التحصينات إذا لم يتم التوصل إلى اتفاق. ولهذا خرج هيبياس للقاء باخيس الذي قام باعتقاله، بالرغم من أنه لم يضع القيود في معصميه. ثم باغت قواته بهجوم مفاجئ واستولى على التحصينات. وأعدم جميع الأركاد والقوات الأجنبية الذين كانوا في الداخل، وفيما بعد أعاد هيبياس إلى هناك كما وعد، ولكن ما إن أصبح في الداخل حتى أمر بالقبض عليه وإعدامه رمياً بالسهام. وسلم نوتيوم إلى الكولوفونيين مستثنياً منهم الحزب المؤيد للفرس. ولقد أرسل الأثينيون في وقت لاحق مستوطنين وجعلوا المكان مستعمرة خاضعة للقانون الأثيني، بعد أن جمعوا كافة الكولوفونيين الذين عثروا عليهم في المدن الأخرى بعضهم مع بعض.

وعاد باخيس بعد ذلك، إلى ميتيلينة وأخضع بيره وإيريسوس. وعثر على ساليثوس الإسبارطي مختبئاً في المدينة فأرسله إلى أثينا، ومعه الميتيلينيون الذين كان قد وضعهم في تنيدوس وآخرون اعتبرهم متورطين في تنظيم الثورة. وأعاد القسم الأعظم من جيشه. أما هو فقد بقي مع قسم من قواته ورتب الأمور في ميتيلينة وبقية أنحاء ليسبوس وفق ما رآه مناسباً.

الفصل الثالث: المناظرة حول ميتيلينة

حين وصل ساليثوس والسجناء الآخرون إلى أثينا، قام الأثينيون على الفور بإعدام ساليثوس بالرغم من أنه تعهد بأمور عديدة من بينها انسحاب البيلوبونيز من بلاطية، التي كانت لا تزال محاصرة. ثم تداولوا فيما ينبغي أن يكون التصرف مع السجناء الآخرين، ونتيجة لنوبة الغضب التي كانت تعصف بهم قرروا عدم الاكتفاء بإعدام السجناء الذين في حوزتهم، بل إعدام جميع سكان ميتيلينة من الذكور البالغين، وجعل النساء والأطفال عبيداً أيضاً. وكان السبب في ضغينتهم على ميتيلينة قيامها بالثورة، وهي التي لم تكن دولة تابعة مثل بقية الدول، ومما زاد في حدة مشاعرهم تجرؤ الأسطول البيلوبونيزي على العبور إلى أيونيا لمساندة الثورة. وكان اعتقادهم أن هذه الثورة كانت عملاً مدبراً، وما كانت لتحدث لو لم يخطط لها منذ زمن طويل. ولهذا أرسلوا سفينة ثلاثية المجاذيف إلى باخيس لإعلامه بقرارهم والأوامر التي تقضي بإعدام الميتيلينيين فوراً.

ومع ذلك ففي اليوم الثاني طرأ تغير مفاجئ في المشاعر وبدأ الناس يفكرون في أن اتخاذ قرار لا يقضي بقتل المذنب وحسب، بل إعدام سكان الدولة أجمعين، أمر قاس ولم يسبقهم إليه أحد من قبل. وعندما لاحظ ذلك الوفد الممثل لميتيلينة الذي كان موجوداً في أثينا سعى والأثينيون الذين يؤيدونهم إلى تقديم اقتراح إلى السلطات بطرح القضية للنقاش، فتمت لهم الموافقة بسهولة؛ لأن الحكومة رأت بوضوح أن معظم المواطنين كانوا يريدون أن يقدم لهم شخص ما الفرصة لإعادة النظر في القضية. ولهذا تمت الدعوة إلى عقد اجتماع لمجلس المدينة على الفور، وتداول فيه الطرفان مختلف الآراء، ووقف كليون بن كلينيتوس خطيباً ثانية، فقد كان المدعي في القضية أصلاً والمسؤول عن قرار إعدام الميتيلينيين. وكان شخصية استثنائية بين الأثينيين وتفرد بنزوعه للقسوة والعنف، وكان له أعظم التأثير في نفوس الناس فألقى الخطبة التالية:

"لقد سبق أن أتيحت لي فرص كثيرة لأعلن أن الديمقراطية عاجزة عن حكم الآخرين، وإن قناعتي لتزداد عندما أرى كيف تبدلت الآن آراؤكم بشأن الميتيلينيين. ولأن الخوف والمؤامرة ليس لهما أي دور في علاقاتكم اليومية بين بعضكم بعضاً، فإنكم تظنون أن الأمر نفسه يصدق على حلفائكم أيضاً، وتعجزون عن أن تتبينوا أنكم حين تمكنونهم من حملكم على اتخاذ قرار خاطئ وتفسحون المجال لمشاعر التعاطف أن تسود إنما تكونون آثمين بالأخذ بنوع من الضعف هو خطر عليكم ويفقدكم محبتهم بعد الآن. إن ما لا تدركونه هو أن إمبراطوريتكم تمارس حكماً مطلقاً على رعايا لا يستسيغون استبدادها ويتآمرون عليكم طوال الوقت، ولن تحملوهم على طاعتكم بالإضرار بمصالحكم من أجل أن تسدوا إليهم معروفاً؛ فزعامتكم تعتمد على التفوق في القوة وليس على حسن نواياهم. وإن أكثر الأمور سوءاً أن تضعوا القواعد، ثم لا تلتزموا بها. وعلينا أن ندرك أن مدينة تحكمها قوانين سيئة لكن ثابتة هي أفضل حالاً من أن تكون قوانينها جيدة إلا أنها تتغير باستمرار، وأن نقص المعرفة حين يجتمع مع الحس السليم أكثر نفعاً من ذلك النوع من الذكاء الذي لا سيطرة عليه. وكقاعدة عامة من الأفضل أن يحكم الدول رجل من العامة من أن يحكمها المثقفون؛ لأنهم من ذلك النوع من البشر الذين يريدون أن يظهروا أنهم أكثر حكمة من القوانين، ويريدون أن يجعلوا كل نقاش عام يجري على هواهم، ذلك أنهم يشعرون بعدم قدرتهم على إظهار ذكائهم في أمور أكثر أهمية، وهؤلاء غالباً يجلبون الدمار على بلادهم نتيجة لذلك النزوع. لكن النوع الآخر من الرجال – الذين لا يتمتعون بذات القدر من الثقة بذكائهم – مستعدون للاعتراف بتفوق حكمة القوانين عليهم، وأنهم يفتقرون إلى المقدرة على نقد خطبة ألقاها متحدث بارع. إنهم حكام لا يخضعون للهوى، ولا هم ينزعون للمنافسة؛ ولذلك فإن الأمور غالباً ما تجري على ما يرام حين يكون هؤلاء في السلطة. فعلينا نحن رجال الدولة أن نحاول الاقتداء بهم، عوضاً عن أن تجرفنا الحصافة المجردة والرغبة في

استعراض ذكائنا، فنقدم لكم أيها الشعب، نصيحة لا نؤمن نحن بها حقاً.

"أما فيما يتصل بي، فإنني لم أغير رأيي، وإني لأعجب ممن طالبوا بإعادة النظر في مسألة ميتيلينة، فسببوا بذلك تأخيراً يفيد منه الطرف المذنب وحده؛ ذلك أن مضي الزمن يقلل من حدة غضب من لحق به الأذى على من آذاه، في حين أن أفضل عقاب وأكثر أشكاله ملاءمة للجريمة هو الذي يأتي بعدها مباشرة. ولسوف أعجب بعد إن خالفني أحد بالرأي وحاول البرهان على أن الضرر الذي ألحقته بنا ميتيلينة هو في الواقع خير لنا، أو أننا حينما نعاني فإننا نلحق الضرر بحلفائنا على نحو ما. وغني عن القول أن من يذهب هذا المذهب هو إما رجل شديد الثقة بقدراته الخطابية لدرجة تحمله على الكفاح لإقناعك بأن ما بُت فيه بصورة نهائية هو على النقيض من ذلك لم يحسم أبداً، وإما إنه نال رشوة ليلقي خطبة عصماء يحاول أن يحملك بها على الخروج عن طريق الصواب. وفي مناقشات من هذا القبيل تكون الجوائز من نصيب الآخرين بينما تنال الدولة الأخطار كلها. أنتم الملامون، فبحماقتكم أقمتم هذه المباريات الاستعراضية، وغدوتم ترتادون المهرجانات الخطابية بانتظام، أما الأفعال فقد أصبحتم تسمعون الروايات عنها وحسب، وإذا ما وجب عليكم القيام بأمر ما في المستقبل تعملون على تقدير الاحتمالات بسماعكم لخطبة جيدة في الموضوع، وأما الماضي فإنكم ما عدتم تعتمدون على الحقائق التي شاهدتموها بأم أعينكم بقدر اعتمادكم على ما سمعتموه عنها في إحدى روائع النقد اللفظي البارع. وأي بدعة جديدة في قضية ما كفيلة بأن تخدعكم على الفور، ولكن عندما تختبر هذه الحجة وتثبت بالبرهان عندئذ ترفضون اتباعها. إنكم ترتابون بما هو طبيعي، وتستعبدكم كل مفارقة طريفة تصادفكم. وأول الرغبات عند أحدكم أن يكون قادراً على إلقاء خطبة بنفسه، وإن لم يستطع القيام بذلك، فإن ما يليه في التفضيل التنافس مع القادرين على إلقاء خطب كهذه؛ وذلك بألا تظهروا عجزكم عن فهم الآراء التي تستمعون إليها، وبالتصفيق لفكرة جيدة حتى قبل طرحها،

وبأن تكونوا سريعين في رؤية كيف ستتطور الفكرة بقدر ما أنتم بطيئون في فهم ما الذي ستؤدي إليه في النهاية. ويجدر بي القول: إن ما تبحثون عنه طوال الوقت هو أمر خارج نطاق الخبرة العادية، ومع ذلك ليس بمقدوركم أن تفكروا بشكل سليم في حقائق الحياة المعروضة أمامكم. إنكم ببساطة ضحايا متعتكم بالإصغاء، وأنتم أقرب إلى أن تكونوا جمهوراً يجلس عند قدمي محاضر محترف أكثر من كونكم برلماناً يناقش قضايا الدولة.

" إني أحاول منعكم من التصرف على هذا النحو، وأقول: ليس ثمة مدينة أساءت إليكم مثلما أساءت ميتيلينة. وإني شخصياً لألتمس أعذاراً لمن ثاروا؛ لأنهم وجدوا حكمكم لا يطاق، أو لأنهم أجبروا على ذلك بفعل عدو. بينما لدينا هنا حالة شعب يعيش أفراده في جزيرة وراء تحصيناتهم، وليس لديهم ما يخشونه من أعدائنا سوى أن يتعرضوا لعدوان من البحر وهم محصنون منه بشكل مناسب، بفضل قوتهم من السفن الثلاثية المجاذيف، ولديهم حكومتهم المستقلة وكنا نعاملهم بأعظم قدر من المراعاة. والآن وقد تصرفوا بهذا الشكل فإنني لا أسمي ما قاموا به ثورة ؛ لأن البشر إنما يثورون عندما يعاملون معاملة سيئة). إنها حالة عدوان مدبر بأن ينحازوا عمداً إلى جانب ألد أعدائنا للقضاء علينا. وهذا أسوأ بكثير مما لو شنوا حرباً علينا ليضاعفوا من قوتهم وحسب. إنهم لم يتعلموا شيئاً من المصير الذي انتهى إليه جيرانهم الذين سبق لهم أن ثاروا وتم إخضاعهم. إن الرخاء الذي كانوا يتمتعون به لم يجعلهم يتمهلون قبل الوقوع في الخطر، وأعلنوا الحرب علينا، وهم واثقون في المستقبل وبآمال تتجاوز قدراتهم فعلاً، وهي دون رغباتهم بكثير. لقد حسموا أمرهم فجعلوا القوة في المقام الأول والحق في المقام الثاني، واختاروا اللحظة التي اعتقدوا أن بإمكانهم الفوز فيها، ثم شنوا عدوانهم غير المبرر علينا.

"الحقيقة أنه عندما تصادف دولة ما ثراء عظيماً على نحو مفاجئ وغير متوقع، غالباً يتولد لديها شعور بالغطرسة والتكبر. وفي معظم الحالات من الأسلم للمرء أن يحظى بقدر معتدل من النجاح عوضاً عن أن يحظى بشيء بعيد تماماً عن كل توقع. ويجدر بي القول: إن من الأسهل على المرء أن يتفادى المشاق من أن يحافظ على السعادة. وكان ينبغي علينا منذ أمد بعيد أن نعامل الميتيلينيين كما نعامل سواهم؛ ولو فعلنا لما كان لهم أن يبلغوا هذا القدر من التيه؛ ذلك أن القاعدة العامة للطبيعة البشرية تقول: إن الناس يزدرون من يحسن معاملتهم، ويقدرون من يأخذهم بالحزم والشدة. إذن فليلقوا الآن عقابهم الذي يستحقونه. ولا تلقوا اللوم على الأرستقراطيين فتقولوا: إن الناس أبرياء مما أتى به هؤلاء. فالحقيقة أنهم جميعاً مشتركون بالعدوان علينا، مع أنه كان بمقدور الناس أن يكونوا في صفنا، ولو كان هذا شأنهم، لكانوا الآن قد استعادوا سيطرتهم على مدينتهم. ولكن عوضاً عن ذلك، حسبوا أن من الأسلم لهم الاشتراك في الأخطار، والانضمام إلى ثورة الأرستقراطيين.

"والآن فكروا في حلفائكم. فإذا كنتم ستنزلون العقاب ذاته بمن أجبرهم أعداؤكم على الثورة عليكم ومن قام بذلك طواعية، أفلا ترون أنهم جميعاً سيثورون عليكم لأوهى سبب، عندما يعني النجاح الحرية ولا يجلب الفشل عواقب خطيرة ؟ وفي أثناء ذلك علينا أن ننفق أموالنا ونخاطر بحياتنا في مواجهة الدولة تلو الأخرى، فإذا توِّجت جهودنا بالنجاح، فإننا نسترد مدينة تعاني الخراب، وبذلك سنخسر عوائدها مستقبلاً، والتي تستند قوتنا عليها، وإذا ما فشلنا في إخضاعها، فسيزداد عدد الأعداء الذين علينا أن نتعامل معهم بالإضافة إلى أعدائنا الحاليين، وسنمضي الوقت في قتال حلفائنا في حين كان يجدر بنا أن نمضيه في مواجهة أعدائنا الحاليين.

"ولهذا يجب ألا يأمل الميتيلينيون بأن تأتي لهم خطبة حسنة أو رشوة ضخمة بالصفح عنهم بذريعة أن الخطأ من طبيعة البشر. والحق أن الأذى الذي لحق بنا على

أيديهم لم يكن مصادفة غير مقصودة؛ فلقد كانوا يعلمون ما هم مقدمون عليه وخططوا له سلفاً، والمرء لا يغفر إلا ما يصدر عفواً. أما بالنسبة لي، فمازلت كعهدكم بي في البداية، ولسوف أظل ألح على التأكيد على أهمية عدم تغيير قراراتكم السابقة. أن تشعروا بالشفقة، وأن تستحوذ عليكم متعة سماع نقاش ذكي، وأن تصغوا لدواعي اللياقة أمور ثلاثة تتعارض ومصالح القوى الاستعمارية. فحذار من حملكم لهذه الذنوب. أما التعاطف فالأجدر أن تشعروا به حيال شعوب مثلنا ومن سيشعرون بالتعاطف معنا بدورهم، وليس حيال هؤلاء الذين لا يبادلوننا المشاعر، وحري بنا أن نبقي هؤلاء على الدوام أعداء لنا. أما الخطباء الذين يثيرون المتعة بمجادلاتهم، فعليهم أن ينصرفوا في مبارياتهم إلى موضوعات أقل أهمية، وليس إلى قضايا قد تكلف الدولة غالياً مقابل متعة تافهة، بينما المتحدثون أنفسهم يتمتعون بلا ريب بالمكافآت العظيمة لمناظراتهم الرائعة. والإحساس باللياقة ومراعاة الأصول لا يكون إلا تجاه من سيصبحون أصدقاء لنا في المستقبل، وليس تجاه من يبقون أعداءنا كما هي حالهم دوماً.

"دعوني ألخص لكم الأمر كله فأقول: إذا اتبعتم نصيحتي بشأن ميتيلينة، فإنكم تفعلون الصواب وتحققون مصالحكم في الوقت ذاته؛ أما إذا قررتم خلاف ذلك فلن تكسبوهم إلى صفكم، بل ستصبحون أمثولة للخاسرين؛ لأن ثورتهم إذا كانت مبررة، فأنتم مخطئون بإمساككم بالسلطة، أما إذا كنتم تعتزمون الاحتفاظ بزمام السلطة في أيديكم، صواباً كان ذلك أم خطأ، فإن مصلحتكم تقتضي أن ينزل بهؤلاء العقاب، بصرف النظر عن خطأ الأمر أو صوابه. والبديل الوحيد لذلك أن تتنازلوا عن إمبراطوريتكم، لتكونوا قادرين على الاستمرار في أعمال الخير والإحسان. فاحسموا أمركم، وليكن عقابكم لهم بقدر جريمتهم، ولا تبدوا أنتم يا من نجيتم من مكائدهم، دون من بادروكم سرعة في الرد. وتذكروا كيف كانوا سيعاملونكم لو أن النصر تم لهم، خاصة وأنهم كانوا المعتدين. إن من يسيئون إلى جارهم عندما لا يكون ثمة مبرر لذلك،

هم من يواظبون على عدوانهم حتى القضاء عليه؛ لأنهم يرون الخطر الناجم عن السماح لعدوهم بالبقاء. فمن وقع عليه الظلم إثماً وعدواناً يغدو أشد خطراً – إن نجا – من ذاك الذي سبب الأذى للآخرين وعانى منها حقاً.

"لذلك أسألكم ألا تسيئوا إلى أنفسكم. وتخيلوا أنفسكم في اللحظة الأولى لمعاناتكم وتذكروا كم كنتم مستعدين للتضحية لتعيدوهم إلى سلطانكم. والآن قابلوهم بمثل ما سلف منهم، واجعلوهم يدفعون الثمن، ولا تتهاونوا معهم في هذه اللحظة الراهنة، متناسين الخطر الذي كان يتهددكم آنذاك. أنزلوا بهم العقاب الذي يستحقونه، واجعلوا منهم عبرة لحلفائكم الآخرين، وليكونوا برهانكم الجلي على أن الموت جزاء العصيان. فإن أدركوا هذا الدرس، فلن تضطروا إلى إهمال حربكم مع أعدائكم، لتنصرفوا لمحاربة حلفائكم".

هكذا تحدث كليون، وجاء بعده ديوتوس بن يوكراتيس، الذي كان في الاجتماع السابق ناشطاً في معارضة الاقتراح بإعدام الميتيلينيين، فتقدم ثانية للحديث في هذه المناسبة وقال ما يلي:

"إني لا ألوم من تقدموا باقتراح إجراء نقاش جديد بشأن ميتيلينة، ولا أشارك في وجهة النظر التي استمعنا إليها، والتي تقول إنه أمر سيء أن نكثر النقاش في قضايا ذات شأن. إن التسرع والغضب هما في رأيي أعظم عائقين أمام المشورة الحكيمة؛ التسرع الذي غالباً ما يتلازم مع الحماقة، والغضب الذي هو دليل على العقول البدائية والضيقة. ومن يقول: إن الكلمات لا يمكن أن تكون دليلاً على الأفعال، فلا بد أنه أحمق أو ذو مصلحة شخصية يرى أنها في خطر؛ إنه أحمق إذا اعتقد أنه يستطيع التعامل مع خفايا المستقبل بغير هذه الوسيلة، وهو معني بمصلحته الشخصية إذا كان يرمي لإقناعكم بالقيام بعمل مشين، ولما كان يعلم أنه قاصر عن إلقاء خطبة جيدة في قضية فاسدة، يحاول أن يخيف خصومه ومستمعيه ببعض الخطب المسهبة المضللة. وما تضيق به

النفس أكثر هؤلاء الأشخاص الذين يذهبون إلى أبعد من ذلك ويتهمون المتكلم باستعراض النفس والتباهي؛ لأنه تلقى أجراً لوقوفه هذا الموقف. فإذا كان المتحدث متهماً بالجهل وحسب، فإنه يستطيع أن يتراجع إذا فشل في كسب قضيته، وينسحب من النقاش ويظل في نظر الجميع شريفاً، ولو لم يكن يتمتع بذكاء عظيم. ولكن عندما يتهم بالفساد، فسوف يكون موضع ريبة إذا ما كسب قضيته، أما إذا خسرها، فسيعتبر رجلاً غير شريف وغبياً في الوقت نفسه. إن وضعاً كهذا لا يفيد المدينة؛ إذ سوف يخشى مستشاروها من التحدث فتحرم من خدماتهم. ومع ذلك فمن المؤكد أن أفضل حال ممكن للمدينة أن يفتقر هؤلاء الرجال الذين كنت أصفهم إلى القدرة على التعبير عن أنفسهم؛ فلا نتورط عندئذ بارتكاب مثل هذه الأخطاء الكثيرة.

"حري بالمواطن الصالح أن يثبت صحة قضية بالحجة والبرهان عوضاً عن محاولة إرهاب المعارضين. ومن المؤكد أن الدولة الحكيمة، وإن كانت لا تولي أفضل مستشاريها تكريماً خاصاً فإنها لا تحول قطعاً دونهم والشرف الذي كانوا يتمتعون به من قبل. وحين لا يؤخذ برأي رجل من الرجال، فينبغي ألا يعرض به، ناهيكم عن أن يعاقب. وهكذا من المستبعد أن يسعى الخطباء البارعون إلى أن يحصلوا على المزيد من الشهرة أو المال عن طريق التحدث بما يعارض معتقداتهم لكسب رضى الناس، كذلك فإن المتحدثين الفاشلين لن يناضلوا لكسب الناس بأساليب الإطراء المعهودة. ومع ذلك فإن ما نفعله هنا هو النقيض تماماً. كذلك إذا قدم رجل أفضل نصيحة ممكنة، فإننا عند أدنى اشتباه في كونه متأثراً بمصلحته الخاصة، نضيق جداً بفكرة مصلحته هذه – وهي أمر غير مثبت أبدا– لدرجة أننا لا ندع الدولة تحصل على المنفعة من نصيحته الجيدة تلك. وهكذا وصلت الأحوال إلى أن الرأي الحسن الذي يقدم بصدق يصبح موضع شك وكأنه أمر سيء جداً، والنتيجة: كما أن المتحدث الذي ينصح بأمر فظيع عليه أن يكسب الناس بخديعتهم، كذلك على الرجل صاحب النصيحة الحسنة أن يتوسل بالأكاذيب، إن أراد

أن يصدقه الناس. وبسبب هذا التشذيب للحالة الذهنية، وضعت الدولة في موقف فريد؛ فباتت الجهة الوحيدة التي ليس بوسع أحد أن يؤدي لها خدمة حسنة بشكل علني ودونما خداع؛ ذلك أنه إذا قام أحدهم بعمل وطني، فإن المكافأة التي يحصل عليها مقابل معاناته هي الظن بأنه حقق لنفسه مكسباً عظيماً من وراء هذا العمل. ومع ذلك ورغم هذا كله فإننا نناقش أموراً غاية في الأهمية، ويجب علينا نحن الذين نقدم لكم المشورة أن نكون عازمين على النظر إلى الأمور بصورة أعمق منكم أنتم الذين ينصرف انتباهكم كلياً إلى سطحها ، خاصة وأننا يمكن أن نحاسب على النصيحة التي نقدمها، في حين أنكم لستم مسؤولين عن الطريقة التي تتلقونها بها. ومن المؤكد أنكم ستكونون أكثر حرصاً حين تتخذون قراراتكم، لو كان الطرف الذي طرح الاقتراح والذين صوتوا عليه جميعاً عرضة للعقوبة ذاتها على السواء. وبما أن الحال كما هو، فإنكم حين تستبد بكم نزوة اللحظة وتوردون أنفسكم موارد التهلكة، تنزعون إلى تبرئة أنفسكم وتنقلبون على من قدم لكم الاقتراح مع أنكم الأكثرية ومخطئون كما هو مخطئ تماماً.

"إنني لم أتقدم للحديث عن ميتيلينة رغبة في المعارضة أو اتهام أحد، فإذا كنا عقلاء، سنرى أن المسألة ليست ما إذا كانوا مذنبين بقدر ما هي إن كنا قد توصلنا إلى القرار الصائب من أجل أنفسنا. وقد أتمكن من إثبات أنهم أكثر الشعوب إيغالاً في الذنب، ولكن لا يتبع ذلك أنني سأقترح عقوبة الإعدام، إلا إذا كان ذلك في مصلحتكم. وقد أجادل فأقول : إنهم يستحقون المغفرة، لكن ينبغي علي ألا أوصي بالعفو إلا إذا بدا لي أنه الأفضل للدولة.

"وفي رأيي أن النقاش يتصل بالمستقبل أكثر مما يتعلق بالماضي. وإن إحدى النقاط الرئيسة التي طرحها كليون هي أن عقوبة الإعدام مفيدة لنا في المستقبل لردع المدن الأخرى عن القيام بالثورة لكنني – وأنا قلق مثله تماماً بشأن المستقبل – مقتنع كل الاقتناع بأن الأمر ليس على نحو ما ذهب إليه. وإني أطلب إليكم ألا ترفضوا ما هو مفيد

في حديثي من أجل ما هو مريب في حديثه. قد تجدون أن حديثه مغرٍ؛ لأنه ينسجم بشكل أفضل ومشاعر الغضب التي تستبد بنا الآن حيال الميتيلينيين، إلا أن هذه ليست جلسة محكمة، حيث ينبغي علينا أن نأخذ في اعتبارنا ما هو ملائم وعادل؛ بل اجتماع سياسي. والمسألة هي: كيف يمكن لميتيلينة أن تكون مفيدة لأثينا إلى أبعد الحدود؟.

"ولتعلموا الآن أن المجتمعات البشرية أخذت بعقوبة الإعدام في قضايا دون هذه خطورة، ومع ذلك فمازال الناس يقدمون على المجازفات، حين يبلغون درجة من الثقة بنجاحهم. وليس هناك بعد من جازف بارتكاب جريمة، وهو يظن أن النجاح لن يتحقق له. وهذا ما يصدق على الدول أيضاً؛ فما من دولة تمردت وقامت بمحاولة الثورة وهي ترى نفسها مفتقرة لما يدعمها سواء كان من قدراتها الذاتية أو من حلفائها. إن المدن والأشخاص سواء بسواء عرضة لارتكاب الخطأ بطبيعتهم، وليس هناك من قانون يحول دون ذلك، كما يشهد على هذا أن البشر عملوا على تجربة كل أنواع العقاب، ومازالوا يضيفون إلى القائمة حتى يأمنوا شر المجرمين وجرائمهم. ومن المرجح أن العقوبات لم تكن في الزمن القديم بالشدة التي هي عليها الآن حتى بالنسبة للجرائم الكبرى، ومع ذلك كانت القوانين تنتهك، وعلى مر الزمان أصبحت عقوبة الإعدام تطبق على وجه العموم، لكن بالرغم من ذلك، فإن القوانين ماتزال تخترق. وإذن إما أن نكتشف خوفاً ما أكثر قوة من الخوف من الموت، أو أن نقر أنه ليس لدينا هنا الرادع المناسب وهذا أمر لا مراء فيه. ومادام الفقر يرغم الرجال على الجرأة، ومادامت غطرسة الأغنياء وعجرفتهم تغذيان طموحاتهم وفي الأحداث الأخرى من الحياة فإنهم واقعون دوماً في أسر عاطفة ما مستبدة لا شفاء منها، ومادامت نزواتهم تستمر في دفعهم نحو الخطر، فإن الأمل والرغبة يستمران على الدوام ويسريان في شعاب الحياة ويؤديان إلى أفدح الكوارث؛ هذا يقود والأخرى تتبعه، هذا يرسم المغامرة والأخرى توحي بنجاحها ؛ عوامل خفية لكنها أكثر قوة من الأهوال الواضحة لأعيننا. كذلك فإن لفكرة الحصول على الثروة الدور الكبير

كأي أمر آخر في الإفراط بالثقة؛ إذ تأتي أحياناً دونما توقع لتعين المرء على أمره وتغري الرجال بالمخاطرة، وهم على غير استعداد لها كما ينبغي أن يكون الاستعداد. وهذا يصدق خصوصاً على الشعوب بأكملها؛ ذلك أنهم يقامرون بأعلى الرهانات ؛ إما على حريتهم أو على القدرة على السيطرة على الآخرين ، وكل فرد عندما يتصرف كجزء من المجتمع، يكون له رأي لا سند له من المنطق بأن قدراته تفوق ما هي عليه في حقيقتها. وخلاصة القول : إن من المستحيل منع الطبيعة البشرية من أن تجري مجراها بقوة القانون أو أي وسيلة من وسائل الضغط والإكراه . ولا ينكر هذا سوى أكثر الناس سذاجة.

"إلا أن علينا ألا نصل إلى الاستنتاجات الخاطئة بسبب ثقتنا الزائدة بنجاعة عقوبة الإعدام، وعلينا ألا نزيد في تردي حال الثائرين لتبلغ درجة اليأس بحرمانهم من إمكانية الندم والتوبة ومن فرصة التكفير عما فعلوه بأسرع ما يمكن. والآن خذوا هذا الأمر بعين الاعتبار: إذا ثارت مدينة ما في هذه اللحظة، وأدركت أنه لن يكتب لثورتها النجاح، فإنها ستتوصل إلى اتفاق ما، بينما لا يزال في وسعها دفع تعويض عن الأضرار والاستمرار بعد ذلك في دفع الإتاوة. ولكن عندما يتم تبني منهج كليون، ألا ترون أن كل مدينة سوف تحرص على الإعداد للثورة على أفضل وجه، كما ستصمد في أيام الحصار حتى النهاية، طالما أنه ليس هناك من فارق بين الاستسلام المبكر أو المتأخر؟ إن هذا من دون شك يخالف مصالحنا؛ أن ننفق الأموال على حصار لاستحالة التوصل إلى تفاهم، وإذا ما استولينا على المكان، فإننا نتولى السلطة في مدينة مدمرة بحيث لا ننال من عوائدها في المستقبل شيئاً، وهو الذي تعتمد عليه قوتنا في الحرب.

"لهذا ينبغي لنا أن لا نتسبب بإيذاء أنفسنا، فنتصرف كقاضٍ يستجوب المجرم بصرامة، بل الأحرى بنا أن ننشد الاعتدال في العقاب؛ فنضمن لأنفسنا الإفادة مستقبلاً من تلك المدن التي توفر لنا دخولاً ذات شأن. وينبغي علينا أن ندرك أن الأساس المناسب لأمننا يكمن في الإدارة الجيدة عوضاً عن الخوف من العقوبات القانونية. لكننا في الواقع

نقوم بالعكس من ذلك تماماً: إننا نظن أننا إذا أخضعنا مدينة حرة، وكانت قد أخذت عنوة بعد أن حاولت الدفاع عن استقلالها بالثورة، وهو ما كان متوقعاً، عندئذ نعتقد أن علينا أن ننزل بها أقسى ما يمكن من العقاب. لكن الطريقة الصحيحة للتعامل مع الأحرار هي التالية: أن نتجنب العقوبات الشديدة في معاملة من ثاروا، ثم علينا أن نحرص عليهم أعظم الحرص قبل بلوغ هذه المرحلة، وأن نبعدهم حتى عن التفكير بالثورة، وإذا اضطررنا لاستخدام القوة معهم، فعلينا أن نقصر المسؤولية على أقل عدد ممكن من الذين شاركوا فيها.

"فكروا ملياً أي خطأ يمكن أن ترتكبوه في هذه النقطة بالذات إذا ما أخذتم بنصيحة كليون. فالحال الآن، أن الديمقراطية في جميع المدن مواتية لنا، فهي إما تنأى عن الانضمام إلى الفئات الثائرة أو تظل طوال الوقت معادية للثوار إن أرغمت على الثورة، بحيث أنكم عندما تذهبون لحربهم تجدون الشعب إلى جانبكم. ولكن إذا قضيتم على الحزب الديمقراطي في ميتيلينة – وهو الذي لم تكن له يد في الثورة بل سلم المدينة طواعية إليكم عندما حصل على الأسلحة – فإنكم تغدون مدانين بقتل من مدوا لكم يد العون، وثانياً: إنكم بذلك تؤدون للطبقات الرجعية أقصى ما تتمناه؛ ذلك أنهم الآن عندما يبدؤون في الثورة سيجدون الشعب إلى جانبهم منذ البداية؛ لأنكم أظهرتم مسبقاً وبوضوح أن العقوبة ذاتها ستنزل بكل من المذنب والبريء. في حين أن عليكم أن تتظاهروا بأنهم ليسوا مذنبين حتى ولو كانوا كذلك فعلاً، لكي تبقوا إلى جانبكم العامل الوحيد الذي لا يعارضكم حتى الآن. وفي اعتقادي أن من الأفضل لنا أن نحتمل المكاره في سبيل الحفاظ على إمبراطوريتنا من أن نسلك مسالك الظلم فنأخذ البريء بجريرة الظالم. أما النقطة التي أثارها كليون والتي يقول فيها أن في الانتقام اجتماع العدل والمصلحة الذاتية فإن هذه ليست قضية يمكن فيها تحقيق مثل هذا الاجتماع.

"لهذا فإنني أدعوكم إلى قبول اقتراحي باعتباره الأفضل، ولا تجعلوا الشفقة أو المشاعر

الكريمة العادية تسيطر عليكم كثيراً، فأنا لا أرغب لكم بأن تتأثروا بمثل هذه المشاعر أكثر مما يرغب كليون في ذلك. إني أطلب إليكم أن تهتدوا بي على أساس الرأي الذي سمعتموه وحسب، وأن تقدروا دونما استعجال حال الرجال الذين اعتبرهم باخيس مذنبين وأرسلهم إلى أثينا، وأن تسمحوا للبقية بالعيش في مدينتهم. إنكم باتخاذكم هذا الطريق تتصرفون بحكمة من أجل المستقبل وتأتون بما يجعل أعداءكم يرهبونكم الآن؛ ذلك أن الذين يتخذون قرارات حكيمة هم عند أعدائهم أشد رهبة ممن يسرعون إلى العمل العنيف."

كانت تلك خطبة ديودوتوس. والآن، بعد طرح هذين الاقتراحين المتعارضين، فإن الأثينيين بالرغم من التحول الذي طرأ على مشاعرهم، ظلوا على تناقضهم في الرأي. ولدى الاقتراع تساوى الطرفان في الأصوات تقريباً. لكن تم إقرار اقتراح ديودوتوس.

وعلى الفور أرسلت سفينة ثلاثية المجاذيف على جناح السرعة؛ لأنهم كانوا يخشون أن يجدوا المدينة قد دمرت، إذا لم يتمكنوا من اللحاق بالسفينة الأولى. وكانت تلك قد بدأت رحلتها منذ أربع وعشرين ساعة. لذلك قام السفراء من ميتيلينة بتوفير النبيذ والشعير لطاقم السفينة الثانية ووعدوهم بمكافآت مجزية إذا وصلوا في الوقت المناسب، فما كان منهم إلا أن أسرعوا في رحلتهم، لدرجة أنهم لم ينقطعوا عن التجذيف حتى أثناء تناول الطعام -كان عبارة عن شعير ممزوج بالزيت والنبيذ - واستمروا على هذا النحو بلا انقطاع، متناوبين على النوم. وكان من حسن الحظ أن الريح لم تعاكسهم، ولما كانت السفينة الأولى ذات المهمة المقيتة تبحر وهي غير مسرعة، بينما السفينة الثانية تتابع رحلتها بسرعة كبيرة، فقد وصلت الأولى قبلها بقليل، حتى أن باخيس أتيح له أن يقرأ القرار ويحضر لوضعه موضع التنفيذ وحسب عندما رست السفينة الثانية في الميناء وحالت دون وقوع المذبحة. وهكذا نجت ميتيلينة بمشقة كبيرة.

أما الميتيلينيون الذين أرسلهم باخيس إلى أثينا باعتبارهم المسؤولين الأساسيين عن الثورة، فقد قام الأثينيون بإعدامهم بناء على اقتراح كليون. وكانوا أكثر من ألف رجل. كذلك دك الأثينيون حصون ميتيلينة واستولوا على أسطولها. وبعيد ذلك،عوضاً عن فرض أتاوة على ليسبوس، قاموا بتقسيم الأرض كلها– باستثناء تلك التي تعود إلى الميثيمنيين – إلى ثلاثة آلاف سهم، خصص ثلاثمئة منها لتكون مكاناً مقدساً للآلهة، ووزع الباقي بالقرعة على حملة الأسهم الأثينيين، الذين أرسلوا إلى ليسبوس. واتفق الليسبيين مع هؤلاء على دفع أجرة سنوية بواقع ميناايين لكل سهم، وفلاحة الأرض بأنفسهم. كذلك استولى الأثينيون على مدينتين في البر الرئيسي كانتا تحت سيطرة ميتيلينة. وهكذا غدا الميتيلينيون تابعين لأثينا. وبهذا تكتمل رواية ما حصل في ليسبوس.

الفصل الرابع: نهاية بلاطية

في ذلك الصيف نفسه، وبعد غزو ليسبوس، قام الأثينيون بقيادة نيسياس بن نيسيراتوس بحملة على جزيرة مينوا التي تقع على مقربة من ميجارا. وكان الميجاريون قد بنوا برجاً هناك واستخدموا الجزيرة لتكون قاعدة متقدمة لهم. وقد أراد نيسياس لقوة الحصار الأثينية أن تتمركز في هذه الجزيرة؛ لأنها كانت أقرب إلى ميجارا من محطات بودوروم وسلاميس، كما أراد في الوقت نفسه أن يمنع البيلوبونيز من الإبحار من هناك بسفنهم الثلاثية المجاذيف دون مراقبة كما كانوا يفعلون، أو من إرسال مراكب قرصنة، بالإضافة إلى منع أي سفينة من دخول ميناء ميجارا.

وبفضل آلات الحصار التي استخدمها من فوق سطح سفنه تمكن أولاً من أن يستولي على برجين بارزين يطلان على البحر من ناحية نيسايا، ونظف مدخل القناة الواقعة بين الجزيرة والساحل. وبعد ذلك بنى سوراً على جزء من البر الرئيسي حيث يمكن إرسال قوات عبره بوساطة جسر فوق المستنقعات؛ لأن الجزيرة كانت على مسافة قريبة جداً من البر الرئيسي. ولم تستغرق العملية بأكملها سوى أيام معدودة، وانسحب مع الجسم الرئيسي من قواته، بعد أن بنى فوق ذلك تحصينات في الجزيرة وترك حامية هناك أيضاً.

وفي هذا الصيف، وحوالي الوقت الذي حصلت فيه الحوادث السابقة، وصل البلاطيون إلى تفاهم مع البيلوبونيز، بعد أن نفدت مؤنهم ولم يعودوا قادرين على احتمال استمرار الحصار. وقد وقعت الحوادث كما يلي: هاجم البيلوبونيز السور فوجدوا أن البلاطيين عاجزون عن إبداء أي مقاومة. ولم يرغب القائد الإسبارطي الذي أدرك ضعفهم في أن يهاجم الموقع بعنف، وذلك بناء على التعليمات من إسبارطة التي أخذت في الاعتبار أن أي اتفاقية سلام تعقد مع أثينا مستقبلاً سوف يكون ضمن شروطها أن يعيد كل طرف المناطق التي استولى عليها في الحرب. وهكذا على افتراض أن بلاطية قد جاءت إليهم بصورة طوعية، لن يضطروا إلى إعادتها. فأوفد مبعوثاً ليسألهم إن كانوا

سيقومون بتسليم المدينة طواعية للإسبارطيين ويخضعوا أنفسهم للقضاء الإسبارطي على أساس معاقبة المذنبين بعد أن يحصلوا على محاكمة عادلة لهم جميعاً.

ما إن أبلغ الموفد رسالته، حتى سلم البلاطيون المدينة بعد أن بلغ بهم الإنهاك غايته. وقام البيلوبونيز بتزويدهم بالطعام لعدة أيام، حتى وصل خمسة قضاة من إسبارطة. وحين قدم هؤلاء لم توجه للبلاطيين أية اتهامات رسمية، بل عجل القضاة باستدعائهم، ووجهوا إليهم ببساطة هذا السؤال الوحيد: "هل قمتم بأي عمل لمساعدة الإسبارطيين وحلفائهم في هذه الحرب ؟" فطلب البلاطيون السماح لهم بالحديث على نحو أكثر إسهاباً، وعينوا ناطقين باسمهم هما أستيماخوس بن أسوبولوس ولاكون بن إيمنيستوس وكانا مسؤولين عن المصالح الإسبارطية في بلاطية. فتقدما وتحدثا بما يلي:

" أيها الإسبارطيون، عندما استسلمت مدينتنا لكم، كنا نضع ثقتنا بكم ولم نتوقع أن نواجه محاكمة من هذا القبيل، بل محاكمة أكثر انسجاماً مع الممارسات المألوفة. كما لم نتوقع أن يقوم الآخرون بمحاكمتنا كحالنا الآن. واعتقدنا أنكم ستكونون قضاتنا وأننا سنلقى معاملة عادلة منكم. أما والحال كما نرى، فإننا نخشى أن نكون قد خدعنا في الأمرين معاً. ولدينا ما يحملنا على الشك بأن حياتنا في خطر، وأنكم لن تتصرفوا بتجرد. ودليلنا على ذلك أنه لم يوجه إلينا اتهام لنرد عليه – في الواقع أننا اضطررنا لطلب السماح لنا بعرض قضيتنا –، وأن سؤالكم القصير قد تمت صياغته بحيث إن أجبنا عليه بصدق، كان مصيرنا الإدانة، وإن أجبنا كذباً فسيتم كشفنا بكذبنا. وإذن نحن في حيرة من أمرنا كيفما نظرنا، ولهذا فإننا مضطرون للقيام بما يبدو العمل الأسلم؛ وهو أن نعبر عن رأينا بصراحة مهما كلفنا ذلك؛ لأن الكلام الذي نمسك عنه الآن – لأن في الوضع الذي نحن فيه – قد يخطر ببالنا فيما بعد فنقرع أنفسنا ونلومها؛ لأننا لو عرضناه لأنقذنا أنفسنا. وبعد ذلك؛ يصعب علينا أن نجد القوة لإقناعكم. ولو كنا نجهل بعضنا بعضاً، لأمكننا أن نفيد أنفسنا بأن نقدم لكم دليلاً جديداً بالنسبة لكم، ولكن

والحال كما هو عليه، لا يسعنا إلا أن نخبركم بأمور معروفة لديكم، وإننا لا نخشى أن يكون قد رسخ لديكم سلفاً أن فضائلنا دون فضائلكم، وتجعلون ذلك أساساً لاتهامكم لنا، بقدر ما نخشى أن تخضعوننا لمحاكمة تقرر حكمها الذي ستصدره سلفاً، إرضاء لدولة أخرى. ومع ذلك فإننا سنقول ما يتوجب علينا قوله لتبرئة أنفسنا، فنبسط لكم مسألة خصومتنا مع طيبة ومعكم وبقية دول هيلاس. سوف نذكركم بتاريخنا الماضي وسنحاول إقناعكم بوجهة نظرنا.

"ورداً على ذلك السؤال القصير الذي طرحتموه - إن كنا قد قمنا بأي عمل لمساعدة إسبارطة وحلفائها في هذه الحرب - هل توجهون السؤال انطلاقاً من افتراض أننا أعداء أم أصدقاء لكم؟ إن كنا أعداء فليس لكم أن تشتكوا من أننا آذيناكم، لمجرد أننا لم نساعدكم، أما إذا كنتم تعتبروننا أصدقاء عندئذ تصبحون أنتم من أساء إلينا بزحفكم ضدنا.

"لقد كان لدينا سجل جيد في أثناء السلم وفي أثناء الحرب الفارسية كذلك. أما في الوقت الحاضر فلسنا أول من خرق السلم. وفيما يتعلق بالماضي، فقد كنا الدولة الوحيدة في بويوطيا التي شاركت في المجهود العام لتحرير هيلاس. وبالرغم من أننا نعيش في الداخل، فقد شاركنا في المعركة البحرية في أرتيميسيوم، وفي المعركة التي دارت رحاها على أرضنا وقفنا إلى جانبكم وجانب باوسانياس، وفي كل عمل قام به الهيلينيون. وفي تلك السنوات قمنا بجهد يتجاوز قوتنا إلى أبعد الحدود. وأما أنتم، أيها الإسبارطيون، على وجه الخصوص، فحين كانت إسبارطة تعاني أشد فزع عرفته - حين ثار العبيد بعد الزلزال، وانضموا إلى إيثوم- أرسلنا لكم ثلث مواطنينا لنجدتكم. ونحسب أنكم لم تنسوا لنا هذا الصنيع.

"حسبنا هذا من أمر السلوك الذي شئنا أن نسلكه في تلك الفترة الهامة من الماضي. وإننا لم نصبح أعداء إلا في وقت لاحق، وأنتم المسؤولون عن ذلك. فعندما كان أهالي

طيبة يضطهدوننا، طلبنا أن نصبح حلفاءكم، ولكنكم أبيتم وأحلتمونا إلى أثينا لنتوجه إليها؛ لأنها أقرب إلينا في حين أنكم تعيشون بعيداً عنا كل البعد. ومع ذلك ففي هذه الحرب لم نأت بعمل يضركم على نحو مفرط، ومن المرجح أننا لم نكن لنقوم بذلك. وإننا لم نخطئ حين رفضنا الاستجابة لطلبكم بأن نتخلى عن أثينا. فلقد ساعدنا الأثينيون لنواجه طيبة في الوقت الذي كنتم فيه تترددون في مساعدتنا. وليس مما يليق بنا أن نتخلى عنهم، خاصة بعدما رأينا من صداقتهم وإخلاصهم لنا في الماضي واتخاذنا حلفاء لهم كما طلبنا، وسماحهم لنا أن نشاطرهم في مزايا المواطنة الأثينية. ولهذا كان من الطبيعي أن نطيع أوامرهم بإرادتنا. وسواء كنتم أنتم الذين يصدرون الأوامر إلى حلفائكم أم كانت أثينا الآمرة فإن القادة لا التابعين هم الذين يجب تحميلهم مسؤولية أي خطأ يحصل.

"أما أهالي طيبة، فلطالما اعتدوا علينا وفعلتهم الأخيرة التي تسببت في نكبتنا الراهنة معروفة لديكم؛ فلقد استولوا على مدينتنا لا في زمن السلم وحسب، وإنما أخذوها والأعياد الدينية قائمة، ولذلك كنا محقين في تصرفنا إذ جعلناهم يعانون بسبب ماجنت يداهم، وهذا ينسجم مع القانون القائل: إن المرء مبرر له دائماً أن يقاوم المعتدي. وليس من المعقول أن نعاني الآن بسببهم. وإذا كنتم ستأخذون مصلحتكم المباشرة وكراهيتهم لنا معياراً للعدل، فإنكم بذلك تعترفون بأنكم شعب يغلب مصالحه على التمييز بصدق بين الحق والباطل. ولئن بدا الطيبيون أكثر فائدة لكم الآن، فعليكم أن تدركوا بأننا كنا والهيلينيين الآخرين ذات يوم أكثر منهم نفعاً بكثير، في الوقت الذي كنتم فيه في خطر أعظم. إنكم الآن في موقع المهاجم وتملكون أن تجعلوا الآخرين يخشونكم، ولكن في تلك الأيام، عندما هددنا الغازي الأجنبي جميعاً بالعبودية، كانت طيبة إلى جانبه. ولهذا يحق لنا أن نضع مقابل أية أخطاء يمكن أن نكون قد ارتكبناها الآن ما أبديناه آنذاك من حب للوطن، وستجدون أن فضائلنا تفوق أخطاءنا بكثير، وقد تجلت في وقت

لم يكن من اليسير أن تجدوا بين الهيلينيين قوماً يقارعون بشجاعتهم قوة أحشويرش، وعندما كيل المديح العظيم كله إلى الذين اختاروا طريق الشجاعة والمخاطرة والشرف بدلاً من نشدان السلامة أمام الغزو ، كنا ننتمي إلى هذه الفئة، فعوملنا معاملة مميزة كل التميز للدور الذي اضطلعنا به، لكننا الآن نخشى أن نفقد أرواحنا بسبب هذا السلوك بالذات؛ لأننا اخترنا القيام بما هو حق فيما يخص أثينا بدلاً من القيام بما هو مربح فيما يخص إسبارطة. ومع ذلك يجب أن تطبق المبادئ ذاتها في كل أمر، وأن يتم الإقرار بأن السياسة الحقة لا تكون في حماية المصالح الشخصية الآنية فحسب، ولكن بإدراك أن الحليف الشجاع يستطيع الاطمئنان إلى أنه سوف يلقى التقدير لما بدر منه.

"ثم إنه حري بكم أيضاً أن تأخذوا بعين الاعتبار أن معظم الهيلينيين يعتبرونكم مثالاً للصدق والشرف، إلا أنكم إذا أصدرتم قراراً ظالماً في هذه المحاكمة – والتي لا يمكن إلا أن يشيع خبرها، بما أنكم – أنتم القضاة – تحظون بالاحترام عموماً ونحن، المتهمون، لا تنقصنا السمعة الحسنة، فلتحذروا من أن يدينكم الرأي العام مهما علت منزلتكم علينا لإصداركم حكماً جائراً في رجال صالحين ولإهدائكم المعابد الوطنية غنائم أُخذت من البلاطيين الذين أدوا خدمات جليلة لهيلاس. ولسوف يكون أمراً رهيباً إذا أقدمت إسبارطة على تدمير بلاطية، وأن يكون على أيديكم ومن أجل خاطر طيبة أن يمحى عن خريطة هيلاس اسم المدينة الذي نقشه آباؤكم على النصب ذي القوائم الثلاث في دلفي تكريماً لها لما أبدته من الشجاعة والشرف في المعركة. وفي الحقيقة أننا انحدرنا كثيراً، نحن الذين فقدنا مدينتنا في الغزو الفارسي، نجدكم الآن تؤثرون الطيبيين علينا، بعد أن كنتم أعظم أصدقائنا. لقد نزلت بنا اثنتان من أعظم المحن، الأولى: حين فرض علينا الموت جوعاً إلا إذا سلمنا المدينة، والآن أن نرزأ بحياتنا. وهكذا نحن البلاطيون الذين بذلنا كل ما عندنا وأكثر من ذلك في سبيل هيلاس، قد تخلى عنا الجميع وتركونا وحدنا وما من أحد يعيننا. وما من حليف من حلفائنا القدامى هنا ليساندنا، أما أنتم

أيها الإسبارطيون، وقد كنتم آخر أمل لنا، فلسنا متأكدين إن كان بإمكاننا الوثوق بكم.

"ومع ذلك، باسم الآلهة التي شهدت على تحالفنا في الماضي وإكراماً لخدماتنا الجلى التي أديناها لهيلاس، نتضرع إليكم أن تأخذوا بالرأفة عند النظر في حالنا، وإن كان الطيبيون قد استمالوكم إلى جانبهم، فإننا نسألكم إعادة النظر وتغيير رأيكم. سلوهم أن يعيدوا الهدية التي ربما كنتم قد وعدتم بها لئلا تجلبوا لأنفسكم العار بقتلنا. واجعلوا تقديرنا الصادق لكم مفضلاً على تقديرهم الكاذب. ولا تكسبوا لأنفسكم صيتاً سيئاً، مكافأة لكم على إسعاد الآخرين. يمكن لأرواحنا أن تقبض في لحظة قصيرة، ولكن سيمضي وقت طويل قبل أن يصير هذا الفعل الشائن إلى النسيان. إننا بعيدون كل البعد عن أن نكون أعداءكم الذين من الطبيعي أن تنزلوا بهم العقاب، بل نحن أصدقاء أجبروا على خوض الحرب ضدكم. ولهذا فإن الإبقاء على حياتنا، سوف يكون حكماً عادلاً، كذلك يجب أن تأخذوا في الحسبان أننا استسلمنا طواعية، ونمد لكم أيدينا متضرعين، وأن القانون الهيليني يمنع القتل في مثل هذه الظروف، وعلاوة على ذلك، كنا عبر تاريخنا كله نؤدي لكم جليل الأعمال. ولتنظروا إلى أضرحة آبائكم الذين قتلوا على يد الفرس ودفنوا في بلدنا؛ ففي كل عام كنا نقوم بتكريمهم على نفقة الدولة، مقدمين لهم الكسوة وكل القرابين المناسبة، حاملين إليهم بواكير الفاكهة التي تنتجها أرضنا في مختلف المواسم. وهذا كله إنما نقوم به لكوننا أصدقاء ومن بلد صديق، وحلفاء لرفاقنا القدامى في الحرب.

"ولكن إذا توصلتم إلى القرار الخاطئ، فإنكم تكونون بذلك قد تصرفتم بطريقة عكسية؛ ذلك أن باوسانياس عندما دفنهم هنا، كان يعتقد أنه يدفنهم في أرض صديقة وبين شعب صديق أيضاً. ولكن إذا قتلتمونا وجعلتم الأرض البلاطية منطقة طيبية، فإنكم ستتركون آباءكم وأقرباءكم في أرض معادية وبين قاتليهم، ومحرومين من التكريم الذي يتمتعون به الآن، بالإضافة إلى أنكم تستعبدون البلد الذي نال فيه الهيلينيون

حريتهم، وتجعلون المعابد حيث كانوا يصلون قبل انتصارهم على الفرس مهجورة، وتتركون الأماكن التي أسسها أسلافنا لتقديم القرابين خالية.

"إنكم، أيها الإسبارطيون، لن تنالوا المجد بأفعال كهذه؛ لن تنالوا المجد بانتهاككم قوانين هيلاس الراسخة، واقترافكم الإثم تجاه أسلافكم وقتلكم لنا. نحن الذين أسدينا لكم خدمات جلّى ولم نعمل على إيذائكم قط، إرضاء لأحقاد يكنها الآخرون لنا. وسيكون مبعث فخر لكم أن تبقوا على حياتنا، أن تأخذوا بالرأفة، أن تنظروا إلينا نظرة عطف حكيمة، ألا تفكروا في المصير الرهيب الذي يهددنا وحسب، بل وأن تقدروا أيضاً أي رجال نحن الذين ينتظرهم هذا المصير. ولتتذكروا أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به، ومن المستحيل معرفة من سيحين دوره، فلربما يتعرض لتقلبات الحظ وإن كان لا يستحق ذلك. ولهذا نسألكم بما هو حق لنا وتفرضه الحاجة علينا أن تجيبوا رجاءنا، مستنجدين بآلهة هيلاس التي نتعبد جميعنا عند مذابحها، ومذكرين بالوعود المقدسة التي قطعها آباؤكم ونناشدكم ألا تنسوها، ونقف عند قبور آبائكم خاضعين، مناشدين الموتى لعلهم ينقذوننا من خطر الوقوع تحت سلطان طيبة، نحن من كنا أعز أصدقائهم، ومن أن نسلم إلى الأعداء الذين كانوا يكنون لهم أعظم الكراهية. ونذكرهم باليوم الذي قاتلنا فيه بشجاعة إلى جانبهم. إننا الآن في هذا اليوم، في خطر من أن نلقى أسوأ مصير.

"والآن أصبح من الضروري أن ننهي خطابنا؛ ضروري لكنه شاق جداً على من كان في مثل حالنا، نظراً لأنه عندما ينتهي خطابنا، تصبح حياتنا في الميزان. ولهذا فإننا نعلن أخيراً أننا لم نسلم مدينتنا للطيبيين، وأننا كنا سنفضل ميتة الخزي جوعاً على أن نفعل ذلك. إنكم أنتم من توجهنا إليهم وأنتم من وثقنا بهم. وإذا عجزت كلماتنا عن إقناعكم، فسيكون من الإنصاف أن تعيدونا إلى الحالة التي كنا عليها آنذاك وتدعونا نختار طريقتنا في مواجهة الأخطار التي قد نجابهها. وفي الوقت نفسه نوكل إليكم، أيها

الإسبارطيون هذه المهمة: صونوا لنا حياتنا نحن المتضرعين السائلين الرحمة، رجال بلاطية الذين مافتئوا يبذلون كل ما في طاقتهم في سبيل حرية هيلاس، ولا تدعونا نخرج من أيديكم أنتم الذين نثق بهم لتسلمونا إلى الطيبيين، وهم ألد أعدائنا. بل كونوا منقذينا، ولا تكونوا يا من تعملون لتحرير بقية الهيلينيين، من يجلب لنا الدمار.

كان هذا ما قاله البلاطيون. ولقد خشي الطيبيون أن يكون لهذه الخطبة بعض التأثير على الإسبارطيين، فتقدموا وقالوا إنهم يودون كذلك أن يصغي القوم إليهم، مثلما سمح للبلاطيين بالتحدث مطولاً – وكان ذلك باعتقادهم أمراً غير مبرر– عوضاً عن أن يقتصر حديثهم على الإجابة عن السؤال المطروح عليهم فقط. ولقد سمح لهم بذلك، فقال:

"إننا ما كنا لنطلب إلقاء هذا الخطاب لو أن البلاطيين قدموا جواباً واضحاً عن السؤال المطروح، ولم يرتدوا علينا باتهاماتهم، مطنبين في مديح أنفسهم في الوقت الذي لم نوجه إليهم اللوم، ومدافعين عن أنفسهم برد مسهب على تهم لا صلة لها بالقضية المطروحة والتي– على أية حال– لم تكن موجهة ضدهم أبداً. وبما أن الأمر كذلك فقد أصبح من الضروري أن نرد على اتهاماتهم ونتفحص ادعاءاتهم، بحيث لا يمكن أن تساعدهم نذالة من جانبنا ولا مجد من جانبهم، ولكن يمكن أن تسمعوا الحقيقة في كلتا النقطتين ثم تتوصلوا إلى قراركم.

"إن خلافنا يعود إلى أننا بعد استيطاننا لبقية أنحاء بويوطيا، قمنا بتأسيس بلاطية ومعها بعض المواقع الأخرى التي سيطرنا عليها وكنا قد طردنا سكانها، وهم خليط من أقوام مختلفة ومتنوعة. ثم رفض البلاطيون الالتزام بما كان عليه الاتفاق أصلاً والاعتراف بسيادتنا عليهم. فانفصلوا عن بقية بويوطيا مبرهنين على خيانتهم لتقاليد أمتهم، وعندما استخدمنا القوة ضدهم لجؤوا إلى الأثينيين، وبمساعدتهم أساؤوا إلينا وألحقوا بنا ضرراً كبيراً؛ فعانوا بدورهم جراء إساءاتهم لنا.

وفيما بعد، أثناء الغزو الأجنبي لهيلاس، يقولون: إنهم الدولة الوحيدة في بويوطيا

التي لم تتواطأ مع الفرس. تلك هي النقطة التي يتوسلون بها مرة بعد مرة لينسبوا إلى أنفسهم مجداً وينزلوا بنا تنديداً. ونحن نقول: إن السبب الوحيد لعدم تعاونهم مع الفرس أن أثينا لم تقم بذلك أيضاً. وتأسيساً على المبدأ ذاته، نجد أنه عندما بدأت أثينا بالهجوم على حريات هيلاس، كانت بلاطية الدولة الوحيدة في بويوطيا التي تعاونت مع أثينا.

"ولتأخذوا بعين الاعتبار كذلك ما هو نمط الحكم لدى كل منا حين كانت تلك الأحداث تجري. فدستورنا في ذلك لوقت لم يكن أوليجاركياً، يعطي جميع الرجال حقوقاً متساوية أمام القانون، ولا كان ديمقراطياً. كانت السلطة بين أيدي مجموعة صغيرة من الرجال المتنفذين، وهذا هو شكل الحكم الأقرب إلى الديكتاتورية والأبعد عن القانون وفضائل الاعتدال. وكان أمل هذه المجموعة الصغيرة من الرجال امتلاك سلطة أعظم حتى مما كان لديهم إذا ما نجح الغزو الفارسي، ولذلك عمدوا إلى قمع الناس بالقوة وأتوا بالفرس. ولم يكن هذا سلوك المدينة بأكملها؛ لأنها لم تكن حرة لتتخذ قراراتها، كما ينبغي ألا يؤخذ عليها ما كان منها من أخطاء حين لم تكن لديها حكومة شرعية تنهض بالمسؤولية. ولتنظروا إلى ما حدث بعدما انسحب الفرس وصار لطيبة دستور وقانون. وستجدون أنه عندما كانت أثينا تعتدي على بقية هيلاس وتحاول أن تخضع بلدنا لسيطرتها – والحق أنها أفلحت في السيطرة على معظم الدول في هيلاس بسبب نزاعات داخلية كانوا يعانونها – خضنا حرباً ضد الأثينيين في كورونيا وقهرناهم، وهكذا حررنا بويوطيا، ونحن الآن نشارك بصدق وإخلاص في تحرير الهيلينيين الآخرين، ولم نكتف بتقديم الخيالة، بل قدمنا من القوات ما يزيد عما قدمته أي دولة من بين الحلفاء.

" حسبنا ما قلنا من اتهامنا بالتعاون مع الفرس. وسنحاول الآن أن نبرهن على أنكم أنتم أيها البلاطيون من أساء إلى هيلاس، أكثر مما أسأنا لها، وحق عليكم أشد العقاب

لتكونوا عبرة لمن اعتبر. فأنتم حسب روايتكم أصبحتم حلفاء لأثينا ومواطنين أثينيين من أجل الدفاع عن أنفسكم. إذا كان الأمر كذلك، كان حرياً بكم عندئذ أن تكونوا قد دعوتموهم لقتالنا وحسب، لا أن تنضموا إليهم في اعتداءاتهم على الآخرين. وكان هذا متاحاً لكم بلا ريب، إن كنتم حقاً تشعرون بأنهم يرغمونكم على القيام بما لا ترغبون به. لقد كان لديكم حلفكم – وهو ما تولعون كثيراً بالإشارة إليه – مع إسبارطة ضد فارس. وكان هذا كافياً تماماً ليمنعنا من الاعتداء عليكم – وهذه هي الفكرة الرئيسة – وللسماح لكم باختيار طريقكم دونما إكراه. لا، لقد اخترتم اتباع سياسة أثينا طواعية، ولم يكن ثمة إكراه في ذلك. تقولون: إن تخليكم عمن أحسن إليكم هو عمل مشين. إن خيانتكم للدول الهيلينية كلها، وهم حلفاؤكم الذين كانوا يعملون على تحرير هيلاس، هو أكثر مدعاة للخزي وأشد شراً من مجرد خيانتكم للأثينيين وحدهم الذين كانوا يستعبدون هيلاس. علاوة على ذلك، فقد قدمتم لهم شيئاً يختلف تماماً عما قاموا به من أجلكم، وهذا حري بأن يحملكم على الخجل، فحسب روايتكم دعوتم أثينا؛ لأنكم كنتم ضحية للقمع، ثم ساندتموها وحرضتموها على قمع شعوب أخرى. وبعد، إن رد دين حق بالقيام بعمل ظالم إنما هو أشد مجلبة للخزي من عدم رده البتة.

" لقد أوضحتم بأفعالكم هذه أنكم إذا ما كنتم في الماضي الوحيدين الذين لم يتعاونوا مع فارس، فذلك لم يكن من أجل هيلاس، بل لأن أثينا لم تتعاون معها أيضاً؛ وأردتم أن تكونوا مع أثينا ضد البقية. والآن تزعمون أن الخير الذي قمتم به من أجل الآخرين يجب أن يعد في صالحكم. وهذا اقتراح يصعب على العقل أن يقبله. لقد اخترتم أثينا، ويجب أن تقفوا معها أو تسقطوا. كما أنه ليس بإمكانكم أن تثيروا مسألة الحلف الذي كان قائماً في تلك الأيام وتقولوا: إنه يحق لكم الآن أن تكونوا تحت حمايته. لقد تركتم هذا الحلف وانتهكتم شروطه؛ إذ عملتم على بذل العون لغزو إيجينا وأعضاء آخرين في ذلك الحلف بدلاً من إعاقة هذا الغزو، وقمتم بذلك طواعية، حينما

كان لديكم الدستور ذاته، والذي ما زال قائماً حتى يومنا هذا، ولم يكرهكم أحد بالقوة على القيام بذلك، كما كانت حالنا نحن. وأخيراً، قبيل حصار مدينتكم عرض عليكم أن تحصلوا على الحصانة إذا ما بقيتم على الحياد، فرفضتم هذا العرض. إذن، من ذا الذي في ذلك الوقت يستحق كراهية الهيلينيين أكثر منكم؟ أما خصالكم الحسنة التي تزعمون امتلاكها في الماضي، فقد أظهرتم لنا الآن أنها ليست جزءاً من شخصيتكم الحقيقية؛ لقد تجلت طبيعتكم الحقة، وظهر هدفها الدائم؛ وذلك حين سلكت أثينا الطريق الخاطئ، ومضيتم معها في ذلك الطريق.

" وبعد، ذلكم ما يجب قوله عن تعاوننا مع فارس، والذي كنا فيه مكرهين وتعاونكم مع أثينا الذي كنتم فيه متطوعين. والآن لنلتفت إلى المثال الأخير الذي تدعون فيه أنكم عانيتم على أيدينا قائلين : إننا قمنا باعتداء لا مبرر له على مدينتكم في زمن السلم وأثناء احتفال ديني. إننا نعتقد بأنكم ستجدوننا في هذه الحالة أيضاً أقل منكم ذنباً. فلو كنا بدأنا بهجوم مسلح على مدينتكم وجعلنا منطقتكم خراباً، فإننا عندئذ نعتبر مذنبين بلا ريب. ولكن كيف يمكن أن يقال فينا : إننا مذنبون وما حدث هو أن بعضاً من مواطنيكم - وهم رجال أثرياء وينتمون إلى أفضل الأسر- قد استدعونا بمحض إرادتهم؛ لأنهم شاؤوا وضع حد لتحالفاتكم الأجنبية وإعادتكم إلى وضعكم التقليدي باعتباركم جزءاً من بويوطيا ؟ وكما تقولون فإن القادة لا الأتباع هم الذين يخطئون. ومع ذلك، ففي رأينا أن هؤلاء لم يكونوا - ولا كنا نحن - على خطأ في هذا. فهؤلاء من مواطني بلاطية، شأنهم في ذلك شأنكم، سوى أن ما يخسرونه كان أكثر. لقد فتحوا لنا أبوابهم وأدخلونا مدينتهم لا بوصفنا أعداء، بل بوصفنا أصدقاء؛ وذلك لمنع السيئين منكم من أن يزدادوا سوءاً، وليؤدوا للرجال الصادقين حقوقهم، ويدخلوا الحكمة إلى مجلسكم دون حرمان المدينة من أشخاصكم: ولم يكونوا يريدون بكم شراً، بل كانوا يعملون على إعادة المودة بينكم وبين عشيرتكم، وهم أبعد ما يكون عن السعي لجعلكم

أعداء لأحد، بل يريدون أن يضعوكم في موضع حيث الجميع فيه على السواء يرتبطون معكم بمعاهدة.

" وهاكم الدليل على أننا لم نتصرف كمعادين لكم؛ إذ قمنا – دون الإضرار بأحد- بإلقاء بيان فحواه: أن على من يرغب في حكومة تنسجم مع التقاليد القومية لبويوطيا أن يأتي إلينا، فقمتم بذلك عن طيب خاطر في البداية، وعقدتم معنا اتفاقاً ولزمتم الهدوء، حتى تبين لكم فيما بعد قلة عددنا. والآن، قد يبدو أننا أخطأنا التصرف تقريباً بدخولنا مدينتكم دون دعوة من شعبكم عموماً، لكن سلوككم حيالنا كان مختلفاً أشد الاختلاف؛ فبدلاً من تجنب أعمال العنف كلها كما فعلنا نحن، والتفاوض معنا كي نترك المدينة، خرقتم الاتفاق الذي تم بيننا وهاجمتمونا. ولقد قتلتم بعضنا في المعركة. إن ما لاقاه هؤلاء لم يجرح مشاعرنا كثيراً، فقد كان في ذلك بعض العدل على الأقل. أما بالنسبة للآخرين – سجنائكم – الذين تضرعوا إليكم طالبين الرحمة، والذين وعدتمونا لاحقاً بالإبقاء على حياتهم – أفلم يكن انتهاككم جميع القوانين وإعدامهم عملاً شريراً ووحشية؟ لقد ارتكبتم ثلاث جرائم، الواحدة فوق الأخرى؛ خرقتم اتفاقكم معنا، وقتلتم الرجال فيما بعد، وبالغدر انتهكتم الوعد الذي قطعتموه لنا بالإبقاء على حياة هؤلاء الرجال إن لم نقم بتخريب أملاككم في الريف. والآن، وبالرغم من هذا كله، تعلنون بأننا نحن في الواقع المسيؤون، وأنه لا يتوجب عليكم تبرير أفعالكم. إن الأمر ليس كذلك، إننا نقول: إنه ليس كذلك .وإذا كان الرجال الحاضرون هنا للحكم عليكم قد اتخذوا القرار الصحيح، فسوف تعاقبون في الحال عن جرائمكم كلها.

" من أجل مصلحتكم أيها الإسبارطيون ومصلحتنا أيضاً قد توسعنا في بسط هذه الحقائق. وكنا نريدكم أن تدركوا أنكم ستفعلون الصواب بإدانتكم لهؤلاء الرجال، ورغبنا في أن يبدو طلبنا للانتقام مطلباً عادلاً بصورة أكثر وضوحاً. لا تدعوا للحزم أن ينال منه الوهن بسبب الاستماع إلى حديثهم عن سلوكهم الحسن في الماضي – إذا كان

فعلاً كذلك. وحري بأن يكون السجل الجيد معيناً لمن ينزل بهم ظلم، لكن في حالة شعب يقوم بعمل مشين يجب أن يكون سبباً لمضاعفة عقوبتهم؛ لأنهم بارتكابهم الجرائم يتنكرون لماضيهم. ولا تدعوهم يفيدون من عويلهم وتحسرهم، ومن استغاثتهم بقبور آبائكم وبدولتهم التي لا صديق لها. ورداً على هذا يمكننا أن نشير إلى شبابنا الذين عانوا أشد المعاناة، ونزل بهم من الظلم أفدحه حين ذبحوا على أيدي البلاطيين. وآباء هؤلاء إما سقطوا في كورونيا في الحرب التي جعلت بويوطيا تنحاز إلى جانبكم، أو خلفوهم في المؤخرة بسبب شيخوختهم؛ فأصبحت بيوتهم مهجورة. وهم يتوسلون إليكم بتحقيق المزيد من العدالة بمعاقبة مقترفي الشر هؤلاء. إن المرء ليشعر بالشفقة تجاه من يعانون ظلماً وعدواناً، لكن عندما يلقى الناس ما يستحقونه، كما هي الحال مع البلاطيين، فإن المصير الذي سوف يلقونه يغدو مدعاة للسرور وأبعد ما يكون عن إثارة الشفقة. أما بالنسبة لدولتهم التي لا صديق لها، فهم وحدهم الذين كانوا السبب فيما نالها، وكان يمكن أن يحظوا بحلفاء أفضل، إلا أنهم أعرضوا عنهم، وجريمتهم لم تكن رداً على أي عمل قمنا به تجاههم في السابق. إن الكراهية لا العدل هي التي أدت إلى قراركم، وهم في هذا لا يقدرون حتى الآن على شفاء غليلنا منهم. إذ إنهم سيدفعون الثمن بقوة القانون، وإن حالهم ليس كما يدعون، أشخاصاً يمدون أيديهم طلباً للرحمة في المعركة، بل وضع أناس استسلموا بشرط يوجب عليهم الخضوع للمحاكمة.

" أيها الإسبارطيون، إن قانون هيلاس الذي قام هؤلاء الرجال بانتهاكه هو بين أيديكم، وعليكم أن تصونوه، وأن تكافئونا على ما بذلناه في سبيلكم. نحن الذين عانينا من جريمتهم، فلا تدعوا خطاباتهم تزعزع مكانتنا في قلوبكم، بل اجعلوا من هذا برهاناً لهيلاس بأن ما تبحثون عنه هو الأفعال، وليس الأقوال. والأفعال الحسنة لا تتطلب خطباً طويلة، ولكن عندما يرتكب الشر فإن فن الخطابة كله يستخدم ستاراً ليختفي وراءه الفعل. فإذا قام من بأيديهم السلطة باختصار الموضوع كله في سؤال موجه إلى

الجميع على حد سواء، كما تفعلون اليوم، وتوصلوا إلى قرارهم على هذا الأساس، عندئذ من المستبعد أن يبحث الناس عن عبارات جميلة ليغطوا بها أفعالهم الشريرة."

هكذا تحدث الطيبيون، وقرر القضاة الإسبارطيون أن سؤالهم - إذا كانوا قد تلقوا أي مساعدة من البلاطيين في الحرب - كان سؤالاً مناسباً. وحجتهم في ذلك أنه وفقاً للاتفاقية الأصلية المعقودة مع باوسانياس بعيد الحرب الفارسية، كانوا مطمئنين طوال الوقت - هذا ما قالوه- إلى حياد بلاطية، وفيما بعد، قبيل الحصار عرضوا عليهم تطبيق شروط الحياد نفسها التي تتضمنها الاتفاقية، لكن لم يتم قبول هذا العرض، إذ اعتبروا أن سلامة نواياهم قد حررتهم من التزاماتهم وفقاً للمعاهدة، وفي هذه النقطة لقوا الأذى من بلاطية؛ ولهذا استدعوا البلاطيين ليمثلوا أمامهم مرة ثانية الواحد تلو الآخر وطرحوا على كل منهم السؤال نفسه: "هل قمت بأي عمل لمساعدة الإسبارطيين وحلفائهم في الحرب؟" وكل من أجاب بالنفي كان يؤخذ بعيداً وينفذ فيه حكم الإعدام، ولم يتم استثناء أحد؛ فقتل على هذا النحو مالا يقل عن مئتي بلاطي، بالإضافة إلى خمسة وعشرين أثينياً كانوا معهم تحت الحصار، وتم استعباد النساء. أما المدينة فقد منحوا حق الإفادة منها مدة عام لبعض اللاجئين السياسيين من ميجارا وللحزب المؤيد لإسبارطة من البلاطيين الأحياء. فلما انقضى ذلك العام أزالوها عن الوجود وسووا أبنيتها بالأرض وبنوا بجوار معبد هيرا نزلاً كبيراً ضمن دائرة محيطها مئتا قدم، وله غرف علوية وسفلية، واستخدموا في أعمال البناء سقوف وأبواب بيوت البلاطيين، ومن مواد أخرى من السور - النحاس والحديد - صنعوا آرائك خصصوها لهيرا، وبنوا لها كذلك معبداً حجرياً تبلغ مساحته مئة قدم مربع. وعملوا على مصادرة الأراضي وقاموا بتأجيرها لمزارعين طيبيين مدة عشر سنوات. وكان طيبة إلى حد كبير أو كامل السبب وراء تصرف الإسبارطيين على هذا النحو الظالم حيال البلاطيين، ففي هذه المرحلة من الحرب اعتبروا أن الطيبيين أكثر فائدة لهم. وكان تلك نهاية بلاطية في السنة الثالثة والتسعين لتحالفها مع أثينا.

الفصل الخامس: ثورة في كورسيرا

كانت السفن البيلوبونيزية الأربعون التي ذهبت لإغاثة ليسبوس، والتي وصفت سابقاً بأنها تفر هاربة في عرض البحر والأثينيون يطاردونها، قد واجهت طقساً قاسياً على مسافة من كريت، فتبعثرت واتخذت طريقها إلى البيلوبونيز. وحين وصلت إلى سيلينا وجدت ثلاث عشرة سفينة ثلاثية المجاذيف من ليوكاس وأمبراسيا. وكان هناك أيضاً براسيداس بن تيليس الذي جاء ليكون مستشاراً لألسيداس. فبعد هزيمتهم في ليسبوس رغب الإسبارطيون في تعزيز أسطولهم والإبحار إلى كورسيرا، حيث قامت فيها ثورة. ولم يكن لدى الأثينيين في نوبكتوس إلا قوة تتألف من اثنتي عشرة سفينة فقط؛ لذلك خطط الإسبارطيون أن يصلوا إلى كورسيرا قبل إرسال التعزيزات من أثينا. وتهيأ براسيداس وألسيداس لتنفيذ الخطة.

بدأت الثورة في كورسيرا مع عودة السجناء الذين أسروا في الاشتباك البحري على مسافة من أبيدامنوس. وتفصيل ذلك أن الكورنث أطلقوا سراح هؤلاء بكفالة تبلغ ثمانمئة تالنت دفعها وكلاؤهم الرسميون في كورنثة. وفي الواقع أنهم تعهدوا بأن يعملوا على كسب كورسيرا إلى جانب الكورنث، وباشروا عملهم منذ أن وصلوا بمفاتحة المواطنين فرادى في أمر فصل المدينة عن أثينا، وعندما وصلت سفينة من أثينا وأخرى من كورنثة وعلى متن كل منها ممثلون معتمدون تمت مناقشة المسألة، وصوت أهالي كورسيرا لصالح البقاء على حلفهم مع أثينا وفقاً للاتفاق الأصلي بينهما والمحافظة في الوقت ذاته على علاقات الصداقة مع البيلوبونيز.

كانت الخطوة الثانية للسجناء العائدين هي العمل على محاكمة بيثياس الذي تطوع للاهتمام بالمصالح الأثينية في كورسيرا، كما كان زعيماً للحزب الديمقراطي. وكانت التهمة الموجهة إليه أنه كان يريد أن يخضع كورسيرا لأثينا. وقد برئ بيثياس؛ فثأر لنفسه بتقديم خمسة من أغنى خصومه للمحاكمة بتهمة حصولهم على دعامات أشجار

الكرمة من الأرض المقدسة المكرسة لزيوس وألسينوس. وكان العقوبة القانونية تبلغ ستاتر واحد عن كل وتد [دينار مديني نقد ذهبي أو فضي قديم في مدينة إغريقية]. وقد أدين الرجال وحكم عليهم بدفع الغرامة. وبسبب ضخامة المبلغ الذي يتوجب عليهم دفعه، لجؤوا إلى المعابد واتخذوا وضعية المتضرعين، وهم يتوسلون لإعادة النظر في تقدير الأضرار، إلا أن بيثياس - وكان عضواً في المجلس الاستشاري- عمل على إقناع زملائه بتنفيذ العقوبة القانونية. ولما أصبحوا الآن عرضة لحكم القانون الصارم، وعلموا في الوقت ذاته أن بيثياس يعتزم إقناع الشعب بعقد حلف هجومي دفاعي مع أثينا، وهو ما يزال عضواً في المجلس الاستشاري- اجتمع المتهمون الخمسة مع بقية حزبهم، وتسلحوا بالخناجر، واقتحموا المجلس وداهموا المجتمعين فجأة، فقتلوا بيثياس ونحو ستين آخرين، بعضهم أعضاء في المجلس وبعضهم أشخاص عاديون. ولم ينج إلا عدد قليل من مشايعي بيثياس تمكنوا من الفرار واللجوء إلى سفينة أثينية ثلاثية المجاذيف كانت راسية في الميناء.

بعد هذا العمل العنيف قام هؤلاء بدعوة شعب كورسيرا إلى اجتماع عام أعلنوا فيه أن ما قاموا به كان لخير الجزيرة ومنع استعباد الأثينيين لها. واقترحوا أن عليهم في المستقبل ألا يستقبلوا أي طرف إلا بشروط سلمية، وألا تأتي أكثر من سفينة واحدة في كل مرة؛ وأي عدد أكبر من ذلك سيتم اعتبارهم أعداء. وما إن تم عرض الاقتراح حتى فرضوه من خلال الجمعية التشريعية. ثم أرسلوا على الفور موفديهم إلى أثينا لعرض روايتهم عما حدث ومحاولة إقناع اللاجئين الكورسير في أثينا بعدم اتخاذ أي عمل ضدهم الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى قيام ثورة مضادة. وحين وصلوا قام الأثينيون باعتقالهم وكل من استمع إليهم وذلك بتهمة التحريض على العصيان، وأودعوهم السجن في إيجينا.

وفي غضون ذلك، حين وصلت السفينة الكورنثية الثلاثية المجاذيف وعلى متنها مبعوثون من إسبارطة، قام الحزب الذي تولى السلطة في كورسيرا بمهاجمة الديمقراطيين والانتصار عليهم في المعركة. ومع حلول الليل تقهقر الحزب الديمقراطي إلى الأكروبول والقسم العلوي من المدينة. وهناك حشدوا قواتهم وبنوا الأسوار، وكانوا قد استولوا على الميناء الهيلاكي أيضاً. وكان الجانب الآخر من المدينة يضم ساحة المدينة، حيث يعيش معظم السكان حولها، وبقربها الميناء الذي يقابل البر الرئيسي.

وفي اليوم التالي دارت مناوشات بين الطرفين عن بعد، وكان كل منهما قد أرسل موفدين إلى نواحي الأرياف لكسب دعم الأرقاء بمنحهم حريتهم. فانضم معظمهم إلى جانب الحزب الديمقراطي، بينما ضمن خصومهم مساعدة ثمانمئة من المرتزقة من البر الرئيسي.

بعد يوم نشب القتال مرة أخرى وكان النصر فيه للديمقراطيين الذين يتمتعون بالمواقع الأفضل والتفوق العددي. وقد اشتركت النساء في القتال وأبدين فيه جرأة عظيمة، وهن يقذفن الآجر من فوق الأسطح، وواجهن المعركة بشجاعة تفوق قدرات جنسهن. ومع غروب الشمس كان الحزب الأوليجاركي في تقهقر تام، ولما كانوا يخشون من أن يغير الديمقراطيين على مخزن ذخيرتهم، ويستولوا عليه في الهجوم الأول، ثم يعمدوا إلى إعدامهم جميعاً - فقد أضرموا النار في البيوت والشقق المتلاصقة الواقعة حول ساحة المدينة، لسد الطريق أمام خصومهم ومنعهم من الاقتراب. ولم يوفروا أياً من ممتلكاتهم أو ممتلكات الآخرين، وكان نتيجة ذلك أن أتى الحريق على كميات كبيرة من البضائع في تلك المنطقة. ولو أن رياحاً قد هبت حينذاك وأذكت النار لامتد الحريق باتجاه الأبنية الأخرى، ودمرت المدينة كلها وباتت أثراً بعد عين.

توقف القتال الآن، ووضع كل طرف حراسه وخلدوا إلى الهدوء طوال الليل. وتسللت السفينة الكورنثية من الميناء خفية بعد انتصار الديمقراطيين، كما هرب معظم المرتزقة سراً

إلى البر الرئيسي.

في اليوم التالي قدم القائد الأثيني نيكوستراتوس بن ديتريفيس من نوبكتوس على رأس قوة من اثنتي عشرة سفينة وخمسمئة جندي ميسيني من المشاة الثقيلة. وذلك بهدف تسوية النزاع، فأقنع الحزبين بالاتفاق فيما بينهما على تقديم عشرة رجال للمحاكمة باعتبارهم المسؤولين بشكل أساسي عما جرى - فعمد هؤلاء إلى الاختفاء عن الأنظار فوراً -، أما البقية فكان عليهم التفاهم بعضهم مع بعض والعيش بسلام، وعلى المدينة بكاملها أن تعقد حلفاً هجومياً دفاعياً مع أثينا.

وفيما كان نيكوستراتوس على وشك المغادرة، بعد أن أنجز هذه التسوية، جاءه قادة الحزب الديمقراطي وأقنعوه بأن يترك وراءه خمساً من سفنه لرصد أي تحرك قد يقوم به خصومهم، على أن يقوموا بتزويد خمس من سفنهم بالرجال ويرسلوها معه ضمن أسطوله. فوافق نيكوستراتوس على ذلك، وسجل القادة الديمقراطيون أسماء أعدائهم للخدمة في تلك السفن. وعلى أية حال، فإن الذين تم استدعاؤهم للخدمة، لجؤوا إلى معبد ديوسكوري وجلسوا متضرعين؛ لأنهم كانوا يخافون من أن يتم إرسالهم إلى أثينا. فقدم لهم نيكوستراتوس الضمانات وتحدث إليهم مطمئناً، ولكن كلماته لم تؤثر فيهم أبداً. عندئذ عمد الحزب الديمقراطي إلى التسلح بحجة أنه لا يمكنه الاطمئنان إلى نيّات هؤلاء الناس طالما أنهم يرتابون في أمر الإبحار مع نيكوستراتوس. وألقوا القبض على خصومهم وأخرجوهم من بيوتهم، وكادوا يعدمون بعض الذين وجدوهم هناك، لولا أن نيكوستراتوس تدخل ومنعهم من ذلك. أما بقية الحزب الأوليجاركي، فعندما شاهدوا ما حدث، اتخذوا وضعية المتضرعين في معبد هيرا. وكان هناك ما لا يقل عن أربعمئة منهم. ولما خشي الديمقراطيون من إقدامهم على عمل عنيف، أقنعوهم بالنهوض، واقتادوهم إلى جزيرة أمام المعبد، وأرسلوا لهم المؤن.

في هذه المرحلة من الثورة، وبعد أربعة أيام أو خمسة من اقتياد الرجال إلى الجزيرة، وصلت سفن البيلوبونيز من سيلينا، حيث كانت متوقفة في محطتها هناك منذ عودتها من أيونيا، وكان عددها ثلاث وخمسون سفينة بقيادة ألسيداس، كما في السابق، وإن كان معه الآن براسيداس بصفة مستشار. وقد رسا هذا الأسطول في ميناء سيبوتا في البر الرئيسي، وفي الفجر أبحر باتجاه كورسيرا.

كان الكورسير في حال من الاضطراب الشديد، والرعب ينتابهم مما يحدث داخل مدينتهم ومن اقتراب أسطول العدو. فجهزوا على الفور ستين سفينة وأرسلوها مباشرة للتصدي للعدو، بعد أن تم تزويدها بالرجال، مهملين نصيحة الأثينيين، وهي أن يدعوهم يخرجون إلى البحر أولاً، ثم يتبعوهم لمساعدتهم لاحقاً بسفنهم كلها مجتمعة. وما إن اقتربت السفن الكورسيرية من العدو وهي في حال من الفوضى، حتى هربت اثنتان منها فوراً، بينما كانت الطواقم في السفن الأخرى تتقاتل فيما بينها؛ فأفلت النظام وعمت الفوضى. وقد لاحظ البيلوبونيز ما هم عليه من الفوضى، فخصصوا عشرين سفينة للقاء الكورسير، ووضعوا كل ما تبقى من أسطولهم لمواجهة سفن الأثينيين الاثنتي عشرة، ومن بينها سلامينيا وبارالوس.

وسرعان ما واجه الكورسير صعوبات على جانبهم من المعركة، سببها ضعف الكفاءة في القتال واعتمادهم على المجموعات الصغيرة في الهجمات. ولما كان الأثينيون يخشون من تفوق أعداد العدو ومن خطر تعرضهم للتطويق، فقد حاذروا أن يورطوا أنفسهم في اشتباك شامل، ولم يقوموا حتى بمهاجمة الأسطول المقابل لهم في الوسط. وبدلاً من ذلك انقضوا على الجناح، حيث أغرقوا إحدى سفنه. وبعد هذا قام البيلوبونيز بتنظيم سفنهم على شكل دائرة وأخذ الأثينيون يجذفون حولهم، محاولين إثارة الاضطراب في صفوفهم. ولدى رؤيتهم هذا، وخشيتهم أن يتكرر ما وقع لهم في نوبكتوس، هرع بقية البيلوبونيز الذين كانوا يواجهون الكورسير إلى مساعدتهم، وبذلك أطبق أسطول

البيلوبونيز بكامله على الأثينيين، الذين أخذوا الآن بالتراجع والتقهقر أمامهم. وقد نفذوا المناورة في الوقت المناسب لهم. ورغبة منهم في أن يقدموا للسفن الكورسيرية الفرصة الكاملة ليتمكنوا من الهروب أولاً، قاموا بإبقاء العدو في مواجهتهم وهم في تشكيلة المعركة. وهكذا استمر القتال دائراً حتى غروب الشمس.

ولقد خشي الكورسير الآن من أن يتابع العدو انتصاره فيهاجم المدينة، أو ينقذ الرجال من الجزيرة، أو يقدم على أي عمل جريء آخر؛ لذلك أعادوا الرجال من الجزيرة إلى معبد هيرا، وعملوا على تنظيم دفاعات المدينة. لكن البيلوبونيز، على أي حال، وبالرغم من انتصارهم في البحر، لم يجازفوا بالإبحار نحو المدينة، بل أبحروا عائدين إلى محطتهم الأساسية في البر الرئيسي، آخذين معهم سفن الكورسير الثلاث عشرة التي وقعت في الأسر. كذلك لم يكونوا أشد رغبة في مهاجمة المدينة في اليوم التالي، بالرغم من أن الفوضى كانت منتشرة والهلع يعم الجميع. وقد زعموا أن براسيداس ألحَّ على ألسيداس بأن يقوم بذلك، إلا أن طلب براسيداس رفض، واقتصر البيلوبونيز على الرسو في رأس ليوكيم ونشر الخراب في الريف.

كان الحزب الديمقراطي في كورسيرا – في أثناء ذلك – لايزال خائفاً من احتمال هجوم يقوم به أسطول العدو؛ فأخذوا يتفاوضون مع المتضرعين وآخرين من حزب هؤلاء للعمل على إنقاذ المدينة، وأقنعوا بعضهم بركوب السفن. وهكذا نجحوا في تزويد ثلاثين سفينة بالرجال لمواجهة الهجوم المتوقع.

إلا أن البيلوبونيز كانوا قد رحلوا وابتعدوا عن المدينة مرة أخرى، بعد أن أمضوا الوقت حتى منتصف النهار في تخريب الأراضي. وفي نحو منتصف الليل تناهى لعلمهم بوساطة الإشارات النارية نبأ اقتراب أسطول مؤلف من ستين سفينة أثينية من جهة ليوكاس. وكان الأثينيون قد أرسلوا هذا الأسطول بقيادة يوريميدون بن ثوكليس، حين بلغهم خبر اندلاع الثورة، وأن أسطول ألسيداس كان على وشك الإبحار إلى كورسيرا.

ولهذا بدأ البيلوبونيز رحلتهم فوراً تحت جنح الظلام مسرعين للعودة إلى الوطن، متخذين طريقهم بمحاذاة الساحل. ثم غيروا اتجاه سفنهم عند برزخ ليوكاس، ليتجنبوا الأرصاد وهم يدورون حول هذه النقطة، وهكذا تمكنوا من الهرب.

عندما أدرك الكورسير أن الأسطول الأثيني يقترب والأعداء قد رحلوا، أتوا بالميسينيين الذين كانوا يقيمون حتى ذلك الحين خارج السور، فأدخلوهم المدينة وأمروا الأسطول الذي كانوا قد زودوه بالرجال أن يبحر حول الميناء الهيلاكي. وفيما كان يقوم بذلك، ألقوا القبض على كل من وجدوه من أعدائهم وأعدموهم. أما هؤلاء الذين كانوا قد أقنعوهم بركوب السفن فقد قاموا بقتلهم حالما نزلوا إلى اليابسة. وبعد ذلك ذهبوا إلى معبد هيرا فأقنعوا نحو خمسين من المعارضين المتضرعين هناك بالاستسلام وقبول المحاكمة. فأدينوا وحكم عليهم بالإعدام ونفذ فيهم الحكم. وحين رأى معظم المتضرعين الآخرين الذين رفضوا المحاكمة ما حدث أخذوا يقتلون بعضهم البعض في المعبد، بينما شنق البعض أنفسهم على الأشجار، ووجد آخرون وسائل مختلفة للانتحار. وطوال الأيام السبعة التي بقي فيها يوريميدون هناك ومعه سفنه الستون، استمر الكورسير في ذبح من اعتبروهم أعداءهم ومن بين مواطنيهم. وكانت التهمة الموجهة لضحاياهم التآمر للإطاحة بالديمقراطية، أما في الواقع فغالباً ما كان الرجال يقتلون بدافع من الكراهية الشخصية أو على يد المدينين بسبب الأموال التي استدانوها. وكان الموت يتجلى يومئذ بكل هيئة وشكل. وكما يحدث عادة في حالات كهذه، ذهب الناس في تطرفهم إلى أبعد الحدود وتجاوزوها. فكان ثمة آباء قتلوا أبناءهم؛ وأخرج الرجال عنوة من المعابد أو ذبحوا على مذابحها؛ وتم تطويق بعضهم وأوصدت أبواب معبد ديونيسيوس عليهم ليموتوا داخله.

كان هذا ما بلغته تلك الثورة من الضراوة والوحشية، وقد برز هذا الطابع على أشده؛ لأنها كانت من أوائل الثورات التي قامت. لكن العالم الهيليني غدا كله تقريباً فيما بعد في اضطراب، وكل دولة لها أحزابها المتصارعة والزعماء الديمقراطيون يحاولون أن يتقووا

بالأثينيين، والأوليجاركيون يحاولون أن يتقووا بالإسبارطيين. وفي زمن السلم لم يكن ثمة ذريعة أو رغبة لاستدعاء هاتين القوتين، أما في زمن الحرب فبوسع أي طرف أن يعتمد على تحالف من شأنه أن يلحق الأذى بخصومه ويقوي مركزه في الوقت ذاته. وبدا أمراً طبيعياً لأي امرئ يريد تغيير الحكم أن يطلب العون من الخارج. وكانت هذه الثورات السبب في وقوع العديد من الكوارث في عدد من المدن - كما حدث وسيحدث دوماً مادامت الطبيعة البشرية كما عهدناها، بالرغم من أنه قد يكون هناك درجات مختلفة للوحشية. وكما تختلف الظروف وتتباين، كذلك فإن القواعد العامة تقبل بشيء من التنوع في أوقات السلم والرخاء، فإن المدن والأفراد سواء بسواء يتبعون قيماً أعلى، وذلك لأنهم ليسوا مجبرين على أن يكونوا في أوضاع يضطرون فيها للقيام بما لا يريدون القيام به. لكن الحرب معلم قاس؛ لأنها حين تحرمهم من القدرة على إشباع حاجاتهم اليومية بسهولة، فإنها تحط من عقول الناس إلى مستوى ظروفهم الفعلية.

أخذت الثورات تندلع في المدينة تلو الأخرى، وفي الأماكن التي وقعت فيها الثورات في وقت لاحق أدت المعرفة بما حصل سابقاً في أماكن أخرى إلى فورات جديدة من الحماس الثوري، تجسدت بتعقد وسائل الاستيلاء على السلطة وبأعمال انتقام فظيعة لم تعرف من قبل. وللانسجام مع تغيرات الأحداث، كان على الكلمات أن تغير معانيها التي ألفها الناس. فما كان يوصف عادة بأنه عدوان طائش أصبح الآن يعتبر الشجاعة التي يمكن للمرء أن يتوقعها في سلوك عضو في حزب ما. وأن يفكر المرء في المستقبل هو مجرد طريقة أخرى للقول في شخص ما إنه جبان. والقول بالاعتدال وعدم التطرف يعتبر محاولة لإخفاء التخنث في شخصية المرء. والقدرة على فهم مسألة والإحاطة بها من كل جوانبها معناها أن المرء غير كفء للعمل بصورة كلية. وكان حماس التعصب الصفة المميزة للرجل الحقيقي، والتآمر ضد العدو من خلف ظهره كان دفاعاً مشروعاً عن النفس بكل معنى الكلمة. وأي شخص يدعو للعنف كان يعتبر رجلاً يمكن الوثوق به

دوماً، وأي معارض للعنف يصبح مشتبهاً به. ونجاح التآمر كان دليلاً على الذكاء، ولكن من يكتشف مكيدة وهي ماتزال تحاك هو الأكثر ذكاء. وإذا حاول المرء أن يحتاط من التورط في التآمر أو الكشف عنه، اعتبر أنه يعمل على زعزعة وحدة الحزب ويتصرف بدافع من خوفه من المعارضة. وباختصار كان من المستحسن أن يوجه المرء الضربة الأولى لمن ينوي القيام بالأذى، وأن يعرض بمن ليست لديه أية نية للقيام بالأذى أبداً. وكانت الروابط العائلية أضعف من الروابط الحزبية؛ ذلك أن أعضاء الحزب كانوا أكثر استعداداً للذهاب إلى أي حد ولأي سبب كان. ولم تكن هذه الأحزاب قد شكلت للتمتع بما تنص عليه القوانين الراسخة، بل للحصول على السلطة عبر الإطاحة بالأنظمة القائمة. وكان أعضاء هذه الأحزاب يثقون بعضهم ببعض، ليس بسبب انتمائهم لطائفة دينية بل لأنهم شركاء في جريمة. وإذا ما ألقى أحد الخصوم خطاباً معقولاً، يقوم الحزب الذي في السلطة، وهو أبعد ما يكون عن الاستقبال الحار له، باتخاذ الاحتياطات اللازمة ليتأكد من أنه لن يكون له أي أثر عملي.

وكان الانتقام أكثر أهمية من المحافظة على النفس. وإذا عقدت معاهدة أمن متبادل، دخلها الحزبان لمجابهة صعوبات مؤقتة وحسب، وتظل سارية المفعول طالما ليس هناك سلاح آخر متوفر. وإذا سنحت الفرصة فإن الذي يقتنصها بجرأة أولاً، ويباغت عدوه ويوقعه في الشرك، ليتمتع بحلاوة الانتقام، لا لأنه أوقع بعدوه على الملأ، وإنما لأن ذلك تم بالخداع. وقد اعتبرت هذه الطريقة أدعى للاطمئنان، وفي الوقت نفسه نصراً تم غدراً وأعطى المرء لقب التفوق في الذكاء. والحق أن معظم الناس أكثر استعداداً لتسمية النذالة حذقاً منهم لوصف السذاجة صدقاً وأمانة. وتراهم يزهون بالسمة الأولى ويفتخرون بها، بينما يخجلون من الثانية.

إن حب السلطة الذي يولده الطمع والطموح الشخصي، هو السبب في هذه الشرور كلها. ويجب أن يضاف إلى ذلك عنف التعصب الذي يقوم بدوره حالما ينشب الصراع.

ولزعماء الأحزاب في المدن برامج تبدو في ظاهرها مثيرة للإعجاب – مساواة سياسية للجماهير من جهة، وحكم الأرستقراطية الذي يقوم على الحكمة ويوفر الأمن من جهة أخرى – ولكن وراء تظاهرهم بخدمة المصلحة العامة كانوا يسعون لكسب الغنائم لأنفسهم. وفي كفاحهم للصعود لم يكن ثمة أمر محظور، وكانت الأفعال التي أقدموا عليها شنيعة بالفعل، بل تمادوا أكثر من ذلك عند انتقامهم. ولم يكن يردعهم عن ذلك رادع من العدل أو مصالح الدولة؛ فمعيارهم الوحيد هو رضى حزبهم في تلك اللحظة بالذات. وعن طريق إدانة أعدائهم بتصويت غير قانوني أو باغتصاب السلطة بالقوة، كانوا على الدوام مستعدين لإرضاء كراهيتهم في تلك الساعة. وهكذا لم يكن لدى أي طرف حاجة للتفكير فيما يقتضيه الضمير، بل كان الاهتمام الأكبر منصباً على أولئك الذين يتمتعون بالقدرة على تقديم الحجج المثيرة لتبرير بعض الأفعال الشائنة. أما المواطنون ذوو الآراء المعتدلة، فكان مآلهم الدمار على يد الحزبيين المتطرفين، إما لابتعادهم عن الصراعات أو بسبب الحسد من إمكانية نجاتهم وبقائهم على قيد الحياة.

ونتيجة لهذه الثورات، وجدنا تراجعاً عاماً للأخلاق في كافة أرجاء العالم الإغريقي. والبساطة في النظر إلى الأمور – وهي سمة الطبع النبيل– اعتبرت سجية سخيفة وسرعان ما تلاشت. وأصبح المجتمع منقسماً إلى معسكرين متناحرين في العقيدة، وكل طرف يرى الآخر بمنظار الريبة والشك. أما إنهاء هذه الحالة، فما من ضمانة يمكن الوثوق بها، وما من عهد أقسم الناس على مراعاته كانوا يخشون انتهاكه؛ وتوصل الجميع إلى نتيجة مفادها أنه ليس ثمة أمل في توقع حل دائم. وهكذا بدلاً من إمكانية الوثوق بالآخرين، كرس الناس طاقاتهم ليمنعوا الأذى عن أنفسهم. وكانت القاعدة أن أقل الناس ذكاء كانوا أقدرهم على البقاء؛ لأنهم أدركوا نقائصهم وتفوق خصومهم عليهم في الذكاء. وإذ خشي هؤلاء الخسارة في مناظرة أو وجدوا أنفسهم مغلوبين على أمرهم في مؤامرة حاكها لهم أعداؤهم ذوو البديهة الحاضرة، اندفعوا بجرأة إلى العمل، أما خصومهم

الذين يثقون أشد الثقة بمقدرتهم على التنبؤ بتطورات الأمور قبل وقوعها، ولكنهم غافلون عن أهمية أن يأخذوا بالقوة ما يمكن أن ينالوه بالسياسة- فكان القضاء عليهم يسيراً؛ لأنهم لا يحتاطون فيؤخذون من مأمنهم.

من المؤكد أن الأمثلة الأولى على انهيار القانون والنظام قد حدثت في كورسيرا. فهنالك الانتقام الذي شاع ساعة انتصار من كانوا في الماضي مقموعين مهانين بدلاً من أن يكونوا قد أحسن حكمهم. وكان هناك القرارات الشريرة التي اتخذها من ينشدون الخلاص تحت وطأة ما يعانونه من حظ عاثر بشكل خاص مما ألفوه من فقر ويشتهون ملكية جيرانهم. وهناك الأعمال الوحشية والخالية من الرحمة التي كان الرجال يقومون بها، لا بهدف الكسب بقدر ما أنهم انجرفوا في صراع مميت بتأثير أهوائهم التي استبدت بهم. ومع الاضطراب الذي أصاب الأعراف المألوفة في الحياة المتحضرة، فإن الطبيعة البشرية المستعدة دوماً للإيذاء حتى بوجود القوانين، قد أظهرت نفسها مزهوة بألوانها الحقيقية، على أنها غير قادرة على التحكم بالهوى، ومتمردة على فكرة العدل، ومعادية لكل ما هو أسمى وأرفع منها؛ إذ لولا سلطة الجسد الضارة لما جعل الرجال الثأر فوق البراءة والربح فوق العدل. وفي الحقيقة أن البشر يبدؤون الانتقام من الآخرين بإبطال القوانين العامة للبشرية ، والتي قامت لتمنح الأمل بالخلاص لكل معذب، بدلاً من الإبقاء على تلك القوانين، وهم يتذكرون بأنه قد يأتي وقت يواجهون فيه بدورهم الخطر فيحتاجون لحمايتها.

وهكذا، بينما كان أهالي كورسيرا أول من أظهر في مدينتهم أهواء الحرب الأهلية، كان يوريميدون والأسطول الأثيني قد أبحرا بعيداً. وفي فترة لاحقة عمل الحزب المنفي من الكورسير – إذ استطاع خمسمئة منهم الهرب- على احتلال عدة مواقع حصينة على البر الرئيسي، وسيطروا على المنطقة الكورسيرية قبالة المضائق، واستخدموها منطلقاً لحملات السلب والنهب التي قاموا بها ضد إخوانهم من مواطني الجزيرة. وقد أنزلوا

الكثير من الأذى وتسببوا في مجاعة خطيرة في المدينة. كما أرسلوا وفداً إلى إسبارطة وكورنثة في محاولة لاستعادة مناصبهم في كورسيرا، إلا أن هذه المفاوضات باءت بالفشل. وفيما بعد حصلوا على بعض السفن وانضم إليهم بعض المرتزقة فعبروا إلى الجزيرة ومعهم قوة مؤلفة من نحو ستمئة رجل. وهناك عمدوا إلى دفن قواربهم، فلم يعد أمامهم من أمل سوى غزو البلاد حتى يستتب لهم الأمر. ثم صعدوا إلى جبل إيستون،وأقاموا لأنفسهم مواقع حصينة، وشرعوا بشن الهجمات على الحزب داخل المدينة، محافظين في الوقت نفسه على سيطرتهم على الأرياف.

الفصل السادس: الأثينيون في صقلية وميلوس، فشل مستوطنة إسبارطية في هيرقليا

في نهاية فصل الصيف ذاته، أرسل الأثينيون عشرين سفينة إلى صقلية؛ حيث كان السيراكوز وأهالي ليونتيني في اقتتال. وكان هذا الأسطول بقيادة لاخيس بن ميلانوبوس وخاريوديس بن يوفيليتوس. وكانت المدن الدورية جميعها باستثناء كامرينا في حلف مع سيراكوزة ومتحالفة أيضاً مع إسبارطة منذ بداية الحرب، وإن لم تكن تقوم بأي دور فاعل فيها. أما حلفاء ليونتيني فهم كامرينا والمدن الخاليكيدية. ومن بين الدول الإيطالية كان اللوكريان إلى جانب سيراكوزة، في حين ساند أهالي ريجيوم أبناء عمومتهم أهالي ليونتيني.

وفي هذا الوقت أرسل حلفاء ليونتيني إلى أثينا، متوسلين بتحالفهم القديم وأصلهم الأيوني، ويطلبون من الأثينيين إرسال أسطولهم لنجدتهم، بعد أن أحكم السيراكوز الحصار عليهم من البر والبحر معاً. فأرسل لهم الأثينيون أسطولاً، وكانت الذريعة الظاهرة لإرساله قرابتهم إلى الليونتيين، إلا أن أهدافهم الحقيقية كانت منع وصول الحنطة والذرة إلى البيلوبونيز من الغرب، وإجراء مسح أولي لاستطلاع إمكانية السيطرة على صقلية. فرسخوا أقدامهم في ريجيوم في إيطاليا، ومن هناك واصلوا الحرب مع حلفائهم.

وهكذا انتهى الصيف. وفي الشتاء التالي تفشى الطاعون بين الأثينيين للمرة الثانية. والواقع أن هذا الوباء لم يتوقف بشكل تام أبداً، بالرغم من أن فوعاته [الفوعة: مقدار حدة الجرثومة أو الفيروس] قد تراجعت إلى حد كبير. ولقد استمر هذا الوباء مدة لا تقل عن السنة في نوبته الثانية، بينما دام في الأولى مدة سنتين. وما من شيء ألحق الضرر بالأثينيين أو أضعف من قوتهم في الحرب مثل هذا الوباء؛ إذ مات بسببه ما لا يقل عن أربعة آلاف وأربعمئة من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من فرسان الجيش النظامي، أما الموتى من

بين جموع الناس فلا عد لهم ولا حصر. وفي هذا الوقت أيضاً وقع عدد من الزلازل في أثينا ويوبوية وبويوطيا، وخصوصاً في مدينة أورخومينوس البويوطية.

في ذلك الشتاء قام الأثينيون في صقيلية والريجيون بشن حملة على جزر أيولوس ومعهم قوة قوامها ثلاثين سفينة. وكان من المتعذر مهاجمة تلك الجزر في أشهر الصيف بسبب شح المياه هناك. وهذه الجزر يسكنها الليباريون، كما أنها مستوطنة تابعة لسنيدوس. وكان أهلها يعيشون في واحدة من هذه الجزر وتدعى ليبارا، وهي ليست بالجزيرة المترامية الأطراف. وكانوا يخرجون منها لزراعة الجزر الأخرى؛ دايديم وسترونجيل وهايرا. وكان سكان هذه البقاع يعتقدون أن هيفستوس [إله النار والصناعات] يقوم بأعمال الحدادة في هايرا، بسبب ما كانوا يشاهدونه في الليل من لهب عظيم يتصاعد من ذلك المكان، وفي النهار يرزح المكان كله تحت غمامة من الدخان. كانت هذه الجزر تقع بجانب ساحل الصيقيل ومنطقة ميسينا، وهي حليفة لسيراكوزة. وحين رفض الأهالي الانضمام إلى الأثينيين عمدوا إلى تدمير المنطقة، ثم أبحروا عائدين إلى ريجيوم. وهكذا انتهى فصل الشتاء والسنة الخامسة من هذه الحرب التي دون وقائعها ثوسيديديس.

في الصيف التالي انطلق البيلوبونيز وحلفاؤهم بقيادة ملك إسبارطة آجيس بن أرخيداموس لغزو أتيكا، ووصلوا حتى أشموس – ممر كورنثة – ، ولكن وقعت عدة زلازل في المنطقة؛ فحملهم ذلك على العودة من حيث أتوا دون أن يحصل أي غزو. وفي تلك الأثناء – عندما كانت الهزات الأرضية تتلاحق – انحسر البحر عند أوربياي في يوبوية عما كان في ذلك الوقت شاطئ، ثم عاد بعد ذلك واندفع بموجة هائلة غطت جزءاً من المدينة وتركت قسماً منه تحت المياه بعد تراجع الموجة. وهكذا ما كان يوماً أرضاً يابسة أصبح الآن بحراً. ومن لم يتمكن من السكان من الهرب في الوقت المناسب بالصعود بسرعة إلى المرتفعات غمره الطوفان وفقد. وقد وقعت حوادث غمر من النوع

نفسه في أتلانتا، وهي الجزيرة الواقعة قبالة ساحل لوكريس الأوبونتية. وهنا جرف الطوفان قسماً من التحصينات التي أقامها الأثينيون، كما تحطمت نصف السفن التي كانت قد سحبت إلى الشاطئ. وفي بيباريثوس كان البحر قد انحسر لبعض المسافة عن الشاطئ، لكن ذلك لم يتبعه إغراق لأي بقعة من الأرض. وهناك أيضاً وقع زلزال أتى على جزء من السور وقاعة المدينة وبعض الأبنية الأخرى. وتعليل هذه الحوادث يرجع في رأيي إلى الزلزال. ذلك أنه حين يبلغ الزلزال أقصى قوته، فإن البحر يتراجع بعيداً عن الشاطئ ثم يندفع مرة أخرى وعلى نحو أشد عنفاً، وبذلك يتسبب في إغراق الأراضي. فمن دون زلزال لا أرى كيف يمكن لهذه الحوادث أن تقع.

في الصيف ذاته، قامت الأحزاب المتصارعة في صقيلية بعدد من العمليات. فقد كان الصقيليون يقتتلون فيما بينهم، كذلك اشترك الأثينيون وحلفاؤهم ببعض الحملات. وهنا سوف أقتصر على ذكر أبرزها والجديرة بالملاحظة: عمليات الحلف الأثيني والإجراءات التي اتخذها العدو للرد عليها.

كان القائد الأثيني خاريوديس قد قتل في المعركة مع السيراكوز، فأصبح لاخيس الآن القائد الأوحد للأسطول. فبدأ وحلفاؤه بالهجوم على ميلاي، وهي ناحية تابعة لميسينا. وصادف أن كان في ميلاي كتيبتان ميسينيتان تتوليان الحراسة في ذلك الموقع. فعمدتا إلى نصب كمين للأثينيين بعد نزولهم من سفنهم، إلا أن الأثينيين وحلفاؤهم تمكنوا من دحر أصحاب الكمين، وأنزلوا بهم خسائر فادحة. ثم قاموا بهجوم على التحصينات وفرضوا على الناس تسليمهم الأكروبول والانضمام إليهم في زحفهم إلى ميسينا. وبعد ذلك ومع اقتراب الأثينيين وحلفائهم استسلمت ميسينا كذلك، وقدمت للأثينيين رهائن وكافة الضمانات الأخرى المطلوبة.

في الصيف ذاته أرسل الأثينيون ثلاثين سفينة دارت حول البيلوبونيز بإمرة ديموستينيس بن ألسثينيس وبروكليس بن ثيودوروس. كما أرسلوا إلى ميلوس قوة من

ستين سفينة وألفين من المشاة الثقيلة بإمرة نيسياس بن نيستراتوس. وقد رغبوا في إخضاع ميلوس التي رفضت أن تستسلم لأثينا أو حتى الانضمام إلى الحلف الأثيني مع أنها جزيرة. وعلى أية حال، فإن الميليين رفضوا الخضوع لأثينا بالرغم من أن الأثينيين قد أنزلوا في المكان دماراً كبيراً؛ ولذلك ترك الأسطول ميلوس وأبحر إلى أوروبوس في المنطقة الجرايانية. وهنا دخلوا الميناء ليلاً، ثم نزلت المشاة الثقيلة فوراً وزحفوا نحو تنجارا في بويوطيا، وهناك التقوا – استجابة لإشارات كان قد اتفق عليها سلفاً – بالجيش الأثيني القادم من أثينا نفسها، والذي كان قد زحف بكامل قوته بقيادة هيبونيكوس بن كالياس ويوريميدون بن ثوكليس، فعسكروا هناك، وأمضوا النهار في تدمير أراضي تنجارا، ولزموا مواقعهم في الليل. وفي اليوم التالي تغلبوا في المعركة على قوة أتت لقتالهم من تنجارا يدعمها بعض الطيبيين، فاستولوا على بعض الأسلحة، وأقاموا نصباً تخليداً لانتصارهم، ثم انسحبوا وعاد الجيش الرئيسي إلى أثينا والبقية إلى سفنهم. ثم أبحر نيسياس وسفنه الستون على امتداد الساحل، ودمروا في تلك الأثناء أجزاء من لوكريس الواقعة على البحر، وبعد ذلك قفلوا عائدين إلى الوطن.

وفي ذلك الوقت أسس الإسبارطيون مستوطنة هيرقليا في تراخيس للأسباب التالية: كانت الأمة الماليانية تتألف من ثلاث قبائل، هي: البااليون والهيريانيون والتراخينيون. وكان التراخينيون قد عانوا الأمرين في الحرب مع جيرانهم الأويتيين. وفي البداية كانوا على وشك أن يضعوا أنفسهم تحت حماية أثينا، إلا أنهم كانوا يرتابون في أن تؤمن لهم أثينا الحماية الكافية، فتوجهوا إلى إسبارطة، وكلفوا تيساميـنوس ليكون المتحدث باسمهم. وكان أهالي دوريس – البلد الأم لإسبارطة – قد عانوا كذلك من الأويتيين، فانضموا إلى التراخينيين في بعثتهم إلى إسبارطة وتقدموا بنفس الطلب. فقرر الإسبارطيون بعد سماعهم للسفراء إرسال مستعمرين لمساعدة كل من التراخينيين والدوريين معاً. ولقد بدا لهم أن إقامة مدينة جديدة ستكون مكاناً مناسباً للحرب ضد

أثينا لأنه يمكن استخدامها قاعدة بحرية موجهة ضد يوبوية، ولها ميزة قصر المسافة اللازمة للعبور، ويمكن الإفادة منها كذلك كموقع على الطريق إلى تراقية. وهكذا اجتمعت الأسباب للحماس لتأسيس هذا الموقع.

فعمدوا بادئ ذي بدء إلى استشارة الإله في دلفي، ولما جاءهم الجواب بتأييد إقامة المستوطنة، أرسلوا المستوطنين من إسبارطة نفسها ومدن أخرى في المنطقة الإسبارطية، كما طلبوا متطوعين من مناطق أخرى في هيلاس، باستثناء الأيونيين والآخيين وبعض الأقوام الأخرى. وكان مؤسسو المدينة وقادة الحملة ثلاثة من الإسبارطيين: ليون، وألسيداس، وداماجون. وهكذا قاموا بتأسيس المدينة التي تعرف الآن باسم هرقيليا وبنوا تحصيناتها بشكل جديد. وهي تقع على بعد نحو أربعة أميال ونصف من ثيرموبلاي ونحو ميلين من البحر. وبدؤوا بإنشاء أرصفة للميناء، ولتحصين موقعهم بنوا سوراً على الجانب المواجه لثيرموبلاي بالقرب من الممر نفسه.

أثار تأسيس هذه المدينة في البداية قلقاً شديداً في أثينا؛ لأنها بدت موجهة ضد يوبوية بسبب قصر المسافة بينها وبين مدينة سينايوم في يوبوية. لكن اتضح بعد ذلك أن الأمر مختلف تماماً؛ إذ لم تلحق تلك المدينة الجديدة بأثينا أي أذى. والسبب أن الثيسال – وهم القوة المهيمنة في المنطقة، وأراضيهم تهددها القاعدة الجديدة– كانوا يتخوفون من قيام دولة قوية على حدودهم، فلم ينقطعوا عن إنزال الأذى بالمستوطنين الجدد وشن الحروب عليهم حتى أنهكوهم؛ فتضاءلت أعداد السكان ولم يعد لهم شأن يذكر. وكان ذلك بالرغم من كثرة عددهم في الأصل؛ لأنهم كانوا يأتون إلى المستوطنة ولديهم الثقة بأنها بإدارتها الإسبارطية ستكون آمنة. ومع ذلك، كان الحكام الذين أوفدتهم إسبارطة نفسها هم المسؤولين إلى حد بعيد عن انحطاط المدينة وتقلص أعداد سكانها؛ إذ إن إدارتهم القاسية والظالمة كان لها أكبر الأثر في إخافة غالبية المستوطنين وابتعادهم؛ وبذلك أصبح من اليسير جداً على جيرانهم أن يتحكموا في شؤونهم ويسيطروا عليهم.

الفصل السابع: ديموستينيس في غربي اليونان وآيتوليا،

تهديد نوبكتوس

في الصيف ذاته، وفي الوقت الذي كان فيه الأثينيون في ميلوس، بدأ الأسطول الأثيني الآخر المكون من ثلاثين سفينة والذي كان يبحر حول البيلوبونيز، بهجومه على ليوكاس نفسها، بعد أن أوقع بعض جنود حامية مدينة إيلومينوس الليوكادية في كمين وقضى عليهم. وكان الجيش الأثيني قد حصل على تعزيزات كبيرة من الأكارنانيين الذين انضموا إليه باستثناء الأونيداي، كما انضم الزاكينثيون والسيفالينيون وخمس عشرة سفينة من كورسيرا. وقد اضطر أهالي ليوكاس لالتزام الهدوء أمام غلبة أعداد مهاجميهم، وهم يرون أرضهم تدمر من خارج البرزخ وفي الجزء الداخلي منه حيث تقع المدينة ومعبد أبولو. وقد ألح الأكارنانيون على القائد الأثيني ديموستينيس أن يحكم حصار المدينة ببناء سور يعزلها عما حولها؛ إذ اعتقدوا أن من السهل جداً حمل المدينة على الاستسلام بعد تجويعها، وهذا يعني الخلاص من مدينة طالما كانت معادية لهم.

وعلى أية حال، فإن ديموستينيس كان في نفس الوقت قد اقتنع من الميسينيين بصواب الرأي بالهجوم على آيتوليا نظراً لوجود هذه القوة الكبيرة تحت تصرفه؛ إذ إن الآيتوليين كانوا يشكلون تهديداً دائماً لنوبكتوس، كما أنه سيكون من السهل عليه كسب جميع القبائل القارية الأخرى في تلك المنطقة إلى الجانب الأثيني، إذا تمكن من أن يهزم هؤلاء الآيتوليين. والحق أن الآيتوليين كانوا أمة كبيرة وذات نزعة حربية، إلا أنهم كانوا يعيشون في قرى غير محصنة ومبعثرة، وتفصل بعضها عن بعض مسافات كبيرة، وتسليحهم يقتصر على الأسلحة الخفيفة فقط. ولذلك قال الميسينيون: إنه سيكون من السهل إخضاعهم قبل أن يتمكنوا من حشد جيش موحد للدفاع عن أنفسهم. وألحوا على ديموستينيس أن يهاجم الأبودوتيين أولاً، ثم الأوفيونيين وأخيراً اليوريتانيين، وهم أكبر قبيلة في آيتوليا، ويقال: إنهم يتحدثون بلغة تكاد تكون غير مفهومة ويأكلون اللحم

نيئاً. وكان الرأي أنه متى تم قهر هذه القبائل، لم تعد ثمة صعوبة في الفوز على البقية.

وافق ديموستينيس على هذه الخطة إرضاء للميسينيين تقريباً، ولكن ما حمله على الأخذ بهذا الرأي على وجه الخصوص اعتقاده بأنه إذا ما أضاف الآيتوليين إلى حلفائه القاريين، فسيكون قادراً – ودون استخدام أي قوة بشرية أثينية – على غزو بويوطيا من ناحية البر، وسيكون الطريق الذي اختاره يمر بلوكريس الأوزولية إلى سيتينيوم في دوريس، مبقياً جبل بارناسوس إلى يمينه حتى ينزل إلى فوكيس. وكان يعتقد أن الفوك سينضمون إليه طوعاً في الغزو؛ لأنهم كانوا دوماً أصدقاء لأثينا، وإن لم يكن الأمر كذلك فبالإمكان إرغامهم عليه، وما إن يصل إلى فوكيس حتى يكون في الحال على حدود بويوطيا.

لذلك ورغماً عن إرادة الأكارنانيين، خرج بكامل قواته من ليوكاس وأبحر بمحاذاة الساحل إلى سوليوم. وهنا أخبر الأكارنانيين الآخرين بخطته، لكنهم استقبلوها بالمعارضة؛ لأنه لم يوافق على حصار ليوكاس. وهكذا باشر حملته على آيتوليا ومعه بقية جيشه من السفالينيين والميسينيين والزاكينثيين، وثلاثمئة مواطن أثيني يخدمون مشاة بحرية على سفنهم. وكانت السفن الخمس عشرة من كورسيرا قد عادت إلى الوطن الآن.

أقام ديموستينيس قاعدته عند أونيون في لوكريس، نظراً للحلف بين الأوزوليين اللوكريين وأثينا، وتم اتخاذ التدابير بأن يزحفوا إلى الداخل ومعهم قواتهم المتوفرة كلها لكي ينضموا إليه هناك. ولما كانوا جيران الآيتوليين ومسلحين بمثل أسلحتهم، فقد كان الاعتقاد أن مساعدتهم ستكون مفيدة إلى أبعد الحدود بسبب معرفتهم بكل من البلد وأساليب القوم في القتال.

عسكر ديموستينيس وجيشه طوال الليل في ظاهر منطقة زيوس النيمي، ويقال إن الشاعر هيسيود قد قتل في هذا المكان على يد السكان المحليين؛ إذ أخبرته إحدى

العرافات بأنه مقدر عليه أن يلقى حتفه في نيميا. وعند الفجر انطلق ديموستينيس لغزو آيتوليا؛ فاستولى على بوتيدانيا في اليوم الأول من زحفه، وفي اليوم الثاني على كروسيليوم، وفي اليوم الثالث على تيخيوم. ثم توقف هنا وأرسل الغنائم إلى يوباليوم في لوكريس. وكانت خطته أن يواصل إخضاع البلاد حتى يصل إلى الأوفيونيين، فإذا رفضوا الخضوع، عاد إلى نوبكتوس لينطلق منها في حملة ثانية لإخضاعهم.

لكن الغزو لم يفاجئ الآيتوليين، على أية حال؛ إذ علموا بأمره منذ أن وضعت مخططاته، والآن عندما زحف الجيش على بلدهم، خرجوا متصدين له بقوة عظيمة اجتمعت لهم من فرق تقاطرت عليهم من كافة أنحاء المنطقة، بما في ذلك أبعد القبائل الأوفيونية، والبوميانية، والكاليانية الذين تمتد بلادهم حتى الخليج المالياني.

استمر الميسينيون في نصح ديموستينيس بالنصيحة القديمة ذاتها. وأكدوا له أن غزو آيتوليا مسألة بسيطة، وحفزوه على متابعة زحفه بأسرع وقت ممكن، وأن يستولي على القرى التي تصادفه في الطريق الواحدة تلو الأخرى، وألا يدع للشعب كله فسحة من الوقت لاعتراضه بجيش موحد. ولما كان ديموستينيس قد أخذ بهذه الفكرة، واثقاً بأن الحظ حليفه؛ إذ لم يصادف حتى الآن ما يفسد عليه أمره، فلم يتوقف بانتظار وصول التعزيزات اللوكرية المتوقعة والتي كانت ستشكل دفاعاته الأساسية؛ إذ كانت تتألف من رماة الرماح المسلحين تسليحاً خفيفاً. وبدلاً من انتظارهم زحف على إيجيتيوم وهاجمها واستولى عليها. فهرب السكان من أمامه واتخذوا مواقعهم على التلال فوق المدينة التي تقع على ارتفاع ستة أميال فوق البحر.

وفي هذا الوقت قام الآيتوليون الذين جاؤوا مع جيشهم الأساسي إلى إيجيتيوم بشن هجوم على الأثينيين وحلفائهم. فنزلوا من التلال ومن كل الجهات راكضين وهم يقذفون الرماح، ويتقهقرون عندما يتقدم الجيش الأثيني، ثم يعاودون تقدمهم عندما يتراجع. وكان الأثينيون هم المتضررين في الحالتين. وهكذا دار القتال فترة من الزمن، بين تراجع

وتقدم، والأثينيون في ضيق. ومع ذلك ظلوا صامدين ما دامت جعب الرماة مليئة بالسهام، وما داموا قادرين على استخدامها، خاصة وأن الآيتوليين المسلحين تسليحاً خفيفاً قد تراجعوا تحت وابل السهام. ولكن ما إن قتل قائد الرماة حتى تشرذم رجاله. وكان الإنهاك قد نال من المقاتلين، وهم يقومون بالمناورات ذاتها مراراً وتكراراً؛ فهاجمهم الآيتوليون بشدة وراحوا يمطرونهم بوابل من رماحهم، حتى اضطروا للتراجع أخيراً، ثم لاذوا بالفرار. وقتل منهم عدد كبير بعد أن هرعوا نازلين إلى أقنية المياه الجافة التي لم يكن فيها أي طريق تصعد أو تصل إلى أجزاء أخرى من ساحة المعركة حيث ضلوا طريقهم؛ لأن كرومون دليلهم الميسيني قد قتل أثناء المعركة. وهكذا قتل عدد كبير منهم في الحال بعد الهزيمة المنكرة التي لاقوها، إذ باغتهم الآيتوليون السريعو الحركة والمسلحون على نحو خفيف ورموهم برماحهم. أما القوة الرئيسة للجيش فقد أخذوا الطريق الخاطئ وأسرعوا إلى الغابة، وهناك لم يكن ثمة مسالك يمكنهم الهروب عبرها، وقد أضرم العدو النار فيها فاحترق كل ما حولهم. وفي الواقع أن الجيش الأثيني صادف في طريقه كل ما يحدث أثناء الفرار، فكان الرجال يهلكون بكل شكل من أشكال الموت. وفر الناجون بعد جهد وعناء إلى البحر وأونيون في لوكريس، وهو المكان الذي انطلقوا منه. وقد سقط في المعركة أعداد كبيرة من الحلفاء، بالإضافة إلى مئة وعشرين من المشاة الثقيلة من أبناء أثينا نفسها. وهؤلاء جميعاً كانوا في زهرة العمر، ومن المؤكد أن معظمهم من أفضل رجالات المدينة الذين قضوا في هذه الحرب، وكان بروكليس زميل ديموستينيس من بين القتلى أيضاً.

بعد ان قامت الهدنة بين الطرفين استعاد الأثينيون جثث قتلاهم من الآيتوليين، وركبوا سفنهم عائدين إلى أثينا، بينما عاد الجيش إلى نوبكتوس. وبقي ديموستينيس هناك حيث كان إما في نوبكتوس أو في المنطقة؛ إذ كان يخشى مواجهة الأثينيين بعد هذه الواقعة.

في ذلك الوقت تقريباً أبحر الأثينيون في صقيلية إلى لوكريس ونزلوا هناك، وهزموا اللوكريين الذين خرجوا لقتالهم، واستولوا على حصن يقع على نهر هالكيس.

في الصيف ذاته، كان الآيتوليون – وحتى قبل الحملة الأثينية عليهم- قد أرسلوا مبعوثين إلى كورنثة وإسبارطة يطلبون إليهم نجدتهم بجيش للهجوم على نويكتوس التي كانت تطلب تدخل الأثينيين. وكان سفراء الآيتوليين تولوفوس وهو أوفيوني، وبورياديس وهو يوريتاني، وتيساندر وهو أبودوتي. وتمت تلبية طلبهم، فارسل الإسبارطيون في بداية الخريف ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة من حلفائهم، وجاء خمسمئة منهم من مستعمرة هرقليا في تراخيس المؤسسة حديثاً. وتولى القيادة يوريلوخوس الإسبارطي، وكان يرافقه الإسبارطيان مكاريوس ومينيدايوس.

اجتمع الجيش عند دلفي، ومن هناك أرسل يوريلوخوس إلى الأوزوليين اللوكريين؛ لأن الطريق إلى نوبكتوس يمر عبر بلدهم، وفي الوقت ذاته كان يسعى إلى فك تحالفهم مع أثينا. وكان أعظم عون ناله في لوكريس من شعب أمفيسا، الذين كانوا يخشون من جعل الفوك أعداء لهم. وكان هؤلاء أول من قدم الرهائن، وأقنعوا الآخرين أن يقتدوا بهم خوفاً من الجيش الغازي. وكان جيرانهم هم اليونيين والميسابيين والتريتيين والخاليين والتولوفونيين والهيسيين والأوريانثيين، وقد اشترك هؤلاء جميعاً في الحملة. في حين اقتصر الأولبيون على تقديم رهائن ولم ينضموا إلى الجيش. أما الهيانيون فلم يقدموا الرهائن إلا بعد أن سقطت بوليس وهي إحدى قراهم.

عندما أصبح كل شيء جاهزاً، والرهائن في أمان في ستينبوم في دوريس، شرع يوريلوخوس وجيشه بالزحف على نوبكتوس عبر بلاد اللوكريين، واستولى في طريقه على مدينتي أوينيون ويوباليوم اللتين رفضتا الانضمام إليه. وحينما وصل إلى منطقة نوبكتوس كانت تعزيزات من الجيش الآيتولي قد وصلت أيضاً، فقام الجيشان بتخريب الأرض، واستولوا على أطراف المدينة التي لم يكن لها سور يحميها. وهاجموا

موليكريوم كذلك واستولوا عليها، وهي مستعمرة كورنثية تابعة لأثينا.

في تلك الأثناء كان ديموستينيس الأثيني الذي بقي في المنطقة بعد الكارثة التي حصلت في آيتوليا، قد بلغه نبأ اقتراب الجيش فخشي على سلامة نوبكتوس؛ فمضى إلى الأكارنان وأقنعهم بإرسال قوة لنجدة المدينة – رغم أنهم لم يقتنعوا إلا بصعوبة شديدة، بسبب تراجعه عن ليوكاس– فأرسلوا معه على متن سفينته ألفاً من المشاة الثقيلة، الذين دخلوا نوبكتوس وجعلوا المكان آمناً. وكان الوضع حرجاً قبل وصولهم ويخشى الا تستطيع المدينة الصمود، لطول السور وقلة عدد المدافعين عنه.

عندما وجد يوريلوخوس وحلفاؤه أن الجيش قد دخل نوبكتوس، أدركوا أنه لم يعد من الممكن أن يستولوا على المدينة عنوة، فسحبوا قواتهم. ولكنهم بدلاً من العودة إلى البيلوبونيز ذهبوا إلى بلد يدعى أيوليس ويطلق عليه الآن اسم كاليدون وبليرون، بالإضافة إلى أماكن أخرى في تلك المنطقة، وإلى بروسخيوم في آيتوليا. وكان ذلك بعد ما جاء الأمبراس وحثوهم على القيام بهجوم مشترك على آرجوس الأمفيلوخية وبقية أنحاء أمفيلوخيا وأكارنانيا، وحجتهم في ذلك أنه ما إن يتم إخضاع هذه الدول حتى ينحاز بقية البر الرئيسي إلى الجانب الإسبارطي. فوافق يوريلوخوس على هذه المقترحات، وصرف قواته الآيتولية، وبقي في تلك المنطقة بهدوء مع ما بقي من جيشه، حتى يحين الوقت الذي يتحرك فيه الأمبراس فينضم إليهم قبالة آرجوس. وهكذا انتهى الصيف.

الفصل الثامن : تطهير ديلوس ، الانتصارات العظيمة لديموستينيس ، نهاية السنة السادسة للحرب

في الشتاء التالي كان الأثينيون في صقيلية مع حلفائهم الهيلينيين والصيقيل، وكان هؤلاء في الماضي حلفاء لسيراكوزة، لكنهم ثاروا الآن على السيراكوز لشدة عسفهم بهم، وانضموا إلى الأثينيين وزحفوا معهم ضد إنيسا وهي إحدى مدن الصيقيل، وكان السيراكوز يحرسون الأكروبول فيها. وقد هاجموها ولكن لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها، فانسحبوا. وعند الانسحاب كان حلفاء الأثينيين في المؤخرة فخرج السيراكوز من القلعة وهاجموهم، وأنزلوا الهزيمة بقسم كبير من جيشهم وقتلوا أعداداً كبيرة منهم. بعد ذلك قام لاخيس والأثينيون ببعض عمليات الإنزال من البحر في لوكريس. وعند نهر كايسينوس هزموا قوة من نحو ثلاثمئة من اللوكريين الذين أتوا مع بروكسينوس بن كاباتون لمجابهتهم، واستولوا على بعض الأسلحة ثم انسحبوا.

في فصل الشتاء ذاته قام الأثينيون بطقوس التطهير في ديلوس. ومما لاريب فيه بأن ذلك إنما كان بسبب نبوءة ما؛ لأنه في زمن سابق قام الطاغية بيزيستراتوس بتطهير الجزيرة أيضاً، لكنه لم يطهرها كلها، بل بقدر ما يمكن أن يراه الناظر إليها من المعبد. أما في هذه المناسبة الحالية فقد شمل التطهير الجزيرة كلها، وفقاً للطريقة التالية: تم نبش القبور كلها في ديلوس، وأعلن أنه لن يسمح من الآن فصاعداً بوفاة أحد أو ولادة أحد في الجزيرة، وأن كل من يشرف على الموت أو الولادة سيحمل إلى رينيا، وهي شديدة القرب من ديلوس حتى إن بوليكراتيس طاغية ساموس وحاكم عدد كبير من الجزر الأخرى، عندما قهر رينيا في فترة تفوقه البحري، كرّسها إلى أبولو الديلياني بربطها إلى ديلوس بسلسلة.

بعد التطهير احتفل الأثينيون للمرة الأولى بدورة الألعاب الديلية الخماسية - السنوية. وقد جرت العادة في قديم الزمن على أن يجتمع الأيونيون وأهالي الجزر في

ديلوس. وكانوا يأتون وبصحبتهم أزواجهم وأولادهم، مثلما يذهب الأيونيون الآن إلى الاحتفال في إفسوس، وكانوا يشاركون في مسابقات في الرياضة والشعر والموسيقا، وتقدم كل مدينة جوقتها الخاصة. ويتجلى هذا على أوضح نحو في أبيات قصيدة هوميروس التي خصَّ بها أبولو:

آه يا أبولو إن قلبك ليجد أكبر المتعة في جزيرة ديلوس.

فهناك يجتمع الأيونيون معاً. وهم يسحبون أذيال أثوابهم الطويلة

يمشون على طريقك المقدس وحولهم أزواجهم وأولادهم

هناك يمتعونك بالملاكمة والرقص والغناء

يصدحون باسمك، فيما ينظمون المباريات

وفي الأبيات التالية من القصيدة ذاتها يوضح أن هناك مباريات في الموسيقا والشعر أيضاً. وبعد الاستمتاع برقص النساء الديليات، يختتم قوله في مدحهن بهذه الأشعار التي يشير فيها إلى نفسه:

أيتها الحوريات وداعاً، داعياً أن تنلن

ضياء الرضى من أبولو وأرتميس وأن

تتذكرنني في المستقبل، وكلما جاء أحد البشر

إلى هذا المكان مجهداً من طول الرحيل وسألكن

"ألا أخبرنني أيتها الحوريات باسم أعذب المغنين،

أخبرنني باسم من وجدتنه أكثر المبتهجين،

فقلن له بعذوبتكن، وأجبن بصوت واحد:

"أعمى هو المغني، من يعيش على صخور جزيرة خيوس."

وهكذا يكون لدينا الدليل من هوميروس على أن ديلوس كانت في الماضي البعيد

أيضاً مكاناً لاجتماع واحتفال عظيم. وقد ظلّ أهالي الجزر والأثينيون منذ تلك الأزمنة يرسلون الجوقات والقرابين المقدسة، إلا أن المباريات والمراسيم الأخرى انقطعت بعد حين، وربما كان مرد ذلك المصاعب في تلك الأوقات. واستمر هذا الانقطاع حتى هذه المناسبة عندما احتفل الأثينيون بالألعاب، ومنها سباق الخيل الذي كان حدثاً جديداً.

في الشتاء ذاته، زحف الأمبراس على آرجوس الأمفيلوخية على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة، وذلك وفاء لوعدهم ليوريلوخوس عندما أقنعوه بالبقاء مع جيشه. فقاموا بغزو منطقة آرجوس واحتلوا أولباي، وهي معقل يقع على مرتفع بالقرب من البحر، كان الأكارنان قد قاموا بتحصينه في الماضي واستخدموه مكاناً لعقد المحاكمات العامة لشعبهم. وهو يبعد ميلين وثلاثة أرباع الميل عن مدينة آرجوس على الشاطئ.

في تلك الأثناء ذهب الأكارنان بفرقة واحدة من جيشهم لنجدة آرجوس، بينما عسكرت الفرقة الأخرى في موقع في بامفيلوخيا يدعى كريناي أو "الينابيع"؛ وذلك لرصد البيلوبونيز مع يوريلوخوس ومنعهم من التسلل والانضمام إلى الأمبراس. كما أرسلوا إلى ديموستينيس، الذي كان قد قاد الحملة إلى آيتوليا، وطلبوا منه أن يتولى قيادتهم. وأرسلوا في طلب السفن الأثينية العشرين التي كانت تبحر قريباً من ساحل البيلوبونيز بقيادة أرسطوتل بن تيموكراتيس، وهيروفون بن أنتيمنيستوس.

وكان الأمبراس في أولباي قد أوفدوا مبعوثاً إلى مدينتهم للطلب من أبناء بلدهم أن يأتوا بكامل قوتهم لدعمهم، لخشيتهم من ألا يتمكن جيش يوريلوخوس من شق طريقه عبر بلاد الأكارنان، وعندئذ إما أن يضطروا للقتال وحدهم أو يواجهوا الخطر إن شاؤوا التراجع.

أثناء ذلك ما إن سمع البيلوبونيز ويوريلوخوس بوصول الأمبراس إلى أولباي حتى غادروا بروسخيوم فوراً لتقديم المساعدة. وبعد اجتياز نهر أخيلوس ساروا عبر أكارنانيا،

ديلوس. وكانوا يأتون وبصحبتهم أزواجهم وأولادهم، مثلما يذهب الأيونيون الآن إلى الاحتفال في إفسوس، وكانوا يشاركون في مسابقات في الرياضة والشعر والموسيقا، وتقدم كل مدينة جوقتها الخاصة. ويتجلى هذا على أوضح نحو في أبيات قصيدة هوميروس التي خصَّ بها أبولو:

آه يا أبولو إن قلبك ليجد أكبر المتعة في جزيرة ديلوس.
فهناك يجتمع الأيونيون معاً. وهم يسحبون أذيال أثوابهم الطويلة
يمشون على طريقك المقدس وحولهم أزواجهم وأولادهم
هناك يمتعونك بالملاكمة والرقص والغناء
يصدحون باسمك، فيما ينظمون المباريات

وفي الأبيات التالية من القصيدة ذاتها يوضح أن هناك مباريات في الموسيقا والشعر أيضاً. وبعد الاستمتاع برقص النساء الديليات، يختتم قوله في مدحهن بهذه الأشعار التي يشير فيها إلى نفسه:

أيتها الحوريات وداعاً، داعياً أن تنلن
ضياء الرضى من أبولو وأرتميس وأن
تتذكرنني في المستقبل، وكلما جاء أحد البشر
إلى هذا المكان مجهداً من طول الرحيل وسألكن
"ألا أخبرنني أيتها الحوريات باسم أعذب المغنين،
أخبرنني باسم من وجدتنه أكثر المبتهجين،
فقلن له بعذوبتكن، وأجبن بصوت واحد:
"أعمى هو المغني، من يعيش على صخور جزيرة خيوس."

وهكذا يكون لدينا الدليل من هوميروس على أن ديلوس كانت في الماضي البعيد

أيضاً مكاناً لاجتماع واحتفال عظيم. وقد ظلّ أهالي الجزر والأثينيون منذ تلك الأزمنة يرسلون الجوقات والقرابين المقدسة، إلا أن المباريات والمراسيم الأخرى انقطعت بعد حين، ربما كان مرد ذلك المصاعب في تلك الأوقات. واستمر هذا الانقطاع حتى هذه المناسبة عندما احتفل الأثينيون بالألعاب، ومنها سباق الخيل الذي كان حدثاً جديداً.

في الشتاء ذاته، زحف الأمبراس على آرجوس الأمفيلوخية على رأس قوة قوامها ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة، وذلك وفاء لوعدهم ليوريلوخوس عندما أقنعوه بالبقاء مع جيشه. فقاموا بغزو منطقة آرجوس واحتلوا أولباي، وهي معقل يقع على مرتفع بالقرب من البحر، كان الأكارنان قد قاموا بتحصينه في الماضي واستخدموه مكاناً لعقد المحاكمات العامة لشعبهم. وهو يبعد ميلين وثلاثة أرباع الميل عن مدينة آرجوس على الشاطئ.

في تلك الأثناء ذهب الأكارنان بفرقة واحدة من جيشهم لنجدة آرجوس، بينما عسكرت الفرقة الأخرى في موقع في بامفيلوخيا يدعى كريناي أو "الينابيع"؛ وذلك لرصد البيلوبونيز مع يوريلوخوس ومنعهم من التسلل والانضمام إلى الأمبراس. كما أرسلوا إلى ديموستينيس، الذي كان قد قاد الحملة إلى آيتوليا، وطلبوا منه أن يتولى قيادتهم. وأرسلوا في طلب السفن الأثينية العشرين التي كانت تبحر قريباً من ساحل البيلوبونيز بقيادة أرسطوتل بن تيموكراتيس، وهيروفون بن أنتيمنيستوس.

وكان الأمبراس في أولباي قد أوفدوا مبعوثاً إلى مدينتهم للطلب من أبناء بلدهم أن يأتوا بكامل قوتهم لدعمهم، لخشيتهم من ألا يتمكن جيش يوريلوخوس من شق طريقه عبر بلاد الأكارنان، وعندئذ إما أن يضطروا للقتال وحدهم أو يواجهوا الخطر إن شاؤوا التراجع.

أثناء ذلك ما إن سمع البيلوبونيز ويوريلوخوس بوصول الأمبراس إلى أولباي حتى غادروا بروسخيوم فوراً لتقديم المساعدة. وبعد اجتياز نهر أخيلوس ساروا عبر أكارنانيا،

التي وجدوها خالية من السكان الذين ذهبوا جميعاً لنجدة آرجوس. وكانت إلى يمينهم مدينة الستراتيين بحاميتها، وإلى يسارهم بقية أكارنانيا. وأثناء مسيرتهم في أراضي الستراتيين مروا بفيتيا، وداروا حول ميديون، وتابعوا سيرهم عبر ليمنيا. وعند هذه النقطة تركوا أكارنانيا وخلفوها وراءهم، ودخلوا بلاد الأجرايان الذين تربطهم بهم علاقات ودية. وعندما وصلوا جبل ثياموس الذي يقع في المنطقة الأجرايانية، شقوا طريقهم عبره ونزلوا إلى منطقة آرجوس والظلام قد حل. ثم اتخذوا طريقاً يقع بين مدينة آرجوس والأكارنان الذين كانوا يترصدونهم عند كريناي، فاستطاعوا التسلل دون أن يلحظهم أحد ثم انضموا إلى الأمبراس في أولباي.

لقد اتحد الجيشان الآن وأصبحا جيشاً واحداً، وعند الفجر اتخذ موقعاً له في مكان يدعى ميتروبوليس وعسكر هناك، وما هو إلا حين حتى كان الأثينيون بسفنهم العشرين يدخلون الخليج الأمبراسي، وقد جاؤوا لنجدة آرجوس ومعهم ديموستينيس ومئتان من المشاة الثقيلة من الميسينيين وستون أثينياً من رماة السهام. ورسا الأسطول عند الشاطئ مقابل التلة عند أولباي. وفي غضون ذلك كان الأكارنانيون وعدد قليل من الأمفيلوخيين الذين أجبر الأمبراس معظمهم على الابتعاد، قد دخلوا آرجوس قبل حين وراحوا يتهيؤون لقتال العدو. واختاروا ديموستينيس قائداً عاماً لجيش الحلفاء كله، ليعمل بالتنسيق مع قادتهم، فخرج بهم ديموستينيس وعسكروا قرب أولباي في مكان فيه واد ضيق شديد الانحدار يفصل بين الجيشين.

كان الجيشان طوال خمسة أيام لا يبديان أي حركة، ولكن في اليوم السادس اقترب بعضهم من بعض استعداداً للقتال. وكان جيش البيلوبونيز أكبر الجيشين فالتف حول جيش ديموستينيس الذي كان يخشى أن يطوق، فنصب كميناً بأن وضع نحو أربعمئة من المشاة الثقيلة وقوات خفيفة في ممر مخفي تستره الشجيرات الكثيفة. وكان على هذه القوات أن تخرج من مكمنها في اللحظة التي يشتد فيها القتال، وتهاجم الجناح البارز

من مؤخرة الجيش.

عندما تمت الاستعدادات من الجانبين، تحركت القوات إلى الأمام للقتال في المعركة. كان ديموستينيس والميسينيين وبعض الأثينيين في الميمنة، وفي القلب والميسرة كانت الفرق الأكارنانية المختلفة ورماة الرماح الأمفيلوخيين الذين كانوا حاضرين. وعلى الجانب الآخر كان الخط يتألف من كتائب مختلطة من البيلوبونيز والأمبراس، ما عدا المانتينيين الذين كانوا جميعاً في الميسرة، لكن ليس في أقصى الجناح الآيسر الذي كان يقوده يوريلوخوس وقواته في مواجهة ديموستينيس والميسينيين. وعندما تلاحم الجيشان، قام البيلوبونيز في الميسرة بالالتفاف حول العدو وبدؤوا بتطويق جناحه الأيمن، عندها خرج الأكارنان من مكمنهم وهاجموا مؤخرتهم بعنف وكسروهم بشكل كامل في أول هجوم حتى إن أحداً ما أحد استطاع الصمود أمامهم وإبداء أي مقاومة. وفي الواقع أن الذعر الذي أصابهم قد انتشر في بقية تشكيلات الجيش؛ إذ عندما رأى الآخرون الهزيمة التي مني بها رجال يوريلوخوس – وهم صفوة قواتهم– ازداد خوفهم. ولقد كان معظم الشرف والفخر في هذه المعركة من نصيب الميسينيين وديموستينيس الذين كانوا في هذا الجزء من ساحة المعركة. وفي غضون ذلك، فإن الأمبراس – وهم في الواقع أفضل المقاتلين بين القبائل في هذه الأنحاء – تمكنوا ومعهم قوات الميمنة من هزيمة القوات المقابلة لهم ودفعوا بهم إلى آرجوس. وعند عودتهم من المطاردة، رأوا أن الجسم الأساسي من الجيش قد هزم. وقام بقية الأكارنان بمهاجمتهم بعنف، فلم يتمكنوا من الفرار إلى أولباي إلا بصعوبة شديدة. ولقد قتل الكثير منهم؛ لأنهم لم يلتزموا الانضباط والنظام عند محاولتهم فتح الطريق أمامهم، شأنهم في هذا شأن الجميع، باستثناء المانتينيين الذين ظلوا كتلة واحدة متراصة، وحافظوا أثناء تراجعهم على النظام بصورة أفضل من أي جماعة أخرى في الجيش.

استمر القتال دائراً حتى المساء. وفي اليوم التالي تولى القيادة مينيدايوس بعد مقتل يوريلوخوس ومكاريوس. وكان في حيرة من أمره لا يدري ما ينبغي القيام به بعد هذه الهزيمة المنكرة التي نزلت بهم. فإذا بقي هناك، لم ير كيف يمكن له أن يحتمل الحصار، وهو معزول من ناحية البر ومن الأسطول الأثيني من ناحية البحر، وإذا تراجع فإن الامل ضئيل كما يبدو بالتمكن من الفرار على نحو آمن. ولذلك اقترح على ديموستينيس والقادة الأكارنان بعدم الاكتفاء باستعادة جثث القتلى وحسب، بل أن يحصل أيضاً على هدنة يتمكن بموجبها من الانسحاب. فأعادوا إليه القتلى، ثم أقاموا نصباً تذكارياً، واستعادوا قتلاهم بالمقابل، وقد بلغ عددهم نحو الثلاثمئة. أما ما يخص السماح لهم بالانسحاب وفق معاهدة، ففي العلن رفضوا الموافقة على أي اتفاق حول هذه المسألة مع الجيش بأكمله، لكن ديموستينيس وزملاءه الأكارنان تمكنوا من عقد اتفاق سري يسمح للمانتينيين ومينيدايوس والقادة الآخرين ومعظم الرجال ذوي الشأن من البيلوبونيز بالرحيل فوراً. وكان الهدف الجزئي لديموستينيس إضعاف جيش الأمبراس وأتباعهم من المرتزقة، لكنه أراد بشكل رئيسي أن يفقد الإسبارطيون والبيلوبونيز ثقة الهيلينيين بهم في هذه المناطق، بحيث يظهرهم أشخاصاً يضعون سلامتهم في المقام الأول ويخذلون حلفاؤهم.

ولذلك استعاد الأعداء موتاهم وقاموا بدفنهم بسرعة، وعلى أفضل وجه ممكن. وأخذ من سمح لهم بالخروج بوضع الخطط السرية للفرار. في ذلك الوقت وصلت إلى ديموستينيس والأكارنان أنباء خروج الأمبراس من المدينة بكامل قوتهم وعبورهم أمفيلوخيا، تنفيذاً لما طلبه منهم الرسول الأول من أولباي، وغايتهم الانضمام إلى مواطنيهم في أولباي، وهم لا يعلمون شيئاً عما حصل. وعلى الفور أرسل ديموستينيس جزءاً من قواته لوضع الحواجز واحتلال نقاط هامة على خط تقدم العدو، وفي الوقت ذاته استعد للزحف إليهم مع باقي جيشه.

في ذلك الحين كان المانتينيون وسواهم ممن شملتهم الاتفاقية، قد خرجوا من المعسكر بحجة جمع الخضراوات والحطب، وتجمعوا في زمر من اثنين أو ثلاثة، وهم يجمعون طوال الوقت الأشياء التي يفترض أنهم خرجوا من أجلها. وعندما أصبحوا على مسافة من أولباي أخذوا يتحركون بسرعة أكبر، لكن الأمبراس والآخرين الذين خرجوا معهم في فصائل نظامية أخذوا يسرعون أيضاً عندما شاهدوهم يبتعدون، وركضوا خلفهم ليقبضوا عليهم. ولقد اعتقد الأكارنان في البداية أنهم جميعاً يحاولون الهرب، بخلاف ما اتفقوا عليه، فأخذوا يلاحقون البيلوبونيز ويمطرون قادتهم بالرماح، اعتقاداً منهم بأنهم قد خدعوهم، فحاول هؤلاء تهدئتهم بالقول إنهم إنما يتراجعون وفقاً للاتفاقية. وعلى أية حال، فقد سمحوا بعد ذلك للمانتينيين والبيلوبونيز بالمضي في طريقهم، وأخذوا يقتلون الأمبراس، وهنا دبت الفوضى لصعوبة التمييز بين الأمبراس والبيلوبونيز؛ فقتل منهم نحو المئتين، أما البقية فإنهم هربوا عبر الحدود إلى أجرايا، ووجدوا ملجأ لهم هناك عند سالينثيوس ملك الأجرايان الذي كان صديقاً لهم. في ذلك الوقت كان الأمبراس القادمون من المدينة قد وصلوا إلى إيدومين. وهو اسم يطلق على تلتين مرتفعتين، كبراهما استولى عليها أثناء الليل الفريق المتقدم الذي كان ديموستينيس قد أرسله من جيشه. ولم يلاحظهم الأمبراس وصعدوا التلة قبلهم، وكان الأمبراس أول الواصلين إلى التلة الصغرى حيث أقاموا معسكرهم عليها.

ما إن بدأ الليل يرخي سدوله حتى شرع ديموستينيس مع بقية جيشه في ميسرته، بعد أن تناولوا طعام العشاء. فتقدم ومعه نصف جيشه باتجاه الممر، بينما مضى النصف الآخر عبر جبال أمفيلوخيا. ولم يطلع الفجر إلا وكان ينقض على الأمبراس وهم مازالوا نياماً. ولم يكن الرجال يدرون حقيقة ما حدث، وكانوا يحسبون أن رجال ديموستينس هم من مواطنيتهم؛ لأن ديموستينيس تعمد أن يضع الميسينيين في المقدمة. وكانت تعليماته لهم أن يخاطبوهم باللهجة الدورية لئلا يثيروا الشك لدى الحراس الذين لم يكن

بمقدورهم، على أية حال أن يميزوهم بالنظر؛ لأن الظلام كان مايزال منتشراً.

وهكذا ما إن هاجم جيشهم حتى كانت هزيمتهم النكراء محققة، فقتل معظم من كانوا في ذلك الموقع، وفرَّ البقية إلى الجبال، لكن الطرق كانت محتلة مسبقاً، والأمفيلوخيون يعرفون بلدهم، ولديهم ميزة التسليح الخفيف على أعدائهم ذوي التسليح الثقيل. ولما كان الأمبراس يجهلون البلد، فقد هرعوا إلى الوهاد أو إلى حيث نصبت لهم الكمائن، ونزلت بهم مقتلة عظمية. والتجأ بعضهم إلى البحر الذي لم يكن بعيداً؛ وذلك في جهودهم المسعورة للفرار. وهناك شاهدوا السفن الأثينية تبحر قبالة الساحل في نفس الوقت الذي كانت فيه الحرب على الأرض تدور. وكان ذعرهم عظيماً في تلك اللحظة حتى إنهم سبحوا باتجاه السفن، وهم يؤثرون أن يموتوا على يد من هم على متن السفن من أن يقتلوا بأيدي الأمفيلوخيين الهمج المكروهين، إذا كان الموت محتماً عليهم. ولم يبق من جيش الأمبراس العظيم بعد هذه الكوراث إلا عدد قليل جداً، هم الذين تمكنوا من العودة سالمين إلى مدينتهم.

أقام الأكارنان نصباً لتخليد هذه الموقعة، بعد أن جردوا جثث الموتى من الأسلحة، ثم عادوا إلى آرجوس. وفي اليوم الثاني جاء إليهم موفد الأمبراس الذين هربوا من أولباي إلى بلد الأجرايان. وكان قد أوفد ليطلب الإذن بأخذ جثث القتلى الذين سقطوا بعد المعركة الأولى عندما خرجوا مع المانتينيين، رغم أن الاتفاقية كانت تشمل المانتينيين ولا تشملهم. وعندما رأى الموفد الأسلحة التي أخذت من الأمبراس الذين قدموا من المدينة، دهش لكثرتها، إذ لم يكن يعرف بعد ما حصل، وتصور أن هذه الأسلحة تعود لجيش الأمبراس الذي ينتمي هو إليه. وقد سأله أحدهم – إذ خيل إليه خطأ أن الموفد جاء من القوات في إيدومين – عما جعله يفاجأ إلى هذا الحد، واستعلم من الموفد عن عدد القتلى، فأجاب الموفد : إنهم نحو المئتين." فقال الآخر متابعاً حديثه معه : "إن الأمر ليس كذلك، إذا كان لنا أن نحكم من الأسلحة الموجودة هنا"، ثم قال له مستفهماً : "لماذا إذن

عددها يربو على الألف؟"

فقال الموفد: "إذن لا يمكن أن تكون أسلحة الذين كانوا يقاتلون معنا"، وقال الآخر: "من المؤكد أنها هي، إذا كنتم قد حاربتم في إيدومين البارحة." فقال الموفد: "ولكن لم يقع أي قتال البارحة. لقد كان ذلك أول أمس أثناء التراجع."

فقال الآخر: "مهما يكن الأمر، من المؤكد أننا كنا نحارب هؤلاء الرجال البارحة. إنهم قوة النجدة الذين قدموا من مدينة الأمبراس."

عندما سمع الموفد هذا أدرك أن التعزيزات التي جاءت من المدينة قد قضي عليها. وأخذ يصرخ عالياً، وقد هاله حجم الكارثة، ثم رحل على الفور دون أن يقوم بما كلف به، ودون أن يعاود طلب استعادة الجثث.

وفي الحقيقة أن هذه كانت بلا شك أعظم كارثة تنزل بأية مدينة هيلينية بمفردها في مثل هذا العدد من الأيام طوال الحرب كلها. ولم أقم بتسجيل عدد القتلى؛ لأنه يقال أن عددهم أكبر من أن يصدق بالنظر إلى حجم المدينة. لكنني أعلم أنه لو كان الأكارنان والأمفيلوخ مستعدين للأخذ بنصيحة ديموستينيس والأثينيين بالاستيلاء على أمبراسيا، لتمكنوا من ذلك بدون قتال. لكنهم كانوا يخشون إذا ما احتل الأثينيون المكان، فإنهم سوف يكونون جيراناً أشد خطراً من جيرانهم الحاليين.

بعد ذلك قاموا باقتسام الغنائم، فأعطوا الثلث للأثينيين ووزعوا الباقي بين مدنهم. وقد أخذ الأثينيون حصتهم وهم في طريق عودتهم إلى الوطن. ويرى المرء من بين الهدايا المكرسة لمعابد أتيكا ثلاثمئة مجموعة من الدروع التي وضعت جانباً وخص بها ديموستينيس الذي أتى بها معه عن طريق البحر. والجدير بالذكر أن هذا كان الوقت المناسب للعودة إلى الوطن، وهو يفخر بهذا الإنجاز، ليعدل به الكارثة في آيتوليا.

كما عاد الأثينيون في السفن العشرين إلى نوبكتوس. بعد مغادرة ديموستينيس والأثينيين، وافق الأكارنان والأمفيلوخ على قيام هدنة بينهم وبين الأمبراس والبيلوبونيز

الذين التجؤوا إلى سالينثيوس والآجرايان. وكان هؤلاء قد فارقوا سالينثوس وذهبوا إلى أونيداي، وسمح لهم أن يتراجعوا من هناك دون أن يتم مضايقتهم. واحتياطاً للمستقبل عقد الأكارنان والأمفيلوخ معاهدة مع الأمبراس لمدة مئة عام. ومن شروطها أن يقدم كل طرف العون للطرف الآخر بما يكفل حماية المناطق الخاضعة لهما، لكن لم يطلب من الأمبراس الانضمام إلى الأكارنان في أي حملة ضد البيلوبونيز، كذلك لم يطلب من الأكارنان الانضمام إلى الأمبراس في أي حملة ضد الأثينيين. وأوجبت المعاهدة على الأمبراس أن يعيدوا للأمفيلوخ الرهائن والبلدات التي استولوا عليها والتي تعود إلى الأمفيلوخ، وألا يقدموا المؤازرة إلى أناكتوريوم التي كانت في حالة حرب مع الأكارنان. وبهذه الشروط تكون العداوة قد انتهت. ثم أرسل الكورنث بعد ذلك حامية من مواطنيهم إلى أمبراسيا، تتألف من ثلاثمئة من المشاة الثقيلة بإمرة زينوكليديس بن يوثيكليس. وقد وصلت هذه القوة بعد رحلة شاقة عبر القارة. وبهذا تكتمل رواية ما حدث في أمبراسيا.

في فصل الشتاء ذاته قام الأثينيون في صقيلية بالرسو في منطقة هيميرا، وكان ذلك بمساعدة الصيقيل الذين قاموا بغزو المناطق الحدودية من الداخل. كذلك توجهت سفنهم إلى جزر أيولوس. وعند عودتهم إلى ريجيوم وجدوا القائد الأثيني بيثودوروس بن إيسولوخوس الذي أرسل لتسلم قيادة الأسطول من لاخيس. وكان الحلفاء في صقيلية قد أبحروا إلى أثينا وأقنعوا الأثينيين بإرسال المزيد من السفن لمساندتهم. وكان مبررهم في ذلك أن السيراكوز يحكمون السيطرة على أرضهم، مع أنهم قد أبعدوا عن التحرك من البحر بوجود أسطول صغير لدى الصيقيل، وأن السيراكوز قد شرعوا بتجهيز أسطولهم الخاص بهم وذلك لوضع حد لهذه الحالة. فقام الأثينيون بتجهيز أربعين سفينة بالرجال لدعمهم اعتقاداً منهم بأن الحرب في صقيلية ستنتهي سريعاً بهذه الطريقة، واعتبروها في الوقت ذاته تمريناً بحرياً جيداً. لذلك أرسلوا أحد القادة، بيثودوروس،

ومعه بعض السفن، واستعدوا لإرسال الجيش الرئيسي لاحقاً بقيادة سوفوكليس بن سوستراتيديس، ويوريميدون بن ثوكليس. وفي ذلك الوقت تسلم بيثودوروس قيادة الأسطول من لاخيس، وفي نهاية الشتاء توجه بحملة على الحصن اللوكراني الذي كان لاخيس قد استولى عليه قبل حين. وعاد إلى قواعده من جديد بعد أن هزمه اللوكريان في المعركة.

في مطلع الربيع - ومثلما حدث في مناسبات سابقة - نزلت حمم بركانية من جبل إتنا وأتلفت بعض الأراضي التابعة للكاتانيين الذين يعيشون على سفوح إتنا، وهو أكبر جبل في صقيلية، ويقال: إن هذا كان أول انفجار بركاني منذ خمسين سنة ومنذ أن استعمر الهيلينيون صقيلية لم تقع سوى ثلاثة انفجارات بركانية فقط.

كانت تلك أحداث هذا الشتاء، وبها انتهت السنة السادسة لهذه الحرب التي سجل أحداثها ثوسيديدس.

الكتاب الرابع

الفصل الأول : انتصار الأثينيين في بيلوس ،

رفض العرض الإسبارطي للسلام

في الصيف التالي ، في الوقت الذي أخذت فيه الغلال من قمح وذرة تنضج ، أبحرت عشر سفن سيراكوزية وعشر سفن لوكرية أخرى متجهة إلى ميسينا في صقيلية ، وتولوا مقاليد السلطة هناك بناء على دعوة من الأهالي . وهكذا تمردت ميسينا على أثينا . وكان السيراكوز قد تولوا التخطيط لهذه الحركة بشكل أساسي ؛ لأنهم رأوا أن المكان يقدم قاعدة للعمل ضد صقيلية ، وخشوا أن يستخدمها الأثينيون في المستقبل بوصفها كذلك ، ويهاجموهم على رأس قوة كبيرة . في حين أن الكراهية التي يكنها اللوكريان لشعب ريجيوم ، هي التي حملتهم على القيام بذلك ، ورغبوا الآن في سحقهم بشن الحرب عليهم من جانبي المضيق ، ولذلك ففي الوقت الذي كانت فيه الحملة البحرية تجري ، قاموا بغزو منطقة ريجيوم وقد زجوا بقواتهم كلها بهدف منعها من مساعدة ميسينا . كما أعانهم في هذه العملية بعض المنفيين من ريجيوم الذين كانوا معهم ودعوهم للتدخل . فالصراعات الحزبية كانت تدور في ريجيوم منذ بعض الوقت ، ولهذا كان من المتعذر عليهم مقاومة اللوكريان ، وهذا ما جعل هؤلاء يزدادون ميلاً إلى مهاجمتهم . فقامت قواتهم البرية بنشر الخراب والدمار في البلد ، ثم انسحبت بعد ذلك ، بينما بقيت سفنهم لحراسة ميسينا . وفي الوقت ذاته كانت السفن الأخرى تتزود بالجنود ليتخذوا مواقعهم في ميسينا لمواصلة الحرب من هناك .

وفي هذا الوقت في الربيع ، وقبل أن يكتمل نضج القمح والذرة ، قام البيلوبونيز وحلفاؤهم بغزو أتيكا بقيادة الملك الإسبارطي آجيس بن أرخيداموس . فنزلوا في الريف وأخذوا يعيثون في الأرض خراباً ودماراً .

وفي غضون ذلك أرسل الأثينيون إلى صقيلية السفن الأربعين التي كانوا يقومون

بتجهيزها، تحت إمرة القائدين الآخرين، يوريميدون وسوفوكليس؛ ذلك أن القائد الثالث بثودوروس كان قد سبقهم في الوصول إلى صقيلية ، وأعطيت لهما التعليمات بأن يقوما أثناء إبحارهما قرب الساحل ببذل قصارى جهدهما لمساعدة الكورسير في المدينة الذين كانوا يعانون إغارات حزب المنفيين عليهم من الجبال. كذلك أبحرت ستون سفينة بيلوبونيزية لمؤازرة المنفيين. ولما كانت المدينة تعاني من مجاعة خطيرة، فقد رأوا أن من السهل السيطرة عليها وتولي زمام الأمور فيها. أما ديموستينيس فإنه لم يحصل على أي منصب رسمي منذ عودته من أركانانيا، لكن الأثينيين سمحوا له – بناء على طلبه – بأن يفيد من هذا الأسطول كما يشاء وهو في طريقه حول البيلوبونيز.

وعندما كانوا على مسافة من ساحل لاكونيا، بلغهم نبأ وصول سفن البيلوبونيز إلى كورسيرا. وكان يوريميدون وسوفوكليس يؤيدان الإسراع إلى كورسيرا، لكن ديموستينيس أراد أن ينزل الأسطول أولاً في بيلوس لتنفيذ خطته، ثم يتابع الإبحار من هناك. إلا أنهما عارضا هذا الرأي، لولا أنه صادف أن هبت عاصفة قوية على المنطقة فأرغمت السفن على الذهاب إلى بيلوس. فاقترح ديموستينيس على الفور العمل على تحصين المكان . وفي الواقع كان هذا سبب انضمامه للحملة. وأوضح لهم أن المنطقة غنية بالأخشاب والحجارة، وأن المكان منيع بطبيعته، فضلاً عن أنه ومعظم الريف المحيط به خال من السكان. وبيلوس تبعد عن إسبارطة مسافة خمسة وأربعين ميلاً فيما كان سابقاً بلاد الميسينيين. وقد أطلق الإسبارطيون على المكان اسم "كوريفاسيوم" . لكن الآخرين قالوا له : إن بوسعه إن أراد تبديد أموال الأثينيين أن يجد غير هذه الكثير من الرؤوس المهجورة حول البيلوبونيز ليحتلها. ولكن من الجهة الأخرى؛ كان هذا المكان برأي ديموستينيس يتمتع بمزايا عظيمة؛ إذ لديه ميناء قريب وكان من بلاد الميسينيين الذين يتحدثون بلهجة الإسبارطيين، فإذا ما تم وضعهم فيه فإنهم يستطيعون اتخاذه قاعدة لهم؛ فينزلون بالإسبارطيين الكثير من الأذى، بالإضافة إلى أنهم سيشكلون حامية

عسكرية يمكن الاعتماد عليها كثيراً.

ثم قام ديموستينيس بعرض خطته للقادة للنظر فيها، لكنه فشل في إقناع أي من القادة أو الجيش بمزاياها. ولذلك بقي هناك دون أن يقوم بشيء في أثناء فترة أحوال الطقس السيئة، إلى أن خطرت للجنود ذاتهم فكرة تنظيم أنفسهم في مجموعات والقيام ببناء تحصينات للمكان؛ لأنهم سئموا من البقاء دون عمل، ولم يكن لدى هؤلاء أدوات حديدية لتسوية الأحجار، فكانوا يلتقطونها بأيديهم، ويحملونها ويرتبونها بحيث يتوافق بعضها مع بعض. وكانوا كلما احتاجوا إلى الملاط حملوه فوق ظهورهم - إذ ليست لديهم أحواض خاصة به - وهم يحنون ظهورهم، ليتمكنوا من حمل أكبر كمية، ويشبكون أيديهم إلى الخلف كي يسندوا الأحمال ويمنعوها من الانزلاق. والحق أنهم بذلوا قصارى جهدهم للإسراع بالعمل والانتهاء من تحصين المناطق الأكثر عرضة من سواها للهجوم قبل أن يأتي الإسبارطيون ويهاجموهم؛ لأن المكان لم يكن بحاجة إلى أن يتم تحصينه كله؛ إذ أن معظمه كان منيعاً بطبيعته.

كان الإسبارطيون في ذلك الوقت يحتفلون بأحد الأعياد، ولم يأخذوا نبأ احتلال بيلوس على محمل الجد، لثقتهم بأنهم حالما يزحفون إليها، فإما أن ينسحب الأثينيون أو في حال لم ينسحبوا فإنهم سيجتاحون المكان بسهولة. والحق أن جيشهم الرئيسي الذي ما زال قبالة أثينا قد كان له دور في بقائهم في مواقعهم.

أمضى الأثينيون ستة أيام في تحصين المكان في الناحية المواجهة لليابسة والأجزاء الأخرى التي كان تحصينها ضرورياً أكثر من غيرها. ثم غادروا مخلفين ديموستينيس وراءهم ومعه خمس سفن لتقوم بالحماية، وأسرعوا في طريقهم إلى كورسيرا وصقيلية ومعهم القسم الأعظم من قطع الأسطول.

حينما سمع البيلوبونيز في أتيكا نبأ الاستيلاء على بيلوس انسحبوا على الفور وعادوا إلى وطنهم. ولقد اعتبر الإسبارطيون وملكهم آجيس أن هذه العملية تشكل تهديداً

لمصالحهم الحيوية، كما أن غزوهم لأتيكا قد تم في وقت مبكر؛ إذ أن القمح والغلال كانت لا تزال خضراء لما تبلغ نضجها بعد، مما جعلهم يعانون نقصاً عاماً في المؤن، علاوة على ذلك كان الطقس ماطراً وعاصفاً أكثر مما هو متوقع في مثل هذا الوقت من السنة، فسبب هذا المصاعب للجيش. ولذلك أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى الانسحاب المبكر وقصر فترة هذا الغزو؛ إذ لم يتجاوز مكوثهم في أتيكا خمسة عشر يوماً.

وفي ذلك الوقت استولى القائد الأثيني سيمونيديس على إيون في منطقة تراقية، وهي مستعمرة ميندية، لكنها معادية لأثينا. وكان سيمونيديس قد جمع قوة تتألف من بعض الأثينيين من الحاميات وعدد من الحلفاء من الجوار. وكانت إيون قد سلمت إليه بالخيانة، لكن الخاليكيد والبوتيان أتوا على الفور، وأخرجوا سيمونيديس من المدينة بالقوة وأنزلوا به خسائر فادحة.

عندما عاد البيلوبونيز من أتيكا، زحف الإسبارطيون والقوات من المدن التابعة لهم قرب إسبارطة على الفور لنجدة بيلوس، وتبعهم اللاكيديمون الآخرون على نحو أكثر تمهلاً؛ إذ أنهم كانوا قد وصلوا للتو إلى وطنهم من الحملة الأخرى. وصدرت الأوامر في كافة أرجاء البيلوبونيز لمختلف القوات أن تتوجه إلى بيلوس بأقصى سرعة ممكنة، كما أرسلوا في طلب سفنهم المتواجدة في كورسيرا. فمرت هذه السفن عبر برزخ ليوكاس، وبذلك أفلتت من ملاحظة الأسطول الأثيني في زاكينثوس، ووصلت بيلوس، حيث كانت القوات البرية قد سبقتها إلى هناك. وعلى أية حال، بينما كان الأسطول البيلوبونيزي ما يزال في طريقه إلى بيلوس، كان ديموستينيس قد توقع وصولهم فأرسل سراً سفينتين لإعلام يوريميدون والأسطول الأثيني عند زاكينثوس بأن بيلوس في خطر، وألح عليهم بالقدوم لمساعدته. فأتبع الأسطول تعليماته وأبحر إلى بيلوس بأقصى سرعة ممكنة.

في غضون ذلك استعد الإسبارطيون للهجوم على التحصينات من البر والبحر معاً، وهم يتوقعون الاستيلاء عليها بسهولة؛ لأنها بنيت على عجل، ولا يحرسها سوى بضعة رجال. ولما كانوا يتوقعون أن يأتي الأسطول الأثيني من زاكينثوس لنجدة هؤلاء، فقد عزموا على سد المداخل إلى الميناء، إذا ما فشلوا في الاستيلاء على المكان قبلهم، وبذلك لن يتمكن الأثينيون من دخوله واتخاذ مواقع لهم هناك. وكانت جزيرة سفاكتيريا تقع بالقرب من الساحل، وتمتد قبالة الميناء بحيث تجعل منه مكاناً آمناً ذا مداخل ضيقة - تتسع لسفينتين جنباً إلى جنب في الناحية القربىٰ إلى بيلوس والتحصينات الأثينية، وتتسع لثماني أو تسع سفن على الجانب الآخر الأقرب إلى البر الرئيسي. وكانت الغابات تكسو سفاكتيريا، وقد خلت من الطرق ؛ لأنها غير مأهولة، أما طولها فكان يبلغ الميل ونصف الميل. كانت الخطة الإسبارطية أن يعملوا على سد المداخل إلى الميناء بصفوف من السفن المتراصة ومقدماتها تواجه البحر. ولما كانوا يخشون أن يحتل العدو الجزيرة ويستخدمها ضدهم، نقلوا إليها بعض المشاة الثقيلة، ووضعوا آخرين على البر الرئيسي. وهكذا على الأثينيين، وفقاً للخطة الإسبارطية، أن يواجهوا الأعداء في الجزيرة والبر الرئيسي معاً، ولن يكون باستطاعتهم أيضاً الرسو في أي منهما. ولما كان شاطئ بيلوس يفتقر لمرافئ باتجاه البحر الفسيح - في الواقع لا يوجد إلا الميناء الواقع خلف سفاكتيريا - فلن يكون لدى الأثينيين قاعدة ينطلقون منها لتامين النجدة لرجالهم في بيلوس. وبذلك لن يضطر الإسبارطيون للمجازفة بخوض معركة في البحر، ومن المحتمل أنهم سيستولون على المكان عن طريق الحصار، لافتقاره للمؤن ولأن الاستيلاء عليه تم عفو اللحظة ارتجالاً. ولما أقروا هذه الخطة، عملوا على إرسال المشاة الثقيلة إلى الجزيرة، وتم اختيار هؤلاء بالقرعة من كل فرقة في جيشهم. وكانت وحدات عديدة قد عبرت إلى الجزيرة وقامت بواجبها من الخدمة العسكرية هناك، ثم استبدلت بعناصر أخرى بعد حين. أما آخر هذه القوات التي عبرت، ولم تتمكن من الخروج من هناك، فقد بلغ عددها أربعمئة

وعشرين من المشاة الثقيلة، ومعهم العبيد الذين يقومون بخدمتهم. وكانت هذه القوة بقيادة إبيتاداس بن مولوبروس.

وفي هذا الوقت ذاته كان ديموستينيس قد قام باستعداداته لمواجهة الهجوم الإسبارطي الذي كان يتوقع أن يأتيه من البر والبحر معاً في آن واحد. فقام بسحب السفن الثلاثية المجاذيف التي بقيت في حوزته من بين تلك التي تركت له، ووضعها تحت التحصينات، وأحاطها بطوق من القضبان لحمايتها. وسلح البحارة الذين كانوا يخدمون عليها بالتروس - وجميعها ذات صناعة رديئة ومعظمها من خشب الصفصاف، لاستحالة الحصول على أسلحة في هذه البقعة المهجورة - وفي الواقع أن هذه الأسلحة حصلوا عليها من سفينة قراصنة ذات ثلاثين مجذافاً ومن مركب شراعي يعود لبعض الميسينيين الذين صادف أن حضروا إلى المكان. كذلك قام هؤلاء الميسينيون بتأمين قوة من نحو أربعين من المشاة الثقيلة، استخدمهم ديموستينيس مع البقية، ووضع معظم رجاله، سواء كانوا مسلحين بالكامل أم لا في أفضل الأجزاء تحصيناً وأكثرها منعة، والتي تقابل اليابسة، ومعهم تعليمات بالتصدي لأي هجوم قد تقوم به القوات البرية. وانتقى بنفسه قوة مؤلفة من ستين من المشاة الثقيلة وبعض الرماة من صفوف الجيش كله، وذهب مع هؤلاء خارج السور نزولاً إلى البحر عند نقطة رجح لديه أن العدو سيحاول الإنزال فيها. وكانت أرضاً صعبة وصخرية وتواجه البحر الفسيح، لكنها تقع أيضاً عند أضعف نقطة في السور الأثيني، إذ اعتقد ديموستينيس أن هذه الحقيقة ستشجعهم على محاولة شق طريقهم بالقوة؛ ذلك أنه لم يدر بخلد الأثينيين قط أنهم سيواجهون بقوات بحرية تفوقهم قوة، مما جعلهم يهملون تحصين هذا الجزء بالشكل المناسب. فإذا تمكن العدو من الإنزال بالقوة فسيكون بمقدوره الاستيلاء على الموقع حالاً؛ ولذلك نزل ديموستينيس إلى البحر مباشرة، ونظم صفوف مشاته الثقيلة ليمنع العدو من النزول إلى اليابسة، إن أمكنه ذلك. ووقف يخاطب جنوده بما يلي ليشجعهم ويثير حميتهم:

"أيها الجنود، إننا جميعاً نواجه هذا الأمر معاً، وفي وضعنا الحالي الخطر لا أريد أن يحاول أيّ منكم استعراض ذكائه بقيامه بحسابات دقيقة للأخطار التي تحيط بنا؛ بل علينا، عوضاً عن ذلك، أن نهاجم العدو مباشرة، لا أن نتوقف لمناقشة الأمر، وأن تملأ قلوبنا الثقة بأن في وسعنا التغلب على هذه الأخطار أيضاً؛ ذلك أن الحسابات لا يعود لها أهمية عندما نكون مرغمين على مواجهة وضع كهذا. وما علينا القيام به هو أن نراهن على قرار حكيم سريع. وفي الواقع أنني أرى أن الأفضلية لنا، ما دمنا مصممين على التشبث بأرضنا، وألا نضيع ما لدينا من أسباب حقيقية للتفوق بسبب خوفنا من كثرة عدد العدو. إن أحد الأمور التي تعتبر في مصلحتنا هي حقيقة أن هذا المكان يصعب النزول فيه، إلا أن هذه ستكون ميزة لنا إذا ما وقفنا ثابتين. أما إذا تركنا لهم المجال، فإن التقدم مهما يكن صعباً عليهم سيغدو أمراً يسيراً طالما لا يجدون أمامهم من يقاومهم. وحتى ولو تمكنا فيما بعد من أن ندفع بالعدو إلى الوراء، فسوف نجد أن التعامل معه أصبح أكثر مشقة بسبب الصعوبات التي سيواجهها في تراجعه، فمن أيسر الأمور رد الأعداء وهم ما يزالون على ظهر سفنهم؛ إذ إنهم إن نزلوا عنها كانت أوضاعهم مساوية لأوضاعنا . أما بالنسبة لأعدادهم فليس هناك من داع للمبالغة في الخوف من هذه الناحية؛ إذ لن يكون بإمكانهم الاشتباك إلا بكتائب صغيرة في كل مرة، بالغاً ما بلغت أعدادهم؛ لأنهم عاجزون عن جلب سفنهم قريباً من الشاطئ. ثم إن المسألة ليست أننا مضطرون للقتال أمام جيش يفوقنا عدداً على الأرض حيث الشروط متساوية، بل على العكس من ذلك؛ لأنهم ينطلقون في عملياتهم من سفنهم. أما في البحر فيجب أن تتضافر مجموعة كبيرة من الشروط حتى تكون الأمور في صالحهم، إذا كان يراد للعمل أن يكون فعالاً . ولهذا فإنني أعتبر أن الصعوبات التي سيواجهها العدو تعوض النقص في أعدادنا . وإني لأناشدكم في الوقت نفسه، بوصفكم أثينيين، تعلمون من التجربة كل ما ينبغي عن النزول من السفن على شواطئ أجنبية، وكم هو مستحيل

أن يتم النزول بالقوة، إذا ما وقف المدافعون وقفة ثبات، ولم يفسحوا المجال لهم بسبب خوفهم من الأمواج المتكسرة على الشاطئ أو المظهر المخيف للسفن وهي تدخل الميناء ـ فتذكروا هذا ، وقفوا ثابتين الآن، وقابلوا العدو مباشرة عند حد الماء، وحافظوا على هذا الموقع وعلى أرواحنا."

ازدادت ثقة الأثينيين بأنفسهم بعد سماعهم لهذه الكلمات المشجعة من ديموستينيس، فنزلوا للقاء العدو، واتخذوا مواقعهم على طول حد البحر. أما الإسبارطيون فقد بدؤوا الآن في التحرك فشنوا هجوماً على التحصينات بكل قواتهم البرية وسفنهم. وكان هناك ثلاث وأربعون منها، ويبحر معهم أمير البحر ثراسيميليداس بن كراتيسيكليس بشخصه، وهو ضابط إسبارطي من الجيش النظامي، وقد شن هجومه في نفس المكان الذي توقعه ديموستينيس.

كان على الأثينيين الآن أن يدافعوا عن أنفسهم على الجانبين، من البر والبحر. وقد جاء العدو في فصائل تتألف من بضع سفن في كل هجوم، بسبب ضيق المجال؛ إذ لا يتسع لجلب أعداد أكبر إلى الشاطئ، وكان البعض يرتاح، بينما يتابع الآخرون الهجوم وهم يبدون أعظم الحماس، ويشجع بعضهم بعضاً على جهودهم الرامية إلى إجبار المدافعين على التراجع والاستيلاء على التحصينات. وكان براسيداس هو الأبرز بين الجميع، وكان يتولى قيادة سفينة ثلاثية المجاذيف. وعندما رأى أن طبيعة الأرض الصعبة قد جعلت القباطنة وموجهو دفات السفن يترددون ولا يقدمون على الرسو حتى في الأماكن التي يمكن الرسو فيها، وذلك خوفاً على سفنهم من العطب، صاح فيهم سائلاً إياهم ما هي الميزة في الإبقاء على خشب السفن وفي الوقت نفسه تحمل وجود حصن للعدو في بلادهم، وطالباً منهم أن يحطموا سفنهم طالما أنهم يقومون بالرسو عنوة، ومناشداً الحلفاء أن ينضموا بسفنهم الآن من أجل إسبارطة، وأن يجنحوا بها إلى اليابسة ويحاولوا الرسو بأي طريقة ويتغلبوا على المكان والمدافعين عنه، وذلك لقاء ما نالوا من

المزايا والفضل.

وهكذا حفز براسيداس الآخرين على العمل. وفي الوقت ذاته أجبر موجه الدفة في سفينته على التوجه إلى الشاطئ، واتخذ موقعه على الجانب الأعلى من السفينة. وبينما كان يحاول النزول هاجمه الأثينيون، وأثخنوه بالجراح ففقد الوعي وسقط على مقدمة السفينة. وانزلق الترس من يده ووقع في البحر، وعندما قذف به إلى الشاطئ فيما بعد، التقطه الأثينيون واستخدموه في النصب التذكاري الذي أقاموه تخليداً لنجاحهم في صد هذا الهجوم.

أما الآخرون فقد أبدوا ما ينبغي من التصميم والثبات، إلا أنهم لم يتمكنوا من النزول قسراً وذلك بسبب صعوبة الأرض وصمود الأثينيين الذين وقفوا بثبات ولم يتزحزحوا عن مواقعهم قيد أنملة. لقد كان ذلك بالفعل تبدلاً غريباً في المجرى الطبيعي للأمور، حين أصبح الأثينيون يخوضون معركة برية وعلى أرض إسبارطية أيضاً - ضد إسبارطيين يهاجمون من البحر، وأن يحاول إسبارطيون النزول على شواطئهم التي أصبحت معادية لهم الآن، في مواجهة مقاومة أثينية. ذلك أن إسبارطة كانت في هذا الوقت تفخر بشكل رئيسي بأنها قوة برية ذات جيش لا يضارع وتفخر أثينا بأنها قوة بحرية تتمتع بأعظم أسطول بحري على الإطلاق.

وهكذا استمر القتال دائراً طوال هذا اليوم وجزءاً من اليوم الثاني. وحينذاك أخذ الإسبارطيون يتخلون عن المحاولة، وفي اليوم الثالث أرسلوا بعض سفنهم إلى آسين لتجلب الخشب لصنع آلات الحصار؛ لأنهم كانوا يأملون أن ينجحوا بوساطتها في دك ذلك الجزء من السور القريب من المرفأ، حيث الرسو كان أسهل، رغم أن التحصينات كانت أكثر ارتفاعاً. وهنا كان الأسطول الأثيني قد وصل من زاكينثوس، وهو يتألف من خمسين سفينة، بعد أن تم رفده ببعض السفن التي كانت تقوم بأعمال الدورية عند نوبكتوس، فضلاً عن أربع سفن أخرى من خيوس.

عندما رأى الأثينيون أن البر الرئيسي والجزيرة مزدحمين بالمشاة الثقيلة وسفن العدو راسية في المرفأ، وليس من إشارة تدل على أنها في طريقها للإبحار، لم يجدوا لأنفسهم مكاناً للرسو فيه، فتوجهوا مؤقتاً إلى جزيرة بروت الخالية من السكان، والتي لم تكن بعيدة. فأمضوا الليل هناك، وفي اليوم التالي خرجوا إلى البحر وهم على أهبة الاستعداد للمعركة. وكان عزمهم القتال في عرض البحر إذا ما خرج العدو للقائهم، وإذا لم يخرج يقومون بمهاجمته في المرفأ. أما الإسبارطيون من جانبهم فلم يخرجوا إلى البحر، ولم يسدوا المداخل إلى المرفأ، كما كانوا ينوون. بل خلدوا إلى الهدوء على الساحل وشغلوا أنفسهم بتجهيز سفنهم وتزويدها بالرجال والاستعداد للقتال داخل الميناء إذا ما دخله الأثينيون، والذي لم يكن بأي حال من الأحوال صغيراً.

فلما رأى الأثينيون هذا خرجوا بسفنهم وشرعوا بالهجوم من كلا المدخلين. وكان الجسم الأساسي لأسطول العدو في ذلك الوقت في البحر وقد شكلت سفنه خطاً منتظماً، فأطبق الأثينيون عليهم وأكرهوهم على الفرار، وأخذوا يطاردونهم حتى أبعد نقطة ممكنة في الحيز المحدود، فعطلوا عدداً من السفن واستولوا على خمس منها كانت إحداها بكامل طاقمها. ثم قاموا بالاصطدام بالسفن التي هربت عائدة إلى الشاطئ ودكها لاختراقها، كما أعطبوا سفناً أخرى كانت ما تزال راسية مع طواقمها ولم تبحر بعد. وبوساطة سفنهم جروا سفناً أخرى وسحبوها وهي فارغة بعد أن فر بحّارتها.

كان للمشهد أشد الوقع على الإسبارطيين فاستولى عليهم الرعب؛ إذ أدركوا أن رجالهم باتوا الآن معزولين على الجزيرة. فأسرعوا إلى المعركة، وخرجوا إلى البحر بدروعهم، واستولوا على السفن وحاولوا سحبها والعودة بها مرة أخرى، وكل منهم يلقي بنفسه في المعركة وكأن كل شيء يتوقف عليه وحده. وقد عم الصراخ والفوضى كل مكان. وهنا في معركة السفن هذه أيضاً وقع انقلاب في الأساليب المألوفة لكلا الطرفين. ذلك أن الإسبارطيين في إثارتهم ويأسهم أخذوا يخوضون معركة بحرية على الأرض.

والأثينيون المنتصرون في لهفتهم لاستغلال نجاحهم إلى أقصى حد ممكن، راحوا يخوضون معركة مشاة من سفنهم.

بعد قتال ضار، وقع فيه لكلا الطرفين العديد من الجرحى، توقف القتال، وأنقذ الإسبارطيون السفن الخالية باستثناء تلك التي تم الاستيلاء عليها في البداية. وعاد كل من الطرفين إلى معسكره، فأقام الأثينيون عندئذ نصباً تذكارياً. وأعادوا جثث القتلى للطرف الآخر وضمنوا انقاذ السفن المحطمة، وشرعوا على الفور بالإبحار حول الجزيرة؛ وبذلك أصبح أعداؤهم معزولين تماماً هناك، ولذلك عملوا على حراستها بشكل محكم. أما البيلوبونيز في البر الرئيسي الذين اكتملت لهم الآن أسباب القوة فقد ظلوا في مواقعهم قبالة بيلوس.

عندما وصلت إلى إسبارطة أنباء ما حصل في بيلوس، نظر إليها القوم في المدينة نظرة بالغة الجدية، ما حملهم على أن يوجهوا عدداً من أعضاء الحكومة لزيارة المعسكر ويقرروا ما يجب القيام به لمعالجة الوضع فوراً. وحين أصبحوا هناك وجدوا أن من المستحيل إنقاذ رجالهم على الجزيرة. ولما كانوا لا يريدون أن يموت هؤلاء جوعاً، أو أن يضطروا إلى الاستسلام أمام غلبة أعداد المعسكر المقابل، قرروا أن يتوصلوا إلى هدنة مع القادة الأثينيين عند بيلوس، إذا ما وافق هؤلاء القادة، وأن يرسلوا سفراء إلى أثينا بقصد إنهاء الحرب، وبذلك يستعيدون رجالهم بأسرع وقت ممكن.

وافق القادة على مقترحاتهم وعقدت هدنة وفقاً للشروط التالية:

ينبغي أن يحضر الإسبارطيون إلى بيلوس جميع سفنهم التي اشتركت في المعركة ويسلموها للأثينيين. بالإضافة إلى السفن الأخرى في لاكونيا، وألا يقوموا بشن أي هجوم على التحصينات سواء من البر أو البحر.

يجب على الأثينيين، أن يسمحوا للإسبارطيين على البر الرئيسي أن يرسلوا لرجالهم على الجزيرة كمية معينة من الغلال تم بحثها مسبقاً. وأن تكون حصة كل رجل

كوارترين [الكوارتر وحدة وزن تعادل ١٥ كغ تقريباً] من جريش الشعير، وباينتاً واحداً من النبيذ [الباينت يعادل ثمن غالون] ومقداراً من اللحم، وأن تكون حصة كل خادم نصف هذه الكميات.

يجب أن يتم إرسال هذه الجرايات تحت إشراف الأثينيين وألا يتم القيام بأي رحلة إلى الجزيرة إلا بإذن منهم.

يستمر الأثينيون في حراسة الجزيرة كما في السابق، ولكن لا ينزلون عليها ولا يهاجمو جيش البيلوبونيز، سواء من البر أو البحر.

تعتبر الاتفاقية لاغية فوراً عند أي خرق لشروطها بيد أحد الطرفين. ويجب أن تظل سارية المفعول حتى عودة الممثلين الإسبارطيين من أثينا.

على الأثينيين أن يوصلوا هؤلاء الممثلين إلى أثينا في سفينة ثلاثية المجاذيف، وأن يعودوا بهم ثانية.

يجب أن تنتهي الهدنة عند عودتهم، وينبغي أن يعيد الأثينيون السفن في الحالة ذاتها التي كانت عليها حين استلموها.

تلكم كانت البنود التي قامت عليها اتفاقية الهدنة. وتم تسليم السفن التي بلغ مجموعها نحو الستين سفينة، وأرسل الممثلون الإسبارطيون في طريقهم إلى أثينا. وعندما وصلوا إليها ألقوا الخطاب التالي:

"أيها الأثينيون، لقد أرسلنا الإسبارطيون إليكم لمعالجة مسألة رجالنا على الجزيرة ومحاولة التوصل إلى اتفاق مفيد لكم، ويشرفنا في مأزقنا الحالي بقدر ما يمكن للمرء أن يتوقعه في مثل هذه الظروف. وإذا ما أطلنا الحديث بعض الشيء، فينبغي ألا تجدوا في ذلك ما يخالف تقاليدنا. من المؤكد أن أسلوبنا يقضي بألا نسرف في الحديث حين تفي الكلمات القليلة بالغرض، ولكن حين تقضي الضرورة في بعض المناسبات استخدام الكلمات لشرح أمر هام يجب القيام به، عندئذ نستخدم الكلمات بحرية أكبر. إننا

ندعوكم ألا تستمعوا إلى ما سنقوله بروح العداء، وألا يخامركم الظن بأننا نعتقد بكم الجهل؛ فنحاول أن نقدم لكم محاضرة. فلتثقوا بأننا نحترم ذكاءكم، وأننا بكل بساطة نذكركم كيف يكون بلوغ القرارات الحكيمة.

"إنكم الآن في موقع يمكنكم من الإفادة من حظكم الحسن، فتحتفظون بما لديكم، ويكون لكم فوق ذلك الشرف والصيت الحسن. وهكذا تتجنبون الأخطاء التي كثيراً ما يرتكبها من يصادفهم حظ عظيم؛ فيندفعون بقوة أملاً بالمزيد، بسبب عدم توقعهم لنجاحهم الأول. لكن أولئك الذين خبروا تقلبات الحظوظ إلى الأفضل والأسوأ هم الأقل ميلاً للتصديق بأن الحظ الجيد دائم، وهم محقون في ذلك. ولا ريب بأن كلاً من مدينتنا ومدينتكم قد تعرضت لتجارب كافية لتتعلم هذا الدرس

"ولتنظروا – على سبيل المثال– إلى ما حدث لنا الآن. فنحن أصحاب أعظم صيت بين الدول الهيلينية كلها، قد أتينا إليكم نسألكم ما كنا نعتقد سابقاً أن من حقنا أن نمنحه للآخرين. وهذا لم يكن بسبب أي انحدار في سلطاننا أو ضرب من التيه الذي ينشأ عن تنامي القوة. فمازالت مصادر قوتنا كما كانت دوماً. إننا ببساطة قد أخطأنا في حسابها، وهذا الخطأ يمكن أن يقع فيه الناس جميعاً. ولذلك فليس من المنطقي، إذن، أن تعتقدوا بأن الحظ سوف يكون دوماً إلى جانبكم. بسبب ما تملكون الآن من قوة وما تحقق لكم مؤخراً من مكاسب. إن الحكمة الحقيقية تظهر عند أولئك الذين يأخذون بجانب الحذر وهم يفيدون من مزاياهم لمعرفتهم بأن كل حال إلى تغير – ولذلك حين تعاكسهم الأقدار سيظهرون ذكاء أعظم مما لدى الآخرين–. أما بالنسبة للحرب، فإنهم سوف يعلمون أن مسارها محكوم بمجمل الاحتمالات المتصلة بعملياتها العسكرية، ولا سبيل أبداً لأن يتم تقييدها بشروط قد يرغب أي من الطرفين في بقائها ثابتة. إن أشخاصاً كهؤلاء باجتنابهم الإفراط في الثقة الزائدة التي ربما انبثقت من انتصار في حرب، من المرجح أنهم أقل من غيرهم ارتكاباً للأخطاء وأكثر توقاً للتوصل إلى تفاهم،

إذا أمكن، في الفترة التي يكون فيها الحظ مواتياً لهم.

"تلك هي فرصتكم أيها الأثينيون، لتبلغوا هذا الأمر

يقع لاحقاً، إذا لم تتفقوا وإيانا، ثم تعرضتم للهزيمة ف

الإمكان. عندئذ سيظن بكم أن نجاحكم الحالي لم يكن ا

حين أنكم الآن في موقع يتيح لكم أن تتركوا وراءكم س

والحكمة.

"إن إسبارطة تدعوكم لعقد معاهدة وإنهاء الحرب. إن

وعلاقات صداقة وحسن جوار. وبالمقابل تسألكم أن تع

وما يحملها على هذا اعتقادها أنه من الأفضل لكلا الـ

نهاية أليمة؛ فقد يكون الحظ إلى جانب هؤلاء الرجال و

يجعلهم حصاركم يرضخون ويخضعون لسلطانكم أ

توجد كراهية عظيمة، ما من تسوية دائمة يمكن التوصل

وعندما تكون الغلبة في الحرب لأحد الطرفين فيرغم د

بمعاهدة إذعان بنودها مجحفة؛ فأساس التسوية الد

التصرف على النحو الذي ذكرناه، باتخاذ وجهة نظر

والإكراه؛ فيتغلب على خصومه بالكرم، ويقيم سلا

عدوه. وفي حالة كهذه، يبتعد العدو كثيراً عن الرغبة

لما يملي عليه واجبه فيرد الصالح بالصالح، وهكذا يكو

التي اتفق عليها، بدافع من إحساسه بالشرف. والرجال

أعدائهم منهم نحو من يختلفون عنهم اختلافات

يكون الآخرون على استعداد لتقديم تنازلات؛ إذ من

بمثلها بكل طيب خاطر، مثلما هو طبيعي أن يقابل

ـقيلية، النصر النهائي للأثينيين في بيلوس

وحلفاؤهم في صقيلية قد انتهوا من تجهيز بقية لسفن التي تحمي ميسينا. وواصلوا الحرب من هناك. لهذا كله، بسبب كراهيتهم لريجيوم التي قامت بغزو . كذلك أراد السيراكوز تجربة حظوظهم في اشتباك ى الأثينيين في ذلك الحين سوى بضع سفن، كما علموا لمفترض أن ينضم إليهم في صقيلية كان يشارك في ه إذا كان بمقدورهم ترسيخ تفوقهم البحري، فسيكون سهولة بفرض حصار عليها من البر والبحر، وسيجعلهم ذلك أن رأس ريجيوم في إيطاليا قريب جداً إلى ميسينا على الأثينيين أن يديروا عملياتهم العسكرية هناك مع هم على المضيق. وهو ذلك الامتداد للبحر بين ريجيوم ن فيها صقيلية أقرب إلى القارة. إنه خاريبديس الذي تذكر حر عبره. فكان من الطبيعي جداً أن يكتسب صيتاً باعتباره ناة وقوة التيارات التي تصب فيها من البحرين العظيمين إلى قيلي.

سيراكوز وحلفاؤهم لخوض معركة في هذه المياه الضيقة، وفي ء محاولتهم تأمين عبور أحد قواربهم. فزجوا بأكثر من ثلاثين سرة سفينة أثينية وثماني سفن ريجية. وفي هذا الاشتباك مني يد الأثينيين وخسروا إحدى سفنهم، فتراجعوا على عجل، ها إلى قواعدهم في ميسينا وريجيوم، وتوقف القتال مع حلول حب اللوكريون من منطقة ريجيوم. وقد اتحدت السفن

إذا أمكن، في الفترة التي يكون فيها الحظ مواتياً لهم.

"تلك هي فرصتكم أيها الأثينيون، لتبلغوا هذا الأمر معنا، وبذلك تتجنبون ما قد يقع لاحقاً، إذا لم تتفقوا وإيانا، ثم تعرضتم للهزيمة فيما بعد، وهذا أمر ممكن كل الإمكان. عندئذ سيظن بكم أن نجاحكم الحالي لم يكن إلا نتيجة للحظ وحسب، في حين أنكم الآن في موقع يتيح لكم أن تتركوا وراءكم سمعة راسخة وموثوقة بالقوة والحكمة.

"إن إسبارطة تدعوكم لعقد معاهدة وإنهاء الحرب. إنها تعرض عليكم سلاماً وحلفاً وعلاقات صداقة وحسن جوار. وبالمقابل تسألكم أن تعيدوا إليها الرجال على الجزيرة. وما يحملها على هذا اعتقادها أنه من الأفضل لكلا الطرفين ألا يتطور الأمر ليصل إلى نهاية أليمة؛ فقد يكون الحظ إلى جانب هؤلاء الرجال ويتمكنون من الفرار عنوة، أو قد يجعلهم حصاركم يرضخون ويخضعون لسلطانكم أكثر فأكثر. إننا نرى أنه حيثما توجد كراهية عظيمة، ما من تسوية دائمة يمكن التوصل إليها حين تطغى روح الانتقام، وعندما تكون الغلبة في الحرب لأحد الطرفين فيرغم هذا خصمه على القسم بالالتزام بمعاهدة إذعان بنودها مجحفة؛ فأساس التسوية الدائمة أن يقوم الفريق القادر على التصرف على النحو الذي ذكرناه، باتخاذ وجهة نظر أكثر عقلانية، بدلاً من القسر والإكراه؛ فيتغلب على خصومه بالكرم، ويقيم سلاماً بشروط أكثر اعتدالاً مما يتوقع عدوه. وفي حالة كهذه، يبتعد العدو كثيراً عن الرغبة بالثأر لما ناله من عنف، بل يخضع لما يملي عليه واجبه فيرد الصالح بالصالح، وهكذا يكون أكثر استعداداً للتقيد بالشروط التي اتفق عليها، بدافع من إحساسه بالشرف. والرجال أكثر ميلاً للتصرف هكذا تجاه ألد أعدائهم منهم نحو من يختلفون عنهم اختلافات طفيفة. وهذا هو الحال أيضاً حين يكون الآخرون على استعداد لتقديم تنازلات؛ إذ من الطبيعي أن يقابل المرء تلك الروح بمثلها بكل طيب خاطر، مثلما هو طبيعي أن يقابل المرء سلوك العجرفة والغطرسة بمثلها

وبرد الصاع صاعين، مهما كلفه الأمر.

"أما إسبارطة وأثينا، فليس ثمة وقت لقيام السلم بينهما أفضل من الآن، قبل أن يبلغنا حدث حاسم لا يقبل تقويماً، أمر يقسرنا على أن نحمل لكم كراهية لا حدود لها، شخصية بالإضافة إلى كونها سياسية، وستحرمكم من الأمل الذي نعرضه عليكم الآن في هذه اللحظة. هذا أوان المصالحة، والقضية الأخيرة لاتزال غير محسومة، بينما أنتم قد فزتم بالمجد والفخار، ولكم أن تحصلوا بعد على صداقتنا أيضاً. وإننا لنقبل بتسوية معقولة ونحن في محنتنا الحالية، وقبل أن يقع ما يجلب لنا العار. دعونا نختار لأنفسنا السلم عوضاً عن الحرب، ونريح بقية الهيلينيين من معاناتهم. ولسوف يرون أنهم مدينون لكم أنتم لا نحن بالشكر. فالحرب التي يخوضون غمارها الآن ليسوا على يقين ممن بدأها، لكن السلام يعتمد عليكم الآن بشكل أساسي، فإذا ما قام، فإن تقديرهم سوف يكون لكم. وبقبولكم مقترحاتنا تنالون صداقة إسبارطة المتينة، تلك الصداقة التي لم تنتزع منها، بل تعرضها عليكم بحرية، ولكم منها الامتنان إذا ما تفضلتم بقبولها. ثم أمعنوا التفكير بالمزايا التي يمكن أن تتوقعوا حصولها إذا ما تم هذا الأمر؛ ذلك أننا نحن، أثينيين وإسبارطيين، إذا وقفنا معاً، فلكم أن تثقوا بأن بقية هيلاس الأقل شأناً منا، سوف يظهرون لنا كل مظاهر الاحترام."

هكذا تحدث الوفد الإسبارطي، وكان أساس حديثهم افتراضهم بأن أثينا كانت تريد إقامة السلم حتى في وقت أبكر من هذا، ولم يحل دون ذلك سوى معارضة إسبارطة، فإذا ما أتيحت لهم الفرصة الآن فسيسارعون دون ريب إلى اغتنامها وسوف يعيدون الرجال. غير أن الأثينيين كانوا يطمحون إلى أكثر مما عرض عليهم. أما الصلح فقد مالوا إلى الاعتقاد بأنهم يستطيعون بلوغه متى شاؤوا، مادام الرجال في الجزيرة. وكان أكثر من شجعهم على هذا الموقف كليون بن كلينيتوس، وهو شخصية محبوبة في تلك الأيام وله أعظم التأثير في الجماهير. وأقنعهم أن الرد المناسب هو التالي: أولاً على الرجال

الاستسلام وتسليم أسلحتهم، ويتم إحضارهم إلى أثينا، ثم على إسبارطة أن تعيد نيسايا وبيجيا وترويزين وآخاية، وجميعها أماكن سقطت أثناء الحرب وتخلت أثينا عنها وفقاً لشروط معاهدة السلم السابقة التي أُبرمت في وقت عصيب، عندما كانت أثينا في حاجة ماسة للسلم أكثر من حاجتها إليه في هذه اللحظة. وإذا تم هذا، فإن إسبارطة تستعيد رجالها وتعقد معها هدنة يتقرر أمدها حسب اتفاق الطرفين.

لم يرد السفراء بشيء على هذا الجواب، إلا أنهم طلبوا تعيين لجنة ليتداولوا معاً كل نقطة من الاتفاقية على حدة ويتمكنوا من إرساء قاعدة للتفاهم في جو من الهدوء. وكان ذلك كاف ليشتد كليون في الهجوم عليهم، فقال إنه كان يعلم على الدوام أن في نيّاتهم اعوجاجاً. وقد ثبتت الحقيقة الآن بالتهرب من إشهار رأيهم أمام الشعب بأكمله وإيثارهم التعامل مع لجنة صغيرة. لا، فليتحدثوا على الملأ إن كانت نيّاتهم صادقة.

لكن الإسبارطيين رأوا أنه يستحيل عليهم التحدث أمام الشعب. وأنهم حتى لو قبلوا بتقديم تنازلات في وضعهم الصعب هذا فقد يتحدثون ،ولكن ذلك لن يجعلهم ينالون بغيتهم، ولسوف يجدون أن ما قالوه قد أكسبهم صيتاً سيئاً بين حلفائهم، وأن الأثينيين على الأرجح لن يقبلوا بمقترحاتهم بروح الاعتدال. ولذلك غادروا أثينا دون أن يحققوا شيئاً.

وكانت عودتهم تعني نهاية الهدنة في بيلوس، فطالب الإسبارطيون بإعادة سفنهم إليهم، وفقاً لما جرى الاتفاق عليه. لكن أثينا تذرعت بأن الاتفاقية انتهكت حينما هاجم الإسبارطيون السور. كما أبدوا بعض الشكاوي الأخرى التي تكاد لا تستحق الذكر، ورفضوا إعادة السفن، وهم يتمسكون بحرفية الاتفاقية؛ إذ نصت على أنها تصبح لاغية عند أدنى انتهاك لشروطها. وقد أنكر الإسبارطيون ادعاءات الأثينيين هذه. وقفلوا عائدين وأخذوا يستعدون لاستئناف القتال، بعد أن تقدموا باحتجاج رسمي على عسف الأثينيين فيما يتصل بموضوع السفن.

وهكذا شن الطرفان حرباً شعواء في بيلوس. وكان لدى الأثينيين على الدوام سفينتان تقومان بأعمال الدورية يومياً، فكانتا تبحران حول الجزيرة باتجاهين متعاكسين وفي الليل كان الأسطول بأكمله يرسو حولها باستثناء الجانب المقابل للبحر الواسع حين يكون الجو عاصفاً. ثم وردت من أثينا عشرون سفينة إضافية لتساعد في أعمال الحصار، وبذلك بلغ عدد السفن الآن سبعين سفينة. في تلك الأثناء كان البيلوبونيز يعسكرون على البر الرئيسي فتابعوا هجومهم على السور، وهم منتبهون لأي فرصة قد تتاح لهم لإنقاذ رجالهم في الجزيرة.

في الوقت ذاته كان السيراكوز وحلفاؤهم في صقيلية قد انتهوا من تجهيز بقية أسطولهم، وأحضروه لينضم إلى السفن التي تحمي ميسينا. وواصلوا الحرب من هناك. وكان اللوكريون المحرضين الرئيسيين لهذا كله، بسبب كراهيتهم لريجيوم التي قامت بغزو منطقتها بكل ما لديه من قوات. كذلك أراد السيراكوز تجربة حظوظهم في اشتباك بحري؛ لأنهم رأوا أنه لم يكن لدى الأثينيين في ذلك الحين سوى بضع سفن، كما علموا أن الأسطول الرئيسي الذي من المفترض أن ينضم إليهم في صقيلية كان يشارك في حصار سفاكتيريا. فاعتقدوا أنه إذا كان بمقدورهم ترسيخ تفوقهم البحري، فسيكون بوسعهم السيطرة على ريجيوم بسهولة بفرض حصار عليها من البر والبحر، وسيجعلهم هذا على الفور في موقع قوي؛ ذلك أن رأس ريجيوم في إيطاليا قريب جداً إلى ميسينا في صقيلية ومن المستحيل على الأثينيين أن يديروا عملياتهم العسكرية هناك مع أسطولهم ويحكموا سيطرتهم على المضيق. وهو ذلك الامتداد للبحر بين ريجيوم وميسينا في النقطة التي تكون فيها صقيلية أقرب إلى القارة. إنه خاريبديس الذي تذكر الأساطير أن أوديسيوس قد أبحر عبره. فكان من الطبيعي جداً أن يكتسب صيتاً باعتباره موقعاً خطراً، بسبب ضيق القناة وقوة التيارات التي تصب فيها من البحرين العظيمين إلى جانبيها، وهما التيراني والصقيلي.

وقد صادف أن اضطر السيراكوز وحلفاؤهم لخوض معركة في هذه المياه الضيقة، وفي وقت متأخر من النهار، أثناء محاولتهم تأمين عبور أحد قواربهم. فزجوا بأكثر من ثلاثين سفينة في مواجهة ست عشرة سفينة أثينية وثماني سفن ريجية. وفي هذا الاشتباك مني السيراكوز بالهزيمة على يد الأثينيين وخسروا إحدى سفنهم، فتراجعوا على عجل، وانتقلت كل سفينة بمفردها إلى قواعدهم في ميسينا وريجيوم، وتوقف القتال مع حلول الليل. وبعد ذلك انسحب اللوكريون من منطقة ريجيوم. وقد اتحدت السفن

السيراكوزية وسفن الحلفاء، ورست عند رأس بيلورُوس في منطقة ميسينا، ومعهم قواتهم البرية لمساندتهم. وأبحر الأثينيون والريجيون إليهم في هذا المكان، ولما رأوا أن السفن لم تكن معبأة بالرجال بعد، قاموا بمهاجمتهم، لكنهم خسروا سفينة لهم إذ علقت بحديد المرساة، إلا أن بحارتها نجوا بالسباحة. وبعد ذلك عبأ السيراكوز سفنهم بالرجال، وكانوا يعملون على قطرها بالقرب من الشاطئ باتجاه ميسينا عندما قام الأثينيون بهجوم آخر عليهم. لكن السيراكوز ابتعدوا فجأة عن الشاطئ وبادروهم بالهجوم، فأغرقوا إحدى السفن. وتمكنوا من جلب سفنهم إلى ميناء ميسينا، بعد أن سارت الأمور إجمالاً لمصلحتهم في رحلتهم على طول الشاطئ وفي الاشتباك السابق.

أبحر الأثينيون بعد ذلك إلى كامرينا لدى سماعهم أنباء عن عزم أرخياس وحزبه على تسليم المدينة غدراً إلى السيراكوز. وأثناء غيابهم مضى الميسينيون بكامل قوتهم ومعهم جيشهم وأسطولهم إلى مستعمرة ناكسوس الخاليكيدية التي تقع على حدودهم. فقاموا في اليوم الأول بدفع الناكسيين إلى داخل أسوارهم، وأنزلوا الخراب في الريف. وفي اليوم الثاني أبحروا بأسطولهم حول المكان عن طريق نهر أكيسينيس وخربوا الأراضي في تلك المنطقة، بينما تقدم جيشهم نحو المدينة. وعلى أية حال، ففي ذلك الوقت، نزل من الجبال عدد كبير من الصيقيل للمشاركة في قتال الميسينين. فلما شاهدهم الناكسيون استعادوا رباطة جأشهم واستمدوا الشجاعة من أنفسهم بالاعتقاد بقرب وصول الليونتينيين وحلفائهم الهيلينيين الآخرين لمساعدتهم. فباغتوا الميسينيين بهجوم مفاجئ من المدينة وانقضوا عليهم، وأنزلوا بهم هزيمة منكرة وقتلوا أكثر من ألف منهم. ولقد عانى الناجون أشد العناء في طريق عودتهم؛ لأن الأهالي ما انفكوا يهاجمونهم على الطرقات، وقتلوا منهم عدداً كبيراً. وقد دخل الأسطول إلى ميناء ميسينا، وبعد ذلك عادت مختلف الوحدات إلى موانئها.

وبعيد ذلك استغل الليونتينيون وحلفاؤهم – والأثينيون معهم – خسائر ميسينا،

وهاجموا المكان. وقد توجه الأثينيون بسفنهم إلى الميناء، بينما تقدم الجيش للهجوم على المدينة. لكن الميسينيين قاموا بإغارة مفاجئة ساندهم فيها بعض اللوكريين بقيادة ديمونيلبس، والذين كانوا قد تركوا لحراسة المدينة بعد الكارثة. فقاموا بهجوم مباغت والحقوا الهزيمة بمعظم الجيش الليونتيني، وقتلوا عدداً كبيراً منهم. فلما رأى الأثينيون هذا، نزلوا من سفنهم لمؤازرة المقاتلين، وانقضوا على الميسينيين الذين كانوا في حال من الفوضى، وطاردوهم واضطروهم للعودة إلى المدينة ثانية. ثم عادوا إلى ريجيوم بعد أن اقاموا نصباً تذكارياً. بعد ذلك استمر الهيلينيون في صقيلية في شن الحروب البرية بعضهم على بعض، إلا أن الأثينيين لم يشتركوا فيها.

وفي الوقت ذاته في بيلوس، كان الأثينيون لا يزالون يحاصرون الإسبارطيين في الجزيرة، وقد بقي الجيش البيلوبونيزي في مواقعه على البر الرئيسي. وكان نقص الطعام والماء قد جعلا الحصار عملية شاقة على الأثينيين؛ إذ لم يكن هناك من مصدر للماء سوى نبع واحد في أكروبول بيلوس وهو نبع صغير. لذلك كان على معظمهم أن يحفروا في المواضع الكثيرة الحصى على الشاطئ لايجاد ما أمكنهم من مياه شرب كهذه. بالإضافة إلى أن ضيق المكان اضطرهم لأن يعسكروا بعضهم بالقرب من بعض، كذلك لم يكن ثمة ميناء للسفن، حتى إنه كان عليهم التناوب لتناول وجباتهم على الشاطئ، بينما البقية في سفنهم الراسية في البحر. إلا أن الفترة الطويلة غير المتوقعة التي استغرقتها العملية كان لها أعظم الأثر أكثر من أي أمر آخر؛ إذ أثارت في نفوسهم الشعور بالإحباط؛ لأنهم تخيلوا أن بضعة أيام ستكون كافية لإخضاع هؤلاء الرجال المحاصرين على جزيرة مهجورة وليس لديهم سوى مياه مالحة للشرب. وفي الحقيقة أن الإسبارطيين قد طلبوا متطوعين ليجلبوا إلى الجزيرة الدقيق والنبيذ والجبنة وأي نوع آخر من الأغذية المفيدة أثناء الحصار. وعرضت جوائز مالية ضخمة، ووعد أي عبد ينجح في إدخال الطعام لهم بمنحه حريته. وكان الكثيرون منهم على استعداد للمخاطرة بالقيام

بذلك، وخصوصاً الأرقاء الذين أبحروا من أماكن مختلفة من البيلوبونيز، وأوصلوا قواربهم ليلاً إلى الجانب المقابل للبحر الواسع من الجزيرة. وكانوا يتحينون الفرصة على وجه الخصوص حين تهب الريح خلفهم فتحملهم إلى الداخل. وكان من الأسهل عليهم الإفلات من مراقبة السفن الثلاثية المجاذيف التي تقوم بالحراسة حين تهب الريح من البحر؛ لأنه كان يستحيل على هذه السفن أن ترسو حول الجزيرة بكاملها، فكان العبيد يثمنون قواربهم ويندفعون بها إلى الشاطئ دون أن يكترثوا سواء أعطبت أم لا، لا يعنيهم من ذلك سوى الوصول إلى الجزيرة، وكان المشاة الثقيلة متأهبين دوماً بانتظارهم في مواقع الإنزال، لكن جميع من أقدموا على المحاولة في الطقس الهادئ تم اعتراضهم في الطريق. كذلك سبح الغطاسون تحت الماء من الميناء وهم يجرون جلوداً ربطوها بالحبال تحتوي بذور الخشخاش الممزوجة بالعسل وبذور الكتان المسحوقة. وقد استطاعوا الإفلات من الملاحظة في بداية الأمر، ولكن تم الانتباه إليهم فيما بعد. وهكذا استخدم الطرفان كل خطة يمكن أن تخطر ببالهم، أحدهما لإدخال المؤن، والآخر لاكتشاف الخطة واحباطها.

في غضون ذلك، عندما سمع الناس في أثينا أنباء ما يعانيه الجيش من المشاق، وأن الطعام كان ينقل إلى الرجال في الجزيرة، أصابتهم الحيرة ولم يعودوا يدرون ما ينبغي عليهم القيام به. وخافوا من أن يؤدي حلول الشتاء إلى وضع حد للحصار. ورأوا أنه سيصبح من المستحيل إرسال قوات لحماية قوافل المؤن حول البيلوبونيز. ولم يكن هناك ما يعتد به في بيلوس نفسها. والواقع أنه لم يكن بوسعهم حتى أثناء الصيف إمداد الموقع بالمؤن بشكل مناسب، كذلك لم يكن بإمكان السفن الاستمرار في الحصار في المناطق التي تخلو من مرافئ. وبدا لهم أن الرجال المحاصرين سينجون إما بسبب اضطرارهم لإيقاف الحصار، وإما أن هؤلاء سينتظرون أن تحل فترة من الطقس السيء فيهربون بالقوارب التي جلبت لهم الأغذية. وكان أشد ما يقلق الأثينيين موقف إسبارطة، فقد اعتقدوا أن السبب الذي دعا الإسبارطيين للتوقف عن السعي للتفاوض أنهم شعروا

بالثقة بقوة موقفهم. ولذلك أصبحوا الآن نادمين لعدم قبولهم بالهدنة المتقرحة.

اما كليون، فقد أدرك أنه أخذ يفقد شعبيته بسبب دوره في منع الاتفاقية، فأعلن أن الذين أتوا بالأخبار من بيلوس لا يقولون الحقيقة. فاقترح الرسل عندئذ، إن كان الأثينيون لا يصدقونهم، أن يرسلوا مفتشين ليتحروا الوضع ويتحققوا منه بأنفسهم، نوقع الاختيار على كليون نفسه بالإضافة إلى ثياجينيس للقيام بهذه المهمة. فأدرك الآن أنه سيكون مجبراً إما للعودة حاملاً التقرير نفسه الذي أتى به الرجال الذين كان يهاجمهم للتو، وإما إذا قال خلاف ذلك، ظهر بمظهر الكاذب، لكنه رأى أن الشعور العام بين الأثينيين لم يكن يعارض إرسال حملة أخرى، فما كان منه إلا أن قال : لا حاجة لهم بإرسال مفتشين وتبديد الوقت؛ فيضيعون على أنفسهم الفرص. فالأجدر بهم عوضاً عن ذلك أن يبحروا لقتال الرجال هناك إن كانوا يعتقدون بصدق ما بلغهم. ثم أشار إلى نيسياس بن نيسيراتوس الذي كان في ذلك الوقت قائداً ويكن له الكراهية، وألقى اللوم عليه، وقال: لو كان القادة رجالاً حقاً، لكان من اليسير عليهم توجيه قوة والقبض على الإسبارطيين في الجزيرة، ولا ريب بأنه كان سيقوم بهذه المهمة لو كانت القيادة له.

وهنا دار بعض الهمس والتمتمة بين الأثينيين المناوئين لكليون لإعراضه عن الإبحار الآن، إذا كان الأمر برمته بدا له بمنتهى السهولة، وقد انتبه نيسياس لهذا ووجد نفسه في الوقت ذاته يتعرض للهجوم من كليون، فقال له: إنّ ما يخص القادة فبوسعه أن يتولى قيادة أي قوة يشاء ثم يرى ما يمكنه القيام به. وكان الانطباع الأول الذي تولد لدى كليون أن هذا العرض لم يكن سوى مسألة للنقاش، لذلك كان على استعداد للقبول بها، ولكن عندما أدرك أن القيادة قد سلمت له فعلاً، أخذ يتملص منها، بقوله: إن نيسياس القائد وليس هو. إلا أن نيسياس كرر عرضه وطلب إلى الأثينيين أن يشهدوا على تنحيه عن القيادة في بيلوس. وقد تصرف الأثينيون على نحو ما يتصرف الرعاع. نكلما حاول كليون أن يتملص من الإبحار إلى بيلوس، وأن يتراجع عن مواقفه السابقة،

زادهم ذلك تشجيعاً لنيسياس على تسليم القيادة وهم يصيحون ويلحون على كليون أن عليه القيام بالمهمة والإبحار. وكانت النتيجة أن كليون، حين وجد أنه لم يعد ثمة من مجال للتراجع عما قاله، تعهد بالقيام بالرحلة. وتقدم وقال: إنه ليس خائفاً من الإسبارطيين وسيبحر دون أن يأخذ رجلاً واحداً من أثينا، بل سيكتفي بالليمنيين والأمبريين الموجودين في المدينة والرماة الذين جاؤوا من آينوس لتقديم المساعدة وأربعمئة من رماة السهام المتوفرين في أنحاء أخرى. وادعى أنه بهذه القوة بالإضافة إلى القوات الموجودة الآن عند بيلوس، سيتمكن إما من إحضار الإسبارطيين إلى أثينا أحياء في غضون عشرين يوماً أو من القضاء عليهم في موقعهم. وقد أثار هذا الإدعاء غير المسؤول بعض الضحك بين الحاضرين وإن كان الأفراد الأكثرون ذكاء بين الحضور لم يكونوا مستائين من ذلك؛ لأن حساباتهم بينت لهم أنهم سيحصلون على الفائدة في كلتا الحالتين؛ فإما أن يتخلصوا من كليون في المستقبل - وهو ما كانوا يرجونه - وإما إذا أخطؤوا التقدير وأفلح كليون في تنفيذ مهمته فإن الإسبارطيين سيصبحون تحت سيطرتهم.

وبناء على ذلك قام كليون بترتيباته في المجلس، وعندما صوت الأثينيون على توليه قيادة الحملة، اختار أن يساعده في القيادة ديموستينيس الذي كان أحد القادة في بيلوس. ثم استعد للإبحار في أسرع وقت ممكن. وقد اختار ديموستينيس ليكون زميلاً له بسبب ما بلغه من أنه كان يخطط للقيام بإنزال في الجزيرة؛ ذلك أن الجنود كانوا يعانون مصاعب عظيمة بسبب خطورة موقفهم؛ إذ وجدوا أنفسهم محاصَرين أكثر منهم محاصِرين، لذلك كانوا تواقين إلى حسم الأمور بالقتال. وكان ديموستينيس نفسه قد ازداد ثقة بحسم الموقف لمصلحته بعد أن نشب حريق في الجزيرة. بينما كان قلقاً من قبل؛ لأن معظم الجزيرة مغطاة بالغابات، ونظراً لأنها لم تكن مأهولة أبداً فلم يكن فيها مسالك واعتقد أن هذا كله كان في مصلحة العدو؛ لأنه إذا نزل مع جيش كبير

فسيشنون عليه هجمات ساحقة من مواقع لا يمكنه التوصل إلى مراقبتها، وليست لديه فكرة واضحة عن قوات العدو أو الأخطار التي قد يقعون فيها؛ لأنهم سيكونون محميين بستار الغابات، في حين أن كل خطأ يقع فيه جيشه سيكون ظاهراً للعدو الذي سيكون بمقدوره أن يفاجئه بهجوم غير متوقع في أي موضع يختاره؛ إذ ستكون المبادرة عندئذ في أيدي العدو. ومن جهة أخرى، إذا كان سيرغمهم على الاشتباك في قتال قريب في مناطق الغابات، فإن القوة الصغيرة التي تكون على دراية بالأرض أجدى من قوة كبيرة لا دراية لها بها. وبالرغم من ضخامة جيشه فإنه عرضة لأن يصبح أجزاء متناثرة دون أن يدري ماذا يحدث؛ لأن النقص في الرؤية سيحول دون تعاون الكتائب بعضها مع بعض. وكانت حساباته هذه مبنية بشكل رئيسي على الكارثة التي وقعت في آيتوليا، وكان سببها الغابات إلى حد كبير.

ولقد صادف أن أحد الجنود الذين أجبرهم ضيق المكان على الدخول إلى أطراف الجزيرة وتناول وجباتهم هناك ومعهم الدوريات التي تتولى حراستهم درءاً للمفاجآت، وكان هذا الجندي قد أشعل النار في قسم من الغابة دونما قصد. في تلك الأثناء هبت الرياح، وكادت الغابة كلها تحترق. وكان هذا ما مكن ديموستينيس من رؤية أن أعداد الإسبارطيين كانت أكبر مما كان يتوقع. وقد تصور من قبل أن المؤن التي كانت تجلب لهم هي لأعداد أقل. لكنه رأى كذلك أن النزول إلى الجزيرة أصبح الآن أكثر سهولة، فبدأ يعد للمحاولة، معتقداً أن الوقت قد حان ليقوم الأثينيون بمحاولة جادة لتحقيق هدفهم. لذلك أرسل في طلب قوات من حلفائهم في الجوار وواصل اتخاذ ترتيباته الأخرى.

كان كليون قد بعث قبل حين رسولاً يعلم القوات بقدومه، والآن وصل إلى بيلوس ومعه القوات التي طلبها. وبعد أن تشاور القائدان، قاما قبل كل شيء بإرسال موفد إلى المعسكر في البر الرئيسي لسؤالهم إن كانوا على استعداد لتفادي وصول الأمور إلى مرحلة الأزمة، فإذا كان الأمر كذلك، فعليهم أن يوجهوا الرجال الذين في الجزيرة ليسلموا

أنفسهم وأسلحتهم إلى الأثينيين على أن يكفل لهم ألا يعانوا سوى شكل بسيط من السجن حتى يتم التوصل إلى تسوية شاملة. وقد قوبل هذا العرض بالرفض.

انتظر القادة بعد ذلك يوماً واحداً، وفي اليوم التالي ركب المشاة الثقيلة بضع سفن، وأبحروا فيها والظلام مازال مخيماً، ورسوا قبيل الفجر على طرفي الجزيرة – عند البحر الواسع والمرفأ – وقد بلغ عددهم الإجمالي نحو ثمانمئة. ثم اندفعوا بعدئذ للهجوم على أول موقع في الجزيرة. وكانت تنظيمات العدو كالتالي: في الموقع الأول للحراسة كان ثمة نحو ثلاثين من المشاة الثقيلة؛ أما الوسط والجزء الأكثر انبساطاً من الأرض، حيث توجد المياه، فكان تحت سيطرة القوة الرئيسية بقيادة إبيتاديس. وهناك وحدة صغيرة تتولى الحراسة في أقصى الجزيرة مقابل بيلوس، حيث تتصل الجروف الصخرية الشديدة الانحدار بالبحر مباشرة. وكان من الصعب جداً شن هجوم من اليابسة، لوجود حصن قديم هناك، مبني من حجارة ركّب بعضها إلى بعض دون حرص على الإتقان، واعتقدوا أنهم سيفيدون منه إذا ما واجهوا ضغطاً واضطروا للتراجع.

كان ذلك هو تنظيم القوات الإسبارطية، وقد اكتسح الأثينيون موقع الحراسة الأول، وفتكوا بالرجال الذين كانوا فيه، وهم لا يزالون نائمين أو يحاولون التقاط أسلحتهم. فقد باغتهم الإنزال؛ لأنهم اعتقدوا أن السفن كانت تبحر كعادتها كل يوم لتقضي الليل في مراسيها. ومع الفجر كان بقية الجيش قد نزلوا إلى الجزيرة. وكان هذا القسم يتألف من البحارة العاملين فيما يربو عن سبعين سفينة – عدا الرتب الدنيا من المجذفين –، وكانوا مسلحين بأفضل قدر ممكن من السلاح، وثمانمئة من رماة السهام، وما لا يقل عن ثمانمئة من الرماة، والوحدات العسكرية الميسينية، وجميع الفرق الأخرى في بيلوس باستثناء التي كانت تقوم بحراسة التحصينات. وقسمت هذه القوة بأوامر ديموستينيس إلى مجموعات، كل منها تضم نحو مئتي رجل – تزيد أحياناً وتنقص أحياناً أخرى – وقد احتلوا أكثر النقاط ارتفاعاً عن الأرض، بهدف جعل الأعداء في حالة ارتباك شديد؛

ذلك أنهم سيكونون مطوقين عندئذ من كل جانب، دون أن يكون لهم أي منفذ للقيام بهجوم مضاد، بل سيكونون مكشوفين على الدوام لأعداد كبيرة من كل الاتجاهات. فإذا هاجموا الذين أمامهم سيتلقون ضربة في خطوطهم الخلفية، وإذا هاجموا أحد الجناحين، فلسوف يأتيهم الرد من الجناح الآخر، وأينما ذهبوا، سيجدون الأعداء خلفهم، وهم مسلحون بالأسلحة الخفيفة، وهؤلاء يعتبر التعامل معهم من أصعب الأمور لأنهم بسهامهم ورماحهم وحجارتهم ومقاليعهم يستطيعون القتال عن بعد بفعالية، ويستحيل الاقتراب جداً منهم؛ لأن لديهم ميزة السرعة في الهروب، فإذا هدأت المطاردة أعادوا الكرة من جديد. كانت هذه هي الخطة الأصلية التي وضعها ديموستينيس للإنزال، وقد وضعت الآن موضع التنفيذ.

في ذلك الوقت، حين رأت القوات التي بإمرة إبيتاديس، وكانت تشكل الجزء الرئيسي من قوة العدو على الجزيرة، أن الموقع الأول قد تم تدميره وأن جيشاً كان يتقدم لمهاجمتهم، رتبوا صفوفهم وتقدموا للهجوم على المشاة الثقيلة الأثينية وفي نيتهم الاشتباك معهم عن قرب. كان المشاة الثقيلة أمامهم، والقوات الخفيفة قبالة جناحيهم والمؤخرة. إلا أنهم لم يتمكنوا من الاشتباك القريب مع المشاة الثقيلة أو قطف ثمار تدريبهم الخاص. فقد أعاقتهم الأسلحة التي كانت القوات الخفيفة ترميهم بها من كلا الجناحين، كما أن المشاة الثقيلة الأثينية ظلوا في مواقعهم عوضاً عن التقدم لملاقاتهم. ومع أنهم كانوا يردون القوات الخفيفة على أعقابهم كلما صادفوهم أو اقتربوا منهم، فإن هؤلاء كانوا يقاتلونهم حتى أثناء تراجعهم؛ إذ لم يكن لديهم عتاد ثقيل يعرقل حركتهم فكان من اليسير عليهم أن يسبقوهم في الجري في أرض ظلت غير مأهولة حتى ذلك الحين، بينما كان المسير صعباً وقاسياً على الإسبارطيين وهم يرتدون دروعهم الثقيلة فلا يقوون على متابعة المطاردة.

استمر القتال عن بعد بين المتحاربين لبعض الوقت. ولم يعد بمقدور الإسبارطيين رد

الهجمات بنفس سرعتهم السابقة في النقاط التي كان خطهم مهدداً فيها، واكتسب المشاة الخفيفة الثقة بقدراتهم حين اكتشفوا أن العدو بات بطيئاً عند الرد على هجماتهم. وكان ظاهراً لهم أن عدد قواتهم يفوق عدد قوات الإسبارطيين عدة مرات، كما ألفوا الآن فكرة أن الإسبارطيين ليسوا بالفظاعة التي ظنوهم بها، بعد ما تبين لهم أن تجربتهم الأولى معهم لم تكن بالتجربة الرهيبة كما تخيلوا عند نزولهم. وكانت قد استحوذت عليهم فكرة أنهم سيقومون بمهاجمة الإسبارطيين فعلاً، إلا أنهم بدؤوا الآن بالاستخفاف بهم، وراحوا يصرخون بصوت عال وهم يهاجمونهم في كتل متراصة ويقذفونهم بالحجارة والسهام والرماح وكل سلاح يقع بين أيديهم. لم يكن الإسبارطيون معتادين على هذا النوع من القتال فدب فيهم الرعب من شدة الصراخ الذي كان يصاحب الهجمات؛ وقد علت غمامة كبيرة من الغبار من الرماد الموجود في المكان الذي احترقت فيه الغابة مؤخراً، ناهيك عن السهام والحجارة التي كانت ترمي بها الأيدي الكثيرة وهي تنطلق طائرة عبر غيمة الغبار، حتى أصبح المرء لا يتبين ما يجري أمامه. وغدت الأمور الآن أكثر صعوبة على الإسبارطيين، ولم تمكنهم خوذهم المصنوعة من اللباد من تجنب أذى السهام؛ وإذا ما تلقوا الرماح علقت قصباتها المكسورة بدروعهم. ولما لم يكن بوسعهم أن يروا أمامهم فلم يكن لديهم أي وسيلة ليردوا الهجوم. وكان من المتعذر عليهم سماع أوامر القادة التي ضاعت وسط صرخات العدو، وكان الخطر محدقاً بهم من كل جانب، وسدت في وجوههم السبل للدفاع أو الهرب.

وأخيراً، وبعد أن جرح الكثير منهم، وهم في مأزقهم هذا وعاجزون عن الحركة بحرية، قاموا برص صفوفهم وتراجعوا إلى الحصن عند نهاية الجزيرة، ولم يكن بعيداً ويحرسه رجالهم. والآن أخذت هتافات القوات الخفيفة تتعالى حين شاهدوهم يتراجعون وشرعوا يهاجمونهم بثقة أكبر. وقتلوا من استطاعوا أن يعترضوهم أثناء تراجعهم، لكن أغلبية الإسبارطيين وصلوا إلى حمى الحصن، وانضموا إلى الحامية هناك، واتخذوا

مواقعهم على طول التحصينات للدفاع عنها في كل نقطة قد تتعرض للهجوم. ولحق الأثينيون بهم لكن منعة الموقع جعلت من المستحيل عليهم الالتفاف عليه وتطويقه، فهاجموه من الأمام وحاولوا اجتياحه. ولقد صمد الطرفان مدة طويلة استغرقت في الواقع معظم اليوم، رغم أنهما كانا منهكين بسبب ضراوة القتال وشدة العطش وحرارة الشمس، وكان الأثينيون يحاولون طرد العدو عن التل والإسبارطيون يجاهدون للبقاء في موقعهم. لكن دفاع الإسبارطيين عن أنفسهم أصبح الآن أكثر سهولة من ذي قبل؛ إذ ليس ثمة قوات تطوقهم من الجناحين.

ولقد بدا أن الصراع ربما سيستمر إلى أمد غير محدد. لكن قائد الميسينيين تقدم من كليون وديموستينيس وقال لهما: إن هذه الجهود لن تجدي نفعاً، إلا إذا كانا على استعداد لأن يسمحا له بأخذ بعض رماة السهام والقوات الخفيفة، فيقوم بالالتفاف ليصل إلى مؤخرة العدو عبر طريق بإمكانه أن يجده وأكد لهما ثقته بنجاح الهجوم. فقدما له ما طلب وانطلق من مكان بعيد عن النظر لئلا يلاحظه الإسبارطيون. ثم اختار أفضل طريق وقع عليه بمحاذاة المنحدرات الصخرية للجزيرة، وسلك طريقاً كان الإسبارطيون قد تركوه دون حماية، لثقتهم بمنعته الطبيعية، فاستطاع بعد عناء شديد الالتفاف من خلفهم دون أن يلحظوه، وظهر فجأة بين جنود المؤخرة فوق التل، ما أحدث الهلع في صفوف الإسبارطيين لشدة وقع المفاجأة عليهم. وهذا ما أعطى الأثينيين مزيداً من الشعور بالثقة حين شاهدوا أن ما كانوا ينتظرونه قد تحقق.

أصبح الإسبارطيون الآن في وضع معرض للهجوم من كلا الجانبين. وبمقارنة الأمور الصغيرة بالعظيمة، فقد كانوا بالفعل في نفس الموقف الذي كانوا عليه في موقعة ثيرموبلاي، حيث قضي على الجيش الإسبارطي في حركة التفاف قام بها الفرس من خلفهم عبر الممر. وهكذا وقع الإسبارطيون الآن بين نارين ولم يعودوا قادرين على الاحتفاظ بموقعهم فتراجعوا بسبب التفوق العددي لعدوهم والإنهاك الذي نال منهم

لنقص الغذاء، وباتت المبادرة الآن بأيدي الأثينيين الذين أصبحوا سادة الموقف.

في تلك اللحظة أوقف كليون وديموستينيس القتال وأبعدا رجالهما؛ إذ أدركا أن أي تراجع آخر من جانب الإسبارطيين سوف يعني القضاء عليهم بجيشهما، في حين أنهما يريدان إحضارهم إلى أثينا أحياء، فإذا أمكن تحطيم معنوياتهم، وحملهم على الرضوخ تحت وطأة الأخطار المحيطة بهم، فلعلهم يصغون عندئذ للنداء بإلقاء أسلحتهم. فأبلغا الإسبارطيين عبر مراسل أنهم إذا قاموا بتسليم أنفسهم وأسلحتهم إلى الأثينيين فسيعاملون معاملة لائقة.

عندما سمع الإسبارطيون كلمات المبعوث، قام معظمهم بخفض تروسهم ولوحوا بأيديهم إعلاناً بقبول العرض. كان القتال قد انتهى الآن، وعقد اجتماع بين كليون وديموستينيس والقائد الإسبارطي ستيفون بن فاركس. وكان من بين قادتهم المتقدمين؛ لأن الأول كان قد قتل، وأما الثاني هيباجريتاس، فبالرغم من أنه ما زال حياً لكنه كان ملقى بين جثث القتلى حتى إنهم اعتقدوا أنه ميت. ووفقاً للعرف الإسبارطي تم اختيار ستيفون ليتولى القيادة، باعتبار أن ترتيبه الثالث بين القادة في حال حدوث أي مكروه للقائدين الأعليين رتبة. وقال ستيفون ومستشاروه: إنهم يرغبون في إرسال مبعوث إلى الإسبارطيين على البر الرئيسي ليسألوهم التوجيه فيما عليهم القيام به. فرفض الأثينيون السماح لأي منهم بمغادرة الجزيرة، لكنهم أرسلوا إلى البر الرئيسي لدعوة موفدين للحضور إليهم. وبعد تبادل الأسئلة والأجوبة مرتين أو ثلاث، وكان آخر رجل يبحر إليهم من الإسبارطيين في البر الرئيسي قد أحضر معه الرسالة التالية: "إن الإسبارطيين يأمرونكم باتخاذ قراركم بما يخصكم، ما دمتم لا تقومون بما يشين." فتشاوروا فيما بينهم، وقاموا بتسليم أنفسهم وأسلحتهم. فأبقاهم الأثينيون تحت الحراسة مدة يوم كامل، وفي اليوم التالي أقاموا نصباً على الجزيرة، واستعدوا للإبحار ووزعوا الأسرى بين قباطنة السفن الثلاثية المجاذيف ليقوموا على حراستهم. وأرسل الإسبارطيون على البر

الرئيسي مبعوثاً وحملوا جثث قتلاهم. وفيما يلي عدد القتلى ومن قبض عليهم أحياء في الجزيرة: بلغ مجموع الذين عبروا إلى الجزيرة أربعمئة وأربعين من المشاة الثقيلة، أسر مئتان واثنان وتسعون منهم ونقلوا إلى أثينا أحياء، أما الباقي فقد كانوا قتلى. وكان من بين الأسرى نحو مئة وعشرين من مرتبة الضباط الإسبارطيين. أما خسائر الأثينيين فكانت طفيفة؛ لأنه لم يكن هناك قتال بمعنى الكلمة بين المتحاربين.

ولقد استغرق الحصار من يوم المعركة البحرية حتى معركة الجزيرة اثنين وسبعين يوماً. منها قرابة عشرين يوماً، غاب فيها الموفدون الذين كانوا يحملون مقترحات السلام، وقد سمح خلالها بإدخال المؤن إلى المحاصرين، أما الفترة المتبقية فكانت المؤن تهرب إليهم. وقد وجدت مؤن من الغلال وأنواع أخرى من الأطعمة على الجزيرة، وهي بقايا ما كان يرد إليهم، بعد ان أمر قائدهم إبيتاديس بتقليص حصصهم مما هو متوفر في مخازنه. والآن، قام الأثينيون والبيلوبونيز بسحب قواتهم من بيلوس وعادوا إلى أوطانهم. كذلك وفى كليون بوعده – وإن حمله جنونه يومذاك على قطعه، حين أحضر الرجال خلال عشرين يوماً– تماماً مثلما تعهد بذلك.

أثار هذا الحدث أشد الدهشة بين الهيلينيين أكثر من أي حدث في تلك الحرب. وكان الانطباع العام أن الإسبارطيين لن يسلموا أسلحتهم أبداً، سواء كان ذلك بسبب الجوع أو أي شكل من أشكال الإكراه، وأنهم يصمدون حتى آخر رجل منهم ويموتون وهم يقاتلون. فكان من الصعب تصديق أن الذين استسلموا ينتمون إلى النوع ذاته من البشر الذين سقطوا قتلى في الميدان. وبالفعل صادف أن سنحت الفرصة حين سأل أحد حلفاء الأثينيين أحد السجناء من الجزيرة ما إذا كان الذين سقطوا هم الإسبارطيين الحقيقيين، ويريد بهذا السؤال إهانته. فكان الرد أن "المغازل – ويعني بها السهام– تكون ثمينة إذا كان بإمكانها أن تميز بين الشجعان والجبناء"، وأراد بذلك أن الذين قتلوا كانوا مجرد أشخاص صادفتهم الحجارة والسهام في الطريق.

وفي أثينا قرر الأثينيون إبقاء الأسرى في السجن حتى يتم التوصل إلى تسوية مع إسبارطة، إلا إذا قام البيلوبونيز بغزو أتيكا قبل ذلك، فيقتلونهم حينذاك. وباتت بيلوس محمية بشكل تام. وأعاد الميسينيون من نوبكتوس بعضاً من قواتهم إلى ما كان في الواقع وطنهم القديم؛ إذ إن بيلوس تقع فيما كان يعرف من قبل بـ "ميسينيا". وقامت هذه القوات بغارات داخل لاكونيا، وأحدثت بها أضراراً جسيمة. وقد ساعدهم على ذلك أنهم يتحدثون اللغة ذاتها التي يتحدث بها السكان. ولم يكن لدى الإسبارطيين أي خبرة بهذا النوع من حرب العصابات، فلما بدأ الأرقاء بالهرب، خشوا من انتشار الثورة في بلدهم، وأصبحوا قلقين بشأنها إلى أبعد الحدود. وبالرغم من أنهم لم يرغبوا بالكشف عن مخاوفهم أمام الأثينيين، إلا أنهم مع ذلك أرسلوا ممثلين إلى أثينا، وحاولوا استعادة بيلوس والسجناء، إلا أن الأثينيين كانوا يطمحون لنيل المزيد بعد. وبالرغم من السفارات المتكررة التي كانت ترسل إليهم ظل الأثينيون يردون كل مبعوث إسبارطي إلى بلده خاوي الوفاض. وبهذا تكتمل رواية ما حدث في بيلوس.

الفصل الثالث :انتصارات الأثينيين قرب كورنثة، نهاية الثورة في كورسيرا.

استيلاء الأثينيين على سيثيرا، قنوط الإسبارطيين

في الصيف ذاته، وبعيد الحوادث التي ذكرناها آنفاً، شن الأثينيون حملة على منطقة كورنثة، وكانت قوات الحملة تتألف من ثمانين سفينة وألفين من المشاة الثقيلة الأثينيين، ومئتي خيال تم نقلهم بالسفن. ويساند هؤلاء كتائب من ملطية وأندروس وكاريستوس. وتولى القيادة نيسياس بن نيسيراتوس واثنان من زملائه.

انطلقت هذه القوة مبحرة، وفي الفجر نزلت إلى اليابسة عند الشاطئ بين خيرسونيس وريتيوس في منطقة تشرف عليها الهضبة السوليجية. وكان الدوريون قديماً قد ثبتوا أقدامهم فوق هذه الهضبة وشنوا حرباً على الكورنث في المدينة، الذين كانوا أيونيين. وتوجد الآن قرية على الهضبة تدعى سوليجيا. ويبعد هذا الشاطئ حيث رسا الأسطول ميلاً ونصفاً عن هذه القرية، وسبعة أميال عن كورنثة، وميلين وربعاً عن برزخ أشموس (ممر كورنثة) .

وكان قد توفر للكورنث قبل حين معلومات من الأرجوس بأن ثمة حملة أثينية في طريقها إليهم، فقاموا قبل أن تصل بجلب قواتهم إلى الأشموس. ولم يستثن من ذلك إلا من كانوا يعيشون بعيداً عنه، وخمسمئة رجل كانوا يتولون حماية أمبراسيا وليوكاديا. أما البقية فكانوا هناك بكامل قوتهم لرصد الإنزال الأثيني.

إلا أن الأثينيين دخلوا المنطقة ليلاً دون أن يلاحظهم أحد. وقد علم الكورنث بذلك من الإشارات النارية فهرعوا للتصدي لهم، تاركين نصف جيشهم عند سينكريلي للوقوف في وجه الأثينيين إذا ما زحفوا نحو كروميون. كان باتوس- وهو أحد القائدين في المعركة - قد أخذ معه مجموعة وذهب لاحتلال قرية سوليجيا، التي لم تكن حصينة. وهاجم القائد الآخر ليكوفرون العدو مع القوات الباقية. وفي البداية هاجم الكورنث الجناح الأيمن للأثينيين، الذي كان قد نزل للتو قبالة خيرسونيس، ثم انضما

للقتال مع بقية الجيش. وكان قتالاً ضارياً التحم فيه المقاتلون بعضهم ببعض طوال الوقت. وتمكن الجناح الأيمن للأثينيين مع الكاريستيين، الذين كانوا يقفون في الطرف الأقصى لخطوط القتال من الوقوف بوجه الكورنث ودحرهم وردهم على أعقابهم، وإن تم ذلك بمشقة. عندئذ تراجع الكورنث إلى سور حجري يقوم على الأرض المرتفعة وراءهم، وراحوا يرشقون الأثينيين بالحجارة، وبعد أن غنوا أنشودة النصر عادوا لمهاجمتهم ثانية، فتصدى الأثينيون للهجوم، وعاد القتال يحتدم ثانية بين الطرفين اللذين اشتبكا في قتال قريب. عندئذ جاءت جماعه أخرى من الكورنث لتعزيز جناحهم الأيسر ورد الجناح الأيمن للأثينيين ودفعه إلى البحر. وقام الأثينيون والكاريستيون مرة أخرى بالتصدي لهم من السفن وردهم. وفي تلك الأثناء كانت بقية القوات من الطرفين تقاتل قتالاً عنيداً وبالأخص الجناح الأيمن للكورنث، حيث كان ليكوفرون يجابه هجوم الجناح الأيسر للأثينيين؛ لأنهم كانوا يتوقعون أن يحاول الأثينيون اختراق صفوفهم للوصول إلى قرية سوليجيا.

وهكذا وقف الجانبان بثبات لمدة طويلة دون أن يتزحزح أي منهما عن موقعه قيد أنملة. وكان لدى الأثينيين ميزة وجود فرسانهم في المعركة – إذ لم يكن لدى الكورنث فرسان أبداً –، وفي النهاية مني الكورنث بهزيمة منكرة ، وتراجعوا إلى التل، حيث وقفوا هناك وخلدوا إلى السكون ولم يقوموا بأي محاولة للنزول مرة أخرى. وقد وقعت معظم الإصابات القاتلة – بما في ذلك مقتل قائدهم ليكوفرون – في هذه الهزيمة التي لحقت بجناحهم الأيمن. أما بقية جيشهم، فقد أجبر على التراجع بالطريقة التي تم وصفها، ولكن لم يكن أمامهم أي مجال لفرار عام أو متابعة القتال فتراجعوا إلى الأراضي المرتفعة، واتخذوا مواقعهم هناك.

ولما وجد الأثينيون أن العدو لم يعد ينشد القتال، جمعوا جثث قتلاهم، وجردوا

جثث قتلى العدو مما عليهم، ثم أسرعوا بإقامة نصب تذكاري. وفي تلك الأثناء كان نصف الجيش الكورنثي المتمركز عند سينكرياي بقصد منع الأثينيين من الهجوم على كروميون من البحر، غير قادر على رؤية المعركة بوضوح بسبب جبل أونيون، لكنهم شاهدوا الغبار المتصاعد، وأدركوا ما كان يجري هناك، فهبوا على الفور لتقديم النجدة. وهذا ما قام به الرجال الأكبرون سناً من مدينة كورنثة حين أدركوا حقيقة الوضع.

ولما رأى الأثينيون هذه القوات كلها تتقدم باتجاههم، اعتقدوا أنها تعزيزات آتية من دول البيلوبونيز المجاورة، فتراجعوا بسرعة إلى سفنهم حاملين معهم غنائم المعركة وقتلاهم باستثناء اثنين لم يتمكنوا من العثور على جثتيهما فتركتا على أرض المعركة. ثم رحلوا على متن سفنهم، وعبروا إلى الجزر القريبة من الشاطئ ومن هناك أرسلوا مبعوثاً إلى الكورنث، واتفقوا على هدنة استعادوا بموجبها الجثتين اللتين تركوهما وراءهم. وقد فقد الكورنث في تلك المعركة مئتين واثني عشر قتيلاً، بينما فقد الأثينيون أقل من خمسين قتيلاً.

انطلق الأثينيون من هذه الجزر، وفي اليوم ذاته أبحروا إلى كروميون في منطقة كورنثة، وكانت تبعد نحو ثلاثة عشر ميلاً عن المدينة. فألقوا مراسيهم وألحقوا الدمار بالأراضي، وقضوا الليلة على الشاطئ. وفي اليوم التالي قاموا أولاً بالإبحار على طول الساحل إلى منطقة إبيداروس، حيث أرسوا سفنهم، ثم تابعوا إلى ميثانة التي تقع بين إبيداروس وترويزين، وقاموا ببناء جدار في عرض البرزخ أدى إلى عزل شبه الجزيرة عن البر الرئيسي. وتركوا وراءهم حامية راحت فيما بعد تقوم بشن الغارات على مناطق ترويزين وهالياي وإبيداروس. وعندما اكتمل تحصين المكان، أبحر الأسطول عائداً إلى أثينا.

في ذلك الوقت الذي وقعت فيه الحوادث التي ذكرناها، كان يوريميدون وسوفوكليس، بعد مغادرتهما بيلوس مع الأسطول الأثيني في طريقهما إلى صقيلية، قد

وصلا إلى كورسيرا وزحفا مع حزب المدينة للقضاء على الحزب المعارض الذي كان قد اتخذ مواقعه فوق جبل إيستون، وهم الكورسير الذين فروا، كما سبق أن ذكرت، وانتقلوا إلى هذا الموقع بعد الثورة، وسيطروا على المناطق الريفية وألحقوا الأذى بحزب المدينة. فهاجموا معقلهم واستولوا عليه. لكن المدافعين فروا بمجملهم إلى بعض الأراضي المرتفعة. وهناك وافقوا على الشروط التالية: تسليم القوات المرتزقة التابعة لهم، والقيام بتسليم أسلحتهم والالتزام بحكم شعب أثينا. وبموجب اتفاقية الهدنة قام القائدان الأثينيان بنقلهم إلى جزيرة بتيخيا ليبقوا هناك رهن الاعتقال حتى يصار إلى إرسالهم إلى أثينا، على شرط أن يكون مفهوماً أن الاتفاقية تعتبر ملغاة بالنسبة لهم جميعاً، إذا ما تم إلقاء القبض على أي منهم وهو يحاول الفرار.

وفي هذه المرحلة خشي قادة الحزب الشعبي في كورسيرا ألا يقوم الأثينيون بقتل السجناء عند وصولهم إلى أثينا، لذلك عمدوا إلى اتباع الخطة التالية: أرسلوا سراً إلى الجزيرة أشخاصاً لهم صلة ودية بعدد قليل من السجناء وذلك للتأثير فيهم، وإقناعهم بأنهم إنما يتحدثون معهم لما فيه مصلحتهم، فأشاروا عليهم بأن الحكمة أن يهربوا بعيداً بأسرع ما يمكنهم، ووعدوهم بالعمل على تأمين قارب لهم، وبرروا ذلك كله بأن القائدين الأثينيين على وشك تسليمهم إلى حزب الشعب في كورسيرا. ولقد نجحت أساليب الإقناع هذه في حملهم على الأخذ بنصيحتهم. وكان الفرار منظماً جداً حتى إنه قبض عليهم يبحرون هاربين، وهذا أدى إلى أن الاتفاقية أصبحت ملغاة، وتم تسليم السجناء كلهم إلى شعب كورسيرا. وإن معظم المسؤولية في هذا الأمر تقع على القائدين الأثينيين؛ فقد أوضحا أنهما لما كانا في طريقهما إلى صقيلية، فإنهما لا يريدان أن يكون لأحد سواهما الفضل في نقل السجناء إلى أثينا، فشجع موقفهما هذا المتآمرين على التصرف بجرأة، وزاد في قوة حججهم.

عندما أصبح السجناء بين أيدي الكورسير، ألقوا بهم في بناء كبير وأوصدوا عليهم

الأبواب والمنافذ، ثم أخرجوهم بعدئذ في دفعات تتألف كل منها من عشرين سجيناً، وأجبروهم على المرور بين صفين من المشاة الثقيلة تم ترتيبهم بحيث يشكلوا ممراً ضيقاً على السجناء أن يسيروا فيه معاً وهم مقيدون بالأغلال، في حين يقوم المصطفون على الجانبين بضربهم وطعنهم أثناء سيرهم بينهم عندما يرى أحدهم عدواً شخصياً له منهم. وكان يسير خلفهم رجال يحملون السياط ليدفعوا كل من يتباطأ على الإسراع. وقد أخرج ستين رجلاً على هذا النحو وتم قتلهم قبل أن يدرك الآخرون في المبنى ما كان يجري هناك؛ لأنهم اعتقدوا أنه كان يتم نقلهم من سجن لآخر وحسب، حتى أتى أحدهم أخيراً ونقل إليهم النبأ، فأدركوا حقيقة ما كان يجري، واستنجدوا بالأثينيين. وطلبوا منهم أن يعملوا على قتلهم بأنفسهم إن كانوا يرغبون بذلك. ورفضوا بعدئذ أن يخرجوا من المبنى وقالوا: إنهم سيبذلون قصارى جهدهم ليمنعوا أي شخص من دخوله. ولم يكن يراود الكورسير فكرة الدخول من الباب عنوة؛ فصعدوا عوضاً عن ذلك إلى أعلى المبنى وحطموا السقف، وألقوا الآجر على من كانوا تحتهم ورشقوهم بالسهام، وهؤلاء يحاولون حماية أنفسهم قدر المستطاع، بينما عمد بعضهم في الواقع إلى الانتحار الآن وذلك بدفع السهام التي كانت تطلق عليهم إلى داخل حلوقهم أو بشنق أنفسهم بأنشوطات صنعوها من بعض الحشايا التي صادف وجودها هناك، أو من ثيابهم ذاتها. ثم حل الليل على مسرح تلك الأحداث ومضى القسم الأعظم من الليل والرجال مقبلون على الانتحار بكل وسيلة تتوفر لهم، كما كانوا يقتلون بسهام أولئك الذين لزموا السطح. وعندما طلع النهار قام الكورسير بتجميعهم والإلقاء بهم في العربات دون ترتيب ثم أخذوهم إلى خارج المدينة، أما النساء اللواتي قبض عليهم في المعقل فقد تم بيعهن كرقيق.

وبهذه الطريقة قضي على الكورسير في الجبال على يد الحزب الشعبي. وكان ذلك صراعاً ثورياً هائلاً، أما هذه الفترة من الحرب فقد باتت الآن منتهية؛ إذ إن أحد الحزبين لم

يعد موجوداً من الناحية الواقعية. وكان الأثينيون في تلك الأثناء قد أبحروا بعيداً إلى وجهتهم الأصلية وهي جزيرة صقيلية، ثم تابعوا الحرب هناك إلى جانب حلفائهم.

في نهاية الصيف قام الأثينيون في نوبكتوس يدعمهم الأكارنان بحملة ضد أناكتوريوم، المدينة الكورنثية التي تقع عند مدخل الخليج الإمبراسي، واستولوا على المدينة غدراً، وقام الأكارنان بعدئذ بإرسال مستوطنين من كافة أرجاء بلدهم واحتلوا المكان. وبهذا انتهى الصيف.

في الشتاء الذي تلاه كان أريستيداس بن أرخيبوس، وهو أحد قادة السفن الأثينية التي كانت ترسل في أعمال جباية الأموال من الحلفاء، قد قبض على أحد الفرس ويدعى أرتفرنيس في مدينة إيون الواقعة على نهر ستريمون، وكان في طريقه إلى إسبارطة موفداً من ملك فارس، فاقتيد إلى أثينا، وهناك قام الأثينيون بترجمة الرسائل الرسمية، وكانت بالآشورية واطلعوا على مضمونها. وقد تناولت هذه الرسائل عدة موضوعات، لكن النقطة الرئيسة كانت تخص الإسبارطيين وهي أن الملك لم يفهم مقاصدهم؛ لأن السفراء العديدين الذين وفدوا إليه تحدثوا جميعاً في قضايا مختلفة، فعليهم إذا كانت لديهم مطالب محددة أن يوفدوا إليه بعض المفاوضين مع هذا الرجل الفارسي. وبعد ذلك أرسل الأثينيون أرتفرنيس على متن سفينة ثلاثية المجاذيف ليعود إلى إفسوس وبرفقته بعض السفراء الأثينيين. وفي إفسوس بلغهم خبر وفاة أرتحشتا بن أحشويرش – وكانت وفاته قد وقعت حوالي ذلك الوقت–، فقفلوا عائدين إلى الوطن.

وفي ذلك الشتاء أيضاً قام أهالي خيوس بتدمير تحصيناتهم الجديدة استجابة لضغوط الأثينيين عليهم، الذين ساورتهم الشكوك بأنهم يعتزمون الثورة. وعلى كل حال فقد حصلوا من الأثينيين على أقصى ما يمكن من الضمانات الموثوقة بأن أثينا لا تعتزم تغيير الأوضاع القائمة في خيوس. وهكذا انتهى الشتاء ومعه السنة السابعة لهذه الحرب التي يدون أحداثها توسيديديس.

وفي أوائل الصيف التالي، حدث كسوف جزئي للشمس مع مطلع الشهر القمري. وفي بداية الشهر ذاته وقعت هزة أرضية. وفي تلك الأثناء خرج الحزب المنفي من ميتيلينة وبقية ليسبوس، ومعظمهم من البر الرئيسي، ويؤازرهم المرتزقة الذين تم استئجارهم من البيلوبونيز وآخرون من أهل المنطقة، فاستولوا على رويتيوم ثم أعادوها ثانية دون أن يحدثوا فيها أي دمار مقابل فدية تبلغ ألفي دينار فوكي. وبعد ذلك زحف هؤلاء إلى إنتاندروس واستولوا على المدينة نتيجة الخيانة. وكانت خطتهم أن يحرروا المدن الأخرى أيضاً المعروفة بالمدن الأكتية، وكانت من أملاك الميتيلينيين إلا أنها الآن تحت سيطرة أثينا، وقد أولوا انتاندروس أهمية خاصة؛ لأنه ما إن ترسخ أقدامهم هناك حتى يسهل عليهم بناء السفن لوفرة الأخشاب في المنطقة، ولقربها من جبل آيدا، فضلاً عن أن هذا الموقع يوفر لهم إمدادهم بالمواد الأخرى. وحين تغدو هذه القاعدة بين أيديهم يسهل عليهم الانطلاق منها للإغارة على ليسبوس، التي لم تكن بعيدة، ويصبح بإمكانهم إخضاع البلدات الأيولية في البر الرئيسي. تلكم كانت الخطة التي يعتزمون تنفيذها.

وفي الصيف ذاته شن الأثينيون حملة على سيثيرا بقوة تتألف من ستين سفينة وألفين من المشاة الثقيلة، وعدد قليل من الخيالة، وبعض الفصائل من الحلفاء من ملطية وسواها. وكان على رأس الحملة نيسياس بن نيسيراتوس ونيكوستراتوس بن ديتريفيس وأوتوكليس بن تولمايوس. وسيثيرا هي جزيرة تقع على مسافة من لاكونيا قبالة ماليا، وسكانها إسبارطيون من طبقة شبه مستقلة. وكانت إسبارطة توفد إليها مفوضاً من قبلها كل عام، كما دأبت على إرسال حامية إليها من المشاة الثقيلة بشكل دوري. وفي الواقع أنهم كانوا يولون المكان عناية كبيرة ويحرصون عليه بسبب المرفأ الذي كانت تؤمه السفن التجارية الآتية من مصر وليبيا، كما كان يوفر الحماية للاكونيا من هجمات القراصنة من البحر - وهي نقطة ضعفها الوحيدة - ؛ لأن لاكونيا بأكملها لسان بحري

يمتد بين البحرين الصقيلي والكريتي.

وهنا نزلت قوات الحملة الأثينية إلى البر، وبقوة قوامها عشر سفن وألفان من المشاة الثقيلة من ملطية استولوا على مدينة سكانديا الساحلية، ثم نزلت بقية قواتهم في ذلك القسم من الجزيرة الذي يقابل ماليا وتقدموا للهجوم على مدينة سيثيرا، فوجدوا الأهالي قد اجتمعوا لاعتراضهم فاحتدم القتال، واستطاع أهالي سيثيرا الصمود لبعض الوقت، لكنهم في النهاية هزموا شر هزيمة، فلجؤوا إلى القسم العلوي من المدينة. وتوصلوا بعد ذلك إلى اتفاق مع نيسياس والقادة الآخرين على الاستسلام ووضع أنفسهم تحت تصرف الأثينيين، ما دامت أرواحهم مصونة. وكانت المفاوضات تجري منذ حين بين نيسياس وبعض أهالي سيثيرا، ولذلك تم ترتيب الاستسلام بسرعة وبشروط ملائمة لأهالي سيثيرا، حاضراً ومستقبلاً. ولولا هذا الاتفاق لكان الأثينيون قد طردوا سكان الجزيرة؛ لأنهم كانوا من دم إسبارطي، وجزيرتهم شديدة القرب من لاكونيا.

بعد الاستسلام احتل الأثينيون بلدة سكانديا الواقعة على المرفأ ووضعوا حامية في سيثيرا، ثم أبحروا إلى آسين وهيلوس ومعظم الأماكن الواقعة على الساحل، وكانوا ينزلون إلى البر ويمضون الليل على الشاطئ حيثما وجدوا ذلك ملائماً. وهكذا ظلوا ينزلون الخراب بالبلد طوال سبعة أيام.

أما الإسبارطيون الذين وجدوا أن أثينا قد استولت على سيثيرا وتوقعوا حصول المزيد من عمليات الإنزال في منطقتهم، فلم يواجهوا الأثينيين في أية نقطة بكامل قواتهم، بل عمدوا عوضاً عن ذلك إلى توجيه حاميات من المشاة الثقيلة إلى كافة أرجاء البلاد، وكان حجم كل منها يعتمد على حاجات المنطقة ذاتها. وعلى العموم فقد ظلوا يلتزمون حالة الدفاع. وكان جل ما يخشونه هو قيام ثورة ضد الحكومة بعد تلك الكارثة الكبرى والمفاجئة التي وقعت لهم في سفاكتيريا، وقد أصبحت كل من بيلوس وسيثيرا الآن في أيدي العدو. ولما كانوا يواجهون في كل الجهات نوعاً من الحرب التي تقتضي سرعة

الحركة ويصعب فيها التنبؤ بمصدر وتوقيت الهجمات، فقد فرض عليهم هذا أن يحشدوا قوة من أربعمئة خيال وقوة من رماة السهام - وهو أمر يختلف تماماً عن مألوف عادتهم - وفي الواقع أنهم أصبحوا الآن أكثر تردداً من ذي قبل في سلوكهم العسكري، والسبب أنهم كانوا يواجهون الآن أمراً غريباً عن تنظيمهم القائم، وأعني بذلك حرباً ساحتها البحار تشن على أثينيين - وهم قوم يعتقدون أن كل لحظة تمر ولا يكونون فيها مهاجمين تعتبر ضائعة؛ لأنها لم تأت لهم بالفوز الذي يتوقعونه. كذلك فقد ثبط من عزيمتهم كثيراً ما أنزل بهم القدر من مصائب في فترة قصيرة جداً. وكانوا على الدوام في خوف من أن تحل بهم كارثة أخرى كالتي وقعت في سفاكتيريا. ولما لم تكن لديهم خبرة سابقة بسوء الطالع، فقد انهارت معنوياتهم، وباتوا يعتقدون أن كل خطوة يخطونها لابد أن تكون خاطئة.

لذا عندما راح الأثينيون ينزلون الخراب والدمار بالسواحل الإسبارطية فإنهم نادراً ما كانوا يلقون أي مقاومة. وعندما يتم أي إنزال في منطقة أي حامية ذات شأن، فإن الحالة النفسية للمدافعين تكون على نحو ما ذكرت ويعتقدون أن أعدادهم لا تكفي للدخول في معركة. وكان ثمة حامية واحدة تصدت لهم في جوار كوتيرا وأفروديسيا، وقام أفرادها بالهجوم المفاجئ على الأثينيين أثار الذعر بين الفصائل المبعثرة من قواتهم الخفيفة، لكنهم تراجعوا عندما تصدى لهم المشاة الثقيلة الأثينيون وفقدوا بعضاً من رجال الحامية، وتركوا بعض الأسلحة على أرض المعركة. وقد رفع الأثينيون نصباً تخليداً لذكرى هذه المعركة قبل أن يبحروا نحو سيثيرا.

ومن سيثيرا أبحروا حول الساحل إلى إبيداروس ليميرا، وبعد أن ألحقوا الخراب بقسم من الريف انتقلوا إلى ثيريا وهي جزء من الريف السينوري على الحدود بين لاكونيا ومنطقة آرجوس، وكانت ملكاً لإسبارطة، لكن الإسبارطيين تنازلوا عنها لتكون وطناً لأهالي ايجينا المطرودين من بلدهم مكافأة لهم لما قدموه لإسبارطة من عون أثناء الزلزال

وثورة العبيد، ولأنهم كانوا على الدوام إلى جانب إسبارطة بالرغم من أنهم تابعون لأثينا.

بينما كان الأثينيون لا يزالون في طريقهم إلى ثيريا، تخلى الإيجينت عن التحصينات التي كانوا يشيدونها على الساحل، وتراجعوا إلى المدينة العليا حيث كانوا يقيمون والتي تبعد أكثر من ميل عن البحر. وكانت إحدى الحاميات الإسبارطية في المنطقة التي تساعدهم في بناء تحصيناتهم، قد رفضت طلب الإيجينت الدخول إلى سور المدينة معهم؛ لأن هذه الحامية كانت تخشى من أن تغلق الأبواب على أفرادها وهم في الداخل فيعرضهم للخطر. وعوضاً عن ذلك تراجعوا إلى أرض أكثر ارتفاعاً، وبعد الحساب والتقدير وجدوا أن المجازفة كبيرة بالنسبة لهم فكمنوا في موقعهم دون أن يأتوا بأية حركة. وفي تلك الأثناء قام الأثينيون بالإنزال، وتقدموا فوراً بجيشهم كله واستولوا على ثيريا، وأحرقوا المدينة وقاموا بأعمال السلب والنهب داخلها، واقتادوا معهم إلى أثينا كل الإيجينت الذين لم يسقطوا في المعركة، بالإضافة إلى قائدهم الإسبارطي تانتالوس بن باتروكليس الذي جرح وأخذ سجيناً. كذلك حملوا معهم عدداً قليلاً من الأشخاص من سيثيرا اعتقدوا أنه يجب نقلهم لأسباب أمنية. وقد قرر الأثينيون وضع هؤلاء في الجزر، وأن يحتفظ بقية أهالي سيثيرا بأرضهم على أن يدفعوا إتاوة تبلغ أربعة تالنت، وأن يتم إعدام كافة السجناء الإيجينت، وذلك بسبب الكراهية المتأصلة بين الشعبين، وأن يسجن تانتالوس مع الإسبارطيين الآخرين من سفاكتيريا.

الفصل الرابع: السلام في صقيلية، خطاب هيرموكراتيس

في صقيلية وفي الصيف ذاته تم عقد هدنة بين أهالي كامرينا وجيلا أول الأمر. وبعد ذلك اجتمع في جيلا ممثلون عن كافة الدول الصقيلية الأخرى لمناقشة إمكانيات التوصل إلى تسوية عامة. وقد تم طرح عدد من وجهات النظر المختلفة بينما كانت الوفود تعرض شكاواها ومزاعمها في مسائل اعتبروا أنهم لم ينصفوا فيها. وفي النهاية وقف هيرموكراتيس بن هيرمون السيراكوزي يخطب في المؤتمر وكان لخطابه أكبر الأثر في المستمعين إذ قال:

" يا رجال صقيلية، إني فيما أقوله لكم لن أتحدث كممثل لمدينة غير ذات شأن أو عانت الكثير في الحرب، بل أريد الآن أن أوضح لكم السياسة التي أرى أنها الفضلى لصقيلية كلها. أما أن الحرب شر فذلكم أمر نعرفه جميعاً، وليس يجدي أن نعدد ما تحمله من ضرر لكل طرف فيها. وليس هناك من يتورط في حرب عن جهل، لا وليس هناك من يتفاداها بسبب الخوف، إن اعتقد أنها تنطوي على فائدة له. والواقع أن في الحرب طرفاً يظن أن المكاسب منها تزيد عما فيها من مخاطر، وطرفاً مستعداً لمواجهة الخطر على أن يقبل خسارة محققة. أما إذا صادف واختار الطرفان اللحظة غير المناسبة للقتال وهما على هذه الحال، فإنه من المفيد أن تبذل المساعي للتوسط بينهما. وهذا عين ما نحن بحاجة إليه في هذا الوقت، إن توفر لدينا الاعتقاد بفائدة الوساطة.

" إننا حين دخلنا الحرب كنا في المقام الأول نأخذ بلا ريب بالفكرة القائلة: إن الحرب تساعد في توسيع مصالحنا الخاصة، ولدينا الفكرة ذاتها الآن ونحن نحاول التوصل إلى تسوية بطرح الدعاوى والرد عليها بدعاوى. وإذا لم تجر الأمور على النحو الذي يخرج فيه كل بما يعتقد أنه حق له فإننا ماضون بلا ريب إلى الحرب من جديد. أما إذا كنا عقلاء فحري بنا أن ندرك أن هذا المؤتمر ليس معنياً بالمصالح الخاصة بكل دولة وحسب، بل ينبغي علينا أن ننظر فيما إذا كنا ما نزال قادرين على المحافظة على صقيلية ككل

أيضاً. فصقيلية – كما أرى– مهددة من أثينا، وعلينا أن ننظر إلى الأثينيين كحجة لمصلحة السلم أقوى من أية كلمات أنطق بها. إنهم أعظم قوة في هيلاس، وهم بيننا بسفن قلائل، يترصدون هفواتنا، ويحاولون تحت ستار من التحالف القانوني ترتيب الأمور بما يخدم مصالحهم، مع أننا بحكم الطبيعة نعتبر أعداء لهم. والآن إن تحاربنا فيما بيننا وطلبنا العون من الأثينيين، وهم يتلهفون للتدخل سواء دعوناهم أم لم ندعهم، ثم إذا مضينا في استثمار قدراتنا في إضعاف أنفسنا، فإننا بذلك نقوم بالعمل الأساسي لقيام إمبراطوريتهم في المستقبل، فمن الأرجح عندئذ أن يأتوا إلينا ذات يوم حين نكون قد بلغنا حد الإنهاك ومعهم قوات أضخم ويحاولوا إخضاعنا جميعاً لسيطرتهم.

" ومع ذلك فينبغي أن يكون هدفنا – إن كنا عقلاء – من استدعاء الحلفاء وتحمل المزيد من المجازفات أن نفوز بغنيمة لم تكن لنا عوضاً عن هدم ما هو لنا وبين أيدينا. وحري بنا أن ندرك أن التناحر في الداخل هو أصل انحطاط المدن، ولسوف يصدق هذا على صقيلية أيضاً، إن كنا – نحن السكان المهددين جميعاً – ما زلنا مفترقين بعضنا عن بعض، والمدينة تناهض الأخرى وإذن فعلينا وقد استوعبنا هذه الفكرة أن نصادق بعضنا بعضاً، رجالاً ومدناً، وأن نقوم وقد اتحدت جهودنا بإنقاذ صقيلية كلها. ولا يخامرن أحدكم ظن بأنه في الوقت الذي يكون فيه الدوريون من بيننا أعداء للأثينيين، فإن الخاليكيد سوف يكونون آمنين بسبب الدماء الأيونية التي تجري في عروقهم. فليس لتدخل الأثينيين صلة بالأعراق التي ننقسم إليها، وهم لا يهاجموننا بسبب كراهيتهم لهذا الطرف أو ذاك، فما يريدونه من صقيلية هو خيراتها وهي مشاع بيننا جميعاً. ولقد أوضحوا هذا بجلاء لا لبس فيه مؤخراً، بالطريقة التي استجابوا فيها لدعوه الخاليكيد؛ إذ لم يسبق أن قدم هؤلاء الخاليكيد أي عون لأثينا، مع أن المعاهدة بينهم تنص على ذلك، غير أن أثينا اندفعت لتوفر لهم أكثر مما تلزمها به المعاهدة. وبعد فإنه أمر مفهوم تماماً أن تراود الأثينيين المطامح وأن يضعوا خططاً لتنفيذها. وإنني لا ألوم أولئك الذين حزموا

أمرهم على أن تكون لهم السيادة، إنما ألوم من يبدون استعداداً أعظم للخضوع؛ ذلك أن من العدل وطبيعة الأمور عند الرجال عموماً أن تكون لهم السيطرة حيث لا يواجهون بمقاومة للعدوان. ونحن نرتكب خطيئة أعظم حين ندرك هذا النزوع ونقصر، بعدُ في اتخاذ ما يقينا منه، أو إن كنا قد أتينا إلى هذا المؤتمر مفترضين أن لدينا ما هو أكثر أهمية من حشد قوانا لمقاومة الخطر الذي يتربص بنا. إننا نملك رد هذا الخطر، إن أمكن لنا أن نتفق فيما بيننا، طالما أن الأثينيين لا ينطلقون في مهاجمتنا من قواعد في أراضينا، وإنما من قواعد في أراضي تلك الدول هنا التي استدعتهم للتدخل. وإذا تم الاتفاق بيننا فلسوف يكون لنا أن نسوي خلافاتنا فيما بيننا عوضاً من خوض الحروب تلو الحروب بين بعضنا بعضاً؛ أما أولئك الذين تم استدعاؤهم من الخارج فقد جاؤوا بما يبدو أنه مبرر وجيه لتنفيذ غاياتهم الشريرة، ولكن سوف يكون لديهم الآن سبب معقول فعلاً للرحيل دون أن يحققوا تلك الأهداف.

"تلكم هي الفوائد العظيمة التي يمكن أن تجنى، فيما يتعلق بالأثينيين، من اتباع سياسة حكيمة. ولكن بمعزل عن ذلك ألا يجدر بنا – طالما أننا جميعنا نقر بأن السلم أعظم النعم – أن نقيم السلم فيما بيننا؟ لنفترض أن أحدكم يتمتع بميزة الآن، والآخر يعاني من أمر من الأمور، أفلا تعتقدون في كلتا الحالتين أن السلم أفضل من الحرب لدوام هذه النعمة والخلاص من هذا العناء؟ أفليس للسلم مكارمه وعظمته التي لا ينال منها خطر كالذي يتهدد ما تأتي به الحرب من مجد وعظمة؟ ثم أليس في السلم تلك النعم الكثيرة الأخرى التي تعجز الكلمات عن تعدادها، مثلما تعجز عن تعداد المصائب التي تأتي بها الحرب؟

"تلكم هي القضايا التي ينبغي النظر فيها، وحري بكم أن تفيدوا من نصيحتي بدلاً من أن تستخفوا بها، فيفيد منها كل منكم للمحافظة على نفسه. وإذا كان هنا من يعتقد أنه يستطيع إما باللجوء إلى العنف أو بسبب من عدالة قضيته بلوغ هدف خاص

فينبغي له ألا يحزن إن خاب أمله، بل الأحرى به أن يدرك أن الكثيرين نهضوا من قبل لمقارعة العدوان، وكثيرين آخرين أيضاً وثقوا بقدرتهم على بلوغ مكسب من المكاسب وغالباً ما انتهى أمر أولئك الأولين إلى فنائهم دون الثأر من المعتدين، أما الآخرون فإنهم أضاعوا ما كان في ملكهم عوضاً عن الفوز بالمغانم. واعلموا أن النجاح ليس بالضرورة حليف كل محاولة للانتقام من أذى واقع، كذلك لا يمكن الاطمئنان للقوة لمجرد توفرها. فما ينبغي النظر فيه هو عامل المستقبل الذي ينأى عن التنبؤ، وهو المعول عليه في المدى البعيد، وكما أننا كثيراً ما نخدع به فإننا نملك أن نفيد منه أعظم الفائدة، وآية ذلك أنه يحملنا على التروي قبل أن يقاتل أحدنا الآخر، إن كنا متساوين في الخشية مما يخبئه المستقبل في طياته.

"إذن فلدينا الآن سببان للخوف: فهناك خوف غير محدد من المستقبل المجهول، وهناك الوجود الفعلي للأثينيين الذي يثير الفزع في نفوسنا. فإذا لم ينل كل واحد منا ما كان يعتقد أنه نائله، فعلينا أن نقر بأن ثمة أسباباً قوية تحول دون ذلك. فلنقم بدلاً من ذلك بإبعاد العدو الذي يهددنا من كل أرضنا. وإذا لم نستطع أن نعقد سلماً يدوم إلى الأبد فليكن فيما بيننا على الأقل تفاهم يدوم أطول فترة ممكنة، ولنرجىء أمر خلافاتنا الخاصة إلى وقت آخر. وخلاصة القول: إنه باتباع النصيحة التي عرضت يحفظ كل منا حرية مدننا كافة، وفي هذه المدن نستطيع أن نتصرف بروح الرجال الأحرار حقاً، نقابل الخير بالخير والشر بالشر. أما إذا نهجنا النهج المعاكس فلسوف نغدو جميعاً تحت سلطان الآخرين، ولن يكون لنا بعدئذ أن نؤذي خصماً، ولعل أفضل ما يمكن أن يحدث لنا عندئذ أن نضطر لمصادقة ألد أعدائنا ومعاداة من ينبغي أن نصادقه.

"وبالنسبة لي، فإنني – كما سبق لي القول – أمثل مدينة كبرى، ويرجح بها الميل للعدوان أكثر من الدفاع عن النفس، ومع ذلك فإني حين أنظر إلى الأخطار في المستقبل، أجدني أميل لإفساح الطريق للآخرين. فلست أعتقد أن من الصواب أن أنزل بأعدائي

من الأذى ما يأتي لي بالخراب في النهاية، ولست أراني مقوداً بدافع من هوى جنوني بالعدوان لأن أتخيل بأني قادر على إخضاع القدر لأوامري في حين أنه لا سلطان لي عليه، بينما أستطيع أن أكون سيد مخططاتي بل إني على استعداد، بدلاً من ذلك، لتقديم كل تنازل معقول. وإني أدعوكم جميعاً للاقتداء بي بأن يفسح كل منكم الطريق للآخر، لئلا يكرهه العدو على تقديم تنازل لا يرضاه. فليس ثمة ما يعيب في أن يتنازل المرء أمام قومه، دوري لدوري، أو خاليكيدي لآخر من بني جلدته، ثم إننا جميعنا جيران، نعيش بعضنا مع بعض في بلد واحد، ونحمل اسم الصقيليين. ولا ريب بأنه سوف تكون هناك مناسبات نعود فيها لنتحارب بعضنا مع بعض ثانية، ثم نتصالح من جديد. أما إذا واجهنا غزواً من الخارج فإننا سنوحد صفوفنا دائماً، إن كنا حكماء، لنقاومه، إذ أن الأذى الذي يصيب أي دولة منا يحمل إلينا جميعنا خطراً مثله، ولن نقوم في المستقبل بدعوة حلفاء أو محكمين. وإذا سلكنا هذا المسلك جئنا إلى صقيلية بفائدتين اثنتين فوراً: الانعتاق من الأثينيين، وإيقاف الحرب الأهلية، وسيكون لنا في المستقبل بلد حر بذاته ولا يتهدده خطر كبير من الخارج."

كانت تلك هي الخطبة التي ألقاها هرموكراتيس. ولقد أخذ الصقيليون بنصيحته ووافقوا فيما بينهم على وضع حد للحرب الأهلية، وأن تحتفظ كل دولة بما في حوزتها، ما عدا أهالي كامرينا فكانت لهم مورجنتينا لقاء مبلغ محدد من المال يدفعونه لسيراكوزة. أما حلفاء الأثينيين فإنهم استدعوا القادة الأثينيين وأخبروهم بأنهم في سبيلهم لعقد اتفاقية سلام، تسري على الأثينيين أيضاً. وقد تمت المعاهدة بموافقة القادة الأثينيين، ثم أبحر الأسطول الأثيني وغادر صقيلية. ولكن ما إن نزل الأثينيون في أثينا حتى واجه اثنان من قادتهم وهما بيثودوروس وسوفوكليس حكماً بالإبعاد، وغُرِّم الثالث يوريميدون، بدعوى أنهم غادروا صقيلية برشوة، وقد كانت لديهم القوة للسيطرة على الجزيرة. ذلكم هو أثر حسن الطالع الذي صادف الأثينيين فجعلهم يعتقدون بأن لا شيء

يمكن أن يسير عكس هواهم، والممكن والصعب على السواء في متناولهم، كبرت القوة المستخدمة أم صغرت. لقد كان ما أصابوه من نجاح يدعو للإدهاش في معظم المجالات هو السبب في نشوء هذه الحالة العقلية ودعاهم للاعتقاد بأن قوتهم مساوية لآمالهم وتستطيع أن تحققها لهم.

الفصل الخامس: الأثينيون يستولون على نيسايا،

براسيداس ينقذ ميجارا

في الصيف ذاته وقعت الحوادث التالية: كان الميجاريون في مدينة ميجارا يعانون الأمرين من الحرب مع أثينا' فقد دأب الأثينيون على غزوهم بكامل قوتهم مرتين كل عام. كذلك كانوا يتعرضون لمضايقات شديدة من الذين نفوهم. ويقيمون الآن في بيجاي بعد أن تم طردهم عقب ثورة قام بها الحزب الديمقراطي وأصبحوا الآن يسببون لهم المتاعب بما يقومون به من أعمال اللصوص وقطاع الطرق. ولهذا أخذوا يتحدثون فيما بينهم بأنه من الأفضل استدعاء المنفيين، وبذلك لا يفسح المجال لأن تضعف المدينة بقتال عدوين في آن واحد. ولما رأى أصدقاء الحزب المنفي المنحى الذي كان يأخذه الحديث، تقدموا وتحدثوا بصراحة أكبر، مشددين على ما في هذا الاقتراح من مزايا. أما قادة الحزب الديمقراطي، فقد أدركوا أن الجماهير لن تستمر على ثباتها في مساندتهم، بسبب ما عانوه من آلام، ولذلك شرعوا في التفاوض مع القائدين الأثينيين، هيبوكراتيس بن أريفرون وديموستينيس بن ألسيستنيس وهم في حالة من الفزع، وكان هدفهم تسليم المدينة لهما؛ إذ اعتبروا أن هذه الطريقة ستوفر لهم السلامة بصورة أفضل من إعادة الحزب الذي قاموا هم بنفيه.

كان الاتفاق الذي تم التوصل إليه يقتضي أن يحتل الأثينيون الأسوار الطويلة – والتي يبلغ طولها نحو الميل، من المدينة إلى ميناء نيسايا–، لمنع قدوم البيلوبونيز للمساعدة من نيسايا، التي كانت تحميها قواتهم بصورة تامة، وذلك بهدف ضمان ولاء ميجارا. وبعدئذ سيحاولون فرض الاستسلام على القسم الأعلى من المدينة، وحين تتم هذه الخطوة الأولى، فمن المرجح أن يوافق الميجار على هذا.

عندما أتم الجانبان خططهما قولاً وفعلاً، أبحر الأثينيون ليلاً إلى مينوا، وهي جزيرة تقع على مقربة من ميجارا، بقوة من ستمئة من المشاة الثقيلة بقيادة هيبوكراتيس،

وأقاموا معسكرهم عند مقلع للحجارة لا يبعد كثيراً، كانت تؤخذ منه الحجارة لبناء الأسوار. أما القائد الآخر ديموستينيس الذي كان على رأس قوة من البلاطيين والحرس الوطني الأثيني، فقد نصب كميناً بالقرب من معبد إينياليوس الأكثر قرباً من المدينة. ولم يكن ثمة من يعرف ما يدبر في تلك الليلة، سوى من كان يفترض بهم العلم.

وقبيل الفجر بدأ الحزب الميجاري الذي سيخون المدينة بتنفيذ الخطة. ولضمان فتح البوابات، اعتادوا منذ زمن، وبموافقة الضابط المناوب أن يخرجوا في الليل زورقاً يحملونه على عربة ويسيروا على طول القناة وصولاً إلى البحر، بزعم أنهم ذاهبون في غارة. وقبل حلول الصباح كانوا يعودون بالقارب على العربة عبر البوابات ويدخلون به إلى داخل الأسوار، وأن الهدف من ذلك، كما يقولون، إرباك القوة الأثينية المحاصرة عند مينوا؛ لأن الميناء يخلو من القوارب عند الفجر.

وهكذا ففي هذا اليوم فتحت البوابات كالمعتاد عندما وصلت العربة للسماح بدخول القارب، ولما رأى الأثينيون -الذين تم التخطيط لهذا كله معهم- ما كان يجري خرجوا من مكمنهم، وراحوا يركضون بأقصى طاقتهم، ليتمكنوا من الوصول قبل أن تغلق البوابات من جديد بينما العربة لا تزال في المدخل لتمنع إغلاقها. وفي الوقت ذاته كان الميجار من أنصار أثينا قد أخذوا بقتل الحراس على البوابة. وكان ديموستينيس والبلاطيون الذين معه والحرس الوطني أول من أسرع بالدخول إلى المكان حيث يقوم النصب التذكاري الآن. وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو أدرك البيلوبونيز الأقربون إلى موقع القتال ما الذي يجري وقدموا للنجدة، لكن البلاطيين اشتبكوا معهم وهزموهم واحكموا قبضتهم على البوابات، وتركوها مفتوحة لدخول المشاة الثقيلة الأثينية.

وبينما أخذت القوات الأثينية تتدفق بعد ذلك، أخذ الرجال يتسابقون إلى السور. ولقد صمدت بعض الحاميات البيلوبونيزية في بداية الأمر وأخذت تقاوم، فقتل بعض

أفرادها، لكن معظمهم فروا بعيداً، وقد أصابهم الذعر بسبب الهجوم المباغت الذي شنه العدو ليلاً واكتشافهم أن الخونة الميجار كانوا يحاربون ضدهم، فظنوا أن أهالي ميجارا انحازوا جميعاً إلى الطرف الآخر. كذلك صادف أن أحد المبعوثين الأثينيين وبمبادرة منه وقف يلقي بياناً يعلن فيه أن كل ميجاري يرغب في القيام بذلك عليه أن يتقدم وينضم إلى الأثينيين. وعندما سمع البيلوبونيز ذلك، انهارت مقاومتهم؛ فقد أصبحوا على يقين الآن بأنهم يتعرضون لهجوم من القوات الأثينية والميجارية مجتمعة، ففروا والتجؤوا إلى نيساية.

عند الفجر كانت الأسوار قد سقطت، وأصبح الميجار في المدينة في حالة من الفوضى الشديدة. وقال الأشخاص الذين كانوا على احتكاك مع الأثينيين أنه يجب فتح البوابات والمضي إلى الخارج لقتالهم، فأيدهم الحزب الديمقراطي الذي كان على معرفة بالخطة. فلقد تم الاتفاق على أن يسرع الأثينيون بالدخول حالما تفتح البوابات، وأن يتميز الحزب المؤيد للأثينيين عن البقية بدهن أنفسهم بالكثير من زيت الزيتون تفادياً لاحتمال تعرضهم للأذى، وفي هذا الوقت كان فتح البوابات قد أصبح أمراً مأموناً، بسبب قدوم أربعة آلاف من المشاة الثقيلة الأثينيون من إليوسيس وستمئة من الخيالة، وكان هؤلاء قد أمضوا الليل كله في المسير وفق الخطة الموضوعة.

كان الحزب المؤيد للأثينيين قد دهنوا أنفسهم بالزيت واتخذوا مواقعهم عند البوابات حين كشف أحد المتآمرين المكيدة المدبرة للفريق الخصم، فاجتمع هؤلاء وخرجوا قائلين بأنه يتوجب على الجميع البقاء داخل المدينة وألا يخرج منها أي شخص. والحقيقة أنهم لم يقدموا على مثل هذه المجازفة من قبل، حينما كانوا في وضع أقوى مما هم عليه الآن، وأن من الخطأ وضع المدينة في مثل هذا الموقف الخطر بشكل جلي. ثم أردفوا قائلين إن القتال سوف يبدأ في التو واللحظة، إن لم يتم الأخذ بنصيحتهم. ولم يبدوا أي إشارة تدل على أنهم يعلمون بالمؤامرة، بل اكتفوا بالتشديد على أن نصيحتهم هي الفضلى،

لكنهم ظلوا في الوقت ذاته قريبين من البوابات وراحوا يراقبونها، فلم يعد ثمة أي فرصة أمام المتآمرين لتنفيذ ما كانوا يعتزمون القيام به.

أدرك القادة الأثينيون بأن الخطة قد أخفقت ولم يعد بالإمكان الاستيلاء على المدينة بالقوة. ولهذا شرعوا على الفور بحصار نيسايا، اعتقاداً منهم بأنهم إذا تمكنوا من الاستيلاء على المكان قبل وصول المساعدة، فإن ميجارا ستستسلم قريباً كذلك. فتم جلب الحديد وعمال البناء وكل شيء آخر تفرضه الحاجة من أثينا بسرعة. فباشروا بالبناء من السور الواقع تحت سيطرتهم ثم قاموا بعزل الموقع من ميجارا ببناء تحصينات امتدت نزولاً إلى البحر على جانبي نيسايا. وقد تولت كل وحدة من الجيش انجاز العمل في القطاع الذي يخصها من السور أو الخندق، واستخدمت في ذلك الحجارة والآجر اللذين نقلا من الضواحي، وقامت تلك الوحدات بقطع أشجار الفاكهة وأخشاب أخرى لبناء السياج ذي الأوتاد حيثما دعت الحاجة لذلك. كما كان ثمة بعض البيوت في الضواحي التي تم تدعيمها بالشُرَف فأصبحت بشكل طبيعي جزءاً من نظام التحصينات.

وهكذا استمر العمل طوال اليوم كله. وفي عصر اليوم التالي، عندما شارف السور على الانتهاء، دب الخوف في الحامية في نيسايا، فقد كانوا بلا طعام – إذ اعتادوا الحصول على مؤونتهم يومياً من المدينة العليا–، ولم يكونوا يتوقعون أن يأتي البيلوبونيز بسرعة لنجدتهم. وافترضوا أن الميجار كانوا ضدهم؛ ولهذا استسلموا للأثينيين بشرط أن يتم افتداء كل منهم بمبلغ محدد من المال، بعد أن يسلموا أسلحتهم. أما قائدهم الإسبارطي وأي إسبارطي آخر في المكان فأمره متروك لمشيئة الأثينيين وما يرونه مناسباً. وتم ترتيب الاستسلام وفقاً لهذه الشروط، ثم خرجت الحامية. عندئذ هدم الأثينيون الأسوار الطويلة عند نقطة التقائها مع مدينة ميجارا، واستولوا على نيسايا، واستعدوا للقيام بحركتهم التالية.

وفي هذا الوقت صادف أن كان القائد الإسبارطي براسيداس بن تيليس في جوار سيكيون وكورنثة يجهز جيشاً للسير إلى تراقية. فلما بلغه نبأ سقوط الأسوار أصابه القلق على مصير الحامية البيلوبونيزية في نيسايا وخشي أن تسقط ميجارا أيضاً؛ ولذلك أرسل إلى البويوط، يستدعيهم على عجل مع جيشهم ليلتقوا به عند تريبوديسكوس. وكانت هناك قرية بهذا الاسم في منطقة ميجارا أسفل جبل جيرانيا. وفي الوقت ذاته انطلق على رأس فوج من ألفين وسبعمئة من المشاة الثقيلة الكورنث وأربعمئة من الفلياس وستمئة من السيكيون، وكافة قوات المتطوعين تحت إمرته، وهو يتوقع أن يجد نيسايا لم تسقط بعد. وعندما اكتشف أنها سقطت فعلاً – وكان قد زحف إلى تريبوديسكوس ليلاً–، أخذ ثلاثمئة رجل من نخبة جيشه، وقبل أن ينتبه لوجوده أحد، زحف إلى مدينة ميجارا دون أن يلحظه الأثينيون، الذين كانوا بالقرب من البحر. وكانت خطته التظاهر بمحاولة الاستيلاء على نيسايا من جديد، وإذا كان ذلك ممكناً فإنه سيقوم بتلك المحاولة فعلاً، لكن الأمر الأهم كان الدخول إلى ميجارا والسيطرة عليها. ولذلك طلب من الميجار السماح له بدخول المدينة وأخبرهم بأنه يأمل في استعادة نيسايا.

لكن الحزبين الميجاريين كانا متخوفين من عاقبة ذلك. فأحد الحزبين كان يخشى من أن يعمد إلى إعادة المنفيين وطردهم، أما الحزب الآخر فقد خشي من أن يقوم الديمقراطيون بمهاجمتهم، بسبب خوفهم هذا. وهكذا يكون مآل المدينة إلى الضياع بين الاقتتال في الداخل والأثينيين المتربصين بالقرب منهم في الخارج. لذلك رفض الميجار السماح لبراسيداس بالدخول، وقد آثر كل جانب أن يلزم الهدوء وينتظر ما يحمله المستقبل؛ إذ توقع الجميع أن تحصل معركة بين الأثينيين والجيش القادم للانقاذ، واعتقد كل طرف أنه من الأسلم عدم الانضمام إلى فريق أصدقائه حتى ينتصر هذا الحزب في المعركة.

عاد براسيداس إلى بقية جيشه، بعد أن فشل في الحصول على مبتغاه. وفي الفجر انضم البويوط إليه. وكانوا ينوون القدوم لمساعدة ميجارا، حتى قبل أن يرسل في طلبهم، اعتقاداً منهم بأن الخطر الذي يتهددها ربما ينالهم أيضاً. لذلك حشدوا كل ما لديهم من قوة عند بلاطية، فلما وصل الرسول من براسيداس أصبحوا أكثر توقاً للمساعدة فأرسلوا إليه ألفين ومئتين من المشاة الثقيلة وستمئة من الخيالة، وعادوا أدراجهم إلى الوطن مع الجزء الأعظم من قواتهم. وقد أصبح الجيش كله مجتمعاً الآن، ووصل تعداده إلى ما لا يقل عن ستة آلاف من المشاة الثقيلة.

كان المشاة الثقيلة الأثينيون ينتشرون حول نيسايا وعلى طول شاطئ البحر، أما القوات الخفيفة فكانت تتوضع في السهل. وقد رد الفرسان البويوط هذه القوات الخفيفة، إلى الشاطئ. وكان هذا الهجوم مفاجئاً تماماً إذ لم يسبق أن وردت إلى ميجارا مساعدة من أي جهة. عندئذ خرج الفرسان الأثينيون لقتال البويوط، واشتبكوا معهم. وفي معركة الفرسان هذه التي استمرت لوقت طويل، زعم كل طرف النصر لنفسه. ومن المؤكد أن قائد الخيالة البويوط وبعض الذين اندفعوا إلى الأمام حتى نيسايا قد قتلوا على يد الأثينيين وجردوا من دروعهم؛ وفي النهاية أعاد الأثينيون ما لديهم من جثث القتلى وفق اتفاقية ثم أقاموا نصباً تذكارياً. ولكن إذا أخذنا المعركة ككل بعين الاعتبار، نرى أنها انتهت دون أن يحرز أي من الطرفين نصراً حاسماً، وقد عاد البويوط إلى جيشهم، والأثينيون إلى نيسايا.

وبعد ذلك تقدم براسيداس وجيشه نحو البحر ومدينة ميجارا. واتخذوا موقعاً لهم فوق أرض مناسبة وظلوا هناك في تشكيل قتالي، متوقعين أن يقوم الأثينيون بمهاجمتهم وهم يعلمون أن أهالي ميجارا ينتظرون لمعرفة الطرف الذي سيكون له النصر. وقد بدت لهم هذه الخطة جيدة من كافة النواحي؛ إذ لم يكونوا بحاجة للقيام بالحركة الأولى أو لبذل جهد خاص والمخاطرة بخوض غمار الحرب؛ لأنهم بينوا بوضوح استعدادهم للدفاع

عن أنفسهم، وبذلك قد يكون لهم ادعاء النصر دون أن يتجشموا عناء. وفي الوقت نفسه كان هذا الوضع مناسباً لمصالحهم فيما يخص ميجارا؛ إذ لو فشلوا في الظهور للقتال، فلن تكون ثمة فرصة لهم لادعاء النصر أبداً. ولا ريب بأنهم كانوا سيعتبرون في هذه الحالة مهزومين وسيخسرون المدينة فوراً. وكما هو الأمر، فقد كان من المحتمل جداً أن يكون الأثينيون عازفين عن الاشتباك في معركة، وقد يصلون إلى أهدافهم دون أن يضطروا للقتال أبداً. والواقع أن هذا ما حصل. فقد اصطف الأثينيون خارج الأسوار الطويلة، ولزموا مواقعهم لعدم تعرضهم لأي هجوم. وكانت حسابات قادتهم أنهم سيخاطرون كثيراً إن شنوا حرباً على عدو يفوقهم عدداً. وكانوا قد حققوا معظم أهدافهم، والآن، إذا انتصروا في المعركة، فإنهم سيستولون على ميجارا، أما إذا هزموا فإن قوة فرق المشاة الثقيلة في جيشهم ستضعف على نحو خطير. ومن جهة أخرى، فإن لدى العدو قوة مؤلفة من وحدات من دول عديدة، وكل منها لا تجازف إلا بجزء من جيشها وحسب، فيتوقع منهم بالتالي أن يبدوا جرأة أعظم في القتال. وهكذا التزم الطرفان الهدوء لبعض الوقت ولم يقوما بأي حركة. ثم عاد الأثينيون إلى نيسايا، وتراجع البيلوبونيز كذلك إلى مواقعهم الأصلية. عندئذ ازدادت ثقة أصدقاء الحزب المنفي في ميجارا بأنفسهم، ففتحوا الأبواب أمام براسيداس ظناً منهم بأنه انتصر ولم يعد لدى الأثينيين رغبة في القتال، وأدخلوه والقادة من الدول المختلفة إلى المدينة مهللين مرحبين بهم ودخلوا في مفاوضات معهم، فأصبح الحزب المؤيد للأثينيين عاجزاً عن التحرك لشدة خوفه.

بعد ذلك سمح براسيداس لمختلف الفرق الحليفة بأن تعود إلى المدن التي قدمت منها، بينما عاد هو إلى كورنثة، حيث تابع الاستعدادات للحملة على تراقية. كذلك عاد الأثينيون إلى الوطن. أما في ميجارا فقد هرب الضالعون في المؤامرة مع الأثينيين، لمعرفتهم بأن أمرهم قد افتضح. واشترك الآخرون في نقاشات مع أصدقاء المنفيين

واستدعوا الحزب المنفي من بيجاي، بعد أن أقسموا أن يقدموا للمدينة أفضل النصائح وحسب، وألا تبعث أحقاد الماضي.

إلا أنه، ما إن احتل المنفيون مراكز السلطة حتى قاموا باستعراض المشاة الثقيلة؛ ذلك أن الفرق العديدة من القوات متمركزة في أنحاء مختلفة من المدينة. وقاموا بانتقاء نحو مئة رجل ممن يعتبرون أعداء شخصيين بالإضافة إلى الذين تبين أن لهم اليد الطولى في التواطؤ مع الأثينيين، ثم أجبر الناس على الحكم عليهم علناً، وتمت إدانتهم وحكم عليهم بالإعدام. وقام عندئذ حكم أوليجاركي صارم في المدينة. وكان ذلك تغييراً في نمط الحكم جاء إثر ثورة قام بها عدد قليل من الناس، ومع ذلك استمر لفترة طويلة من الزمن.

الفصل السادس: براسيداس في تراقية

في ذلك الصيف كان الميتيلينيون ماضين في تنفيذ خطتهم بتحصين أنتاندروس، لكن ديمودوكوس وأريستيديس، قائدي السفن الأثينية التي أرسلت لجمع الإتاوات، سمعا وهما عند مضيق هليسبونت - أما القائد الثالث لاماخوس فقد أبحر إلى البونتوس ومعه عشر سفن- أن المكان يتم تحصينه، وخشيا من أن يصبح مصدر خطر شأنه في ذلك شأن أنايا لساموس، وكانت أنايا المكان الذي رسخ فيه الحزب المنفي من ساموس أقدامهم ، ومن هناك راحوا يساعدون البيلوبونيز ويرفدونهم بربابنة السفن لأسطولهم، وفي الوقت ذاته يثيرون حالة من الاضطراب في مدينة ساموس ويرحبون بالمنفيين منها. ولهذا جمعا قوة من الحلفاء وانطلقا مبحرين. وهزما في المعركة الذين خرجوا من أنتاندروس لمواجهتهما واستعادا المكان. وبعد فترة من الزمن فقد لاماخوس، الذي أبحر إلى البونتوس، سفنه بسبب الفيضانات التي حصلت في أعالي البلاد. فسار مع جيشه على الأقدام عبر بلاد البيثينيين التراقيين الذين يعيشون في آسيا وراء المضائق ووصل إلى خالكيدون، المستعمرة الميجارية عند مصب البونتوس.

وفي الصيف نفسه، وبعد العودة من المنطقة الميجارية مباشرة، وصل القائد الأثيني ديموستينيس إلى نوبكتوس ومعه أربعون سفينة. وكان ثمة بعض الأشخاص في عدد من مدن بويوطيا يتآمرون معه ومع هيبوكراتيس للإطاحة بنظام الحكم القائم في مدينتهم وإقامة حكم ديمقراطي كما في أثينا. وكان لبتودوروس وهو منفي من طيبة اليد الطولى في تلك المباحثات، وقد وضعت الخطة التالية: يسلم أحد الأحزاب مدينة سيفاي - وهي مدينة ساحلية في المنطقة الثيسبية في خليج كريسا - لأثينا خيانة. وسيقوم حزب آخر من أورخومينوس بتسليم كيرونيا - التي تتبع ما كان يطلق عليها اسم مينيا، لكنها تدعى الآن أورخومينوس البويوطية- . وكان الحزب المنفي من أورخومينوس ناشطاً في المؤامرة واستأجر لذلك قوات من البيلوبونيز. كذلك اشترك فيها بعض الفوك. وتقع

كيرونيا على تخوم بويوطيا بالقرب من مدينة فانوتيس في فوكيس. والخطة تقتضي استيلاء الأثينيين في تلك الأثناء على ديليوم، وهو معبد في منطقة تانجارا باتجاه يوبوية. ويجب أن يتم هذا كله في وقت واحد وفي يوم محدد، بحيث يضطر البويوط للانشغال بمشاكلهم المحلية، كل في منطقته، عوضاً عن الزحف ضد الأثينيين عند ديليوم بكامل قوتهم. وإذا سارت الأمور على ما يرام وأمكن تحصين ديليوم، فقد توقع المتآمرون أنه حتى ولو لم تقع ثورة في مدن بويوطيا على الفور، فإن الحالة القائمة لا يمكن أن تستمر طويلاً بعد احتلال هذه الأماكن، والأرض كلها متاحة للأحزاب لتغير عليها، وغدت ملجأ مفتوحاً لكل مناهض للحكومة. وفي الواقع أن الأمور كانت ستسير في النهاية كما يشتهي المتآمرون؛ لأن الأثينيين سيكونون هناك لمساعدة المتمردين، وستكون الحكومة عاجزة عن الزج بقوة متحدة لمجابهتهم.

كانت تلك هي الخطة التي تم الاتفاق عليها. وعندما يحين الوقت سوف يقوم هيبوكراتيس بنفسه على رأس جيش من أثينا بالزحف إلى بويوطيا. وكان قد أرسل في غضون ذلك ديموسستينيس أولاً بأربعين سفينة إلى نوبكتوس، ليتمكن من حشد جيش في تلك المنطقة من الأكارنان وحلفاء آخرين، ثم يبحر ليتلقى استسلام سيفاي. واتفقا على يوم معين للمضي بتنفيذ العمليتين في آن واحد. وعندما وصل ديموستنيس وجد أن أويندای قد أجبرت تحت ضغط القوات الأكارنانية المتحدة على الانضمام إلى التحالف الأثيني. فقام بتعبئة جميع القوات الحليفة في المنطقة كلها وزحف بهم إلى سالينثيوس والأجريان. وبعد أن فرض عليهم الانضمام إلى أثينا، استعد للمسير للوصول إلى سيفاي في اليوم المتفق عليه.

في الوقت ذاته من الصيف، كان براسيداس في طريقه إلى المنطقة التراقية ومعه ألف وسبعمئة من المشاة الثقيلة. وعندما وصل إلى هيرقليا في تراخيس بعث برسول إلى أصدقائه في فارسالوس، وطلب إليهم مرافقته وجيشه في أثناء مسيرهم. ونتيجة لذلك

اني إليـه عند مـيليطيـا في آخـاية باناروس ودوروس وهيـبـولوخـيـداس وتوريلوس، وستروفاكوس الذي كان الممثل الرسمي للخاليكيد. وقام براسيداس بعدئذ بالإبحار براكبـه بعض الثيـسـال الآخـرين، ومنهـم نيكونيـداس من لاريسـا، وكـان صـديقـاً لبيرديكاس.

إن عبور ثيسالي دون مرافقة لم يكن أبداً أمراً سهلاً، وأصعب منه أن يكون العابر جيشاً. والواقع أن دخول بلد مجاور دون إذن كان أمراً مثيراً للشكوك عند الدول الهيلينية كلها. ثم إن أهالي ثيسالي كانوا دوماً على وفاق مع أثينا. ولو كان الشكل المحلي للحكومة ديمقراطياً عوضاً عن كونه بيد طبقة قوية، لما استطاع براسيداس التقدم في تلك الأصقاع أبداً. ومع ذلك فقد قابله أثناء مسيره عند نهر إينيبيوس جماعة من الحزب الآخر كانوا يريدون منعه من التقدم وقد أكدوا أنه بمسيره دون حصوله على موافقة الشعب بأكمله إنما كان ينتهك القانون. وكان الرد الذي أعطاه الأشخاص الذين يرافقونه أنهم بالتأكيد ما كانوا ليقودوه عبر البلاد بخلاف مشيئة أهل البلاد، وأن كل ما في الأمر أنه وصل على نحو غير متوقع، وأنهم يسيرون معه لكونهم أصدقاءه. وقال براسيداس: إنه جاء صديقاً لثيسالي وشعبها، وإن جيشه موجه ضد الأثينيين الذين في حالة حرب معهم، وليس موجهاً ضد الثيسال، ولا يعلم بوجود أي خلاف بين ثيسالي وإسبارطة يمنع أياً من الطرفين من عبور أراضي الآخر؛ أما إذا رفضوا السماح له بذلك، فمن المؤكد أنه لن يتابع المسير – ولم يكن في الواقع يستطيع ذلك–، وتابع بقوله إنه يرى أنه من غير الصواب منعه من مواصلة المسير.

ولقد ابتعد الثيسال عن الموقع حينما سمعوا قوله، وبناء على نصيحة مرافقيه اندفع براسيداس بأقصى سرعة ودون توقف، وقبل أن تجتمع أمامه قوة أكبر تمنعه من متابعة سيره. وهكذا قطع الطريق كلها إلى فارسلوس في اليوم الذي غادر فيه ميليطيا، وعسكر على ضفاف نهر أبيدانوس. ومن هناك ذهب إلى فاكيوس، ومنها إلى بيريبيا. وعند هذه

المرحلة تركه الثيسال الذين كانوا يرافقونه وعادوا إلى بلدهم، وقام البيريبيون وهم من رعايا ثيسالي بمواكبته إلى ديوم التي تقع في مملكة بيرديكاس. وديوم هي بلدة مقدونية تقع عند سفح جبل أوليمبوس على الحدود الثيسالية.

وهكذا عبر براسيداس ثيسالي دونما معارضة، وقبل أن تتجمع أي قوة لإيقافه، ووصل إلى بيرديكاس والخاليكيد؛ ذلك أن بيرديكاس والبلدات التراقية الثائرة على أثينا قد أقلقتهم انتصارات أثينا، فتدبروا أن يحضر إليهم جيش من البيلوبونيز. وكان الخاليكيد يعتقدون أن الهجوم الأثيني التالي سيكون موجهاً ضدهم – وفي الوقت ذاته كانت المدن المجاورة التي لم تقم بالثورة قد أرسلت في ذلك الحين تدعو البيلوبونيز سراً للقدوم. وبالرغم من أن بيرديكاس لم يكن في حرب معلنة مع أثينا، إلا أنه كان خائفاً بسبب خلافاته القديمة مع الأثينيين، كما كان يريد بشكل خاص أن يخضع أرابايوس ملك اللينسيستيين.

وإن حقيقة أن إسبارطة كانت في تراجع يومذاك قد سهلت عليهم إحضار هذا الجيش من البيلوبونيز؛ ذلك أنه لما كان الأثينيون قد أخذوا الآن يتعرضون للبيلوبونيز بالهجمات، وبالأخص على منقطة إسبارطة ذاتها، فقد اعتقد الإسبارطيون أن أفضل طريقة لتحويل هذه الهجمات هي التسبب لأثينا بالنوع ذاته من المشاكل أيضاً، بتوجيه جيش إلى حلفائها، خاصة وأن هؤلاء الحلفاء مستعدون لإمداد الجيش، وقد طلبوه ليكونوا قادرين على الثورة. كذلك كان الإسبارطيون سعداء لوجود مبرر قوي لهم لإرسال بعض الأرقاء لديهم إلى خارج البلاد. ففي وضعهم الحالي، وبيلوس بين أيدي العدو، كانوا يخشون من أن يقوم هؤلاء العبيد بالثورة. والحق أنهم كانوا يتخوفون من شخصيتهم العنيدة وأعدادهم حتى إنهم لجؤوا إلى الخطة التالية: كانت السياسة الإسبارطية فيما يتعلق بالأرقاء مبنية على الدوام بشكل شبه كامل على فكرة الأمن. فأعلنوا بياناً فحواه أن على الأرقاء أن يختاروا من بينهم أولئك الذين يدعون بأنهم قدموا

افضل خدمة لإسبارطة في أرض المعركة، ملمحين بأنهم سيمنحون هؤلاء حريتهم. لكن هذا كان اختباراً وضع اعتقاداً بأن الأشخاص الذين يظهرون أكبر حماس، ويتقدمون أولاً للمطالبة بحريتهم سيكونون على الأرجح الأشخاص الذين سينقلبون على إسبارطة. وهكذا تم انتقاء نحو ألفين من العبيد الذين وضعوا الأكاليل على رؤوسهم وطافوا حول المعابد، وقد تولد لديهم انطباع بأنهم أصبحوا أحراراً. إلا أن الإسبارطيين عمدوا إلى التخلص منهم بعيد ذلك، ولم يعرف أحد كيف تم قتل كل واحد منهم.

والآن، في هذه المناسبة كان الإسبارطيون سعداء بإرسال سبعمئة كمشاة ثقيلة للخدمة بإمرة براسيداس. أما بقية جيشه فكانوا من المرتزقة الذين جمعهم من كافة أرجاء البيلوبونيز. وكان السبب في تكليف براسيداس من الإسبارطيين بشكل رئيسي رغبته في الخروج بالجيش، مع أن الخاليكيد كانوا متحمسين كذلك لاستقباله،. وهو رجل يتمتع بسمعة كبيرة في إسبارطة لاندفاعه في كل مجال، كما برز في مهمات السفارة في الخارج وكان شديد النفع لبلاده. وقد كانت استقامته واعتداله تجاه المدن السبب وراء ثورة معظمها وتمكنه من الاستيلاء على مدن أخرى بالخديعة، حتى إنه عندما أرادت إسبارطة إقامة السلام – وهو ما قامت به في النهاية- كانت في وضع يسمح لها بمقايضة ما لديها من مدن بتلك التي كانت تسيطر عليها أثينا. وفي الوقت ذاته تخلصت البيلوبونيز من الكثير من أعباء الحرب. وعلاوة على ذلك ففي الفترة اللاحقة من الحرب، بعد الحملة الصقيلية فإن العامل الرئيس في خلق مشاعر التأييد لإسبارطة بين حلفاء أثينا كان بسالة براسيداس والحكمة التي أظهرها في هذا الوقت. وهي خصال خبرها البعض وافترضها آخرون مما بلغهم عنه من أخبار. وكان براسيداس أول من أرسل في مهمة على هذا النحو، ومن السمعة الحسنة التي كسبها في كافة الجوانب، خلف وراءه قناعة راسخة بأن بقية قومه على شاكلته.

ولما بلغ الأثينيين الآن نبأ وصوله إلى تراقية، أعلنوا الحرب فوراً على بيرديكاس؛ إذ

اعتبروه مسؤولاً عن الحملة، وراحوا يرصدون حلفاءهم في المنطقة بصورة أشد من ذي قبل. وقام بيرديكاس بعد أن انضم جيش براسيداس إلى قواته بالتوجه فوراً لقتال أرابايوس بن بروميروس، ملك اللينسيستيين المقدونيين، وبلاده تجاور بلاد بيرديكاس، وكان يريد إخضاعه ثأراً لخلاف قديم بينهما. ولكن ما إن وصل وجيشه وبرفقته براسيداس إلى الممر المؤدي إلى لينكوس حتى قال براسيداس إنه يود أن يقصد أرابايوس أولاً لمفاوضته علّه يستطيع ضمه إلى التحالف الإسبارطي قبل مبادرته بالحرب. وفي الواقع أن أرابايوس سبق له أن اتصل ببراسيداس وعرض عليه استعداده للقبول به أن يكون الحكم في قضيته، كذلك كان المثلون الخاليكيد الحاضرون قد نصحوه بألا يجعل الطريق ممهدة أمام بيرديكاس في بداية الأمر، وذلك لضمان تأييد بيرديكاس الكامل لقضاياهم. علاوة على ذلك، فإن المبعوثين الذين أوفدهم بيرديكاس إلى إسبارطة قد أعطوا انطباعاً لدى القوم هناك بأنه سيأتي بعدد كبير من الدول المجاورة له لتنضم إلى التحالف الإسبارطي. وعلى هذا الأساس اعتقد براسيداس أن له الحق بأن يأخذ بالاعتبار المضامين الأوسع عند التعامل مع أرابايوس. لكن بيرديكاس، من جهة أخرى، أجاب بأنه لم يأت ببراسيداس ليكون وسيطاً في الخلافات القائمة بينه وبين أرابايوس، وأن مهمته أن يقضي على الأعداء الذين يسير هو بيرديكاس إليهم، وأنه بينما ينفق على نصف جيش براسيداس، فمن غير المناسب أن يدخل براسيداس في مفاوضات مع أرابايوس. إلا أن براسيداس لم يكن ليقبل وجهة النظر هذه. وخلافاً لمشيئة بيرديكاس ذهب براسيداس للتفاوض مع أرابايوس الذي أقنعه بأن يقود جيشه بعيداً دون أن يغزو بلده. ولم يدفع بيرديكاس بعد تلك الواقعة؛ سوى ثلث نفقات الجيش، وكان يدفع النصف من قبل، إذ اعتبر أن في معاملته على هذا النحو إساءة له.

وفي ذلك الصيف وبعيد هذه الحوادث مباشرة زحف براسيداس ومعه الخاليكيد على أكانثوس، وهي مستوطنة تابعة لأندروس، وكان ذلك قبيل موسم قطاف العنب. وفيما

يتعلق بمسألة استقباله فقد اختلف فيها الرأي بين الحزبين البارزين؛ فمن جهة كان هناك فريق انضم إلى الخاليكيد في دعوته، وهناك عامة الشعب من جهة أخرى. إلا أنه بسبب خوفهم على محاصيل الفاكهة التي لا تزال خارج الأسوار، أقنعهم براسيداس بالسماح له بالدخول بمفرده، والاستماع إلى ما سيقوله قبل أن يتوصلوا إلى قرار نهائي. وهكذا سمح لبراسيداس بالدخول والمثول أمام مجلس المدينة، وكان متحدثاً لا بأس به بالرغم من أنه إسبارطي. فخاطب المجلس بما يلي:

"أيها الأكانثيون، لقد أرسلني الإسبارطيون وجيشي لننهض بالقضية التي أعلناها عند بدء الحرب؛ وهي أننا سنخوض الحرب ضد أثينا من أجل تحرير هيلاس. فإن جئنا متأخرين، فلأن الحرب في وطننا اتخذت مجرى لم يكن متوقعاً. وكان الأمل بأن نعفر وجه أثينا بالتراب بجهودنا وحسب دون أن تضطروا للمجازفة بشيء. فلا لوم علينا إن تأخر بنا الوصول، فلقد حضرنا حالما توفرت لنا الفرصة لشد الرحال، وبمساعدتكم سوف نبذل أقصى الجهد لإرغام الأثينيين على الخضوع. غير أنني أعجب أن أجدكم توصدون أبوابكم دوني، بدلاً من أن تقابلوني بالترحيب. فلقد كنا نعتقد– نحن الإسبارطيين– بأننا نقصد حلفاء راغبين فينا ويحسبوننا بينهم حتى قبل وصولنا فعلاً؛ ولهذا قبلنا بكل الأخطار التي تنطوي عليها مسيرة تستغرق أياماً عديدة عبر أرض غريبة وبذلنا في هذه المغامرة كل ما في طاقتنا. ولسوف يكون أمراً سيئاً حقاً إن تبين أنكم تحملون أفكاراً مخالفة، وأنكم ستقاومون من يقدمون لكم حريتكم وحرية الهيلينيين الآخرين. فالأمر لا يقتصر على أنكم تقفون ضدي، بل من المرجح أن يأبى آخرون ممن سوف أقصدهم الانضمام إليَّ في هذه الحملة؛ إذ سوف يذهب بهم الفكر كل مذهب، ويعجبون أن تعرضوا عني أنتم الذين توجهت إليكم أولاً، أنتم بما لكم من مدينة هامة وما اشتهرتم به من حدة الذكاء – ولم ترحبوا بي وأبيتم استقبالي. ولسوف يستحيل علي عندئذ أن أحمل الناس على الاقتناع بسلامة غرضي، ولسوف يظنون بي عندئذ الظنون فيراودهم

الشك بحقيقة الحرية التي أعرضها، أو يحسبون أني جئتكم هنا ضعيفاً ولا قدرة لي للدفاع عنكم في وجه الأثينيين إن هاجموا. ومع ذلك فهذا هو جيشي ذاته الذي لم يغامر الأثينيون، رغم ما هم عليه من تفوق عددي، بالقيام بمهاجمته يوم ذهبت لنجدة نيساية. وليس من المرجح أن يبعثوا بجيش يقطع البحر إليكم بمثل ضخامة ذلك الجيش الذي كان لديهم هناك. وبالنسبة لي، فإني لم آت لإيذاء الهيلينيين. إن مهمتي هي تحريرهم، ويمكنني أن أشير إلى العهود المعظمة التي قطعتها الحكومة في بلدي وهي تضمن استقلال حلفائنا كافة الذين أكسبهم إلى صفها. إننا بلا ريب نأبى أن نحملكم على الدخول في حلفنا قسراً أو بوسائل مخاتلة، بل الأمر على العكس من ذلك تماماً، فنحن الذين نريد الانضمام إليكم ومساعدتكم على الانعتاق من عبوديتكم لأثينا. وأحسب أني قدمت لكم البراهين الكافية على سلامة ما أحمل من النيّات، ولست أرى سبباً يحمل أحداً على عدم الثقة بي أو يعتقد بي العجز عن حمايتكم. فأنتم من ينبغي في اعتقادي أن يستجمعوا شجاعتهم ويعلنوا تأييدهم لي.

"وقد يخشى بعضكم أشخاصاً معينين ولربما كنتم تترددون في مساعدتي، إذا ما وضعت المدينة في أيدي هذه الفئة أو تلك، ولكن هذه مخاوف لا سند لها في الواقع أبداً. ذلك أنني لم آت إليكم لأتدخل في شؤونكم الداخلية، ولست أعتقد بأنني أقدم لكم الحرية الحقة إن أهملت دستوركم وقوانينكم أو أتحْتُ استعباد الكثرة للقلة أو القلة للكثرة بينكم. فذلك أسوأ من حكم الغريب. ولن نستحق نحن الإسبارطيين أي شكر لقاء ما تكبدناه من عناء. ولا ريب بأننا عوضاً عن المجد والتكريم لن ننال إلا التقريع وسوء الحديث جزاء لنا، ونبدو في أعين الناس عندئذ أصحاب الرذائل ذاتها التي نتهم الأثينيين بها وبسببها نخوض هذه الحرب الطويلة. ولن نختلف عنهم في أمر هذه الرذائل سوى أنها ستكون أدعى للبغض فينا مما هي عند قوم لم يدَّعوا لأنفسهم الفضيلة أصلاً. والحق أنه أدعى للعار، على الأقل لمن لهم اسم يحرصون عليه، أن ينال المرء غاياته بالخديعة

التي تتزيا بزي الفضيلة من أن يبلغ مراميه بالعنف والقسر. فقد يبرر العنف الصريح بالقوة التي وفرها لنا الحظ، ولكن الشكل الآخر من العدوان إنما يتأتى عمن أساليب الغدر التي تصدر عن عقل شرير. إن لهذه المبادىء الأهمية القصوى عندنا، وإننا لحريصون على الالتزام بها أشد الحرص، كما أن لديكم أشد الضمانات على صدقنا، فوق ما أقسمناه لكم، بمقارنة أقوالنا بالأفعال، وبذلك تبلغون الاستنتاج اللازم وهو أن مصلحتنا تقتضي بأن تكون أفعالنا مصداقاً لكلماتنا.

"وإذا كنتم ستقولون- الآن وقد أوضحت لكم موقفي- أنكم لا تقدرون على المساعدة، إنما تحملون مشاعر الصداقة لنا ولذا ينبغي ألا تحملوا على المعاناة لإعراضكم عني، وإذا كنتم ترون في الحرية مجازفة، ومن الصواب أن تقدم لمن يقدرون على تلقيها وحسب، لا أن تفرض على كائن من كان رغماً عنه، عندئذ فلتشهد آلهتكم وليشهد أبطالكم بأني قدمت إليكم وعجزت عن حملكم على إدراك هذا الأمر. ولذلك سوف أعمل في بلدكم خراباً وتدميراً وسأحاول أن أحاول كسبكم قسراً. وإذا ما بلغنا هذه الحال فلن أرى أني أقوم بأي أمر مستنكر. ولسوف يكون لدي سببان وجيهان يحملاني على هذا التصرف: فأولاً علي أن أحول دون أن يلحق بإسبارطة أذى سببه المال الذي ستستمرون- أنتم أصدقاؤنا- في دفعه للأثينيين، إن رفضتم الانضمام إلينا، ثم أنه لا بد لي ثانياً من أن أحول دون إعاقتكم الهيلينيين عن طرح القيود التي تكبلهم. فإن لم نفعل لم يعد لنا حق بالتصرف على النحو الذي ترون؛ ذلك أن ما يبرر قيامنا نحن الإسبارطيين لتحرير الناس رغماً عنهم أننا نعمل لما فيه مصلحة الفرد والجماعة على حد سواء. وإننا لا نحمل مطامح توسعية لتكوين إمبراطورية، بل إن كل جهدنا ينصب على وضع نهاية للإمبراطورية، ولسوف نخطىء في حق الأغلبية إن احتملنا منكم مناهضة الاستقلال الذي نقدمه للجميع.

"فلتفكروا بما عرضته وليكن قراركم حكيماً. وليكن سعيكم أن تكونوا رواد الحرية في هيلاس لتكفلوا لأنفسكم مجداً دائماً. تفادوا الخسائر التي قد تنزل بكم كأفراد واكسبوا لمدينتكم كلها أعظم الأسماء وأعطرها."

ذلكم كان خطاب براسيداس. ثم دار جدل مطول بين مؤيد ومعارض وعرض الأمر للتصويت فانصبت أصوات الغالبية من أهل أكانثوس تؤيد الثورة على أثينا، وقد حملهم على ذلك تأثرهم بخطبة براسيداس من جهة وخشية الناس على محصول الفاكهة من جهة أخرى. فسمح للجيش بالدخول واستقبل في المدينة، بعد أن أخذوا على براسيداس عهداً بالعمل بالتعهد الذي قطعته حكومة إسبارطة حين أرسلت به في مهمته بالحفاظ على استقلال من يكسبهم إلى صفها من الحلفاء. ثم سرعان ما لحقت بهم ستاجيروس – وهي مستوطنة تتبع أندروس – في الثورة على أثينا. وقد جرت هذه الوقائع كلها في الصيف.

الفصل السابع: هزيمة الأثينيين عند ديليوم

في مطلع الشتاء التالي كان من المفترض أن تسلم المواقع في بويوطيا إلى القائدين الأثينيين هيبوكراتيس وديموستينيس، وأن يكون ديموستينيس وأسطوله في سيفاي وهيبوكراتيس في ديليوم. لكن خطأ وقع في مواعيد الانطلاق لكل منهما. وقد أبحر ديموستينيس إلى سيفاي أولاً ومعه قوة من الأكارنان والعديد من الحلفاء الآخرين في تلك المناطق على متن سفنه، لكنه فشل في تحقيق أي شيء. فلقد كشف سر هذه المكيدة للإسبارطيين فوكي من فانوتيس يدعى نيكوماخوس، فتولوا بدورهم نقل هذه المعلومات إلى البويوط. فجاءت قوات النجدة من كافة أرجاء بويوطيا. ولم يكن هيبوكراتيس هناك بعد ليقوم بهجومه الذي قصد به صرف الانتباه عن المهمة الأصلية، وهكذا احتلوا مسبقاً سيفاي وكيرونيا بصورة نهائية، وما إن اكتشف المتورطون في المؤامرة الخطأ الذي تم ارتكابه حتى توقفوا عن المضي في تنفيذ المؤامرة في بقية المدن.

ولم يصل هيبوكراتيس إلى ديليوم إلا بعد هذا، عندما كان البويوط قد عادوا من سيفاي. وقد وصل على رأس جيش من المواطنين الأثينيين بالإضافة إلى الغرباء المقيمين في المدينة. وهنا عسكر مع جيشه وبدأ بتحصين ديليوم بالطريقة التالية: تم حفر خندق حول المعبد والأرباض المحيطة به، وصنعوا من الأتربة التي تراكمت نتيجة الحفر متاريس وثبتوا فيها أوتاداً، وجمعوا الأخشاب من كروم أرض المعبد وألقوها فيها، بالإضافة إلى الحجارة والآجر من البيوت المجاورة التي جعلوها أنقاضاً. وهكذا بذلوا ما في وسعهم لرفع مستوى التحصينات. ونصبوا الأبراج الخشبية حيثما كان ذلك ضرورياً وحيثما كانت أبنية المعبد غير ملائمة للدفاع (وقد انهار صف الأعمدة القديمة في إحدى النقاط). وكان العمل قد بدأ في اليوم الثالث لمغادرتهم أثينا، واستمروا طوال اليوم الرابع. وفي اليوم الخامس تابعوا العمل حتى العشاء. ونظراً لانتهاء معظم العمل في الإنشاءات، تحرك الجيش مبتعداً عن ديليوم مسافة ميل وربع الميل في رحلة العودة. ومضت معظم القوات

الخفيفة من هذا الموقع مباشرة، أما المشاة الثقيلة فقد توقفوا للراحة. وكان هيبوكراتيس لا يزال عند ديليوم منهمكاً في تنظيم الحامية وإجراء الترتيبات المناسبة لإنجاز ما تبقى من التحصينات.

وفي غضون تلك الأيام الخمسة كان البويوط يقومون بجلب قواتهم إلى تانجارا. وعندما اجتمعت الفرق من كافة المدن ووجدوا أن الأثينيين قد انطلقوا عائدين إلى بلادهم، فإن عشرة من بين القادة البويوط الأحد عشر عارضوا فكرة خوض معركة، طالما أن الأثينيين قد غادروا بويوطيا. إذ كانوا يلتفون حول الحدود عند أوروبوس عندما توقفوا للراحة. لكن باجونداس بن أيوليداس، وهو أحد القائدين البويوطيين من طيبة (الآخر هو أربانثيديس بن ليسماخيداس) كان يريد خوض المعركة، ويعتقد بأن الأمر جدير بالمجازفة، وكان في هذا الوقت القائد الأعلى للقوة بأكملها. فجعل الرجال يقفون أمامه في سرايا، وبذلك لا يقومون جميعاً بترك أسلحتهم في آن واحد، ثم خطب فيهم يحثهم على قتال الأثينيين والهجوم عليهم بشجاعة وقوة. وكان خطابه التالي:

"يا رجال بويوطيا، يحسن بكم ألا يراود أحدكم الظن بأن أي واحد منا، نحن قادتكم، ينبغي أن يتجنب المعركة مع الأثينيين لمجرد أننا لم نعثر عليهم في بلادنا. لقد جاؤوا إلينا عبر الحدود، ثم أقاموا لأنفسهم موقعاً حصيناً هنا، وغرضهم من ذلك إنزال الخراب ببلادنا. وإذن فإنهم ما زالوا – كما يخيل لي – أعداء لنا في الموقع الذي انطلقوا منه للإضرار بنا، بل إنهم أعداؤنا أينما وقعنا عليهم. وإذا كان بينكم من يعتقد في هذه اللحظة أنه من الأسلم لنا أن ندعهم وشأنهم فليطرد هذه الفكرة من رأسه. فمن يكن هدفاً للعدوان وعليه أن يفكر في سلامة بلده، فإنه لا يستطيع أن يجري حساباته على أساس الحذر. إن هذا ما يفعله الذين كان بلدهم آمناً، وفي سعيهم لمزيد من الفتوحات، يتعمدون مهاجمة الآخرين والاعتداء عليهم. أما أنتم فمن تقاليدكم أن تقاتلوا الغزاة الأجانب، سواء في بلدكم أو في أي بلد آخر قريب منه. وهذا ما يجب أن نقوم به إلى

حد بعيد في حالة الأثينيين الذين يشاركوننا الحدود أيضاً. وفي كل العلاقات بين الجيران تكون الحرية نتيجة لمقدرة المرء على المحافظة على أرضه. أما هؤلاء الجيران، فإنهم يضيقون بالقريبين منهم، ويحاولون بسط هيمنتهم إلى أبعد نقطة طولاً وعرضاً، ولذلك فالأمر معهم يتطلب القتال حتى النهاية. ولدينا يوبوية مثلاً، عندما نعبر المياه. كما أننا نعلم المشاعر التي تكنها بقية هيلاس تجاه أثينا. وجدير بنا أن ندرك أن الدول تتنازع فيما بينها على الحدود وتخوض المعارك من أجلها، أما في حالتنا، فإننا إذا هزمنا فلن تكون هناك نزاعات على الحدود؛ لأن الحدود سوف تصبح عندئذ حدوداً واحدة للبلد باكمله. ولن يكون من شأنهم في هذه الحالة إلا أن يدخلوا البلاد وينتزعوا منا ما لدينا بالقوة. والحق أن الأثينيين أشد الأقوام خطراً على من يجاورون.

"وبعد، فقد عهدنا بمن يهاجمون جيرانهم تيهاً وغروراً بقوتهم - كحال الأثينيين اليوم - أن يكونوا أشد جرأة عند سيرهم إلى عدو لم يأت بحركة ضدهم وإنما دافع عن نفسه وأرضه، ولكن حين يجدون أن أحدهم قد خرج للتصدي لهم خارج حدود بلده وبادر إلى الهجوم، حين تسنح له الفرصة، فإنهم يولون الأدبار. ولقد خبرنا هذه الحال عند التعامل مع الأثينيين ؛ بفضل النصر الذي تحقق لنا عليهم في كورونيا، في تلك الأيام حين استطاعوا احتلال بويوطيا بسبب انشغالنا في صراعاتنا الداخلية. ولقد جعلنا بلدنا ينعم بالأمان منذ ذلك الحين وإلى اليوم. ذلكم ما ينبغي أن نتذكره، كذلك حري بأولئك الأكبرين منا سناً أن يكونوا بمستوى إنجازاتهم في الماضي، كما يجدر بالشباب- أبناء الذين أتوا بتلك المآثر والأعمال في ذلك العهد- أن يجهدوا ألا ينال من ذلك الصيت الذي ورثوه عن آبائهم ما يشين. ولنا أن نثق بأن الإله الذي جعلوا من معبده حصناً بصورة غير شرعية وهم يحتلونه الآن سيكون إلى جانبنا، كما أننا واثقون من فوزنا بالنصر الذي بشرنا به مظهر القرابين التي ضحينا بها. فلنتقدم إذن ولنلقنهم درساً، فهم لا ينالون بغيتهم إلا بالهجوم على قوم لا يدافعون عن أنفسهم، أما نحن فإن الشرف

عندنا أن نقاتل في سبيل حرية بلدنا وألا نستعبد بلاد الآخرين دونما مبرر، ولن نسمح لهم بالإفلات منا دون قتال."

بهذه الكلمات المشجعة أقنع باجونداس البويوط بمهاجمة الأثينيين. ثم أسرع يدفع بجيشه إلى الحركة وسار به قدماً؛ لأن الجزء الأكبر من النهار قد مضى. وعندما أصبح على مقربة من الجيش الأثيني، توقف عند موقع لا يمكن لأي من الطرفين رؤية الطرف الآخر، وذلك بسبب وجود تل بينهما، وقام بترتيب قواته في تشكيل قتالي استعداداً للمعركة.

كان هيبوكراتيس في ديليوم، ولكن عندما تلقى نبأ تقدم البويوط أرسل الأوامر إلى جيشه لتشكيل خطوطه القتالية، ولم يمض وقت طويل حتى كان معهم. وقد ترك في ديليوم نحو ثلاثمئة من الخيالة لحماية الموقع إذا ما تمت مهاجمته، وللتدخل في المعركة ضد البويوط إذا ما سنحت لهم الفرصة.

وقد خصص البويوط بعض القوات للتعامل مع هذه القوة، وعندما اكتملت استعداداتهم، ظهروا على قمة التل وتوقفوا في التشكيل الذي اعتمدوه للقتال. وكانت قواتهم تتألف من سبعة آلاف من المشاة الثقيلة، وأكثر من عشرة آلاف من القوات الخفيفة، وألف من الخيالة، وخمسمئة من الرماة. وكانت القوات من طيبة ومحيطها تشكل الميمنة، وفي الوسط كان الهاليارتيون والكورونيون والكوبايان وآخرون ممن يسكنون منطقة البحيرة، أما الميسرة فتألفت من الثيسبيين والتناجريين والأورخومينيين. وتم وضع القوات الخفيفة والفرسان في كلا الجناحين. وقد اصطف الطيبيون في خمسة وعشرين صفاً، أما الآخرون فكانوا في تشكيلات متنوعة. وحسبنا هذا من أمر جيش البويوط وترتيباته القتالية.

وعلى الجانب الأثيني تم ترتيب المشاة الثقيلة في ثمانية صفوف متراتبة على طول خط الجبهة، وكانت أعدادهم مماثلة لأعداد العدو، وتم وضع الخيالة في كل جناح. ولم

نكن في هذه المناسبة قوات خفيفة ذات تسليح مناسب، ولم يكن لدى أثينا أي منها. ولقد كان عدد الذين شاركوا في الغزو أكبر بكثير من عدد الذين على الجانب البويوطي، لكن معظمهم التحقوا بالجيش وهم يفتقرون للسلاح المناسب، وكانوا من جملة الحملة من الأجانب والمواطنين في أثينا، ولم يبق منهم إلا قلة؛ لأنهم كانوا أول العائدين إلى الوطن.

ولما اصطف الجيشان وأوشكا على الاشتباك، أخذ القائد هيبوكراتيس يدور بين صفوف الأثينيين ويتحدث إليهم مشجعاً:

"أيها الأثينيون، سألقي عليكم خطاباً قصيراً، لكن الخطاب القصير ينفع مثل الخطاب الطويل حينما يوجه إلى رجال شجعان. إنني لا أرغب في إثارة عواطفكم بقدر ما أريد تذكيركم بالوقائع. ولست أريد من أحدكم أن يعتقد بأننا لا نحفل بهذا الخطر الذي ألقينا بأنفسنا فيه لمجرد أننا في بلد أناس غرباء عنا. إننا سنقاتل في بلدهم، لكننا سنقاتل في سبيل بلدنا. فإن انتصرنا، فإن البيلوبونيز سوف لن يقوموا بغزو بلدنا ثانية أبداً بدون دعم الخيالة البويوط، ولسوف تفوزون في هذه المعركة بهذا البلد وتسهمون إلى حد كبير بتحرير بلدكم. فإلى الأمام، للقائهم بالروح التي يحملها مواطنو مدينة نفخر بأن نقول إنها الأولى في هيلاس وكأبناء لأولئك الذين دحروا هؤلاء القوم في أوينوفيتا مع ميرونيديس؛ فأصبحوا بذلك سادة بويوطيا."

وبينما كان هيبوكراتيس يلقي خطبته الحماسية هذه، كان قد قطع نصف الطريق على طول خطوط القتال، لكنه منع من المضي أبعد من هذا؛ إذ أخذ البويوط الآن، بعد أن ألقى عليهم باجونداس خطبة على عجل، ينشدون نشيد النصر وشرعوا بالتحرك والنزول من التل. وتقدم الأثينيون لمهاجمتهم والتقى الجيشان وهما يركضان. ولم يحصل أي اشتباك بين الأجنحة البعيدة في كلا الجيشين؛ إذ أعاقتهم المجاري المائية في الطريق. لكن القتال كان شديداً في المواقع الأخرى، والترس يضغط على الترس الآخر.

وقد أنزل الأثينيون الهزيمة بميسرة البويوط حتى القلب وألحقوا بهم أضراراً كثيرة هنا، وكبدوا الثيسبيين على وجه الخصوص خسائر كبيرة. والسبب في ذلك أنهم طوقوا الثيسبيين بعد انهيار القوات المساندة وحصروهم في مكان ضيق، وكان مقتلهم في الاشتباك الذي التحم فيه المقاتلون وجهاً لوجه. كذلك قتل بعض الأثينيين بيد رفاقهم الذين التبست عليهم الأمور حين جرت حركة التطويق؛ فما عادوا يميزون وأخطؤوا في هوية رفاقهم.

إذن، كان نصيب البويوط في هذا الجزء من ساحة المعركة أن تنزل بهم أكبر ضربة ففروا إلى القوات التي كانت ما تزال تقاتل. ولكن في الميمنة كان النصر حليف الطيبيين على الأثينيين، وقد أجبروهم في البدء على التقهقر خطوة وراء أخرى وهم يتابعون الضغط عليهم. وصادف كذلك أن باجونداس حينما رأى الجناح الأيسر في ضيق وجه سريتين من الخيالة لتلتفا حول التل، بعيداً عن نظر الأثينيين. فلما ظهرتا فجأة أثارتا الذعر في الجناح الأثيني المنتصر؛ إذ ظن الجنود أن جيشاً آخر جاء ليهاجمهم، ولقد اجتمع الآن الذعر الذي انتاب هذا الجناح وضغط الطيبيين على الجناح الآخر واختراقه، فأخذ جيش الأثينيين كله بالهرب، فمنهم من فر باتجاه ديليوم والبحر، ومنهم نحو أوروبوس، ولجأ آخرون إلى جبل بارنيس أو أي مكان آخر يوفر لهم السلامة. فتبعهم البويوط وخاصة الخيالة البويوط منهم واللوكريون، الذين أتوا بعيد بدء الهزيمة وعملوا فيهم قتلاً. إلا أن المطاردة توقفت مع حلول الليل، وهذا ما سهل عملية الهرب على معظم الفارين. وفي اليوم التالي عادت القوات المعسكرة في أوروبوس وديليوم إلى الوطن عن طريق البحر، وتركوا وراءهم حامية عند ديليوم، التي ظلوا محتفظين بها بالرغم من كل ما جرى. وقد أقام البويوط نصباً تذكارياً، وجمعوا قتلاهم وجردوا جثث الأثينيين من لباسهم ووضعوهم تحت الحراسة. ثم عادوا إلى تانجارا وهناك وضعوا الخطط للهجوم على ديليوم.

وبينما الأمور على هذه الحال أرسل الأثينيون مبعوثاً لاستعادة جثث قتلاهم فالتقى في طريقه بمبعوث بويوطي، وقد رده هذا قائلاً إنه لن ينال ما جاء في طلبه، حتى ينجز هو المهمة التي كلفه بها البويوط. ثم مثل هذا الموفد أمام الأثينيين وسلمهم رسالته، وكانت كما يلي: "إن الأثينيين قد ارتكبوا إثماً وانتهكوا القانون الهيليني. وهو قانون سارٍ في كل مكان ويحرم على من يغزو بلداً آخر المساس بالمعابد في هذا البلد. ومع ذلك فقد قام الأثينيون بتحصين ديليوم وجعلوا مقامهم هناك، وارتكبوا فيه كل ما يرتكبه الرجال في الأراضي غير المقدسة، وكانوا يجرون المياه ويستخدمونها بالطريقة العادية، ولم يكن البويوط ليسمحوا لأحد بأن يمس هذا الماء إلا لغسل الأيدي قبل تقديم القرابين. ولذلك من أجل الإله ومن أجل أنفسهم فإن البويوط، باسم آلهة المعبد وأبولو، يُحذرون الأثينيين ويطلبون منهم قبل كل شيء مغادرة المعبد وإخلائه من كل ما يخصهم."

بعد هذه الكلمة التي ألقاها المبعوث، أرسل الأثينيون إلى البويوط موفدهم وأعلنوا براءتهم من ارتكاب المعاصي في المعبد، وأنهم لن يقوموا بما ينال من قدسيته في المستقبل، إذا أمكنهم ذلك، وأنهم حين احتلوه لم تكن تراودهم أي نيّات من هذا القبيل، وإنما أرادوا استخدامه في الدفاع عن أنفسهم أمام تعديات البويوط، الذين كانوا المعتدين الحقيقيين؛ فالمعابد في البلد تغدو، وفقاً للقانون الهيليني، في عهدة المسيطر على جزء من أرض المعبد، كائناً من يكن، وسواء صغرت الأرض أم كبرت. والمعابد تكون تابعة له كذلك، وعليه واجب الحفاظ على الشعائر الدينية المعتادة قدر الإمكان، وأن البويوط أنفسهم ومعظم الشعوب الأخرى الذين أخرجوا السكان الأصليين من أرضهم وحلوا محلهم فيها، أصبحوا يعتبرون المعابد تابعة لهم، وقد كانت ملكاً لغيرهم، عندما احتلوها أول الأمر. وكان الأمر نفسه سيصدق على الأثينيين لو أنهم توسعوا في احتلال بويوطيا، ولكن واقع الحال هو أنهم اعتبروا الجزء الذي قاموا باحتلاله تابعاً لهم، ولم يكونوا ينوون تركه طواعية. أما فيما يتعلق بالمياه، فقد كانت مسألة

أملتها الضرورة، ولم تكن بسبب الافتقار للمشاعر الدينية المناسبة، وقد اضطروا لاستخدام المياه في الدفاع عن أنفسهم في مواجهة البويوط الذين سبقوهم بغزو أتيكا. وكان من المنطقي الافتراض أنه حتى الإله ذاته سينظر بعين الرأفة إلى أي أمر يتم تحت ضغط الحرب والخطر. ومما لا ريب فيه أن مذابح الآلهة كانت ملجأ للذين يرتكبون جرائم من دون إرادتهم. وأنه لمن المناسب تعيين من ينتهك القانون حقاً لا من اضطرتهم ظروفهم لفعل ينطوي على العنف، إنهم هؤلاء الذين اقترفوا الشر دونما حاجة تضطرهم إلى ذلك. أما بالنسبة لجثث القتلى فكان سلوك البويوط أقرب إلى عدم التدين من الأثينيين، والدليل أن البويوط كانوا يريدون مقايضة الجثث بالمعبد، فرفض الأثينيون التخلي عنه مقابل ما كانوا يعتبرونه حقاً لهم، وذهبوا إلى أن الأرض حيث يقفون لم تعد أرضاً بويوطية؛ لأنها أرض أخذت بقوة سلاح الأثينيين، وما على البويوط إذن سوى الخضوع للعرف، وأن يسمحوا لهم باستعادة موتاهم بموجب هدنة لهذا الغرض.

وكان رد البويوط بأن على الأثينيين، إذا كانوا في بويوطيا، أن يغادروا البلد قبل أن يأخذوا قتلاهم، أما إذا كانوا في بلدهم، من جهة أخرى، فلهم أن يفعلوا ما يطيب لهم. وكانت وجهة نظر نظرالبويوط تقول إنه ليس للأثينيين أن يدخلوا ويحملوا الجثث دون إذن منهم، وإن تكن الأرض التي توجد الجثث فيها تقع حول الأوروبوس – نظراً لأن المعركة دارت عند الحدود– تابعة لأثينا. ولم يجدوا ثمة سبباً لهدنة في منطقة أثينية، وكان الرأي لديهم أن ردهم منصف للأثينيين كل الإنصاف، إذ استخدموا الصيغة "اجلوا عن بويوطيا أولاً، ثم تنالوا مطلبكم." وقد أصغى المبعوث الأثيني إلى ما قيل ثم قفل عائداً أدراجه من حيث أتى دون أن يبلغ غرضه.

أرسل البويوط فوراً في طلب رماة الرماح ورماة المقلاع من الخليج الماليانى، كما دعمت قواتهم بألفين من المشاة الثقيلة الكورنث، الذين وصلوا بعيد المعركة، وبالحامية البيلوبونيزية التي تركت نيساية وبعض الميجار. فزحفوا بهذه القوة على ديليوم وهاجموا

التحصينات القائمة هناك. واستخدموا في هذه الهجمات أساليب مختلفة، وفي النهاية استولوا على الموقع بآلة نصفها فيما يلي: لقد جاؤوا بعارضة ضخمة، ثم عمدوا إلى نشرها نصفين وقاموا بتجويف هذين النصفين تماماً، ووصلوهما معاً كما توصل الأنابيب؛ وذلك بعد أن جعلوهما ينطبقان بعضهما على بعض بإحكام، ثم ربطوا مرجلاً بالسلاسل إلى أحد طرفي العارضة، وجرى إدخال أنبوب حديدي في الجزء المجوف من العارضة مروراً بالمرجل. وكان جزء كبير من العارضة ذاته قد صفح وقاموا بنقل هذه الآلة مسافة لا بأس بها على عربات حتى ذلك الجزء من السور الذي صنع أساساً من أشجار الكرمة وسواها من الأشجار والخشب. فلما أصبحت الآلة قريبة من الجدار أدخلوا في نهاية العارضة من طرفهم منافيخ ضخمة وأخذوا يعملون فيها نفخاً، فكان الهواء الحاصل يمضي داخل الأنبوب إلى المرجل المملوء بمزيج مشتعل من الفحم والكبريت والقار، فكان يصدر عن ذلك لهب عظيم يحرق السور فلا يملك المدافعون عندئذ البقاء في مواقعهم. فتخلى هؤلاء المدافعون عن تلك المواقع ولاذوا بالفرار من هذه النار التي انصبت عليهم، وبذلك تم الاستيلاء على هذا الموقع الحصين، وقتل بعض أفراد الحامية، كما أُسر نحو المئتين منهم، ولكن معظمهم تمكنوا من الوصول إلى سفنهم والعودة إلى وطنهم.

وكان الاستيلاء على ديليوم في اليوم السابع عشر بعد المعركة، ثم عاد بعيد ذلك الموفد الأثيني، وكان لا يدري بما حدث، ليطالب بجثث القتلى. فسلمه البويوط تلك الجثث دون أن يكون ردهم مثل الرد الذي قدموه في المرة الماضية. وكانت حصيلة المعركة سقوط نحو خمسمئة من البويوط ونحو الألف من الأثينيين، ومن بينهم القائد هيبوكراتيس وعدد كبير من القوات الخفيفة وحمالي المتاع.

وبعد هذه المعركة بفترة ليست بالطويلة، فإن ديموستينيس الذي لم يصادف حتى الآن أي نجاح في رحلته إلى سيفاي وخططه للتآمر عليها، أخذ جيشه الذي حمله على متن سفنه – وكان يتألف من الأكارنان والأجراين وأربعمئة من المشاة الثقيلة الأثينيين–

وقام بإنزاله في منطقة سيكيون. لكن أهالي سيكيون سبقوا سفنه قبل أن تصل جميعها إلى الشاطئ، إذ خرجوا جميعاً بكامل عدتهم وعتادهم وقضوا على بعض القوات التي نزلت هناك، وأسروا بعضهم، وردوا البقية على أعقابهم إلى حيث كانت السفن ترسو، ثم قاموا بوضع نصب تذكاري وسلموا جثث القتلى وفق هدنة بين الطرفين.

وفي الوقت الذي جرت فيه معركة ديليوم توفي سيتالكيس ملك الأودريس الذي كان قد خرج لقتال التريبالي فهزموه في المعركة. وقد خلفه سيوثيز ابن أخيه سبارادوكوس في حكم المملكة الأودريسية وبقية تراقية، وهما يشكلان جزءاً من الأراضي الخاضعة لسلطان سيتالكيس.

الفصل الثامن: براسيداس يستولي على أمفيبوليس وأماكن أخرى، نهاية السنة الثامنة للحرب

في الشتاء ذاته زحف براسيداس وحلفاؤه من تراقية بغية الاستيلاء على أمفيبوليس، المستوطنة الأثينية الواقعة على نهر ستريمون. وكانت قد جرت محاولات في الماضي لإقامة مستوطنة حيث تقوم المدينة الآن، وكانت المحاولة الأولى على يد أرستاجوراس حاكم ملطية، حين هرب من الملك داريوس. ولكن الإيدونيين طردوه من الموقع. ثم أرسل الأثينيون، بعد اثنين وثلاثين عاماً عشرة آلاف مواطن منهم ومتطوع من أماكن أخرى لاستيطان المكان، ولكن تلك الحملة انتهت على يد التراقيين في معركة عند درابيسكوس. ثم بذل الأثينيون محاولة أخرى بعد تسعة وعشرين عاماً من تلك المحاولة، فأرسلوا هاجنون بن نيسياس ليتولى قيادة المستوطنة. فتم لهم طرد الإيدونيين ورسخوا أقدامهم في المكان الذي كان يسمى " الدروب التسعة" . وكانت إيون القاعدة التي انطلقوا منها في عملياتهم وهي ميناؤهم ومركز تجارتهم على مصب النهر، ويبعد ثلاثة أميال عن المدينة الحالية، التي أطلق عليها هاجنون اسم أمفيبوليس؛ لأنها مطوقة من الجانبين بنهر الستريمون، وبناها على نحو يجعلها ظاهرة للعيان من البحر ومن الجانب الذي يقابل البر الرئيسي حيث شيد سوراً طويلاً يعبر عقدة النهر.

وكانت هذه المدينة مقصد براسيداس الآن. فبدأ زحفه من أرناي في خاليكيديا، وفي المساء وصل إلى آولون وبروميسكوس، حيث تصب بحيرة بولبة في البحر. وهناك توقف للطعام، ثم تابع المسير في الليل وسط طقس عاصف وبرد قارس يوحي بسقوط الثلج. وهكذا أسرع بالمسير بأقصى ما يستطيع؛ إذ كان يريد الوصول إلى أمفيبوليس قبل أن يعلم أحد بمقصده، إلا الجماعة التي كانت تتهيأ لتسليم البلد له؛ وهؤلاء المتآمرون هم بعض المستوطنين من أرجيلوس، وهي مستوطنة تابعة لأندروس، ويقيمون في أمفيبوليس يدعمهم آخرون استمالهم بيرديكاس أو الخاليكيد. ولكن المحرك الأساس في

هذه المؤامرة كان أهالي أرجيلوس ذاتها الذين يقيمون بالقرب من المدينة، وكانوا دائماً موضع شبهة عند الأثينيين، ويدبرون المكائد لأمفيبوليس. وقد لاحت فرصتهم الكبرى حين دخل براسيداس تراقية، بعد أن ظلوا يتآمرون ومواطنيهم داخل المدينة لتسليم المكان بالخيانة. فاستقبلوا براسيداس في أرجيلوس بالترحيب ثم أعلنوا الثورة على أثينا. وفي تلك الليلة جاؤوا بجيش براسيداس قبيل الفجر إلى الجسر فوق النهر، والمدينة على مسافة منه، ولم تكن الأسوار قد بلغت المدينة كما هو حالها اليوم. أما الجسر فكانت خفارته ضعيفة فاستطاع براسيداس أن يشق طريقه ويقطع الجسر بسهولة، و مرده في بعضه إلى خيانة بعض الحرس وإلى الطقس العاصف والهجوم المباغت في بعضه الآخر. وهكذا استطاع أن يستولي بضربة واحدة على كل ما لشعب أمفيبوليس من ممتلكات في المنطقة كلها خارج الأسوار. ولقد كان عبوره الجسر مفاجأة تامة للقوم في المدينة. وكان بعض الموجودين خارج الأسوار قد وقعوا في أسر براسيداس بينما هرب البعض الآخر إلى داخل المدينة، فاجتمعت هذه الأسباب كلها لتثير في المدينة حالة من الاضطراب الشديد، وخاصة أن الناس كانوا يشكون بعضهم ببعض. بل ويقال إن براسيداس كان يستطيع الاستيلاء على المدينة في التو واللحظة لو أنه مضى إلى هذا الهدف مباشرة ولم يدع جيشه ينصرف إلى أعمال السلب والنهب.

أما حقيقة ما حدث فهو أنه بعد أن اجتاح المنطقة خارج الأسوار، وحين لم تتحقق توقعاته من الحزب المؤيد له داخل المدينة، عسكر وجيشه هناك ولم يقم بأي حركة. والواقع أن الحزب المعارض لأولئك الذين يريدون تسليم المدينة، كان يضم الأغلبية وأفلح في الحيلولة دون فتح الأبواب فوراً. فأرسل هؤلاء وإيوكيس – القائد الأثيني الذي يتولى الدفاع عن الموقع – إلى القائد الآخر في تراقية ثوسيديديس بن أورلوس، صاحب هذا التاريخ – وكان يومئذ في ثاسوس، وهذه الجزيرة مستوطنة للباريان تبعد مسافة نصف يوم في البحر عن أمفيبوليس – يسألونه النجدة. فلما بلغه النبأ أبحر إليهم فوراً

مع سبع سفن. وكان هدفه الأول بلوغ أمفيبوليس ليحول دون استسلامها، أو يكفل إنفاذ إيون، إن لم يستطع منع استسلام الأولى، قبل وصول براسيداس.

ولقد أصاب براسيداس القلق لخروج نجدة بحرية من ثاسوس، كما بلغه أن لدى ثوسيديديس صلاحية تشغيل مناجم الذهب في ذلك الجزء من تراقية، وهو لذلك يتمتع بنفوذ واسع بين سكان البر الرئيسي. وعليه فقد أخذ يبذل أقصى جهده ليحوز على المدينة بأسرع ما يمكن، خشية أن يطمئن السكان حين يصل ثوسيديديس إلى قدرته على توفير الأمن لهم بأن يأتيهم بقوات من الحلفاء من البحر ومن الداخل، فتفوت على براسيداس فرصة إقناعهم بالاستسلام. لذلك عرض عليهم الاستسلام بشروط بالغة الاعتدال، وأعلن أن لكل مواطن في أمفيبوليس أو أثيني البقاء في المدينة إن شاء، والاحتفاظ بملكيته مع الحفاظ على حقوقه السياسية، أما أولئك الذين لا يرغبون في البقاء في المدينة فلهم أن يأخذوا ممتلكاتهم معهم ويغادروا خلال خمسة أيام.

ولقد أحدث هذا الإعلان تحولاً كبيراً في الرأي بين جملة الناس، خاصة وأن العنصر الأثيني كان ضعيفاً في المدينة، والغالبية العظمى منهم خليط من أقوام مختلفة، كما كان من هؤلاء الأكثرية داخل المدينة عدد كبير من أهالي الذين وقعوا في الأسر خارج المدينة، وقد اعتبر هؤلاء الأكثرية هذا الإعلان بالمقارنة مع ما كانوا يخشونه عرضاً عادلاً كل العدل، كذلك سر الأثينيون إذ أتاح لهم هذا الإعلان فرصة مغادرة المدينة، وقد كان لهم من الأسباب التي تحملهم أكثر من سواهم على التوجس من تطورات الأمور، إذ لم يكونوا يتوقعون أن تردهم النجدة سريعاً. وكان في تلك الدعوة بعد فوائد أخرى للكثرة من الناس عموماً فقد وجدوا أن الخطر قد زال عنهم فجأة دون أن يعانوا أيضاً فقدانهم حقوقهم السياسية. فلما رأى أولئك الذين كانوا يتعاملون مع براسيداس هذا التحول الذي أصاب مشاعر الناس بحيث لم يعودوا الآن يصغون لتوجيهات القائد الميداني الأثيني، خرجوا علناً وأخذوا يزكون عروضه. وهكذا تم التوصل إلى الاتفاق وجرى

استقبال براسيداس في المدينة وفق بنود البيان الذي أعلنه. واستسلمت المدينة. وفي وقت متأخر من ذلك اليوم كان ثوسيديديس يدخل وسفنه ميناء إيون. أما أمفيبوليس فقد وقعت في يد براسيداس، وإيون ستكون في متناوله في غضون ليلة واحدة، ولولا أن أسرعت السفن لنجدتها لكانت في يده في الصباح.

ولقد قام ثوسيديديس بعد ذلك بتنظيم الدفاعات عن إيون ليضمن لها الحماية من كل هجوم يقوم به براسيداس وتدعيمها لمواجهة الأخطار في المستقبل. وسمح بالإقامة فيها لكل من شاء الانتقال إليها من أمفيبوليس، كما تقضي المعاهدة. ولكن براسيداس ومعه عدد من القوارب نزل النهر فجأة واتجه إلى إيون، ليفحص المكان ويرى إن كان بإمكانه أن يستولي على اللسان البري الممتد خارج السور؛ فتكون له السيطرة على المدخل. وقد تم هذا الهجوم بمؤازرة من القوات البرية أيضاً، ولكن براسيداس فشل في كلا الهجومين اللذين قام بهما على إيون فعاد أدراجه إلى أمفيبوليس لترتيب الأمور. ثم انحازت إليه مدينة ميرسينوس الأيدونية، وكان ذلك بعد مقتل الملك بيتاكوس على يد أبناء جواكسيس وبراورو زوجة الملك نفسه، ثم انضمت إليه بعد حين المستوطنتان جاليبسوس وأويسيمة الثاسينيتان. كذلك جاء بيرديكاس مباشرة بعد الاستيلاء على المدينة وأخذ يعمل بالتنسيق مع براسيداس.

ولقد كان لاستيلاء براسيداس على أمفيبوليس أشد الوقع في أثينا. فأهمية المدينة لم تقتصر على فائدتها في تزويدها بالخشب لبناء السفن وما كانت توفره لها من العوائد وحسب. وهناك حقيقة وهي أن الإسبارطيين، وإن كانوا يستطيعون الوصول إلى حلفاء أثينا حتى نهر الستريمون، إن توفرت لهم مؤازرة الثيسال، فإنهم لا يستطيعون المضي أبعد من هذا الخط ماداموا لا يملكون السيطرة على الجسر لوجود بحيرة كبيرة يشكلها النهر عند أعلى المدينة. وهم عرضة للحصار باتجاه إيون من السفن الأثينية. أما الآن فقد بدا أن تلك المعوقات قد زالت. كذلك توجس الأثينيون أن يتمرد حلفاؤهم عليهم،

خاصة وأن براسيداس كان يلتزم الاعتدال الشديد في سلوكه ولا يفتأ يعلن أن مهمته هي تحرير هيلاس. ذلك أن المدن الخاضعة لأثينا حين بلغها نبأ الاستيلاء على أمفيبوليس والشروط اليسيرة التي كان يعرضها براسيداس وسلوكه ومراعاته في التعامل أخذت تقبل على فكرة الانقلاب على أثينا، وذهبت تتنافس فيما بينها على من تكون السباقة إلى الثورة على أثينا. بل الحق أن هذه المدن كانت تتخيل أن هذه الخطوة آمنة ولا يخشى منها أي ضير، وإن برهنت الوقائع فيما بعد، على أن قوة أثينا كانت ضخمة بقدر ضخامة خطأ تلك المدن في استخفافها بتلك القوة. على أن تقدير تلك المدن كان في معظمه يقوم على الأماني أكثر منه على حساب دقيق للاحتمالات؛ ذلك أن المألوف في البشر أنهم إن أرادوا أمراً زينوا لأنفسهم دونما تفكير أنه لا بد قائم وبالتمني يغدو عندهم واقعاً قائماً، إلا أنهم بالمقابل يجهدون فكرهم في إنكار واقع إن كان لا يستسيغونه. وكانت هناك بعدُ واقعة هزيمة الأثينيين مؤخراً في بويوطيا، ثم قول براسيداس- وهو قول غير صادق إلا أنه مستملح - إن الأثينيين لم يجرؤوا في نيسايا حتى على الاشتباك مع جيشه هناك. وقد تضافرت هذه الأمور لإثارة شعور بالثقة بأن أثينا لن تقوم بأي خطوة لحماية مصالحها. ولكن الأمر الأهم الذي جعلهم يقبلون بكل مجازفة هو الإثارة الممتعة التي سرت بينهم في تلك اللحظة، ثم ما بدا لأول مرة من أنهم سيجدون الإسبارطيين يتحركون بحيوية حقيقية.

هذه الأمور كلها لم يفت الأثينيين ملاحظتها، فأخذوا يرسلون الحاميات إلى مختلف المدن، بالرغم من ضيق الوقت والشتاء القاسي. ولقد كان براسيداس يوفد الرسل إلى إسبارطة ويطلب إليها أن تبعث إليه بجيش آخر، وذهب يهيىء لبناء السفن الثلاثية المجاذيف على نهر الستريمون. ولكن الإسبارطيين لم يقدموا له على كل حال ما يفيده، ومرده في بعض السبب ما كان يراود قادتهم من الغيرة مما حققه من نجاح، وفي بعضه الآخر رغبتهم في استعادة الأسرى سجناء الجزيرة وإنهاء الحرب.

وفي الشتاء ذاته استعاد الميجار أسوارهم الطويلة التي كان الأثينيون قد استولوا عليها، ثم عملوا فيها تهديماً حتى سويت بالأرض.

زحف براسيداس وحلفاؤه بعد الاستيلاء على أمفيبوليس على موقع يدعى آكتي، وهو لسان على جانبه المتصل باليابسة تقع القناة التي شقها الملك الفارسي، بينما يقع جبل آثوس الشاهق على نهاية الطرف الذي يواجه البحر الإيجي. والمدن التي تقع في آكتي هي سانة، وهي مستوطنة تتبع أندروس وتقع عند القنال التي تواجه يوبوية، وثيسوس وكليونة وأكروثوي وأولوفيكسوس وديوم – وهذه البلدات الأخيرة يسكنها أقوام من خليط من العروق الغربية، ويتحدثون بالإغريقية ولهجاتهم الخاصة. وهناك بعضُ أقلية من الخاليكيد، لكن أكثرية السكان بلاسجة من التيرينيين، وكانوا يعيشون في وقت من الأوقات في ليمنوس وأثينا، ومعهم البيسالت والكريستون والإيدون. والمدن في هذه المنطقة جميعها صغيرة. وقد انحاز معظم هؤلاء الأقوام إلى براسيداس، بينما وقفت سانة وديوم تناهضانه، فظل في أراضيهما يعمل فيها خراباً وتدميراً.

ولما وجد أن هاتين المدينتين ثابتتين على موقفهما زحف فوراً على تورون في خاليكيديا التي يحتلها الأثينيون. وكان بعض رجال المدينة قد وجهوا إليه الدعوة للقدوم إليهم وهم عازمون على تسليم المدينة. وكان الأثينيون ومعظم سكان تورون يجهلون وجود براسيداس في نواحيهم، لكن أولئك المتآمرين معه كانوا يعلمون بقدومه – وكان بعضهم قد خرج سراً لمقابلته – وقد وضعوا الأرصاد ترقباً لوصوله. فلما عادوا بحضوره جاءهم خفية سبعة رجال وهم مسلحون بسلاح خفيف ويحملون الخناجر فأخفوهم في داخل المدينة. وكان المتآمرون قد أطلعوا عشرين شخصاً على هذه العملية، دون سواهم، لكن هؤلاء السبعة – وكان على رأسهم ليسيستراتوس الأولينثي – وحدهم الذين امتلكوا الشجاعة لدخول المدينة. فاستطاعوا أن يتجاوزوا التحصينات مقابل البحر دون أن يلحظهم أحد، ثم صعدوا التل حيث تقوم المدينة، وقضوا على الحامية في الموقع

الأعلى وفتحوا البوابة الخلفية من جهة كناستريوم.

وفي تلك الأثناء زحف براسيداس وبقية الجيش مسافة من الطريق ثم توقف. وكان قد ارسل مئة من الرماة ليكونوا في المقدمة، حتى إذا فتح باب من الأبواب أسرعوا بالدخول قبل سواهم بإشارة متفق عليها. ومع مرور الوقت واستبداد الضيق بهم من التأخر الذي لم يعرفوا له سبباً، تحركوا شيئاً فشيئاً حتى أصبحوا قريبين من المدينة. وكان حلفاؤهم في الداخل في تلك الأثناء يدبرون الأمور مع المجموعة التي كانت في الداخل من قبل. فلما حطموا الباب الخلفي وفتحوا الأبواب ناحية ساحة السوق بعد اجتياز الحاجز هناك، سربوا بعض الجند عبر البوابة الخلفية، بحيث يستطيعون إثارة الذعر بين السكان حين يداهمونهم من الخلف والجانبين ،ثم قاموا عندئذ بإيقاد شارة الشعلة، كما كان الاتفاق، وأدخلوا بقية الرماة عبر الأبواب مقابل ساحة السوق.

ولقد أمر براسيداس قواته بالنهوض والإسراع بالمسير حالما رأى الشارة المتفق عليها. وراح الجنود يزعقون ويصرخون في وقت واحد، فانخلعت قلوب الناس في المدينة هلعاً وذعراً، فراح بعضهم يتدافعون عبر الأبواب بينما صعد البعض الآخر، واعتلى سقالات من الخشب مربعة الشكل كانت موضوعة عند السور لرفع الحجارة المستخدمة في إعادة بناء جزء من السور كان قد انهار. أما براسيداس ذاته فإنه صعد التل مع القسم الأساسي من جيشه حتى بلغ الجزء الأعلى من المدينة، ليتأكد من احتلالها كلها من أعلى نقطة حتى الأسفل. أما بقية قواته فإنها تبعثرت في أرجاء المدينة كلها.

وهكذا تم الاستيلاء على المدينة. ومعظم أهالي تورون ما يزالون في حال من الاضطراب والفوضى، لا يدرون ما يجري حولهم. أما المتآمرون فإنهم انضموا وآخرين يشاطرونهم الرأي إلى الجيش الغازي. وكان من الأثينيين خمسون من المشاة الثقيلة ما زالوا نائمين في ساحة السوق حين وقعت الواقعة، فلما أدركوا حقيقة ما حدث وقف بعضهم مقاتلاً فقتل، بينما تمكن البقية من الهرب، بعضهم براً وبعضهم استطاع

الوصول إلى سفينتين كانتا تقومان بأعمال الدورية في تلك الأنحاء، ثم التجؤوا إلى ليسيثوس، وهو موقع حصين كانوا قد استولوا عليه من قبل واحتفظوا به، ولسان من البر يمتد إلى البحر واقع عند أقصى طرف من المدينة ويقطعه برزخ ضيق. وإلى هذا الموقع لجأ أيضاً بعض المناصرين لأثينا من أهالي تورون.

كان النهار قد طلع الآن، فوجه براسيداس إعلاناً إلى مواطني تورون، والمدينة في قبضته، مخاطباً أولئك الذين التجؤوا مع الأثينيين يدعو من يشاء منهم العودة إلى ممتلكاتهم، كافلاً لهم حقوقهم المدنية دون أن يخشوا انتقاماً من قواته. كذلك أرسل إلى الأثينيين يطلب منهم إخلاء ليسيثوس، باعتبارها أرضاً خاليكيدية، ووعدهم بأن تكون مغادرتهم وفق هدنة ولهم أن يحملوا معهم كل ما يخصهم من المتاع وسوى ذلك، فقابل الأثينيون الطلب برفض مغادرة الموقع، ولكنهم طلبوا منحهم هدنة يوم واحد لسحب جثث قتلاهم، فمنحهم براسيداس مهلة يومين أمضاهما في تحصين البيوت المجاورة، بينما راح الأثينيون يدعمون مواقعهم أيضاً.

وفي غضون ذلك دعا براسيداس أهالي تورون إلى اجتماع حيث ألقى فيهم خطبة مماثلة لتلك التي ألقاها في أكانثوس، وقال إنه ليس من الإنصاف إساءة الظن بأولئك الذين تعاونوا معه في الاستيلاء على المدينة، أو اعتبارهم خونة، فهؤلاء لم يكونوا يريدون لها العبودية، ولا هم تلقوا رشاوى لقاء عملهم، وإنما كان غرضهم الخير والحرية لتورون. كذلك ليس من الصواب أن يتخيل من لم يكن لهم ضلع فيما كان، أنه لن يكون لهم نصيب مساوٍ فيما ترتب على هذا العمل من نتائج؛ وهو لم يأت لينزل الأذى بالمدن أو الضرر بالأفراد. وهذا ما حمله في الواقع على توجيه النداء إلى من التجؤوا إلى الأثينيين؛ فهؤلاء لن يعلموا بحسن سيرة الإسبارطيين ومعاملتهم إلا حين يخبروا أمرهم، ويلمسوا صداقتهم، بل وأكثر من ذلك، حين يرون أنهم أشد عدلاً وإنصافاً من الأثينيين. فإذا كانوا يخشون الإسبارطيين فلأنهم لم يخبروا معاملتهم من قبل. ثم ذهب يحثهم

على حسم أمرهم وأن يصبحوا حلفاء أوفياء، ويدركوا أنهم سيغدون من الآن فصاعداً مسؤولين عن كل سوء تصرف يأتون به. أما فيما يتصل بالماضي فلا يملك أن يعتبرهم مسؤولين عما لحق بإسبارطة منهم؛ لأنهم كانوا ضحية استغلال قوة أعظم منهم. فإن كانوا قد ناهضوه في أمر من الأمور فهو مستعد لغض الطرف عنه. وما فات مات.

بعد هذا الخطاب الذي أراد به براسيداس أن يرفع من معنويات التورونيين، وحالما انتهت الهدنة شن هجومه على ليسيثوس. وكانت دفاعات الأثينيين تتألف من سور سيء البناء وبضعة بيوت مدعمة بالمتاريس. وقد استطاع هؤلاء صد الهجمات التي كانت تشن عليهم طوال يوم بكامله. ثم جاءهم الأعداء في اليوم الثاني ومعهم آلة ليرموا بها النار على الجزء الخشبي من التحصينات. وكانت قواتهم قد أخذت تقترب من النقطة التي بدا لهم أن الآلة سوف تكون فيها على درجة عالية من التأثير ما يسهل عليهم اجتياح التحصينات. وأقام الأثينيون لمواجهة هذا التهديد برجاً من الخشب فوق سطح أحد البيوت ووضعوا فيه عدداً كبيراً من الجرار والخوابي المملوءة بالماء والحجارة ومعهم عدد كبير من الرجال. لكن ثقل هذه المواد والرجال كان كبيراً وسرعان ما تداعى البرج وتحطم محدثاً ضجة هائلة. فأثار هذا الحادث الضيق بين الأثينيين الذين كانوا بالقرب من سكان الحادث أكثر من الجزع، أما من كانوا أكثر بعداً عن الموقع فقد ذهب بهم الظن إلى أن الإسبارطيين قد اجتاحوا التحصينات ففروا ناحية البحر وإلى سفنهم. ولقد شاهدهم براسيداس يهجرون المتاريس وأدرك حقيقة ما حدث، فهجم بجيشه واستولى على الموقع ، وقتل كل من وجده في الداخل.

وعلى هذا النحو أخلى الأثينيون الموقع، وعبروا بسفنهم الحربية وسفن النقل إلى بالينة.

وكان براسيداس قد أعلن وهو على وشك شن هجومه أنه يمنح مبلغ ثلاثين ميناي من الفضة لأول رجل يرتقي السور. وقد عزا براسيداس عملية الاستيلاء إلى مساعدة من

الإلهة أثينا التي كان لها معبد في ليسيثوس أكثر من كونها نتيجة عمل إنساني؛ فقدم ثلاثين ميناي هبة للإلهة، وأزال التحصينات من ليسيثوس، وأخلى الأرض من الركام، وكرس الموقع كله للإلهة، ثم أمضى الشتاء في تنظيم المواقع التي فاز بها ووضع الخطط لغزوات لاحقة. وهكذا انتهى الشتاء ومعه انتهت السنة الثامنة من الحرب.

الفصل التاسع: الهدنة بين أثينا وإسبارطة،

براسيداس يخرق الهدنة

قبل الصيف التالي في الربيع كان بين الإسبارطيين والأثينيين هدنة لمدة عام واحد. وقد ذهب الأثينيون بحساباتهم إلى أن الهدنة سوف تجعل براسيداس عاجزاً عن كسب أي من المناطق التابعة لهم، وبذلك يكون لديهم الوقت الكافي للقيام بالإجراءات اللازمة لتعزيز مواقعهم. ورأوا أنه إن تم لهم ذلك فسيكون بوسعهم عندئذ، إن شاؤوا، أن يزيدوا من مدة الاتفاقية. ولقد أدرك الإسبارطيون مخاوف الأثينيين على الوجه الصحيح، واعتقدوا أن أثينا متى نالت قسطها من الراحة من العناء والكفاح غدت أشد استعداداً لعقد اتفاقية شاملة، تعيد بموجبها السجناء، وتجعل السلام يدوم لفترة أطول. وكان الإسبارطيون يتوقون بشكل خاص إلى استعادة رجالهم بينما انتصارات براسيداس ما تزال تتوالى. وقد اعتقدوا بأنهم في وضع يسمح لهم بالقول إذا نال براسيداس مزيداً من الانتصارات ومن الأرض ما يعادل كل خساراتهم أمام الأثينيين. فإنهم، وإن لم يستعيدوا الرجال الذين تم أسرهم في سفاكتيريا، سيكونون قادرين على القتال في ظروف متعادلة. ولهم أمل طيب بتحقيق النصر النهائي. وعليه فقد قبلت إسبارطة وحلفاؤها بالهدنة وفق الشروط التالية:

١- فيما يتعلق بمعبد أبولو البيثياني والعرافة، نوافق على أنه للجميع الحق باستشارة العرافة دون غش أو تدليس أو خوف، وفق القوانين السائدة، في بلد صاحب الاستشارة. وقد وافق الإسبارطيون وحلفاؤهم الحاضرون على هذا البند وتعهدوا بإرسال الرسل إلى البويوط والفوك وبذل أقصى جهودهم لإقناعهم بتأييد الاتفاقية.

٢- موافقون على اتخاذ الإجراءات اللازمة للبحث عن الضالعين في موضوع الكنز الخاص بالإله، ونلتزم كلانا بالعدل والإنصاف كما تنص القوانين في بلادنا. وهذا الاتفاق يسري على الآخرين الذين قد يرغبون في المشاركة، وكل حسب القوانين المرعية في

بلده. والإسبارطيون وحلفاؤهم موافقون على ما جاء أعلاه.

٣- كذلك يوافق الإسبارطيون وحلفاؤهم على النقاط الواردة أدناه، في حال أبدى الأثينيون استعدادهم لعقد اتفاقية. والمقترح أن يلزم كل طرف منطقته، ويحفظ ما عنده؛ فتبقى القوات في كوريفازيوم في بوفراس وتوميوس: وعلى القواتفي سيثيرا ألا تجري أي اتصال بالعصبة البيلوبونيزية، وألا نقوم نحن بالاتصال بهم، كما يحظر عليهم الاتصال بنا ويحظر على القوات في نيسايا ومينوا عبور الطريق الواصلة ما بين أبواب معبد نيسوس إلى معبد بوسيدون، ومن هناك مباشرة في خط مستقيم إلى الجسر في مينوا وكذلك يلتزم الميجار وحلفاؤهم بعدم عبور هذا الطريق. ويحتفظ الأثينيون بالجزيرة التي استولوا عليها، شرط ألا يكون ثمة اتصال بين الحلفاء أو بين الحلفاء والجزيرة. وفي منطقة ترويزين يحتفظ كل طرف بما لديه في هذا الحين حسب الاتفاق المعقود مع الأثينيين.

٤- للإسبارطيين وحلفائهم، فيما يتصل بالانتقال عبر البحر، والخط الساحلي الخاص بهم وبحلفائهم، التنقل بوساطة أي سفينة تسير بالدفع بالمجاذيف، ولا تزيد حمولتها عن خمس مئة تالنت. ولكن ليس من حقهم الانتقال بالسفن.

٥- يمنح المبعوثون والسفارات وأعوانهم المساعدون الذين يتولون القضايا المتعلقة بإنهاء الحرب وتسوية الادعاءات - جواز مرور بالدخول من أثينا إلى البيلوبونيز ، أو الخروج من هذه المنطقة إلى تلك، براً وبحراً.

٦- يمتنع الطرفان خلال مدة الهدنة عن استقبال الفارين، سواء أكانوا رجالاً أحراراً أم عبيداً.

٧- تجري تسوية الدعاوى الجارية بيننا وفق القوانين السارية في بلدينا، وتحال كل قضية متنازع عليها للتحكيم دون اللجوء إلى الحرب.

"وافق كل من الإسبارطيين وحلفائهم على البنود المذكورة أعلاه. وندعوكم في حال

كانت لديكم اقتراحات أفضل مما عرض أعلاه، للحضور إلى إسبارطة وإفادتنا بها. ولن نرفض إسبارطة أي اقتراح منصف تتقدمون به. أما إذا أوفدتم مبعوثاً لهذا الغرض فعلى هذا الموفد أن يتمتع بكامل الصلاحيات، كما لا بد أنكم سوف تفرضون الشرط ذاته علينا. وأن تستمر هذه الهدنة عاماً واحداً.

"صادق عليه الشعب.

"عقد مجلس قبيلة الأكمنتيس برئاسة نيسياديس، وتولى فاينيبوس أمانة السر. واقترح لافيس باسم حسن الطالع الذي يرافق الأثينيين الموافقة على الهدنة بالشروط التي وضعتها إسبارطة وحلفاؤها لمدة سنة واحدة تبدأ من اليوم الرابع عشر من شهر الافيبوليون. ويقوم السفراء والموفدون بالتنقل بين البلدين خلال الفترة للبحث عن الوسائل المؤدية إلى تسوية دائمة بين البلدين. ويدعو القادة العسكريون ومجالس القبائل لعقد اجتماع شعبي تمكيناً للأثينيين من مناقشة الشروط التي على أساسها سوف تشكل السفارة التي ستفاوض بشأن تسوية نهائية. وعلى السفارة القائمة حالياً أن تعلن التزامها فوراً أمام الشعب بشروط هذه الهدنة لمدة سنة واحدة."

تلكم كانت الشروط التي وافقت عليها كل من أثينا وإسبارطة وحلفاء كل من الطرفين. وقد عقدت هذه الاتفاقية يوم الثاني عشر من شهر جراستيوس الإسبارطي. وكان الإسبارطيون الطرف الثاني في هذه الاتفاقية. وتولى صب المياه تبركاً طوروس بن إختيميديس وأثينيوس بن بيركليداس وفيلوخاريداس بن أركسيدايداس عن الإسبارطيين، وعن الكورنث إينياس بن اوسيتوس ويوفاميداس بن أرسطومينوس وسيكيونيانس داموتيموس بن نوكراتيس وأوناسيموس بن ميجاكليس، وعن الميجار نيكاسوس بن سيكالوس ومنيكراتيس بن أمفيدوروس، وعن الإبيدار أمفياس بن يونبيداس، وعن الأثينيين القادة نيكوستراتوس بن ديتريفيس ونيسياس بن نيسيراتوس وأوتوكليس بن تولمايوس.

وكانت تلك هي اتفاقية الهدنة التي وافقت عليها الأطراف المعنية. وظلت المؤتمرات تتوالى مادامت هذه الاتفاقية سارية المفعول والأمل معقود على بلوغ تسوية أكثر شمولاً.

وبينما كانت المفاوضات ما تزال تجري ثارت سكيونة، وهي مدينة في بالينة، على أثينا وانحازت إلى براسيداس. ويزعم السكيون أنهم قدموا من بيلينة في البيلوبونيز وقد رمت بهم عاصفة، وهم في رحلة العودة من طروادة، وحطت بهم في هذا المكان الذي كان الآخيون قد تعرضوا فيه أيضاً للعاصفة، فاستقروا هناك. وما إن علم براسيداس بالعصيان حتى أبحر إلى سكيونة والليل مخيم. وكانت إحدى السفن الثلاثية المجاذيف تتقدم بقية السفن التي أبحرت برفقته، بينما كان يتبعها على قارب صغير. وقد حمله على هذا الوضع حذره فإن صادف قارباً كبيراً وسقط قاربه، فتكون السفينة الثلاثية الكبرى جاهزة لحمايته، أما إذا ظهرت له سفينة ثلاثية ضخمة فإنها ستدع القارب الصغير لتهاجم السفينة الكبرى، فيستطيع بذلك المرور بأمان.

وبعد الوصول دعا براسيداس شعب سكيونة إلى اجتماع وألقى فيهم خطبة شبيهة بالخطابين اللذين ألقاهما في أكانثوس وتورون. وأضاف هنا قوله إنهم جديرون بأعظم الثناء؛ لأنهم، وإن كانت بيلينة تقع داخل البرزخ ومعزولة بحكم الحصار الذي تفرضه أثينا على بوتيدايا ما يجعلهم من الناحية الواقعية من أهل الجزر، فقد نهضوا تلقائياً من ذات أنفسهم، وتقدموا مطالبين بحريتهم عوضاً عن الخلود إلى السكينة حتى يصدر ضغط من جهة خارجية ما فتدفع بهم نحو ما هو بجلاء خير لهم. وكانت تلك إشارة لهم بأن يبدوا في مناسبات أخرى وحيث يتطلب الموقف الخصال العظيمة نفس القدر من الشجاعة والتصميم، وزاد: إن استطاع تسوية الأمور كما يريد لها فسوف يعتبر شعب سكيونة حقاً أخلص أصدقاء إسبارطة، ويعمل على تكريمهم على كل وجه.

ولقد كان للخطاب والعبارات التي صاغها براسيداس أعظم الوقع بين شعب سكيونة، وسرى بينهم جميعاً شعور بالثقة بالنفس، حتى لدى من كانوا حتى قبل حين يعارضون

مجريات الأمور، وحسم الجميع أمرهم على الحرب، وراحوا يرحبون ببراسيداس بكل آيات الترحيب والتكريم. بل وذهب هؤلاء الناس إلى وضع تاج من الذهب على رأسه باعتباره محرر بلاد هيلاس، وأصبح من عادة الأفراد من العامة الذهاب إليه وتقليده قلائد من الزهور والورود، وكأنه رياضي بارز مشهور. ولقد عاد براسيداس من حيث أتى، تاركاً مؤقتاً حامية صغيرة في المنطقة، وما هو إلا حين حتى أرسل قوة أكبر من تلك، وقصده أن يستولى على ميندة وبوتيدايا بمساعدة سكيونة. وكان يعتقد أنه لما كانت سكيونة في موقع الجزيرة فإن الأثينيين سوف يوجهون إليها قوة بلا ريب، وعليه استباقهم إليها. وكانت المفاوضات تجري على قدم وساق بينه وبين المدن الأخرى لتسليمها له خيانة.

وبينما كان على وشك القيام بغزوة لتلك البقاع وردت سفينة ثلاثية المجاذيف وعلى ظهرها المفوضان اللذان كانا يجولان بنبأ الهدنة، وهما أرسطونيموس ممثلاً لأثينا وأثينايوس ممثلاً لإسبارطة. فعاد الجيش عندئذ إلى تورون، وأعلم المفوضان براسيداس بشروط الاتفاق الذي تم بين المدينتين. وقد قبل حلفاء إسبارطة في تراقية بما تم الاتفاق عليه، وأعلن أرسطونيموس عن ارتياحه له إلا بما اتصل بسكيونة التي رفض أن تشملها الهدنة؛ لأنه وجد عند الحساب أن الثورة فيها قامت بعد الهدنة المتفق عليها. فأبدى براسيداس أشد المعارضة لهذا الرأي، مدعياً أنها وقعت في حقيقة الأمر قبل الاتفاق ورفض التخلي عن المدينة. فأعلم أرسطونيموس أثينا بحقيقة الوضع، وأراد القوم عندئذ أن يبعثوا فوراً بحملة لاسترداد سكيونة. فأوفد الإسبارطيون سفارة من طرفهم لإعلام أثينا بأنها ترى في هذا التحرك ما يعدّ انتهاكاً للهدنة، وادعوا أن المدينة باتت تابعة لهم، اعتماداً على قول براسيداس، إلا أنهم أبدوا استعداداً لإحالة الموضوع إلى التحكيم. غير أن الأثينيين لم يكونوا يميلون للمجازفة خشية أن تكون نتيجة التحكيم في غير صالحهم، فكانوا أشد ميلاً لتوجيه حملة إلى سكيونة فوراً، إذ كان الغضب يعتمل في

أنفسهم بعد أن أصبح حتى أهل الجزيرة يتمردون الآن عليهم ويولون ثقتهم للقوة البرية الإسبارطية، وهي التي لن تكون في الواقع ذات نفع لهم. ثم إن حقيقة الوقائع المتصلة بالثورة تؤيد الحجة الأثينية أكثر مما تسند الإسبارطية. فالواقع هو أن ثورة سكيونة كانت قد نشبت بعد يومين من قيام الهدنة. وهكذا صدر القرار فوراً بناء على طلب من كليون باستعادة سكيونة بالقوة وإعدام سكانها. أما وقد فرغ الأثينيون من كل أمر ولم يعد ثمة ما يشغلهم، فإنهم تهيؤوا الآن لتنفيذ هذا القرار.

وفي تلك الأثناء ثارت ميندة– وهي مدينة في بالينة ومستوطنة إيرترية– تريد الخلاص من أثينا. وقد تلقى برسيداس يومئذ أهالي ميندة باعتبارهم حلفاء ووجد لنفسه مبرراً لهذا التصرف، مع أنه كان من الواضح الجلي أن الثورة قامت والهدنة قائمة؛ لأنه كان قد شكا من انتهاكات بعض الأثينيين لها. ولذلك أصبح أهالي ميندة أشد استعداداً للمجازفة والمخاطرة حين لمسوا لدى براسيداس تصميماً على دعمهم، وحين توصلوا إلى الاستنتاجات المناسبة من حقيقة أنه لن يتخلى عن سكيونة. وكان واقع الحال في ميندة أيضاً أن المتعاونين مع براسيداس هناك كانوا قلة. وكان هؤلاء قد بلغوا قرارهم كما سبق القول وباتوا أشد تصميماً الآن على الصمود، خشية افتضاح مؤامرتهم، وهكذا حملوا مواطنيهم على انتهاج مسلك لا يحظى برضى الأكثرية منهم. ولما بلغ الأثينيين النبأ ازدادوا غضباً، وأخذوا يعدون للهجوم على المدينتين. وقد كان براسيداس يتوقع هذا الهجوم فقام بترحيل النساء والأطفال عن سكيونة وميندة إلى أولينثوس في خاليكيديا حفاظاً على سلامتهم، كما أرسل لحمايتهم خمسمئة من المشاة الثقيلة الإسبارطية وثلاثمئة من الرماة الخاليكيد، وجعل تولسيداميداس على رأس هذه القوة. أما من بقي من السكان في سكيونة وميندة فإنهم ضموا جهود بعضهم إلى بعض، وأخذوا يعدون للتصدي للهجوم الأثيني المتوقع وشيكاً.

الفصل العاشر : براسيداس في مقدونيا ، أثينا تحرز بعض الانتصارات ، نهاية السنة التاسعة للحرب

وبينما كانت الأمور تجري على هذا المنوال قام براسيداس وبيرديكاس معاً بحملة ثانية على أرابايوس في لينكوس. وكانت قوات بيرديكاس تتألف من أتباعه المقدونيين، وقوة من المشاة الثقيلة من الهيلينيين الذين يقيمون في مقدونيا، أما براسيداس فكان معه بقية جيشه وهم من البيلوبونيز والخاليكيد والاكانثيين وأفواج من بقية حلفائه الآخرين. وكان مجموع القوات لديه ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة، وما مجموعه ألف خيال وحشد كبير من الجنود المحليين. فلما دخلوا أرض أرابايوس وجدوا اللينسيستيين معسكرين ومستعدين لمواجهتهم، فاتخذوا مواقعهم قبالتهم. وكان المشاة منتشرين على الطرفين على أرض مرتفعة، وثمة سهل يقع بين الجيشين. وبدأ الفرسان الهجوم على السهل واحتدم عندئذ القتال بين الجانبين. ثم نزل المشاة الثقيلة من اللينسيستيين عن الهضبة حيث يعسكرون وانضموا إلى الخيالة في القتال. وهنا تقدم براسيداس وبيرديكاس برجالهم للتصدي لهذا الزحف، فاشتد القتال واحتدم وانتهى بهزيمة اللينسيستيين الذين تكبدوا خسائر فادحة في هذه المعركة. أما الذين نجوا من هؤلاء فقد لجؤوا إلى الأراضي العالية ومكثوا هناك دون أن يأتوا بحركة.

وما إن انتهت المعركة حتى قام الجيش المنتصر بوضع نصب تكريماً لهذه المناسبة، ومكثوا بعدئذ يومين أو ثلاثة ينتظرون قدوم المرتزقة الآيليريين الذين كان يتوقع انضمامهم إلى بيرديكاس. وقد أراد بيرديكاس أن يمضي لمهاجمة قرى أرابايوس؛ إذ كان يضيق بالمقام هناك أكثر من ذلك. أما براسيداس فكان يساوره القلق بشأن ميندة، ويخشى أن يقضي عليها الأثينيون إن بلغوها قبل أن يعود إليها، ولا يريد في الوقت ذاته التقدم دون مؤازرة الآيليريين، ويؤثر الانسحاب من الموقع بدلاً من ذلك.

وبينما كان الجدل يدور حول هذه النقطة وصلت الأنباء بأن الآيليريين قد خانوا

بيرديكاس وانضموا إلى أرابايوس الآن. والآيليريون قوم ذوو نزوع إلى الحرب، وقد حمل الخوف منهم الفريقين على إيثار الانسحاب من المنطقة، لكن الخلاف بينهما عرقل وضع ترتيبات محددة للبدء بالانسحاب. ولما حل الليل على المقدونيين داهم الخوف حشد القوات المحلية، واجتاحتهم نوبات من جنون الفزع مما تعرفه الجيوش الضخمة. وقد رسخ لدى هؤلاء الجند أن قوات تبلغ أضعاف أضعاف القوة التي وصلت تزحف الآن باتجاههم، بل وأصبحت على وشك أن تطبق عليهم فاندفعوا هاربين باتجاه بلدهم. ولم يدرك بيرديكاس بادئ الأمر حقيقة ما حصل، ولكنه اضطر حين تبينت له الأمور للانسحاب دون أن يراجع براسيداس في الأمر، نظراً لبعد المسافة بين المعسكرين. وفي الصباح اكتشف براسيداس رحيل المقدونيين ورأى الآيليريين وأرابايوس على وشك مهاجمته. فقام عندئذ بوضع مشاته الثقيلة في تشكيل المربع، ووضع المشاة الخفيفة في وسطه، ثم اتخذ ترتيباته للانسحاب. وقد أمر الجنود الأفتى سناً بالاشتباك مع العدو في أي لحظة يبدأ فيها بالهجوم. أما براسيداس فقد سار وثلاثمئة من صفوة قواته في المؤخرة. وكان يريد بهذا التشكيل أن يستدير مع هذه القوات أثناء الانسحاب، ويهاجم قوات العدو الأقرب إليهم. وهنا استغل الوقت القصير له قبل اقتراب العدو ليلقي الخطبة التالية لبعث الحماس في رجاله:

" أيها البيلوبونيز، ما كان لي أن أقف الآن بينكم ناصحاً، والمناسبة تفرض أن أقول بعض كلمات التشجيع، لولا أني أراكم وقد نال منكم الإحباط وثبطت عزائمكم بسبب حالكم من العزلة أمام هجوم جيش عرمرم من البرابرة الهمج. ولكن مع خذلان أصدقائنا و كثرة أعدائنا ثمة بضعة أمور أود تذكيركم بها. وبعض النصائح أود تقديمها لكم فأحاول أن أعرض لبعض النقاط ذات الأهمية البالغة.

" إن السبب في توقع الشجاعة منكم في الحرب ليس لأن بجانبكم حلفاء في كل مناسبة، وإنما لأن الشجاعة من إرثكم. وليس العهد بكم أن تصابوا بالذعر لكثرة العدد

على الطرف المقابل، وأنتم لم تأتوا من دول تحكم فيها الكثرة القلة، بل على العكس من ذلك تماماً، وأما معرفة متى يكون القتال والانتصار، فقد كان الأساس الوحيد الذي تقوم عليه قوتنا ولا أساس سواه. أما الغرباء فما يجعلكم تخشونهم الآن هو افتقاركم للخبرة، ومع ذلك فلكم أن تثقوا – اعتماداً على المعركة التي خضتموها والمقدونيون من بينهم، والتقدير الذي تكون لدي عنهم وما بلغني من الآخرين من أمرهم – بأنهم لن يكونوا عند التجربة أصحاب بأس وشدة. وحين يستعرض عدو قوته، وهو في الواقع ضعيف، تزيد المعرفة الحقة بالوضع الطرف الآخر ثقة بقدرته، أما حين يتمتع أحد الطرفين بقدرات يمكن الاعتداد بها، فإنه كلما قلت معرفة خصومه بها ازدادت جرأتهم عند الهجوم. ولقد يبدو خصومنا هؤلاء في عيون الأغرار قوماً ذوي خطر، وأعدادهم مخيفة وصيحاتهم مدوية تنخلع لها القلوب، ولحركات أذرعهم وهم يلوحون بأسلحتهم في الهواء وقع في النفس. غير أن هذا كله يغدو حالاً آخر حين يصطدم هؤلاء بجنود يثبتون بمواقعهم، ويصمدون في قتال خصومهم، ولا يأبهون بمثل هذه التظاهرات. فهم إذ يفتقرون لنظام في القتال لا ينتابهم شعور بالعار حين يسلمون موقعاً عند الضغط. والكر والفر عند هؤلاء سواء، ثم إنه لا سبيل لاختبار شجاعتهم فعلاً؛ لأنه عندما يقاتل كل فرد منهم عن نفسه هناك دائماً عذر ما صالح لينقذ جلده. والواقع أن هؤلاء بدلاً من أن يهرعوا لقتالكم وجهاً لوجه يظنون أن من الأسلم لهم أن يثيروا فيكم الفزع، فيكفون أنفسهم شر القتال. ولو كان شأنهم غير ذلك لاندفعوا إلى المعركة عوضاً عن إثارة الجعجعة والضجيج. فلكم إذن أن تروا بكل وضوح أن كل ما حسبتم مخيفاً من أمرهم له حظ ضئيل من الواقع، مهما كان وقعه شديداً على الأذن مهيباً مخيفاً في العين. فاصمدوا إذن حين يهاجمونكم، وإذا حان الوقت تراجعوا بخطوات منتظمة وترتيب حسن فلسوف تبلغون الأمان هكذا بأسرع طريق، وستعلمون في المستقبل أن هذا الصنف من الرعاع يظهرون شجاعتهم حين يرد المقاتل على هجومهم الأول بحزم وثبات،

بالتهديد بما سيفعلون، بينما هم يطلقون أرجلهم في الهواء هرباً ؛ أما إذا أفسح لهم المجال فترونهم يجدون ويلحون ليبلغوا أهدافهم، ويظهروا مبلغ شجاعتهم حيث لا خطر يخشى منه."

بعد هذا الخطاب بدأ براسيداس يقود جيشه مبتعداً عن الموقع، فلما رأى أهل المنطقة ما يحدث ظهروا وهم يطلقون الصرخات، ويثيرون أعظم الضجيج ظناً منهم أن براسيداس هارب منهم، ويحسبون أنهم يقدرون على اللحاق به والقضاء على جيشه. ولكنهم وجدوا عوضاً عن ذلك الجنود يخرجون إليهم حيثما هاجموهم، وبراسيداس يثبت وقوات الصفوة معه أمام الجسم الرئيسي من قواتهم. وقد دهشوا حين وجدوهم يصمدون أمام هجماتهم الأولى، ثم يقابلون كل هجوم بعدئذ بذات القدر من المقاومة. ثم استمر التراجع حالما تخلوا عن شن الهجمات. وهكذا توقف أكثر جيش المحليين عن متابعة هجماته على الهيلينيين حينما أصبح براسيداس في السهل الفسيح. وهناك تركوا قوة وراءهم لمتابعته ومضايقته بينما تابع البقية طريقهم للحاق بالمقدونيين وهم يهربون، وقتلوا كل من صادفوه من تلك القوات، وتمكنوا من احتلال الممر الضيق بين تلين الذي يؤدي إلى أرض أرابايوس، قبل أن يتمكن براسيداس من الوصول، وهو يعلم أن هذا هو الطريق الوحيد الذي يستطيع الانسحاب عبره. وهنا ظهروا عليه وقد بلغ أصعب جزء من الدرب، وأحاطوا به من كل جانب يريدون الأطباق عليه كالفخ.

فلما رأى براسيداس ما هم في سبيله أمر قواته الصفوة الثلاثمئة بالاندفاع بأقصى السرعة دون اعتبار للحفاظ على تشكيلهم ليبلغوا التل الذي ظن أنه الأيسر على الأخذ، ومحاولة طرد المحليين الذين كانوا يحتلونه قبل أن يصل إليه المزيد في حركة التطويق التي يقومون بها. فقامت مجموعة الثلاثمئة بمهاجمة المحليين والتغلب عليهم؛ فأصبح بمقدور الهيلينيين التقدم بشكل أسهل. وما إن رأى المحليون رجالهم يطردون عن الرابية حتى أصابهم الذعر فتوقفوا عن المطاردة، وهم يعتقدون أن الإغريق بلغوا الحدود وتمكنوا من

الهرب. اما براسيدس فإنه مضى في تقدمه، وقد أصبح على أرض مرتفعة، وهو بمزيد من الاطمئنان، وبلغ في اليوم ذاته أرنيسة، وهي أول موقع صادفه في مملكة بيرديكاس. وكان جنوده غاضبين من المقدونيين؛ لأنهم خذلوهم بانسحابهم، فراحوا وقد استلموا زمام الأمور بأيديهم يذبحون ما كانوا يصادفونه في طريقهم من قطعان الماشية، ويصادرون كل الأدوات التي تركت كما هو معتاد عند الانسحاب ليلاً تحت وطأة الذعر. ولهذا السبب أصبح بيرديكاس يعتبر براسيداس عدواً ويشعر بالضغينة تجاه البيلوبونيز ما يكاد لا يتفق وسياسته المناهضة للأثينيين. فأصبح يفترق الآن عن الاستطرادات اللازمة لهذه السياسة، وشرع يُعد للتخلص من البيلوبونيز بأسرع ما يمكنه بالوصول إلى اتفاق مع أثينا.

وحين رجع براسيداس من مقدونيا إلى تورون وجد الأثينيين قد استولوا على ميندة، ووجد أن من المستحيل عليه الآن دخول بالينة وإعادة توطيد موقعه هناك، فمكث في مكانه، وأخذ يرصد تورون رصداً دقيقاً. وكان الأثينيون قد خرجوا في الوقت الذي جرت فيه الحملة على لينكوس، وقد أتموا استعداداتهم التي سبق الإشارة إليها للهجوم على ميندة وسكيونة بخمسين سفينة، عشر منها مقدمة من خيوس وألف من المشاة الثقيلة من الموطنين وستمئة من الرماة وألف من المرتزقة التراقيين وبعض الرماة من حلفائهم في المنطقة. وكانت هذه القوة بقيادة نيسياس بن نيسيراتوس ونيكوستراتوس بن ديتريفيس. وقد انطلق هذا الأسطول من بوتيدايا ونزلت قواته مقابل معبد بوسيدون، ثم تقدموا نحو ميندة. وكان أهالي ميندة قد عززوا أنفسهم بثلاثمئة جندي من ميندة والبيلوبونيز هناك لمساعدتهم في أمورهم. وكان مجموع ما لديهم سبعمئة من المشاة الثقيلة بقيادة بوليداميداس الذي أقام معسكره في موقع قوي على رابية خارج المدينة. ولقد حاول نيسياس الوصول إليهم عبر ممر يصل بالرابية، ومعه مئة وعشرون من القوات الخفيفة من ميثونة، وستون رجلاً من المشاة الثقيلة الأثينيين وقوة كاملة من الرماة. لكنه

وجد نفسه، بعد أن مني بالخسائر، غير قادر على أخذ الموقع. ثم اقترب في تلك الأثناء نيكوستراتوس ومعه بقية القوات من الرابية من ناحية مختلفة ومن موقع بعيد. وكان صعود الرابية عسيراً وجنوده في اضطراب عظيم. والحق أن الجيش الأثيني كله بات قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة. ولذلك تراجع الأثينيون، وقد وجدوا أهالي ميندة وحلفاءهم لا يبدون ما ينم عن استسلامهم أمام الضغط، فانسحبوا وأقاموا معسكرهم هناك. فلما أرخى الليل سدوله عاد أهالي ميندة إلى داخل مدينتهم.

وفي اليوم التالي أبحر الأثينيون والتفوا إلى الطرف القريب من سكيونة، واستولوا في طريقهم على الضواحي، وأمضوا اليوم كله في أعمال التخريب والتدمير في أنحاء الريف. ولم يخرج يومئذ أحد لاعتراض طريقهم، بل لقد وقع بين الجمع انقسام في الرأي داخل المدينة. وفي تلك الليلة عاد الجنود الثلاثمئة السكيون إلى وطنهم. وفي اليوم التالي تقدم نيسياس ونصف جيشه إلى الحدود بين ميندة وسكيونه، وراحوا يعملون في الأرض خراباً وتدميراً. أما نيكوستراتوس فقد اتخذ والنصف الآخر من الجيش موقعاً قبالة المدينة وقريباً من الأبواب الشمالية على الطريق المؤدية إلى بوتيدايا. وعند هذه النقطة داخل الأسوار كانت تتراكم أسلحة المندائيين وحلفائهم البيلوبونيز. وفي هذا الحين أخذ بوليداميداس ينظم عناصره في تشكيل قتالي استعداداً للمعركة، ويبث فيهم الحمية للقيام بغارة. ولكن المندائيين كانوا قد انقسموا بين فئتين، فرد أحد أنصار الحزب الديمقراطي على بوليداميداس رداً قاسياً قائلاً إنهم لن يخرجوا للقتال ولا يريدون الحرب. فقام بوليداميداس بشد الرجل من ذراعه وراح يوسعه ضرباً، ومازال به حتى أوقعه على الأرض. فأثار هذا الفعل الناس فهموا بأسلحتهم وخرجوا لقتال البيلوبونيز والحزب المعارض المتواطئ معهم، فدحروهم في أول هجوم، ولعل هذا النصر كان في بعضه بسبب المفاجأة في الهجوم، وفي بعضه الآخر الخوف من فتح الأبواب أمام الأثينيين؛ لأنه كان من المعتقد أن هذا الهجوم جاء نتيجة تدبير مسبق معهم. فلجأ الذين نجوا من القتل

إلى الأكروبول المحتل منذ البداية. وفي هذا الوقت اندفع جيش الأثينيين - إذ كان نيسياس قد عاد وأصبح قريباً من المدينة - واقتحم الموقع فأصبح في داخل ميندة. وكانت الأبواب قد فتحت دون طرح شروط أو قبولها، فذهب الأثينيون ينهبون ويسلبون وكأنما أخذوا المدينة عنوة. والحق أن القادة واجهوا مشقة في رد جنودهم عن القيام بمجزرة بسكان المدينة. ثم قالوا لأهالي ميندة فيما بعد إن لهم أن يتابعوا حكمهم لأنفسهم كما كان شأنهم في الماضي، وطالبوا بمحاكمة من يعتبرونهم مسؤولين عن إشعال الثورة. ثم قاموا بحصار الحزب اللاجئ إلى الأكروبول ببناء أسوار ممتدة حتى البحر على الجانبين، وأقاموا على هذا الأسوار الحراس لخفارتها.

وحين تم للأثينيين الاستيلاء على ميندة التفتوا الآن إلى سكيونة. وهناك خرج عليهم أهالي سكيونة والبيلوبونيز، واتخذوا لأنفسهم موقعاً قوياً على التل مقابل المدينة. وكان لابد للعدو من أن يستولي على هذا التل إذا أراد بناء أسوار لإحكام الحصار حول المدينة. ولقد قام الأثينيون بهجوم جبهي مباشر على التل فدحروا القوات هناك وقاموا بطردها منه، ثم استعدوا لتشييد خطوط التطويق، بعد أن أقاموا معسكرهم والنصب التذكاري. ولم يمض إلا وقت قليل - وكانوا منهمكين في الإعداد لهذا الأمر- حتى شق الجنود المحاصرون في أكروبول ميندة طريقهم بين الحراس عند الشاطئ، ووصلوا سكيونة تحت جنح الظلام. وقد استطاع معظم هؤلاء التسلل بين جيش الحصار، ودخلوا المدينة.

وفيما كانت سكيونة تعاني على هذا النحو أرسل بيرديكاس إلى القائدين الأثينيين يفاوضهما، ثم ترسخ السلم بينه وبين أثينا. وكان السبب في ذلك ما حمله من الضغينة لبراسيداس بعد الانسحاب من لينكوس، فذهب بعدئذ يفاوض الأثينيين. وكان أسخاجوراس الإسبارطي يومئذ على وشك الزحف بجيش والانضمام إلى براسيداس، بينما ذهب بيرديكاس يعمل مع أصدقائه في ثيسالي - حيث كانت له على الدوام مع كبار رجالاتها علاقات طيبة- على وضع العقبات في طريق الحملة الإسبارطية، وهي لم

تكن قد اتصلت بالثيسال ولو مجرد اتصال، وكان مرد ذلك في بعضه إلى إلحاح نيسياس عليه، بعدما تم له نيل السلم من أثينا، وليقدم للأثينيين برهاناً على إمكان الاستفادة من خدماته، وفي بعضه الآخر رغبته في طرد البيلوبونيز من بلده. ومع ذلك فقد أفلح أسخاجوراس ومعه أميناس وأرسطيوس في الوصول إلى براسيداس. وكان الإسبارطيون قد أوفدوا هؤلاء للاطلاع على الأحوال هناك، فأتوا مصطحبين معهم بعض الشبان الصغار ليكونوا حكاماً على المدن – وهو أمر مغاير لما جرت عليه حكومتهم في التعيين–. لئلا يعين في هذه المناصب الرجال الموجودين في المكان، فولى براسيداس كليدياس بن كليونيموس على أمفيبوليس وباسيليتيداس بن هاجيساندر على تورون.

وفي الصيف ذاته هدم الطيبيون الأسوار التي بناها الثيسال واتهموهم بموالاة الأثينيين، وكانوا يسعون دائماً إلى تهديم تلك الأسوار وإيذاء الثيسال، فلما سنحت لهم الفرصة بسقوط زهرة شباب الثيسبيين في المعركة إلى جانب الأثينيين اغتنموها.

وفي ذلك الصيف أيضاً احترق معبد هيرا بآرجوس بسبب الإهمال من الكاهنة خريسيس بأن وضعت مشعلاً بالقرب من عقود الزهور ثم أغفت، ما سبب حريقاً أتى على كل ما في المعبد قبل أن تعي الكاهنة ما حدث. ثم فرت خريسيس في تلك الليلة إلى فليوس خشية غضب الأرجوس. فعين هؤلاء كاهنة أخرى حسب المألوف. وكانت هذه الكاهنة تعرف باسم فايئينيس. وكان قد مضى على تعيين خريسيس في الكهانة ليلة هربها ثماني سنوات من عمر الحرب ونصف التاسعة.

وبينما كان الصيف يقترب من نهايته تم بناء الأسوار لحصار سكيونة، وعاد الأثينيون للالتحاق ببقية الجيش، وتركوا هناك حامية لحراسة الأسوار.

وقد خلا الشتاء التالي من كل عمل عسكري بين أثينا وإسبارطة بسبب الهدنة. ولكن كان بين المانتينيين والتيجيين، والحلفاء في الطرفين، معركة عند لوديكيوم في ناحية أوريستيوم. وكان النصر في هذه المعركة غير محسوم؛ إذ استطاع كل طرف أن

بفضي على جناح للجيش الخصم، وأقام كل من الجيشين نصباً بهذه المناسبة وأرسلوا إلى دلفي بعض غنائم الحرب. وكان الطرفان قد منيا في هذه المعركة بخسائر فادحة حتى توقف القتال مع حلول الليل دون حسم. أما التيجيون فقد قضوا الليل في ساحة المعركة، حيث أقاموا نصبهم في التو، بينما تراجع المانتينيون إلى بوكليون، ثم أقاموا نصبهم في وقت لاحق.

وفي نهاية الشتاء، بل في بداية الربيع تحرك براسيداس من جديد وحاول الاستيلاء على بوتيدايا، فوصل في الليل ثم نصب سلماً لارتقاء السور قبل أن يكتشف أمره. وكان السلم قد وضع في اللحظات القلائل أثناء مرور الحارس لتفقد الجرس قبيل عودته إلى المحرس. غير أن الإنذار كان قد صدر مباشرة بعيد ذلك وقبل أن يتخذ الرجال مواقعهم، فأسرع براسيداس بالتراجع بجيشه دون انتظار قدوم الصباح. وهكذا انتهى الشتاء والسنة التاسعة من الحرب التي دون وقائعها ثوسيديديس.

الكتاب الخامس

الفصل الأول: موقعة أمفيبوليس، مصرع كليون وبراسيداس

في الصيف التالي كانت هدنة العام التي استمرت حتى مهرجان الألعاب البيثيانية قد انتهت. وكان الأثينيون قد قاموا والهدنة سارية بطرد الديليين من ديلوس، اعتقاداً منهم بأن دنساً قد لحق بهم لجريمة كانوا قد ارتكبوها في الماضي، ما جعلهم مدنسين أثناء تكريسهم لخدمة الآلهة، وأهملوا التخلص منه تماماً في طقس التطهر السابق، حين أزالوا قبور الأموات، كما سبق أن وصفت ذلك، واعتبروا أنهم بذلك قد أدوا شعائر التطهر على الوجه الصحيح. أما الديليون فقد أقطعهم فارناسيس بلدة أتراميتيوم في آسيا، فاستقروا فيها حالما وصلوا من ديلوس.

نال كليون ما يريده من الأثينيين، وبعد الهدنة أبحر مهاجماً المدن الواقعة في المنطقة التراقية وبرفقته ألف ومئتا محارب من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من الفرسان من أثينا، بالإضافة إلى قوة أكبر من الدول الحليفة، وثلاثون سفينة. وقد توجّه نحو سيكيون أولاً، التي كانت ماتزال محاصرة، وزاد في تعداد قواته بأن أخذ بعض المحاربين من المشاة الثقيلة من الجيش المرابط هناك. ثم هاجم ميناء كوفوس في منطقة تورون غير البعيد عن المدينة. وقد أعلمه الفارون من التجنيد بأن براسيداس غير موجود في تورون، وأن الموجودين داخل المكان لا قِبل لهم بمواجهته. لذلك انطلق بجيشه من كوفوس نحو المدينة، وأرسل عشر سفن لمهاجمة الميناء. وكان أول ما صادفه التحصينات التي أقامها براسيداس أمام المدينة بهدف ضم الضواحي المحيطة بها، وحيث كان قد هدم جزءاً من السور القديم، وبذلك يجعل الكل مدينة واحدة. ولقد تصدى القائد الإسبارطي باسيتيليداس والحامية التي معه للهجوم الأثيني وحاولوا ردّه. ولكنهم كانوا، على أية حال، في وضع صعب ففي الوقت الذي كانت فيه السفن الأثينية تهاجم الميناء، كان باسيتيليداس يخشى أن

تصل هذه السفن إلى المدينة وتجدها دون حماية، وإذا ما تمَّ الاستيلاء على التحصينات أيضاً، فسوف يقع في شرك يصعب الخروج منه؛ ولذلك تخلى عن التحصينات وأعاد قواته بسرعة إلى المدينة. ولكن قبل أن يصل إلى هناك، كان الأثينيون الذين في السفن قد استولوا على تورون، وأخذ جيشهم على البر يتعقبه ويشق طريقه بالقوة فوق الجزء المهدم من السور القديم. ولقد لقي بعض البيلوبونيز وأهالي تورون مصرعهم على الفور وتم أسر آخرين بما فيهم القائد باسيتيليداس. وفي غضون ذلك كان براسيداس متوجهاً لنجدة تورون، لكنه بينما كان في طريقه إليها تناهى إليه بأنه تم الاستيلاء على المكان فعاد أدراجه. وكان على بعد نحو أربعة أميال عن الوصول في الوقت المناسب. وبهذه المناسبة أقام كليون والأثينيون نصبين تذكاريين، أحدهما بجانب الميناء، والآخر قرب التحصينات؛ وجعلوا نساء وأطفال تورون أرقاء، أما رجال تورون والبيلوبونيز وأي خاليكيدوني صادفوه هناك فقد أرسلوهم إلى أثينا. لكن هؤلاء عادوا جميعاً إلى أوطانهم في وقت لاحق، حينما عقد البيلوبونيز الصلح مع الآخرين وتم تبادل الأسرى مع الأولينثيين.

وفي الوقت ذاته تقريباً استولى البويوط – نتيجة الخيانة– على حصن باناكتوم على تخوم أثينا. وبعد أن أقام كليون حامية في تورون، انطلق في حملة بحرية حول آثوس في طريقه إلى أمفيبوليس.

وفي الوقت ذاته أبحر فايكس بن إيراسيستراتوس، مع اثنين من زملائه على متن سفينتين بوصفه سفيراً من أثينا إلى إيطاليا وصقيلية. وكان السبب في هذا مايلي: حينما انسحب الأثينيون من صقيلية بعد الاتفاق العام، أدرج أهالي ليونتيني أسماء عدد من المواطنين الجدد. وكان الحزب الديمقراطي هناك يعتزم إعادة توزيع الأرض. فلما أدركت الطبقات الحاكمة هذا الأمر، طلبت العون من السيراكوز وأبعدت الديموقراطيين. فتشتت هؤلاء في طول البلاد وعرضها، فيما أعدت الطبقات الأكثر غنى ترتيباً مع

السيراكوز بأن يتخلوا عن مدينتهم، ويجردوها من وسائل الدفاع، ويقيموا في سيراكوزة، ويصبحوا مواطنين فيها. وفي وقت لاحق استاء بعضهم، فتركوا سيراكوزة واستولوا على منطقة تابعة لمدينة ليونتيني تعرف باسم فوكايا، كما استولوا على بريشينيا أيضاً، وهي موقع حصين في إقليم ليونتيني. وقد انضم إلى هؤلاء معظم الديموقراطيين الذين تمَّ نفيهم من قبل، وقاموا بمواصلة الحرب من هذه الأماكن الحصينة. وحالما تناهى هذا إلى أسماع الأثينيين أوفدوا فايكس ،وكان قصدهم من ذلك إقناع حلفائهم في المنطقة، وإذا ما أمكن، إقناع الصقليين الآخرين بالقيام بمجهود عسكري مشترك ضد سيراكوزة بسبب توقها الشديد إلى السلطة، وبالتالي إنقاذ ديمقراطيي ليونتيني. ولقد وصل فايكس إلى صقيلية واستمال أهالي كل من كامرينا وأجريجنتيوم إلى جانبه، ولكن الأمور سارت على غير ما يشتهي في جيلا، فلم يواصل رحلته إلى الدول الأخرى لإدراكه بأنه لن يفلح معهم. وبدلاً من ذلك عاد عبر بلاد الصيقيل إلى كاتانة، ومضى إلى بريشينيا، حيث شجّع حاميتها، ثم أبحر عائداً إلى أثينا. وفي طريق عودته مرَّ بصقيلية، ودخل في مفاوضات مع بعض المدن في إيطاليا بهدف ضمان علاقات صداقة مع أثينا، كذلك التقى بعض المستوطنين اللوكريين الذين كان قد تمَّ نفيهم من ميسينا، وأرسلوا كمستوطنين عقب الاستيطان العام في صقيلية حينما كان النزاع الحزبي دائراً في ميسينا. وكان أحد أطراف النزاع قد استدعى اللوكريين فخضعت ميسينا لفترة من الزمن لسيطرتهم . وحين التقاهم فايكس كانوا في طريق عودتهم إلى لوكري، فلم يقم بإيذائهم؛ لأنه كان في ذلك الحين قد توصل إلى اتفاق مع اللوكريين لإبرام معاهدة مع الأثينيين؛ ذلك أن اللوكريين كانوا الوحيدين من بين الحلفاء الذين لم يعقدوا صلحاً مع الأثينيين في فترة الاتفاق العام في صقيلية. وما كانوا ليعقدوا هذه الاتفاقية في هذا الوقت لو لم يكونوا في وضع حرج بسبب حربهم مع الهيبونيين والميدميين، الذين أقاموا على تخومهم، وكانوا مستوطنين لديهم. وبعد فترة وجيزة عاد

فايكس إلى أثينا.

أما كليون، فسوف يذكر بأنه كان يبحر حول الساحل من تورون إلى أمفيبوليس. وقد أقام لنفسه قاعدة في إيون .وبعد قيامه بشن هجوم فاشل على مستعمرة ستاجيروس الأندريانية، تمكن من احتلال جاليبسوس بهجوم عاصف، وهي مستعمرة تابعة لثاسوس. ثم أرسل ممثلين إلى بيرديكاس، حاثاً إياه على المجيء بجيشه لمعونته حسب شروط التحالف، كذلك أوفد مندوبين إلى تراقية وإلى بوليس ملك الأودومنتيين، الذي كان سيحضر ما يتيسر له من المرتزقة التراقيين. وقد بقي كليون في إيون هادئاً ينتظر وصولهم.

كان براسيداس على علم بهذا كله فاتخذ وضعاً دفاعياً في سيرديليوم. وهو مكان تابع للأرجيليين، يقع على أرض مرتفعة فوق النهر، لا تبعد عن أمفيبوليس، وله إطلالة جيدة على الجهات كافة، بحيث لا يمكن لأي حركة يقوم بها كليون وجيشه أن تفلت من الملاحظة. والحق أن براسيداس كان قد توقع بأن كليون سوف يزدري مجموع القوات المحتشدة ضده، ويقوم بالزحف على أمفيبوليس بالقوات التي لديه. وفي الوقت ذاته قام براسيداس باستعداداته؛ فاستخدم ألفاً وخمسمئة من المرتزقة التراقيين، ودعا الجيش الايدوني بأكمله من فرسان ورماة للانضمام إليه، كما كان لديه ألف من الرماة الميرسينيين والخاليكيد، إضافة إلى أولئك الذين في أمفيبوليس. وقد بلغ مجموع قواته من المشاة الثقيلة نحو ألفي رجل، وكان لديه ثلاثمئة من الفرسان الهيلينيين. احتفظ براسيداس بألف وخمسئمة رجل من هؤلاء معه في موقعه في سيرديليوم، وترك البقية لتتمركز في أمفيبوليس مع كليريداس.

ولفترة من الزمن بقي كليون هادئاً ولم يقم بأي حركة، إلا أنه اضطر أخيراً إلى القيام بما كان براسيداس يتوقعه؛ ذلك أن السكون وانعدام النشاط جعل الجنود يشعرون

بالسخط، واتجهت أفكارهم إلى المقارنة بين جرأة وبراعة براسيداس وضعف قائدهم وقلة كفاءته، والذي تذكروا أنهم كانوا كارهين للسير خلفه منذ أن غادروا موطنهم. كان كليون يعي هذا التذمر. ولما لم يكن راغباً في أن تفتر همة الجيش لطول بقائه في نفس الموقع، فقد قوض معسكره وتحرك إلى الأمام، وهو يشعر بالثقة بالنفس كما كان حاله في بيلوس؛ ذلك أن ما حققه من نجاح هناك أقنعه بتمتعه بالذكاء. ولم يكن يخطر بباله الآن بأن أحداً سيخرج لقتاله؛ بل إنه خارج - كما قال - ليستطلع الموقع وحسب، وأن سبب انتظاره التعزيزات لم يكن من أجل أن يكون له هامش من الأمن والسلامة إذا ما أجبر على خوض القتال، بل لكي يتمكن من محاصرة المدينة بأكملها ومهاجمتها والاستيلاء عليها. وهكذا فإنه تقدم إلى الأمام وتمركز بجيشه على تلة منيعة أمام أمفيبوليس. وتفحص بنفسه مستنقعات نهر الستريمون ووضع الأرض على الجانب التراقي من المدينة. وخيل إليه أن بإمكانه الانسحاب متى شاء دونما قتال؛ لأنه لم يشاهد أحداً فوق الأسوار، ولم يخرج إليه أحد من الأبواب التي كانت مغلقة كلها. والحق أنه كان من الخطأ عدم جلبه آلات الحصار معه، فلربما كان قد تمكن عندئذ من الاستيلاء على المدينة وهي بدون حماية.

وما إن شاهد براسيداس الجيش الأثيني يزحف، حتى نزل من سيرديليوم ودخل أمفيبوليس. وقام بترتيب جيشه لكنه لم يخرج من المدينة لمواجهة الأثينيين بسبب فقدانه الثقة بقواته وظنه أنهم أقل شأناً من الأثينيين، ليس من ناحية الكم - إذ كانا متساويين في العدد تقريباً -، بل من ناحية الكيف؛ ذلك أن الأثينيين في هذه الحملة كانوا قوات من الدرجة الأولى ومعهم أفضل المقاتلين من الليمنيين والأمبريين. ولذلك أعد براسيداس خطته للهجوم بطريقة مراوغة. وظن أنه إذا ما كشف للعدو أعداد قواته ومعداتهم الفظة التي تفي بالغرض تقريباً فسيكون احتمال تحقيق النصر أقل مما لو أبقاهم بعيداً عن الأنظار، وهذا سيحول بالتالي دون شعور أعدائه بازدراء يمكن تبريره تجاههم.

فاختار مئة وخمسين من المشاة الثقيلة، وترك البقية بقيادة كليريداس، وقرر القيام بهجوم مباغت قبل انسحاب الأثينيين. وقد كان يعتقد أنه – إذا جاءتهم التعزيزات– لن يحصل على فرصة مثل هذه للإمساك بهم بمفردهم. فجمع الجيش بأكمله وألقى الخطاب التالي لتشجيع الجنود من جهة، وليشرح لهم خطته من جهة أخرى:

"أيها البيلوبونيز، ليس ثمة حاجة لأن أقوم بأكثر من مجرد ذكر الحقائق بأننا ننتمي إلى بلد فيه الشجاعة تصون الحرية على الدوام، وأنكم أيها الدوريون ستقاتلون الأيونيين الذين اعتدتم على التغلب عليهم. ولسوف أبين لكم ما أرمي إليه من وراء خطة الحرب التي أعددتها، كيلا يشعر أحدكم بخوار العزيمة، لظنه بأننا سنكون في وضع ضعيف إذا ما قمنا بشن هجوم بجزء من جيشنا لا بجيشنا كله. والرأي عندي أن الأعداء بسبب من استخفافهم بنا، ولأنه لا يخطر لهم ببال أن يخرج لقتالهم أحد، قد صعدوا إلى هذا الموقع الذي يحتلونه ويجيلون النظر من حولهم باستخفاف. لكن النجاح سيكون من نصيب الرجل الذي تكون رؤيته للأمور أكثر صفاء حينما يرتكب العدو خطأ كهذا، والذي يستفيد من قواته على أكمل وجه؛ فلا يهاجم بطريقة واضحة ومألوفة، بل بأفضل طريقة تناسب الوضع القائم. وباتباع الطرق غير التقليدية هذه يفوز المرء بالمجد الأعظم؛ ذلك أنها تمكن من خداع العدو بشكل كامل، وتؤدي أعظم خدمة ممكنة لمستخدمها. ولذلك وفي هذه الفترة الحاسمة، وفيما هم لا يزالون مزهوين وغير مستعدين، وبينما هم يفكرون– بقدر ما أستطيع أن أرى– بالارتداد أكثر من الصمود في أماكنهم، في هذه اللحظة بالذات عندما يكونون في حالة استرخاء، وقبل أن يتوفر لهم الوقت ليعمل بعضهم مع بعض بانسجام، أقترح القيام بهجوم مباغت وسريع بقواتي الخاصة على قلب العدو للاستيلاء – إذا كان ذلك ممكناً– على مواقعهم على حين غرة. وبعد ذلك، يا كليريداس، حينما ترى أنني أقاتلهم وأثير الذعر في نفوسهم (كما هو مرجح)، عليك أن تأخذ قواتك، ومن بينهم الأمفيبوليتيين وبقية الحلفاء، وتفتح الأبواب فجأة،

وتهاجمهم وتشتبك معهم بأسرع وقت ممكن. ومن المرجح أننا بهذه الطريقة سوف ندخل الرعب إلى قلوبهم؛ ذلك أنه حينما تظهر قوة ثانية فيما بعد فإنها تحدث بين الأعداء ذعراً أكبر مما تحدثه القوة التي يحاربونها فعلاً في ذلك الوقت. عليك يا كليريداس أن تظهر المزايا التي يتوقعها المرء من ضابط إسبارطي. وأنتم أيها الحلفاء، عليكم أن تتبعوه بشجاعة. ولتتذكروا أن ما يجعل المرء جندياً جيداً استعداده للقتال، وإحساسه بالشرف، وانضباطه. وإذا ما برهنتم على رجولتكم، فإن هذا اليوم سوف يوفقكم إلى بلوغ حريتكم ولقب حلفاء إسبارطة. أما البديل فهو العبودية لأثينا. وهنا فإن أفضل ما يمكن أن تأملوا به هو ألا تحملوا بالقوة إلى سوق النخاسة أو أن تقتلوا. ومن ناحية أخرى سوف تكون عبوديتكم أقسى مما عرفتم في الماضي، ولسوف تعيقون تحرير بقية الهيلينيين أيضاً. وعلى العكس من ذلك، يجب عليكم ألا تستسلموا، وأن تدركوا مبلغ الخطر المحدق بكم. أما بالنسبة لي، فلسوف أبين بأنني لا أقدم النصيحة للآخرين فحسب، بل إنني قادر على ممارسة ما أعظ به أيضاً."

وبعد ذلك الخطاب قام براسيداس باستعداداته الخاصة من أجل الهجوم، ووضع بقية القوات مع كليريداس عند الأبواب التراقية، وهي متأهبة للهجوم، حسبما تم الاتفاق عليه.

وفي غضون ذلك كان الأثينيون قد شاهدوا براسيداس يهبط من سيرديليوم، وشاهدوه في المدينة التي بإمكانهم رؤية ما بداخلها من الخارج، وهو يقوم ببعض الترتيبات ويقدم القرابين قرب معبد أثينا. وكان كليون في هذا الوقت قد واصل تقدمه مستطلعاً الأرض، فتم إعلامه الآن بأن جيش العدو بأكمله يمكن أن يشاهد داخل المدينة وأن أقدام أعداد من الرجال والجياد كانت ظاهرة للعيان تحت الأبواب. مما يعطي الانطباع بأنهم سيخرجون ويهاجمون. ولدى سماعه هذا أسرع كليون إلى المكان، وشاهد ما عليه الوضع ولما كان غير راغب بالمجازفة بدخول معركة عامة حتى وصول تعزيزات، وخيل إليه

أنه سيتوفر له الوقت الكافي للانسحاب، فقد أصدر أوامره بالتراجع. ووجه الجيش للتقهقر باتجاه إيون، وأن يكون الجناح الأيسر في المقدمة. وفي الواقع أن تلك كانت الطريقة الوحيدة الممكنة للانسحاب. وبعد ذلك تولى قيادة الجناح الأيمن بنفسه. ولما كان يظن بأن لديه متسعاً من الوقت، فقد جعل جنوده يدورون دورة واسعة، ما ترك جانبهم غير المسلح مكشوفاً للعدو. وفي تلك اللحظة والجيش الأثيني يتحرك، رأى براسيداس أن الفرصة أصبحت سانحة له، فقال مخاطباً قواته الخاصة والآخرين: "إن هؤلاء لن يتمكنوا من مواجهتنا أبداً. وهذا واضح بما فيه الكفاية من ذلك التشابك للرؤوس والسهام. وحينما يبلغ الجند تلك الحالة فلا سبيل لهم إلى التمكن من مواجهة أي هجوم أبداً. فلتفتحوا الأبواب من أجلي كما أمرت، ولنهاجمهم بأسرع ما نستطيع. إن النصر لنا بلا ريب".

بعد ذلك خرج من بوابة السياج الخشبي ذي الأوتاد ثم من الباب الأول في السور الطويل، الذي كان موجوداً في ذلك الحين. وتقدم إلى الأمام بخط مستقيم على طول الطريق إلى حيث يقوم الآن النصب التذكاري، عندما يمر المرء بمحاذاة الجزء الأشد انحداراً من المدينة، وهاجم الأثينيين الذين كانوا في ذلك الوقت مذعورين من حالة الفوضى السائدة بينهم، فأفقدتهم أعماله الجريئة توازنهم. وهنا أنزل هزيمة منكرة بقلب القوات الأثينية، ثم قام كليرايداس بتنفيذ تعليماته، فهاجمهم من أبواب تراقية وتغلب عليهم أيضاً. وكانت النتيجة أن انتشر الهلع بين صفوف الأثينيين الذين تعرضوا لهجوم مباغت وغير متوقع من جهتين. أما جناحهم الأيسر الذي كان يتجه نحو إيون، وكان قد قطع بعض المسافة في طريقه، فانفرط عقده ولاذ جنده بالفرار. وما إن انهار هذا الجناح، حتى التفت براسيداس إلى الجناح الأيمن. وهنا أصيب بجراح، إلا أن الأثينيين لم يفطنوا إلى سقوطه، إذ حمله أولئك الذين كانوا يحيطون به، ونقلوه إلى خارج ميدان القتال.

أبدى الأثينيون على الفور المزيد من المقاومة. لكن كليون نفسه لم تكن لديه أي نية

في التشبث بأرضه؛ لذلك لاذ بالفرار فلحق به أحد الرماة الميرسينيين وأرداه قتيلاً. لكن المشاة الثقيلة رصوا صفوفهم وتمترسوا فوق تلة، وصدوا هجمتين أو ثلاثاً شنها كليريداس عليهم، ولم ينهاروا إلا في آخر الأمر حينما طوقهم الخيالة الميرسينيون والخاليكيد والرماة، الذين شتتوا صفوفهم بأسلحتهم التي رموهم بها من بعيد. وهكذا أضحى الجيش الأثيني بأكمله فاراً. ولقي العديد من جنوده مصرعهم في المعركة أو على يد الخيالة الخاليكيد والرماة، ولم ينج إلا الذين تمكنوا من الهرب بصعوبة عبر مسالك مختلفة فوق الجبال حتى وصلوا إلى إيون.

أما الذين رفعوا براسيداس بأمان وأخرجوه من ساحة المعركة. فقد أدخلوه إلى المدينة وقلبه مازال ينبض بالحياة. لكنه ما لبث أن توفي بعد أن بلغته أنباء انتصار جيشه. وعادت بقية القوات من المطاردة مع كليريداس، وجردوا جثث القتلى مما عليهم، وأقاموا نصباً تذكارياً بمناسبة انتصارهم.

شيعت القوات المتحالفة براسيداس في جنازة أقيمت على نفقة الحكومة أمام المكان الذي يشغله السوق الآن. وأقام أهالي أمفيبوليس سياجاً حول قبره، واعتادوا أن يقدموا له الأضاحي التي تقدم للأبطال، ويكرموه بإقامة الألعاب وتقديم القرابين له كل عام. ومنحوه لقب مؤسس مستوطنتهم، وهدموا كل الأبنية التي أقامها هاجنون، منزلين الخراب بكل ما قد يذكرهم بحقيقة أن هاجنون هو الذي أسسها. واعتبروا أن براسيداس حام لهم، وفي الوقت ذاته، وبسبب خوفهم من أثينا، كانوا تواقين جداً إلى أن ينضموا إلى الحلف الإسبارطي. ولما كان هاجنون يحارب إلى جانب أثينا فلم يعد بمقدورهم تكريمه وخصه بالمكاسب ذاتها كما كان حالهم في السابق، أو ايلاءه الثقة ذاتها.

كذلك فقد أعادوا للأثينيين قتلاهم، إذ سقط نحو ستمئة أثيني، بينما سقط سبعة فقط على الجانب الآخر، وكان هذا نتيجة أنه لم تكن هناك معركة محددة سوى ذلك

الأمر الرهيب غير المتوقع الذي كنت قد وصفته. وبعدما أخذ الأثينيون قتلاهم أبحروا عائدين إلى وطنهم، وبقي كليريداس مع جيشه لمعالجة شؤون أمفيبوليس.

وفي الوقت ذاته، وقرب نهاية الصيف، كان الإسبارطيون رامفياس وأوتوخاريداس وأبيسيديداس قد أحضروا تعزيزات مؤلفة من تسعمئة من المشاة الثقيلة إلى المدن في المنطقة التراقية. وحينما وصلوا إلى هيرقليا في تراخيس قاموا بإعادة تنظيم أمور شتى بدا لهم أنها تتطلب الاهتمام. وفيما كانوا يقضون وقتهم في هذه الأمور اندلعت معركة أمفيبوليس. وكانت هذه نهاية الصيف.

الفصل الثاني: نهاية السنة العاشرة من الحرب،

سلام نيسياس

في بدايات الشتاء، تقدم رامفياس وقواته إلى بيريوم في ثيسالي. لكن الثيسال لم يسمحوا لهم بأن يتقدموا إلى أبعد من ذلك؛ إذ إن براسيداس الذي كانوا يقدمون إليه تعزيزاتهم قد توفي؛ ولذلك قفلوا عائدين إلى بيوتهم، ظناً منهم بأن زمن القتال قد انقضى الآن نظراً لهزيمة الأثينيين الذين مضوا إلى حال سبيلهم، ولأنهم كانوا غير قادرين على تنفيذ ما كان براسيداس يبيته من خطط. لكن السبب الرئيس لعودتهم أنهم كانوا يعلمون حينما شرعوا في ذلك، أن الرأي الإسبارطي كان في الواقع يؤيد السلام.

وفي الحقيقة أن أياً من الطرفين لم يواصل الحرب بعد المعركة التي دارت في أمفيبوليس وانسحاب رامفياس من ثيسالي. بل شرعا عوضاً عن ذلك يفكران في كيفية تحقيق السلام. فالأثينيون كانوا قد تلقوا ضربة مؤلمة في ديليوم ومالبثوا أن تلقوا ضربة أخرى في أمفيبوليس، ولم يعودوا يملكون الثقة ذاتها في قوتهم التي زينت لهم في السابق أن يرفضوا عروض السلام، لظنهم بأن حسن طالعهم في ذلك الحين سوف يحقق لهم نصراً حاسماً. كما أنهم كانوا يتوجسون من الدول الحليفة لهم، مخافة أن تشجعهم هذه الهزائم على الثورات عليهم على نطاق أكثر خطورة، وندموا على عدم اقتناصهم الفرصة الممتازة التي أتيحت لهم لتحقيق السلام بعد معركة بيلوس. وكان الإسبارطيون من جانبهم قد وجدوا أن الحرب سارت على غير ما كانوا يتصورون حينما اعتقدوا أن بمقدورهم تدمير قوة أثينا في بضع سنوات عندما يجعلون أرضها يباباً. وكانت الكارثة التي حلّت بهم في الجزيرة أمراً لم تعرفه إسبارطة من قبل، وكانت أراضيها تتعرض لإغارات من بيلوس وسيثيرا، والأرقاء يهربون، وكان ثمة خوف دائم من أنه حتى أولئك الذين بقوا على ولائهم حتى الآن قد يكسبون ثقة الآخرين ويفيدون من

الوضع للقيام بثورة، كما فعلوا في الماضي. وصادف أيضاً أن هدنة الثلاثين عاماً بين إسبارطة وآرجوس كانت على وشك الانتهاء، وقد رفض الأرجوس أن يجددوها ما لم يتم إعادة سينوريا إليهم. وبدا من المستحيل عليهم أن يقاتلوا أثينا وآرجوس في وقت واحد. كذلك خامرهم الشك بأن بعض دول البيلوبونيز تعتزم تغيير ولائها والتحالف مع آرجوس، كما فعلوا حقاً.

وهكذا كان لدى الجانبين أسباب وجيهة لإقامة السلام، ولربما كان الإسبارطيون يفوقونهم رغبة فيه؛ ذلك أنهم كانوا يتوقون بشدة إلى استرداد الرجال الذين أسروا في الجزيرة. وكان من بينهم إسبارطيون من طبقة الضباط، وهم أشخاص ذوو شأن ويتصل نسبهم بأعضاء في الحكومة. ولقد شرعت إسبارطة في التفاوض بشأنهم بعد أسرهم مباشرة، لكن الأثينيين كانوا في ذلك الحين يبلون بلاء حسناً حتى إنهم لم يصغوا إلى أي اقتراح معقول. ولكن بعد هزيمتهم في ديليوم، أدرك الإسبارطيون بأن الأثينيين سوف يكونون الآن أكثر ميلاً إلى التوصل إلى تفاهم، فعمدوا على الفور إلى عقد هدنة لعام واحد، وكانت تتضمن وجوب عقد اجتماعات للبحث في إمكانية تمديد هذه الفترة. وكانت أثينا قد عانت الآن هزيمة أخرى في أمفيبوليس، وكليون وبراسيداس قد لقيا مصرعهما وهما اللذان كانا أشد المعارضين للسلام بين الجانبين، أما براسيداس فلأن الحرب هي التي جعلته ينال النجاح والمجد، وأما كليون فلاعتقاده بأن الناس أثناء السلم والهدوء سوف يتنبهون على الأرجح إلى أعماله الشريرة، ومن المستبعد أن يصدقوا افتراءه على الآخرين. ولقد حلّت اللحظة المناسبة آنذاك حينما تم بذل جهود أكبر لضمان السلام على يد رجلي الدولة اللذين كانا يتمتعان بالمكانة التي تؤهلهما لممارسة أكبر تأثير في كل من المدينتين، الملك الإسبارطي بليستوناكس بن باوسانياس، والقائد الأثيني نيسياس بن نيسيراتوس، الذي نهض بأعباء مناصبه القيادية العسكرية على نحو أفضل من أي قائد آخر في عصره. وهكذا بينما كان مازال مبجلاً وسوء الطالع لم يمسه

بعد، أراد نيسياس الآن أن يرتكز على أمجاده، ليحرر نفسه ومواطنيه من التعب والعناء، وليخلف وراءه اسماً لرجل كانت خدماته للدولة ناجحة من البداية إلى النهاية. واعتقد أن هذه الأهداف سوف تتحقق بتجنب جميع الأخطار وتقليل الاعتماد على الحظ قدر الإمكان، وأن السلام هو السبيل الوحيد لتجنب الأخطار. وفيما يتصل ببليستوناكس، فقد كان يتعرض للهجوم من أعدائه لأمر يتعلق بإعادته إلى العرش؛ فكلما حصل أمر سيء، أوردوا اسمه في محاولة منهم لإقناع الإسبارطيين بأن ما حصل إنما مرده عودته غير الشرعية إلى العرش. وكانت التهمة الموجهة إليه أنه وأخاه أرستوكليس قد قدما رشوه إلى الكاهنة في دلفي لتقدم نبوءات إلى الوفود الإسبارطية التي تأتي في زيارات رسمية مختلفة، وتأمرهم بأن يعيدوا ذرية نصف الإله ابن زيوس إلى بلاده من الخارج، وإلا فسوف يتعين عليهم أن يحرثوا الأرض بشفرة محراث من الفضة. وكان قد نفي؛ لأنهم افترضوا أنه تلقى رشوة للانسحاب من أتيكا، ودفعه خوفه من الإسبارطيين إلى أن يبني نصف بيته داخل أراضي معبد زيوس. وهكذا تمكن أخيراً، حسب قول متهميه، من إقناع الإسبارطيين في السنة التاسعة عشرة على نفيه إلى ليكايوم أن يعيدوه بالرقصات والنذور ذاتها التي اعتادوا على تقديمها لملوكهم منذ تأسيس إسبارطة. ومن الطبيعي أن تزعجه تلك الاتهامات، وظن أنه في أوقات السلم لا تقع الكوارث، وأنه حالما يسترد الإسبارطيون أسراهم، لن يكون لدى أعدائه الأساس الذي يستندون إليه في مهاجمته، في حين أنه أثناء الحرب، وعند كل محنة تعانيها البلد يتوجه اللوم بالضرورة إلى الذين يشغلون المناصب العليا. وهذا ما جعله يشتاق إلى التوصل إلى اتفاق مع الأثينيين.

تواصلت المباحثات طوال هذا الشتاء، وعندما اقترب الربيع كان ثمة تهديدات من إسبارطة باجتياح آخر. وصدرت الأوامر للمدن للاستعداد لبناء تحصينات دائمة في أتيكا. وهذا كله يجعل الأثينيين أكثر ميلاً لقبول الشروط المعروضة عليهم. وأثناء المباحثات قدم كل طرف إدعاءات مختلفة، وفي آخر المطاف تمَّ الاتفاق على أن السلام

يجب أن يتحقق على أساس إعادة كل فريق ما كان قد حصل عليه أثناء الحرب واعدا أن تحتفظ أثينا بنيسايا. - حينما أعلنت أثينا رسمياً حقها في المطالبة ببلاطية، ردَّ الطيبيون بأنهم لم يستولوا على المكان بالقوة، بل سيطروا عليه نتيجة اتفاق مع المواطنين تم التوصل إليه دون ضغط أو غدر. فأشار الأثينيون إلى أن هذا يصدق أيضاً على احتلالهم لنيسايا - وما إن تم التوصل إلى هذه النقطة حتى دعا الإسبارطيون حلفاءهم إلى اجتماع، فصوتوا جميعاً لصالح السلام باستثناء البويوط والكورنث والإيليين والميجار، الذين كانوا معارضين لما يجري وتم بعدئذ عقد معاهدة بين أثينا وإسبارطة، وأقسم كل منهما على مراعاة الشروط التالية:

أبرم الأثينيون والإسبارطيون وحلفاء كل منهما معاهدة وأقسموا عليها، مدينة تلو مدينة، كما يلي:

١- فيما يتصل بالمعابد الموجودة في الدول، فإن كل من يرغب، بحسب مألوف العادة في بلده، بتقديم النذور فيها، أو السفر إليها، أو استشارة العرافات، أو حضور الألعاب سوف يتم ضمان سلامته أثناء قيامه بذلك في البر أو البحر على حد سواء.

٢- وفي دلفي فإن الأرض المقدسة ومعبد أبولو وأهالي دلفي أنفسهم سوف يخضعون لقوانينهم الخاصة، وتقوم حكومتهم بتحديد قيمة الضرائب المفروضة عليهم، ويقوم قضاتهم بالحكم في قضاياهم، يستوي في ذلك الناس والأرض التابعة للدولة، وفقاً لما درجت عليه العادة في المكان.

٣- يسري مفعول المعاهدة بين الأثينيين، ومعهم حلفاؤهم، والإسبارطيين ومعهم حلفاؤهم، مدة خمسين عاماً دون خداع أو إيذاء في البر أو البحر.

٤- إن إشهار السلاح بقصد إلحاق الأذى لن يسمح به قانونياً، سواء قام به الإسبارطيون وحلفاؤهم ضد الأثينيين وحلفائهم، أو قام به الأثينيون وحلفاؤهم ضد

الإسبارطيين وحلفائهم، بأي طريقة أو وسيلة كانت.

٥- في حال نشوب أي نزاع بينهما، يتعين عليهما معالجته وفقاً للقانون والقسم، حسبما تم الاتفاق عليه بينهما.

٦- على الإسبارطيين وحلفائهم أن يعيدوا أمفيبوليس إلى الأثينيين.

٧- إذا ما أعاد الإسبارطيون إلى الأثينيين كافة المدن، فمن حق السكان أن يرحلوا إلى حيث يريدون مصطحبين معهم أملاكهم.

٨- يتعين على هذه المدن أن تدفع إتاوة يحددها أريستيديس، وأن تبقى مستقلة.

٩- إن استمرار هذه المدن في دفع الإتاوة، يجعل من غير القانوني قيام أثينا أو حلفائها بإشهار السلاح على هذه المدن، وذلك منذ أن يتم إبرام المعاهدة.

١٠- المدن المشار إليها هي: أرجيلوس، ستاجيروس، أكانثوس، سكولوس، أولينثوس، أسبارتولوس. ويتوجب على هذه المدن ألا تدخل في حلف مع أي من إسبارطة أو أثينا. ولكن إذا أقنع الأثينيون المدن بالقيام بذلك، فمن المسموح به قانونياً للأثينيين اتخاذهم حلفاء لهم، شريطة أن تكون تلك المدن راضية بذلك.

١١- سوف يقيم الميسيبيرنيون والسانيون والسينجيون في مدنهم، كما سوف يفعل الأولينثيون والأكانثيون.

١٢- سوف يعيد الإسبارطيون وحلفاؤهم باناكتيوم إلى الأثينيين.

١٣- سوف يعيد الأثينيون كلاً من كوريفاسيوم وسيثيرا، وميانا، وبتيليوم، وأتلانتا إلى الإسبارطيين. بالإضافة إلى جميع الإسبارطيين السجناء في أثينا أو في أي سجن آخر في الأراضي الخاضعة للسيادة الأثينية.

١٤- سوف يطلق الأثينيون سراح البيلوبونيز المحاصرين في سكيون وكل من في

سكيون من حلفاء إسبارطة، وأولئك الذين أرسلهم براسيداس إلى هناك، وأي سجناء آخرين في أثينا من حلفاء إسبارطة، أو في أي سجن آخر على الأراضي الخاضعة للسيادة الأثينية.

١٥- سوف يعيد الإسبارطيون وحلفاؤهم بالطريقة نفسها جميع الأثينيين أو حلفاء أثينا الذين تحت سيطرتهم.

١٦- فيما يتصل بسكيون وتورون وتيرميل وأي مدينة أخرى تحت سيطرة الأثينيين، فإن للأثينيين التصرف فيها بالطريقة التي يرونها مناسبة.

١٧- سوف يؤدي الأثينيون القسم للإسبارطيين وحلفائهم، المدينة تلو المدينة. وسيؤدي القسم سبعة عشر ممثلاً من كل طرف. وسيكون نص القسم كما يلي:

"سوف ألتزم ببنود هذه المعاهدة بصدق وإخلاص". وبالطريقة ذاتها سوف يقسم الإسبارطيون وحلفاؤهم للأثينيين. وسيقوم كلا الطرفين بتجديد هذا القسم سنوياً. وسوف تقام الأعمدة في أولمبيا، وأشموس (ممر كورنثة)، والأكروبول في أثينا، والمعبد في أميكلاي في اللاكديمون.

١٨- وإذا ما تمَّ إغفال أي نقطة تتصل بأي موضوع، فبالإمكان إدخال تعديلات، دون أي نقض للعهد، باتفاق مشترك بعد دراسة الأمر من الطرفين: الأثينيين والإسبارطيين.

"تصبح الاتفاقية سارية المفعول منذ اليوم السابع والعشرين من شهر أرتيميسيوم في إسبارطة، وبليستولاس يشغل منصب الإيفور؛ ومنذ اليوم الخامس والعشرين من شهر إيلافيبوليوم في أثينا وآلكايوس يشغل منصب الآرخون".

"إن الذين أدوا القسم وأراقوا الشراب على الأرض تكريماً للآلهة، كانوا ما يلي: عن الإسبارطيين: بليستوناكس، آجيس، بليستولاس، دماجيتوس، خيونيس، ميتاجينيس،

اكانثوس، ديثوس، إيساجوراس، فيلوخاريداس، زيوكسيداس، أنتيفوس، تيليز، الكينداداس، أمبيدياس، ميناس، لا فيلوس.

وعن الأثينيين: لامبون، أستونيكوس، نيسياس، لاخيس، أيوثيداموس، بروكليس، بيثودوروس، هاجنون، ميرتيلوس، ثراسيكليس، ثياجنيس، أرستوكراتيس، يولكيوس، تيموكراتيس، ليون، لاماخوس، ديموستينيس.

تم عقد هذه المعاهدة عند نهاية الشتاء وبداية الربيع، عقب احتفال المدينة بعيد ديونيسوس، بعد مرور عشرة أعوام وحسب – مع اختلاف بضعة أيام – على الاجتياح الأول لأتيكا وبداية هذه الحرب. وإن إجراء الحساب على الأساس الزمني الذي اعتمدته لهو أفضل من أن نركن إلى أي تقدير يستند إلى أسماء الحكام في الدول المختلفة، أو أولئك الذين شغلوا مناصب رفيعة، كما جرت العادة في تأريخ الأحداث في الماضي؛ لأن هذا المنهج لا يتسم بالدقة؛ ذلك أن حدثاً معيناً ربما يكون قد وقع عند بداية أو منتصف أو في أي وقت من فترة توليهم للمنصب، بينما بإجراء الحساب بوساطة فصول الصيف والشتاء – كما فعلت هنا – سوف نجد بأن كلاً منها يعادل نصف عام، وكان هناك عشرة فصول صيف وعشرة فصول شتاء في الحرب الأولى هذه.

وبنتيجة القرعة تقرر أن يبدأ الإسبارطيون بإعادة ما كانوا يحتفظون به، وعلى الفور قاموا بإطلاق سراح جميع أسرى الحرب لديهم. وأرسلوا ممثليهم إلى تراقية أسخاجوراس وميناس وفيلوخوريداس، ومعهم التعليمات لكليريداس بتسليم أمفيبوليس للأثينيين والأوامر للحلفاء الآخرين بقبول شروط المعاهدة كما تطبق على كل منهم. ولكن لما كانت هذه البنود لا تطابق هواهم، فقد رفضوا القيام بذلك. كما أن كليريداس الذي أراد أن يحافظ على علاقاته الطيبة مع الخاليكيد، رفض التخلي عن أمفيبوليس. وادّعى بأن من المستحيل القيام بذلك رغماً عن إرادتهم، وانطلق بسرعة إلى إسبارطة مصطحباً

معه ممثلين عن المدينة من أجل الدفاع عن نفسه تجاه أي اتهامات بالتمرد قد يوجهها إليه أسخاجوراس ولجنته، وليتحرى ما إذا كان بالإمكان تعديل المعاهدة. فلما وجد أن إسبارطة مقيدة بالاتفاقية عاد على الفور مزوداً بتعليمات بتسليم المكان، إذا أمكن، وإخراج جميع البيلوبونيز منه مهما يحدث.

ولقد صادف أن ممثلي الحلفاء كانوا موجودين آنذاك في إسبارطة، وألحَّ الإسبارطيون على الذين لم يوافقوا على المعاهدة بعدُ أن يقوموا بذلك الآن. لكنهم تمسكوا بالصيغة ذاتها التي اعتمدوها حين رفضوا الخطة في البداية، وقالوا إذا لم يتم تقديم معاهدة أكثر عدلاً وإنصافاً، فإنهم لن يقبلوا بهذه. فلما وجد الإسبارطيون أن حلفاءهم لا يستمعون إليهم، عمدوا إلى صرف ممثليهم وشرعوا بتشكيل حلف مع الأثينيين. وبعد تفويض كل من أمبيليداس وليخاس. وكانت آرجوس قد رفضت تجديد معاهدتها مع إسبارطة، ورأت إسبارطة الآن أنه إذا ما أمكن إقامة تحالف بين إسبارطة وأثينا، فإن آرجوس دون معونة من أثينا، لن تكون خطراً يهددها، وكذلك فإن بقية دول البيلوبونيز، الذين ربما قد ينضمون إلى أثينا، سوف يبقون الآن هادئين. فأجريت المباحثات مع الممثلين الأثينيين على الفور، وتم التوصل إلى اتفاق وتبادل العهود تصديقاً على قيام تحالف نص على ما يلي:

١- سوف تكون إسبارطة وأثينا حليفتين لمدة خمسين سنة، وفق شروط يتم وضعها.

٢- إذا تعرضت أراضي إسبارطة لأي غزو من العدو أو تعرض الإسبارطيون أنفسهم لعمل عدائي، يتعين على الأثينيين أن يسارعوا لنجدة إسبارطة بأنجع طريقة ممكنة، وبحسب إمكاناتهم. أما إذا ما تم للعدو أن يخرب البلد وينسحب قبل وصول النجدة، عندئذ سوف تعتبر تلك المدينة المعتدية في حالة حرب مع كل من إسبارطة وأثينا ولسوف ينزلان بها عقابهما. سوف يتحقق السلام على يد إسبارطة وأثينا معاً وفي وقت

واحد. وسيتم تطبيق هذه الشروط بصدق وحزم وإخلاص.

٣- إذا تعرضت أراضي أثينا لأي غزو من العدو أو تعرض الأثينيون أنفسهم لعمل عدائي، يتعين على الإسبارطيين أن يسارعوا لنجدة أثينا بأنجع طريقة ممكنة، وبحسب إمكاناتهم. أما إذا تم للعدو أن يخرب البلد وينسحب قبل وصول النجدة، عندئذ سوف تعتبر تلك المدينة المعتدية في حالة حرب مع كل من أثينا وإسبارطة ولسوف ينزلان بها عقابهما. وسوف يتحقق السلام على يد إسبارطة وأثينا معاً وفي وقت واحد. وسيتم تطبيق هذه الشروط بصدق وحزم وإخلاص.

٤- إذا ما أعلن الأرقاء العصيان، يتوجب على الأثينيين أن يسارعوا إلى مساعدة إسبارطة بكل مالديهم من قوة بحسب إمكاناتهم.

٥- سوف يؤدي القسم على هذه المعاهدة نفس الأشخاص الذين أدوا القسم على المعاهدة السابقة من كلا الطرفين. وسيتم تجديد القسم كل عام من جانب الإسبارطيين المتجهين إلى أثينا للاحتفال بعيد ديونيسوس، ومن جانب الأثينيين المتجهين إلى إسبارطة من أجل هيسينثيا، ولسوف يقيم كل فريق نصباً تذكارياً، ويكون النصب الذي في إسبارطة قرب تمثال أبولو في أميكليا، والذي في أثينا قرب تمثال أثينا على الأكروبول.

٦- إذا أراد الإسبارطيون والأثينيون إضافة أو حذف أي شيء من شروط هذا التحالف، فبإمكانهما القيام بذلك معاً وبصورة مشتركة ودون أي نقض لما أقسما عليه.

إن الذين قاموا بأداء القسم عن الإسبارطيين هم: بليستوناكس، آجيس، بليستولاس، دماجيتوس، خيونيس، ميتاجينيس، أكانثوس، ديثوس، إيساجوراس، فيلوخاريداس، زيوكسيداس، أنتيفوس، تيليز، ألكيناداس، أمبيدياس، ميناس، لافيلوس.

وعن الأثينيين هم:

لامبون، أستونيكوس، نيسياس، لاخيس، أيوثيداموس، بروكليس، بيثودوروس، هاجنون، ميرتيلوس، ثراسيكليس، ثياجنيس، ارستوكراتيس، يولكيوس، تيموكراتيس، ليون، لاماخوس، ديموستينيس.

وسرعان ما تم عقد التحالف بعد إبرام معاهدة السلام. وأعاد الأثينيون إلى الإسبارطيين الرجال الذين أسروهم على الجزيرة، وبدأ صيف السنة الحادية عشرة. وبهذا تكتمل رواية وقائع الحرب الأولى، التي استمرت دون انقطاع لعشر سنوات قبل هذا التاريخ.

الفصل الثالث : السنة الحادية عشرة،
المفاوضات مع آرجوس

بعد إبرام معاهدة السلام وعقد التحالف بين إسبارطة وأثينا في نهاية السنة العاشرة للحرب، حينما كان بليستولاس يشغل منصب الإيفور في إسبارطة وآلكايوس يتولى منصب الأرخون في أثينا، كان ثمة سلام لكنه كان يقتصر على المعنيين به ممن قبلوا بشروطه. لكن كورنثة ومدناً أخرى في البيلوبونيز كانت تحاول إفساد الاتفاق، فوجدت إسبارطة نفسها على الفور في مشكلة جدية مع حلفائها، بالإضافة إلى أن الإسبارطيين فقدوا بمرور الزمن ثقة الأثينيين بهم لإخفاقهم في تنفيذ بعض البنود التي تشتمل عليها المعاهدة. ومع أن كلاً منهما أحجم طوال ست سنوات وعشرة أشهر عن غزو أراضي الطرف الآخر، فإن الهدنة لم تكن قط سارية المفعول في الخارج كما ينبغي، وألحق كل طرف الكثير من الأذى بالطرف الآخر، إلى أن اضطرا أخيراً إلى نقض المعاهدة التي أبرماها بعد انقضاء السنوات العشر من الحرب، فأعلنا الحرب بينهما من جديد بصورة جلية لا لبس فيها.

ولقد دوَّن ثوسيديديس الأثيني نفسه تاريخ هذه الفترة أيضاً، ملتزماً بتسلسل الحوادث كما جرت أثناء فصول الصيف والشتاء، إلى أن جاء الوقت الذي وضع فيه الإسبارطيون وحلفاؤهم نهاية الإمبراطورية الأثينية، واحتلوا الأسوار الطويلة وبيرايوس. وبحلول ذلك الزمن تكون الحرب قد دامت على الجملة سبع وعشرون سنة. ولا ريب أنه سيكون من الخطأ في التقدير اعتبار فترة الاتفاق التي فصلت بين الحربين الأولى والثانية على أنها أي شيء آخر سوى فترة حرب. وما على المرء إلا أن يتفحص الحقائق بعناية ليجد أنه نادراً ما كان بالإمكان استخدام كلمة "سلام" لوصف وضع لم يقم فيه أي من الطرفين بالوفاء بالالتزامات التي تعهد بها. وبصرف النظر عن هذا كان ثمة انتهاكات

للمعاهدة من كلا الطرفين فيما يتصل بحرب المانتينيين والإبيداريين. وفي نواح أخرى أيضاً استمر الحلفاء في تراقية في أعمالهم العدائية كسابق عهدهم؛ وكان البويوطيون في حالة هدنة يجب تجديدها كل عشرة أيام. وهكذا إذا ما جمع المرء السنوات العشر الأولى للحرب، والهدنة غير المستقرة التي أعقبتها، والحرب اللاحقة، فإنه سوف يجد بحساب تعاقب فصول الصيف والشتاء، أن تقديري لعدد السنوات صحيح في حدود بضعة أيام. أما بالنسبة لأولئك الذين يثقون بالعرافات، فهاكم شاهداً وحيداً للبرهان على دقة تقديري؛ ذلك أنني شخصياً أذكر أن العديد من الأشخاص كانوا منذ بداية الحرب وحتى نهايتها ينشرون أقوالاً مفادها أن الحرب سوف تستمر لفترة تعادل تسع سنوات مكررة ثلاث مرات. ولقد عاصرتها كلها، وكنت في سن يسمح لي بفهم ما كان يحدث، وفكرت فيها ملياً لأكون رأياً دقيقاً عنها. واتفق أيضاً أنني كنت منفياً من بلادي مدة عشرين عاماً بعدما تسلمت القيادة في أمفيبوليس؛ فشاهدت ما كان يجري في كلا الجانبين، وبخاصة الجانب البيلوبونيزي، وقد وفّر لي وقت الفراغ هذا تسهيلات استثنائية تقريباً لأنعم النظر في الأمور. ولذلك سوف أواصل وصف النزاعات التي وقعت بعد حرب السنوات العشر، وانتهاك المعاهدة والحرب التي وقعت فيما بعد.

لما انتهت هدنة الخمسين عاماً ثم التحالف، عادت سفارات البيلوبونيز التي كان قد تم استدعاؤها لبحث هذه المسائل من إسبارطة. ورجع الجميع إلى مدنهم ما عدا الكورنث، الذين ذهبوا إلى آرجوس أولاً، ودخلوا في مفاوضات مع بعض أعضاء الحكومة هناك، زاعمين بأن إسبارطة التي لا تهتم بمصلحة البيلوبونيز، كانت تسعى إلى استعبادهم بإبرامها تلك المعاهدة والتحالف مع أثينا، التي كانت ذات يوم ألد أعدائها، وأن الوقت قد حان الآن لتفكر آرجوس ملياً في كيفية الحفاظ على البيلوبونيز. واقترحوا وجوب إقرار مرسوم بدعوة أي دولة هيلينية – شريطة أن تكون مستقلة وتتعامل مع الدول الأخرى على أساس الشرعية والمساواة – إلى أن تختار الدخول في حلف دفاعي مع آرجوس. ومن

اجل تحقيق هذا الهدف يتم تعيين بضعة أشخاص مزودين بسلطات خاصة. وهذا أفضل من أن يتم التفاوض عبر المجلس الشعبي، لكي يكون بالإمكان الحفاظ على السرية في حالات الذين ترد طلباتهم للدخول في التحالف. وذهبوا إلى القول إن الكثيرين سوف يرغبون بالانضمام بسبب كراهيتهم للإسبارطيين. وبعدما قدموا اقتراحاتهم تلك قفل هؤلاء الكورنث عائدين إلى وطنهم.

وفي آرجوس قام الأشخاص الذين اتصلوا بهم بإحالة الاقتراح إلى الحكومة والشعب، فاقر الأرجوس المرسوم ووقع اختيارهم على اثني عشر رجلاً خولوهم إجراء مفاوضات للدخول في تحالفات مع أي دولة هيلينية ترغب بذلك، باستثناء إسبارطة وأثينا، اللتين لن يتم قبول أي منهما ما لم تعرض مسألة انضمامهما أمام الشعب في آرجوس. أما السبب الرئيس وراء تبني الأرجوس لهذه السياسة، فهو اعتقادهم أن حربهم مع إسبارطة قادمة لا محالة، بعد أن أصبحت المعاهدة بينهما على وشك الانتهاء. كما كانوا يأملون بالفوز بزعامة البيلوبونيز؛ لأن سمعة إسبارطة في ذلك الوقت أصبحت في أدنى مستوياتها فعلاً. وكانت محتقرة بسبب الهزائم التي لحقت بها؛ فيما كانت آرجوس في سعة من العيش من كافة النواحي، ولم تكن طرفاً في حرب أتيكا. والواقع أنها قد أفادت كثيراً من موقف الحياد الذي اتخذته.

وإن هذا ما جعل الأرجوس مستعدين لاستقبال أي دولة هيلينية ترغب في الانضمام إلى حلفهم. وكان أول من انضم إليهم المانتينيون وحلفاؤهم، بسبب خوفهم من إسبارطة. إذ إنهم قاموا أثناء الحرب بين إسبارطة وأثينا بالتغلب على جزء كبير من أركاديا وإخضاعه لسلطتهم، وحسبوا أن إسبارطة وقد أصبح لديها الآن الوقت الكافي لتعالج المسائل الأخرى، لن تسمح لهم بالاحتفاظ بما فازوا به. ولذلك فرحوا لتمكنهم من التحول نحو آرجوس، التي كانوا يعتبرونها مدينة عظيمة، والعدو التقليدي لإسبارطة، علاوة على أنها ديموقراطية مثل مدينتهم. وما إن تخلت مانتينيا عن الحلف

الإسبارطي حتى نشأ اضطراب عظيم بين الدول الأخرى في البيلوبونيز، وأخذوا يتدارسون ما إذا كان من الأفضل لهم أن يحذوا حذوها. وعللوا تغيير مانتينيا لتحالفها بالافتراض أن لديها مصادر معلومات استثنائية، كما أنهم كانوا في الوقت ذاته حانقين وغاضبين من إسبارطة، وعلى الخصوص بسبب تلك المادة من المعاهدة مع أثينا التي تنص على أنه إذا ما أراد الإسبارطيون والأثينيون معاً إضافة أو حذف أي شيء من شروط الاتفاق، فإن ذلك لا يؤدي ضمناً إلى نقض العهد بينهما. لقد كانت هذه المادة هي المسؤولة في المقام الأول عن نشوء القلق والاضطراب في كافة أرجاء البيلوبونيز، وجعلت الدول يخامرها الشك بأن إسبارطة إنما تعتزم استعبادهم بمساعدة من أثينا. وأن عين الصواب – في رأيهم – ألا يتم إجراء أي تعديل على المعاهدة إلا بموافقة الحلفاء جميعاً. وهكذا كان ثمة شعور عام بالخطر، وأخذت الدول واحدة إثر أخرى بالتحرك باتجاه تشكيل تحالف مع آرجوس.

أدرك الإسبارطيون أن الاضطراب أخذ ينتشر في البيلوبونيز، وأن كورنثة هي التي بدأته، وأنها تنوي الانضمام إلى الحلف الأرجوسي. ولذلك أرسلوا سفراءهم إلى كورنثة بأمل الحيلولة دون حصول هذا. وقد احتج السفراء على الطريقة التي استهلت بها كورنثة المكيدة بأكملها، وقالوا: إذا كانت كورنثة ستتخلى عن إسبارطة وتنضم إلى آرجوس فإنها ستعتبر مذنبة بجرم نقض العهد الذي قطعته، وأنها الآن مخطئة برفضها الموافقة على المعاهدة مع أثينا؛ وحينها تم الإعلان بوضوح بأن تصويت غالبية الحلفاء يجب أن يكون ملزماً للجميع، ما لم يحل الآلهة أو الأبطال دون ذلك بأي وسيلة كانت. وكان في كورنثة في ذلك الوقت ممثلون عن أولئك الحلفاء الذين رفضوا قبول المعاهدة مع أثينا. والواقع أنه قد تم استدعاؤهم خصيصاً من قبل. وأمام هؤلاء الحلفاء رد الكورنث على الإسبارطيين. وبدلاً من أن يقوموا بعرض صريح للنقاط التي يعتبرون أنهم قد تلقوا فيها معاملة سيئة – مثل عدم استعادتهم سوليوم أو أناكتوريوم من أثينا، وحالات أخرى

اعتبروا أن مطالبهم فيها لم تتحقق - تذرعوا بعدم استطاعتهم خيانة حلفائهم في تراقية الذين - كما قالوا - قد تعاهدوا وإياهم على انفراد وأقسموا لهم بالوفاء بهذا العهد حينما ثارت بوتيدايا لأول مرة، ثم قدموا لهم ضمانات أخرى لاحقاً؛. وإذن فهم لم يقوموا بنقض العهد الذي قطعوه للحلفاء حينما لم يوافقوا على المعاهدة مع أثينا؛ ذلك أنهم قدموا ضمانات باسم الآلهة إلى أولئك الذين في تراقية، وخيانتهم لهم تعادل الحنث بالقسم، وأن ما جاء في العبارة "ما لم يحل الآلهة أو الأبطال دون ذلك" إنما تنطبق على وضعهم هنا الذي تحول الآلهة دونه.

ذلكم كان عرض الكورنث بشأن عهدهم السابق. أما فيما يتصل بالحلف الأرجوسي، فقد قالوا: إنهم سيبحثون المسألة مع أصدقائهم ويفعلون ما يرون أنه القرار المناسب. فعاد السفراء الإسبارطيون عندئذ، إلى ديارهم.

وكان في كورنثة في ذلك الوقت سفراء من آرجوس أيضاً، وقد حثوا الكورنث على الدخول في تحالف معهم دونما إبطاء. لكن الكورنث طلبوا منهم أن يكونوا حاضرين في اجتماعهم القادم.

وبعد ذلك بقليل وصلت سفارة من الأيليين، وعقدوا بادئ ذي بدء تحالفاً مع كورنثة، ثم مضوا بناء على التعليمات المعطاة لهم إلى آرجوس، وأصبحوا حلفاء للأرجوس. وكان هذا بسبب نزاع نشب بين إيليس وإسبارطة بشأن ليبريوم. وفحوى النزاع أنه في وقت ما في الماضي نشبت الحرب بين ليبريوم وبعض الأركاديين وقد استطاعت أن تنتصر عليهم حينما تحالفت مع الأيليين بأن وعدتهم بإعطائهم نصف أرضها. ولما وضعت الحرب أوزارها ترك الأيليون الأرض كلها لأهالي ليبريوم ليقوموا بزراعتها، على أن يدفعوا لهم أجرة مقدارها تالنت واحد من أجل زيوس الأوليمبي. وكانت هذه الأجرة تدفع باستمرار إلى حين اندلاع الحرب مع أثينا؛ إذ تذرع الليبريون

بالحرب وأوقفوا تأديتها، وحينما ضغط الأيليون عليهم، لجؤوا إلى إسبارطة. والقضية الآن بين يدي إسبارطة، لكن الأيليين ظناً منهم بأن من المستبعد أن يحصلوا على حقهم، رفضوا قبول التحكيم الإسبارطي وأنزلوا الخراب بأرض ليبريوم. إلا أن هذا لم يحل دون تقرير الإسبارطيين بأن ليبريوم دولة مستقلة وأن أيليس كانت البادئة بالعدوان. وعلى أساس عدم التزام أيليس بشروط التحكيم، أقاموا حامية من المشاة الثقيلة في ليبريوم. ومؤدى هذا بالنسبة للايليين أن إسبارطة قد تلقت ولاء دولة كانت ثائرة عليهم. وعلاوة على ذلك قدموا الاتفاق الذي كان ينص على أنه سوف يحتفظ الحلفاء بعد أن تنتهي حرب أتيكا بكل ما استولوا عليه عند بدايتها، وادعوا أنهم تلقوا معاملة جائرة ولذلك تحولوا إلى الأرجوس وتحالفوا معهم، كما سبق العرض.

ولقد انضم بعدهم مباشرة الكورنث والخاليكيد إلى الحلف الأرجوسي. وانتهج البويوط والميجار سياسة مشتركة ولم يقوموا بأي نقلة؛ ذلك أنهم لم يعانوا من التدخل الإسبارطي، ورأوا أن الحكومة الديموقراطية في آرجوس ستكون أقل ملاءمة لحكوماتهم الأرستقراطية مما عليه دستور إسبارطة.

وفي الوقت ذاته من هذا الصيف أخضع الأثينيون سكيون وقتلوا الرجال الذين كانوا في سن التجنيد، واستعبدوا النساء والأطفال، وقدموا الأرض للبلاطيين للإقامة فيها. كذلك أعادوا أهالي ديلوس إلى جزيرتهم من جديد . وهي خطوة أوحى بها سوء طالع الأثينيين في المعركة ونبوءة من الإله في دلفي معاً.

وفي الوقت ذاته أيضاً اندلعت الحرب بين الفوك واللوكر. وأصبح الكورنث والأرجوس الآن حلفاء، ومضى ممثلوهما إلى تيجيا في مسعى لحملها على الثورة على إسبارطة؛ ذلك أنهم أدركوا أهمية تيجيا، وخطر ببالهم أنها إذا ما وقفت إلى جانبهما فستكون البيلوبونيز بأكملها إلى جانبهما. لكن التيجيين ردوا بأنهم لن يقوموا بأي عمل مناهض

لإسبارطة، وهذا ما جعل الكورنث - الذين كانوا حتى هذه اللحظة يعملون بنشاط كبير- يغدون أقل اندفاعاً في هذه المسألة، لخشيتهم من أنه لن تنحاز إليهم الآن أي دولة من الدول الأخرى. ومع ذلك فقد طلبوا من البويوط أن يصبحوا حلفاء للكورنث والأرجوس وينتهجوا سياسة مشتركة معهم، كما طلبوا منهم أن يرافقوهم إلى أثينا ويتدبروا لهم أمر الحصول على هدنة من عشرة أيام مثل تلك التي تم عقدها بين الأثينيين والبويوط عقب معاهدة الخمسين عاماً. وحثوا البويوط على أن يعلنوا إنهاء الهدنة، إذا ما رفض الأثينيون القيام بذلك، وألا يعقدوا أي هدنة في المستقبل دون مشاركة كورنثة. تلكم كانت مطالب كورنثة. أما فيما يتصل بالحلف مع آرجوس، فقد رد البويوط بأن عليهم أن ينتظروا؛ لكنهم قاموا بمرافقة الكورنث إلى أثينا، إلا أنهم أخفقوا في الحصول على هدنة العشرة أيام؛ إذ إن الأثينيين بدلاً من تلبية مطالبهم ردوا بأن كورنثة باعتبارها حليفة لإسبارطة فإن لديها معاهدتها. ومع ذلك فإن البويوط لم يعلنوا رسمياً إنهاء هدنة الأيام العشرة الخاصة بهم، بالرغم من مناشدة كورنثة لهم واتهامها إياهم بأنهم أخلفوا ما وعدوا بالقيام به. وبالنسبة لكورنثة فإن الهدنة بينها وبين أثينا كان ينقصها التصديق عليها بالقسم.

في الصيف ذاته زحف الإسبارطيون بكامل قواتهم بقيادة ملكهم بليستوناكس بن باوسانياس نحو أركاديا لقتال الباراسيين وهم من رعايا مانتينيا. وكان أحد أحزابهم قد طلب العون من إسبارطة. وفي الوقت ذاته كان الإسبارطيون يودون- إذا أمكن- إنزال الخراب بحصن سيبسيلا في المنطقة الباراسية، الذي بناه المانتينيون وأقاموا فيه حامية عسكرية ما جعله يتحكم بمنطقة سكيرتيس في لاكونيا. ولقد أنزل الإسبارطيون الخراب بأرض الباراسيين، فترك المانتينيون مدنهم بأيدي حامية أرجوسية، واستخدموا قواتهم للدفاع عن أراضي حلفائهم. لكنهم عجزوا عن إنقاذ حصن سيبسيلا أو المدن الباراسية، فعادوا إلى بلدهم. كما عاد الإسبارطيون إلى وطنهم بعد أن دمروا الحصن وجعلوا

الباراسيين مستقلين.

وفي ذلك الصيف نفسه عاد الجنود الذين كانوا قد خرجوا إلى تراقية مع براسيداس إلى إسبارطة. وتمت إعادتهم على يد كليريداس بعد المعاهدة. وأصدر الإسبارطيون مرسوماً يقضي بمنح الأرقاء الذين حاربوا مع براسيداس حريتهم والسماح لهم بالعيش حيث يريدون. ومالبثوا أن قاموا بتوطينهم مع الأرقاء المحررين سابقاً في ليبريوم على الحدود بين لاكونيا وأيليس، إذ كانت إسبارطة في ذلك الحين على علاقات سيئة مع أيليس. أما أولئك الإسبارطيين الذين وقعوا في الأسر في الجزيرة وسلموا أسلحتهم، فقد كان يخشى أن يذهب بهم الظن بأنهم باتوا في وضع ضعيف بسبب ما وقع لهم، وأن يشعلوا ثورة إن احتفظوا بحقوقهم؛ فتمّ حرمانهم من حقوق المواطن، مع أن بعضهم كان يشغل في ذلك الحين مناصب هامة. والحرمان يعني منعهم من تولي أي منصب قيادي في الجيش، وعدم السماح لهم بالشراء أو البيع. لكن هذه الحقوق أعيدت لهم بعد حين. وفي الصيف نفسه استولى الديان على ثيسوس، وهي إحدى بلدات أكتي في آثوس، وكانت حليفة لأثينا.

وطوال هذا الصيف كان ثمة علاقات غير مقيدة بين الأثينيين والبيلوبونيز، لكن ما إن تم الاتفاق على المعاهدة حتى خامر الشك كلا الطرفين بسبب إخفاق كل منهما في إعادة الأماكن التي كان عليه إعادتها. فلقد كان على إسبارطة بنتيجة القرعة أن تبدأ بإعادة أمفيبوليس والأماكن الأخرى، لكنها لم تقم بذلك، كما لم تتمكن من إقناع حلفائها التراقيين أو البويوط أو الكورنث بالموافقة على المعاهدة. وكان الإسبارطيون يصرحون على الدوام بأنهم سوف يتعاونون مع الأثينيين لإجبار هؤلاء الحلفاء على قبول المعاهدة، إذا ما استمروا في رفضهم لها، وأنه بعد انقضاء المواعيد المقترحة سوف يتم اعتبار الذين ما يزالون رافضين للدخول في المعاهدة أعداء لكلا الطرفين، لكن لم يجر تسجيل أي شيء أبداً. وحينما رأى الأثينيون أن أياً من هذه الوعود لم يتحقق فعلاً، خامرهم

الشعور بوجود سوء نية من جانب إسبارطة؛ ولذلك لم يقوموا برفض مطالبها بعودة بيلوس إليها فحسب، بل إنهم أسفوا لتخليهم عن الذين تم أسرهم في الجزيرة، فاحتفظوا بالأماكن الأخرى، بانتظار أن تنفذ إسبارطة الجزء المترتب عليها من الاتفاق. ومن ناحية أخرى، فقد زعم الإسبارطيون أنهم بذلوا قصارى جهدهم؛ إذ أفرجوا عن جميع الأسرى الأثينيين الذين كانوا بحوزتهم، وسحبوا جنودهم من تراقية وقاموا بكل ما كان بمقدورهم القيام به. أما بالنسبة لأمفيبوليس، فقالوا: إنه ليست لديهم سيطرة كافية على المكان ليتمكنوا من تسليمه، لكنهم سوف يسعون إلى ضم البويوط والكورنث إلى المعاهدة، وإعادة بناكتيوم، والتأكد من إعادة جميع الأسرى الأثينيين في بويوطيا إلى وطنهم. وفي غضون ذلك ادعوا بأنه يجب إعادة بيلوس، أو على الأقل أن يتم سحب الميسينيين والأرقاء، مثلما فعلت إسبارطة حين سحبت قواتها من تراقية، وأن على الأثينيين أن يقوموا بحراسة المكان بأنفسهم إذا ما كانوا راغبين في حمايته. وبعدما تم عقد عدد من المؤتمرات والمناقشات المطولة خلال هذا الصيف، أفلح الإسبارطيون في إقناع الأثينيين بسحب الميسينيين من بيلوس، وبقية الأرقاء والفارين من التجنيد من لاكونيا. وقام الأثينيون بتوطين هؤلاء في كراني في سيفالينيا. وهكذا سادت في هذا الصيف حالة من السلم وعلاقات التعاون بين أثينا وإسبارطة.

في الشتاء التالي تغير أعضاء مجلس الإيفور في إسبارطة الذين تم إبرام المعاهدة أثناء وجودهم في المجلس. وكان بعض الأعضاء الجدد يعارض المعاهدة فعلاً. وقد وصل إلى إسبارطة سفارات من الحلف الإسبارطي، وممثلون من أثينا، وبويوطيا، وكورنثة. وبعد الكثير من المناقشات بينهم، لم يتوصلوا إلى أي اتفاق البتة. وبينما كان الوفود يجهزون أنفسهم لرحلة العودة إلى أوطانهم، قام عضوا مجلس الإيفور الجديد كليوبولوس وزيناريس – وكانا تواقين بشكل خاص إلى وضع نهاية للسلام – بالاتصال سراً بالبويوط والكورنث ونصحاهم بانتهاج سياسة مشتركة ما كان ذلك ممكناً، واقترحا على البويوط

أن يصبحوا بادىء ذي بدء حلفاء للأرجوس ثم يحاولوا أن ينضموا والأرجوس إلى الحلف الإسبارطي. وبهذه الطريقة – كما أشارا – يغدو من المستبعد أن يتم إكراه بويوطيا على قبول المعاهدة مع أثينا؛ ذلك أن إسبارطة تؤثر صداقة آرجوس والتحالف معها ولو كان ذلك يعني عداء أثينا وإنهاء المعاهدة. ومما لا ريب فيه أن البويوط كانوا يعلمون بأن إسبارطة كانت تواقة على الدوام إلى صداقة آرجوس بشروط منصفة ومشرفة، وبرأيها أن هذا سوف ييسر أمر مواصلة الحرب خارج البيلوبونيز. كما طلبا في الوقت ذاته من البويوطيين تسليمهم بناكتيوم لكي يبادلوها ببيلوس، إذا كان ذلك ممكناً، وبذلك يكونون في موقع أفضل لإعلان الحرب على أثينا.

انطلق البويوط والكورنث عائدين إلى أوطانهم حاملين معهم هذه الرسائل إلى حكومتيهما من زيناريس وكليوبوليس وأصدقائهم الآخرين في إسبارطة. وفي طريق العودة، التقاهم رجلان يشغلان منصبين هامين في حكومة آرجوس كانا بانتظارهم على الطريق. واقترح هذان الرجلان على البويوط أن يصبحوا حلفاء لآرجوس أيضاً، شأنهم في ذلك شأن الكورنث والايليين والمانتينيين، وقالا: إنه إذا أمكن القيام بذلك فلديهما الثقة بأن الحلف سيعمل كجسد واحد، وسوف يكون في موقع يجعل الحرب أو السلم رهن مشيئته سواء مع إسبارطة أم مع أي قوة أخرى. فابتهج السفراء البويوط بهذا الاقتراح؛ لأنهم وجدوا أنفسهم قد طلب منهم القيام بما اقترحه عليهم أصدقاؤهم في إسبارطة. ولما وجد الأرجوسيان أن اقتراحهما كان موضع ترحيب غادرا بعدما تعهدا بإرسال سفراء إلى بويوطيا. ولدى عودة الموفدين البويوط إلى بلدهم أبلغوا حكومتهم بما سمعوه من الإسبارطين والأرجوسيين اللذين التقوا بهما في طريق عودتهم. فسرت الحكومة بهذه الأنباء ودخلت في الخطة برغبة أكيدة؛ لأن أصدقاءهم في إسبارطة صادف أنهم كانوا يطلبون ذات الشيء الذي تطلبه آرجوس. ومالبث أن وصل ممثلون من آرجوس ومعهم الاقتراحات التي أوجزناها فيما سبق، وقامت الحكومة البويوطية بإعلان

موافقتها على مقترحاتهم، وأعادتهم إلى بلدهم ومعهم وعد بإرسال ممثلين عنها إلى آرجوس للتفاوض على التحالف.

وفي غضون ذلك استقر رأي قادة بويوطيا، والكورنث والميجار، وسفراء تراقية بادئ ذي بدء على تبادل العهود بينهم بنجدة بعضهم بعضاً ما اقتضى الأمر ذلك، وألا يشنوا حرباً أو يعقدوا سلماً بصورة منفردة. وبعد هذا، اقترح على البويوط والميجار، الذين كانوا يعملون معاً بانسجام أن يتحالفوا مع الأرجوس. ولكن قبل أن يتم تبادل العهود قام قادة بويوطيا برفع هذه المقترحات إلى مجالس بويوطيا الأربعة، التي كانت تشكل السلطة العليا في الدولة. وقد أوصى القادة بضرورة أن يتم تبادل العهود مع جميع المدن الراغبة بالانضمام إلى حلف دفاعي مع بويوطيا، إلا أن أعضاء المجالس رفضوا الموافقة على هذا لخشيتهم من الإتيان بأي عمل مناهض لإسبارطة بدخولهم في تحالف مع كورنثة، التي كانت قد تمردت على الاتحاد الإسبارطي؛ لأن قادة بويوطيا لم يعلموا المجالس بما جرى في إسبارطة ونصيحة كليوبولوس وزيناريس العضوين في مجلس الإيفور وأصدقائهم الآخرين بأن يصبحوا حلفاء لآرجوس وكورنثة أولاً ثم ينضموا لاحقاً إلى إسبارطة. وكانت وجهة نظرهم أنهم لو لم يقولوا شيئاً حول هذا كله، فإن المجالس سوف تصوت مع ذلك وفقاً لقرارات وتوصيات قادة بويوطيا. والآن بعد أن توقفت المسألة برمتها غادر الكورنث وسفراء تراقية دون أن يحققوا شيئاً. أما قادة بويوطيا الذين عزموا في وقت سابق على السعي لإقامة تحالف مع آرجوس، فقد تخلوا الآن عن فكرة طرح مسألة آرجوس أمام المجالس، ولم يقوموا بإرسال موفدين إلى آرجوس كما كانوا قد وعدوا. والحق أن الخطة بأكملها عانت الإهمال والتسويف.

وفي هذا الشتاء نفسه هاجم الأولينثيون ميسيبيرنا، وهي بلدة يتخذها الأثينيون موقعاً عسكرياً لهم، واستولوا عليها.

كانت المحادثات بين الأثينيين والإسبارطيين تدور طوال الوقت بشأن استرجاع الأماكن الذي كان كل طرف مايزال يحتفظ بها. وكان الإسبارطيون يأملون بأن يستعيدوا بيلوس إذا ما استعاد الأثينيون بناكتيوم من البويوط، ولذلك أرسلوا سفارة إلى بويوطيا تطلب وضع بناكتيوم والأسرى الأثينيين بين أيدي إسبارطة، كي يكون بالإمكان مبادلتهم ببيلوس. فرد البويوط بقولهم: إنهم لن يقوموا بذلك إلا إذا أقامت إسبارطة حلفاً منفرداً معهم مثلما فعلت مع أثينا. ولقد أدرك الإسبارطيون أن هذا المطلب يعني ضمناً نقضاً للعهد مع الأثينيين؛ لأن المعاهدة بينهما تنص على ضرورة ألا يقيم أي من الطرفين سلاماً أو يشن حرباً دون الطرف الآخر، ولكنهم كانوا، من ناحية أخرى يريدون الحصول على بناكتيوم ليقدموها للأثينيين بدلاً من بيلوس، وفي الوقت ذاته كان ثمة ضغط قوي يؤيد الاتفاق مع بويوطيا من الفريق الذي يريد أن يضع نهاية للسلام. وهكذا عند نهاية الشتاء أو بداية الربيع أقاموا حلفاً مع البويوط الذين شرعوا على الفور بتجريد تحصينات بناكتيوم من وسائل الدفاع وتفكيكها. وبهذا انتهت السنة الحادية عشرة من الحرب.

حليفة الأرخونس

بإسبارطة

وسائل الدفاع، وبلغ

الحلف

ظهروا. وشهدو

بوبوطيا وإسبرطة

والانضمام إلى

لم يعد بمقدورهم

السابق واثقين

الحلف الأثينيين، إلا

في وضع حرج وخطر

لأن يصبحوا قادة

وأثينا جميعاً

وقد وقع

مقبولين

الظروف

سلام

ات

املوه

صالح

يرغب

هم على

عارضته

هدفهم

كانت المحادثات بين الأثينيين والإسبارطيين تدور طوال الوقت بشأن استرجاع الأماكن الذي كان كل طرف مايزال يحتفظ بها. وكان الإسبارطيون يأملون بأن يستعيدوا بيلوس إذا ما استعاد الأثينيون بناكتيوم من البويوط، ولذلك أرسلوا سفارة إلى بويوطيا تطلب وضع بناكتيوم والأسرى الأثينيين بين أيدي إسبارطة، كي يكون بالإمكان مبادلتهم ببيلوس. فرد البويوط بقولهم: إنهم لن يقوموا بذلك إلا إذا أقامت إسبارطة حلفاً منفرداً معهم مثلما فعلت مع أثينا. ولقد أدرك الإسبارطيون أن هذا المطلب يعني ضمناً نقضاً للعهد مع الأثينيين؛ لأن المعاهدة بينهما تنص على ضرورة ألا يقيم أي من الطرفين سلاماً أو يشن حرباً دون الطرف الآخر، ولكنهم كانوا، من ناحية أخرى يريدون الحصول على بناكتيوم ليقدموها للأثنيين بدلاً من بيلوس، وفي الوقت ذاته كان ثمة ضغط قوي يؤيد الاتفاق مع بويوطيا من الفريق الذي يريد أن يضع نهاية للسلام. وهكذا عند نهاية الشتاء أو بداية الربيع أقاموا حلفاً مع البويوط الذين شرعوا على الفور بتجريد تحصينات بناكتيوم من وسائل الدفاع وتفكيكها. وبهذا انتهت السنة الحادية عشرة من الحرب.

الفصل الرابع: السنة الثانية عشرة من الحرب، أثينا تصبح حليفة لآرجوس

مع حلول الصيف التالي بدأ الأرجوس يشعرون بالخشية من أن يصبحوا في عزلة، وأن يغدو الحلف بأكمله إلى جانب إسبارطة. فالسفراء الذين وعد البويوط بإرسالهم لم يظهروا. وشهدوا تجريد بناكتيوم من وسائل الدفاع، وبلغ مسامعهم قيام حلف منفرد بين بويوطيا وإسبارطة. وذهبوا إلى الظن أن إسبارطة قد أقنعت البويوط بتخريب بناكتيوم والانضمام إلى المعاهدة مع أثينا، وبأن أثينا على علم بهذا كله. وفحوى هذا برأيهم أنه لم يعد بمقدورهم الآن حتى الاعتماد على إقامة تحالف مع أثينا، في حين أنهم كانوا في السابق واثقين بأنه مادامت أثينا وإسبارطة على خلاف فبإمكانهم على الدوام اللجوء إلى الحلف الأثينين، إذا ما انتهت معاهدتهم مع إسبارطة. وهكذا وجد الأرجوس أنفسهم في وضع حرج وخافوا أن يؤدي رفضهم حتى الآن تجديد المعاهدة مع إسبارطة وطموحهم لأن يصبحوا قادة البيلوبونيز، إلى أن يضطروا لخوض حرب مع إسبارطة وتيجيا وبيوطيا وأثينا جميعاً في وقت واحد. ولذلك أرسلوا موفديهم إلى إسبارطة بأسرع وقت ممكن. وقد وقع اختيارهم على أوستروفوس وإيسون اللذين بدا أنهما سيكونان على الأرجح مقبولين من الإسبارطيين، وكان لديهم إيمان راسخ بأن السبيل الأفضل لهم في ظل الظروف الحالية أن يتمكنوا من إقامة تحالف مع إسبارطة مهما كانت الشروط وأن يتركوا بسلام وهدوء.

حين وصل ممثلا آرجوس إلى إسبارطة بحثا مع الإسبارطيين الشروط لإبرام معاهدة. لكنهما أصرا قبل كل شيء على أن مسألة الأرض السينورية يجب أن تحل بالتحكيم وأن يكون المحكم مدينة أو شخصاً؛ إذ كان ثمة نزاعات مستمرة حول هذه المنطقة الواقعة على الحدود بين الدولتين، والتي تضم مدينتي ثيريا وانثينة ويحتلها الإسبارطيون. لكن

الإسبارطيين رفضوا حتى أن يبحثوا هذه النقطة، وقالوا : إنهم على استعداد - إذا ما وافقت آرجوس - للقبول وفق الشروط ذاتها التي نصت عليها المعاهدة السابقة. ومع ذلك أفلح الموفدان الأرجوسيان في نهاية المطاف في حمل الإسبارطيين على الموافقة على الترتيب التالي : سوف يتم إبرام معاهدة سلام لمدة خمسين عاماً في الوقت الحالي، لكن لكل طرف الحق - شريطة ألا يكون هناك طاعون أو حرب في إسبارطة أو آرجوس- في إرسال دعوة للنزال للطرف الآخر لتقرير مسألة الأرض المتنازع عليها بالحرب، كما حصل ذات مرة في الماضي حينما ادعى كل من الطرفين أنه انتصر، وكذلك ألا يسمح بأية مطاردة عبر حدود آرجوس أو إسبارطة. ولقد بدت هذه الفكرة للإسبارطيين في البداية أمراً سخيفاً، لكنهم كانوا يرغبون بإقامة علاقات ودية مع آرجوس بأي ثمن تقريباً، ولذلك وافقوا على اقتراحات الموفدين وقاموا بتحريرها كتابياً. وعلى كل حال، كان يجب أن يتم الالتزام بها قبل كل شيء، لذلك طلبوا من ممثلي الأرجوس العودة إلى مدينتهم وتقديم المقترحات إلى الشعب، فإذا ما وافقوا عليها، يجب عليهما القدوم إلى إسبارطة في عيد هيسينثيا وأخذ العهود وتبادل القسم على الالتزام بها. فعاد المبعوثان إلى وطنهما.

في غضون ذلك، وأثناء إجراء المفاوضات هذه مع الأرجوس، كان من المفترض أن يقوم أندروميديس وفيديموس وأنتيميداس الذين أوفدتهم إسبارطة إلى بويوطيا باستلام بناكتيوم والأسرى الأثينيين في بويوطيا لتتم إعادتهم إلى أثينا. وفيما يتصل ببناكتيوم فقد وجدوا أن البويوط تصرفوا وفق مصلحتهم الخاصة فدمروا الحصن متذرعين بأن ثمة نزاعاً كان حول هذا المكان في فترة ما في الماضي البعيد،. وكان الحل بأن تم تبادل العهود بين الشعبين بألا يقيم أي منهما أي بناء هناك، مع أن كلاً منهما له الحق في استخدامه كمرعى للماشية. أما أسرى الحرب الأثينيين لدى البويوط فقد تولى أندروميديس وزملاؤه أمر العناية بهم وإيصالهم إلى أثينا. وحينما أعادوا الأسرى أعلموا الأثينيين

بالدمار الذي لحق بحصن بناكتيوم. وأنهم يعتبرون هذا بمثابة إعادة المكان إليهم؛ لأنه لم يعد بإمكان أي قوة معادية لأثينا أن تستخدمه. لكن هذا الرأي أثار غضب الأثينيين الذين اعتبروا أن إسبارطة قد أظهرت سوء النية فيما يتصل بخراب بناكتيوم، التي كان يجب إعادتها إليهم سليمة دون أن يمسها الأذى، وبسبب ما عرفوه الآن من إقامة إسبارطة حلفاً منفرداً مع البويوط، بالرغم من جميع التعهدات السابقة بأن توحد إسبارطة وأثينا قوتهما لكي ترغما الدول الأخرى على قبول المعاهدة وهذا ما رفضت أن تقوم به حتى الآن. علاوة على ذلك، كان من الممكن أن يفكر الأثينيون بنقاط أخرى، لم يتم فيها الوفاء بالالتزامات المتفق عليها، وهذا ما جعلهم يرون أنه قد تم خداعهم، فردوا على الموفدين الإسبارطيين بقسوة قبل أن يصرفوهم.

وكان في أثينا أيضاً فريق لا يريد استمرار السلام، ولذلك ما إن اتخذت العلاقات بين أثينا وإسبارطة هذا المنحى السيء، حتى بدأ يُشعر الآخرين بوجوده فوراً. وكان زعيم هذه الجماعة ألسيبياديس بن كلينياس، وهو رجل مازال في مقتبل العمر – أو يظن أنه كذلك في أي مدينة أخرى في هيلاس–، لكنه كان يحتل منصباً خطيراً بفضل ما تتمتع به أسرته من احترام. وكان على قناعة حقيقية بأن أفضل ما تفعله أثينا هو أن تقيم تحالفاً مع آرجوس. وحقيقة الأمر أن الاعتبارات المتعلقة بكرامته هي التي أدت إلى معارضته السلام مع إسبارطة؛ إذ لم يكن راضياً عما حدث حين أجرى الإسبارطيون مفاوضات المعاهدة مع نيسياس ولاخيس، دون أن يعيروه أي اهتمام لصغر سنه. ولم يعاملوه بالاحترام الذي كان يعتبره حقاً له؛ لأن أسرته كانت فيما مضى ترعى مصالح الإسبارطيين في أثينا، وهي وظيفة كان جده قد تخلى عنها، لكنه كان شخصياً يرغب بتوليها من جديد، وقد أظهر ذلك بالعناية التي أولاها للسجناء الذين تم أسرهم على الجزيرة. ولذلك اعتبر أنه كان يتلقى في أي ناحية أقل مما يستحق، فأعلن معارضته للسلام منذ البداية، بقوله: إن الإسبارطيين لا يمكن الاعتماد عليهم، وإن هدفهم

الوحيد من هذه المعاهدة أن يتمكنوا بهذه الطريقة من سحق آرجوس أولاً، ثم عزل أثينا ومهاجمتها لاحقاً. وبعد أن توترت العلاقات، أرسل على الفور رسالة شخصية إلى الأرجوس يحثهم فيها على القدوم بأسرع وقت ممكن إلى أثينا ومعهم المانتينيين والأيليين ليعرضوا على الأثينيين التحالف معهم، فهذه هي اللحظة المناسبة للقيام بذلك، حسب قوله، وأنه سيفعل ما بوسعه لمساعدتهم.

حين تلقى الأرجوس هذه الرسالة، أدركوا الآن أن الأثينيين بعيدون كل البعد عن أن يكون لهم أي يد في التحالف مع بويوطيا، وأنهم في الحقيقة على علاقة سيئة جداً مع إسبارطة. وهذا ما دفع الأرجوس إلى عدم إرسال أي توجيهات إلى موفديهم الذين كانوا في إسبارطة للتفاوض على إبرام معاهدة، بل أخذوا بدلاً من ذلك يتطلعون الآن نحو أثينا، لاعتقادهم أنه إذا ما وضعت الحرب أوزارها، سوف يجدون فيها حليفة صداقتها ثابتة ومستمرة، علاوة على أنها ديموقراطية شقيقة لهم، وذات قوة بحرية عظيمة جداً. ولذلك أرسلوا على الفور موفدين إلى أثينا للتفاوض على التحالف، وبرفقتهم ممثلون عن إيليس ومانتينيا.

ولقد أرسل الإسبارطيون على جناح السرعة وفداً مفوضاً إلى أثينا يتألف من أشخاص لهم علاقات جيدة مع الأثينيين، هم فيلوخاريداس وليون وإنديوس. وكان السبب في مجيئهم خشية الإسبارطيين من أن تتحالف أثينا مع آرجوس لما ينتابها من غضب تجاه إسبارطة، كما أنهم كانوا يريدون المطالبة ببيلوس بدلاً من بناكتيوم، وأن يدافعوا عن سلوك إسبارطة فيما يتصل بقضية التحالف مع بويوطيا بالادعاء أن هذا التحالف لم يكن موجهاً ضد أثينا. وتحدث مندوبو إسبارطة أمام المجلس الاستشاري حول هذه النقاط، وأوضحوا أنهم يحملون تفويضاً تاماً بالتوصل إلى اتفاق حول جميع المسائل المتنازع عليها. وقد جعلت خطبتهم هذه ألسيبياديس يخشى أن يفوزوا برضى الناس إذا ما كرروها أمام مجلس المدينة وبالتالي يجابه التحالف مع الآرجوس بالرفض. ولذلك عمد

إلى استخدام الحيلة التالية ضدهم؛ إذا أقنع الإسبارطيين بأنهم إذا لم يذكروا التفويض الكامل المعطى لهم أمام مجلس المدينة، فإنه يتعهد لهم بإعادة بيلوس، بقوله : إنه بنفسه سيحمل الأثينيين على القبول بهذا، وإنه مثلما كان حتى الآن هو الذي يعارض ذلك؛ فإنه هو الذي سوف يتدبر تسوية هذا الأمر. وكانت خطته أن يضرب إسفيناً بين الإسبارطيين ونيسياس. وعن طريق مهاجمتهم في مجلس المدينة بعدم صدق النيّات وإظهار أنهم يتناقضون في أقوالهم كان ينوي أن يصل إلى إقرار التحالف مع آرجوس وإيليس ومانتينيا. وهذا ما حصل فعلاً. وذلك أنهم حينما تقدموا للتحدث أمام الناس، وأثناء إجابتهم عن أحد الأسئلة، قالوا عكس ما كانوا قد قالوه في المجلس الاستشاري - أي أنهم لم يأتوا بتفويض كامل - فعيل صبر الأثينيين منهم، وبدلاً من الإصغاء إليهم أصغوا إلى ألسيبياديس، الذي هاجم الإسبارطيين الآن هجوماً أشد من السابق. والحق أن الأثينيين كانوا على أتم الاستعداد لضم الأرجوس ومن جاؤوا معهم فوراً واتخاذهم حلفاء لهم. ولكن قبل أن تتم تسوية أي أمر بشكل نهائي وقعت هزة أرضية فانفض الاجتماع.

وفي الاجتماع الذي انعقد في اليوم التالي، كان نيسياس - بالرغم من أنه تعرض للتضليل كما تعرض الإسبارطيون للخديعة حينما لم يعترفوا بأن لديهم تفويضاً كاملاً - ما يزال يصر بأن من الأفضل للأثينيين أن يكونوا أصدقاء لإسبارطة. واقترح وجوب تأجيل المفاوضات مع آرجوس وإرسال موفدين إلى إسبارطة لاكتشاف ما تبيته من نيّات. وقال: إن تجنب الحرب سوف يرفع من مكانة أثينا وينال من مكانة إسبارطة، وإن كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لأثينا، ولذلك فإن المحافظة على هذا النجاح أطول فترة ممكنة هي أفضل سياسة ينتهجونها، بينما هي لإسبارطة بما تعانيه من مصاعب حالياً هبة من الآلهة لا ريب في أنها سوف تنجيها من الخطر قدر المستطاع. وعلى هذا النحو أقنع الأثينيين بإرسال وفد مفوض يضمه شخصياً، لإعلام الإسبارطيين أنهم إذا كانوا يضمرون حقاً مشاعر ودية، فعليهم إعادة بناكتيوم دون أن يمسها سوء، وإعادة أمفيبوليس وإعلان

تخليهم عن التحالف مع بويوطيا إلا إذا انضم هؤلاء إلى معاهدة السلام [illegible] مع شرط ألا يكون لأي من الجانبين الحق بعقد اتفاقيات منفردة. [illegible] التعليمات التي أعطيت للسفراء أن يقولوا : إن الأثينيين إذا ما أرادوا التنصل [illegible] مخالفة للقانون لكانوا قد أقاموا في ذلك الحين تحالفاً مع الأرجوس الموجودين في [illegible] لهذا الغاية بالذات. كما تم تزويدهم بتعليمات أخرى تتصل بشكاوى أخرى، [illegible] ذلك تم إرسال نيسياس ورفاقه إلى إسبارطة.

وحين وصلوا قالوا ما كانوا قد جاؤوا لقوله، ولفتوا الأنظار أخيراً إلى أنه إذا لم تتخل إسبارطة عن تحالفها مع بويوطيا – طالما ظل هؤلاء خارج معاهدة السلام – فإن أثينا سوف تدخل في تحالف مع آرجوس وأصدقائها. فرفض الإسبارطيون التخلي عن تحالفهم مع البويوط، وذلك بتأثير الفريق الذي يتزعمه الإيفور زيناريس وكل من يفكر مثله. لكنهم جددوا العهود بطلب من نيسياس الذي كان يخشى من العودة إلى وطنه دون أن يحقق شيئاً؛ لأن هذا سوف يعرضه للهجوم – كما جرى فعلاً – لاعتباره مسؤولاً عن إبرام المعاهدة مع الإسبارطيين.

ولدى عودته تناهى إلى مسامع الأثينيين أنه لم يتم الفوز بأي شيء من إسبارطة. وقد أدى هذا واعتقادهم بأنهم تلقوا معاملة جائرة إلى غضبهم وثورتهم. وكان الأرجوس وحلفاؤهم مايزالون في أثينا، فقدمهم ألسيبياديس إلى مجلس المدينة. وتم عقد حلف معهم وإبرام معاهدة وفقاً للشروط التالية: "إن الأثينيين، والأرجوس والمانتينيين والأيليين بالأصالة عن أنفسهم والحلفاء الذين تحت سيطرتهم، أقاموا معاهدة مدتها مئة عام دون خداع أو ضرر، براً وبحراً.

١– لن يكون قانونياً إشهار السلاح بهدف إلحاق الأذى سواء من جانب الأرجوس والإيليين والمانتينيين وحلفائهم ضد الأثينيين والحلفاء الذين تحت هيمنتهم، أو من جانب الأثينيين وحلفائهم ضد الأرجوس والأيليين والمانتينيين وحلفائهم، بأي طريقة أو

وسيلة كانت، ولسوف يستمر التحالف بين الأثينيين والأرجوس والايليين والمانتينيين مدة مئة عام وفق الشروط التالية:

٢- في حال تعرض أراضي أثينا لأي هجوم معاد، على الأرجوس والمانتينيين والإيليين أن يهبوا لنجدة أثينا حين يطلب الأثينيون منهم القيام بذلك، وبأنجع طريقة ممكنة، بحسب إمكاناتهم. أما إذا تمّ للعدو أن يخرب البلد وينسحب قبل وصول النجدة، فإن تلك المدينة - المعتدية - سوف تعتبر عندئذ في حالة حرب مع الأرجوس والمانتينيين والإيليين والأثينيين، وسوف يقومون جميعاً بمعاقبتها. ولا تقوم أي من هذه الدول بمفردها بعقد سلام معها، بل ينبغي أن يكون السلام بموافقة الدول المتحالفة كافة.

٣- وبنفس الطريقة يتعهد الأثينيون بنجدة الأرجوس والمانتينيين والإيليين عند تعرض أراضي هذه الدول لغزو الأعداء، وذلك بناء على طلب أي من هذه الدول، بأنجع طريقة ممكنة، وحسب إمكاناتهم. أما إذا تمّ للعدو أن يخرب البلد وينسحب، قبل وصول النجدة، فإن هذه المدينة - المعتدية - تعتبر في حالة حرب مع الأثينيين والأرجوس والمانتينيين والإيليين، وسوف يقومون جميعاً بمعاقبتها. وألا تعقد أي من هذه الدول سلاماً منفصلاً معها، بل ينبغي أن يحظى بموافقتهم جميعاً.

٤- تتعهد الدول المتحالفة بألا تسمح لأي جيش معادٍ أن يمر بأراضيها أو أراضي الدول المتحالفة معها الواقعة تحت سيطرتها. وألا تسمح كذلك بمرور أي قوة بحراً، إلا بعد أن يقرر الأثينيون والأرجوس والمانتينيون والإيليون بالتصويت والموافقة على ذلك.

٥- تتولى المدينة إطعام القوة التي أرسلتها لنجدة مدينة أخرى مدة ثلاثين يوماً تبدأ من تاريخ وصولهم إلى المدينة التي طلبت المؤازرة، كما توفر لهم المؤن على طريق العودة. أما إذا تجاوزت المهمة هذه المدة فعلى الدولة التي استدعتهم يقع عبء الإمداد والتموين بمعدل ثلاث أوبلات إيجينية - الأوبل مسكوكة فضية تعادل سدس الدراخما - يومياً

لجندي المشاة الثقيلة والرامي والمشاة الخفيفة، ودراخما إيجيني للفارس.

٦- تتولى الدولة التي تطلب القوات قيادة هذه القوات ما دامت الحرب تدور على أراضيها. أما إذا قررت الدول القيام بحملة مشتركة فإن القيادة تتوزع بالتساوي بين كافة الدول.

٧- يشترك الأثينيون وحلفاؤهم، كل عن نفسه، وحلفاء كل دولة في القسم على الوفاء بما نصت عليه المعاهدة، ويتم القسم بما هو الأكثر إجلالاً وإلزاماً في البلد الحليف، ويؤدى فوق أضحية مكتملة النمو ومهيأة لتكون قرباناً. والقسم هو على الشكل التالي:

أتعهد بالالتزام بهذا الحلف وبنوده، بما يقضي به العدل والنزاهة والإخلاص، وألا أنقضه أو أنكث عنه بأي شكل أو وسيلة.

٨- يؤدي القسم في أثينا المجلس الاستشاري والمشرفون على الإدارة في المدينة ويرعاه مجلس النواب. وفي آرجوس مجلس المدينة وهيئة الثمانين والنواب، وترعاه هيئة الثمانين، وفي مانتينيا النواب والمجلس الاستشاري والمشرفون على إدارة المدينة ويرعاه المجلس التشريعي والقيادة العامة، وفي إيليس النواب والمشرفون على إدارة المدينة ومجلس الستمئة ويرعاه النواب والمجلس التشريعي.

٩- يجب أن يقوم بتجديد القسم الأثينيون الذين عليهم الحضور إلى إيليس ومانتينيا وآرجوس قبل ثلاثين يوماً من الألعاب الأوليمبية. ويجدده الأرجوس والإيليون والمانتينيون الذين عليهم الحضور إلى أثينا قبل عشرة أيام من عيد الإغريق الكبير.

١٠- تدون بنود المعاهدة ونصوص المواثيق والقسم والتحالف بيد الأثينيين على نصب حجري يقام على الأكروبول، ويرفعه الأرجوس في السوق في معبد أبولو، والمانتينيون في معبد زيوس في السوق، وتدون في أوليمبيا على نصب نحاسي يشترك الجميع في إقامته أثناء الألعاب الأوليمبية التي اقترب موعدها.

١١- إذا ارتأت هذه المدن إضافة جديد إلى البنود التي تقدَّم ذكرها فإن القرار بذلك يتخذ بالإجماع بعد التشاور، ويكون ما تم الاتفاق عليه ملزماً للجميع.

وهكذا تمّ إبرام المعاهدة وأصبح الحلف ناجزاً، ومع ذلك فإن الاتفاقية بين أثينا وإسبارطة لم يتم إنهاؤها من أي طرف منهما، بسبب هذه المعاهدة الجديدة. ولم تنضم كورنثة إلى المعاهدة الجديدة، مع أنها حليفة لآرجوس، كذلك لم تنضم في الحقيقة إلى الحلف الهجومي والدفاعي الذي كان الإيليون والأرجوس والمانتينيون قد أقاموه قبل هذا. وكانت كورنثة قد أعلنت في ذلك الحين أنها راضية عن التحالف الأول، وهو تحالف دفاعي محض ويلزم الأطراف المتعاقدة بنجدة بعضها بعضاً، دون الاشتراك في شن الحرب ضد أي طرف. وهكذا اتخذت كورنثة موقفاً مستقلاً عن موقف حلفائها وعادت تنظر من جديد باتجاه إسبارطة.

في هذا الصيف تمّ الاحتفال بالألعاب الأوليمبية، وفيها فاز أندروستينيس الأركادي ببطولتي المصارعة والملاكمة لأول مرة. ومنع الإيليون الإسبارطيين من دخول المعبد، وبذلك حالوا دونهم وتقديم القربان أو المشاركة في المباريات. وكان سبب هذا امتناع الإسبارطيين عن دفع الغرامة التي فرضها عليهم الإيليون وفق القانون الأوليمبي، وحجتهم في ذلك هجوم الإسبارطيين على حصن فيركوس ودخول مشاتهم الثقيلة ليبريوم في فترة الهدنة المرافقة للألعاب الأوليمبية، وتبلغ الغرامة المفروضة بحكم القانون ألفي ميناي، بمقدار مينايين عن كل جندي. - الميناي تعادل مئة دراخما -. وقد أرسل الإسبارطيون سفارة من طرفهم للاحتجاج على هذا الحكم، زاعمين أن الهدنة لم تكن قد أعلنت في إسبارطة حين أرسلت جنودها. فردّ الإيليون أن الهدنة كانت معلنة ونافذة المفعول في إيليس حين دخل هؤلاء ليبريوم، - وكان الإيليون قد سبقوا الإسبارطيين إلى إعلان الهدنة فيما بينهم أولاً -، وكانوا بالتالي في حالة سلم، ولا يتوقعون هجوماً، فأخذهم الإسبارطيون على حين غرة. وكان رد الإسبارطيين أنه ليس من المنطق أن تعلن

الهدنة في إسبارطة، إذا كان الإيليون في ذلك الوقت يعتقدون عن حق بأن إسبارطة قد أخطأت التصرف، لكنهم بقيامهم بإعلان الهدنة فقد برهنوا على كذب ادعائهم؛ إذ بعد إعلان الهدنة لم تحصل أي هجمات أخرى على المنطقة الإيلية. ولقد أصر الإيليون على ادعائهم قائلين: إنه ما من حجة يمكن أن تحملهم على الاقتناع بأن إسبارطة بريئة من العدوان بعد تلك الفعلة، غير أنهم كانوا على استعداد للتنازل عن حقهم بالغرامة وتسديد ما للآلهة منها نيابةً عن إسبارطة، إن أعادت إليهم ليبريوم.

ولقد رفضت إسبارطة هذا العرض، فطرح الإيليون عندئذ اقتراحاً آخر لا ينص على إعادة ليبريوم، إذا كان الإسبارطيون لا يرضون بذلك، لكن عليهم أن يصعدوا إلى مذبح زيوس الأوليمبي، بما أنهم مشتاقون لدخول المعبد، ليقسموا أمام الهيلينين، ويقطعوا العهد بدفع الغرامة في موعد قادم.

ولما أعرض الإسبارطيون عن هذا الاقتراح أيضاً، تم ردهم دون المعبد، وعادوا ليقدموا القربان في بلدهم. فكان أن شارك الهيلينيون جميعهم في الألعاب ما عدا أهل ليبريوم. ولكن الإيليين ظلوا على كل حال يخشون أن يلجأ الإسبارطيون إلى استخدام القوة ليفرضوا مشاركتهم في تقديم القربان، فاستنفروا شبابهم بسلاحهم على سبيل الحيطة. وقد آزرهم في هذه المهمة ألف من الأرجوس ومثلهم من المانتينيين، وبعض الفرسان الأثينيين أيضاً. وكان هؤلاء ينتظرون بدء الاحتفال في هاربينا. ويذكر أنه قد ساد ذلك الاجتماع ضيق عظيم بعد شيوع قول إن الإسبارطيين عازمون على مداهمة الموقع بجيش، خاصةً بعد أن تعرض ليخاس بن أرسيسلاوس، وهو الإسبارطي، للخسارة على يد حكام المباريات. وتفصيل ذلك أن عربة وزوجاً من الأحصنة يملكها ليخاس هذا قد فازت في سباق، ولكن لما كان الرجل ممنوعاً من المشاركة في الألعاب فقد أعلن الحكام فوز البويوط . وما كان من ليخاس هذا إلا أن نزل إلى مضمار السباق وتوّج قائد العربة بما يشير إلى أنها عربته. وكان أن ازدادت خشية الناس أكثر من ذي قبل، وراحوا يتوقعون حدثاً جللاً

بعد هذه الواقعة. ولكن الإسبارطيين لم يأتوا مع ذلك بأي حركة، وتركوا الاحتفال يجري بسلام.

ذهب الأرجوس وحلفاؤهم بعد انتهاء الألعاب الأوليمبية إلى كورنثة ليسألوا أهلها الانضمام إلى حلفهم. وكان هناك سفارة من إسبارطة أيضاً. فدارت محادثات مطولة وانتهت دون طائل؛ إذ وقع زلزال في تلك الأثناء فعاد الجميع كل إلى مدينته. وهكذا انتهى الصيف.

وفي الشتاء التالي دارت معركة بين أهالي هيرقليا من أعمال تراخيس والإينيان والدولبيان والماليان وبعض الثيسال. وهؤلاء جميعاً قبائل تجاور هيرقليا وتناصبها العداء بسبب تهديد هذه المدينة الحصينة لمنطقتهم على وجه الخصوص. فقد قاومتها تلك القبائل منذ أن تأسست، ولم تنقطع عن أذيتها متى استطاعت، وفي هذه المعركة هزمت القبائل أهالي هيرقليا، وقتلوا منهم الكثيرين، ومنهم القائد الإسبارطي زيناريس بن كنيديس. وهكذا انتهى الشتاء وقد مضى معه العام الثاني عشر من الحرب.

الفصل الخامس: الحملات في البيلوبونيز،

إسبارطة تفوت فرصة

في بداية الصيف التالي استولى البويوط على مدينة هيرقليا، وهي في بؤس شديد بعد ما نالها من المعركة، وطردوا أجيسيبداس الإسبارطي لعدم كفاءته في الحكم. وكان السبب في توليهم مقاليد الأمور في البلد خوفهم من احتلال الأثينيين لها أثناء انشغال إسبارطة بمصاعبها في البيلوبونيز. ومع ذلك فقد انتاب إسبارطة الضيق من تصرف البويوط.

وفي ذلك الصيف أيضاً مضى ألسيبياديس بن كلينياس – الذي غدا الآن أحد القادة في أثينا، – إلى البيلوبونيز، يسانده الأرجوس والحلفاء، واصطحب معه قلة من المشاة الثقيلة والرماة الأثينية، وانتقى في طريقه بعض الأفواج من الحلفاء. وقد زحف وجيشه هذا عبر البيلوبونيز، ووضع ترتيبات خاصة تتصل بالتحالف، وأقنع أهل بتراي بمد أسوارها حتى البحر. كذلك كان قد عزم على بناء موقع حصين له بالقرب من رايوم الأخيانية، لولا أن حال دون ذلك قدوم قوات من كورنثة وسيكيون ومناطق أخرى كانت تتخوف من أن تتضرر في حال نجاح خطته.

وفي ذلك الصيف اندلعت الحرب بين إبيداروس وآرجوس، وكانت ذريعتها أن الإبيداريين امتنعوا عن تقديم الهبة عن مرعى البهائم التي من المفترض أن يقدموها لأبولو بثايوس. وكان الأرجوس هم أبرز القائمين على رعاية معبده. ولكن بعيداً عن أساس الدعوى هذه، كان هناك اتفاق بين ألسيبياديس والأرجوس على إبيداروس إن أمكنهم ذلك، لأسباب منها: تهدئة كورنثة، واختصار الطريق أمام وصول القوات الأثينية من إيجينا بدلاً من سلوك الرحلة الطولى حول سكيلايوم. وهكذا تهيأ الأرجوس لغزو إبيداروس لأخذ الهبة المفروضة عنوة.

وفي ذلك الوقت زحف الإسبارطيون بكامل قوتهم تحت إمرة ملكهم آجيس بن أرخيدموس على ليوكترا الواقعة على حدودهم مقابل جبل لكايوم. وقد سارت الحملة ولا أحد يعلم هدفها، حتى المدن التي أسهمت بأفواج من جندها. غير أن القرابين التي قدمت لتيسير عبور الحدود لم تبشر بالنجاح المرجو فعاد الإسبارطيون إلى وطنهم، بينما بعثوا يوجهون حلفاءهم للاستعداد للزحف في الشهر التالي، وهو شهر كارنيوس المقدس عند الدوريين.

ما أن انسحب الإسبارطيون، حتى خرج الأرجوس يزحفون في اليوم الرابع من نهاية الشهر السابق لكارنيوس. وقد ظل الأرجوس يعينون كل يوم بالرابع من نهاية الشهر مادامت حملتهم قائمة، ثم مضوا لغزو إبيداروس فأحالوها خراباً. ولما دعا الإبيداريون حلفاءهم لنجدتهم تذرع بعضهم بأن هذا شهر مقدس لا يقدرون على انتهاكه، بينما لم يقم البعض الآخر بأكثر من الاقتراب من الحدود والتوقف عندها.

وبينما كان الأرجوس في إبيداروس اجتمع ممثلون عن المدن بدعوة من أثينا في مانتينيا. وهناك قال يوفاميداس الكورنثي في النقاش الذي دار بين المؤتمرين أن ثمة تبايناً بين ما يسمعون وما هو جار فعلاً. فبينما هم جالسون يتحدثون عن السلم فإن الإبيداريين وحلفاءهم والأرجوس يقفون في مواجهة بعضهم بعضاً في ساحة القتال. فالواجب يحتم عليهم بادىء ذي بدء أن يمضي مندوبون عن كل جانب إلى حيث يقف المحاربون ويتولون فض الاشتباك بين الجيشين، ثم يكون بعدئذ الحديث في السلم من جديد. وأقر المجتمعون هذا الاقتراح، ومضوا ليشرفوا على انسحاب الأرجوس من إبيداروس. وبعد أن تم هذا عاد المؤتمرون إلى مؤتمرهم من جديد، دون أن يمضوا في الاتفاق بينهم أكثر مما كان في اجتماعهم السابق. وعاد الأرجوس فغزوا إبيداروس مرة أخرى وعملوا في البلد خراباً ودماراً. ولقد خرج الإسبارطيون للزحف لكنهم توقفوا عند كارياي؛ لأن قرابينهم لم تبشر بالنجاح هذه المرة أيضاً، فلم يتجاوزوا الحدود، وقفلوا

عائدين من حيث أتوا. وقام الأرجوس بتدمير ثلث أرض إبيداروس، ثم عادوا إلى بلدهم وكان ألف من المشاة الثقيلة الأثينيين قد قدموا بقيادة ألسيبياديس لمؤازرة الأرجوس، ولكنه انسحب حين وجد أن الحملة الإسبارطية انتهت ولم يعد ثمة حاجة لرجاله. وهكذا انتهى هذا الصيف.

في الشتاء التالي أفلت الإسبارطيون من الحصار الذي فرضه الأثينيون فأرسلوا إلى إبيداروس عن طريق البحر حامية من ثلاثمئة رجل على رأسهم أجيسيبيداس. فذهب الأرجوس وشكوا للأثينيين سماحهم بهذه التحركات عن طريق البحر، باعتبارها تشكل انتهاكاً لنصوص المعاهدة التي نصت على ألا يسمح أي طرف فيها لعدو بالمرور عبر أراضيه. وأعلنوا أنه يعتبرون عمل الأثينيين إجحافاً بحقهم إلا إذا وضعوا في بيلوس قوة من الميسينيين والأرقاء لقتال الإسبارطيين. وقد أقنع ألسيبياديس الأثينيين بأن يضيفوا إلى النص على العمود اللاكوني العبارة التالية: "لم يحافظ الإسبارطيون على قسمهم" ويرسلوا الأرقاء من كراني إلى بيلوس للإغارة على المنطقة. ولم يقم هؤلاء بأي عمل آخر غير ما سلف ذكره.

استمر القتال في هذا الشتاء بين الأرجوس والإبيداريين. ولكن هذا القتال خلا من كل معركة حاسمة، إنما حفل بالكمائن والغارات التي سقط فيها عدد من الضحايا، مرة على هذا الجانب ومرة على الجانب الآخر. ولما أشرف الشتاء على نهايته واقترب الربيع حمل الأرجوس السلالم إلى إبيداروس يراودهم الأمل بأن يجدوها بلا حماية بسبب الحرب الدائرة فيأخذوها عنوة، ولكن ما حدث هو أنهم عادوا أدراجهم من حيث أتوا دون أن يحالفهم النجاح. وهكذا انتهى الشتاء ومعه السنة الثالثة عشرة من الحرب.

وفي منتصف الصيف التالي، حينما وجد الإسبارطيون أن حلفاؤهم الإبيداريين في ضيق وبعض الدول في بلاد البيلوبونيز قد ثارت بينما انقلبت دول أخرى على إسبارطة،

خلصوا إلى الرأي بأن الأذى سوف ينتشر ويعم ما لم يأخذوا زمام الأمور بأيديهم فوراً. فلما بلغوا هذا القرار بدأوا زحفهم على آرجوس بكل جيشهم، بما فيهم الأرقاء. وكان على رأس هذا الزحف الملك آجيس بن أرخيداموس الإسبارطي. وسار في هذا الركب التيجيون وحلفاء آخرون لإسبارطة في أركاديا. وفي فليوس اجتمع الحلفاء من بقية أجزاء البيلوبونيز ومن خارجها. ومن بويوطيا جاء خمسة آلاف من المشاة الثقيلة، ومثلهم من المشاة الخفيفة، وخمسمئة من الفرسان، وخمسمئة من القوات الراجلة المدربين على التعاون مع الخيالة في القتال. ومن كورنثة ألفان من المشاة الثقيلة. وأما بقية الدول فقد زجت بمختلف صنوف الأفواج، علماً بأن الفلياس الذين أقام الجيش قواعده في بلادهم قد زجوا في هذه الحملة بكل ما لديهم من القوات.

وكان الأرجوس قد علموا منذ البداية بالاستعدادات التي يقوم بها الإسبارطيون، فانتظروا حتى تحركوا نحو فليوس لينضموا إلى بقية حلفائهم، ثم خرجوا بدورهم. وقد آزرهم المانتينيون وحلفاؤهم وثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة من إيليس. وفي أثناء مسيرهم وقع اتصال بينهم وبين الإسبارطيين عند ميثدريوم بأركاديا، فاتخذ كل طرف مواقعه فوق تل، ولما وجد الأرجوس حينئذ الإسبارطيين معزولين عن بقية حلفائهم، استعدوا لقتالهم. ولكن آجيس أخلى معسكره أثناء الليل دون أن يلحظ الأرجوس تحركه ومضى إلى فليوس، حيث انضم إلى حلفائه الآخرين. فلما كان الفجر وتبين الأرجوس ما حدث ساروا إلى آرجوس أولاً ثم إلى الطريق النيمياني، وهو درب توقعوا أن ينزل إليه الإسبارطيون وحلفاؤهم من الجبال. ولكن آجيس لم يسلك هذا الدرب كما كان متوقعاً، وإنما وجّه الإسبارطيين والأركاديين والإبيداريين بالمسير، واتخذ طريقاً آخر أصعب للنزول إلى سهل آرجوس. أما الكورنث والبيلينيون والفلياس فساروا على طريق آخر شديد الانحدار. وقد أمر البويوط والميجار والسيكيين بالنزول باتخاذ الطريق النيمياني، حيث يعسكر الأرجوس وأنيطت بهم مهمة مداهمة مؤخرة الأرجوس

بالخيالة، إن نزلوا إلى السهل لاعتراض آجيس وقواته. وبعد هذه الترتيبات توغل آجيس في السهل وشرع يعمل تخريباً وتدميراً في سامينثوس ومواقع أخرى.

غادر الأرجوس نيميا بعد أن أدركوا حقيقة ما حدث ومضوا للاشتباك مع آجيس. وكان ذلك في ضوء النهار. وفي طريقهم وقع احتكاك بينهم والفلياس والكورنث فقتلوا بعض الفلياس. بينما قتل عدد أكبر قليلاً منهم على يد الكورنث. وكان البويوط والميجار والسيكيون يتابعون زحفهم على نيميا وفق التعليمات التي يحملونها. وهنا وجدوا أن الأرجوس قد تخلوا عن مواقعهم، ونزلوا إلى السهل حين رأوا ممتلكاتهم تخرب، فاتخذوا وضع القتال، بينما أخذ الإسبارطيون يتهيؤون للاشتباك معهم. والواقع أن الأرجوس كانوا عندئذ مطوقين من كل جانب، فمن ناحية السهل كان الإسبارطيون ومن معهم من القوات يقطعون عليهم سبيل الاتصال بمدينتهم، بينما يهيمن عليهم من التلال الكورنث والبيلينيون والفلياس، ومن ناحية نيميا كان هناك البويوط والسيكيون والميجار. ثم إنهم كانوا يفتقرون للخيالة لتأخر الأثينيين عن الوصول دون كل حلفائهم.

وكان القسم الأعظم من جيش الأرجوس وحلفائهم لا يقدرون مبلغ خطورة موقفهم، ويعتقدون أنهم سوف يخوضون القتال في ظروف مواتية لهم على أفضل وجه، حيث الإسبارطيون قد قطعت بهم سبل الاتصال فهم في أراضي الأرجوس وبالقرب من مدينتهم: غير أنه كان ثمة رجلان بين الأرجوس – ثراسيلوس، وهو أحد القادة الخمسة، وألسيفرون الذي يمثل المصالح الإسبارطية في آرجوس– يحملان رأياً غير ذاك. وقد تقدم هذان الرجلان، بينما الجيشان على وشك الصدام، واجتمعا إلى آجيس واقترحا عليه ألا يبادر إلى المعركة، وكانت حجتهما في ذلك استعداد الأرجوس للقبول بحل يأتي به التحكيم العادل على أساس المساواة في أي شكوى من طرف إسبارطة منهم، وعقد معاهدة بينهما والعيش في سلام معاً في المستقبل. وكان الرجلان يعبران في هذا عن رأيهما الخاص تماماً دون تخويل من جموع الجيش. كذلك فإن آجيس قَبِل باقتراحهما

على مسؤوليته الخاصة، ولم يناقش الأمر مع الغالبية، وقد أولى شخصاً واحداً ثقته دون سواه بين كبار القادة الذين يخدمون معه. وقام عندئذ بعقد هدنة لأربعة أشهر يقوم خلالها الأرجوس بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه. ومضى من ثم فرحل بجيشه عن أرض المعركة دون أن يقدم تفسيراً لسلوكه لأي من حلفائه.

ولقد اتبع الإسبارطيون وحلفاؤهم أوامر القائد آجيس كما يفرض عليهم القانون، ولكنهم وجهوا إليه مرّ اللوم فيما بينهم لاتخاذه هذا القرار. فقد كانت تلك في رأيهم فرصة ممتازة لخوض الحرب؛ إذ كان العدو مطوقاً من كافة الأطراف بالمشاة والخيالة، ولكن ها هم الآن يرحلون دون أن يقوموا بعمل يناسب القوة الضخمة التي لديهم. وكان هذا فعلاً أفضل جيش هيليني تم حشده على مر الزمان، وقد تجلت عظمته في نيميا، وهو ما يزال بعدُ وحدة متماسكة. وكان الإسبارطيون هناك بكامل جيشهم ، والأركاد والبويوط والكورنث والسيكيون والبيلينيون والفلياس والميجار، ومعهم جيمعاً صفوة قواتهم. وكانت تلك القوة في الحقيقة تبدو وكأنما لا تستطيع مواجهة حلف الأرجوس وحده فحسب وإنما أن تتصدى بعد لحلف آخر مثله. ولكن ما حدث هو أن الجيش تراجع، ملقياً اللوم في هذا - كما رأينا - على آجيس، ثم ما لبث أن عادت أفواجه إلى البلدان التي قدمت منها.

وكان الأرجوس أشد في احتجاجهم على أولئك الذين عقدوا الهدنة دون أن يرجعوا إلى الشعب؛ إذ كانوا هم أيضاً يعتقدون أن تلك كانت فرصة لم تسنح لهم من قبل للقتال تحت أسوار مدينتهم، وأنه قد سمح للإسبارطيين بالهرب مع أن الأرجوس جمعوا العديد من الحلفاء الأشاوس في صفهم. فلما عادوا أخذوا يرجمون ثراسيلوس في الخارادروس - وهو المجلس الذي ينظر في كافة القضايا التي تنشأ عن الحملات قبل دخول القوات المدينة - ولقد نجا ثراسيلوس بحياته بأن لجأ إلى المذبح، ولكن أملاكه صودرت .

بعد هذا وصلت تعزيزات من أثينا، وكان قوامها ألف من المشاة الثقيلة وثلاثمئة فارس، وعلى رأسهم لافيس ونيكوستراتوس. وقد ظل الأرجوس بالرغم من كل شيء ينأون عن خرق هدنتهم وإسبارطة، ولذلك طلبوا إلى الأثينيين الرحيل عن أرضهم، ورفضوا الموافقة على طلبهم الحديث أمام مجلس المدينة. ولقد ساند المانتينيون والإيليون - وكانوا مايزالون في أرجوس - دعوى الأثينيين واضطروا الأرجوس للتسليم بها. وقد تكلم ألسيبياديس - وكان هنا بصفته سفيراً عن الأثينيين - أمام الأرجوس وحلفائهم. فقال: إن تلك الاتفاقية لا سند لها من القانون طالما أنها تمت دون موافقة بقية الأعضاء في الحلف، وعليهم الآن - وقد حضر الأثينيون في اللحظة الملائمة- أن يبادروا إلى الحرب ومال الحلفاء بتأثير هذه الحجج إلى شن الحرب، فقاموا فوراً بالزحف على أورخومينوس في أركاديا. وكانت تلك الحملة تضم أطراف الحلف كافة، عدا الأرجوس الذين تخلفوا في البداية عن المسير معهم، رغم أنهم وافقوهم الرأي، لكنهم انضموا إليهم فيما بعد.

اتخذت الآن القوات الحليفة جمعاء مواقعها أمام أورخومينوس، وألقت عليها الحصار ثم راحت تنزل بها الهجمات. وكان من الأسباب الرئيسة التي حملت الحلفاء على السعي للاستيلاء على المدينة وجود رهائن من أركاديا أودعهم فيها الإسبارطيون. وقد فزع أهل المدينة لضعف تحصيناتهم وضخامة جيش العدو. دون أن تلوح في الأفق ما يسمح بتوقع وصول نجدة لهم، وراودهم الخوف من أن يقضى علهيم، قبل وصولها، إن كانت مثل هذه النجدة ستصلهم. ولذلك عمدوا للاستسلام شرط أن ينضموا إلى الحلف، ويقدموا رهائن منهم إلى المانتينيين ويسلموا الرهائن الذين تركهم الإسبارطيون أيضاً.

ولما تم للحلفاء الاستيلاء على أورخومينوس جلسوا يتداولون حول البلدان الأخرى التي سوف يهاجمونها بعد هذا النصر. فكان الإيليون يحبذون الهجوم على ليبريوم

والمانتينيون يريدون تيجيا، وقد أيدهم في هذا الرأي الأرجوس والأثينيون. فغضب الإيليون؛ لأن حلفاءهم لم يناصروهم عند التصويت في دعوتهم للهجوم على ليبريوم وعادوا عندئذ إلى وطنهم. أما الحلفاء الآخرون فإنهم أخذوا يعدون العدة في مانتينيا للزحف على تيجيا. وفي تيجيا ذاتها كان ثمة حزب يهيء لتسليم المدينة للمهاجمين.

الفصل السادس : نصر إسبارطي في مانتينيا وعواقبه،
السنتان الرابعة عشرة والخامسة عشرة من الحرب

عاد الإسبارطيون من آرجوس بعد عقد هدنة الشهور الأربعة، وهم في أشد الضيق من آجيس وارتداده عن آرجوس دون أخذها، حين أتيحت له فرصة كانوا يظنون أنها لم تتوفر لهم من قبل؛ فلم يكن من اليسير بأي حال أن يجتمع لهم مثل هذا الحشد من جنود الحلفاء، وهم على هذه الدرجة العالية من الكفاءة، ولكن غضبهم ازداد وتصاعدت ثورتهم حين بلغهم نبأ سقوط أورخومينوس وحملتهم حميتهم على الدعوة إلى هدم بيت آجيس في التو واللحظة وتغريمه عشرة آلاف دراخما. وراح آجيس يناشدهم أن يبقوا على بيته وماله، قاطعاً على نفسه العهد بأن يصلح أخطاءه متى نزل إلى الميدان مرة أخرى بعمل بطولي نبيل، فإن قصر فلهم أن يفعلوا به عندئذ ما يريدون. فاستجابوا لمناشدته وتخلوا عن فكرة تغريمه وهدم بيته، وأصدروا قانوناً لم يكن قائماً في إسبارطة قبل ذلك ويقضي بأن يرافقه عشرة إسبارطيين من طبقة القادة ليكونوا مستشارين له في الميدان، ولا يحق له قيادة أي جيش والخروج به من المدينة إلا بموافقتهم.

وفي تلك الأثناء وردت إليهم أنباء من أصدقائهم في تيجيا بأن البلد سوف ينحاز إلى آرجوس وحلفائها، إذا لم يتداركوا الأمر ويسرعوا بالحضور. والواقع أن تيجيا كانت على وشك القيام بذلك، فأسرعوا الآن بالمسير وحضروا لنجدة تيجيا بكامل قوتهم من المواطنين والأرقاء، وبأعداد لم تعهدها الحملات الأخرى. فتقدموا إلى أوريستيوم في مايناليا وأمروا حلفاءهم الأركاديين بتعبئة قواتهم واللحاق بهم إلى تيجيا. بينما استمروا في زحفهم بكامل الجيش حتى أوريستيوم، ومنها أعادوا سدسهم، وهم الشيوخ والفتيان لحراسة بيوتهم. ووصلوا إلى تيجيا ببقية قواتهم، وما هو إلا وقت قصير حتى

انضم إليهم حلفاؤهم الأركاديون. وكانوا قد بعثوا الرسائل يطلبون من الكورنث والبويوط والفوك واللوكر الحضور مع قواتهم بأسرع ما يمكن إلى مانتينيا. وكان الوقت المتاح لهؤلاء قصيراً جداً، كما لم يكن من اليسير عليهم عبور المنطقة التي يحتلها الأعداء وتفصلهم عن مانتينيا إلا إذا انتظر بعضهم بعضاً وجمعوا قواتهم معاً؛ ولكن هؤلاء بذلوا ما في وسعهم وأسرعوا في المسير قدر ما أمكنهم.

وفي تلك الأثناء غزا الإسبارطيون، ومعهم الأركاديون الذين كانوا هناك، أرض مانتينيا، وأقاموا معسكرهم بالقرب من معبد هيركليس، وشرعوا يعملون تدميراً وخراباً في البلاد. فلما شاهدهم الأرجوس وحلفاؤهم اتخذوا موقعاً منيعاً يصعب جداً بلوغه، ثم مضوا فاتخذوا وضع القتال وترتيب المعركة. وللتوّ سار الإسبارطيون إليهم واقتربوا حتى أصبحوا على مرمى حجر منهم أو رمح. وهنا صاح أحد الشيوخ في الجيش، وقد تبين له منعة الموقع الذي يسيرون إليه، قائلاً لآجيس: إنه يحاول أن يمحو شراً بشر آخر، وهو يعني أنه يريد التكفير عن الانسحاب من آرجوس، والذي أُخذ عليه، وإذا به الآن يجازف في غير أوان المجازفة، فتراجع آجيس بجيشه، سواء بتأثير صيحة الشيخ، أو لأنه قد غير فكره فجأة وقاد جيشه إلى الوراء بسرعة قبل أن يقع الاشتباك. ولما دخل أرض تيجيا راح يحول الماء عن مجراه إلى أرض مانتينيا. وكان هذا الماء سبباً دائماً للقتال بين التيجيين والمانتينيين، بسبب الأضرار التي كانت تنزل بالأرض حين يتدفق فيغمر أرض مانتينيا. وكان قصد آجيس من ذلك أن يستفز العدو حين يراه يعمل على تحويل مجرى الماء فينزل من التل لاعتراضه، فيكون القتال على أرض مستوية. وهكذا رابط آجيس حيث كان في ذلك اليوم وأمضى الوقت في تحويل مجرى الماء.

وقد عجب الأرجوس وحلفاءهم إذ وجدوا العدو يتراجع فجأة وينسحب بعد أن كان قد تقدم واقترب من مواقعهم. وكان ذلك مدعاة لحيرتهم في بداية الأمر، ولم يدركوا معنى هذا الانسحاب بعد التقدم، ولكن حين استمر العدو بالانسحاب وغاب عن النظر،

وظلوا هم على حالهم ولم يبذلوا أي جهد لملاحقته، أخذوا يلقون اللوم مرة أخرى على قادتهم الذين سمحوا للإسبارطيين - على ما ذهب بهم الاعتقاد في المرة السابقة- بالإفلات حين كانوا محاصرين أمام آرجوس، وها هم الإسبارطيون ذاتهم يفلتون من جديد دون أن يتابع أحد أثرهم، فيهربون متى يشاؤون، ويكون الخذلان نصيب جيش الأرجوس. ولقد ظل القادة في حيرة مما جرى برهة، ثم نزلوا بالجيش من التل وتقدموا في السهل، حيث أقاموا معسكرهم وغرضهم الزحف نحو العدو.

وفي اليوم التالي قام الأرجوس وحلفاؤهم بترتيب صفوفهم على النحو الذي يعني بأنهم عازمون على القتال إذا وقع الاحتكاك بالعدو، فوجد الإسبارطيون أنفسهم - حين عادوا من انشغالهم بالماء إلى معسكرهم القديم بالقرب من معبد هركليس - يواجهون جيشاً معادياً بالقرب منهم، وقد نزل الآن عن التل. واتخذ ترتيب المعركة. وكانت تلك لحظة لا يذكرون مثلها من قبل. ولم يكن لديهم الآن إلا أقل الوقت للاستعداد، واتخذ كل رجل عندئذ مكانه بأسرع ما يكون وأقصى قدر من الهمة، وملكهم يصدر ما ينبغي من الأوامر، كما يقضي القانون. فالملك يقوم على توجيه الأوامر إلى جيشه شخصياً، حين يكون هو القائد. ويكون ذلك بأن يوجه قادة الفرق بأوامره، فيقوم هؤلاء بتعميمها على قادة الأفواج ومن هؤلاء تعمم على قادة الكتائب. كذلك يتم تعميم الأمر إذا كان ينبغي تعميمه بمروره بهذا التسلسل ويصبح نافذاً بسرعة؛ لأن جيش إسبارطة يتألف معظمه من الضباط الذين يعملون بإمرة قادة آخرين، إلا جزءاً ضئيلاً من هذا الجيش، وتقع مسؤولية تنفيذ الأمر على عدد كبير من الأشخاص. وقد كان السكيريتاي على ميسرة هذا الجيش، ولهم امتياز احتلال هذا الموقع دائماً كقوات مستقلة. وهناك إلى جانب هؤلاء جند براسيداس وهم من تراقية، والعتقاء الذين ينالون حريتهم بعد عبودية بسبب حسن بلائهم في الحرب. وبعد هؤلاء الإسبارطيون أنفسهم، وهم ينتظمون فوجاً فوجاً، ثم الأركاديون من هيرايا فالمايناليون. وعلى الميمنة التيجيون مع قلة من

الإسبارطيين في نهاية الخط. والخيالة على الجناحين.

ذلكم هو ترتيب المعركة عند الإسبارطيين. أما على الجانب الآخر فيحتل المانتينيون الميمنة؛ لأن القتال كان يدور في أرضهم، ويلي هؤلاء الحلفاء من أركاديا، فقوات النخبة الأرجوس وعددهم يبلغ الألف ويخضعون لتدريب عسكري طويل من الدولة وتجري نفقاتهم من الصندوق العام، فبقية الأرجوس ثم حلفاؤهم والكليونيون والأورنيون، وهناك بعدُ الأثينيون ويقفون في أقصى الميسرة، ولهم فرسانهم، وترتيب الجيش وتكوينهما على نحو ما سبق وصفه. وقد بدا الجيش الإسبارطي أضخم من سواه، ولكن من المستحيل عليَّ أن أقدم أعداد الجيشين أو مختلف الفرق على الجانبين بدقة. فقد كان الطرفان يحيطان شؤونهما بالسرية، ما يعني أن ليس ثمة من يعلم بأعداد الإسبارطيين، أما ما يخص الآخرين فمن المستحيل الاعتماد على التقديرات المتوفرة؛ لأن من طبيعة البشر أن يتباهى المرء بقوته. ومع ذلك فإن طريقة الحساب التالية تسمح بتقدير عدد الإسبارطيين في هذه الحالة. فقد كان هناك عدا السكيريتاي وتعدادهم ستمئة، سبعة أفواج تقاتل في المعركة. ويتألف الفوج من أربع كتائب وكل كتيبة تتألف من أربع فصائل، والصف الأمامي من الفصيلة يتكون من أربعة مقاتلين؛ أما في العمق فإن التشكيل يختلف بين حالة وحالة، ولكن القرار في هذا يعتمد على قادة الأفواج، على أن العمق يتشكل من ثمانية رجال. وكان الصف الأول على امتداد الخط يتألف من أربعمئة وثمانية وأربعين رجلاً، عدا السكيريتاي.

وهكذا غدا الجيشان الآن متأهبين لدخول المعركة، فوقف القادة على الجانبين يخطبون في جنودهم يثيرون فيهم الحمية والهمة. فقيل للمانتينيين: إنهم يقاتلون في سبيل الوطن، والقضية هي القوة أو العبودية، والحفاظ على القوة التي فازوا بها أو التردي إلى العبودية التي خبروها في الماضي. أما الأرجوس فقد قال لهم قادتهم: إن المعركة هي معركة للحفاظ على موقع تفوقهم القديم، والمساواة في نصيبهم كما كان لهم في

البيلوبونيز ذات يوم، والحيلولة دون حرمانهم منه بعد الآن، وفي الوقت ذاته التعويض عما لحق بهم من عسف كثير على يد عدو وجار. وقيل للأثينيين: إن المجد الذي سيفوزون به، وهم يقاتلون إلى جانب هذا الحشد الكبير من الحلفاء الشجعان، سوف يظهرهم متفوقين لا يباريهم أحد، وإن إنزال الهزيمة بإسبارطة في البيلوبونيز كفيل بأن يزيد من قوتهم ويجعلهم أرسخ أمناً فلا يستطيع كائن من كان غزو أرض أثينا بعد الآن. ذلكم هو النمط الذي توسلوا به في تأجيج حماس الأرجوس وحلفائهم. أما الإسبارطيون فقد نهجوا في حفز جماعتهم منهج حديث الصراحة، رجلاً لرجل، وهم يغنون أناشيد الحرب، هاتفين بأسماء رفاقهم، رفاق الدرب الشجعان، ليتذكروا ما يعرفه كل منهم أحسن المعرفة، يحفزهم على ذلك إدراكهم أن منهج العمل الطويل المنظم أفضل من الخطابات العجلى مهما بلغت مهارة الخطيب.

بعد ذلك التقى الجيشان، وتقدم الأرجوس وحلفاؤهم وسط الضجيج والصخب، بينما نزل الإسبارطيون إلى الساحة متمهلين على صوت موسيقا المزامير، في صفوف منتظمة. وهذه من أساليبهم ولا علاقة لها بالدين، إنما قصد بها تنظيم خطواتهم والتقدم بثبات دون اضطراب الصفوف، كما تفعل غالباً الجيوش الجرارة حين توشك على الالتحام في المعركة.

وبينما كان الجيشان يجدان بالمسير للالتقاء بعضهم ببعض، رأى الملك آجيس أن يقوم بالإجراءات التالية: فقد خبرت الجيوش كلها حالة تمدد الجناح الأيمن أثناء انتقالها لمباشرة العمل، فيكون من شأن هذا الامتداد غير المبرر تجاوز كل جانب على ميسرة العدو بميمنته؛ لأن الخوف يدفع بكل رجل ليبذل أقصى جهده لحماية جانبه المكشوف بترس رفيقه على يمينه، وهو يعتقد بأنه كلما تقاربت التروس بعضها من بعض كانت سلامته مكفولة. ومصدر الخطأ في هذا أصلاً الرجل في أقصى اليمين في الصف الأمامي، وهو يحاول دائماً أن يبقي جانبه الأعزل بعيداً عن العدو، ويسري خوفه إلى الآخرين الذين

يحذون حذوه في هذا. وهكذا تمدد جناح المانتينيين في هذه المناسبة إلى ما وراء السكيريتاي، وامتدت أجنحة الإسبارطيين والتيجيين إلى ماوراء الأثينيين؛ لأن جيشهم كان الأكبر. وخشي آجيس من أن تُطوِّق ميسرته، وخلص إلى أن المانتينيين قد بالغوا في تطويق هذا الجناح. وما كان منه عندئذ إلا أن أصدر أوامره للسكيريتاي والقوات التي كانت تتبع براسيداس بالانتقال إلى الميسرة لتكون على مستوى واحد مع المانتينيين، ثم وجَّه القائدين هيبونويداس وأريستوكليس بالزحف لتغطية الفجوة التي سببها هذا التحرك وسدها بفوجين نقلهما من ميمنة جيشه. وقد حمله على هذه الحركة اعتقاده بأن في هذه المناورة تدعيم للخط الذي يواجه المانتينيين، ويظل يحتفظ مع ذلك بتفوق ميمنته. ولكن ما حدث هو أنه لما كانت الأوامر قد صدرت على عجل والجيشان آنذاك يتحركان فقد رفض أريستوكليس وهيبونويداس الامتثال للأوامر والتحرك إلى حيث طلب إليهما، وقد حكم عليهما فيما بعد بالعيش في المنفى بعد إدانتهما بالجبن، وأطبق العدو عليهم قبل أن يتوفر للسكيريتاي الوقت لردم الفجوة – ذلك أن آجيس كان قد وجههما للانضمام إلى الجسم الرئيسي للجيش بأسرع ما يمكن بعدما وجد أن الفوجين لم يقوما باتخاذ المواقع المعينة لهما –. ولا ريب بأن الإسبارطيين كانوا أكثر من في الساحة افتقاراً للمهارة في المناورة من كافة النواحي، ولكن مما لا ريب فيه أيضاً أنهم برهنوا على أنه ليس ثمة نظير لهم في الشجاعة. وما إن اندلع القتال حتى اخترق المانتينيون صفوف السكيريتاي الإسبارطيين وقوات براسيداس، ثم تدفقوا وحلفاؤهم والألف من قوات النخبة الأرجوس عبر الفجوة في الخط الإسبارطي التي كانت ماتزال مفتوحة. وهنا قاموا بتطويق الإسبارطيين وقتلوا منهم عدداً غفيراً ثم ردوهم إلى حيث كانت عرباتهم، وقتلوا بعض الكهول الذين كانوا يقومون بالحراسة هناك. وهكذا كان اندحار الإسبارطيين في هذه البقعة من ساحة القتال. ولكن الإسبارطيين انقضوا ببقية جيشهم، وخاصة القلب، حيث كان الملك آجيس ذاته وثلاثمئة من القوات المعروفة بـ

"الفرسان" ، على الكهول الأرجوس وما يعرف بـ "الكتائب الخمسة" والكليونيين والاورنيين والأثينيين المتوضعين بالقرب منهم فأجبروهم على أن ينطلقوا هاربين؛ ذلك أن معظمهم في الواقع لم يستطع حتى الصمود أمام الصدمة الأولى، والحق أنهم راحوا يفسحون الطريق أمام الإسبارطيين وهم يندفعون في هجومهم، حتى أن بعضهم تعثر وهو يسعى للهرب قبل أن يصل إليه الأعداء.

أما وقد أفسح الأرجوس وحلفاؤهم الآن الطريق في هذه المرحلة فإنهم فقدوا بهذا الاتصال بجناحيهم، فيما كان الإسبارطيون والتيجيون في الميمنة يلتفون على الأثينيين ويطوقونهم بقواتهم، وبذلك بات الأثينيون مطوقين من كل جانب؛ فكانوا من جهة مطوقين بقوات العدو ومدحورين من جهة أخرى. والواقع أنهم كانوا سيتكبدون من الخسائر أكبر من أي مجموعة أخرى من الجيش لولا أن خيالتهم كانوا إلى جانبهم ليقدموا لهم العون. كذلك صادف أن آجيس أمر بقية الجيش بنجدة جناحه الأيسر حين وجده في ضيق – وهو الجناح الذي يتعامل مع المانتينيين والأرجوس الألف– ومؤازرة الذين يعانون الهزيمة. وقد وجد الأثينيون والجماعة المهزومة من الأرجوس في هذه الحركة ما يكفي من الوقت للتمكن من الهرب، بينما كان جيش إسبارطة يتقدم ويتجاوزهم بعيداً عنهم، وفي الوقت ذاته كان المانتينيون وحلفاؤهم من النخبة الأرجوس قد انقطعوا عن الضغط على العدو. ولقد عمدوا إلى الهرب حين رأوا مجنبتهم تُهزم والإسبارطيون يضغطون عليهم. فقتل الكثير من المانتينيين بينما تمكنت قوات النخبة الأرجوسية من الهرب بسلام؛ ذلك أن هؤلاء، على أي حال، لم يضغطوا بقوة أو لفترة طويلة أثناء تراجعهم وهروبهم. أما الإسبارطيون فقد ثابروا على القتال لفترة طويلة وتشبثوا بمواقعهم بعناد حتى اضطروا العدو للهرب، ولكنهم حين حانت تلك اللحظة لم يتابعوا فلوله على الطريق التي سلكوها لمسافة طويلة أو لوقت طويل.

وهكذا سارت المعركة على نحو ما وصفت تقريباً. وكانت تلك بلا ريب أضخم

معركة وقعت بين الدول الهيلينية منذ وقت طويل جداً، وخاضتها أبرز المدن في بلاد هيلاس. واتخذ الإسبارطيون موقعاً لهم أمام قتلى العدو، وأقاموا في التو نصباً لتخليد هذه الذكرى وجردوا الذين سقطوا في المعركة من ملابسهم، ومن ثم حملوا قتلاهم وعادوا بهم إلى تيجيا حيث تولوا دفنهم هناك. وقد أُعيدت جثث قتلى العدو بالمقابل وفق اتفاقية هدنة. وبلغ عدد قتلى الأرجوس والكليونيين والأورنيين سبعمئة، كما سقط من المانتينيين مئتان، ومن الأثينيين والإيجيين مئتا قتيل، منهم القائدان. أما القتلى على الجانب الإسبارطي فإن قتلى الحلفاء كانوا قلة تكاد لا تلحظ، أما خسائر الإسبارطيين أنفسهم فقد كان من العسير معرفة حقيقتها؛ ويقال مع ذلك : إن عدد قتلاهم بلغ الثلاثمئة قتيل.

حين بات واضحاً أن معركة لا بد واقعة جاء الملك الثاني بليستوناكس مع تعزيزات من الجنود الفتيان والشيوخ. فلما وصل تيجيا وبلغته أنباء النصر قفل عائداً إلى إسبارطة. كذلك أرسل الإسبارطيون ليعيدوا حلفاءهم من كورنثة والبرزخ إلى مواطنهم. ولقد قفلوا بعدئذ عائدين إلى وطنهم وصرفوا حلفاءهم، نظراً لقرب احتفالات الكارنيان، ومضوا للاحتفال بالعيد. وهكذا خلصوا أنفسهم بهذه المأثرة من مآخذ الهيلينيين عليهم في هذا الحين، سواء ما اتهموا به من الجبن والتخاذل بسبب الكارثة في الجزيرة، أو افتقارهم للكفاءة أو الحزم في مناسبات أخرى. وذهب هؤلاء يقولون الآن : إنهم مازالوا كعهدهم دائماً أهل الشجاعة والبسالة رغم أن الأقدار ربما عاكستهم في مسيرتهم.

في اليوم السابق للمعركة استغل الإبيداريون وضع آرجوس دون حماية فقاموا بغزوها بكل ما لديهم من قوة، فقتلوا عدداً كبيراً من الحراس الذين كانوا يقومون بالخفارة بينما غادر معظم جيش الأرجوس لخوض الحملة.

وبعد المعركة وصل ثلاثة آلاف من المشاة الثقيلة من إيليس لمؤازرة المانتينيين وألف آخرون من أثينا إضافة إلى القوة الموجودة هناك. ولقد خرج الحلفاء جميعاً يزحفون فوراً

إلى إبيداروس، بينما كان الإسبارطيون يحتفلون في تلك الأثناء بعيد الكارنيان، وبعد أن تقاسموا العمل فيما بينهم شرعوا يبنون سوراً حول المدينة. وبالرغم من تخلي الآخرين عن متابعة بناء السور فقد أنجز الأثينيون القسم الذي اختصوا به سريعاً، وهو الذي يحيط برأس هيرايوم. ثم ترك كل منهم وحدات من قواته ليشكل بعضها مع بعض حامية لهذه التحصينات وتفرقوا بعدئذ، وعاد كل إلى مدينته. وهكذا انتهى الصيف.

في مطلع الشتاء التالي – حين انتهى عيد الكارنيان – خرج الإسبارطيون في حملة، فلما بلغوا تيجيا أرسلوا إلى الأرجوس عروضاً لتسوية الأمور بينهم. وكان هناك حتى قبل هذا الوقت حزب مناصر لإسبارطة، هدفه الإطاحة بالديموقراطية في أرجوس، وقد أصبح في وضع أفضل الآن بنتيجة المعركة ليسعى إلى إقناع الشعب بقبول هذه العروض. فكانوا يريدون بادىء ذي بدء عقد اتفاقية سلام وإسبارطة، ثم يتبعون ذلك بالتحالف وإياها، ثم شن هجومهم أخيراً على الحزب الديموقراطي. وكان ليخاس بن أرسيسلاوس، هوالذي قدم من إسبارطة، حيث كان يحتل منصباً رفيعاً يتولى بموجبه رعاية مصالح المواطنين الأرجوس واليوم يأتي حاملاً اقتراحين للأرجوس: أحدهما يتعلق بالحرب، إذا شاؤوا القتال، والثاني مشروع سلام، إن كان السلام مقصدهم. وصادف أن كان ألسيبياديس في آرجوس، فدارت محادثات مطولة. وقد استطاع الحزب المؤيد للانضمام لإسبارطة، – بعدما بات الآن أشد جرأة في الظهور وطرح مواقفه – إقناع الأرجوس بقبول عرض التسوية، وهي تنص على ما يلي:

"يعلن مجلس المدينة في إسبارطة استعداده لعقد اتفاقية مع الأرجوس وفق الشروط التالية:

١– يعيد الأرجوس للأورخومينيين أطفالهم وللمينالينيين رجالهم، كما أن عليهم أن يطلقوا سراح الإسبارطيين المعتقلين في مانتينيا.

٢- يخلي الأرجوس إبيداروس ويزيلوا الحصن القائم هناك. وإذا رفض الأثينيون مغادرة إبيداروس فيعتبرون عندئذ أعداء للأرجوس والإسبارطيين ولحلفاء كل منهما.

٣- يعيد الإسبارطيون كل طفل في حوزتهم إلى مدينته.

٤- وبما يخص القرابين والعطايا الواجب تقديمها للإله فللأرجوس إن شاؤوا، فرض قَسَم الطاعة على الإبيداريين، وإلا فلهم إعلانه من طرفهم وحدهم.

٥- تُعلن المدن كافة في البيلوبونيز، كبيرها وصغيرها، مدناً مستقلة وفق تقاليدها الوطنية الخاصة.

٦- إذا ما غزت دولة من خارج البيلوبونيز منطقة في البيلوبونيز بنيّة العدوان، فإنه يحتم على الأطراف المشاركة في هذه الاتفاقية الاتحاد وردع الغزو على نحو يتفق عليه ويكون عادلاً ومنصفاً على الوجه الأفضل للبيلوبونيز.

٧- سوف ينضم إلى هذه الاتفاقية حلفاء إسبارطة خارج البيلوبونيز، وبذات الشروط التي تسري على إسبارطة. كذلك سوف ينضم حلفاء آرجوس إلى هذه الاتفاقية وبنفس الشروط التي تسري على آرجوس، ولهم أن يتمتعوا جميعاً بما هو ملكهم.

٨- يجب أن تعرض هذه الاتفاقية على الحلفاء للموافقة عليها. فإذا كان لديهم اعتراض على أي من بنودها فيتوجب عليهم إحالتها إلى حكومات بلدانهم للنظر فيها.

ذلكم هو العرض الذي قبل به الأرجوس أولاً، ثم غادر جيش إسبارطة تيجيا وعاد إلى الوطن. وبذلك بدأت الآن الاتصالات المنتظمة بين الدولتين. ولم يمض إلا بعض الوقت حتى نجح الحزب ذاته في حمل الأرجوس على فض حلفهم مع مانتينيا وأثينا وإيليس وعقد اتفاقية تحالف وسلام مع إسبارطة، وفق الشروط التالية:

يوافق الإسبارطيون والأرجوس على عقد معاهدة سلام بينهما مدتها خمسون عاماً

وفق الشروط التالية:

١- تسوى كافة القضايا المتنازع عليها بين الطرفين بالتحكيم الودي والمحايد، وفق التقاليد والأعراف التي تأخذ بها كل دولة.

٢- يحق للمدن الأخرى في البيلوبونيز الانضمام إلى هذه المعاهدة وهذا الحلف، باعتبارها مدناً حرة مستقلة، وتتمتع بكامل السيطرة على ملكياتها، وتسوّى كل ما ينشأ بينها من منازعات بالتحكيم المنصف النزيه، وفق التقاليد والأعراف التي تأخذ بها كل دولة.

٣- سوف ينضم إلى هذه الاتفاقية حلفاء إسبارطة خارج البيلوبونيز وتسري عليهم ذات الشروط التي تسري على إسبارطة ذاتها، كذلك سوف ينضم حلفاء الأرجوس إلى هذه الاتفاقية ويسري عليهم ما يسري على الأرجوس من شروط، وعلى أساس من سيادتهم على ملكيتهم.

٤- إذا دعت الحاجة لتوجيه حملة مشتركة إلى أية جهة فإنه يحتم على الإسبارطيين والأرجوس التشاور ف ما بينهم وبلوغ القرار بما هو الأشد إنصافاً للحلفاء.

٥- ينظر أطراف الحلف في التنازع على رسم الحدود أو سوى ذلك من المسائل التي تتورط فيها أي مدينة في البيلوبونيز أو خارجها ويتم حسم الموضوع في هذا الإطار. أما إذا دخلت إحدى المدن المتحالفة في نزاع مع مدينة حليفة أخرى فعليهما إحالة الموضوع إلى مدينة أخرى يعتبرانها محايدة.

٦- تتم تسوية المنازعات بين الأشخاص وفق القوانين المرعية في الدول المعنية.

وهكذا أصبحت هذه المعاهدة والتحالف نافذين، وأعاد كلا الطرفين للآخر ما كسبه منه حرباً أو بأي طريقة أخرى. وأصبحا يتبعان منذ تلك اللحظة سياسة جماعية منسقة،

وأقرا مرسوماً بألا يستقبلا أي مبعوث أو وفد من أثينا حتى يتخلى الأثينيون عن مواقعهم المحصنة في البيلوبونيز ويغادروا المنطقة وألا يقيموا سلاماً أو يشنوا حرباً إلا ويكون ذلك مشاركةً بينهما. وقد التزم الطرفان بهذه السياسة بجد ونشاط. فأرسلت كلتا القوتين سفراء إلى تراقية وبيرديكاس وأقنعتاهما بمشاركتهما القسم والتحالف معهما. ومع أن بيرديكاس لم يقطع علاقته بأثينا فوراً إلا أنه كان يعتزم ذلك، ليلحق بآرجوس التي قدمت منها أسرته أصلاً. كذلك قام الطرفان بإحياء العهود التي كانت لهما مع الخاليكيد وعقدا وإياهم مواثيق جديدة.

ولقد أرسل الأرجوس سفارات إلى الأثينيين يطلبون منهم إخلاء تحصيناتهم في إبيداروس. ووجد الأثينيون أن رجالهم قلة بالمقارنة مع بقية حراس الحامية فأرسلوا ديموستينيس للإشراف على عملية الانسحاب. فلما وصل أخذ بتنظيم مباراة رياضية خارج أسوار الحصن، واستخدمها غطاء للتعمية، فلما صارت الحامية خارج الأبواب أغلقها خلفهم ,وفيما بعد جدد الأثينيون معاهدتهم وإبيداروس وأعادوا إليهم التحصينات.

وبعد انسحاب الأرجوس من التحالف وجد المانتينيون أنهم ليسوا بالقدر الكافي من القوة ليتصرفوا بدون مؤازرة الأرجوس، مع أنهم اتخذوا في البداية موقفاً مستقلاً عن الآخرين، ثم توصلوا في النهاية إلى اتفاق مع إسبارطة وتخلّوا عن المدن التي كانت تخضع لها.

وخرج الإسبارطيون والأرجوس الآن في حملة مشتركة، شارك فيها كل طرف بألف رجل. فمضى الإسبارطيون أولاً بقوتهم منفردين إلى سيكيون ونظموا الحكم هناك على نمط يجعله حكم أقلية – أوليجاركي– بصورة أكثر وضوحاً. ثم اجتمعت قوى الطرفين فقمعا الحكم الديمقراطي في آرجوس وأحلا محله حكومة أقلية مناصرة لإسبارطة. وكان

ذلك حوالي نهاية الشتاء واقتراب فصل الربيع. وهكذا كانت خاتمة السنة الرابعة عشرة من الحرب.

وفي الصيف التالي ثار أهل ديوم في آثوس على الأثينيين وأعلنوا انضمامهم إلى الحلف الخاليكيدي. كذلك قام الإسبارطيون باتخاذ عدد من الإجراءات في آخايا لتيسير امورهم أكثر مما كانت عليه من قبل.

وفي تلك الأثناء شكل الديموقراطيون حزباً في آرجوس من جديد واستعادوا ثقتهم بقدراتهم. وقبعوا ينتظرون حتى يوم عيد الألعاب الذي تحتفل به إسبارطة، فشنوا هجوماً على الأقلية الممالئة للإسبارطيين. وكان الانتصار في ذلك الهجوم للديمقراطيين، فقتلوا فيه بعض خصومهم وقاموا بنفي البعض الآخر. وظل الإسبارطيون يمتنعون حتى ذلك الحين عن الاستجابة لنداءات أصدقائهم في آرجوس، إلا أنهم أرجؤوا احتفالات العيد الآن وقاموا بالمسير إليهم لنجدتهم. ولكن ما إن بلغوا تيجيا حتى تناهى إلى سمعهم أن الفئة المناصرة لهم منيت بالهزيمة، فامتنعوا عندئذ عن المضي إلى أبعد من تلك المرحلة بالرغم من كل نداء ومناشدة من أولئك الذين أفلحوا في الهرب، بل إنهم بدلاً من التقدم عادوا من حيث أتوا للاحتفال بعيد الألعاب. وتقاطر بعدئذ سفراء الأرجوس من المدينة ومن حزب المنفيين. كذلك كان الحلفاء من بين الحضور، وخلص الإسبارطيون بعد تبادل الاتهامات من الجانبين إلى أن الحزب الحاكم في المدينة قد قام بعمل منكر فقرروا الزحف على آرجوس. ولكن الوقت كان يمضي والإسبارطيون لا ينقطعون يرجئون حملتهم من موعد إلى آخر. وفي تلك الأثناء أخذ الديمقراطيون في آرجوس يتحولون بدافع من خشيتهم من الإسبارطيين إلى محالفة الأثينيين من جديد، اعتقاداً منهم أنهم بهذا الحلف يضمنون السلامة، ثم عمدوا إلى تشييد أسوار طويلة تمتد منحدرة حتى الساحل، فيكفلون بذلك وصول ما يلزمهم بمساعدة الأثينيين عن طريق البحر، إن فرض عليهم الحصار من طرف البر. وكانت هناك بلدان أخرى في البيلوبونيز أيضاً تعلم بأمر

الأسوار. فقد انهمكت آرجوس كلها، رجالاً ونساءً وعبيداً في العمل، وجاء النجارون وعمال البناء من أثينا لمساعدتهم في تشييد الأسوار. وانتهى الصيف على هذه الحال.

وفي الشتاء التالي سار الإسبارطيون وحلفاؤهم، عدا الكورنث، إلى آرجوس بعد أن بلغهم خبر الأسوار. وكان في آرجوس فريق معين متواطئ معهم. وكان قائد الحملة الملك آجيس بن أرخيداموس. وقد توقع الإسبارطيون المساعدة من الحزب المناصر لهم في المدينة، إلا أن هذا العون لم يتحقق. ولكنهم تمكنوا من الاستيلاء على الأسوار وقاموا بهدمها، ثم استولوا على بلدة هيسيا من أعمال آرجوس، وقتلوا كل من وقع في أيديهم من الأحرار، وقفلوا عائدين بعدئذ كل إلى مدينته. وقد دخل الأرجوس بعد تلك الواقعة فليوس وأعملوا الخراب والتدمير فيها قبل أن يعودوا عنها. وكان السبب في هذه الحملة أن فليوس كانت ملجأ للمنفيين من آرجوس حيث استقر فيها معظمهم.

وفي الشتاء ذاته أحكم الأثينيون الحصار على مقدونيا، وكان ضيقهم من بيرديكاس سببه أنه عاهد الأرجوس وإسبارطة على التحالف بعد أن قصر في أداء واجب الحليف مع أثينا، حين كان الأثينيون يعدون لحملة ضد الخاليكيد في تراقية وأمفيبوليس، بقيادة نيسياس بن نيسيراتوس؛ وقد ألغيت تلك الحملة لتقصير بيرديكاس عن النهوض بدوره فيها. واعتبر عدواً بسبب ذلك.

وهكذا انتهى الشتاء ومعه السنة الخامسة عشرة من الحرب.

الفصل السابع: السنة السادسة عشر من الحرب،

القضية الميلينية

في الصيف التالي أبحر ألسيبياديس إلى آرجوس وبإمرته عشرون سفينة، ووقع في أسره ثلاثمئة من مواطني آرجوس، كان يعتقد بأنهم من أنصار إسبارطة. وقد أنزلهم الأثينيون في الجزر القريبة التي تحت سيطرة أثينا.

وسيّر الأثينيون حملة، بعدُ، ضد جزيرة ميلوس. وكان أسطولهم يتألف من ثلاثين من سفنهم الخاصة وست سفن من خيوس واثنتين من ليسبوس، أما قواتهم فكان قوامها ألفاً ومئتين من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من الرماة الراجلة وعشرين من الرماة المحمولة، وجميعهم من أثينا، فضلاً عن ألف وخمسمئة من المشاة الثقيلة من جانب الحلفاء وأهل الجزر.

والميليون مستوطنون قدموا من إسبارطة. وقد رفض هؤلاء الانضمام إلى الإمبراطورية الأثينية مع أن سكان الجزر الآخرين انضموا إليها. وكان الميليون يلتزمون الحياد في بداية الأمر فلا يعينون هذا الطرف أو ذاك في أي أمر، ولكنهم تحولوا عن موقفهم فيما بعد، حينما أتاهم الأثينيون بقوة وراحوا يعملون تخريباً وتدميراً في بلادهم، فأصبحوا أعداء صريحين في عدائهم لأثينا.

وفي تلك الأثناء أقام القائدان كليوميديس بن ليكوميديس وتيسياس بن تيسيماخوس معسكرهما مع تلك القوة في أرض الميليين، وأرسلا قبل أن يلحقا الضرر بالأرض موفدين عنهما للتفاوض مع أهل البلاد. ولكن الميليين لم يدعوا هؤلاء السفراء لعرض الأمر أمام الشعب، بل طلبوا إليهم تقديم بيان أمام الهيئة الحاكمة في البلد وقلة من الناس. وكان خطاب السفراء الأثينيين كما يلي:

الأثينيون: إذن ليس مسموحاً لنا أن نخاطب الناس، ولا ريب أن السبب في هذا هو

أنكم تريدون الحيلولة دون سماع الشعب منا مرة وإلى الأبد كلاماً لا يحتاج لتكرار ورأياً مقنعاً لا جدال فيه ولا راد له؛ فيكون في موقفكم هذا ما يقوده إلى الضلال. وهذا ما حملكم، كما ندرك، على الإتيان بنا إلى هنا لنتحدث إلى القلة. فلنفترض الآن أنكم تودون يا من تجلسون هنا أن تشتدوا في الحرص. ولنفترض أنكم لم تأخذوا بعين الجد كل نقطة في خطاب جهدنا في إعداده، فعمدتم إلى مقاطعة خطابنا كلما ورد فيه أمر يحتمل الجدل، وتوقفتم عند كل قول قبل الانتقال إلى ما بعده. فأخبرونا أولاً إن كنتم توافقون على اقتراحنا.

ورد مجلس الميليين: ليس هناك من لا يريد أن نعرض آراءنا في جو هادئ. وهذا أمر سليم لا جدال فيه. ولكن ما لا يتفق واقتراح مثل هذا هو التهديد الماثل – بل اليقين – في حربكم علينا. ونحن نرى أنكم جئتم مستعدين للحكم على المناقشة بأنفسكم وقد بلغتم قراركم سلفاً، والأمر سوف ينتهي على الأرجح إما إلى حرب إن برهنا على صواب حجتنا ورفضنا التسليم بالتالي، أو بالعبودية.

الأثينيون: إذا كنتم ستمضون الوقت في عرض ما يراودكم من الشكوك في أمر المستقبل، أو إذا التقينا هنا لأمر غير مواجهة الحقائق، وعلى أساسها ننظر كيف يكون بوسعكم إنقاذ مدينتكم من الدمار، فلن يكون ثمة جدوى من هذا النقاش، أما إذا عملتم بما نقترح فسوف نمضي عندئذ في الحديث.

الميليون: إنه أمر مفهوم وطبيعي أن يلجأ من كان في مثل موقعنا إلى كل أشكال الحجج. ومع ذلك فأنتم محقون بقولكم: إننا اجتمعنا لبحث ضمان سلامة بلدنا، وإذا كان هذا مقصدكم فلسوف يمضي النقاش وفق الخط الذي وضعتموه.

الأثينيون: إذن فلن نلجأ في حديثنا للعبارات المنمقة، كأن نقول: إن لنا حقاً في الإمبراطورية التي أقمناها كوننا قد هزمنا الفرس، أو أننا جئنا لقهركم بسبب الضير الذي

أنزلتموه بنا – وذلك قدر عظيم من العبارات التي لن يصدقها أحد. وإننا نسألكم بدورنا ألا تتوهموا فتظنوا أنكم قادرون على التأثير فينا بقولكم: إنكم وإن كنتم مستوطنة إسبارطية لم تنضموا إلى إسبارطة في حربها، أو أنكم لم تلحقوا بنا أي ضرر. بل إننا لنوصيكم أن تحاولوا نيل ما استطعتم، آخذين في الاعتبار ما يجول في فكرنا نحن الطرفين. فكما تعلمون ونعلم أن معيار العدالة يعتمد في مثل هذه الأمور حينما يتناولها الناس العمليون، على القوة في حمل الطرف الآخر على الاستجابة لإرادة الأقوى، وأن على الأضعف أن يخضع لهذه الإرادة.

الميليون: إذن فاعلموا أننا نرى –طالما أنكم فرضتم علينا أن ندع العدل جانباً. ونقصر أنفسنا على المصلحة الخاصة– أنه من مصلحتكم ألا تفسدوا مبدأ هو في المصلحة العامة لكل البشر – قصدنا أن يكون هناك إنصاف وعدل في التعامل حين يتصل الأمر بمواجهة الرجال الخطر، وأنه يجب أن يسمح لمن كان مثلهم أن يتوسل بحجج ويفيد منها وإن كانت تفتقر لدقة الحساب. وهذا مبدأ تفيدون منه قدر ما يفيد منه أي شخص؛ لأن سقوطكم سيأتي لكم بأشنع انتقام وسيكون مثلاً للعالم.

الأثينيون : أما ما يتصل بنا فإننا لا نشغل أنفسنا بما سيأتي من بعد، وإن افترضنا بأن إمبراطوريتنا آتية إلى نهاية. فالمرء لا يخشى أن يهزم على يد قوة تحكم شعوباً أخرى، مثلما تفعل إسبارطة – وليس شاغلنا إسبارطة الآن–، بل يخشى العاقبة حين تُهاجم سلطة حاكمة وتُهزم على أيدي رعاياها. ولسوف نبين لكم الآن أننا قدمنا إلى هنا لخير إمبراطوريتنا، ولصون مدينتكم سوف نخبركم بما كنا نعتزم قوله. فاعلموا إذن أننا لا نعتزم أن نتجشم عناء في ضمكم إلى إمبراطوريتنا، وأننا نريد الإبقاء عليكم لما فيه الخير لكم ولنا على حد سواء.

الميليون: وأين الخير في أن نكون أرقاء وأنتم الأسياد؟

الأثينيون: إنكم باستسلامكم تردون عن أنفسكم كارثة ونكبة، ونحن بامتناعنا عن تدميركم نفيد منكم.

الميليون: وإذن فأنتم لا تقبلون بحيادنا، ولا ترضون بنا أصدقاء عوضاً عن أعداء، وإنما حلفاء لا لهذا ولا لذاك؟

الأثينيون: لا، فليس في عدائكم لنا ضير عظيم؛، وإنما الضير في أن يرى رعايانا في علاقتنا الودية معكم، دليلاً على ضعفنا، بينما كراهيتكم لنا دليل على قوتنا.

الميليون: أهذه فكرة رعاياكم عن الإنصاف؟ ألا يكون ثمة تمييز بين من لا صلة لهم بكم، ومن هم في معظمهم مستوطنون يعملون في خدمتكم أو عصاة قهرتموهم؟

الأثينيون: إن قومنا لا يعتقدون أن ثمة فارقاً بين الصواب والخطأ، فعندهم أن من يحفظ استقلاله إنما يكون ذلك بفضل ما له من القوة، وأننا إذا فشلنا في مهاجمتكم فذلك لخوف في أنفسنا. وإذن فنحن بغزوكم لا نزيد في اتساع إمبراطوريتنا وحسب، وإنما نزيد من أمنها أيضاً. إننا نسيطر على البحر، وأنتم سكان جزر، بل وأضعف أهل الجزر أيضاً؛ وإذن فمن الأهمية بمكان ألا تفلتوا من قبضتنا.

الميليون: ولكن هل تعتقدون أنكم تفقدون الأمن إن أخذتم بما نعرض عليكم؟ بما أنكم تنكرون علينا ذكر العدالة، وتطلبون منا التسليم بمصالحكم، فلا بد لنا من أن نحدد لكم مصالحنا، ثم علينا – إن اتفقت مصالحنا ومصالحكم – أن نقنعكم بواقع هذا الاتفاق. أفليس من المؤكد أنكم ستحملون الدول التي تقف محايدة الآن على الاستنتاج بأنكم سوف تتعرضون لهم بالهجوم في الوقت المناسب، وهم يرون ما يحدث هنا بيننا؟ أفلا يكون فحوىٰ هذا أنكم تزيدون من قوة أعدائكم وتحملون الآخرين على معاداتكم، حتى وإن لم يكن العداء من شيمهم ولم يراود خواطرهم حيالكم؟

الأثينيون: إننا لا نخشى في الواقع الدول على البر ولا نوليها عظيم الاحتفال. فلتلك

الدول حريتها، وذلك يعني أنه سوف يمضي وقت طويل قبل أن تشرع في الاحتراس منا. ونحن أشد انشغالاً بأهل الجزر أمثالكم، الذين مازالوا غير خاضعين، أو الرعايا الذين غدوا يضيقون بالقيد الذي فرضته عليهم إمبراطوريتنا. فهؤلاء من المرجح أن يسلكوا مسلكاً أرعن وأن يعرضوا أنفسهم، ويعرضوننا نحن أيضاً لأوضح خطر.

الميليون: إذا كنتم قد تجشمتم عناء مواجهة مثل هذه الأخطار لتحفظوا إمبراطوريتكم، وتجشم رعاياكم مثلها ليتخلصوا منها، فلا ريب بأننا الذين مازلنا أحراراً سنبدو للعالم جبناء رعاديد وضعفاء إن قصرنا في مواجهة كل ما سيأتي بدلاً من أن نقبل بالعبودية.

الأثينيون: لا، لن يكون هذا حالكم، إن التزمتم التعقل والتدبير. فما أنتم مقبلون على مبارزة عادلة فيها الشرف أو العار. بل القضية هنا أن تنقذوا أنفسكم من التهلكة بالخضوع وعدم مقاومة من هم أكثر قوة منكم.

الميليون: ومع ذلك فنحن نعلم أن الحظ يأتي في الحرب بمصادفات تجعل القلة تغلب الكثرة. وإذا ما استسلمنا فإن آمالنا تضيع، بينما يظل لدينا الأمل مادمنا نعمل بأن تستقيم أحوالنا.

الأثينيون: الأمل، هذا المهدئ للروع في الخطر! إذا كان لدى المرء عدة يعتد بها ليرتد إليها حين يصاب بنكسة فله عندئذ أن يلوذ بالأمل. وقد ينال المرء ضرر إن توسل بالأمل، إلا أن الأمل لا يقتل أحداً. ولكن الأمل بطبيعته سلعة باهظة الثمن، ومن يجازفون بكل ما لديهم في رمية واحدة لن يعرفوا معنى هذه المجازفة إلا بعد أن يصيبهم الخراب. ولن يخذل الأمل هؤلاء الذين تجعلهم هذه المعرفة يحتاطون للعواقب بالحذر. فلا تدعوا أنفسكم رهينة الأمل، وأنتم الضعفاء ومصيركم مرهون بحركة الميزان. ولا تكونوا كأولئك الذين أضاعوا الفرصة لإنقاذ أنفسهم بطريقة إنسانية وعملية، كما هو

مألوف. وهؤلاء حين يفقدون كل أمل واضح وجلي وهم في محنتهم ترونهم يلتفتون إلى ما هو معمى وغامض، ويلتمسون النبوءات والعرافين وسوى ذلك ما يؤدي إلى الخراب بإشاعة الأمل في النفوس.

الميليون: إنه لصعب- وثقوا بأننا نعلم مبلغ هذه الصعوبة- أن نجابه سلطانكم ونغالب حظوظكم إلا إذا كنا أنداداً لكم. ومع ذلك فإننا واثقون من أن الآلهة سوف تمن علينا بمثل حسن طالعكم؛ لأننا نناصر الحق على الظلم. أما ما نفتقده من القوة فأملنا كبير أن نعوضه بحلفنا والإسبارطيين الذين لا ريب أنهم سيهرعون لنجدتنا صوناً لشرفهم، إن لم يكن لسبب آخر. وإذن فثقتنا لا تجانب العقل كما تظنون.

الأثينيون: أما محاباة الآلهة فإننا نعتقد بأن لنا منها نصيباً قدر نصيبكم. وأغراضنا وأعمالنا تتفق واعتقاد البشر بالآلهة، والمبادئ التي تحكم سلوكهم. وفكرتنا عن الآلهة ومعرفتنا بالرجال تحملاننا على الاعتقاد بأنه قانون ثابت وملازم من قوانين الطبيعة أن يمد الإنسان سلطانه أينما استطاع وما أمكنه ذلك. وهذا قانون أبدي لم نأت به نحن، ولا كنا أول من أخذ به، وإنما نتبعه وحسب، ونعلم أنكم قد تسلكون وكل من له مثل هذا السلطان المسلك ذاته كما يقضي الحال. ولذلك فإننا لسنا نرى- بقدر ما يتصل الأمر بالآلهة- سبباً وجيهاً للخوف من أن نكون في حرج. وأما ما يتعلق بآرائكم حول إسبارطة وثقتكم بأنها سوف تهرع بسبب من حرصها على الشرف والكرامة لنجدتكم، فلا نملك إلا أن نهنئكم على ما تتمتعون به من السذاجة، غير أننا لن نغبطكم على ما أنتم عليه من الحمق. إن الإسبارطيين قوم مجلون في تدبير شؤونهم الخاصة ومبرزون في الدستور الذي اتخذوه لأنفسهم. أما ما يتصل بعلاقاتهم بالآخرين فتلك قصة طويلة، ولكن لنا أن نختصر تلك القصة ونقدمها بوضوح بأن نقول: إن الإسبارطيين هم أكثر ما نعرف من الأقوام وضوحاً في الاعتقاد بأن ما يصدر عنهم نبل وشرف وما يلائم مصالحهم عدل وإنصاف. ومثل هذا النزوع لن يفيد كثيراً في بحثكم العقيم عن الأمن والسلامة حالياً.

الميليون: ولكننا في هذه الناحية حصراً واثقون مطمئنون؛ فمصلحتهم الذاتية سوف نفرض عليهم الامتناع عن خيانة عمالهم في المستوطنات؛ لأن معنى ذلك فقدانهم ثقة أصدقائهم بين الهيلينيين وإفادة أعدائهم.

الأثينيون: ولكن يبدو أنكم تنسون أن المرء إن اتبع مصلحته الخاصة فلأنه ينشد الطمأنينة بينما طريق العدل والشرف يؤدي به إلى الأخطار. فيما يتعلق بالخطر، فالقاعدة أن الإسبارطيين لا ينزعون كثيراً إلى المغامرة.

الميليون: ولكننا نعتقد أنهم سوف يجازفون حتى بأنفسهم من أجلنا، ويجدوننا جديرين بالمجازفة أكثر من سوانا؛ لأننا قريبون جداً من البيلوبونيز بحيث يسهل عليهم العمل انطلاقاً من موقعنا. ثم إنهم يستطيعون الاعتماد علينا أكثر من سوانا؛ لأننا ننتمي إلى عنصر واحد ونحمل مشاعر مشتركة بيننا.

الأثينيون: إن إظهار حسن النيّات لمن يطلب العون لا يعني ضمان السلامة للحليف. فما ينبغي البحث عنه هو توظيف القوة توظيفاً إيجابياً في العمل. والإسبارطيون يولون هذه الناحية أهمية أكثر من سواهم. وهم يرتابون قطعاً في قدرات أبناء بلدهم حتى أنهم يأتون بجيش من حلفائهم حين يهاجمون جاراً. فليس يرجح أن يقطعوا البحر للنزول في جزيرة، بينما نحن المسيطرون في البحر.

الميليون: ولكنهم قد يرسلون بعدُ آخرين. إن بحر كريت واسع واعتراض الآخرين أشد مشقة على من يهيمن عليه، ممن ينشد التسلل إليه وهو مطمئن. ثم إنهم ولو قدر لهم أن يفشلوا في هذا لا بد أن ينقضوا عليكم في داركم كما سوف ينقضون على حلفائكم الذين تركهم براسيداس ولم يقم بزيارتهم. وإذن هناك متاعب تنتظركم على عتبة داركم وبين حلفائكم وفي بلدكم، عليكم الاهتمام بها عوضاً عن الاهتمام ببلد لا شأن لكم به.

الأثينيون: هذا احتمال، وله سابقة في الماضي، وقد يحصل في حالتكم، ولكنكم تعون جيداً أن الأثينيين لم يتخلوا عن حصار واحد قط خوفاً من الآخرين. ومع ذلك فقد صُدِمنا قليلاً حين وجدنا أنكم لم تذكروا ما يبرر للمرء الاعتقاد بأنه بالغ السلامة، مع أنكم قلتم: إنكم تودون البحث وإيانا عن سبيل الأمان. فالقضايا الرئيسة في حديثكم تتصل بما تأملون بحدوثه في المستقبل، بينما ترون أن قدراتكم الحقيقية أقل من أن تسمح لكم بفرصة للبقاء في وجه القوى التي تناهضكم الآن. لذلك نرى أنكم تكشفون عن افتقار بالغ للبداهة إن قصرتم بعد هذا الاجتماع عن بلوغ قرار أشد حكمة مما عرضتم وبلغنا منكم حتى الآن. لا يضلّنّكم حافز من شعور زائف بالشرف فلطالما أورد هذا الناس موارد التهلكة، وهم يواجهون خطراً صريحاً ينال قليلاً من كبريائهم. فلقد عرفنا حالات كثيرة كان الخطر فيها واضحاً، فإذا بالرجال يقعون في غواية وهم الشرف فيقعون في التهلكة التي لا راد بعدها، لئلا يوصموا بالجبن، وفي ذلك حماقة أكثر منها تقلب حظ. أما أنتم فاحرصوا على تفادي هذا الشرك بحسن النظر. فلسوف ترون أن ليس ثمة ما يشين في إفساح الطريق أمام أعظم مدينة في هيلاس، وهي تعرض لكم مثل هذه الشروط المعقولة؛ حلف لقاء ضريبة وحرية التمتع بملككم. والحصافة تقضي بألا تجنحوا إلى الفظاظة وجمود الأحاسيس، حين يعرض عليكم الخيار بين الحرب والأمان، فتسيئون الخيار. وهاكم القاعدة المأمونة؛ التصدي للند، والتبجيل للكبار، ومعاملة من هم أدنى بالتواضع. فكروا فيما عرضناه أمامكم. فإذا خرجنا من هذا الاجتماع تدبروا التالي بعقولكم دائماً وهو أنكم تبحثون في مصير بلدكم، وليس لكم سوى بلد واحد. ومستقبله يعتمد إن خيراً وإن شراً على هذا القرار الوحيد الذي أنتم مقبلون على اتخاذه.

قال الأثينيون هذا وانسحبوا من المداولة. ولما خلد الميليون إلى أنفسهم كان قرارهم مطابقاً لما ورد على لسانهم في ردودهم السابقة. وكان جوابهم الآن كالتالي:

الميليون: اعلموا أيها الأثينيون أن قرارنا هو ما بلغكم في بداية اللقاء. إننا لسنا على استعداد للتنازل في لحظة قصيرة عن الحرية التي ظلت مدينتنا تنعم بها طوال سبعمئة عام منذ تأسيسها. وإننا لنضع ثقتنا بما ترضاه لنا الآلهة وقد سلمنا به حتى الآن، ثم بعون البشر - ونعني الإسبارطيين - وهكذا فلسوف نسعى لإنقاذ أنفسنا. ولكننا نعرض عليكم أن تتخذوننا أصدقاء لكم، ولا نكون أعداء لكم أو لسواكم. ولتكن بيننا معاهدة يرضاها كلانا وفيها الخير لنا ولكم، ثم تدعون بلدنا وشأنه.

ولما انتهى رد الميليين هذا، قال الأثينيون وهم على وشك فض النقاش:

الأثينيون: حسناً، يبدو من هذا القرار الذي خرجتم به أنكم فريدون بمقدرتكم على النظر إلى المستقبل كأمر مؤكد أكثر مما هو واقع تحت بصركم، ورؤية ما يعتوره الشك كحقيقة واقعة، لمجرد أن الهوى يحملكم على هذا. أما وإنكم قد وثقتم أعظم الثقة بالإسبارطيين والحظ والآمال فإنكم ستجدون أنفسكم مضللين كل التضليل بكل هذا الذي توكأتم عليه.

وقام سفراء أثينا وعادوا أدراجهم لينضموا إلى الجيش، ولما وجد قادته ثبات الميلينيين على موقفهم شرعوا بالأعمال العدائية فوراً وشيدوا سوراً يحيط بمدينة ميلوس كالطوق. وكان يتوزع العمل فيه مختلف الدول المتحالفة. ولقد غادر الجيش مواقعه بعد حين، مخلفاً وراءه حامية من بعض الجنود الأثينيين وجماعة من القوات المتحالفة لإحكام حصار المدينة من البر والبحر، بينما عاد أكثر الجيش إلى الوطن. أما القوة التي تركها وراءه فقد ظلت تتابع الحصار.

وفي تلك الأثناء قام الأرجوس بغزو فليسيا، فوقعوا في كمين نصبه لهم الفليسيون والمنفيون من آرجوس، فسقط منهم ثمانون رجلاً.

وفي ذلك الحين أيضاً استولى الأثينيون في بيلوس على غنائم عظيمة من المنطقة

الإسبارطية. ولكن الإسبارطيين لم ينقضوا المعاهدة حتى بعد هذا، ولا أعلنوا الحرب، إنما أصدروا بياناً قالوا فيه: إن كل من أراد من قومهم أن يغير على الأثينيين بالمثل فله مطلق الحرية. كذلك شن الكورنث بعض الهجمات على الأثينيين لخصومات كانت لهم، أما سواهم من البيلوبونيز فقد خلدوا إلى الهدوء.

وفي تلك الأثناء كان الميليون قد شنوا غارة ليلية على خطوط الأثينيين واستولوا على بعضها الواقعة قبالة السوق. وقتلوا في تلك الإغارة بعض قواتهم ثم انسحبوا من جديد بعد أن جلبوا مقادير من الغلال وكل ما ينفعهم ووقعت عليه أيديهم، وخلدوا إلى الهدوء بعد ذلك، بينما قام الأثينيون بتعزيز حصارهم، احتياطاً للمستقبل. وهكذا انتهى فصل الصيف.

وفي الشتاء التالي أعد الإسبارطيون العدة لغزو آرجوس، ولكنهم أوقفوا حملتهم قبل عبورهم الحدود؛ لأن القرابين التي قدموها حينذاك لم تبشر بالنجاح. وجلية الأمر أنه حين تبين عزمهم على الغزو راودت الأرجوس الشكوك بجماعة في مدينتهم، فاعتقلوا البعض منهم، بينما أفلح بعضهم الآخر في الهرب، بعد افتضاح أمرهم وما كانوا يدبرون في الداخل.

وفي ذلك الوقت تقريباً تمكن الميليون من الاستيلاء على جزء آخر من خطوط الأثينيين، حيث لم يكن يقوم على حراستها إلا بعض الخفراء. وكان ذلك سبباً في توجيه قوة أخرى من أثينا بقيادة فيلوقراطيس بن ديمياس. وهنا اشتدت عمليات الحصار، وزاد من وطأتها خيانة من داخل المدينة، فاستسلم الميليون عندئذ دون قيد أو شرط، فقتل الأثينيون كل رجل بلغ سن الجندية وقع في أيديهم، ثم باعوا النساء والأطفال في سوق النخاسة. أما مدينة ميلوس ذاتها فقد استولوا عليها، ثم أقاموا فيها مستوطنة من خمسئمة رجل.

الكتاب السادس

الفصل الأول: مطامح أثينا في صقيلية، وصف الجزيرة

في ذلك الشتاء عزم الأثينيون على الإبحار ومهاجمة صقيلية من جديد بقوات أضخم من تلك التي كانت بإمرة لاخيس ويوريميدون، والتغلب عليها، إذا أمكن. وكانوا يجهلون إلى حد بعيد مساحة الجزيرة وعدد سكانها من الهيلينيين وأهلها الأصليين. ولم يكونوا يدركون أنهم يفتتحون حرباً بضخامة الحرب ضد البيلوبونيز.

كانت الرحلة حول صقيلية تستغرق من السفينة التجارية أقل من ثمانية أيام، ومع ذلك، وبالرغم من ضخامة الجزيرة فلم يكن يفصلها عن البر سوى ميلين من البحر. وفيما يلي تاريخ الاستيطان في الجزيرة والأقوام التي سكنتها: يقال أن سكان الجزيرة هم السيكلوب والليستريجون. ولست أملك أن أقول شيئاً عن أصول هؤلاء أو من أين أتوا أو إلى أين ذهبوا في النهاية. وحسبنا من أمرهم ما قاله الشعراء فيهم وما تناقله الناس عنهم. وأتى بعدهم على ما يبدو السيكانيون، وإن كان هؤلاء يقولون: إنهم أول من استوطن الجزيرة وهم سكان البلاد الأصليون. ولكن الحقيقة أنهم إيبيريون طردهم الليجوريين من المنطقة التي يمر فيها نهر سيكانوس في إيبيرية. أما الجزيرة التي كانت تعرف باسم ترِيناكريا فقد سميت سيكانيا نسبة إليهم. وما زال هؤلاء يعيشون إلى اليوم في غرب صقيلية.

وكان بعض الطرواديين قد هربوا من طروادة بعد سقوطها خوفاً من الآخيين، فجاؤوا إلى صقيلية على ظهر السفن، وهناك استقروا بجوار السيكانيين، وعرفوا بين الجميع باسم إيليمي. وقد سكنوا مدينتين أقاموهما، هما: إريكس وإيجيستا. كما أتى بعض الفوك الذين حملتهم العواصف في طريقهم من طروادة فحطت بهم أولاً في ليبيا ثم في صقيلية، حيث أقاموا في تلك المستوطنات.

وقد انتقل الصيقيل إلى صقيلية من إيطاليا حيث كانوا يقيمون قبل أن يطردهم منها الأوبيكان. وتذهب الرواية - وهي مقبولة - إلى أن هؤلاء الصيقيل عبروا البحر في أطواف بعد انتظارهم هبوب الريح من البر الرئيسي، مع أنهم قد استخدموا على الأرجح وسائط أخرى. ومازال هناك في إيطاليا قوم من الصيقيل إلى اليوم. ودعيت باسم إيطاليا نسبة إلى إيطالوس أحد ملوكهم. وقد قدم هؤلاء الصيقيل إلى الجزيرة مع جيش كبير وهزموا السيكان في المعركة وطردوهم إلى الجنوب والغرب؛ فأصبحت الجزيرة تدعى صقيلية بعد أن كانت تعرف باسم سيكانيا. فاحتلوا أفضل البقاع في الجزيرة وظلوا يتمتعون بها نحو ثلاثمئة عام من تاريخ نزولهم على أرض صقيلية حتى وصول الهيلينيين إليها. وما زالوا حتى اليوم يحتلون وسط الجزيرة وغربها.

وكان هناك فينيقيون يعيشون في صقيلية ويحيطون بها كلها. وكان هؤلاء قد احتلوا ألسنة البر الممتدة في البحر والجزر الصغيرة القريبة من الشاطئ واتخذوا منها مراكز للتجارة مع الصيقيل. ولكن الفينيقيين هجروا مستوطناتهم وأخذوا يتجمعون في موتيا وسلوييس وبانورموس، بعدما بدأ الهيلينيون يتدفقون بأعداد غفيرة قادمين عن طريق البحر ليستقروا في الجزيرة. وكان الفينيقيون يعيشون معاً في جوار الإيليمي، لأسباب منها: اعتمادهم على حلفهم مع الإيليميين، فضلاً عن أن المسافة من هناك تصبح أقصر بين صقيلية وقرطاجة.

حسبنا هذا من خبر الأقوام غير الهيلينية التي سكنت صقيلية على نحو ما وصفت. وكان أول من حل بالجزيرة من الهيلينيين الخاليكيد الذين قدموا من يوبوية مع ثوكليس المؤسس. فأقام هؤلاء مستوطنة ناكسوس وبنوا مزار أبولُّو أرخيجيتيس، وهو ظاهر المدينة، حيث يقدم رواد الألعاب القرابين عند إبحارهم من صقيلية. وقد أسس أرخياس- وهو ينتمي إلى سلالة هيركليدس من كورنثة - سيراكوزة في العام التالي. وكان أول أعماله طرد الصيقيل من "الجزيرة"، حيث تقع المدينة الداخلية الآن، مع أن

المياه انحسرت عنها ولم تعد تحيط بها. وفيما بعد ضُمت المدينة الخارجية أيضاً إلى داخل الأسوار وأصبح المكان مكتظاً بالسكان.

وفي السنة الخامسة من تأسيس سيراكوزة خرج ثوكليس والخاليكيد من ناكسوس لقتال الصيقيل فطردوهم وأسسوا مستوطنة ليونتيني، ثم أسسوا كاتانة، ولو أن مستوطني كاتانة ينسبون أنفسهم إلى أفارخوس.

ونحو ذلك الوقت وصل إلى صقيلية لاميس مع مستوطنين من ميجارا، فأسس الموقع المسمى تروتيلوس على ضفاف نهر بانتكياس، ثم مضى من هناك بعد حين وانضم إلى الخالكيد في ليونتيني لفترة من الزمن. وبعد أن طرده الخالكيد أسس مستوطنة ثابسوس ثم توفي بعد ذلك . واضطر أتباعه لمغادرة ثابسوس ثم أسسوا الموقع المعروف بميجارا الهبليانية. وكان ملك الصقيليين هيبلون قد منحهم تلك المنطقة ودعاهم للاستيطان فيها. وهناك أقاموا مئتين وخمساً وأربعين سنة، ثم طردوا بعدها من المدينة ونواحيها على يد جيلون طاغية سيراكوزة. وكان هؤلاء القوم قبل فترة من هذه الواقعة، وبعد مئة عام من استقرارهم، قد أوفدوا باميلوس فأسس سيلينوس. وباميلوس هذا جاء من مدينتهم الأم ميجارا وانضم إليهم في مستوطنتهم الجديدة.

وبالنسبة إلى جيلا فقد قام أنطفيموس – وهو من رودس – وأنطيموس – وهو من كريت – بتأسيس تلك المستوطنة بقيادتهما المشتركة. وكان ذلك في السنة الخامسة والأربعين من تأسيس سيراكوزة. ودعيت باسم جيلا نسبة إلى نهر جيلاس. ويعرف ذلك القسم – حيث الأكروبول الآن، والذي كان في البداية حصناً – باسم ليندي. وأخذ هؤلاء المستوطنون بدستور على النمط الدوري.

وبعد مئة وثمانية أعوام – إن لم يخطىء المرء الحساب – من تأسيس المدينة قام أهالي جيلا ببناء مدينة أكراجاس، نسبة إلى نهر أكراجاس، ونصبوا أرسطونوس وبيستيلوس،

مؤسسين لها، واتخذوا دستوراً لهم على غرار دستور جيلا.

أما زانكل فقد أسسها في الأصل قراصنة من كوماي، وهي مدينة خاليكيدية في أوبيكا، ثم جاءها جمع كبير من خالكيس وبقية يوبوية وانضموا إليهم في عمارة تلك البقعة. وكان مؤسسا المستوطنة بيريريس من كوماي وكراتيمينيس من خالكيس. وقد سميت منذ البداية زانكل؛ لأن الصيقيل أطلقوا عليها هذا الاسم لشبه موقعها بالمنجل، ويلفظ عندهم "زانكلون". ثم طُرد المستوطنون الأوائل لاحقاً على أيدي السميان (من ساموس) وإيونيين آخرين نزلوا في صقيلية بعد هربهم من الفرس. وقد طُرد السميان بعيد ذلك على يد أنكسيلاس طاغية ريجيوم الذي استعمر المدينة بقوم من أجناس مختلطة وغير اسمها إلى ميسينا نسبة إلى موطنه الأصلي.

وقد أسست زانكل مستوطنة هيميرا التي قامت على يوكليديس وسيموس وساكون. وكان غالبية الذين قاموا بعبء بناء المستوطنة من الخاليكيد، وإن شاركهم في هذا بعض المنفيين من سيراكوزة الذين عرفوا باسم ميليتيداي. وقد خرج هؤلاء من مدينتهم بعد هزيمتهم في صراع حزبي هناك. وكانت اللغة الدارجة بين هؤلاء المستوطنين خليطاً من الخاليكيدية والدورية. أما دستورهم فهو يقوم في معظمه على الدستور الخاليكيدي.

وتأسست كل من أكراي وكاسميناي على يد السيراكوز. وكان تأسيس أكراي بعد سبعين سنة من إقامة سيراكوزة. ثم تأسست كاسميناي بعد نحو عشرين سنة من أكراي.

وكان قيام كامرينا أول الأمر على يد السيراكوز، بعد مئة وخمس وثلاثين سنة – على ما يقدر المرء– من تأسيس سيراكوزة. ومؤسساها داكسون ومينكولوس. ولكن أهالي كامرينا كانوا قد طُردوا من مدينتهم على يد السيراكوز، الذين خرجوا لحربهم بعدما

أعلنوا عليهم العصيان، وبعد ذلك بقليل استولى هيبوكراتيس طاغية جيلا المستبد على أرضهم فدية عن بعض أسرى الحرب من السيراكوز، وأعاد بناء مدينة كامرينا، وكأنه هو مؤسسها. وقد طُرد سكان المدينة من جديد، على يد جيلون هذه المرة، واستوطنها للمرة الثالثة أهالي جيلا.

كانت تلك هي الأقوام التي سكنت صقيلية من إغريق وغرباء. وهذه الجزيرة برقعتها التي جرى وصفها هي التي بات الأثينيون يشتاقون أشد الشوق للهجوم عليها. والواقع أنهم كانوا يرمون إلى التغلب عليها كلها، لكنهم يريدون، في الوقت ذاته، أن يزينوا الأمر ليظن غزوهم بصورة نجدة لأهلهم وحلفائهم المستجدين هناك. وقد شجعهم على ذلك وفد قدم إلى أثينا من إيجيستا في ذلك الحين، وكان هؤلاء الموفدون يلحون على الأثينيين للتدخل في الجزيرة؛ إذ كان الإيجيست في حرب مع جيرانهم السيلونتيون بسبب حقوق ترتبت على زواج ونزاع على قطعة أرض. وكان السيلونتيين قد دعوا السيراكوز كحلفاء لمؤازرتهم، وباتوا الآن يضغطون على إيجيستا من البر والبحر. وهكذا ذهب الإيجيست يذكرون الأثينيين بالحلف الذي كان بينهم في عهد لاخيس أثناء الحرب حول ليونتيني، وتوسلوا إليهم أن يرسلوا أسطولاً لنجدتهم. وقد قدموا بالإضافة إلى ذلك عدة حجج، أهمها أن من الخطر أن تترك سيراكوزة، بعد أن قامت بطرد أهالي ليونتيني، لتستمر في اجتثاث ما بقي من حلفاء أثينا حتى تستولي في النهاية على صقيلية بأكملها؛ إذ سيواجهون بعدئذ، إن آجلاً أم عاجلاً، السيراكوز وهم من الدوريين، فيأتون بقوة عظيمة لنجدة أبناء قومهم وينضمون إلى البيلوبونيز الذين ١
كانوا قد انتدبوهم أصلاً لبناء المستوطنات لهم، وهذا كفيل بأن يقضي على سلطان أثينا قضاءً مبرماً. فالحكمة تقتضي إذن أن تستفيد أثينا مما بقي لها من حلفاء لتضع حداً لسيراكوزة، خاصة وأن إيجيستا سوف توفر المال اللازم للحرب.

وكان الأثينيون قد سمعوا الإيجيست ومناصريهم يرددون هذه الحجج مرة بعد مرة

في مجالسهم، فجنحوا بادئ الأمر إلى إيفاد مبعوثين إلى إيجيستا ليتأكدوا من أن هذا المال الذي تحدثوا عنه متوفر حقاً في الخزانة والمعابد، وليتعرفوا بالوقت ذاته إلى حقيقة الوضع في الحرب مع السيلونتيين. وهكذا توجه وفد من أثينا إلى صقيلية.

وفي الشتاء ذاته زحف الإسبارطيون وحلفاؤهم - عدا الكورنث- وتوغلوا في أراضي آرجوس وخربوا رقعة صغيرة من الأرض، وأخذوا منها عربات محملة بالغلال. ووطّنوا المنفيين من آرجوس في أورنية وتركوا حامية صغيرة من الجيش. ولقد قفل هؤلاء عائدين بجيشهم إلى أوطانهم، بعد أن عقدوا هدنة محدودة بين أورنية وآرجوس، يحظر بموجبها على أي طرف الاعتداء على أراضي الطرف الآخر. وما هو إلا حين حتى وصلت قوة من أثينا من ثلاثين سفينة وستمئة من المشاة الثقيلة، وزحف الأرجوس بكامل جيشهم مع الأثينيين وحاصروا القوم في أورنية طوال النهار. وفي الليل أفلحت الحامية بالهرب، مستغلة بُعْد معسكر محاصريهم مسافة عن المدينة. ولما اكتشف الأرجوس الأمر في اليوم التالي عمدوا إلى تدمير أورنية وتسويتها بالأرض، ثم عادوا إلى بلدهم، وكذلك عاد الأثينيون وسفنهم إلى بلدهم. كما أن الأثينيين كانوا قد أرسلوا إلى ميثونة على حدود مقدونيا قوة من الخيالة بالإضافة إلى المنفيين المقدونيين في أثينا، وذلك بهدف شن الغارات على أراضي بيرديكاس. فأرسل الإسبارطيون سفارة إلى الخاليكيد في تراقية- الذين كان بينهم وبين أثينا هدنة يمكن إنهاؤها بإنذار مدته عشرة أيام- يحثونهم على إنهاء الهدنة والانضمام في الحرب إلى جانب بيرديكاس، إلا أن هؤلاء رفضوا الاستجابة لطلبهم. وهكذا انتهى فصل الشتاء ومعه العام السادس عشر من الحرب التي دوّن وقائعها ثوسيديديس.

الفصل الثاني: جدل حول صقيلية وإبحار الحملة إليها

في مطلع ربيع هذه السنة عادت البعثة الأثينية من صقيلية، وبرفقتها الإيجيست وهم يحملون ستين تالنتاً من الفضة غير المسكوكة ، وهي أجر ستين سفينة لمدة شهر، إذ كانوا يعتزمون طلب هذا العدد من السفن من أثينا.

فما كان من الأثينيين إلا أن جمعوا المجلس وراحوا يُصغون لما يقوله الإيجيست والوفد الأثيني، وكان التقرير مشجعاً، ولكنه ليس صادقاً، وخاصة في موضوع المال الذي قيل إنه متوفر بمقادير ضخمة في الخزانة والمعابد. وهكذا جاء التصويت مؤيداً لإرسال ستين سفينة إلى صقيلية، وعلى رأسها قادة بكامل الصلاحيات، وهم ألسيبياديس بن كلينياس ونيسياس بن نيسراتوس وليماخوس بن زينوفانيس، محملين بالتوجيهات لمساعدة الإيجيست ضد السيلونتيين واستعادة ليونتيني أيضاً، إن سارت أمور الحرب على هواهم، والقيام بالتدابير التي يرون أنها تلائم مصالح أثينا على الوجه الأكمل في صقيلية.

وبعد خمسة أيام التأم مجلس آخر لمناقشة أسرع السبل لتجهيز السفن للإبحار، والتصويت على ما قد يطلبه القادة من مؤن إضافية في هذه الحملة. ولم يكن نيسياس راضياً عن اختياره للقيادة؛ إذ كان يرى أن المدينة ترتكب خطأ، وهي تتوسل بذريعة واهية تبدو عذراً منطقياً، بينما تهدف في الواقع إلى غزو صقيلية كلها ، وهذا مشروع خطير بالغ الخطورة. ولذلك تقدم الرجل ليلقي خطبة آملاً أن تصرف الأثينيين عن مخططهم. وكانت نصيحته كالتالي:

" إنه لصحيح أن هذا المجلس قد استدعي لمناقشة ما ينبغي اتخاذه من الاستعدادات للإبحار إلى صقيلية، ولكني ما زلت أعتقد أن هذه قضية تستدعي المزيد من التفكير؛ كأن نسأل هل من المفيد لنا أن نبعث بهذه السفن إطلاقاً؟ وإني لأعتقد أنه يحسن بنا ألا

نستعجل النظر في أمر على هذا القدر من الخطورة ثم نتورط لحساب غرباء عنا في حرب لا تعنينا أبداً. وإذا كان الأمر يتعلق بي شخصياً فإن مشاركتي في الحرب ستعود عليّ بالشرف والتكريم. وأنا أقل الناس خوفاً على سلامة شخصي. ولست أقصد بذلك أن من يُعنى بسلامته وملكه هو مواطن سيء؛ فالرجال الذين على هذه الشاكلة هم في الواقع أشد الناس حرصاً على رفاه مدينتهم وسؤددها، يحملهم على ذلك خشيتهم على مصالحهم. وبعد، فكما أني لم أنطق في أي يوم من الأيام بما يخالف ما أؤمن به لأكسب مجداً كذلك لن أخالف قناعتي الآن، بل سأعرض أمامكم ما أرى أنه أفضل سبيل. إني لأعلم أن خطابي لن يغير من طبعكم مهما كان هذا الخطاب قوياً أو مؤثراً، ومن غير المجدي أن أنصحكم بأن تحرصوا على ما لديكم وألا تجازفوا بما هو في ملككم في سبيل أرباح مشكوك في أن تتحقق لكم وهي من أمر المستقبل. لذلك سوف أقتصر على بيان خطأ التوقيت لمثل هذه المغامرات وأن نيل مطامحكم لن يكون بالأمر اليسير.

" وإليكم ما عندي: إنكم بذهابكم إلى صقيلية تتركون وراءكم أعداء كثر، وأنتم راغبون على ما يبدو في كسب المزيد منهم هناك وتنشدون الانشغال بهم أيضاً. ولربما تحسبون أن معاهدة السلام التي عقدتموها توفر لكم الأمن. ولا شك بأن هذه المعاهدة ما دمتم لا تقومون بأي تحرك سوف تظل قائمة اسماً – ذلك أنها باتت اسماً بلا محتوى بفضل تآمر أشخاص معينين هنا وفي إسبارطة–، ثم لن تحول دون مهاجمتنا من أعدائنا حالما تنزل الهزيمة بقوة مهمة من قواتنا في أي مكان من العالم. فهم لم يطلبوا السلم في المقام الأول إلا بسبب انقلاب حظوظهم. ولقد فرضت عليهم فرضاً. ولنا الغلبة فيما يتصل بالمكانة والهيبة. وبعد، فإن في المعاهدة ذاتها عدداً من النقاط لم ينجل أمرها وما تزال معلقة. وهناك بعض الدول وهي دول على قدر من الأهمية أيضاً، لم تقبل بشروط السلم حتى على ما هي عليه. وبعض هذه الدول في حرب صريحة معنا، وأخرى ما تزال ممتنعة عن القبول بها؛ لأن إسبارطة لم تأت بحركة بعد، ولكن هدنتنا وهذه الدول

نتجدد كل عشرة أيام. والأرجح أن هذه الدول ستكون في منتهى الشوق على محاربتنا متى وجدت قواتنا موزعة – وهذا بالضبط ما نستعجل القيام به – وسينضم إليهم الصقيليون الذين كانوا يؤثرون التحالف معهم في الماضي على بقية الأقوام. تلكم نقاط جديرة كلها بالاعتبار. ونحن لم نلق مراسينا بعد في الميناء بسلام، كما أن هذا ليس بالوقت المناسب للمجازفة أو كسب إمبراطورية جديدة. ونحن لم نحكم قبضتنا بعد على هذه التي لدينا؛ ذلك أن حقيقة الأمر هي أن الخاليكيد في تراقية قد أعلنوا العصيان علينا منذ سنوات عدة، ولم نتمكن من كسر شوكتهم بعد. وهناك مناطق عدة لا ننال فيها من رعايانا إلا طاعة الكاره. وها نحن نهرع الآن لمساعدة إيجيستا – دون كل البلدان – وهي حليف لنا، وعلى حد قولنا، نزل به عسف، ونحن في غضون ذلك نلزم السكون حيال تجاوزات العصاة علينا طوال الوقت.

" وأنتم تعلمون أنه متى كُسرت شوكة العصاة أسلموا قيادهم وظلوا على هذه الحال. أما الصقيليون فإنهم وإن كسرنا شوكتهم يظلون كثرة وبعيدين عنا ويصعب لذلك حكمهم. فليس من العقل أن نمضي لقتال قوم لا يمكن السيطرة عليهم، ولو كُسروا، بينما لو فشلنا أصبح وضعنا أشد سوءاً مما كان قبل المحاولة. والرأي عندي أيضاً أن صقيلية ليست خطراً علينا وهي على حالها الآن، ولسوف تكون أقل من ذلك إذا ما سيطرت عليها سيراكوزة – وهو الاحتمال الذي يلوح به الإيجيست دائماً لإخافتكم –. ولعل بعض الصقيليين يخرجون لقتالنا في هذه الأحوال بمبادرة منهم ولهوى لإسبارطة عندهم، ولكنه من المستبعد – إذا افترضنا أنهم بأجمعهم انضووا تحت جناح سيراكوزة – أن تقوم إمبراطورية بقتال إمبراطورية أخرى، وآية ذلك أنهم لو انضموا إلى البيلوبونيز في القضاء على إمبراطوريتنا لوجدوا على الأرجح أن إمبراطوريتهم سوف تدمر على يد ذات القوم وللأسباب ذاتها. ولذلك فإن أفضل طريق لنا لنجعل الهيلينيين في صقيلية يخشوننا هي ألا ندخل في تلك الأصقاع أبداً، وإلا فإن الأسلوب الآخر هو بأن نستعرض

قوتنا أمامهم ثم نغادر المنطقة بعد حين ونعود أدراجنا إلى بلدنا. وكلنا يعلم أن الأدعى للإعجاب والأسلم لمن كان يتمتع بالشهرة أن يكون بعيداً عن الخضوع للامتحان فإذا أتت الرياح على عكس ما نشتهي قلّ شأننا عندهم فوراً، وانضموا إلى أعدائنا في الهجوم علينا. وهذه في واقع الأمر، أيها الأثينيون، تجربتنا مع إسبارطة وحلفائها. ذلك أن نجاحكم في التغلب عليهم - الذي ما كنتم تتوقعونه، إذ كنتم تخشوهم في البداية جعلكم تحتقرونهم اليوم وتتشوّقون لغزو صقيلية. ولكن مصائب العدو ليست مبرراً كافياً للاعتزاز بالنفس. فالثقة بالنفس حقاً لا تكون إلا إذا أتقن المرء مخططاته. وعلينا أن ندرك أن الإسبارطيين نتيجة للمهانة التي عانوها، يحملون هماً واحداً، لا ينقطع يشغل خواطرهم وهو كيف يمكن لهم أن يستعيدوا هيبتهم ومكانتهم بالإطاحة بنا، ولو كان الآن بعد طول العهد ، وذلكم أمر طبيعي إن أخذ المرء في اعتباره أن الشرف العسكري هو عندهم المبدأ والمنتهى. وهكذا فلسوف نرى - إن حافظنا على سلامة التفكير - أن غايتنا من القتال لا علاقة لها، من قريب أو بعيد، بالإيجيست في صقيلية، وهم الذين لا يتصلون بنا بصلة، بل ولا يتحدثون بلغتنا. إن المشكلة الحقيقية التي ينبغي أن تشغلنا إنما هي الدفاع بقوة عن أنفسنا أمام تآمر الطغمة الحاكمة في إسبارطة.

" كذلك يجدر بنا أن نتذكر أننا لم نخلد للراحة إلا مؤخراً من الوباء العظيم الذي نزل بنا زمن الحرب، وأخذنا نعوض الخسائر التي منينا بها في الرجال وفي المال. فالصواب إذن أن ننفق الأرباح التي بدأت بالتدفق علينا في بلدنا وننعم بها بأنفسنا، عوضاً عن تبديدها على أولئك المطرودين من بلادهم والذين يتسولون المعونة، وهمهم في هذا كله أن يرووا الأكاذيب ويحملوننا على تصديقها، هؤلاء الذين لا يملكون ما يقدمونه سوى الخطابات ويتركون كل خطر للآخرين، فإذا نجحوا لم يبدوا التقدير اللائق، أما إذا نالهم الفشل بأي حال ورطوا أصدقاءهم في خرابهم.

" ولا ريب بأن هناك شخصاً يجلس بيننا وقد غمره السرور لاختياره للقيادة سوف يلح عليكم – لأسباب شخصية وأنانية – للقيام بالحملة، ومما يزيد من إلحاحه صغر سنه بالنسبة لهذا المنصب الذي تبوأه. وصاحبنا ينشد إعجاب الناس لما لديه من الجياد، ولأن مثل هذه الأشياء تكلف المرء إنفاقاً عظيماً فإنه عاقد الآمال على نيل بعض المكاسب من منصبه. فلتحذروا منه بعد ولا تدعوا له الفرصة لتعريض الدولة للخطر ليعيش حياة براقة. ولتتذكروا أنه مع هؤلاء الناس يترافق سوء إدارة القضايا العامة مع البذخ على المظاهر الشخصية، ولتتذكروا أيضاً أن هذا شان خطير وليس بالأمر الذي يترك القرار فيه وتنفيذه لشاب عجول.

" وأني لأنظر بوجل فأرى حزب هذا الشاب ذاته يجلس إلى جانبه في هذا المجلس وقد دعاهم لتأييده، وأنا من جهتي أدعوكم لتأييد من هم أكبر منه سناً بينكم. وإذا كان احدكم يجلس بجانب أحد أنصاره فليحرص ألا يسمح له بتهديده أو إخافته من أن يوصف بالجبن إن لم يصوت لصالح الحرب. ولا تتبعوا الأهواء الضالة مثل هؤلاء فتجرون وراءهم. وتذكروا أن النجاح هو من ثمار بُعد النظر والأماني لا تأتي بالمغانم. إن بلدنا الآن على شفا أعظم خطر واجهته. فليكن هذا البلد في أذهانكم، ولترفعوا أيديكم معبرين عن معارضتكم لهذا الاقتراح، ولتدلوا بأصواتكم تأييداً لترك الصقليين ليتمتعوا ببلدهم وتدبير شؤونهم في نطاق الحدود التي تفصلنا عنهم – والمناسبة لنا تماماً – وهي البحر الإيوني للملاحة على امتداد الساحل والبحر الصقيلي للملاحة المباشرة. وليعلم الإيجيست خصوصاً أن السلم من شأنهم وحدهم مثلما بادروا للحرب ضد السيلونيين دون مشاورة أثينا. ولن نتخذ في المستقبل – كما كان شأننا في الماضي – حلفاء يحتاجون النجدة في الشدة، ثم إذا احتجنا لعونهم تقاعسوا عن تلبيتنا.

"وإنني أدعوك، يا رئيس المجلس– فشأنك كما تعلم أن ترعى مصالح المدينة وأنت الذي يود أن يبرهن على صلاح وطنيته– أن تطرح هذا الموضوع للتصويت ولتدع

الأثينيين يتداولون فيه مرة أخرى. أما إذا خشيت أن تعرض الأمر للتصويت ثانية فتذكر أنه لن يؤخذ عليك انتهاك القانون وهناك العديد من الشهود إلى جانبك. وانظر إلى نفسك بأنك تتصرف في هذا الشأن مثل الطبيب لمدينتك المضللة، وأن واجب المسؤولين هو بذل ما في طاقتهم من أجل خير بلدهم، أو الامتناع في مطلق الأحوال عن كل أذى يمكن تفاديه."

وبعد خطاب نيسياس هذا توالى الأثينيون في الإدلاء بآرائهم، فكان معظمهم يؤيد القيام بالحملة وعدم التراجع عن قرار بتّ فيه وقضي الأمر، وإن يكن بعضهم قال برأي آخر. وكان أشد المتحمسين للحملة ألسيبياديس بن كلينياس الذي أراد أن يعارض نيسياس، وهو الذي لم يتفق وإياه في رأي في السياسة من قبل، وقد سمعه للتو يشن عليه في خطابه هجوماً تناول شخصه. ومع ذلك فقد كانت لديه دوافع أقوى من ذلك، منها: شهوته للقيادة ومطامحه بالقضاء على صقيلية وقرطاجة، وهذان نصران لو تحققا لعادا عليه بالمجد والثراء معاً. وكان ما يحمله على المطامح شخوص أنظار الناس إليه ثم شغفه بسباق الخيول وسوى ذلك من مظاهر الترف والإسراف التي كانت تفوق موارده. وقد كان لهذا في الواقع أبعد الأثر في سقوط مدينة أثينا. ذلك أن معظم الناس صاروا يخشون سمة في طبيعته غدت تتجاوز المعتاد والمألوف وتجلت في شذوذ حياته الخاصة وعاداته وكذلك بالروح التي كان يتصرف فيها في كل مناسبة. وقد حملت هذه المسالك الناس على الاعتقاد بأن في الرجل طموحاً إلى التسلط واحتكار السلطة، فانقلبوا عليه. فإن تكن إدارته للحرب اتسمت بالمقدرة العالية إلا أن مسلكه في الحياة غدا مدعاة لنفور الناس من شخصه؛ فسلموا مقاليد أمورهم لغيره، ولم يطل الأمر حتى أحال هؤلاء الحكام المدينة إلى خراب.

أما في هذه المناسبة فقد تقدم ألسيبياديس وعرض للأثينيين النصيحة التالية:

"أيها الأثينيون، لما كان نيسياس قد تناولني بالهجوم، فلا مناص من أن أبدأ بالقول : إنني الأحق بتولي القيادة وإني لكفء لهذا المنصب. أما هذا الحديث كله عما يؤخذ علي، فإنه حول أمور تضفي على أسلافي وعليَّ شرفاً وتزيد في عوائد الخير على بلدنا أيضاً. ولقد مضى زمن تهيأ فيه للهيلينيين أن الحرب قد قضت على مدينتنا، لكنهم عادوا فرأوا فيها عظمة أكثر من حقيقتها، وذلك بفضل حسن بلائي في الألعاب الأوليمبية التي دخلت مباريات السباق فيها بسبع عربات - وكانت تلك سابقة لم تعرف الألعاب مثلها من قبل - فحُزت على المرتبة الأولى والثانية والرابعة، ولذلك حرصت على أن ترتب الأمور كلها على النحو اللائق بالنصر الذي تحقق لي. وقد جرت العادة على أن تسبغ مثل هذه الأمور الشرف على من يفوز بها. وبما أن هذه الأمور قد تحققت فلا بد من أن توحي بالسلطان. وبعد فإن يكن من طبيعة الأمور أن يغبطني المواطنون لروعة أدائي في أثينا، بتوفير الجوقات وما إلى ذلك، إلا أن ذلك دليل للعالم الخارجي على قوتنا. والحق أن هذا الضرب من اللهو مفيد؛ إذ نجد رجلاً لا ينفق المال على متعته الشخصية وإنما بما يعود بالفائدة على مدينته أيضاً. وإنه لمن العدل تماماً ألا يوضع من يقيم لنفسه اعتباراً عالياً في موضع واحد مع سواه من الناس. ولا ريب بأن من كان في بؤس لا يجد من يقبل بمشاركته مصائبه. وكما أننا لن نرى من يقيم لنا عظيم اعتبار إن كنا من الفاشلين كذلك على الإنسان - وفق المبدأ ذاته - أن يتقبل الأمر إذا نظر إليه من علٍ من أصابوا نجاحاً؛ ذلك أنه ليس للمرء أن يطلب معاملة الند إلا أن يكون هو مستعداً لمعاملة سواه بمثل هذه المعاملة. ومبلغ علمي أن من كانت هذه حالهم - وكل من جعلهم تفوقهم في أي ميدان في مكانة بارزة - لم يحظوا بعطف الناس في حياتهم، وخاصة ممن كانوا أنداداً لهم أو كانت لهم صلة بهم، ولكن ما أن يمضي الزمن حتى تجدوا أناساً يزعمون لأنفسهم صلة بهم، حتى وإن لم تكن لهم علاقة بأولئك المبرزين، ثم ترون بلدانهم تفخر بهم كأبناء وطن وأصحاب مآثر، بعد أن كانت تنكر

عليهم كل صلة وتشير إليهم بالغرباء وأهل السوء. وذلك ما أهدف إليه وهو مطمحي، ولذلك كانت حياتي الخاصة هدفاً للنقد، غير أن جوهر الموضوع هو: هل لديكم من يفضلني في تناول الشؤون العامة؟ وتذكروا أنني من جمعَ أعظم الدول في شبه جزيرة البيلوبونيز، وأقام بينها حلفاً دون أن أعرضكم لخطر عظيم أو أحملكم على تكبد كلفة باهظة، وأنا الذي دفعت الإسبارطيين دفعاً للمجازفة بكل ما في طاقتهم في القتال في مانتينيا، ومازالوا إلى اليوم يراودهم الشك في قدراتهم بنتيجة تلك المعركة، مع أنهم كانوا المنتصرين فيها.

"ولقد وجدت الحجج المناسبة للتعامل مع قوى البيلوبونيز، فحملهم ما أبديت لهم من مقدرة على الثقة بي وإتباع نصائحي، وكنت يومئذ فتى قد عُرف عني ما تعرفون من جموح وطيش بالغي، على ما يقال. وإذن لا تخشوا مني الآن لأنني شاب، بل أفيدوا مما لدي من اتقاد الشباب ومما عرف عن نيسياس من التوفيق، فلكل منا فضائله فتجتمع لكم هذه وتلك. ولا تتحولوا عن الحملة على صقيلية بدعوى وجود قوة عظمى هناك قد نتوء بثقل التعامل معها؛ ذلك أن المدن الصقيلية تحفل بأعداد غفيرة من السكان وهم يتألفون من أخلاط من كل لون ومنحى، وتكوين المواطنين وترتيبهم في تغيير مستمر؛ وهذا ما يجعل هؤلاء القوم يفتقرون للشعور بأنهم يقاتلون في سبيل موطن الآباء والأجداد . ولن تجدوا بين هؤلاء من يجد ما يكفي من الدروع لحماية شخصه، كما لن تجدوا مؤسسة سليمة التكوين حسنة التنظيم على الأرض. وترون كل رجل منهم يمضي وقته محاولاً اقتناص ما يمكن اقتناصه من جمهرة الناس إما بالخطب المحكمة المنسقة وإما بالتحريض والعصيان، وغرض أحدهم طوال الوقت أن يمضي للعيش في بلد آخر، إن ساءت به الأحوال. ومثل هذا الجمع يكاد لا ينتظر منه أن يتبع سياسة واحدة متسقة أو الانضمام إلى سواه في عمل منسق. والأرجح أن يقبل كل منهم بعقد اتفاقيات منفصلة معنا، حالما نعرض عليهم اقتراحات مغرية، خاصة إذا كان هؤلاء القوم في صراع عنيف

بين أحزابهم، وهذا حالهم كما علمنا. أما المشاة الثقيلة عندهم فليسوا بالكثرة التي يدعونها. وهؤلاء لا يختلفون عن أمثالهم من الهيلينيين الآخرين؛، وأعدادهم لم ترق قط إلى ما تقدره كل دولة من القوة المتوفرة لديها. والحق أن الكذب في هذا عظيم، حتى إن بلاد هيلاس كلها لم تنجح حتى في هذه الحرب الدائرة أن تتسلح بما يكفي إلا بشق الأنفس.

"إذن فالوضع في صقيلية هو كما سبق لي الوصف، والذي بني على ما بلغني من المعلومات، بل الحق أن الأمر أيسر من ذلك؛ لأن هناك عدداً من الأقوام من غير الهيلينيين سوف ينضمون إلينا في الهجوم، بسبب من كراهية هؤلاء للسيراكوز. أما الوضع في بلادنا فإن نظرتم إليه نظرة سليمة فسوف تجدون أنه ليس هناك أمامنا ما يعوق تنفيذ هذا الأمر الذي عزمنا عليه. وهناك من يتحدث عن أعداء سوف نخلفهم وراءنا حين نبحر بسفننا، إلا أن آباءنا قد تركوا قبلنا الأعداء ذاتهم حين كانوا يقاتلون الفرس، وقد أقاموا الإمبراطورية، معتمدين في ذلك على أسطولهم وحسب. والبيلوبونيز لم يبلغوا من الضعف أمامنا ماهم عليه اليوم. والحق أنه لو كانت لديهم فعلاً بعض الثقة بقدرتهم على غزونا براً لما تأخروا عن ذلك، وذلك أمر في مستطاعهم سواء أبحرنا إلى صقيلية أم لم نبحر. والواقع أنهم لا يملكون أن يلحقوا بنا أذى بالأسطول الذي لديهم؛ لأننا سوف ندع أسطولاً وراءنا، وهو أسطول قادر على التصدي لأسطولهم.

"ويبدو لي إذن أن ليس ثمة حجة مقنعة تحملنا على أن نمسك أنفسنا أو تبرر الاعتذار لحلفائنا في صقيلية عن مد يد العون إليهم. ولقد كنا قد أقسمنا على مساعدتهم، وإنه لواجب علينا أن نساعدهم دون الاعتراض بأننا لم نتلق منهم عوناً من قبل. وإن الذي حملنا على اتخاذهم حلفاء لم يكن رغبتنا في أن يمدوننا بأسباب الدعم والمؤازرة بالرجال والسلاح هنا، وإنما ليكونوا شوكة في خاصرة أعدائنا في صقيلية، ما يمنعهم من التحرك ومهاجمتنا في عقر دارنا. هذه هي الطريقة التي فزنا فيها

بإمبراطوريتنا، وبهذه الطريقة بنيت الإمبراطوريات كلها، بالتقدم والاندفاع لمد يد العون لكل من يطلبه، سواء كانوا من الهيلينيين أم سواهم. ويقيناً لو ثابر كل على سكونه أو تقدم لأسباب عنصرية حين يكون الموضوع متعلقاً بمد العون لطرف من الأطراف فلن يكون لنا إلا القليل لنضيفه إلى إمبراطوريتنا، بل الأرجح أننا بذلك نجازف بخسارة ما لدينا. فالمرء لا يقف للدفاع عن نفسه فحسب حين يتصدى لهجوم قوة عظمى، بل يجب عليه أن يتخذ ما يلزم من الإجراءات لإحباط نية الهجوم أساساً. وليس بوسعنا ان نجري الحساب مثل ربة المنزل، لنقدر حجم الإمبراطورية التي نريدها على وجه الدقة. فالواقع أننا قد بلغنا مرحلة نحن مضطرون فيها للتخطيط لغزوات جديدة، كما أننا مضطرون للتمسك بما لدينا؛ لأننا نواجه خطر الوقوع تحت هيمنة قوى أخرى، إلا إذا أخضعنا الآخرين لسلطاننا. وأنتم لا تملكون تأمل فكرة الحياة الوادعة على نحو ما ينظر إليها الآخرون ، إلا إذا كنتم تفكرون في تغيير نمط حياتكم لتجعلوها شبيهة بنمط حياة أولئك الآخرين.

"وإذن فلنمض في هذه الرحلة وقد تأكد لنا أنه بمسيرنا إلى الأصقاع البعيدة نزيد من قوتنا داخل الوطن. ولسوف يكون لظهورنا الأثر المثبط لعجرفة البيلوبونيز حين يرون منا الاحتقار لحياة الدعة والهدوء التي نحياها الآن، وأبحرنا للقيام بحملة على صقيلية. ولسوف نغدو في الوقت ذاته، إما حكام بلاد هيلاس كلها، وهو أمر محتمل جداً، بتوظيف مكاسبنا في صقيلية، أو أننا سوف ننزل الضرر بالسيراكوز، وفي ذلك خير لنا ولحلفائنا. إن أمننا وسلامتنا مكفولان بأسطولنا، وإذن فالخيار أمامنا بأن نبقى هنالك أو نعود إلى الوطن ثانية، ويكفل لنا ذلك تفوقنا في البحر على كافة الصقيليين مجتمعين.

ولا يثبطن من عزيمتكم ما سمعتم من طروحات نيسياس الداعية إلى الامتناع عن التدخل، ثم تمييزه بين الشباب والشيوخ. ولنثابر بدلاً من ذلك على النظام القديم الذي كان يأخذ به آباؤنا من قبلنا الذين يجمعون في مجالسهم الشباب والشيوخ يطلبون

منهم المشورة، ورفعوا من شأن دولتنا فأصبحت لها المكانة التي هي عليها الآن. فليكن هذا شأنكم وأنتم تسعون لتعلو هذه المدينة إلى ذرا أعلى، مدركين أنه لا الشباب ولا الشيوخ قادرون على النهوض بأي أمر دون بعضهم بعضاً، وإنما تكون القوة في أقصاها حين تجتمع العناصر كلها، من الأنماط الضعيفة إلى العادية، إلى ذوي الحصافة والتدبير وعمق النظرة، وتكون ممثلة في مجالسنا. وتذكروا بعد أن المدينة - شأنها في هذا شأن كل شيء آخر - تُنهك تلقائياً إن ظلت في استرخاء ثم يصبح ما فيها من مهارات من مخلفات ماضٍ عفا عليه الزمن. أما في الصراع والتنازع فتزداد المدينة تجربة وتكتسب خبرة فوق خبرة، وتألف الدفاع عن نفسها لا بالخطابات وإنما بالأفعال. وإني لأرى على العموم، أن مدينة نشيطة بطبعها تنتهي سريعاً إلى خراب، إذا ما تحولت عن طبيعتها وغدت كسلة، وأن الرجال يبلغون أقصى درجات الطمأنينة بتقبلهم طابع شخصيتهم والمؤسسات التي لديهم، ولو لم تبلغ الكمال، والعيش بالتوافق معها قدر المستطاع".

كان ذلك خطاب ألسيبياديس. وقد أصبح الأثينيون - بعد أن أصغوا لكلمات الإيجيست وبعض المنفيين من ليونتيني الذين تحدثوا متضرعين يلتمسون المؤازرة، مذكرين القوم بالعهود والقسم - أكثر حماساً من قبل للقيام بالحملة. وأدرك نيسياس أنه فقد كل أمل بأن يحول القوم عن مسارهم بالحجج التي سبق أن عرضها أمامهم، غير أنه اعتقد أن ثمة إمكانية بأن يحملهم على التحول عن أفكارهم إن بالغ في تقدير القوات اللازمة للحملة. فتقدم من جديد وألقى الكلمة التالية:

" أرى أنكم، أيها الأثينيون، قد عقدتم العزم على القيام بالحملة، وإني لآمل أن تأتي ثمارها كما نشتهي جميعاً. ولسوف أعرض لكم رأيي والأمور على ما هي عليه الآن. إننا سوف نمضي لنحارب مدناً حسب ما لدي من المعلومات ذات قوة يعتد بها، وليست تابعة بعضها لبعض، ولا تريد ذلك النمط من التغيير الذي يسعدهم أن يتوسلوا به للإفلات من حكم متعسف وتقبل حكومة جديدة بشروط أكثر رفقاً بهم، وليس يرجح

بهم، في واقع الحال، أن يتخلوا عن حريتهم ليكونوا تحت حكمنا. كذلك هناك عدد كبير جداً من المدن الهيلينية بالنسبة لجزيرة واحدة. وباستثناء ناكسوس وكاتانة - وأحسب أنهما سوف تنضمان إلينا بسبب صلتهما العرقية بليونتيني - هناك سبع مدن أخرى مجهزة بالقوات البرية والبحرية وفق تنظيمنا إلى حد بعيد، وهذا يصدق بشكل خاص على سيلينوس وسيراكوزة، وهما هدفنا الرئيس في هذه الحملة. ولديهم أعداد كبيرة من المشاة الثقيلة والرماة بالقوس والنشاب والرماح القصيرة، وعدد كبير من السفن الثلاثية المجاذيف والكثير من الرجال ليجعلوا منهم بحّارة لها. ثم إن لديهم المال، وهو ليس مال الناس العاديين وحسب، بل المتوفر أيضاً في معابد سيلينوس، علاوة على أن سيراكوزة تحصل على الأموال من الفرائض المتوجبة على القطاف المبكر التي يدفعها السكان المحليين. ولكن أعظم ما يتفوقون به علينا هو ما لديهم من أعداد كبيرة من الجياد، وفي كونهم يزرعون ما يحتاجون إليه من الغلال، فلا يستوردون منها شيئاً."

"ونحن نحتاج لنتعامل مع مثل هذه القوة إلى ما هو أكثر من أسطول وجيش عرمرم. نحتاج فوق ما لدينا جيشاً ضخماً من المشاة يبحر معنا إذا أردنا لأعمالنا أن تبلغ ما نطمح إليه، وينبغي ألا يعوق حركتنا ما لديهم من الخيالة، خاصة إذا كانت المدن خائفة منا فاجتمعت في مواجهتنا، ولم يبق لدينا من الأصدقاء سوى الإيجيست ليمدوننا بالفرسان حتى نتصدى لهم. ولسوف يكون من العار أن نضطر للانسحاب أو طلب التعزيزات لاحقاً بسبب قصر النظر في تقدير الأمور منذ البداية. وإذن فيجب علينا أن نبدأ بقوة كبيرة قادرة على القيام بمهمتها، وأن ندرك أن طريق البحث الذي سنركبه طويل ويمتد بعيداً عن وطننا لنمضي في حملة تختلف كل الاختلاف عن كل ما خبرتم من قبل وخضتم ضد أي من الدول التابعة لكم في هذا الجزء من العالم، حين كان لكم حلف تستندون إليه ويسهل الحصول على المؤن عند الحاجة من أرض صديقة. وعوضاً عن كل هذا سوف ننقطع عن وطننا مسافرين إلى بلد مختلف عن بلدنا أشد الاختلاف،

يشق حتى على المراسل بلوغ أثينا خلال شهور الشتاء الأربعة.

"وفي اعتقادي- في ضوء ما سلف ذكره- أنّ علينا أن نمضي برفقة جيش ضخم من المشاة الثقيلة من أثينا وحلفائنا الآخرين من الدول التابعة ومن نستطيع تجنيدهم لقاء أجر من أرض البيلوبونيز. ولا بد من أن يكون معنا، بعدُ، أعداد كبيرة من الرماة بالقوس والنشاب والمقاليع لنتمكن من الصمود أمام خيالة العدو. كذلك لا محيص لنا عن امتلاك التفوق الحاسم في البحر ليسهل علينا جلب مؤونتنا. ثم علينا أن نأتي معنا بما نحتاج إليه من الغلال - القمح والشعير المجفف - وعلينا جمع عدد من الخبازين المأجورين من المطاحن، تفادياً للحرج، فإذا ما تقلبت الأنواء وأحوال الطقس يستمر إمداد الحملة بالطعام. وغنيّ عن القول أن هذه حملة ضخمة لا تقدر كل مدينة على تخديمها. وعلينا أن نتهيأ في مجالات عديدة أخرى أيضاً ونستعد مااستطعنا لتجنب الاعتماد على سوانا في تدبير شؤوننا. ويجب علينا أن نحمل معنا على وجه الخصوص مقادير كبيرة من المال، وعليكم أن تثقوا، بقدر ما يتعلق الأمر بإيجيستا، بأن المال متوفر نظرياً أكثر منه في الواقع.

" وإذن فعلينا أن نغادر أثينا ومعنا قوة لا تكافئ قواتهم فحسب، باستثناء عدد المشاة الثقيلة، وإنما تتفوق عليها تفوقاً عظيماً في كل مجال، وحتى في هذه الحال، فمن الصعوبة بمكان كسر العدو، ثم الخروج من المعركة بسلام. وعلينا أن نتصرف في هذا كله على أساس الافتراض بأننا ماضون بتأسيس مدينة وسط أقوام غرباء عنا، ووسط الأعداء. ومن ينهض بهذا الأمر إما أن يكونوا سادة البلد منذ اليوم الأول لنزولهم على اليابسة أو أن يدركوا - إن فشلوا - أن العداء والكراهية سوف يحيطان بهم من كل جانب. ولخشيتنا هذا الأمر ومعرفتنا أننا سوف نحتاج القدر الكبير من المشورة الصائبة والكثير من الحظ - وهذا أمر يصعب على المرء الوثوق به، فما نحن إلا بشر-، فإني أود ألا أدع للحظ إلا أقل المجال قبل أن نسلم الشراع للريح، ونمضي بجيش وفرنا له كل

أسباب السلامة بعد تقدير الأمور حق قدرها. وهذه في اعتقادي أفضل طريقة يمكن أن تكفل للمدينة مصالحها العامة وتوفر الطمأنينة لأولئك الذين سوف يخوضون الحملة. وإذا كان هناك من يرى رأياً مختلفاً فإنني أدعوه ليتسلم القيادة عوضاً عني."

ولقد اعتقد نيسياس حين ألقى خطبته أنها ستؤدي إما إلى تثبيط همة الأثينيين حين يطالعهم حجم التسليح المطلوب؛ فيقلعون عن فكرة الحملة، أو إلى أن يكفل للحملة السلامة قدر الإمكان، إذا أكره على تولي القيادة.

ولكن الأثينيين كانوا أبعد ما يكون عن أن تنال المصاعب في الرحلة من اشتهائهم لها؛ فأصبحوا أشد تلهفاً لخوضها مما كانوا عليه قبل حديثه، وهو نقيض ما كان نيسياس قد تخيل وقوعه. فرأوا نصيحته أفضل نصيحة ووجدوا أن الحملة باتت أمراً مأموناً. وسرى بين جمع الحاضرين حماس شديد للمشروع الذي أقبلوا عليه. وخطر ببال كبارهم أنهم إما سوف يقومون بإخضاع البلاد التي يقصدونها، أو مهما كانت الحال فإن الأذى لن يطالهم بفضل ضخامة الحملة التي توفرت لهم. أما الشباب فكان لديهم التوق للاطلاع على البلاد البعيدة وخوض التجارب، وهم واثقون من أنهم لا ريب عائدون إلى بلدهم سالمين. وأما العامة والجنود البسطاء فقد وجدوا في الأمر ما يعود عليهم في الوقت الحاضر براتب، وفي توسع الإمبراطورية إمكانية العمل المأجور الدائم. وكان من نتيجة هذا الحماس المفرط الذي طغى على أغلبية المجلس أن باتت القلة التي كانت تعارض الحملة تخشى أن يعتقد بها الجبن إن صوتت ضدها، ولذلك لزم هؤلاء الصمت.

وفي النهاية تقدم أحد الأثينيين مخاطباً نيسياس بأن ليس ثمة ما يدعو للتذرع بالأعذار أو المماطلة، فليعلن الآن أمام الجميع الأسباب التي تحمل الأثينيين على التصويت باختياره. فرد نيسياس متمهلاً، قائلاً: إنه سوف يعرض رأيه بمزيد من التفصيل مع زملائه في جو أكثر هدوءاً. وفي الوقت الحاضر فإنه يرى ضرورة أن يتوفر

لهم مئة سفينة ثلاثية المجاذيف، أما وسائل النقل فتتولاها الملاحة الأثينية بالعدد الذي يتفق عليه. وعلى الحلفاء أن يساهموا بنصيبهم أيضاً، وأما المشاة الثقيلة، الأثينية والحليفة فينبغي ألا يقل عددهم عن خمسة آلاف أو أكثر، إن كان ذلك ممكناً، ثم ينبغي أن تكون بقية القوة مناسبة من حيث المصدر - رماة الأسهم من أثينا، ورماة المقلاع من كريت - وينبغي أن يتم تجهيز هؤلاء، وكل ما يبدو ضرورياً لأن يكون معهم.

فلما سمع الأثينيون ما قاله نيسياس أصدروا على الفور قراراً يمنح القائدين كامل السلطات بتحديد ما يلزم للجيش والحملة عموماً من الرجال والسلاح والعتاد، والتصرف وفق ما يريانه من مقتضيات المصلحة. وبعد ذلك بدأ الإعداد للحملة؛ فأرسلت التوجيهات إلى الحلفاء، ووضعت في أثينا قوائم بالجنود والبحارة والمشاة الثقيلة الذين ينبغي استدعاؤهم. وكان من اليسير تدبير لوازم الحملة الآن بعد أن أبلت المدينة لتوها مما أصابها من أثر الوباء الكبير وسنوات متصلة من الحرب، وتوفر لها أعداد من الشباب، الذين كانوا فتية قبل حين، ثم توفر لها المال بفضل الهدنة.

وبينما كانت الاستعدادات للحملة جارية على قدم وساق وجد أهالي أثينا أن جميع التماثيل الحجرية التي تزين مداخل بيوت علية القوم والمعابد - وهي المعروفة بالهيرماي، والتي تعتبر من المعالم الوطنية وتصور أشكالاً منحوتة من الحجر - قد شوهت وجوهها في ليلة واحدة. وظلَّ الفاعلون مجهولين، فعرضت الدولة جوائز مالية كبيرة لمن يدل على هؤلاء، كما صدر مرسوم يكفل الحصانة لكل من يدلي بمعلومات عن أي عمل آخر يدبر لتدنيس المقدسات، سواء كان هذا المتبرع مواطناً أم غريباً أو من الأرقاء. وقد اعتبرت هذه القضية أمراً بالغ الخطورة، باعتبارها فألاً سيئاً للحملة ودليلاً على مؤامرة يدبرها عصاة للإطاحة بالديمقراطية في البلد.

وأخذت المعلومات ترد من بعض الغرباء المقيمين والخدم والتابعين، ولم يكن ما حمله

هؤلاء يتعلق بمسألة تماثيل الهيرماي، ولكنهم تكلموا عن حوادث أخرى وقعت قبل ذلك الحين من عبث بعض الشباب السكيرين وتقليدهم الطقوس السرية المقدسة بشكل ساخر في بيوت خاصة. وكان من بين من أشارت إليه الأصابع ألسيبياديس؛ فاتخذ كارهوه هذا الاتهام وسيلة للنيل منه بعدما اعترض طريقهم للحفاظ على مواقع الزعامة، ومن اعتقد أنهم بإزاحته من دربهم يخلو لهم الطريق لاحتلال الموقع الأول في البلاد. فذهب هؤلاء يضخمون القضية ويثيرون أقصى ما يستطيعون من الضجيج حول قضية الطقوس السرية وتشويه النصب بالزعم أنها بعض من مؤامرة للقضاء على الديمقراطية، وألسيبياديس ضالع فيها، مستشهدين على ذلك بأسلوبه غير المألوف والطابع غير الديمقراطي الذي يسم نهجه في الحياة عموماً.

ولقد أنكر ألسيبياديس التهم التي وجهت إليه فوراً، وأعلن استعداده للمَثول أمام المحكمة لتبرئة نفسه قبل مغادرته على رأس الحملة التي اكتمل الاستعداد لها الآن، ولِيُنظر إن كان قد أتى بأي سوء مما نسب إليه. ولو ثبتت الاتهامات الموجهة إليه لكان عليه أن يتحمل العقاب، أما إذا برئت ساحته فإن القيادة تعقد له. ورفع رجاءه يومئذ بألا يصغي القوم للهجمات التي تشن عليه أثناء غيابه، وقال: إن للقوم أن يحكموا بإعدامه في التو، إن كان آثماً فعلاً، وذهب إلى القول: إنّ من غير الحكمة أن يولّى قيادة مثل هذا الجيش الجرار وهذه الاتهامات الخطيرة مسلطة فوق رأسه. ولكن أعداءه كانوا يخشون أن يكسب الجيش إلى صفه إن جرت المحاكمة في وقت قريب فينال رأفة الناس بسبب ما يتمتع به من شعبية بينهم منذ أن كسب مشاركة الأرجوس وبعض المانتينيين في الحملة. ولذلك مضى هؤلاء يسعون جاهدين لعرقلة الإجراءات ومنع المحاكمة، وأخذوا يقدمون المزيد من المتكلمين في المجلس الذين دعوا إلى قيام ألسيبياديس بمهمته والإبحار فوراً، على أن تجري محاكمته بعد أيام معدودة من عودته. وقد قضت الخطة بأن تقدم بحقه بعض الاتهامات الخطيرة – وهو أمر يسهل عليهم تحقيقه في غياب الرجل–

ثم استدعائه وإحضاره للمثول أمام المحكمة. وكان القرار أن يبحر السيبيادس مع حملته.

بعد ذلك أبحرت الحملة- والصيف في منتصفه- متجهة إلى صقيلية. وكان معظم الحلفاء والسفن التي تحمل الغلال والقوارب التي تنقل العتاد، قد تلقوا تعليمات بالتجمع في كورسيرا لعبور البحر الأيوني من تلك النقطة دفعة واحدة إلى النتوء البري عند إيبجيا. أما الأثينيون ومن معهم من الحلفاء الذين كانوا في أثينا في ذلك الحين فقد نزلوا إلى بيرايوس في فجر ذلك اليوم المحدد وركبوا السفن ورفعوا أشرعتهم مبحرين إلى وجهتهم. ولقد نزل معهم بقية الشعب، بل كل سكان أثينا تقريباً من مواطنين وغرباء، ورافقوهم حتى بيرايوس. وكان لكل واحد من أهل البلاد من يريد أن يودعه سواء كان من الأصدقاء أو الأقارب أو الأبناء، وكلهم يحدوهم الأمل. وجميعهم ينوحون فتختلط صيحات التهليل بأصوات النحيب، وهم يفكرون بالانتصارات التي سوف تتحقق لهم كما في أولئك الذين يمضون في تلك الرحلة الطويلة إلى الأرض البعيدة وقد لا يرونهم ثانية. ولما حانت لحظة الافتراق مثلت أمام الجميع تلك الأخطار التي تنتظر المغادرين، وظهر جلال الموقف بصورة أوضح من الوقت الذي جرى فيه التصويت للقيام بالحملة، ومع ذلك فقد سرهم ما شاهدوا من أسباب القوة التي لديهم، ومدى ضخامة كل سلاح يعرض أمام أعينهم. أما الغرباء وسواهم ممن أمَّ المشهد فكان حضورهم للاستمتاع بالعرض وضخامة المشروع الطموح.

ولا ريب أن هذه الحملة التي نزلت الآن البحر كانت أضخم وأبهى قوة تخرج من مدينة واحدة وأعلاها كلفة. أما من حيث عدد السفن والمشاة الثقيلة فإنها لم تكن تزيد عن القوة التي خرج بها بيركليس إلى أبيداروس والقوة المماثلة التي وُجهت إلى بوتيدايا بقيادة هاجنون وكانت تتألف من أربعة آلاف من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من الخيالة الأثينيين ومئة سفينة ثلاثية المجاذيف أثينية أيضاً، بالإضافة إلى خمسين سفينة أخرى من

ليسبوس وخيوس والكثير من جنود الحلفاء أيضاً. ولكن تلك القوة لم تقطع من الرحلة إلا شوطاً قصيراً ولم تكن مجهزة إلا بالعتاد العادي، أما هذه الحملة فقد وضع في الحسبان عند التخطيط لها أنها سوف تمضي وقتاً طويلاً بعيداً عن موطنها، وجهزت لخوض المعارك على الوجهين، حيثما اقتضت الظروف، براً أم بحراً. وكان الأسطول على درجة عالية من الكفاءة وقد كلف القادة والدولة معاً الكثير من المال. والبحار يتقاضى مبلغ دراخمة واحدة في اليوم من الخزانة التي وفرت كذلك السفن الفارغة — ستون سفينة حربية وأربعون سفينة لنقل المشاة الثقيلة — وجميعها مجهزة بأفضل الطواقم المتوفرة. وكان قادة السفن أيضاً يدفعون أجوراً إضافية، غير ما تدفعه الخزانة للبحارة وبقية الطواقم، كما كانوا يتكلفون النفقات الباهظة في صنع التماثيل لمقدمة السفينة وسوى ذلك من أشكال الزينة، وكل منهم يتبارى في إبراز سفينته ومظهرها وسرعتها. أما القوات البرية فقد اختاروا لها أفضل الرجال الجاهزين للخدمة، وكان التنافس بين الجميع على أشده، وكل منهم يحاول أن يبرز بين زملائه، ويتجشم أشد العناء بالاعتناء بسلاحه ودروعه وتجهيزاته الشخصية. ولم تقتصر هذه المنافسة على الأثينيين فيما بينهم وما يتصل بكل فرد منهم ومسؤوليته الخاصة، وإنما بدا الأمر لبقية بلاد هيلاس أشبه باستعراض لقوة أثينا وعظمتها أكثر منه حملة على عدو. كما أدت إلى إخراج كميات ضخمة من الأموال خارج المدينة، لو قام المرء بحساب ما أنفقته الدولة، وما بذله العاملون في صفوف تلك الحملة من أموالهم الخاصة — ومجموع النفقات يشمل ما سبق أن أنفقته الدولة وما بلغ أيدي كبار قادة الحملة ثم مدفوعات الأفراد في شراء التجهيزات الخاصة، وما أنفقه قادة الوحدات البحرية ومازال عليهم أن ينفقوه على سفنهم. وفوق هذا كله هناك الأموال التي حملها كل فرد معه على الأرجح لنفقاته الخاصة غير ما يتلقاه من الدولة للمضي في حملة طويلة، ثم ما حمله الجنود أو التجار معهم للمقايضة في معاملاتهم. ولم يكن ما جعل هذه الحملة تبلغ هذا القدر العظيم من الشهرة تلك الجرأة

المدهشة والتظاهرة المذهلة، وإنما ما عبرت عنه من تفوق عظيم في القوة على أولئك الذين كانت موجهة ضدهم، وكون هذه الرحلة هي أطول رحلة تخرج بها حملة من أثينا تحيط بها الآمال العريضة الواعدة التي سيكون لها أبعد أثر، بالمقارنة مع الوضع الحالي.

وفيما كان الرجال يتوافدون على السفن، وقد صار فيها كل ما أرادوا حمله في هذه الرحلة، تعالى نفير الأبواق، وأخذ الجميع يتلون الصلوات المعتادة قبيل الإبحار، يرددونها في وصلة واحدة كما يلقيها عليهم المنادي. وتم صب الخمر للجيش كله في طاسات، وراح القادة ورجالهم يريقون ما في كؤوسهم المصنوعة من الذهب والفضة تزلفاً. وقد شارك في تلك الصلوات والابتهالات حشود الناس على الشاطئ، من المواطنين وسواهم الذين يتمنون للحملة أن تنتهي بالظفر. ولما بلغ الدعاء ختامه وانتهت طقوس قربان إراقة الخمر، اندفعت السفن إلى البحر منتظمة في صف واحد أولاً، ثم راحت تتسابق فيما بينها حتى إيجينا. وتابعت تلك السفن خطها بسرعة مناسبة إلى كورسيرا حيث كانت تتجمع القوة الأخرى من الحلفاء.

الفصل الثالث: الجدل في سيراكوزة

تواردت أخبار الحملة إلى سيراكوزة من جهات عديدة، ولكن القوم هناك ظلوا ردحاً طويلاً لا يصدقون شيئاً مما كان يردهم من تلك الأخبار. والحق أن السيراكوز تنادوا ذات يوم للتداول فيما كان قد بلغهم عن أنبائها، فقام بعض الخطباء ممن كانوا يعتقدون بصحة قصة الحملة الأثينية وطرحوا رأيهم، كما أدلى بعضهم برأي مخالف. وكانت تلك خطباً كالتي سترد فيما يلي. وكان من بين أولئك المتكلمين هيرموكراتيس بن هيرمون، وقد رأى هذا أنه يحيط بحقائق الأمر فتقدم ليدلي بالنصيحة التالية:

"لربما اعتقدتم أني– مثل الآخرين– آتيكم بما لا يصدق حين أخبركم بالحقيقة عن هذا الغزو، وأنا أعلم أن المرء حين يخرج بقول أو يعرض نبأ يبدو خارقاً، فإنه لا يفشل في إقناع مستمعيه فحسب، بل يُظن به الغفلة. غير أني لن أخشى أن يُظن بي هذا الظن، ولن ألزم السكينة حين أجد مدينتي في خطر، وأكون واثقاً في أعماقي من إحاطتي أكثر من سواي بالموضوع الذي أخوض فيه. والواقع هو– على ما يبدو لكم من غرابته– أن الأثينيين قد خرجوا إلينا بقوة ضخمة جداً، بسبب تحالفهم مع إيجيستا وغرضهم استعادة ليونتيني، أما الواقع فهو أنهم يريدون الاستيلاء على صقيلية، وخاصة مدينتنا هذه، اعتقاداً منهم أنه متى تمت لهم الغلبة على سيراكوزة، سهل عليهم الاستيلاء على بقية الجزيرة.

"فلتفكروا ملياً إذن في أن هؤلاء سوف يحلون قريباً، وتدبروا أفضل السبل لملاقاتهم بكل مالدينا من طاقات وموارد. ولا تقللوا من شأن هذا الغزو وإلا تمَّ أخذكم على حين غرة، ولا تنكروا حقيقته لئلا تهملوا الخطير من الأمور. أما أولئك الذين يصدقون الأخبار فينبغي ألا تفزعهم جرأة الأثينيين وقوتهم، فنحن قادرون على الرد عليهم ومقابلة أذاهم بمثله. أما أنهم آتون بجيش عظيم فليس في ذلك بأس علينا، بل الحق أن في ذلك فائدة، حين يأخذ المرء بعين الاعتبار بقية الصقيليين الذين سوف يرهبهم الغزو؛

فيزدادون ميلاً إلى محالفتنا. وإذا ما استعطنا في النهاية إنزال الهزيمة بهم أو فرضنا عليهم التراجع والانكفاء دون بلوغهم الأهداف التي جاؤوا لتحقيقها – من المؤكد أنني لست تحت تأثير الخوف من أن ينالوا ما يتوقعون نيله – فإن هذا سيكون عملاً مجيداً، وهو في رأيي ليس بالأمر المستبعد. ويقيناً ليس هناك حملات كثيرة، هيلينية أو أجنبية، قدر لها النجاح حين توجهت إلى أهداف بعيدة عن الوطن؛ ذلك أنه يستحيل عليهم السير بأعداد تزيد على أعداد سكان البلاد التي تستهدفها الحملة وجيرانهم الذين سيوحد بينهم الخوف من الخطر الداهم. أما إذا سارت الأمور على غير ما يشتهون بسبب فقدان المؤن وهم في بلد غريب – وإن كانوا هم المسؤولون عن فشلهم – فلن يكون أمامهم إلا أن يسلموا رايات الحرب لأولئك الذين استهدفوهم بالتآمر. وهذا عين ما وقع للأثينيين الذين علا اسمهم بعد هزيمة الفرس على أيديهم، التي جاءت في معظمها بالمصادفة؛ لأن الفرس كانوا هم المبادرين بالحرب على أثينا. وليس بالأمر المستبعد أن يكون هكذا شأننا نحن أيضاً.

"فلنعد للأمور عدتها إذن ولنستعد للقاء هنا بروح الثقة؛ ولنبعث بالوفود إلى الصيقيل، لنطمئن إلى استعدادهم لمؤازرتنا أحياناً، وفي مناسبات أخرى لمحاولة عقد المعاهدات والتحالفات وإياهم. كذلك يجب علينا أن نبعث بالسفارات إلى بقية أنحاء صقيلية لشرح الخطر الذي يتهددنا جميعاً سواء بسواء، وإلى إيطاليا أيضاً لنكسب حلفاء لنا فيها أو لمنع استقبالهم للأثينيين. وأعتقد أن من الحكمة أن نبعث بالسفارة إلى قرطاجة أيضاً. ولن يكون ذلك مفاجأة لهم؛ إذ إنهم ما انقطعوا يتوجسون الشر من أن الأثينيين سوف يداهمون مدينتهم ذات يوم على حين غرة. ويرجح عندي أنهم يفكرون إن أهملوا أمرنا ووقعنا في قبضة الأثينيين فسيلتفت هؤلاء إليهم، وقد خلت الأمور لهم. ولعلهم مستعدون الآن لمد يد العون إلينا، بطريقة أو بأخرى، سراً إن لم يكن علانية. وهم قادرون على مساعدتنا – إن كان لديهم الاستعداد– أكثر من أي دولة كبرى قائمة الآن؛ لأن لديهم مقادير كبيرة من الذهب والفضة، وهما عماد الحرب وكل أمر آخر.

ولنرسل الرسل إلى إسبارطة وكورنثة لنحثهما على إرسال النجدة إلينا هنا سريعاً ومتابعة الحرب في هيلاس في نفس الوقت. والرأي عندي أن أفضل ما يمكن أن نقوم به في هذه اللحظة أمر لا أحسبكم تدركونه، على ما عهدناه منكم من إيثار التزام المنازل، ولكني على كل حال سوف أعرضه لكم. وما أراه هو أن يجتمع الصقيليون كلهم، أو أكثر ما يمكن اجتماعه منهم، فننزل كل سفينة متوفرة إلى البحر، حاملين معنا مؤونة شهرين من الزمن، ونذهب من ثم للقاء الأثينيين عند تارنتوم ولسان إيبجيا ونبين لهم بجلاء أن عليهم أن يشقوا طريقهم عند البحر الأيوني إلى صقيلية بالقوة، قبل أي حديث عن القتال في سبيل صقيلية. ولسوف يكون لهذا أقوى الأثر في عقولهم فيضطرون للنظر ويرون فينا يقظة وحذر ولنا قاعدة نطمئن إليها في بلد صديق - طالما أن تارنتوم تستقبلنا - بينما أمامهم مدى البحر الواسع ليقطعوه وقوات الحملة معهم. ولسوف يشق على هذه القوة أن تحفظ لنفسها النظام في هذه الرحلة الطويلة، بينما يسهل علينا مهاجمتها وهي تتحرك ببطء ووحدات صغيرة. أما إذا أتوا لقتالنا بكل مالديهم من سفن سريعة وقد خففوا من أثقالها أولاً، فلنا أن نفترض أن بحارتها قد أمضوا ردحاً طويلاً من الوقت يجذفون فنهاجمهم وهم منهكون، أو لنا أن ننسحب، إن شئنا إلى تارنتوم، بينما يكون أصحاب الحملة، من الجهة الأخرى، قد نقصت مؤنهم، بعدما قطعوا بحراً بكامله ليخوضوا معركة وحسب، ثم يعانون مصاعب كثيرة تنتظرهم في هذا الجزء المهجور من البلد. ولسوف يكون لهم عندئذ إما البقاء حيث هم ومعاناة الحصار وإما الإبحار ملتزمين الساحل ويعني ذلك ترك بقية قواتهم وراءهم ومواجهة السؤال المضني إن كانوا سيلقون من المدن قبولاً. وأراني أجزم بأنهم سيتراجعون أمام هذه الاعتبارات، ولن ينزلوا البحر من كورسيرا. ولسوف يمضون الوقت في مناقشاتهم ثم يوفدون الأرصاد لتعرف أعدادنا وتعيين مواقعنا، ثم سيجدون الفصل قد انقضى، وداهمهم الشتاء، أو لعل حركتنا المفاجئة تأخذهم على حين غرة فيتراجعون ويتخلون عن حملتهم، خاصة وأن أعظم

قادتهم عازف عن تولي القيادة، على حد ما بلغني، ولسوف يسُرُّ لو توفر له عذر للعودة يلتمسه في أي عمل ذي خطر نأتي به. ولاريب عندي أن ما يبلغهم عن أعدادنا هو مبالغات، وقد علمتم من أمر البشر أن عقولهم تتغير بما يصل آذانهم، وأن أكثر من يخشاهم الناس هم المبادرون بالهجوم، أو من يبينون للمعتدين أنهم وطنوا أنفسهم على الثبات والتصدي لهم ورد عدوانهم،؛ إذ سيدور في خلدهم عندئذ أن القوم قد أعدوا العدة لقبول التحدي. وذلك ما سوف يصادف الأثينيون اليوم. فهم يهاجموننا بافتراض أننا لن نرد بالدفاع عن النفس، وهم محقون إن كانوا ينظرون إلينا نظرة الاستخفاف هذه، وقد حملهم على ذلك قصورنا عن مساعدة الإسبارطيين على القضاء عليهم. أما إذا وجدوا أفعالاً وجرأة لم يتوقعوا مثلهما لدينا فسوف يكون للمفاجأة في هذا وقع في نفوسهم أشد من تأثير قوتنا الحقيقية. وإذن فهذا العمل الجريء هو ما أنشد أن تنهضوا إليه. أما إذا امتنعتم عنه فإني أحثكم أن تعدوا كل عدة أخرى للمبادرة إلى الحرب بأسرع ما يمكنكم. وليذكر الجميع أن التعبير عن الاحتقار أمام هجمة العدو إن كان يتجلى بالبسالة التي يبديها المرء عند مواجهته فإن أفضل أمر لنا الآن هو أن نتصرف وكأننا وسط الخطر يحيط بنا من كل جانب ،وأن ندرك أن أسلم الخطوات ما كان بتأثير الخوف. إن الأثينيين قادمون. الأثينيون- وأنا واثق من قولي- في طريقهم إلينا. الأثينيون باتوا قاب قوسين منا أو أدنى."

ذلكم كان خطاب هيرموكراتيس. أما أهالي سيراكوزة فكانت تراودهم مجموعة من الأفكار المتعارضة يتداولونها فيما بينهم. وكان منهم من ذهب إلى استبعاد احتمال قدوم الأثينيين وكذب ما قال به هيراموكراتيس؛ كما ذهب بعضهم إلى أنه لن يصيب القوم من الأثينيين – ولو حضروا – ضير لا يستطيعون مقابلتهم بمثله. وكان هناك بعدُ من قابل الأمر كله باستخفاف وأحال الحديث عن غزو أثيني إلى مزاح. ولم يكن هناك إلا قلة قبلت بما قاله هيرموكراتيس وكانت تتوجس شراً من المستقبل. وكان زعيم الحزب

الديمقراطي أثيناجوراس رجلاً يتمتع يومئذ بتأثير عظيم بين الناس. وقد وجدناه يتقدم الآن ليقول مقاله:

"الجبناء أو من فقدوا الشعور بالوطنية وحدهم لا يقلقهم أن يصير الأثينيون إلى الجنون الذي جبلوا عليه فتحملهم طبيعتهم للقدوم إلينا ويصبحوا تحت سلطاننا. أما أولئك الذين ينشرون مثل هذه الروايات ويحاولون بث الرعب فيكم بتأثيرها فليس في جرأتهم ما يثير عجبي، لكن ما فاجأني هو افتقار هؤلاء للذكاء، إن كانوا يعتقدون أن دوافعهم تخفى على أحد. ولهؤلاء أسبابهم التي تحملهم على الخوف، ويودون إثارة الفزع حتى يعم المدينة كلها لتغطي حالة الذعر التي يريدون لها أن تعم على ما ينتابهم من الجزع. وإذن فَفَحْوىٰ هذه الروايات هو التالي: إنها كلها لم تنشأ بصورة طبيعية، وإنما اختلقها مروجون دأبهم اختلاق المنغصات. وإذا كنتم من الحكماء فلن تأخذوا بهذه الروايات وتجعلوا منها أساساً لحساب الاحتمالات، ولكنكم سوف تنظرون بدلاً من ذلك وتتساءلون ماالذي يرجح بالأثينيين أن يفعلوه، وهم في رأيي أصحاب فطنة وحصافة وخبرة واسعة. ومن المرجح ألا يتركوا البيلوبونيز وراءهم والحرب في هيلاس لم تضع أوزارها بعد على النحو الذي يرضي، أو يتكلفوا خوض حرب جديدة واسعة النطاق. والواقع أني أراهم مغتبطين؛ لأننا لم نهاجمهم، ولدى مدننا العدد والعدة لذلك.

"أما إذا قدموا فعلاً – كما يُقال أنهم فاعلون- فإني أرى صقيلية في وضع أفضل للحرب من حال البيلوبونيز؛ فهي أحسن منهم تجهيزاً من كل ناحية. وإني لأعتقد أن مدينتنا هذه تكفي جيشهم المفترض بأن يقوم بغزونا، بل حتى وإن كانت قوته ضعف ما يقال عنها. وأنا أعلم أنهم يفتقرون للخيل، ولن تتوفر لهم هنا، إلا قلة منها يقدمها لهم الإيجيست، كذلك ليس لديهم ما يضارع مشاتنا الثقيلة، وهم الآتون عبر البحر. والواقع أن لديهم عملاً ثقيلاً يشغلهم. وحسبهم أن يتمكنوا من الانتقال بسفنهم إلى هنا، ولو أتت السفن خفافاً. ثم إن هناك العتاد اللازم، ولا بد أن يكون هذا كثيراً

ليناسب اتساع مدينتنا وضخامتها. وإذا قلت لكم – وأنا على يقين من قولي–: إنه لن يجديهم في الأمر شيء وإن أتوا بمدينة أخرى ضخمة تضارع سيراكوزة بضخامتها وأقاموها على حدودنا ثم شنوا علينا منها حرباً. ولسوف يكون حظهم في السلامة بالرغم من كل ما تقدم ضئيلاً، وسيكون أضأل حين تتحد عليهم صقيلية كلها. وكل ما لديهم مجرد حصن رمت به حملة بحرية، وجنود يعيشون تحت الخيام ليس لديهم من المؤن إلا أبسطها. وخيولنا لهم بالمرصاد، فلا يملكون أن يتحركوا في أي اتجاه. وإذا أخذنا كل أمر في الحسبان وجدتموني مرتاباً بقدرتهم على النزول إلى البر وتعزيز مواقعهم فيه. ذلكم هو مبلغ ما تتفوق به قواتنا عليهم، وهو على ما أرى تفوق عظيم.

"ولكن الأثينيين يعلمون هذا كله الذي أقوله لكم. وإني لواثق من أنهم منشغلون بحماية ممتلكاتهم. وما يحدث الآن هو أن ثمة أناساً بيننا في سيراكوزة يختلقون قصصاً لا سند لها في الواقع ولا يرجح أن تصدق. وليست هذه المرة الأولى التي يسترعي هؤلاء الناس انتباهي، بل الحق أني ألحظ وجودهم باستمرار. وهؤلاء القوم يلجؤون إلى اختلاق الحكايات من هذا القبيل بل ويطلعون بترهات أسوأ، وغرضهم أن يثيروا فيكم – معشر الناس – الخوف؛ ليتمكنوا من انتزاع الحكم لأنفسهم. وإني لأخشى حقاً أن تفلح جهودهم الدؤوب فيكون لهم ذلك. أما نحن فيغلب علينا الضعف إزاءهم؛ فلا تحركنا لنقطع عليهم الطريق قبل أن يتحركوا، ولا تابعنا حركتهم بهمة حين اكتشفنا أمرهم. تلكم هي العلة التي تجعل مدينتنا لا تنعم بالهدوء إلا ما ندر، وهي السبب في تنازع الأحزاب والصراع بين الفئات أكثر من صراعها مع العدو. وقد عرفنا حالات قامت فيها دكتاتوريات وجماعات قوية بالاستيلاء على الحكم بطرق غير قانونية. ولسوف أسعى جاهداً – لو تؤازرونني – لإحباط أي مسعى من هذا القبيل فلا ندع مجالاً لحدوثه في زماننا. ولسوف تكون وسيلتي إلى ذلك أن أطلعكم – أيها الناس – على نهجي في التفكير، ثم نتصدى لأولئك الذين يحيكون هذه المؤامرات. ولا تكون مداهمتهم حين

يكونون قد أوغلوا في مؤامراتهم وحسب -فليس من اليسير ضبطهم متلبسين-، وإنما لكل الأمور التي يزينها لهم عقلهم ويودون تنفيذها أيضاً ولا يمنعهم عنها إلا عجزهم. فعند التصدي للعدو لا يكفي رصد أعماله وحسب، وإنما يجب معرفة نواياه؛ فالمرء إن تأخر فعله كانت معاناته السباقة. أما هؤلاء الذين ينشدون الحكم الأوليجاركي فسوف أظهرهم لكم متى دعت الضرورة. وإني لهم بالمرصاد أتابع تحركاتهم وسكناتهم، بل ولسوف أكون لهم معلماً ومرشداً؛ لأنني أستطيع- كما أعتقد- أن أبعدهم عن غيّهم.

"والآن أجدني أطرح عليكم سؤالاً لطالما ألح عليّ: إلى ماذا تطمحون حقاً أيها الشباب؟ أتراكم تبغون احتلال المناصب في التو؟ . إن ذلك أمر يحظره القانون، وهذا القانون لم ينشأ ليستبعد أهل الكفاءة، بل وضع لسبب هو أنكم لستم مهيئين للحكم. أم لعلكم تأنفون العيش كما يعيش سواكم؟ ولكن العدل يقضي بأن يكون أفراد الدولة الواحدة سواء في الحقوق. ورب قائل : إن الديمقراطية ليست بالنظام الذي نرى فيه حلاً لكل المشكلات ولا هو بالنظام العادل، ويقول بعدُ : إن من يملكون المال هم أيضاً أفضل الحكام. ولكني أقول أولاً : إن المقصود بكلمة : "ديموس" - الشعب- هو الدولة جمعاء، بينما الأوليجاركية ليست إلا قطاعاً من الدولة. ثم أقول بعد ذلك إن كان الأغنياء أفضل من يدبر المال، فإن أفضل أهل المشورة هم أهل الاطلاع والحصافة والكثرة الذين يجيدون الإصغاء والإحاطة بمختلف الآراء والمفاضلة بينها. ولهؤلاء جميعهم- جماعة أم فرقاء- حقوق واحدة في الدولة الديمقراطية. أما الأوليجاركية، فإنها قطعاً تجعل للكثرة نصيبها من الأخطار. أما إذا جاء أوان الطيبات من الحياة فإنها لا ترضى بالنصيب الأعظم منها وحسب، بل تستولي عليها كلها. وذلك ما يرمي إليه الأغنياء والشباب منكم، ولكن هذا محال عليكم في المدينة الكبيرة. وأي حمقى أنتم؟!. والحق أنكم أغبى من أعرف في بلاد هيلاس كلها، إن لم تكونوا تدركون أن ما تهدفون إليه شر، وأنتم أكبر المجرمين إن لم تدركوا هذا. ومازالت لديكم الوقاحة لتتابعوا هذا الأمر. ولكن مازال الوقت متاحاً

أمامكم إن لم يكن للندم فللتبصر في العواقب وتدعيم مصالح بلدكم الذي يشارك فيه كل مواطنيكم. وتذكروا أنه بهذا السلوك لا ينال المواطنون الصالحون من بينكم نصيباً جيداً من خيرات الوطن وحسب، بل أكثر من ذلك. أما إذا كانت لكم مآرب أخرى فإنكم تجازفون بحرمانكم من كل الخيرات. فأقلعوا عن نشر الشائعات، واعلموا أننا نعرف ما ترمون إليه، ولن نصبر عليه. وحتى لو كان الأثينيون في طريقهم حقاً إلينا فإن مدينتنا سوف تتصدى لهم على الوجه الذي ترضاه. ثم إن لدينا قادتنا الذين يتولون بعنايتهم حسن الاستجابة. أما إذا خلت هذه التقارير من الصدق– كما أعتقد– فإن المدينة لن يفزعها ما تروجون من الشائعات وترضى بنير العبودية بأن تختاركم حكاماً لها. إن مدينتنا لقادرة على النظر في الأمور بنفسها، ولسوف تحكم على ما تنطقون من كلمات وكأنها أفعال مؤكدة. لا ، ولن ينال من حريتها التي تتمتع بها أقاويل وشائعات، وإنما سوف تحرص على هذه الحرية بإجراءات عملية تمنع هذا الأمر."

كان ذلك خطاب أثيناجوراس، فلما فرغ منه نهض أحد القادة ورفض أن يتقدم خطيب آخر بعده، وأخذ مكان الخطابة وعرض الوضع على ما هو آت: "إنه ليس من الحكمة أن يتبارى الخطباء في الطعن بعضهم ببعض، ولا هو من الحكمة أن يتدخل الحاضرون بالتأييد وإثارة الحماس. بل الأجدر بنا أن نولي اهتمامنا للأخبار التي بلغتنا ونتدبر كيف يمكننا جميعاً – الدولة كلها وكل فرد فيها – أن نتدبر أفضل السبل للتصدي للغزاة. وليس ثمة ما يضير إن قامت الدولة بتوزيع الخيول والسلاح وكل ما يفيد في الحرب، وإن لم تستدع الضرورة ذلك. ونحن سوف نتولى هذه المسؤولية ونتابع الأمر بتفاصيله. وليس ثمة ما يضير إن بعثنا بالرسل إلى المدن الأخرى نستطلع ميولها ونقوم بأي أمر نراه مفيداً. وليكن في علمكم أننا تدبرنا بعض هذه الأمور فعلاً، ولسوف نقوم بإطلاعكم على أي أمر يبلغنا خبره."

بعد حديث القائد هذا فضّ السيراكوز الاجتماع.

الفصل الرابع : الأثينيون في صقيلية. خطط القادة،
كاتانة وناكسوس تنضمان إلى الأثينيين

أصبح الأثينيون ومعهم حلفاؤهم في كورسيرا الآن. وكان أول ما فعله هؤلاء أن عقد كبار القادة اجتماعاً لدراسة وضع القوة كلها واتخذوا الإجراءات لرسو السفن وإقامة المعسكرات للجنود وفق نظام محدد. وقاموا بتنظيم السفن في ثلاثة أقسام وعهدوا بكل قسم إلى قائد كبير. وكان غرضهم من ذلك تفادي الإبحار بسفنهم معاً؛ وبذلك يتفادون الوقوع في مشكلات تتصل بتأمين المياه والرسو والمؤن كلما نزلوا البر، كما يتيح لهم المحافظة على ترتيبهم على نحو أفضل وأيسر لهم. ولما فرغوا من ذلك وجهوا ثلاث سفن إلى إيطاليا وصقيلية لمعرفة أي من المدن سوف تستقبلهم، على أن تعود بعد انتهاء مهمتها وتلتقي بالأسطول في طريقه، بحيث يكون قادة الحملة على معرفة بالأوضاع قبل نزولهم إلى البر.

ولقد أبحر الأثينيون بأسلحتهم الثقيلة من كورسيرا وشرعوا بالقيام بعبورهم إلى صقيلية. وكان مجموع ما لديهم من السفن الثلاثية المجاذيف مئة وأربعة وثلاثين، وسفينتين لكل منهما خمسون مجذافاً من رودوس. وقد كان من بين السفن الثلاثية المجاذيف مئة ساهمت بها أثينا – ستون سفينة حربية وأربعون للنقل – أما بقية السفن فكانت من خيوس والحلفاء الآخرين . وكان مجموع المشاة الثقيلة خمسة آلاف ومئة، منهم ألف وخمسمئة من المواطنين الأثينيين من الاحتياط النظاميين وسبعمئة من الطبقة الأدنى من الملاكين، الذين يخدمون في سلاح مشاة البحرية، أما البقية فهم من جنود الحلفاء، وبعضهم من رعايا أثينا، وإن كان من بينهم خمسمئة من الأرجوس ومئتان وخمسون من المانتينيين وجنود مرتزقة آخرون. وكان هناك فضلاً عن أولئك أربعمئة وثمانون من الرماة، منهم ثمانون من كريت، وسبعمئة من الرماة بالمقلاع من رودوس،

ومئة وعشرون منفياً من ميجارا، يخدمون بين القوات الخفيفة، وسفينة نقل تحمل ثلاثين حصاناً.

تلكم هي قوة الحملة الأولى التي دخلت الحرب، وقد نقلت مؤنها في ثلاثين سفينة تجارية حُمِّلت بالغلال ومعها عدد من الخبازين وعمال البناء والنجارين مزودين بكل المعدات اللازمة لبناء التحصينات. ورافقت هذه القوة مئة من السفن الصغيرة، وكانت في وضع السفن التجارية، ومعها الكثير من السفن الأخرى، التجارية منها والصغيرة، التي تتبعها طواعية بقصد التجارة. وقد غادرت هذه السفن جميعها كورسيرا وعبرت الخليج الأيوني.

وقد بلغت هذه القوة كلها اليابسة عند لسان إيبيجيا وتارينتوم ومختلف النقاط الأخرى من البر، وفق الطريق البحرية التي ساروا فيها، ثم تابعت طريقها على الساحل الإيطالي، حين وجدت من المدن إعراضاً عن توفير سوق لها، بل لم تدع أفرادها يتجاوزون أسوارها، ولم تقدم لهم سوى الماء وحق الرسو، بل إن تارينتوم ولوكري لم تتيحا لهم حتى هذا القدر من التسهيلات. وهكذا كان حالهم حتى بلغوا ريجيوم، وهي أبعد نقطة في إيطاليا. وهنا التأم جمعهم من جديد، وأقاموا معسكرهم خارج أسوار المدينة التي لم تسمح لهم بدخولها، فأقاموا في الأرض المقدسة عند معبد أرتميس، حيث وفرت لهم المدينة سوقاً هناك أيضاً، ثم عمدوا إلى جر سفنهم إلى الشاطئ، وخلدوا إلى الهدوء في تلك الفترة. وقام الأثينيون عندئذ بفتح باب المفاوضات مع أهالي ريجيوم، وأخذوا يستثيرون حمية هؤلاء القوم بتذكيرهم بأصولهم الخاليكيدية ليقوموا بنجدة ليونتيني، وهي مدينة خاليكيدية أيضاً، ولكنهم ردوا عليهم بأنهم لن ينحازوا إلى أي من الطرفين، مؤثرين انتظار القرار الذي سيطلع به جمع الإغريق في إيطاليا، ليتصرفوا على أساسه. ثم التفت الأثينيون لاستطلاع مجريات الأمور في صقيلية ودراسة أفضل الطريق التي ينبغي أن يسلكوها، ومضوا ينتظرون عودة السفن من إيجيستا لمعرفة

إن كان المال الذي حدثهم عنه الموفدون في أثينا متوفراً حقاً.

أخذت الأخبار تتوارد الآن على سيراكوزة من كل جانب، بالإضافة إلى معلومات مؤكدة من ضباط المخابرات لديهم وجميعها تفيد بوجود الأسطول في ريجيوم. فهب السيراكوز يعملون بكل همة لتدبر الوضع الذي ما عاد بوسعهم إنكاره. فاقاموا حاميات للحراسة في بعض مدن الصيقيل وبعثوا بالسفراء إلى بعضها الآخر، ثم أرسلوا الجند إلى المواقع المحصنة من البلاد. وفي المدينة ذهبوا يتفقدون الجياد والسلاح ليطمئنوا إلى انتظام الأمور. وتم اتخاذ الإجراءات الأخرى اللازمة تقديراً بأن الحرب وشيكة الوقوع، بل وقد تقع في أي لحظة.

وبينما الأمور تجري على هذا النحو وردت السفن الثلاث من إيجيستا إلى الأثينيين في ريجيوم، وهي تحمل النبأ بأن مقادير المال الموعود لا وجود لها، وكل ما هو متوفر مقدار ثلاثين تالنتاً فقط. فانتاب قادة الحملة الكبار خيبة أمل شديدة لتلك الأنباء؛ إذ تبددت آمالهم بالوقوع على الثروة الموعودة، وازدادوا إحباطاً برفض أهالي ريجيوم التحالف معهم وهم أول من حاولوا استمالتهم إلى جانبهم، وكانوا يرجحون أن يقبلوا باعتبارهم ينتمون إلى العنصر ذاته الذي ينتمي إليه أهالي ليونتيني، ويرتبطون على الدوام بعلاقات طيبة مع أثينا. والحق أن نيسياس لم يفاجأ بالأخبار الواردة من إيجيستا، أما القائدان الآخران فلم يكونا يتوقعان الخبر أبداً. ولقد خدع الإيجيست سفراء أثينا الأوائل حين أتوا لاستقصاء أمر الأموال، على نحو ما سيرد؛ إذ قادوا هؤلاء الأثينيين إلى معبد أفروديت في أريكس وعرضوا أمامهم الكنز بين العطايا، وكان يتألف من صحاف وكؤوس وأوعية لحرق البخور وسوى ذلك كثير. وكانت كلها أوعية فضية جميلة فبدت في أعينهم ذات قيمة مع أنها متواضعة من حيث الثمن. كذلك عمدوا إلى استضافة بحارة السفينة في بيوتهم، وقدموا لهم الطعام والشراب في صحاف وكؤوس من الذهب والفضة كانوا قد جمعوها من إيجيستا ذاتها، في حين استعاروا البقية من المدن الأخرى

الفينيقية والهيلينية المجاورة. ثم أخذ كل مضيف يعرض تلك الأواني في مائدته وكأنما هي ملك له. وقد تداول الجميع هذه الأواني ذاتها تقريباً في كل مأدبة وكانت متوفرة بكثرة، حتى أدهشت الأثينيين الذين نزلوا من السفن وحضروا تلك المآدب لشدة ما رأوا من الإسراف في الترف. فلما عادوا إلى أثينا ذهبوا يحدثون قومهم بما رأوا من الأدوات الثمينة. وبما أن الخدعة انطلت عليهم فإنهم نجحوا يومذاك في إقناع الآخرين بثراء الإيجيست. فلما شاع الخبر بعدم وجود المال في إيجيستا أخذ الجنود يمطرون جماعتهم باللوم لتغريرهم بهم.

وأما القادة فقد راحوا يتداولون فيما ينبغي عمله في تلك الظروف. وكان رأي نيسياس أن يتوجهوا بكامل قواتهم إلى سيلينوس، وهي وجهة الحملة أساساً، فإذا تولى الإيجيست توفير المال للجيش كله كان لهم أن ينظروا في خطواتهم اللاحقة. أما إذا قصر الإيجيست في تأمين المال فيكون علهم توفير المؤن للسفن الستين التي طلبوها، وأن يمكثوا حتى يسوى الموضوع إما بالقوة وإما بالاتفاق بين إيجيستا وسيلينوس. فإذا انتهى الأمر ركبت السفن البحر بمحاذاة الساحل فتمر بالمدن الأخرى مستعرضة قوة أثينا ومدى استعدادها لمؤازرة أصدقائها وحلفائها، ثم تعود أدراجها ثانية إلى الوطن، إلا إذا وجدوا طريقة سريعة غير متوقعة لمساعدة أهل ليونتيني أو للفوز بإحدى المدن الأخرى إلى صفهم. وكان يرى ألا يجازفوا بتوريط الدولة في تبديد طاقاتها.

وقال ألسيبياديس: إن – بعد خروجهم بهذه الحملة الضخمة– عليهم أن يجنبوا أنفسهم العار بالعودة إلى أثينا دون إنجاز أي شيء بعد مسيرة طويلة. ورأى، بعدُ أن يوفدوا رسلهم إلى المدن كافة، عدا سيلينوس وسيراكوزة، وأن يتصلوا بالصيقيل ويشجعوا بعضهم على الثورة على سيراكوزة، ويحاولوا كسب صداقة المدن الأخرى ليستطيعوا الحصول منها على الغلال والجند، وأن الخطوة الأولى في هذا السبيل يجب أن تكون محاولة كسب الدعم من ميسينا التي كانت تقع في طريقهم مباشرة، وهي بوابة

صقيلية ولها مرفأ ممتاز ويستفاد من موقعها كقاعدة لهم أيضاً. فإذا تم لهم كسب المدن استطاعوا تحديد من سيدعمهم في الحرب، فيكون ذلك الوقت المناسب للهجوم على سيراكوزة وسيلينوس، إلا إذا تم الاتفاق بين سيلينوس وإيجيستا وسيراكوزة مما يسمح باستعادة ليونتيني.

أما ليماخوس فقال بالمضي مباشرة إلى سيراكوزة وخوض معركتهم في أسرع وقت عند أسوار المدينة، قبل أن يستعد العدو لهم، وهو ما يزال تحت تأثير الخوف منهم. وقال: إن كل جيش يثير أشد الفزع في البداية، ولكن الرجال مع مضي الوقت يستعيدون معنوياتهم، وتجدونهم يستخفون بالعدو عند لقائه. وإذن فإن هجوماً مفاجئاً- والعدو ما يزال يرتعد من هذا الخاطر- لكفيل بأن يمكّن أثينا من فرصة الفوز بالنصر ويكون له أعظم الأثر في معنويات السيراكوز الذين سيواجهون الآن ما لم تقع عليه أعينهم من أعداد الرجال من قبل، ولسوف يخشون ما ينتظرهم من الآلام. وأشد ما يخشون أن نفرض عليهم المجازفة بخوض المعركة في تلك اللحظة. ويحتمل أيضاً أن نجد الكثير من السيراكوز الذين لا يصدقون نبأ هجوم الأثينيين، فيتأخرون في العودة، وتنقطع بهم السبل وهم خارج المدينة؛ فيبقون في أنحاء الريف. وإذا ما حدث ذلك والقوم – ما زالوا في عملهم ينقلون متاعهم إلى داخل الأسوار – فلن نجد الجيش يفتقر للمال، إذا ما تحقق له النصر وتمركز أمام المدينة. كذلك ليس من المرجح أن يتحالف بقية الصقيليين مع سيراكوزة، بل سيميلون إلى صف الأثينيين دون الانتظار لمعرفة الطرف الفائز. كما أوصاهم بأن تكون ميجارا القريبة هي محطتهم البحرية، حيث يمكن لأسطولهم أن ينكفئ إليها ويفيد منها قاعدةً لأعمال الحصار. وهي موقع غير مأهول ولا يبعد عن سيراكوزة سواء من ناحية البر أو من ناحية البحر.

تلكم هي الآراء التي عرضها ليماخوس. وجدير بالذكر أن الرجل اختتم كلمته بإعلان تأييده لخطة ألسيبياديس. ثم أبحر ألسيبياديس بسفينته الخاصة إلى ميسينا،

وحاول مفاوضة المدينة لعقد حلف معها. ولكنه منيَ بالفشل في هذه المحاولة؛ إذ كان رد المسينيين أنهم لن يستقبلوا الأثينيين داخل المدينة، لكنهم سوف يقيمون لهم سوقاً خارجها. فعاد ألسيبياديس إلى سفينته وقفل راجعاً إلى ريجيوم.

بعيد تلك الواقعة قام القادة بتجهيز ستين سفينة من كامل القوة المتوفرة لديهم، ثم تزودوا بالمؤن وأبحروا بمحاذاة الساحل نحو ناكسوس، تاركين بقية الجيش وراءهم في ريجيوم بإمرة قائد واحد. ولقد استقبلهم أهل ناكسوس داخل مدينتهم حتى أقلعت السفن بهم إلى كاتانة. وهنا رفض الكاتان – وكان منهم حزب مناصر لسيراكوزة- استقبالهم في مدينتهم، فذهبوا إلى ناحية نهر تيرياس حيث أقاموا معسكرهم في تلك الليلة. ثم أبحروا في اليوم التالي إلى سيراكوزة في صف واحد، إلا عشرة من تلك السفن تقدمت هذا الصف. وكانت مهمتها دخول المرفأ الكبير ومعرفة إن كان السيراكوز قد أنزلوا إلى البحر قوة يعتد بها، والإعلان من فوق سفنهم أن الأثينيين قادمون ليعيدوا أهالي ليونتيني إلى أرضهم، كما يقضي تحالفهم مع هؤلاء وقرابتهم لهم أيضاً. كذلك ينادي المنادون بأن ليس على الليونتيني أن يخشى سوءاً إن ترك سيراكوزة لينضم إلى الأثينيين، وهم أصدقاؤه ورعاته. فقام هؤلاء بندائهم ثم راحوا يستطلعون المدينة والمرافىء وطبيعة الأرض عموماً ليتبينوا الموقع الصالح لقاعدتهم عند قيام الحرب. ولما تم لهم ذلك عادوا أدراجهم إلى كاتانة.

هنا عقد الكاتان مجلساً للمداولة دعوا إليه قادة الحملة ليدلوا فيه بآرائهم، وإن لم يسمح أهالي كاتانة للجيش بدخول المدينة. وبينما كان ألسيبياديس يقف متحدثاً في ذلك المجلس استطاع الجنود التسرب إلى المدينة دون أن يلحظهم أحد. وذلك بأن عمدوا إلى تحطيم باب سيء البناء من أبواب المدينة ومضوا يتجولون في السوق. وحين رأى أحد أعضاء الحزب المناصر لسيراكوزة في كاتانة الجيش داخل المدينة استولى عليه الفزع وانسل هارباً – ولم يكن هذا الحزب كثير العدد–، أما الآخرون فقد صوتوا لصالح

التحالف مع الأثينيين ودعوهم لاستقدام بقية قواتهم من ريجيوم. وبعد ذلك أبحر الأثينيون إلى ريجيوم، ثم رجعوا من جديد إلى كاتانة ومعهم قواتهم وقد اتحدت، ومضوا يبنون معسكرهم، فور نزولهم إلى اليابسة.

ولقد وردت الأثينيين يومئذ أخبار من كامرينا بأن المدينة سوف تميل إلى صفهم إن قصدوها. كما ذُكر أن السيراكوز يعدون أسطولهم. فقام هؤلاء وأبحروا بناء على تلك المعلومات بكامل العدد والعدة بمحاذاة الساحل إلى سيراكوزة. ولكنهم لم يقعوا يومئذ على ما ينبئ بأسطول كان قيد التجهيز؛ فتابعوا طريقهم على طول الساحل إلى كامرينا حيث نزلوا عند الشاطئ، ثم أرسلوا موفداً منهم إلى المدينة. ولكن أهالي كامرينا رفضوا استقبالهم قائلين: إنهم قد أقسموا على أن يستقبلوا الأثينيين إن جاؤوهم في سفينة واحدة فقط، إلا إذا قاموا بطلب المزيد. فلما لم يصادفهم النجاح هنا، أقلع الأثينيون بسفنهم من جديد، حتى نزلوا بأرض تابعة لسيراكوزة وأغاروا عليها، وفقدوا يومئذ بعض الأفراد من مشاتهم الخفيفة حين خرج عليهم الخيالة السيراكوز. وعلى هذا عادت الجماعة إلى كاتانة.

الفصل الخامس: استدعاء ألسيبياديس،

قصة هارموديوس وأرسطوجيتون

وفي كاتانة وجدوا السفينة سلامينيا قد قدمت بأوامر لألسيبياديس بالعودة إلى أثينا للرد على اتهامات وجهتها الدولة إليه، ومعه بعض الآخرين من الجيش الذين بلغت عنهم معلومات بالتعريض بالديانات السرية، وفي بعض الحالات تدنيس الهيرماي. وتفصيل ذلك أن الأثينيين أرادو، بعد الإقلاع بالحملة استقصاء حقيقة مسألة ديانة الأسرار وهيرماي. ولكنهم بدلاً من تحري صدق محدثيهم أخذوا بالشك بكل ما بلغهم من أمر تلك الطقوس، وراحوا يعتقلون بعض أفضل المواطنين استناداً إلى أقوال ذوي الصيت السيء، اعتقاداً منهم أن ذلك أفضل لبلوغ الحقيقة لئلا يفلت متهم ولو كان حسن السمعة بدعوى الإغراض والكيد من واشٍ مريب؛ إذ إن الناس قد بلغتهم روايات عن عسف بيزيستراتوس وأولاده، وعرفوا مقدار ظلمهم في المراحل المتأخرة من حكمهم. وكانوا يعلمون أيضاً أن نهايتهم لم تأت على يدهم أو على يد هارموديوس، وإنما على يد الإسبارطيين. وهذا ما جعلهم دائماً في حال من الذعر والنزوع إلى الشك في كل أمر.

وحقيقة الأمر أن هذا العمل الجريء الذي نهض به أرسطوجيتون وهارموديوس كان سببه قصة عاطفية، وسوف أتناول هذه القضية ههنا بشيء من التفصيل لأبيّن أن الأثينيين ليسوا بأفضل من سواهم في عرض المعلومات المحققة عن طغاتهم ووقائع تاريخهم. وكان بيزيستراتوس رجلاً كبير السن حين مات وهو يحكم بالطغيان. وكان أغلب الناس يتوقعون أن يتولى هيبارخوس الحكم من بعده، إلا أن السلطة ذهبت إلى ولده البكر هيبياس. وكان هارموديوس يوم ذاك من أجمل الفتيان وأحبهم وفي ملك أرسطوجيتون، وهو من الطبقة الوسطى من الناس. ولقد حاول هيبارخوس بن بيزيستراتوس اجتذاب هارموديوس دون أن يوفق إلى ذلك، فأخبر هذا صاحبه

أرسطوجيتون بأمره، فأزعجه ما أخبره به الفتى؛ إذ كان شديد الوله به، وخشي أن يأخذه عنوة وهو على ذلك القدر من القوة. فأخذ يدبر للإطاحة بحكم الطاغية قدر ما تسمح له إمكاناته. وبينما كان الرجل يدبر هذه المؤامرة قام هيبارخوس بمحاولة عقيمة أخرى لإغواء هارموديوس. فشاء أن يعاقب الفتى لصدوده بإهانته دون أن يكشف ما حمله على هذه الإساءة، ولكن لم يكن قد راودته أي نية لاستخدام القوة. والحق أن الرجل كان يستخدم سلطته على النحو الذي يجعل تصرفه محتملاً من الناس، ويحكم دون أن يجلب لنفسه البغضاء. وكان هؤلاء الطغاة على الخصوص قد عرفوا في الواقع بسمو المبادئ والحكمة في السياسة. فلم تزد الضرائب التي كانوا يفرضونها على الأثينيين على عشرين جزءاً من دخولهم، ومع ذلك فقد ازدادت مدينتهم جمالاً وبهاء. وكان يبرزون في حروبهم، ويقومون بكافة الأضاحي وفاء لدينهم على الوجه الأكمل. وكانت المدينة ماتزال تأخذ بالقوانين التي وضعها الأولون في كل النواحي الأخرى، سوى أن الطغاة كانوا يحرصون على أن يتولى الحكم أحد أفراد أسرتهم بعد رحيل الحاكم. وكان من بين أولئك الذين شغلوا منصب الأرخون– ومدته عام – في أثينا ابن الطاغية هيبياس المسمى بيزيستراتوس، وسمي كذلك تيمناً بجده. وكان بيزيستراتوس هذا هو الذي بنى مزار الآلهة الاثنتي عشرة، في سنة حكمه، وهو المزار القائم في ساحة السوق، ومزار أبولو في بيثيوم. وقد جرى توسيع المزار القائم في ساحة السوق فيما بعد على يد الأثينيين الذين أزالوا النقوش عنه، إلا أن المرء مازال يستطيع أن يقرأ الحروف التي تكاد تزول على نصب المزار عند بيثيوم:

أقام هذا النصب ابن هيبياس، بيزيستراتوس

على هذه الأرض المقدسة للإله أبولو البيثياني

أما أن هيبياس هو الولد البكر لأبيه وهو الذي حكم فأمر أؤكده عن ثقة، وقد عرفت

خبره من مصدر أجدر بالثقة من المصادر الأخرى، ويمكن التيقن منه من الناحية التي سيلي الحديث عنها. فهيبياس هو الوحيد دون إخوته الشرعيين الآخرين، الذي له ذكر على المزار والنصب على الأكروبول الأثيني حيث ذكرت جرائم الطغاة. ولا يحمل هذا النصب أي ذكر لولد من نسل ثيسالوس أو هيبارخوس، ولكنه يسجل خمسة أولاد لهيبياس من زوجه ميرينة بنة كالياس بن هبرخيديس. والآن يحتمل أن يكون الأخ الأكبر الأسبق إلى الزواج. وقد جاء اسمه على النصب بعد أبيه، وهو أمر عادي أيضاً؛ لأنه أكبر الأبناء من بعده، وهو الذي أمسك بالحكم. ولست أرى قطعاً أنه كان بوسع هيبياس أن يستولي على السلطة بهذا اليسر، ويمسك بزمام الأمور بهذه المقدرة في لحظة وجيزة لو أن هيبارخوس كان الطاغية يوم مقتله. والواقع أن هيبياس دأب طويلاً قبل ذلك على إشاعة الخوف منه في أفئدة الناس ودرب حراسه على إطاعته. وهكذا أحكم سيطرته على الوضع دون جهد يذكر، ودون أن يبدي أي تردد مما كان يمكن أن يظهر على أخيه الأصغر الذي كان يفتقر للخبرة الطويلة بالحكم. أما هيبارخوس فقد غدا شهيراً بسبب المصير التعيس الذي انتهى إليه، كما عرف فيما بعد بأنه كان طاغية.

وعوداً إلى هارموديوس. فلقد عمد هيبارخوس حين أعرض عنه هذا إلى تدبير إهانته. فدعا وأخوه أخت هارموديوس للقدوم إليهما وحمل سلة في إحدى المناسبات فلما حضرت قالا لها أن تعود من حيث أتت؛ لأنها لم تدع، كما أنها ليست بالتي تليق بالمناسبة. فانزعج هارموديوس أشد الانزعاج لهذا التصرف، وتأثر أرسطوجيتون لضيق صاحبه وازدادت ضغينته. وراح هذان يدبران مع المتآمرين مااستقر عليه عزمهما، ولم يعد أمامهما سوى انتظار عيد الباناثينيا العظيم، وهو المناسبة الوحيدة التي يشارك فيها المواطنون عموماً وهم يحملون السلاح دون إثارة الشكوك. وكان على أرسطوجيتون وهارموديوس أن يباشرا العمل ثم يندفع الآخرون لمؤازرتهما بالهجوم على حرس الطاغية. وقد حرص المتآمرون على أن يكون عددهم محدوداً خشية افتضاح أمرهم. وكان الأمل

يحدو الجميع أن يهب إليهم أولئك الذين ليس لهم ضلع في هذه المؤامرة حين يجدون أن هناك من هم مستعدون للمجازفة، ولو كانوا قلائل، فينضمون إليهم بتأثير الحماس، وهم يحملون أسلحتهم بأيديهم، لاستعادة حريتهم.

فلما حلَّ العيد كان هيبياس وحرسه في سيراميكوس يشرفون على تنظيم مسيرة المهرجان. أما هارموديوس وأرسطوجيتون فإنهما لما استعدا لما عزما عليه وكل يحمل خنجره شاهدا أحد رفاقهم المتآمرين يحادث هيبياس ويظهر له الود – وكان هيبياس لا يقيم بينه وبين الناس حاجزاً –، فذعرا لمرآهما معاً على هذه الحال وخشيا أن تكون المؤامرة قد افتضحت ويصار إلى اعتقالهما. فكان أول ما تشوقا إليه في تلك اللحظة أن يتحقق لهما الانتقام، إن أمكن، من الرجل الذي أساء إليهما وكلفهما تلك المجازفات، فما كان منهما عندئذ إلا أن اندفعا داخل الأبواب وهما على تلك الحال فانقضا على هيبارخوس غير مبالين بما قد يصيبهما بعد ذلك، وهما في تلك اللحظة تحت تأثير ثورة الغضب، أحدهما بسبب العشق الذي استبد به والآخر لكرامته الجريحة. وهكذا أخذا يطعنانه بخنجريهما حتى تحقق لهما مقتله. ونفر الحشد من الناس من المكان وانخرط أرسطوجيتون بينهم فاراً من حرس الطاغية القتيل إلى حين، ثم أُلقي القبض عليه ومات ميتة شنيعة، أما هارموديوس فقد قتل في التو.

وحين بلغ هيبياس الخبر في سيراميكوس، اقترب من المسلحين المشاركين في الاحتفال قبل أن ينتبهوا لما حصل عوضاً عن الذهاب إلى موقع الجريمة، وكانوا على مسافة منه. وأظهر على وجهه تعبيراً لا يشي بشيء، ليتدبر الأمر، وأشار إلى بقعة معينة من الأرض طالباً من الرجال الانتقال إليها دون سلاح، فلبى هؤلاء أمره، وهم يظنون أنه يريد أن يحدثهم في أمر ما، فما كان منه إلا أن أمر حراسه بحمل الأسلحة، وراح هو يعزل من اعتقد أنه له ضلعاً في المؤامرة والذين كانوا يحملون الخناجر – وكان من المعتاد حمل التروس والرماح في المهرجانات – عن سواهم.

وهكذا كان مبعث المؤامرة التي خطط لها هارموديوس وأرسطوجيتون عواطف جريحة حملها عاشق، وسبب عملهما الطائش خذلان الأعصاب لهما ذات لحظة. ونتيجة لهذه المؤامرة ازداد حكم الطغاة عسفاً وقهراً تجاه الأثينيين؛ فقد غدا هيبياس أشد خوفاً على نفسه وأعدم الكثيرين بعدها، ثم راح يبحث لنفسه عن ملجأ في الخارج يفزع إليه إذا ما اندلعت ثورة ضده. ومما لا ريب فيه، أنه رغم كونه أثينياً فقد زوج ابنته أرخيديسة إلى لمبساني، وهو ايانتيديس ابن طاغية لمبساكوس هيبوكليس، ليفيد من نفوذهما لدى داريوس ملك الفرس. وقبر أرخيديسة في لمبساكوس الآن وقد نُقش عليه ما يلي:

ترقد هنا أرخيديسة ابنة أعظم رجال هيلاس في ذاك الزمان، إنه والدها هيبياس.

كانت ابنة حاكم وزوج حاكم وأخت حاكم وأماً لحاكم، إلا أن قلبها لم يعرف التيه قط.

ظلَّ هيبياس الطاغية في أثينا ثلاث سنوات أخرى بعد تلك الواقعة، وفي السنة الرابعة أطاح به الإسبارطيون والألكمينيد المنفيين. ثم سمحوا له بالرحيل إلى سيجيوم فذهب منها إلى زوج ابنته يانتيديس في لمبساكوس، ومنها رحل إلى بلاط الملك داريوس. وبعد عشرين عاماً خرج وهو شيخ طاعن مع الفرس في حملة الماراثون.

ولقد كان لتلك الأحداث أثرها في الشعب في أثينا، إذ أصبحوا، الآن – وقد أخذوا يستذكرون ما بلغ أسماعهم من أنبائها– في حال من الغضب والشك بأمر من اتهموا بصلتهم بديانة الأسرار. فكل تلك الأحداث كانت في رأيهم بعضاً من مؤامرة تهدف إلى قيام حكم الأقلية – الأوليجاركية) – أو حكم الطغيان – ديكتاتورية –. وبسبب من تأجج الرأي العام ووجود عدد من المواطنين ذوي الشأن في غياهب السجن، لم يعد ثمة ما ينم عن انفراج في البلد، بل في الواقع كان العسف يأتي مع كل يوم جديد بمزيد

من الفظائع، وزج المزيد من الناس في السجون. ولما بلغت الأمور هذا الحد أقنع أحد المساجين سجيناً آخر كان يعتقد بثبوت التهمة عليه بأن يدلي بمعلومات ليس من سبيل لليقين بصدقها أو كذبها. وقد ذهب الناس في ذلك كلا المذهبين، لكن أحداً منهم لم يستطع أن يأتي بقول جازم عمن قام بالفعلة، سواء في ذلك الحين أو في وقت لاحق. على أن ذلك السجين استطاع أن يقنع الآخر بأن يتقدم بالاعتراف بالذنب، وإن لم يكن هو الفاعل لينجو بنفسه لقاء وعد بمنع العقوبة عنه وتبديد أجواء الشك في المدينة؛ ذلك أنه من الأسلم له أن يدلي باعترافه مع الوعد بمنع العقوبة على أن ينكر الاتهام ويُقدَّم للمحاكمة. وتقدم السجين المذكور بالمعلومات وهي تدينه وآخرين معه في قضية الهيرماي. فشاع السرور بين أهالي أثينا بعد أن تكشفت الحقيقة، كما خيّل إليهم، واطمأنت نفوسهم بعد أن كانوا في ضيق شديد لاعتقادهم بأن المتآمرين على الديمقراطية لن يكتشف أمرهم فأطلق سراح الشاهد في التو ومعه كافة الذين لم يتهمهم بالقضية. في حين أن أولئك الذين اتهمهم باعترافاته بالضلوع في الأمر أُعدموا بعد المحاكمة. كما حكم بالإعدام على كل من هرب ووضعت جائزة لمن يأتي برأس أحدهم، إلا أنه لا يمكن الجزم إن كانت العقوبة التي أنزلت بهؤلاء عادلة أم ظالمة، لكن من الجلي أن بقية أهالي المدينة أفادوا كثيراً من تلك العقوبات، نظراً لما كانت عليه الظروف من قبل.

أما ألسيبياديس فإن نفس الأعداء الذين كانوا يهاجمونه، حتى قبل أن يقلع مبحراً، عاودوا الهجوم عليه الآن، وأخذ الأثينيون تلك الاتهامات على محمل الجد. ولما كانوا يعتقدون الآن أنهم اكتشفوا الحقيقة في مسألة الهيرماي، ازدادوا ميلاً للاعتقاد أنه ارتكب معصية في تناوله الديانة السرانية، كما نسب إليه، ورأوا في ذلك جزءاً من المؤامرة عينها على حكم الديمقراطية التي انخرط فيها. وصادف في ذلك الحين أن كانت قوة صغيرة من الإسبارطيين قد بلغت البرزخ لأمر يخصهم والبويوطيين. وعزيَ ذلك طبعاً إلى تآمر ألسيبياديس، واعتبروا أن وجود الإسبارطيين هناك لا يتصل بالبويوطيين بل

كان أمراً مدبراً بينه وبينهم. ورأى الأثينيون أنه لولا قيامهم باعتقال المتآمرين الذين كشفت شهادة الشاهد أمرهم لكانت المدينة قد سقطت بتآمرهم. والواقع أن القوم أمضوا ليلة والسلاح في أيديهم في معبد ثيسيوس داخل المدينة. وفي ذلك الوقت، حامت الشبهات حول أصدقاء ألسيبياديس في آرجوس وظُنَّ بهم التآمر على الديمقراطية هناك، فقام الأثينيون بتسليم كل من كان في عهدتهم من الرهائن الأرجوس إلى أبناء بلدهم ليصار إلى إعدامهم.

وهكذا أصبح ألسيبياديس مطوقاً بالشكوك من كافة الأطراف، فأرسل الأثينيون – وقد أرادوا محاكمته وقتله – السفينة سالمينيا إلى صقيلية لنقله ومن ورد اسمهم في المعلومات التي أدلى بها ذلك الشاهد. وقضت التوجيهات بالإيعاز إليه بالعودة والدفاع عن نفسه أمام التهم الموجهة إليه في المحاكم، إنما ليس باعتقاله. وكان ذلك لحرص القوم على تفادي وقوع اضطراب من شأنه أن يؤثر في جنوده أو الأعداء في صقيلية، خاصة أنهم كانوا حريصين على استمرار المانتينيين والأرجوس في قواتهم والذين حملهم على الانضمام إلى صفوفهم – على ما يعتقدون – مكانة ألسيبياديس لديهم.

وكان أن غادر ألسيبياديس والمتهمون الآخرون صقيلية على ظهر سفينة مبحرين مع السفينة سالمينيا، وكأنهم عائدون إلى أثينا، لكن ما إن بلغوا ثوري حتى افترقوا عنها وغادروا سفينتهم ليتواروا عن الأنظار، خشية اعتقالهم إن هم عادوا إلى أثينا ومحاكمتهم وسط أجواء الحقد المتأجج عليهم. فذهب طاقم سالمينيا يبحثون عن ألسيبياديس ورفاقه، فلما فشلوا في العثور عليهم ركبوا البحر من جديد ومضوا مغادرين المكان. وما هو إلا حين حتى قطع ألسيبياديس الذي بات منفياً الآن البحر في قارب من ثوري إلى البيلوبونيز، فأصدر الأثينيون حكماً غيابياً بالإعدام بحقه ورفاقه الذين كانوا معه.

الفصل السادس: انتصار أثيني في سيراكوزة

بعد ذلك قام القادة الأثينيون في صقيلية بتنظيم الجيش في قسمين، وتم اختيار قائد كل قسم بالقرعة، ثم أبحروا جميعاً إلى سيلينوس وإيجيستا. وكان غرضهم من ذلك معرفة إن كان الإيجيست سيدفعون الأموال الموعودة والتعرف إلى الأوضاع في سيلينوس ثم استقصاء جوهر الخلاف بينها وإيجيستا. وقد ساروا في رحلتهم بمحاذاة ساحل صقيلية على الجانب المقابل لبحر تيرنيية، وكانت اليابسة إلى يسارهم، حتى ألقوا مراسيهم في هيميرا وهي المدينة الهيلينية الوحيدة في تلك الأصقاع. وهنا أعرض المواطنون عن استقبالهم فعادوا إلى سفنهم للإبحار فيها من جديد. وفي طريقهم استولوا على هيكارا، وهي موقع حصين على الساحل، وكانت في ملك السيكانيين، وفي حرب مع إيجيستا، فاستعبدوا السكان وسلموا تلك الناحية إلى الإيجيست الذين كانت خيالتهم تشاركهم الحملة. ثم عادوا أدراجهم براً عبر منطقة الصيقيل حتى وصلوا إلى كاتانة، بينما أبحر الأسطول بمحاذاة الساحل محملاً بالعبيد. أما نيسياس فقد أبحر عائداً إلى إيجيستا مباشرة على طول الساحل من هيكارا، ثم عاد لينضم إلى الحملة بعد ما استلم مقدار ثلاثين تالنتاً وقضى بعض الأعمال هناك. وقد بيع الرقيق بمئة وعشرين تالنتاً. كذلك طافوا حول المنطقة ليبلغوا حلفاءهم بين الصيقيل ويحثوهم على المساهمة بجيش في الحملة. ثم زحفوا بنصف قواتهم لقتال مدينة هيبلا المعادية في أرض جيلا، فامتنعت عليهم. وهكذا انقضى فصل الصيف.

وفي بداية الشتاء التالي انهمك الأثينيون في الإعداد لهجومهم على سيراكوزة، بينما كان السيراكوز يستعدون من طرفهم للتحرك ضد الأثينيين. وتفصيل ذلك أنه بعدما عجز الأثينيون عن القيام بهجوم فوري – كان السيراكوز يخشون ذلك في البداية ويتوقعونه– أخذ السيراكوز يزدادون ثقة بأنفسهم مع مرور كل يوم جديد. ولما وجدوا أن أعداءهم قد أبحروا بعيداً عنهم في الطرف الآخر من صقيلية، بغرض الهجوم على

هيبلا، وعجزوا عن أخذها عنوة، استخفوا بهم وقللوا من شأنهم - كما تفعل الجيوش الضخمة حين تشعر بالثقة والاعتداد بقوتها وبأسها - وذهبوا يلحون على قادتهم أن يسيروا بهم إلى كاتانة، مطمئنين إلى أن الأثينيين لن يتقدموا نحوهم. وكان الفرسان السيراكوز لا ينقطعون عن استطلاع أحوال جيش الأثينيين وسؤالهم - على سبيل الإهانة - ما إذا كانوا قد أتوا للنزول في أرض الغير، وليس لإعادة الليونتين إلى أرضهم.

ولقد رأى القادة الأثينيون حقيقة الموقف فخططوا لاستدراج السيراكوز بكامل قواتهم إلى أبعد نقطة عن مدينتهم، بينما كانوا يركبون سفنهم ويبحرون ليلاً فيها حتى يحتلوا مكاناً مناسباً لمعسكرهم حينما يشاؤون. وهم يدركون أن تلك ليست بالمهمة اليسيرة إذا قاموا بالإنزال مقابل قوات مستعدة للقائهم، أو إذا شوهدوا يزحفون في البر؛ إذ إن مشاتهم الخفيفة كانت ستمنى عندئذ بخسائر فادحة على يد الفرسان السيراكوز الذين يمتازون بكثرتهم في حين أنهم ليس لديهم فرسان أبداً. أما إذا اتبعوا الخطة المقترحة فيمكنهم احتلال موقع ليس بمقدور الفرسان فيه أن يلحقوا بهم أي ضرر ذي بال. -وكان بعض السيراكوز المنفيين قد كشفوا لهم عن قطعة الأرض بالقرب من اوليمبيوم، ثم قاموا باحتلالها في النهاية-.

وبناء على ما تقدم وضع القادة العسكريون طريقة لتنفيذ خطتهم. وتفصيل ذلك أنهم أرسلوا إلى سيراكوزة رجلاً يثقون به، في حين أن القادة في سيراكوزة يعتقدون أنه في صفهم. وكان هذا رجلاً من كاتانة، فأخبر القادة في سيراكوزة أنه قدم من قبل جماعة معينة في البلد، وأسماؤهم معروفة لديهم، ويعلمون أيضاً أنهم من بقايا الحزب المناصر لسيراكوزة. وذكر لهم بأن من عادة الأثينيين النوم ليلاً داخل المدينة على مسافة من الأماكن التي يودعون فيها أسلحتهم؛ فإذا شاء السيراكوز حددوا يوماً وأتوا في الفجر، وهاجموا جحفل الحملة الأثينية بكل مالديهم من القوات، فإن أعوانهم في كاتانة سيقومون من جانبهم بإغلاق أبواب المدينة ويضرمون النار في سفنهم، فيلتفت

السيراكوز للهجوم على السياج المحيط بالمكان الذي يهجعون فيه، ويسهل التغلب عليهم. وزاد الرجل أن في كاتانة الكثير من الرجال الذين سوف ينضمون إليهم في هذه العملية، وهم جاهزون للعمل فوراً، وأنه من هؤلاء الرجال.

ولما كان القادة السيراكوز واثقين من قدرتهم على التغلب على الأثينيين في مطلق الأحوال، فقد استقر لديهم العزم على الهجوم على كاتانة، حتى بدون تلك المعلومات، فأظهروا بذلك إهمالاً شديداً للحذر حين صدقوا ما سمعوه. فقاموا في التو بتحديد اليوم الذي سيظهرون فيه، ثم ردوا الرجل إلى كاتانة. وكان حلفاؤهم من سيلينوس وبعض البقاع الأخرى قد حضروا إليهم قبل حين، فاطمأنوا إلى حسن استعدادهم، وعليه وجهوا الجيش كله للخروج والزحف؛ ذلك أن الجيش كان قد أتم تجهيزه، وساعة وصوله إلى الهدف كادت تحين فخرج قاصداً كاتانة. وفي المساء أقام معسكره على ضفة نهر سيميثوس في أرض ليونتيني. وما إن بلغ الأثينيين خبر مسيرهم حتى خرجوا بكامل جيشهم ومعهم الصيقيل وجماعات أخرى كانت قد انضمت إليهم، وركبوا جميعاً سفنهم وقواربهم وأبحروا في الليل ميممين شطر سيراكوزة. فلما كان النهار نزل الأثينيون إلى البر قبالة الأوليمبيوم، واحتلوا الأرض هناك ليقيموا معسكرهم، فوجد الفرسان السيراكوز الذين تقدموا الجميع إلى كاتانة أن قوات الحملة جميعها قد أبحرت مغادرة مواقعها، وعادوا بالخبر إلى المشاة. فاستداروا جميعاً، عندئذ، وعادوا للدفاع عن مدينتهم.

وفيما كان أمام السيراكوز طريق طويل للعودة إلى مدينتهم وجد الأثينيون الفسحة الكافية من الوقت لتتمركز قواتهم في أحسن موقع للاشتباك مع العدو متى شاؤوا، وحيث لا يتاح للخيالة السيراكوز من المجال إلا أقله لينالوا منهم، سواء أثناء المعركة أو قبلها؛ إذ كان يحدهم من أحد الجانبين أسوار وبيوت وأمامهم مستنقع يعرقل اندفاعهم، ثم هناك – من الجهة الأخرى – المنحدرات السحيقة التي تجعل المجال ضيقاً لحركتهم.

وكان الأثينيون قد عمدوا إلى قطع الأشجار من الجوار وحملوها إلى البحر حيث أقاموا سياجاً يحمي سفنهم. وفي داسكون- وهي أضعف نقطة يستطيع العدو مهاجمتهم منها- شيدوا على عجل حصناً من الأحجار والخشب، كما عمدوا إلى تحطيم الجسر على نهر الأنابوس. ولم يخرج يومئذ من المدينة من يعترض عملهم في هذه الاستعدادات، وكان أول من ظهر لهم الخيالة السيراكوز، ثم تبعهم المشاة جميعها. فتقدموا بادىء الأمر حتى أصبحوا على مقربة من الجيش الأثيني. فلما بقي الأثينيون كما هم، ولم يتحركوا لملاقاتهم، استداروا وعبروا الطريق إلى هيلوروس حيث أقاموا معسكرهم في تلك الليلة.

وفي اليوم التالي استعد الأثينيون وحلفاؤهم للقتال. وكان ترتيب المعركة على النحو التالي: كان جناح الميمنة يتألف من الأرجوس والمانتينيين، والأثينيون في القلب، أما بقية الصف فمن الحلفاء. وكان قد جرى ترتيب نصف الجيش في ثمانية أرتال سلفاً، أما النصف الآخر فقد كان في شكل مربع فارغ في وسطه، وهو في ثمانية أرتال أيضاً ويغطي الخيام. ولدى هذا التشكيل الأوامر بالاستعداد للتحرك لتقديم الدعم لأي جزء من الخط الأمامي لدى أي طارئ. أما العناصر غير المقاتلة فقد كان موضعها داخل هذا المربع. أما السيراكوز فقد شكلوا خطهم من المشاة الثقيلة في أرتال من ستة عشر جندياً. وكان هذا الخط يضم جيش سيراكوزة كله بالإضافة إلى جنود الحلفاء الذين أتوا لتقديم الدعم والعون، ومعظم هؤلاء من سيلينوس. أما القوة الثانية في الأهمية فهي الفرسان من جيلا وتعدادهم مئتان ومعهم عشرون خيالاً وخمسون رامياً من كمارينا. وكان موضع الخيالة الذين لا يقل تعدادهم عن الألف والمئتين في الميمنة وبجوارهم رماة الرماح القصيرة. ولما كان الأثينيون هم المبادرين إلى القتال، فقد راح نيسياس يمر بالصفوف ليستثير همم الجنود من مختلف البلدان بكلماته إذ قال لهم:

"إنني لست بحاجة للإطناب في الكلام لتشجيعكم على القتال بما أننا جميعاً في المعركة معاً. وفي رأيي أن جيشنا هذا قادر على أن يمنحنا الثقة أكثر من أي خطاب رنان

لا تسنده إلا قوة هزيلة. وكيف لا نشعر بالثقة بالنصر وقواتنا تضم الأرجوس والمانتينيين والأثينيين وأفضل أهل الجزر وقد انتظموا جميعاً في أفواج من القوات الباسلة؟. كيف لا نشعر بالثقة بالنصر ونحن من صفوة المقاتلين المجربين؟ بينما من هم أمامنا حشد من المجندين، وجمع من الصقيليين الذين قد ينظرون إلينا من علٍ لكنهم لن يستطيعوا الصمود أمامنا؛ لأنهم جمع من المتهورين وليسوا بالمقاتلين المجربين. وتذكروا أيضاً أننا بعيدون عن الوطن وليس ثمة من أرض صديقة لنا بالقرب منا، إلا إذا قاتلتم في سبيلها ونلتموها بعزيمتكم. والواقع أني أخاطبكم بأقوال هي – وأنا على ثقة مما أقول – عكس ما يقوله الأعداء لإذكاء الحماس في قلوب بعضهم بعضاً؛ فأعداؤنا يقولون: إن المعركة أمامهم هي معركة دفاع عن بلدهم، وأنا أقول: إن الصراع أمامنا هو صراع من أجل بلد لا يخصنا، ولن يكون من اليسير علينا الإفلات من هذه الأرض إلا إذا تحقق لنا النصر؛ لأن خيالتهم سوف يطبقون علينا بقوة عظيمة. فتذكروا جميعاً، إذن، ما هو واجبكم تجاه أنفسكم، ولتتقدموا وأنتم تعلمون حالنا الآن والضير الذي سوف يصيبنا عند الخسارة وهو أشد هولاً من القوى التي تناهضنا."

بعد هذه الكلمات التي قصد بها تأجيج الحماس بين الجند، قام نيسياس وسار بالجيش فوراً. ولم يكن السيراكوز يتوقعون في تلك اللحظة النزول إلى ساحة المعركة في هذا الوقت القريب، بل إن بعضهم كان قد ذهب لزيارة المدينة، وهي غير بعيدة من موقعهم. فلما نشب القتال جاء هؤلاء على عجل، وشاركوا متأخرين واتخذوا مواقعهم إلى جانب الآخرين حالما بلغوا مواقع الجيش. والحق أن السيراكوز لم يكونوا يفتقرون للحماس أو الجرأة في تلك المعركة أو في سواها، وكانوا لا يقلون عن سواهم شجاعة، في حدود تجربتهم العسكرية، ولا كانت عزيمتهم تخور إلا بعد مكابرة وحين تعوزهم الخبرة. وهكذا حملوا الآن أسلحتهم واندفعوا للقتال، بالرغم من أنهم لم يكونوا يتوقعون أن يبادرهم الأثينيون بالهجوم، ويضطروهم للقتال على عجل.

بدأت المعركة بأن أخذ الرماة على الجانبين يتبادلون رمي الحجارة والسهام، وهم يقفون أمام صفوف الجيش، وكانت الغلبة مرة لهذا الفريق ومرة لذاك، كما هو الحال بين القوات الخفيفة. ثم أتى العرافون بالقرابين المعهودة للتضحية بها وصدحت الأبواق لقيام المشاة الثقيلة بالهجوم، وهكذا نزل هؤلاء إلى المعمعة، وراح السيراكوز يقاتلون ذوداً عن الوطن، كما يقاتل كل منهم من أجل حياته في ذاك اليوم وحريته في اليوم التالي. وعلى الجانب الآخر كان الأثينيون يقاتلون للتغلب على بلد ليس لهم، وردّ الأذى الذي لا بد أن ينال بلدهم إن لم ينتصروا. والأرجوس والحلفاء المستقلون يقاتلون دعماً للأثينيين لنيل ماجاؤوا من أجله، ولرؤية البلد الذي غادروه ثانية، مكافأة لهم على النصر. أما الحلفاء التابعون فقد كان حافزهم أساساً الحفاظ على حياتهم حاضراً ، وذلك أمر لا يتحقق إلا إذا كانوا منتصرين. وكان هناك الاعتبار العارض وهو أن أثينا قد تلين في حكمهم حين يساعدونها في توسيع إمبراطوريتها.

أصبح الجيشان في مواجهة بعضهما الآن، وظل كل منهما متشبثاً بأرضه حيناً من الوقت لا يحيد عنها قيد أنملة. وبينما الحال على هذا النحو كانت السماء تبرق وترعد بين الفينة والأخرى والمطر يهطل ثقيلاً عنيفاً، فكان ذلك كله يزيد من الخوف الذي عمّ السيراكوز وهم يخوضون أول معركة لهم وليس لديهم إلا القليل من المعرفة بالحرب، بينما الجنود الأكثر خبرة في صفوف أعدائهم كانوا يجدون تلك الأمور مجرد أحوال مما يتوقع المرء حدوثه في هذا الوقت من السنة. ولكن ما كان مثيراً للقلق فعلاً عند هؤلاء صمود السيراكوز هذا الوقت الطويل دون أن يتراجعوا. وكان الأرجوس هم أول من أجبر ميسرتهم على التراجع، ثم اخترق الأثينيون صفوفهم في القلب. وهكذا قُسم جيش السيراكوز إلى قسمين فأطلق الجنود أرجلهم بالفرار. واستمر الأثينيون يطاردونهم لفترة، لكنهم اضطروا للعودة ليواجهوا من ثبت من الخيالة السيراكوز الذين اندفعوا بالهجوم وردوا المشاة الثقيلة الذين وجدوهم يجدون في المطاردة متقدمين على بقية الصفوف.

ولكنهم ظلوا مع ذلك يلاحقون العدو قدر ما كان لهم أن يحافظوا على تماسكهم، ثم عادوا عندئذ إلى خطوطهم وأقاموا نصباً تخليداً لانتصارهم.

عاد السيراكوز بعدئذ يتجمعون ثانية عند الطريق المؤدي إلى هيلوروس، وهناك أخذوا بتنظيم أنفسهم قدر ما تسمح الظروف، بل أرسلوا حامية من مواطنيهم إلى أوليمبيوم، ليحولوا دون أن يهرب الأثينيون ببعض الكنوز الموجودة هناك. أما البقية فقد عادوا إلى المدينة. ولكن الأثينيين لم يقصدوا المعبد كما خشي السيراكوز، وإنما انشغلوا بنقل جثث قتلاهم من ساحة المعركة وقاموا بإحراقها، ثم أقاموا معسكرهم وباتوا الليل حيث كانوا. وفي اليوم التالي سلموا السيراكوز جثث من سقط لهم أثناء القتال، وذلك بموجب الهدنة. وقد بلغ عد القتلى من السيراكوز وحلفائهم مئتين وستين قتيلاً. ثم عمد الأثينيون إلى جمع عظام من سقط وكانوا نحو خمسين قتيلاً من الأثينيين والحلفاء، ثم جمعوا السلاح الذي جردوا أعداءهم منه وحملوه معهم مبحرين عائدين إلى كاتانة. وكان السبب في ذلك حلول الشتاء الآن فاعتقدوا أنهم في وضع لا يسمح لهم بمتابعة الحرب من موقعهم أمام سيراكوزة؛ فقد كان لا بد أولاً من استقدام الخيالة من أثينا وجمعهم من بين حلفائهم في صقيلية، إن كانوا لا يريدون أن يبزهم الآخرون في هذا المجال؛ وكان عليهم السعي لكسب بعض المدن إلى صفهم وقد باتت أقرب للإصغاء إليهم الآن بعد المعركة، كذلك لا بد من توفير الغلال وكافة الضرورات الأخرى قبل شن الهجوم على سيراكوزة في الربيع. وهكذا أبحر الأثينيون عائدين إلى ناكسوس وكاتانة، وقد استقرت تلك الخطط في عقولهم ينتظرون الأوان لتنفيذها.

دفن السيراكوز موتاهم، ثم عقدوا اجتماعاً لمجلسهم كان المتحدث فيه هيرموكراتيس بن هيرمون. وكان هذا رجلاً على قدر عظيم من الذكاء من كل ناحية. وفي الحرب أظهر خصالاً رفيعة توفرت له بفضل خبرته، كما جلّى وشاع اسمه بفضل شجاعته. وها هو اليوم يذكي الحمية في قومه، ويلح عليهم ألا يدعوا للقنوط سبيلاً إلى قلوبهم بسبب تلك النكسة التي عرضت لهم. فكان يقول لهم: إن ما حدث لم يكن لتردي معنوياتهم، وإنما العلة في افتقارهم للانضباط. بل إنهم لم يكونوا دون أعدائهم في السجال كما ذهبت التوقعات، خاصة إذا سلم المرء بأنهم في فن الحرب كانوا أقرب إلى الهواة، ويقاتلون أكثر الجنود خبرة في كل بلاد هيلاس. وزاد: إن الضرر كان مصدره بعدُ كثرة القادة – وكانوا خمسة عشر– ومن يصدرون الأوامر، بينما كان الجنود أنفسهم يفتقرون للتنظيم والانضباط. ولو كان لهم قلة من القادة المجربين فعلاً وأمضوا الشتاء في تنظيم المشاة الثقيلة ووفروا السلاح لمن ليس لديهم سلاح، بحيث يمكن للجيش أن يضم أكبر عدد ممكن منهم، وفرضوا على المواطنين التدريب العسكري، لوفروا لقواتهم أسباب النصر. ولكن ها هي ذي الشجاعة متوفرة لديهم فلا ينقصهم بعد إلا الانضباط والتنظيم اللذان يكونان بالتدريب. فإذا توفرا سارت الأمور إلى الأحسن تلقائياً في هاتين الناحيتين معاً؛ إذ يكتسب الانضباط في مدرسة الخطر وتعلو الشجاعة وترتفع إلى ذرا البطولة حين تدعمها الثقة التي تكون بالتجربة والخبرة. أما القادة فينبغي أن يكونوا قلة ولهم سلطة غير محدودة. وأما الشعب فيجب أن يقسم لهؤلاء بأن يدعهم يقومون بمسؤولياتهم على النحو الذي يرونه مناسباً؛ وفي ذلك ما يزيد من الأمن في القضايا التي ينبغي أن تظل سراً ويسمح بتنفيذ برنامج الدفاع كله بيسر دونما حاجة لشرح ما يجري باستمرار.

ولقد أصغى السيراكوز إلى ما قاله هيرموكراتيس مؤيدين كل ما أتى به في خطابه، ثم اختاروا ثلاثة لا غير لتولي قيادة قواتهم. وكان هؤلاء القادة هم هيرموكراتيس ذاته

وهيركليديس بن ليسيماخوس وسيكانوس بن إكسيستيس. فأرسل هؤلاء الرسل إلى كورنثة وإسبارطة لطلب إمداد سيراكوزة بقوة حليفة ومحاولة إقناع الإسبارطيين بأن من الخير لهم أن يعلنوا الحرب على أثينا ويخوضوها بهمة ونشاط؛ فلا يكون أمام الأثينيين إلا الانسحاب من صقيلية، أو أن يعيقوا وصول الإمدادات إليهم؛ فلا يستطيعون بعدئذ إمداد جيشهم هناك بمزيد من القوات.

أبحرت القوات الأثينية في كاتانة فوراً إلى ميسينا بأمل أن يتسلموا المدينة بالخيانة، إلا أن الخطة انتهت إلى الفشل. والسبب في ذلك أن ألسيبياديس أفشى للحزب المناصر لسيراكوزة في ميسينا بمعلومات عن المؤامرة قبيل تخليه عن القيادة، وحين أدرك أنه في طريقه إلى المنفى، وكان هو من القائمين على المؤامرة. فقام الميسينيون بإعدام كبار المتآمرين حتى قبل وصول الأثينيين. وفي هذا الاضطراب الذي عم هب هذا الحزب ذاته بالسلاح وتمكن من صد الأثينيين وإبعادهم عن نطاق المدينة. ولقد ظل الأثينيون يقيمون هناك طوال ثلاثة عشر يوماً، ثم رحلوا عنها تحت تأثير الطقس ونقص المؤن، فضلاً عن عدم مصادفتهم نجاحاً في هذه الحملة، فارتدوا إلى ناكسوس حيث بنوا المستودعات لتخزين العتاد، وأحاطوا معسكرهم بسياج، وقضوا الشتاء على هذا النحو. وكانوا قد أرسلوا في غضون ذلك سفينة لتحمل إليهم المال والخيالة في الربيع.

وفي الشتاء انهمك السيراكوز في بناء سور حول مدينتهم وضموا إليهم الأرض المكرسة لأبولو التيمينيتي على امتداد الجزء قبالة إيبيبولاي، ليضمنوا النجاة من الحصار بسور إذا ما تعرضوا للهزيمة؛ وذلك يجعل وضعهم أفضل مما كان حين كانت المساحة أضيق. كذلك بنى السيراكوز حصنين أحدهما عند ميجارا والآخر عند أوليمبيوم، وأغلقوا كافة النقاط الصالحة لرسو السفن بأن نصبوا فيها الأوتاد. ولما علموا أن الأثينيين يمضون الشتاء في ناكسوس خرجوا بكامل قواتهم إلى كاتانة، وأعملوا فيها يد التخريب وأحرقوا الخيام ومعسكر الأثينيين، وقفلوا بعدئذ عائدين إلى مدينتهم. كذلك بلغهم أن

الأثينيين بعثوا بسفارات يستطلعون إن كان بوسعهم الاعتماد على مؤازرة كامرينا، حسب الحلف الذي كان بينهما في عهد لاخيس، فأوفد السيراكوز رسولاً منهم لإحباط هذا المسعى بعد أن خامرهم الشك باستعداد أهالي كامرينا لتقديم مثل ما سبق لهم أن قدموه في المعركة الأولى، وأنهم قد يعرضون عن دعمهم في المستقبل بعد انتصار الأثينيين عليهم، بل ولربما انضموا إليهم نظراً لما بينهما من صداقة قديمة. وكان هيرموكراتيس أحد هؤلاء الموفدين إلى كامرينا، وكان هناك أيفيموس وآخرون معه من الجانب الأثيني. عقد الكامرينيون اجتماعاً، تحدث فيه هيرموكراتيس الذي أراد أن يكون له الهجوم الأول على الأثينيين، وكان خطابه كما سوف يرد:

"أيها الكامرينيون، إننا لم نأت إليكم في هذه المهمة ونحن نخشى أن تخيفكم القوات التي جاء بها الأثينيون، بل إن ما نخشاه تلك الكلمات التي سينطقون بها والتي ربما يقنعونكم بها قبل أن تتاح لكم الفرصة لسماع مالدينا. إن الأسباب التي سيعرضونها أمامكم في تبرير وجودهم هنا في صقيلية معروفة لديكم، بيد أننا تراودنا جميعاً الشكوك بنيّاتهم الحقيقية، فلسنا ندري ما هي. ولكن الرأي عندي أن هؤلاء القوم لا يرمون أن يعيدوا لليونتيني ما كان لها بقدر ما ينشدون الاستيلاء على ما هو لنا. وغني عن البيان أنه ليس يتفق والمنطق أن يعملوا خراباً في هيلاس ثم يقوموا ببناء المدن في صقيلية، ليظهروا كل هذه العناية بالليونتينيين، وهم خاليكيد، بسبب من صلة العرق بينهم بينما هم ينزلون العسف بسكان خالكيس في يوبوية، ومستعمروها ليونتينيون. وواقع الحال أنهم كما فازوا بإمبراطورية في هيلاس يريدون الفوز بأخرى لهم هنا، متبعين في ذلك الأساليب ذاتها التي انتهجوها هناك. ولقد سلم حلف الأيونيين والأقوام المتصلة عروقها بأثينا بزعامة الأثينيين في الحرب ليستردوا مالهم من فارس. أما الأثينيون فقد حرموهم من كل استقلال لهم، متهمين بعضهم بالتقصير عن الوفاء بالتزاماتهم العسكرية، وبعضهم بالاقتتال والتناحر فيما بينهم. وهم في الواقع إنما

يتوسلون بكل ذريعة تخطر بالبال لتلائم كل وضع. وهكذا فإن أثينا باتخاذها هذا الموقف من فارس لم تكن تقاتل من أجل هيلاس وإنما لمصالحها الخاصة؛. وما كانت أثينا تنشده من ذلك كله هو أن تحل محل فارس في الإمبراطورية التي تحققت لها، أما الهيلينيون الآخرون فكانوا يقاتلون ليحلوا سيداً جديداً لا يقل ذكاء، إنما استخدم هذا الذكاء في أغراض أشد شراً من تلك التي كان يأخذ بها السيد القديم.

"ومع ذلك فهناك مجال عظيم لنقد سلوك مدينة مثل أثينا. ونحن لم نأت إلى هنا الآن لنروي لكم حكاية أفعال الأثينيين السيئة، فأنتم أدرى بها. والأجدر بنا أن نلقي اللوم في ذلك على أنفسنا. وأمامنا كمثال الهيلينيون في البلد الأم الذين انتهوا إلى العبودية حين لم يشدوا بعضهم أزر بعض؛ ونجد الأثينيين الآن يتوسلون بالسفسطات ذاتها ضدنا – استقرار أقاربهم الليونتيين في أرضهم وتوفير المعونة العسكرية لحليفتهم إيجيستا – ومع أننا لسنا مستعدين بعد لأن نتوحد فقد وطدنا العزم على أن نبين لهم أنهم لن يجدوا هنا أيونيين وهليسبونت وسكان جزر يقبلون استبدال سادة بسادة، وهم أبداً عبيد للفرس أو قوم آخرين، وإنما سيواجهون دوريين أحراراً من البيلوبونيز يعيشون في صقيلية. أفترانا ننتظر حتى نؤخذ متفرقين، مدينة فمدينة؛ مع أننا ندرك جيداً أن هذه فرصتهم الوحيدة لقهرنا ونحن نرى أن هذا هو الأسلوب الذي يتبعونه – فيحاولون إثارة الفرقة بيننا بدعواهم أحياناً، وإشعال الحروب بيننا أحياناً بإثارة آمال بالتحالف معهم – وهم في الواقع ينزلون بنا كل الضرر الممكن بأشد عبارات الإطراء والتملق حسب المناسبة؟ أفترانا نتخيل أن الخطر لا يطال كل منا بدوره، ونحن نرى مواطنينا الصقيليين الذين يعيشون غير بعيد عنا قد تعرضوا للدمار أولاً، أم نحسب أن المصائب سوف تقتصر على من يعانونها قبل أن يبلغنا الدور؟

"وقد تراود البعض منكم فكرة أن سيراكوزة لا كامرينا هي عدو أثينا، وقد يعترضون بأنهم لا يريدون المخاطرة في سبيل بلدي. إن من يذهب هذا المذهب حري به أن يتذكر

انه حين يقاتل في بلدي فهو إنما يقاتل في سبيل بلده كما في سبيل بلدي. ولسوف يكون أشد طمأنينة حينما يجدني حليفاً له فلا يضطر للقتال وحده، كما سوف يحدث إن هلكت أولاً. وجدير به أن يتذكر أيضاً أن أثينا لا تهدف إلى معاقبة سيراكوزة لعدائها بقدر ما ترمي إلى كسب صداقة كامرينا مستخدمة سيراكوزة ذريعة في هذا التقرب. وإذا كان هناك من يحسدنا أو يخشانا – والقوى العظمى هي دائماً موضع حسد ومرهوبة الجانب معاً – فإنها تريد أن ترى سيراكوزة في حال من الضعف لتجعلنا أقل عنفواناً، ونظل مع ذلك نسعى ليضمن لنفسه الأمن. ومثل هذا يريد أمراً لا يمكن لإنسان أن يبلغه؛ فليس بوسع المرء أن يحكم الأقدار لتلائم ما قد قرره أو أراد له أن يقع. أما إذا أخطأت حساباته فإنه ملاق سريعاً الشقاء حتى يبكي سوء حاله. والأرجح أنه سوف يتوق لأن يحسدني على ما أنعم به. ولكن ذلك مستحيل إن تخلى عنا الآن ورفض أن يتحمل نصيبه من الأخطار التي تتهدده، مهما قال، كما تتهددنا. وقد يقال: إنه يقاتل ليحفظ لنا قوتنا، وفي الواقع فإنه يقاتل ليكفل لنفسه البقاء. ولقد كان المرء يحسب أنكم ربما كنتم يا معشر الكامرينيين الأرجحين بين البشر للتنبؤ بهذه الحال، فأنتم تقعون على تخوم بلدنا وتأتون بعدنا في لائحة الخطر. ولربما كان المرء يتوقع منكم – بدلاً من ذلك الدعم الذي تقدمونه بقلب واهن – أن تأتوا إلينا مبادرين، وكما كنتم ستسألوننا العون لو أن الأثينيين هاجموا كامرينا أولاً كذلك كنتم ستحثوننا علانية وتسألوننا ألا نتنازل أمام العدو. وما صادف هو أن مثل هذه المبادرة القوية لم تصدر، إن منكم أو من البقية.

"وقد يكون أن الجبن يحملكم على سلوك ما تحسبون أنه طريق الصواب بالمساواة بيننا والغزاة، وتتذرعون في تبرير مسلككم بأن بينكم وأثينا حلفاً. ولكن ينبغي أن تحاذروا فهذا الحلف إنما أقمتموه لتفيدوا منه، وليس للإضرار بأصدقائكم، وليكون ضد أي عدو قد يتعرض لكم بهجوم. وأما بالنسبة للأثينيين فلستم ملزمين بمؤازرتهم إلا إذا

كانوا ضحية لعدوان، وليسوا المعتدين كحالهم اليوم يستهدفون جيراناً لكم. وحتى أهل ريجيوم بالرغم من أنهم خاليكيد، يرفضون تقديم المؤازرة لعودة بني جلدتهم، خاليكيد ليونتيني. ولسوف يكون من الغريب أن نجدهم يبدون هذه الدرجة التي تتجاوز المنطق من البداهة في تبين المعنى الحقيقي وراء دعاوى محقة في ظاهرها يدعونها، بينما تؤثرون وأنتم تتذرعون بالمنطق مناصرة من هم بطبيعتهم معادون لكم، وتتنكرون لأهلكم وتعينون ألدّ أعدائهم للقضاء عليهم. إن هذا بالتأكيد ليس بالعمل الصائب، بل عليكم عوضاً عن ذلك أن تساعدونا في أمرنا. ويجب ألا تخشوا أسطولهم وجيشهم؛ فليس هناك ما يدعو للخوف طالما وقفنا جميعاً متحدين – إلا إذا قصرنا عن هذه الوقفة وانزلقنا بعيداً بعضنا عن بعض – وهذا عين ما يحاولون بلوغه. ولقد رأيتموهم – حتى حين قدموا ضدنا، ونحن وحيدون في الميدان، وهزمونا في المعركة – قد فشلوا في بلوغ أهدافهم واضطروا للتراجع والانسحاب في الحال.

"وإذن فليس ثمة مبرر للقنوط طالما كنا متحدين. ولدينا كل سبب للتحالف بكل وجداننا، خاصة أن العون آت من البيلوبونيز الذين يبزون الأثينيين في القضايا العسكرية في كل ناحية. ولا يظنن أحد أنه من العدل لنا أو المأمون لكم أن تعتمدوا سياسة الحذر بالقول: إنكم حلفاء لكلا الطرفين فتمتنعون عن مساعدة هذا الطرف أو ذاك. وإذا كانت هزيمة المهزوم وانتصار الغازي ينجمان عن نأيكم عن دخول الصراع فإن النتيجة المؤكدة لعدم تحرككم ستكون قصوركم عن مساعدة أحد الطرفين في بلوغ السلامة وترك الآخر يمضي في طريق الشر دونما اعتراض. والأمر المشرف الذي ينبغي للمرء أن يسلكه في هذا هو أن يقف إلى صف ضحايا العدوان وهم من دمكم، والدفاع عن مصالح صقيلية المشتركة ومنع أصدقائكم الأثينيين من الإتيان بشر.

"وهاكم أخيراً رأينا نحن السيراكوز: ليس ثمة جدوى في الاستطراد في التفسيرات الدقيقة المفصلة معكم أو مع الآخرين لأمور تعلمونها كما نعلمها نحن، إلا أننا نرجوكم

فإن لم ينفع الرجاء نجاهر بأبلغ المجاهرة بأنه بينما يتآمر علينا الأيونيون - وهم خصومنا الذين يستمرون في خصومتنا - يذهب الدوريون وهم من أهلنا إلى خذلاننا. فإذا تغلب علينا الأثينيون كان نصرهم بفضل قراركم، إلا أنه سوف ينسب لهم، وهم الذين سيستولون على من ساعدهم جائزةً لنصرهم. أما إذا مال النصر إلينا، من جهة أخرى، فلن تفلتوا من دفع الثمن؛ لأنكم كنتم السبب في الخطر الذي أحدق بنا. فتأملوا ما أنتم مقدمون عليه وأحكموا خياركم؛ فإما أن تعرضوا عن كل مجازفة فتغدون عبيداً أرقاء من جديد، وإما أن تتحدوا معنا فلعلكم تجنبون أنفسكم التهلكة والعار الذي سيرافق هيمنة الأثينيين وكراهيتنا الأبدية التي لا بد وأن تقيم في أفئدتنا إن كان خياركم الوقوف إلى صفهم."

وبعد أن ألقى هيرموكراتيس خطبته هذه، وقف الموفد الأثيني مخاطباً الجمع على نحو ما يلي:

" إن ما حملنا على القدوم إليكم الرغبة في تجديد حلفنا القديم، إلا أنني أجد نفسي مضطراً للرد بعد هذا الهجوم الذي نالنا من الموفد السيراكوزي فأحدثكم عن إمبراطوريتنا والأسباب الوجيهة التي تفرض علينا الحفاظ عليها. والحق أن موفد سيراكوزة قد كفانا مؤونة البحث؛ فقدم أفضل شاهد حين قال: إن الأيونيين كانوا على الدوام أعداء للدوريين. وهذا حق. والآن، نحن أيونيون والبيلوبونيز دوريون؛ وهم أكثر عدداً منا ومجاورون لنا. فأخذنا نبحث من حولنا عن أفضل الطرق للحفاظ على استقلالنا، وبعد أن انتهت الحرب مع فارس، وكنا قد بنينا أسطولنا، استقللنا عن إمبراطورية إسبارطة وزعامة إسبارطة. ولم يعد لهم أن يصدروا أوامرهم إلينا بأكثر مما لنا أن نوجه إليهم أوامرنا، سوى أنهم كانوا يومذاك الأقوين. ولقد وضعنا في موضع القيادة أولئك الذين كانوا يخضعون من قبل لملك فارس، ومازلنا نقوم على رعاية شؤونهم. ووجهة نظرنا هي أننا بهذا نجنب أنفسنا هيمنة البيلوبونيز علينا قدر المستطاع؛ لأن لدينا

القوة للدفاع عن أنفسنا، ولم نكن نعتقد- إن أخذ المرء حقائق الوضع في الحسبان- أننا أخطأنا التصرف حين أخضعنا الأيونيين وأهل الجزر وهم- حسب قول السيراكوز- أهلنا المضطهدون. فواقع الأمر أن هؤلاء الأهل كانوا قد انضموا إلى الفرس في الهجوم على وطنهم الأم - أثينا - وهم على العكس منا حين هجرنا مدينتنا، ليست لديهم الشجاعة للقيام بالثورة؛ لأن في ذلك تخلياً عن ممتلكاتهم. بل بدلاً من ذلك شاؤوا العبودية لأنفسهم وأرادوا أن يجعلوا منا عبيداً أيضاً.

"إذن فنحن جديرون بإمبراطوريتنا، ولأسباب منها مساهمتنا في قضية حرية هيلاس بأضخم أسطول وشجاعة تأبى التردد والوجل ولا تعرف إلا الإقدام. بينما كان رعايانا هؤلاء ينزلون بنا الأذى بما كانوا يبدونه من استعداد للعمل بأوامر الفرس، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لأننا أردنا لأنفسنا القوة فيكون لنا استقلالنا في علاقتنا بالبيلوبونيز. ولسنا نتلو عليكم أقوالاً هي من قبيل المبالغة كأن لنا الحق في أن نسود؛ لأننا طردنا بمفردنا الغازي الأجنبي، أو أن ما واجهناه من الأخطار كان في سبيل حرية رعايانا هؤلاء أكثر مما كان من أجل حرية الجميع، ونحن منهم. وليس في سعي الإنسان إلى حفظ سلامته بطريقته الخاصة مايُلام عليه. وكذلك هو حالنا الآن إذ قدمنا إلى صقيلية لأسباب تتصل بتأمين السلامة لأنفسنا، ونحن نرى أن مصالحكم هي نفس مصالحنا. ولنا أن نأتي بالبرهان مما يقوله السيراكوز ضدنا ومن الشكوك التي لا بد تساوركم في أمرنا، وأنتم في هذه الحالة من القلق الشديد؛ لأننا نعلم أن من بهم خوفاً أو شكاً إنما يطمئنون للرأي الذي يلائم مشاعرهم، إلا أنهم يتصرفون في النهاية بما يتفق ومصالحهم.

"ولقد سلف القول: إننا نتشبث بإمبراطوريتنا في هيلاس بدافع من الخوف، وبسبب من الخوف أيضاً قصدناكم هنا لتسوية الأمور وضمان أمننا مع أصدقائنا. وما جئنا لنستعبد أحداً وإنما لنمنع العبودية عن الناس كلهم.

"ولا يتخيلن أحد أن اهتمامنا بكم خال من الغرض. حسبكم أن تتأملوا أنكم طالما كنتم أقوياء وآمنين بما يجعلكم تصمدون أمام سيراكوزة فسوف يصعب على السيراكوز أن يلحقوا الضرر بنا بإرسالهم قوة منهم إلى البيلوبونيز، وأنتم بذلك تجنبوننا الأذى. وإذن فما يصدر عنكم له أشد الوقع عندنا. وبناء على هذا المبدأ فمن المعقول تماماً أن نعمل على تمكين أهل ليونتيني من استعادة استقلالهم وامتلاك أسباب القوة ليكونوا عوناً لنا في إشاعة الضيق في سيراكوزة؛ لأنهم مزروعون على حدودها وهم يقيمون في أرضهم، وهذا أبعد ما يكون عن جعلهم رعايا لنا مثلما فعلنا بأهلهم في يوبوية. إننا في هيلاس نمتلك القوة التي تجعلنا قادرين على التعامل مع أعدائنا. وحري بموفد سيراكوزة أن يتذكر- حين يقول : إنه مما يجافي المنطق أن نستعبد الخاليكيد في هيلاس ونحررهم في صقيلية - أن صالحنا يقضي بأن يكونوا عُزَّلاً من السلاح في هيلاس، وليس من شأنهم إلا المساهمة بالمال وحسب، ولكننا نود أن نرى شعب ليونتيني وكافة أصدقائنا الآن في صقيلية ينعمون بأقصى حد ممكن من الاستقلال. فحينما يمارس رجل أو مدينة سلطة مطلقة فالنهج المنطقي عندئذ هو نهج المصلحة. إن رابطة الدم لا تكون إلا حينما يمكن للمرء أن يعتمد عليها. وعلى المرء أن يختار أصدقاءه وأعداءه وفقاً لمقتضى الظروف والمناسبة. ومصلحتنا هنا في صقيلية ألا نضعف أصدقاءنا، بل أن نستخدم القوة التي لديهم لنجرد أعداءنا من قوتهم. ذلك أمر يجب ألا ترتابوا به. في هيلاس نهجنا في زعامتنا على أن نفيد من حلفائنا أقصى ما يمكن من الإفادة. فالخيان والميثمنيان يقدمون السفن، وهم مستقلون. والغالبية من سواهم يخضعون لشروط أقصى ويثابرون على دفع المساهمات المالية بانتظام، في حين أن بعض الحلفاء، وهم من سكان الجزر الذين يسهل علينا أخذهم، يتمتعون بالحرية التامة؛ لأنهم يقيمون في مواقع مناسبة حول البيلوبونيز. وإذن، فلنا أن نفترض بأن علينا أن نستلهم في سياستنا حيال صقيلية مصالحنا الخاصة وخشيتنا - كما سلف القول - من سيراكوزة. إن الهدف الذي

يسعى إليه السيراكوز هو فرض حكمهم عليكم ونهجهم في السياسة إقامة وحدة على أساس من ريبتكم بنا، ثم يكون لهم أن يستولوا على إمبراطورية صقيلية لأنفسهم، إما بالقوة، وإما لأنهم لم يجدوا من ينازعهم السلطان، حين تنسحب دون أن تحقق شيئاً: وذلك أمر لا بد من أن يقع، إن اتحدتم وإياهم؛ لأنه لا قبل لنا بمواجهة قوة بهذه الضخامة من جمعكم، فإذا انسحبنا من المشهد قويت شوكتهم وتحركوا ضدكم.

"ومن لا يوافق على هذا فلا بد أن يرى الوقائع تجري ضده. وحينما طلبتم معونتنا في المقام الأول، كان الخوف ماثلاً أمامنا من أن نغدو نحن في خطر، إذا تركناكم تسقطون أمام سيراكوزة. وإذن فليس من الإنصاف أن يتملككم الشك بالحجة ذاتها التي عرضتموها لإقناعنا بمد يد العون إليكم، أو أن تأخذكم الريبة بنا حين قدمنا بحملة على سيراكوزة بقوة أضخم مما كنتم تقدرون. إنهم السيراكوز الذين ينبغي ألا تثقوا بهم. أما نحن فلا نستطيع البقاء هنا دون دعمكم، وحتى إن بلغت بنا الخسة أن ننزع منكم استقلالكم فإننا لن نستطيع أن نبقيكم تحت سيطرتنا بسبب من طول الرحلة وصعوبة حراسة مدن كبيرة مسلحة تقع على خطوط قوى قارية. ومن جهة أخرى فإن السيراكوز هم جيرانكم الأقربون، ولا يقيمون في معسكر وإنما في مدينة أضخم من القوة التي جئنا بها، كما لا ينقطعون عن حبك المؤامرات ضدكم وينتهزون أي فرصة لتنفيذ مخططاتهم، كما ظهر منهم في موضوع ليونتيني من جملة ما ظهر. وها هم يجرؤون فيطلبون منكم العون على هؤلاء الذين كانوا يحبطون مخططاتهم وحفظوا لصقيلية حتى الآن استقلالها. لا ريب أن هؤلاء القوم يستخفون بذكائكم!. إننا حين نحثكم على ألا تخونوا الطمأنينة التي نوفرها بعضنا لبعض وأثر ذلك في سيراكوزة؛ لأن الطريق مفتوح أمامهم للهجوم عليكم بفضل أعدادهم الغفيرة، حتى بدون دعم من حلفاء، بينما لا يتوفر لكم الكثير من الفرص للدفاع عن أنفسكم بمثل هذه القوات التي نقدمها إليكم، فإنما نقدم لكم أمناً ملموساً أكثر مما هو متاح لكم الآن. أما إذا كان علينا أن نعود

من حيث أتينا دونما إنجاز، أو حتى هزيمة، بسبب شكوكم فلسوف يأتي زمن تودون فيه أن تجدوا بجانبكم ولو جزءاً من هذه القوات، ولكن بعد فوات الأوان وحيث لا يفيد التمني.

"إننا نأمل ألا تأخذكم أيها الكامرينيون أو سواكم دعاوى البهتان التي ينطق بها السيراكوز. فلقد عرضنا عليكم الحقيقة كلها في ردنا على ما يريبكم من أمرنا، ولسوف نقدم لكم الآن خلاصة القضية على سبيل التذكرة. ولنحملكم، على ما نأمل، على الاقتناع بموقفنا، فنقول: إننا في هيلاس نَحكم لئلا نُحكم. أما في صقيلية فقد جئناها كمحررين لنجنب أنفسنا ضير الصقيليين. ونحن مكرهون على التدخل في اتجاهات عدة اتقاء للشر من عدة اتجاهات. لقد جئنا هنا كحلفاء لهؤلاء من بينكم الذين يعانون العسف. ولقد طلبت منا المساعدة، ولم نأت متطفلين غير مدعوين. ولستم بالذين يمكن لهم أن ينصبوا أنفسهم حكاماً يحكمون على سلوكنا، أو أن يتصرفوا كمديري المدارس ليحملوننا على تغيير نهجنا. فليس هذا بالأمر اليسير الآن. بل الأجدر بكم أن تحيطوا بفضائل تدخلنا وتفيدوا من طبيعتنا العامة التي تلائم مصالحكم، كما هو حري بكم أن تروا أن خصالنا هذه هي أبعد ما تكون عن العماء في إنزال الضرر بكل من نصادفه سواء بسواء؛ بل هي عند الغالبية من الهيلينيين نعمة مؤكدة. وخصالنا هذه أثرها يطال كل الرجال في كل مكان، حتى في بقاع لا موقع لنا فيها؛ لأن إمكانية تدخلنا أمر يجب أن يحسب حسابه أولئك الذين يخشون العدوان، وأولئك الذين يخططون فعلاً لخطوة عدوانية يعتزمون القيام بها؛ أو الذين قد يتطلعون إلى معونتنا أما الآخرون فلا بد لهم من أن يدخلوا في اعتبارهم أننا إذا تدخلنا فلسوف تغدو المسألة مغامرة خطيرة؛ فنحن حاضرون في كلتا الحالتين: فيضطر من يفكر في العدوان للتعقل في سلوكه، ولو رغماً عن إرادته، وكذلك من كان مقدراً لهم أن يصبحوا ضحايا له يدرؤون الأذى عن أنفسهم بأهون سبب. فلا تعرضوا عن الأمن الذي يمكن أن يناله كل

من يطلبه، وهو متاح لكم الآن. كونوا مثل الآخرين، انضموا إلينا بدلاً من أن تظلوا أبداً على حذركم من السيراكوز، ولتقلّبوا الوضع أخيراً وتهدّدوهم كما هدّدوكم من قبل.*

ذلكم كان الخطاب الذي ألقاه أفيموس. أما حقيقة مشاعر أهالي كامرينا فكانت كما يلي: لقد استحسن القوم رأي الأثينيين، إلا ما راود خاطرهم من احتمال استعبادهم لصقيلية، كما أنهم كانوا مناهضين لجيرانهم السيراكوز على الدوام، غير أنهم يخشون سيراكوزة لأمر وحيد هو قربها منهم بقدر ما كان يخشون أثينا. وكان الخوف من أن يفوز السيراكوز بالنصر حتى دون مؤازرة منهم قد حملهم على الزج بقوة صغيرة من الخيالة قبل حين إلى جانب هؤلاء السيراكوز. وهكذا ارتأى الكامرينيون أن من حسن التصرف أن يبعثوا تحسباً للمستقبل بأقل قدر ممكن من الدعم الملموس إلى سيراكوزة، ولكنهم حرصوا في الوقت الحاضر على ألا يتركوا انطباعاً بالاستخفاف بالأثينيين - خاصة وأنهم كانوا المنتصرين في المعركة-، فقرروا أن يقدموا لكل طرف جواباً مماثلاً لما تلقاه الآخر. وهكذا كان ردهم بعد أن جرى النقاش على نحو ما سلف بأنه لما كان الطرفان في حالة من الحرب، وكلاهما حليف لهم، فإن السبيل الوحيد لاحترام ما أقسموا عليه هو الامتناع عن إسداء العون لأي منهما. وبعد ذلك قفل كل من السفيرين عائداً إلى بلده، هذا إلى أثينا وذاك إلى سيراكوزة.

الفصل الثامن: نصيحة ألسيبياديس لإسبارطة، نهاية السنة السابعة عشرة

وبينما كان السيراكوز يتابعون استعداداتهم للحرب، أخذ الأثينيون الذين نزلوا في ناكسوس يحاولون كسب ماوسعهم من الصيقيل إلى صفهم. وقد أعرض أولئك الأقربون إلى السهول الساحلية – وكانوا رعايا لسيراكوزة، على العموم – عن التعاون معهم. أما صيقيل الداخل الذين كانت مستوطناتهم دائماً في وضع مستقل فقد انضموا إلى الأثينيين، إلا قلة منهم. ونقلوا الغلال إلى الساحل لمصلحة الجيش، كما تبرع بعضهم بالمال لهذا الغرض. أما من رفض الانضمام فقد زحف إليهم الأثينيون وحملوا بعضهم على الانضمام إلى صفهم قسراً، وفي أحوال أخرى حالت الحاميات السيراكوزية دون ذلك، أو جاءت التعزيزات فأحبطت مسعى الأثينيين.

كانت معسكرات الأثينيين الشتوية قد نقلت من ناكسوس إلى كاتانة، والتي كان السيراكوز قد أشعلوا فيها النيران، فأعادوا بناءها وأمضوا بقية الشتاء هناك. وأرسلت سفينة ثلاثية المجاذيف في مهمة ودية إلى قرطاجة لمعرفة إن كان لهم أن يأملوا منهم بمساعدة، كما أرسلوا سفارات إلى إتروريا التي عرضت بعض بلداتها الانضمام إليهم في الحرب، كذلك بعثوا بالرسل إلى الصيقيل وإيجيستا محملين بالتوجيهات لطلب ما أمكن من الخيل، وهم لا ينقطعون عن صنع الآجر وتكديس الحديد وكل مايلزم لأعمال الحصار، تحضيراً لبدء الحملة في الربيع.

وفي غضون ذلك قام السفراء الذين أوفدتهم سيراكوزة إلى كورنثة وإسبارطة، وهم في طريقهم على طول الساحل، بزيارة المدن الإغريقية في إيطاليا وحاولوا إقناعها بممانعة الأثينيين وتصرفاتهم التي كانت– على حد قولهم– معادية لإيطاليا كما هي لصقلية. ولقد كانت لهم مداولات مع الكورنث، وسألوهم العون متوسلين بما تربطهم بكورنثة

من أواصر القربى فصوت مجلس الكورنث لمصلحة تقديم كل العون المتوفر حالاً ودونما تحفظ، وأوفدوا مع هؤلاء سفراءهم لاصطحابهم إلى إسبارطة ومشاركتهم الجهد لإقناع الإسبارطيين بالقيام بدورهم لإعلان الحرب على أثينا في هيلاس وتوجيه قوة إلى صقيلية للمساهمة في هذا الجهد.

وكان ألسيبياديس ورفاقه المنفيون قد نزلوا يومذاك في إسبارطة، وترافق وجودهم مع وصول الرسل من كورنثة وكان – ألسيبياديس – قد وصل إسبارطة من ثوري مباشرة على ظهر سفينة تجارية متوجهاً أولاً إلى سيلينة في إيليس ثم انتقل إلى إسبارطة بدعوة من الإسبارطيين ذاتهم، مع ضمان سلامته؛ لأنه كان يخشى انتقامهم منه لصلته بأحداث مانتينيا. وهكذا اتفق أن اجتمع السيراكوز والكورنث وألسيبياديس ليتقدموا، كل من طرفه، إلى مجلس الإسبارطيين بطلبات متماثلة، وكل يدلي في دعم موقفه بحجج مشابهة لحجج الآخرين. ولقد أبدى مجلس الإيفور والقائمون على شؤون البلاد الآخرين استعداداً لإرسال السفراء إلى سيراكوزة ليحولوا دون السيراكوز والصلح مع أثينا، إلا أنهم لم يبدوا استعداداً كبيراً لتقديم المعونة العسكرية. فنهض ألسيبياديس وذهب يؤجج الرأي العام الإسبارطي ويحثهم على العمل:

"لا بد لي بادىء الأمر من أن أتناول ما تحملون لي في دخيلتكم من الضغينة، لعلكم تصغون إلى قضايا تمس المصلحة المشتركة دون أن يفسد عليكم ذلك هوى مبعثه الريبة بي شخصياً. لقد تعاقب أجدادي على العمل ممثلين رسميين لإسبارطة في أثينا، ثم تخلوا عن هذا المنصب لسوء تفاهم وقع لهم، ثم أتيت وعدت إليه من جديد، ووضعت خدماتي تحت إشارتكم وخاصة بعد الخسائر التي منيتم بها في بيلوس. ولقد كنت في ذلك كله شديد الحرص على مساعدتكم. غير أنكم حين عقدتم الصلح وأثينا استعنتم بألد أعدائي في مفاوضاتكم، فزدتم بذلك من قوة شوكتهم ووضعتموني في موضع الضعف. فلا حق لكم إذن في لومي لما نلتم من الضرر حين توجهت إلى مانتينيا

وآرجوس وناهضتكم بالطرق المختلفة الأخرى. وإذا كان منكم من حقد عليَّ في تلك الأيام التي كنتم تعانون فيها معاناة شديدة، فقد آن لكم أن تنظروا إلى الأمر في ضوء الحق وأن تعدلوا من نظرتكم. أما إذا كان هناك من ساء رأيه بي لوقوفي إلى جانب الشعب فعليه أن يدرك أن هذا الموقف ليس بالسبب القوي لمناهضتي. فلطالما عارضت أسرتي الطغاة. فالديمقراطية اسم يطلق على أية قوة تعارض الحكم المطلق. وهكذا دأبنا على التصرف قادة لعامة الناس. ولقد كان حتماً علينا فضلاً عن ذلك، أن نتكيف في مجالات عدة مع الظروف السائدة طالما أن أثينا كانت قد أخذت الديمقراطية نهجاً في الحكم. ومع ذلك فقد حاولنا في مواجهة النهج السياسي السائد أن ننحو نحو الاعتدال في موقفنا. ولقد كان هناك في الماضي- كما أن هناك اليوم - أناس يسعون إلى السير بالجماهير في دروب الشر. إنهم فئة من هؤلاء الذين دفعوا بي إلى المنفى. بيد أننا كنا من قادة الدولة ككل. ومبادئنا تقضي بتآزرنا في الحفاظ على نظام الحكم الذي سلمه السلف إلينا وبه بلغت المدينة أعلى درجات العظمة ونالت أقصى الحرية. أما الديمقراطية فيعلم أمرها كل ذي عقل، ولست أقل منهم إدراكاً. والحق أني مهيأ أحسن التهيئة للهجوم عليها، ولكن ليس هناك من جديد يمكن أن يقال في نظام استقر الرأي على أنه نظام سخيف. أما تغيير النظام، فقد بدا لنا أنه ينطوي على مجازفة وأنتم منهمكون في الحرب معنا.

"حسبنا هذا العرض لأسباب التعصب ضدي. وأريد منكم الآن سماع ما لدي قوله في موضوع أنتم تتداولون فيه، موضوع لعلي أدرى الناس بالخوض فيه. فلقد أبحرت إلى صقيلية لأغزو الصقيليين أولاً - إن أمكنني الأمر- وبعدهم الهيلينيين في إيطاليا. وكنت أعتزم الهجوم على الإمبراطورية القرطاجنية، وقرطاجة ذاتها. فإذا حالف التوفيق هذه المشاريع أو بعضها كان عزمنا أن نهاجم أرض البيلوبونيز ومعنا ما توفر لنا من القوات الهيلينية الأخرى، في الغرب مع الكثير من المرتزقة المأجورين من القوات المحلية -

الإيبريون وسواهم من الذين يعتبرون الآن أفضل ما هو متوفر من المحاربين في تلك الأصقاع – وكنا نُعد لرفد أسطولنا بعدد وافر من السفن الثلاثية المجاذيف ونفيد في ذلك من إيطاليا الغنية بالأخشاب، ثم نتوجه بكل مالدينا لحصار البيلوبونيز، بينما الجيش يؤدي عمله في الهجوم وحصار مدنكم براً. وكنا نأمل أن تنتهي الحرب بيسر إلى خاتمة موفقة، ونغدو بعدها سادة العالم الهيليني. أما المال والمؤن فلم نكن نخشى أن تشح بفضل ما كان سيتوفر لنا في فتوحاتنا الجديدة في الغرب دون أن نمس شيئاً من عائداتنا في بلاد هيلاس.

"ولقد أصبحتم تحيطون بما سمعتم الآن من أدرى الناس بأهداف الحملة الراهنة. ولسوف يتابع من بقي من القادة – إن استطاعوا – تنفيذ هذه المخططات. واعلموا أن صقيلية آيلة للسقوط، ما لم تسرعوا لنجدتها. فالصقيليون يفتقرون للخبرة التي تتمتع بها أثينا، ولكنهم قد يوفقون فينجون من هذا، حتى الآن، إن اتحدوا جميعاً. ولن يكون بوسع السيراكوز الذين هزمت قواتهم جميعاً – وهم محاصرون في الوقت ذاته من ناحية البحر – الصمود أمام القوات الأثينية في صقيلية الآن. وإذا ما قدر لسيراكوزة أن تسقط فسوف تسقط معها صقيلية كلها ثم تتبعها إيطاليا سريعاً. ولن يمضي وقت حتى تواجهوا الأخطار التي حدثتكم عنها وتتهددكم من الغرب. وإذن، فلا تتخيلوا أن النقاش ينحصر في موضوع صقيلية وحسب، بل إن الأمر ليمتد إلى البيلوبونيز، إلا إذا أسرعتم بالإجراءات التالية: أن ترسلوا إلى صقيلية قوة من الجنود القادرين على تجذيف السفن بأنفسهم في البحر والعمل كمشاة ثقيلة حال نزولهم على اليابسة. ثم عليكم أن ترسلوا قائداً محترفاً من جيش إسبارطة – وهذا عندي أشد نفعاً من توجيه جيش – لتنظيم القوات الموجودة هناك وقسر المتخاذلين عن أداء الواجب على الخدمة قسراً. ذلك هو طريقكم لتبعثوا الهمم في قلوب أصدقائكم وتجعلوا الخائفين المترددين أقل تهيباً من المشاركة. كذلك ينبغي أن تجري الحرب في هيلاس بصراحة ووضع أشد؛ إذ سيكون

لذلك الأثر الواضح في تصليب مقاومة السيراكوز، حين يجدونكم تبدون اهتماماً بهم، كما أن من شأن هذا أن يصعِّب على الأثينيين دعم جيشهم في صقيلية. وعليكم بعدُ تحصين ديسليا في أتيكا. وهذا ما كان الأثينيون يخشون حدوثه دوماً؛ ذلك أن هذه هي المحنة الوحيدة من محن الحرب التي لم يخبروها. إن الطريقة الأنجع في إيذاء الخصم هي معرفة ما يخشاه على وجه اليقين ثم استخدامه ضده. ولأنه أدرى الناس بمكامن الخطر، تجدونه على حال من الذعر من أن تنزل به الداهية التي يخشاها. أما مغانمكم من ذلك وأي خسائر سوف تكبدونها أثينا - إن قمتم بتحصين ديسيليا - فسوف أقتصر على تعداد أهم النقاط مهملاً العديد سواها. إن معظم تلك الرقعة سوف يقع بين أيديكم، فتستولون على بعضها دون أن تتكلفوا تحريك إصبع واحد. ثم إذا سقطت هذه المنطقة حُرمت أثينا من ريع مناجم الفضة في لوريوم فوراً، ومما تجنيه حالياً من الأرض ويعود إليها من المحاكم. والأهم من ذلك أن أثينا سوف تخسر ما يبلغها من الإتاوات من حلفائها كافة، إذ أنه سيكون بإمكانهم تسديد ما يترتب عليهم على نحو أقل انتظاماً كما سيخلعون عنهم نير أثينا حالما يجدونكم جادين في حربكم. أما السرعة والهمة في نيل هذا فأمر يعتمد عليكم يا معشر الإسبارطيين. وإني لعلى ثقة من أنكم بالغون ذلك، ولست أعتقد بأنني أخطىء التقدير.

"وأقول بعدُ: ليس لأحد منكم أن يسيء الاعتقاد بي إن انضممت إليكم الآن - رغم ما لي من صيت قديم في حب بلدي - ونشطت في صف ألدِّ أعدائها في مهاجمتها، لا، وليس لكم أن ترتابوا برأيي فيذهب بكم الخاطر إلى أن ماسمعتم إنما هو رأي يصدر عن مشاعر كراهية طغت على رجل منفي من بلاده. وأنا منفي بسبب سفالة من أبعدوني عن بلدي، وليس لرغبتي- إن أخذتم بقولي- في مساعدتكم. إن ألدَّ أعداء أثينا ليسوا أولئك الذين أصابها سوء منهم - شأنكم أنتم - في الحرب وحسب، وإنما من ألَّب عليها الأصدقاء. فأثينا التي أحببت هي غير هذه التي تعسف بي الآن، وإنما أثينا التي ألفت

فيها التمتع بحقوقي كمواطن من مواطنيها. والبلد الذي أتعرض له الآن لم يعد في نظري بلدي الذي نشأت فيه، بل إني بالأحرى أحاول أن أستعيد موطناً فقدته. والرجل الذي يحب وطنه حقاً ليس هو من يرفض مهاجمته حينما يكون قد طرد منه دون وجه حق، بل إن كان شوقه إليه قوياً فلا يردعه رادع وسيبذل ما وسعه ليعود إليه. ولذلك أرى، أيها الإسبارطيون، ألا تترددوا في الإفادة من خدماتي في كل أمر خطير أو شاق. وحري بكم أن تتذكروا الرأي الذي يدور بين الجميع، وتدركوا أني كما كنت قد أصبتكم بضرر كبير في الماضي يوم كنت عدواً لكم أملك كذلك أن أسدي لكم خدمات جلّى من موقع الصديق: فأنا على معرفة واسعة بأثينا، بينما كان علي أن أعتمد على التقدير والتخمين في أمور إسبارطة. إن نصيحتي لكم أن تدركوا أن مصالحكم الأساسية هي موضوع نقاش الآن، فحذار أن تخشوا شن الحملات في صقيلية وأتيكا؛ ذلك أن القدر القليل مما لديكم من القوات في صقيلية كفيل بأن يأتي لكم بأعظم النتائج، ولسوف تطيحون بقوة أثينا الراهنة كما أنكم ستقضون على آمالها في المستقبل. ولسوف يكون لكم أن تنعموا بعدئذ بالطمأنينة والأمن، كما سوف يعقد لكم لواء القيادة في كل هيلاس،. ولسوف تتبعكم طواعية، ليس بسبب من القوة التي توفرت لكم، وإنما بدافع من طيب الإرادة."

كان هذا خطاب ألسيبياديس. وكان الإسبارطيون قد عزموا حتى قبل هذا الخطاب على الزحف على أثينا، وإن كانوا مازالوا على ترددهم يدرسون أوجه المجازفة في الأمر. أما بعد سماع القضايا التي أثارها ألسيبياديس الذي يفوق أي شخص– في تقديرهم– معرفة بالحقائق، فإنهم ازدادوا تصميماً على تنفيذ ماعزموا عليه. وكان من ذلك أن رسخ لديهم القرار بتحصين ديسيليا وإرسال القوات لمؤازرة صقيلية. وقاموا بتعيين جيليبوس بن كلياندريداس قائداً للسيراكوز. ووجهوه بأن يتشاور مع هؤلاء الكورنث في البحث عن أفضل وأسرع الطرق لجلب التعزيزات إلى صقيلية في الظروف السائدة يومذاك.

فطلب كليانذريداس من الكورنث أن يرسلوا إليه في أسينة سفينتين فوراً وتجهيز السفن الأخرى التي كانوا قد عزموا على توجيهها إليه لتنزل البحر حين يأتي الأوان. ثم كان الاتفاق على هذه النقاط بين مختلف المندوبين الذين غادروا إسبارطة بعد إقرارها.

وبينما كانت الأمور تجري على هذا النحو رست في أثينا السفينة التي أرسلها قائدا الحملة في صقيلية في طلب المال والخيالة. وقد حظي الطلب بموافقة الأثينيين فصوتوا بصرف المال للحملة وإرسال الخيالة. وهكذا انتهى فصل الشتاء والسنة السابعة عشر من هذه الحرب التي دون تاريخها ثوسيديديس.

الفصل التاسع : انتصارات الأثينيين في سيراكوزة، وفاة لماخوس

في العام التالي، ومع بداية الربيع أقلع الأثينيون في صقيلية مبحرين من كاتانة وساروا بمحاذاة الساحل إلى ميجارا في صقيلية، وكان الميجار - كما سلف لي القول - قد طردوا على يد السيراكوز أيام حكم الطاغية جيلون ومازالت أرضهم في يد هؤلاء. وهناك نزلوا وعسفوا وأشاعوا الخراب. وبعد هجوم على حصن لسيراكوزة لم يحالفهم التوفيق فيه، مضوا بمحاذاة الساحل بالجيش والسفن معاً إلى نهر ميرياس. وهنا توغلوا في السهل وعملوا فيه تخريباً وأحرقوا غلاله، ثم صادفوا ثلة من السيراكوز فقتلوا بعضهم، وقفلوا عائدين إلى سفنهم، بعد أن أقاموا هناك نصباً تخليداً لانتصارهم في هذه الحملة. ثم أسلموا أشرعتهم للريح وعادوا إلى كاتانة للتزود بالمؤن واللوازم واتجهوا بعدئذ بكل قواتهم للهجوم على سنتوريبا، وهي بلدة للصيقيل، فلما استسلمت لهم رجعوا وفي طريق عودتهم أحرقوا محاصيل أهل إنيسا وهيبلا. وما إن وصلوا إلى كاتانة حتى وجدوا مئتين وخمسين خيالاً بكامل عتادهم قدموا من أثينا، إنما بدون الخيل التي قالوا : إنه ينبغي شراؤها من صقيلية، وكان مع هؤلاء ثلاثون من حملة الأقواس وثلاثمئة تالنت من الفضة.

وفي فصل الربيع ذاته سار الإسبارطيون على آرجوس حتى بلغوا كلوناي. وهناك وقع زلزال فعادوا من حيث أتوا. وبعد ذلك غزا الأرجوس منطقة ثيريا على الحدود فعملوا نهباً في أملاك الإسبارطيين وباعوها بما لا يقل عن خمسة وعشرين تالنتاً.

وبعد فترة من الصيف ذاته حاول أهالي ثيسبياي الإطاحة بحكومتهم دون أن يوفقوا إلى ذلك. ثم وصلت النجدة من طيبة، فوقع بعضهم في قبضة الثائرين، بينما استطاع بعضهم الهرب واللجوء إلى أثينا.

وفي ذلك الصيف، بلغ السيراكوز الخبر أنه أصبح للأثينيين قوة من الخيالة فراحوا يتدارسون في مهاجمتهم. وقد ذهب بهم الرأي إلى أن الأثينيين لن يتمكنوا من تشييد سور لعزل إيبيبولاي، إلا إذا تمت لهم السيطرة عليها - وهي أرض شديدة الانحدار تقع فوق المدينة مباشرة - وحالفهم التوفيق في المعركة. فقرروا عندئذ حراسة أطراف المنطقة ليحولوا دون تسلل العدو من هذا الدرب الذي يعتبر الدرب الوحيد السالك، نظراً لوعورة بقية المنطقة، وهي عبارة عن مرتفعات ومنحدرات، ومطلة على المدينة ومنها يمكن رصد مايجري في داخلها، وقد سماها السيراكوز إيبيبولاي - المرتفعات-؛ لأنها تشرف على بقية المنطقة. وخرج السيراكوز فجراً بكامل قوتهم إلى الحقول بجانب نهر أنابوس واستعرضوا مشاتهم الثقيلة هناك. وكان قادة الجيش الجدد، أي هيرموكراتيس والآخرون، قد تولوا القيادة لتوهم. وكان أول ما فعلوه هو اختيار ستمئة رجل من المشاة الثقيلة جعلوا على رأسهم ديوميلوس، وهو منفي من أندروس، وأوكلوا إليهم حراسة إيبيبولاي والاستعداد للقتال متى تطلب الأمر ذلك.

وفي تلك الأثناء كان الأثينيون منهمكين- في ذلك الصباح عينه بتنظيم قواتهم. وقد غادروا كاتانة ونزلوا إلى اليابسة بكامل القوة التي ترافقهم قبالة الموقع المسمى ليون، وهو يبعد أكثر من نصف ميل عن إيبيبولاي وكان الجيش قد نزل إلى اليابسة و رسا الأسطول في ثابسوس، وهي شبه جزيرة لها برزخ ممتد في البحر وغير بعيدة عن سيراكوزة من البر أو من البحر. وكانت البحرية الأثينية قد شيدت سوراً عبر البرزخ، وهناك اتخذوا موقعاً عند ثابسوس وخلدوا إلى السكون. أما الجيش فقد أسرع في طريقه مباشرة إلى إيبيبولاي وصعد عبر أوريدوس دون أن يلحظ السيراكوز ما كان يجري أو يمكنهم نقل الجنود من المروج حيث كان يتم استعراضهم. فأسرع ديوميلوس وكتيبته الستمئة وبقية القوات وصعدوا المنحدر لنجدة رفاقهم، إلا أنه كان أمامهم نحو ثلاثة أميال ونصف الميل من طريق المروج قبل أن يتم الاتصال بالعدو. وهكذا كان هجوم

السيراكوز على شيء من سوء التنظيم فنالتهم الهزيمة على أبواب إيبيبولاي واضطروا للانسحاب إلى داخل المدينة. وكان محصلة قتلاهم في هذه المعركة ثلاثمئة، ومنهم ديوميلوس. وقد أقام الأثينيون بعدئذ نصباً يخلد هذه المعركة وسلموا السيراكوز قتلاهم بموجب هدنة. وفي اليوم التالي هبطوا على المدينة، فلم يخرج أحد لملاقاتهم، فقفلوا عائدين وأقاموا حصناً عند لبدالوم، على طرف منحدرات إيبيبولاي، وهم يتطلعون نحو ميجارا لتكون مستودعاً لعتادهم وأموالهم كلما خرجوا للقتال أو العمل في بناء السور الذي اعتزموا إقامته.

بعيد ذلك ورد إليهم ثلاثمئة خيال من إيجيستا ونحو مئة من الصيقيل والناكسيين وسواهم، إضافة إلى مئتين وخمسين من الأثينيين الذين زودوهم بالخيل، بعضها تم شراؤه وبعضها جاء هدية من ايجيستا وكاتانة. وقد بلغ مجموع هذه الوحدة على الإجمال ستمئة وخمسين.

تحرك الأثينيون، بعد أن أقاموا حامية في لبدالوم، نحو سيكا حيث نزلوا وأسرعوا بإنشاء الحصن المعروف بـ "المستديرة". ولقد أثارت السرعة التي جرت بها عمليات البناء انزعاج السيراكوز، فعزموا على الخروج إليهم وقتالهم لمنعهم من إقامة الحصن. فوقف الجيشان بعضهما قبالة بعض في الميدان، ولاحظ قادة السيراكوز أن قواتهم مضطربة وغير منتظمة ويصعب ضبطها في الصف. فعادوا برجالهم إلى داخل المدينة، إلا بعض سرايا الخيالة الذين ظلوا خارجها أفلحوا في منع الأثينيين من نقل الأحجار أو الابتعاد عن حماية الجسم الأكبر من جيشهم. ومع ذلك فقد اندفعت فرقة من المشاة الثقيلة الأثينية يدعمها فوج الخيالة إلى مهاجمة الخيالة السيراكوز وذهبت تطاردهم، فقتلت عدداً منهم، ثم أقامت نصباً تخليداً لأفعال خيالتها.

وفي اليوم التالي تابعت بعض القوات الأثينية عملها في بناء السور الشمالي لحصن

"المستديرة" بينما تولى قسم آخر جمع الأحجار والخشب، وكانوا ينزلون ذلك كله في محطات باتجاه تروجيلوس على أقصر خط لبناء سورهم الذي كان مقدراً له أن يمتد من الميناء الكبير حتى البحر على الطرف الآخر. أما السيراكوز فقد صرفوا النظر عن خوض المزيد من المعارك النظامية مع الأثينيين، كما أشار عليهم قادتهم وخاصة هيرموكراتيس، وقرروا بدلاً من ذلك تشييد سور مقابلٍ باتجاه الموقع الذي اختطه الأثينيون لبناء سورهم. وكان من شأن ذلك السور – إن تم بناؤه في الوقت المناسب – أن يقطع خطوط الأثينيين، أما إذا حاول الأثينيون الهجوم وأعمال البناء ماتزال جارية فيمكن للسيراكوز احتواء الهجوم بجزء يسير من قواتهم، آخذين بعين الاعتبار أنهم كانوا قد شيدوا حواجز يستطيعون التحصن وراءها، بينما سيضطر الأثينيون والحالة هذه للتوقف عن أعمالهم واستخدام كامل قواتهم للتعامل معهم. وهكذا خرج السيراكوز وأخذوا ببناء السور خارج مدينتهم، تحت "المستديرة" الأثينية، وكان على تقاطع زوايا قائمة مع السور الأثيني. وقد عمدوا يومئذ إلى قطع أشجار الزيتون من الأرض الملحقة بالمعبد ليفيدوا من أخشابها في صنع الأبراج. ولما لم يكن أسطول أثينا قد أنجز رحلته من ثابسوس إلى الميناء الكبير فقد ظل السيراكوز يسيطرون على الساحل، بينما كان الأثينيون يجلبون مؤنهم عبر البر من ثابسوس.

ولقد أتى وقت أعتقد فيه السيراكوز أنهم قطعوا شوطاً كبيراً في نصب الحواجز وبناء السور المعاكس للسور الذي أقامه الأثينيون وكادوا يفرغون من الأمر. أما الأثينيون فلم يأتوا بعمل يفسد عليهم مهمتهم، خشية توزع قواتهم فتتبدد قدراتهم وتضعف عند القتال، وأخذوا يستعجلون بناء السور لتطويق المدينة. فما كان من السيراكوز عندئذ إلا أن تركوا فرقة واحدة من قواتهم لحراسة السور الذي شيدوه وانكفؤوا إلى الداخل.

عمد الأثينيون بعد ذلك إلى تخريب الأنابيب التي تنقل الماء إلى داخل سيراكوزة، ثم انتظروا فترة حتى يهجع السيراكوز من غير الحرس للراحة في خيامهم عند الظهيرة، أو

يكونوا قد قصدوا المدينة كما يحدث أحياناً، أو يكون القائمون على حراسة الحواجز في لحظة غفلة. فوجهوا ثلاثمئة من صفوف مشاتهم الثقيلة وبعض المشاة الخفيفة الذين جرى اختيارهم بعناية وزودوهم بالدروع الثقيلة للخروج بغتة وبسرعة إلى السور المعاكس، كذلك قاموا بتنظيم قواتهم في فرقتين، وجعلوا على رأس كل منهما قائداً كبيراً، وكان على إحدى الفرقتين أن تقف قبالة المدينة لتمنع خروج التعزيزات منها، بينما تتوجه الفرقة الأخرى إلى حيث أقام السيراكوز الحواجز عند البوابة الخلفية. فهاجمت القوات الثلاثمئة الحواجز وانتزعتها من مكانها. فما كان من الحامية إلا أن تخلت عن تلك الحواجز ولاذت بالفرار إلى داخل السور الذي يحيط بمعبد أبولو التيمنتي، وفي أعقابهم جند الأثينيين يطاردونهم، فاقتحم هؤلاء المكان، إلا أنهم اضطروا للخروج ثانية لاشتداد وطأة السيراكوز عليهم، وقد قتل في تلك الواقعة عدد من الأرجوس وقلة من الأثينيين. ثم تراجع الجيش برمته وأزال أثناء انسحابه السور المعاكس والحواجز وحمل بعضها ليفيد منها في أشغاله، وأقام في النهاية نصباً تخليداً لهذه المناسبة.

وفي اليوم التالي شرع الأثينيون المرابطون عند المستديرة في بناء التحصينات على المنحدر المطل على السبخة على هذا الجانب من إيبيبولاي مقابل الميناء الكبير، والتي تقع على الطريق الأقصر إلى سورهم الذي خُطط له أن يمتد على الأرض الأكثر استواء ويخترق السبخة حتى الميناء.

وخرج السيراكوز عندئذ وأخذوا ببناء حواجز جديدة تمتد من مدينتهم وعبر منتصف السبخة، وإلى جانبها خندق، ليحولوا دون امتداد سور الأثينيين إلى البحر. ولكن ما إن فرغ الأثينيون من بناء تحصيناتهم على المنحدر حتى هاجموا حواجز السيراكوز ونزعوا الأوتاد وخربوا الخندق. وأُمر الأسطول بالإبحار من ثابسوس إلى ميناء سيراكوزة الكبير، وفي الفجر نزل الجيش من إيبيبولاي إلى السهل وشق طريقه عبر

السبخة وهو يفتح البوابات ويمد ألواح الخشب حيث الطمي كثيف والأرض متماسكة. وقد تمكنوا مع طلوع النهار من احتلال الخندق والمنطقة المزروعة بالأوتاد كلها، إلا جزءاً صغيراً استولوا عليه فيما بعد. ونشب القتال بين الطرفين عند هذه النقطة، وانتهى الأمر بانتصار الأثينيين وهرب الجناح الأيمن من قوات السيراكوز إلى داخل المدينة وفر الأيسر إلى النهر. فأسرع الأثينيون بتوجيه قوات الصفوة الثلاثمئة ناحية الجسر، يريدون بذلك قطع الطريق على السيراكوز الفارين. ولكن السيراكوز تجمعوا تحت تأثير الخوف، وكان معظم خيالتهم قد شاركوا في هذه المعركة، وانتقلوا للهجوم على الأثينيين وذهبوا يطاردونهم وأخذوا يضغطون من ثم على جناحهم الأيمن الذي اضطربت الكتيبة الأولى منه تحت وطأة الهجوم وسادت فيها الفوضى. فلما شاهد لماخوس هذا الوضع خرج ومعه الأرجوس وقلة من رماة الأسهم لتقديم المؤازرة للجناح الأيسر من الأثينيين. ولكنه وجد نفسه بعد أن تجاوز الخندق معزولاً مع قلة من المقاتلين، فقتل مع خمسة أو ستة من رجاله. فأسرع السيراكوز إلى حملهم وأودعوهم مكاناً آمناً وراء النهر قبل أن يأتي من ينتشلهم. ثم تراجع هؤلاء إلى مواقعهم، بينما كان جيش الأثينيين يتقدم في طريقه إلى الساحة التي دارت فيها المعركة.

وكان أولئك الذين هربوا إلى المدينة في البداية قد استعادوا ثقتهم بأنفسهم بعد أن رأوا تطورات الأحداث فخرجوا واتخذوا وضع القتال لمواجهة الأثينيين. كذلك زج السيراكوز بجزء من قواتهم للهجوم على المستديرة عند إيبيبولاي، اعتقاداً منهم أن الموقع قد خلا من المدافعين فيستولون عليه. وقد استولى هؤلاء السيراكوز على هذا الموقع وألف قدم من الأشغال الهندسية، لكن نيسياس انتزع منهم المستديرة فعادت إلى الأثينيين مرة أخرى، وقد صادف أن نيسياس كان قد تخلف عن المشاركة في المعركة لعارض صحي ألمَّ به. فأمر خدمه بإشعال النار في الأدوات والأخشاب المتراكمة أمام السور؛ إذ لم يكن بوسعه إنقاذ الموقع بأي شكل نظراً لافتقاره للعناصر. وكان الرجل

مصيباً في حسابه؛ إذ حالت النار دون تقدم السيراكوز أبعد مما بلغوا، ما حملهم على الاستدارة والعودة من حيث قدموا. وكان العون مايزال يتوالى من الأثينيين المتوضعين في أسفل المنحدر إلى المستديرة. وكان هؤلاء الأثينيون خلال ذلك يعملون على رد خصومهم، بينما أسطول الأثينيين يبحر حسب التوجيه من ثابسوس إلى الميناء الكبير. فلما رأى السيراكوز ذلك من موقعهم العالي، انكفؤوا بسرعة مع بقية جيشهم إلى داخل المدينة، اعتقاداً بأن القوات المتوفرة لا تقوى على منع الأثينيين من بناء سورهم حتى البحر.

ثم أقام الأثينيون نصباً يخلد هذه الموقعة، وأعادوا للسيراكوز قتلاهم بموجب هدنة معهم وتلقوا بالمقابل جثمان لماخوس وصحبه الذين قتلوا معه. وهنا اجتمعت لهم، قواتهم كافة البرية والبحرية وتمَّ لهم بناء سور مزدوج يبدأ من إيبيولاي وأعلى المنحدر حتى البحر، وكان أن عزلوا السيراكوز عن محيطهم. وأصبحت المؤن ترد الجيش من جميع أرجاء إيطاليا. وفي تلك الأثناء انضم كثير من الصيقيل الذين كانوا يقفون من قبل يتطلعون إلى مجريات الأمور ليقرروا موقفهم إلى الأثينيين الذين وصلتهم أيضاً ثلاث سفن ذات الخمسين مجذافاً من أترووريا . والحق أن الأمور كانت تسير حسب ماكانوا يأملون. أما السيراكوز وقد تبدد كل أمل لهم بقدوم العون من البيلوبونيز فإنهم لم يعودوا يتوقعون كسب الحرب بأي حال فأخذوا يتدارسون فيما بينهم شروط الاستسلام مع نيسياس الذي غدا بعد رحيل لماخوس القائد الأوحد لجيش الأثينيين. غير أن الأمور ظلت معلقة على حالها وإن كان يرجح أن يتم الاستسلام على نحو ما ذهب إليه السيراكوز، فاستمر النقاش دائراً في أوساط المدينة، دون حسم، إلا أن السيراكوز حاولوا الاتصال بنيسياس عدة مرات للتوصل إلى اتفاق، كما يمكن للمرء أن يتوقع وهم يواجهون المصاعب وإطباق الحصار عليهم أكثر من أي وقت مضى. كذلك كان من شأن المحن التي نزلت بهم أن تثير بينهم الشكوك، وعمدوا إلى عزل قادتهم، اعتقاداً منهم أن

مصدر انقلاب الظروف عليهم مرده إما سوء الطالع أو خيانة القادة، فاستبدلوهم بقادة آخرين - هيراكليديس وأوكيليس وطلياس.

وكان جيليبوس الإسبارطي قد بلغ والسفن القادمة من كورنثة في تلك الأثناء ليوكاس وجميعهم مشتاقون للوصول وتقديم العون لصقيلية بأسرع ما يمكن. لكن الأخبار التي بلغتهم أثارت فيهم القلق، وجميعها تؤكد الشائعة الكاذبة، وهي أن سيراكوزة باتت معزولة تماماً بأسوار الحصار. ولذلك تخلى جيليبوس عن كل أمل بإنقاذ صقيلية، ولكنه رغبة منه بإنقاذ إيطاليا أسرع مع البحارة الكورنث وسفينتان إسبارطيتان وأخريان كورنثيتان، بعبور خليج أيونيا إلى تارنتوم. وقد تولى الكورنث بالإضافة إلى سفنهم العشر تجهيز سفينتين من لوكاديا ومثلهما من أمبراسيا فضلاً عن السفينتين اللتين خرجوا بهما. وقد لحقت به تلك السفن جميعها. ثم أرسل جيليبوس سفارة من تارنتوم إلى ثيوري وجدد حقوق المواطن لديها، وكان والده يتمتع بها هناك. غير أنه لم يفلح في نيل الدعم من ثوري، فعاد إلى البحر من جديد. وكان خطه يجري بمحاذاة الساحل الإيطالي، فصادفته يومئذ مقابل خليج تيرينية ريح شمالية هوجاء عاتية مألوفة في تلك الأصقاع، وقد بلغت من الشدة حداً دفع بأسطوله إلى عرض البحر. وبعد رحلة عاصفة عاد بسفنه إلى تارنتوم من جديد وبلغ الشاطىء بعد عناء شديد فأصلح السفن التي نالت منها الرياح أشد منال. ولقد بلغ نيسياس نبأ قدوم جيليبوس، ولكنه استخف به لقلة عدد السفن التي كانت تتبعه. وكان في ذلك أشبه بالثوريين واستخفافهم بضآلة أسطوله، فأهمل الاحتراز منه يومئذ.

وفي تلك الأيام من هذا الصيف غزا الإسبارطيون وحلفاؤهم آرجوس، وعملوا نهباً وتخريباً في معظم البلد. فجاء الأثينيون بثلاثين سفينة لنجدتها. وكان ذلك أجلى انتهاك لمعاهدتهم وإسبارطة. فقد كانوا يقتصرون في الماضي على دعم الأرجوس والمانتينيين ومؤزارتهم بإغارات من بيلوس ونقاط أخرى من بلاد البيلوبونيز عوضاً عن

النزول معهم في لاكونية، ومع أن الأرجوس دأبوا على طلب إمدادهم بالجنود والنزول معهم بأرض لاكونية وحسب، ثم العودة بعد إلحاق بعض الضرر بالبلاد، فإنهم كانوا يقابلون الطلب بالرفض. أما الآن فإنهم تحت إمرة بثودوروس وليسبودياس وديماراتوس قد نزلوا في إبيداروس وليميرا وبراسييه ومناطق أخرى وأخذوا يعملون فيها تخريباً وتدميراً، موفرين لإسبارطة بذلك سبباً وجيهاً للقول: إنها تتصرف دفاعاً عن النفس أمام أثينا.

وبعد ذلك - حين غادر الأسطول الأثيني آرجوس وعاد الإسبارطيون إلى وطنهم - قام الأرجوس بغزو فلياسيا بعد تلك الأحداث، ومع عودة أسطول أثينا إلى موطنه، فأنزلوا الخراب في بعض أرضها، فلياسيا، وقتلوا عدداً من أهلها، ثم قفلوا عائدين أدراجهم إلى بلدهم.

الكتاب السابع

الفصل الأول: السنة الثامنة عشرة للحرب، وصول جيليبوس إلى سيراكوزة، انتصارات السيراكوز

بعد أن أتم جيليبوس وبايثين تجهيز سفنهما انطلقا مبحرين قبالة الساحل من تارينتوم حتى لوكريس الإيبيزيفيرينية. وهنا بلغتهما أنباء أكثر وثوقاً تفيد بأن حصار سيراكوزة ليس تاماً، ومازال بوسع الجيش دخول المدينة عن طريق إيبيبولاي. فأخذ الرجلان يتداولان فيما إذا كان من المناسب المجازفة بدخولها عن طريق البحر وصقيلية على ميمنتهما أم ترك الساحل على الميسرة والمضي إلى هيميرا أولاً، واصطحاب قوة منها وما تيسر لهما من قوات أخرى تنضم إليهما، ثم دخول سيراكوزة عن طريق البر. وعزما على ركوب البحر إلى هيميرا، خاصة وأن السفن الأثينية الأربع التي أرسلها نيسياس أخيراً حين سمع بوجودهما في لوكريس لم تكن قد وصلت، بعدُ إلى ريجيوم.

وهكذا عبر القائدان المضيق قبل أن تبلغ هذه السفن مقصدها، ثم ألقيا مراسيهما في هيميرا بعد استراحة في ريجيوم وميسينا. وهنا أقنعا أهل هيميرا بالانضمام إليهما في الحرب واللحاق بهما بقواتهم إلى سيراكوزة، وتوفير السلاح لبحّارة السفن غير المسلحين. وكانت هذه السفن قد جُرت إلى اليابسة في هيميرا جراً. كما أرسل هذان القائدان الرسل إلى أهالي سيلينوس يطلبان منهم الالتقاء بهما ومعهم كامل قواتهم في مكان معين. كذلك تعهد الجيلوان بإرسال قوة صغيرة ومثلهم الصيقيل الذين غدوا الآن متحمسين أشد الحماس للانضمام إليهما بعد مقتل أرخونيداس مؤخراً، وكان ملكاً على بعض الصيقيل في تلك الأنحاء، وله سلطان كبير، وصداقة مع أثينا. والذي أثر في هؤلاء أيضاً أن جيليبوس قدم من إسبارطة وهو يبدو ممتلئاً ثقة بالنفس. وكان مع جيليبوس الآن نحو سبعمئة من بحارته ومشاة البحرية الذين تم تسليحهم وألف من

المشاة الثقيلة والخفيفة ومئة من الخيالة من هيميرا، وبعض القوات الخفيفة والخيالة من سيلينوس، وبعض الجيلوان ونحو ألف من الصيقيل. فانطلق ومعه هذه القوة إلى سيراكوزة.

وكان الأسطول الكورنثي يبحر في غضون ذلك بأقصى ما يمكنه من السرعة من ليوكاس إلى سيراكوزة، فوصل إليها أحد القادة الكورنث ويدعى جونجيلوس قبل سواه مع أنه كان آخر من أبحر إليها ومعه سفينة واحدة، وقد وصل قبل جيليبوس الذي جاء بعده، وهناك وجد السيراكوز على وشك عقد مؤتمر لمناقشة السبل لوضع حد للحرب. فتمكن عندئذ من إحباط هذا المؤتمر وبعث الحمية في السيراكوز بالوعد بوصول المزيد من السفن وقوله: إن جيليبوس بن كليندريداس قد أوفده الإسبارطيون خصيصاً ليتولى قيادة جيشهم. فاستعاد السيراكوز عندئذ ثقتهم بالنفس وخرجوا فوراً للزحف بكامل قوتهم للقاء جيليبوس، فاكتشفوا أنه بات قريباً جداً منهم.

وكان أول ما وقع في يدي جيليبوس قلعة للصيقيل صادفها في طريقه، وتدعى آيتاي، ثم قام بتنظيم جيشه استعداداً للمعركة، وزحف بعدئذ إلى إيبيبولاي. فصعد إليها من درب كان الأثينيون أول من استخدمه، وكان صاحب هذه المبادرة أوريلوس، ثم تقدم جيليبوس ومعه السيراكوز لاحتلال التحصينات التي أقامها الأثينيون. وكان وصوله في لحظة حرجة، ذلك أنهم قد أنجزوا بناء سور مضاعف يمتد نحو الميل ليبلغ أقصاه عند المرفأ الكبير، عدا مقطع صغير بالقرب من البحر مازالوا يقومون ببنائه، كذلك ومازال العمل يجري في بناء المقطع ما بين المستديرة وتروجيلوس والبحر، وعلى الطرف الآخر كانت الحجارة المخصصة للبناء جاهزة للاستخدام وقد غطت المسافة، وكانت بعض الأجزاء إما اكتمل بناء نصفها أو اكتمل تماماً. وهكذا كانت سيراكوزة تواجه خطراً عظيماً فعلاً.

وكان ظهور جيليبوس المفاجئ وضغط السيراكوز على الأثينيين قد أحدثا بينهم بعض الاضطراب بادئ الأمر، إلا أنهم تمالكوا أنفسهم ثم نظموا صفوفهم بعد قليل واستعدوا لمواجهتهم. توقف جيليبوس على مسافة منهم ثم أرسل موفداً ليعلن لهم استعداده لإقامة السلم وإياهم - إن غادروا صقيلية، ومعهم ممتلكاتهم - في غضون خمسة أيام. فاستقبل الأثينيون هذا العرض بازدراء وردوا الموفد من حيث أتى دون جواب. فأخذ الطرفان يستعدان عندئذ للقتال. ثم لاحظ جيليبوس أن الفوضى تدب في صفوف السيراكوز، ولا يقدر على ضبطهم، فانسحب وجيشه إلى موقع في أرض فسيحة. أما نيسياس فإنه ظل يتخذ وضع الدفاع بالقرب من السور، عوضاً عن أن يسير بالأثينيين ضد جيليبوس، فلما وجد هذا أن هؤلاء لا يعتزمون الهجوم، سار بجيشه إلى منطقة تيمينيتيس المرتفعة حيث أمضى الليلة هناك.

وفي اليوم التالي سار والقسم الأعظم من جيشه ووضعهم قبالة الأسوار الأثينية ليمنع الأثينيين من إرسال المعونة لأي جهة كانت. ثم أرسل كتيبة للهجوم على الحصن عند لبدلوم فاستولوا عليه وقتلوا كل من صادفوهم هناك. وكان هذا الموقع لا يظهر للناظر من الخطوط الأثينية. وفي اليوم ذاته استولى السيراكوز على سفينة كانت ترسو بالقرب من الميناء.

وشرع السيراكوز وحلفاؤهم بعدئذ ببناء سور مفرد يبدأ من المدينة ثم يتقاطع في زاوية مع إيبيبولاي ويضيق على الأثينيين بحيث إنه يحول دون استمرارهم في حصار المدينة ما لم يتدخلوا ويمنعوا بناءه. وكان الأثينيون قد صعدوا إلى أرض أكثر ارتفاعاً بعد أن أتموا بناء السور حتى بلغ البحر. وكان ثمة مقطع من تحصيناتهم يعاني الضعف فخرج جيليبوس ليلاً وهاجم هذا الموقع. وصادف أن كانت الأثينيون يقضون تلك الليلة في موقع خارج تحصيناتهم، فلما أدركوا ما كان يجري خرجوا للقائه. وسرعان ما سحب جيليبوس قواته وقام الأثينيون ببناء هذا المقطع وزادوا من ارتفاعه وتولوا حراسته

بأنفسهم تاركين أمر حراسة بقية التحصينات للحلفاء، حيث يتولى كل منهم حراسة مقطع خاص به.

كذلك عزم نيسياس على تحصين الموقع المعروف باسم بليميريوم، وهو لسان ممتد في البحر مقابل المدينة مباشرة ويجعل مدخل المرفأ الكبير ضيقاً. فاعتقد أنه إذا تمكن من تحصينه يستطيع استخدامه في تيسير وصول المؤن، نظراً لقرب أسطولهم المستخدم في الحصار من العدو عند مدخل المرفأ، كذلك لا يعود من الضروري – كما هو الحال في الوقت الحاضر – الخروج إلى العدو من الطرف الأقصى للمرفأ الكبير، إذا أبدى أسطوله ما ينم عن الحركة. وكان نيسياس قد أخذ يبدي منذ حين مزيداً من الاهتمام بالحرب عن طريق البحر، باعتبار أن آمالهم في خوض الحرب على البر قد تقلصت كثيراً بعد وصول جيليبوس. ولذلك ما لبث أن جاء بالأسطول وجمع من القوات إلى بليميريوم وقام ببناء ثلاثة حصون هناك، حيث تجمعت فيها معظم الأسلحة والتجهيزات، وأصبحت الآن محطة للسفن التجارية والحربية الضخمة. وكان هذا مبدأ المشاق والصعاب التي بدأت بحّارة السفن تعانيها، والسبب الرئيس في تدهور الوضع هناك. فقد كانت المياه قليلة ومصادرها ليست قريبة، وكلما خرج البحارة لإحضار الوقود تعرض لهم الخيالة السيراكوز المسيطرون على البر وأوقعوا فيهم إصابات. وبسبب احتلال بليميريوم جعل السيراكوز من قرية أوليمبيوم قاعدة لثلث قوة الفرسان لديهم، ليمنعوا الأثينيين من الخروج ونهب البلد.

وعندما بلغ نيسياس أن بقية أسطول الكورنث بدأ بالاقتراب، أرسل عشرين سفينة لاعتراض هذه القوة، ووجهها لانتظار هذه السفن عند لوكريس وريجيوم وعلى الطريق إلى صقيلية

وكان جيليبوس ما يزال مستمراً طوال هذا الوقت في بناء السور عند إيبيبولاي،

مستخدماً في ذلك الأحجار التي كان الأثينيون قد قاموا برصفها ليستخدموها في أغراضهم. وقد اعتاد جيليبوس في ذلك الوقت أن يخرج بجيشه من السيراكوز والحلفاء، ويجعلهم يصطفون أمام الحصن؛ فيقوم الأثينيون بنشر جيشهم قبالتهم. وأخيراً أخذ بالمبادرة حين لاحت له الفرصة وشن هجومه. ودار القتال بين المتحاربين عن قرب بين خطي التحصينات، حيث لا جدوى من الخيالة السيراكوز في القتال. وقد نزلت الهزيمة بالسيراكوز وحلفائهم، ثم سمح لهم بنقل جثث قتلاهم بموجب هدنة، وأقام الأثينيون نصباً تذكارياً. فقام جيليبوس بجمع جيشه ونفى عنهم التسبب بالهزيمة، ونسب الخطأ إلى نفسه شخصياً، والسبب في ذلك أنه مدد خطوطهم داخل المنطقة المحصنة، أكثر مما ينبغي؛ فحرمهم بذلك من مساعدة خيالتهم ورماة الرماح؛ ثم عرض عليهم أن يقودهم في هجوم ثان، وقد زاد بالقول: إن السلاح متوفر وهم في هذا أنداد للعدو، أما من الناحية المعنوية فعلى البيلوبونيز والدوريين أن يثقوا بقدرتهم على إلحاق الهزيمة بالأيونيين وأهالي الجزر والرعاع من كل نوع وطردهم من الجزيرة، والشك في ذلك أمر غير مقبول ولا يحتمل.

وبعد هذا عاد مرة أخرى وقاد رجاله إلى المعركة حالما وجد الوقت مناسباً للانقضاض على العدو. وكان نيسياس والأثينيون يرون أن عليهم محاولة منع متابعة العمل في بناء السور المضاد حتى لو امتنع العدو عن دخول المعركة. فقد كاد ذلك السور أن يصل إلى الطرف الأقصى للتحصينات الأثينية، فإذا تجاوزها فسوف يصبح القتال وعدمه سيان. وهكذا تقدم الأثينيون للاشتباك مع السيراكوز. فخرج جيليبوس هذه المرة للقتال ووضع مشاته الثقيلة على مسافة من التحصينات أبعد مما كان في الاشتباك السابق. ووضع الخيالة ورماة الرماح مقابل الجناح الأثيني في الأرض المكشوفة وراء طرفي السورين. وقد هاجم الخيالة الجناح الأيسر للأثينيين المقابل لهم وهزموهم شر هزيمة، وكانت النتيجة هزيمة بقية الجيش ورده إلى ما وراء التحصينات على يد السيراكوز. وفي الليلة الثانية

تحقق للسيراكوز هدفهم وأنجزوا السور المضاد وتجاوزوا نهاية التحصينات الأثينية. وهنا لم يعد بالإمكان وقف اندفاع السيراكوز، حتى ولو انتصر الأثينيون في المعركة، فقد أضاعوا كل فرصة لإحكام الحصار على المدينة في المستقبل.

بعد ذلك دخلت السفن الكورنثية والإمبراسية والليوكادية الاثنتي عشرة الأخرى المرفأ، بقيادة إيراسينيديس الكورنثي. وقد تمكنت من الوصول دون أن تلاحظها السفن الأثينية التي كان عليها أن تقوم برصد تحركاتها، وأخذت طواقمها تقدم العون للسيراكوز في إنجاز ما تبقى من السور المضاد. أما جيليبوس فقد مضى يبحث عن متطوعين في أنحاء أخرى من صقيلية، ويسعى لتكوين قوات برية وبحرية وفي الوقت ذاته كسب تلك المدن التي ظلت لا تبدي رغبة شديدة في تقديم العون أو نأت بنفسها عن الحرب. كذلك ذهب وفد من السيراكوز والكورنث إلى إسبارطة وكورنثة في طلب الجنود وإرسالهم بالسفن التجارية أو أي وسيلة نقل أو بأي طريقة أخرى ممكنة؛ لأن الأثينيين كانوا يرسلون من طرفهم قوات جديدة إلى المنطقة. وكان السيراكوز قد جهزوا في تلك الأثناء أسطولاً وشرعوا يدربون البحّارة، وهدفهم من ذلك التصدي للعدو في البحر كما في البر، وقد باتوا الآن عامرين بالثقة بالنفس من كل ناحية.

وكان نيسياس مدركاً للوضع، فأرسل رسالة شخصية إلى أثينا لإحاطة القوم هناك بالموقف، وهو يرى أن العدو يزداد قوة بينما تتفاقم مصاعبه مع مرور كل يوم جديد. وكان قد سبق له أن أرسل عدة تقارير في الماضي عرض فيها مختلف الوقائع التي جرت، إلا أن رسالته انطوت هذه المرة على مناشدة وإلحاح؛ لأن الوضع في رأيه بالغ الخطورة ما لم تتصرف الحكومة بسرعة شديدة فتقوم إما باستدعاء قواتها أو إرسال تعزيزات ضخمة، وإلا لن يكتب لهم البقاء بعدئذ. وكان قد خشي مع ذلك أن يقصر الرسل في عرض الوقائع على حقيقتها، إما لعجزهم عن التعبير، أو لضعف ذاكرتهم أو رغبة منهم في قول ما يرضي الرأي العام. ولذلك كتب رسالة تتضمن عرضه للوضع، اعتقاداً منه بأن

الأثينيين سيحيطون بهذه الطريقة بآرائه دون أن يلحق بها التشويه عند النقل، وتكون الحقيقة ماثلة أمامهم عند النقاش. وهكذا انطلق الرسل ومعهم الرسالة والتوجيهات الشفهية الأخرى، ثم التفت نيسياس باهتمامه إلى الجيش. وكانت سياسته الآن الجنوح أكثر إلى الدفاع وتفادي كل المجازفات التي يمكن تفاديها.

وفي نهاية هذا الصيف زحف القائد الأثيني إيوتيون بالتعاون مع بيرديكاس على أمفيبوليس على رأس قوة تراقية ضخمة. ففشل في الاستيلاء عليها، إلا أنه أتى بسفنه الثلاثية المجاذيف إلى نهر الستريمون واتخذ موقعه عند هيميرايوم، ثم قام بحصار المدينة من ناحية النهر. وانتهى الصيف والأمور على هذه الحال.

وفي الشتاء التالي وصل رسل نيسياس إلى أثينا. وهناك نقلوا ما حملهم وأجابوا عن الأسئلة التي دارت في خواطر المستمعين وسلموا رسالته، فتقدم كاتب المدينة وقرأ تلك الرسالة على الأثينيين. وكان نص الرسالة كالتالي:

" قد علمتم أيها الأثينيون، ما قمنا به في الماضي من الرسائل الكثيرة الأخرى التي بعثنا بها. ومن الضروري أن تحيطوا الآن بوضعنا الحالي وعليكم أن تبلغوا قراراً بشأن هذا الوضع. ولقد برهنا في المعركة في معظم الأحوال على تفوقنا على السيراكوز الذين كنتم قد أرسلتمونا لحربهم، وقمنا ببناء التحصينات التي نحتلها الآن، وحين وصل جيليبوس من إسبارطة ومعه جيش جمعه من البيلوبونيز وبعض المدن في صقيلية. ولقد تغلبنا عليه في المعركة الأولى، ثم تغلب علينا في المعركة الثانية لكثرة فرسانه ورماة الرماح؛ فاضطررنا للتراجع خلف تحصيناتنا. وإننا مضطرون الآن للبقاء دون حركة بسبب تفوق أعداد العدو علينا، كما اضطررنا للتوقف عن بناء السور الذي قصدنا أن نفيد منه في أعمال الحصار. والواقع أننا لا نستطيع الإفادة من كل القوات المتوفرة لنا لانشغال قسم كبير من المشاة الثقيلة في الدفاع عن خطوطنا. ولقد قام العدو ببناء سور مفرد تجاوز

نهاية التحصينات التي أنشأناها، فلم يعد ثمة إمكانية أمامنا لضرب الحصار على المدينة، إلا إذا توفرت لنا القوة للهجوم على هذا السور الذي أقاموه والاستيلاء عليه. فواقع الحال، إذن، هو أننا بعد أن كنا في وضع المحاصِرين فإذا بنا نحن المحاصَرين، على الأقل من ناحية البر؛ لأننا لا نستطيع التوغل بعيداً في بلادهم بسبب خيالتهم.

" علاوة على ذلك فقد أرسلوا الوفود إلى البيلوبونيز يسألون إمدادهم بمزيد من الجند. ثم إن جيليبوس ذهب يجول في مهمة في صقيلية، ونيته أن يقنع المدن التي ظلت محايدة حتى الآن بالمشاركة في الحرب، وينال من المدن الأخرى- إن استطاع- مزيداً من المشاة والمواد البحرية أيضاً. ويهدف مخططهم- على ما يبدو لي- إلى الهجوم على تحصيناتنا بمشاتهم واشتباك أسطولهم معنا في الوقت ذاته في البحر أيضاً. ولا يستغربن أحدكم إن استخدمت عبارة "في البحر أيضاً". فالواقع أن أسطولنا - كما يعلم السيراكوز- كان أساساً في وضع ممتاز؛ فأخشاب سفنه متينة وطواقمها في لياقة جيدة. أما الآن فقد مضى على السفن زمن طويل في البحر وأخشابها تآكلت وما عاد الرجال كما كانوا من قبل. ولسنا نستطيع جر السفن الآن لتجفيفها وتنظيفها؛ لأن لدى العدو من السفن مثل ما لدينا أو أكثر، وهذا ما يجعلنا في حال من الترقب خوفاً من هجوم. إننا نرى الأعداء وهم يجرون مناورتهم، والمبادرة بأيديهم. علاوة على ذلك، فمن الأيسر عليهم تجفيف سفنهم؛ لأنهم لا يقومون بحصار أحد. أما نحن فنكاد لا نستطيع ذلك حتى لو كنا نتفوق عليهم من حيث عدد السفن ولم نكن مضطرين، كحالنا الآن، لاستخدامها جميعاً في الحصار؛ ذلك أن أقل قدر من تدني فعالية الرصد الذي نقوم به معناه ضياع مؤننا التي يصعب علينا حتى الآن نقلها أبعد من سيراكوزة.

" ولقد تدهورت أحوال بحّارتنا وما زالت في انحدار للأسباب التالية: اضطرارهم لقطع مسافات بعيدة لجلب الوقود، والمتاع، ونقل الماء. وكثيراً ما نعاني سقوط عناصرنا تحت هجمات خيالة العدو. وقد أصبح أعداؤنا يقفون مساوين لنا وذلك بات يحمل

عبيدنا على الفرار. وأما الغرباء العاملون لدينا فالمجندون منهم بدؤوا بالعودة إلى مدنهم بأسرع ما يستطيعون. وأما من أبهجتهم في البداية فكرة الحصول على الأجر العالي وكان مطلبهم المال لا القتال فقد وجدوا الآن أن العدو صامد، على عكس ما كانوا يتوقعونه، ليس صامداً وحسب وإنما يقاومنا أيضاً في البحر، وأخذوا يتسربون من الصفوف فراراً أو الإفلات والهرب بطريقة من الطرق - وليس ذلك بالأمر الصعب، إذا أخذنا مساحة صقيلية بعين الاعتبار- وهناك من البحارة من اشترى فعلاً أرقاء هيكاريين، ثم أقنعوا قباطنة السفن بأن يأخذوا هؤلاء الأرقاء بدلاً منهم، فأفسدوا بذلك كفاءة الأسطول.

" إنكم لستم بحاجة لأن يقال لكم: إن البحارة يكونون في أفضل حالاتهم لفترة قصيرة وقلة منهم يستطيعون دفع السفينة إلى البحر ثم متابعة التجذيف كما ينبغي. ولكن أشد متاعبي هي أنه لما كنتم بحكم الطبيعة ذوي مراس صعب فإني- أنا القائد- أجدني عاجزاً عن وضع حد لكل هذا، ولا نستطيع أن نستبدل البحارة بآخرين من أي مكان. إن لدى العدو عدداً من المصادر ليحصل على الطاقة البشرية متى احتاج، أما نحن فلا نملك سوى الرجال الذين جئنا بهم، ومضطرون لاستخدامهم ليس لإدامة خدمة السفن وحسب، وإنما لتعويض خسائرنا أيضاً؛ ذلك أن المدينتين المتحالفتين معنا، وهما ناكسوس وكاتانة، لا تستطيعان أن توفرا لنا حاجتنا من الرجال. أما العدو فلا يحتاج إلا لأمر واحد بعد: أن تنقل الأماكن التي نحصل منها على المؤن في إيطاليا ولاءها إلى الطرف الآخر، حين تكتشف أنكم غدوتم تمتنعون عن إمدادنا بالمعونات، فيقسرنا الجوع على الاستسلام فيكون النصر لسيراكوزة في هذه الحرب، دون أن تضطر لتوجيه ضربة واحدة.

" ولقد كان بوسعي حقاً أن أعرض لكم رواية أخرى غير هذه، لكنني لم أكن لأستطيع أن أخبركم بأمر أكثر نفعاً من هذا الذي عرضته، إن كنتم ترغبون بأن تتوفر لكم فكرة واضحة عن حقيقة الموقف قبل أن تتخذوا قراراتكم. وبعد، فإن الخبرة وفرت

لي معرفة بطبع الأثيني. فأنتم تستطيبون الأخبار السارة، أما إذا سارت الأمور على غير ما أوحي إليكم فإنكم تلقون اللائمة فيما بعد على محدثيكم. ذلكم ما حملني على الاعتقاد بأن من الأسلم أن أصارحكم بحقيقة الأمور.

" أما ما يخص الأهداف الأصلية للحملة فليس لكم أن تروا في مسلك جنودكم أو قادتكم أي شائبة. و لكن خذوا علماً بأن صقيلية كلها متحدة ضدنا. والمتوقع أن يأتي جيش جديد من منطقة البيلوبونيز، بينما قواتنا نحن غير كافية للتعامل مع المقاومة التي نواجهها الآن. وإذن فقد حان الوقت لتقرروا إما أن تستدعونا وإما أن ترفدونا بقوة أخرى بحرية وبرية، بحجم القوة الأولى ومبالغ كبيرة من المال، وشخص آخر يحل مكاني في القيادة؛ إذ أن مرضاً أصابني في الكلية وجعلني غير صالح للخدمة. وأعتقد أني جدير باهتمامكم لما أديت من الخدمات وأنا بتمام الصحة والعافية في مختلف المناصب القيادية التي شغلتها. ومهما يكن الأمر الذي عزمتم عليه فإنه ينبغي إنجازه في مطلع الربيع، وعدم إرجائه بأي حال؛ لأن العدو سوف يتلقى تعزيزات من صقيلية عما قريب. ولئن كانت القوات البيلوبونيزية سوف تستغرق وقتاً أطول في الوصول إلا أنكم ستجدون أن الأفواج الصقيلية ستبلغ مواقعها هنا قبل أن نكون مستعدين لها. ولسوف يتسلل البيلوبونيز إلى هنا دون أن نلاحظهم كما فعلوا في السابق، إلا إذا أوليتم الأمر عنايتكم."

كان هذا ما تضمنته رسالة نيسياس. فلما سمعها الأثينيون رفضوا إعفاءه من القيادة، ولكنهم قاموا بتعيين اثنين من الضباط العاملين في صقيلية، وهما ميناندر وأوثيديموس، ليشاركاه أعمال القيادة فلا يضطر للنهوض بعبء المسؤولية وحده وهو في هذه الحال من المرض. وكان تعيين هذين الضابطين مؤقتاً بانتظار أن يحل مكانهما القائدان الآخران اللذان اختارتهما أثينا ليشاركا نيسياس في مهامه. وقد صوت الأثينيون بالموافقة على تدعيم قواته بقوات أخرى برية وبحرية من المواطنين المجندين والحلفاء. وكان القائدان

اللذان وقع عليهما الخيار لمشاركته في القيادة ديموستينيس بن ألسيستنيس ويوريميدون بن ثوكليس. وأرسل يوريميدون إلى صقيلية فوراً قرب موعد الانقلاب الشتوي ومعه عشر سفن ومئة وعشرون تالنت فضة، وكلف بأن يخبر الجنود هناك بأن المساعدات في طريقها إليهم ومصالحهم مكفولة. أما ديموستينيس فإنه تخلف عن السفر بعض الوقت ليتدبر تنظيم الحملة. وكان يعتزم الانطلاق في بداية فصل الربيع فانشغل في طلب الجنود من الحلفاء وجمع المال والسفن والمشاة الثقيلة من أتيكا.

كذلك أرسل الأثينيون عشرين سفينة لتدور حول البيلوبونيز لمنع أي سفينة كورنثية أو بيلوبونيزية من العبور إلى صقيلية. وكان الكورنث قد ازدادوا ثقة واعتزازاً بالنفس منذ أن عاد سفراؤهم بالأخبار الطيبة؛ إذ علموا عندئذ أنه حتى الأسطول الذي زجوا به من قبل قد أتى لهم بالنفع. وهاهم يستعدون الآن لإرسال قوة من المشاة الثقيلة إلى صقيلية على سفن تجارية. ويتهيأ الإسبارطيون أيضاً للقيام بمثل ما قاموا به بقوات تم تجنيدها من بقية أنحاء البيلوبونيز. كذلك كان الكورنث قد جهزوا خمساً وعشرين سفينة وهدفهم الاشتباك مع القوة التي تتولى الحصار عند نوبكتوس . وهذه خطة من شأنها أن تزيد من صعوبة قيام الأثينيين عند نوبكتوس بمهمتهم بمنع إبحار سفن كورنثة التجارية بسبب اضطرارهم لتوجيه اهتمامهم إلى السفن الكورنثية الثلاثية المجاذيف الحربية التي تقف في مواجهتهم عند خط القتال.

كان الإسبارطيون قد أعدوا العدة لغزو أتيكا، كما سبق أن قرروا، وكما طلب منهم السيراكوز والكورنث، وقد أمل هؤلاء حين بلغهم أن أثينا ترسل تعزيزات إلى صقيلية أن يتم إيقافها بعملية غزو. وكان ألسيبياديس أيضاً ماانفك يلح عليهم بتحصين ديسيليا وخوض الحرب بهمة وعزيمة. ولكن ما شجع الإسبارطيين على التصرف بنشاط أساساً هو اعتقادهم أنه سيكون من اليسير عليهم تحطيم الأثينيين الآن وهم يخوضون حربين في وقت واحد، واحدة ضدهم وأخرى ضد الصقيليين، بالإضافة إلى حقيقة أن الإسبارطيين

الآن يعتقدون أن أثينا هي السباقة إلى خرق اتفاقية السلم. أما في الحرب الأولى فقد حملوا أنفسهم المسؤولية، بسبب دخول الطيبيين بلاطية في زمن السلم، ورفضهم عرض أثينا الأمر للتحكيم، مع أن المعاهدة السابقة نصت على عدم اللجوء إلى السلاح عند طلب التحكيم. وعليه فقد رأوا أن المصائب التي حلت بهم وسوء الحظ الذي رافقهم، وما عانوه من ألم لكارثة بيلوس والهزائم الأخرى التي نزلت بهم، إنما كانت عقاباً عادلاً لهم. أما الآن فقد خرج الأثينيون عليهم – فضلاً عن الإغارات المستمرة من بيلوس- بثلاثين سفينة من آرجوس وذهبوا ينزلون الخراب والدمار في جزء من إبيداروس وبراسياي وسوى ذلك من البقاع. وزاد في الأمر أن الأثينيين كانوا يرفضون التحكيم كلما نشأ خلاف حول نقاط يعتورها الغموض في الاتفاقية والإسبارطيون يقبلون به. وإذن فأثينا هي الملومة الآن- كما رأى الإسبارطيون – بتكرارها خطأهم القديم، فاندفعوا إلى الحرب بحماس. وفي هذا الشتاء أرسلوا إلى حلفائهم يسألونهم تزويدهم بالحديد، وأعدوا كل ما يلزم من المواد الأخرى لبناء التحصينات. وكانوا قد جهزوا في الوقت ذاته قوة منهم وجندوا قوات أخرى من بقية البيلوبونيز لإرسالهم في سفن تجارية لمؤازرة حلفائهم في صقيلية. وهكذا انتهى الشتاء، وكان ختام السنة الثامنة عشر من الحرب التي يدون أخبارها ثوسيديديس.

الفصل الثاني: تحصين ديسيليا،
السيراكوز يستولون على بليميريوم، مصاعب أثينية

في مطلع الربيع التالي، وفي موعد أبكر من أي وقت مضى، غزا الإسبارطيون وحلفاؤهم أتيكا، وكان قائد الحملة الملك آجيس بن أرخيداموس. فقاموا بادئ الأمر بتخريب الأراضي في منطقة السهل، ثم مضوا إلى تحصين ديسيليا ووزعوا العمل بين مختلف المدن. وديسيليا هذه تقع على بعد ثلاثة عشر أو أربعة عشر ميلاً من مدينة أثينا، وهي ذات المسافة التي تبعدها عن بويوطيا أو تزيد. وقد بُني الحصن لتهديد السهل وأغنى المناطق في البلد والسيطرة عليها، وكان على مرمى النظر من أثينا.

وفيما كان البيلوبونيز وحلفاؤهم يبنون الحصن أرسل مواطنوهم في ذلك الوقت تقريباً المشاة الثقيلة إلى صقيلية في سفن تجارية. وأرسل الإسبارطيون نخبة من بين الرقيق والأحرار وكان عددهم ستمئة، وعلى رأسهم أكرتيوس، وهو ضابط إسبارطي نظامي. كذلك أرسل البويوط ثلاثمئة من المشاة الثقيلة بقيادة أكزنون ونيكون وكلاهما من طيبة وهيجيساندرمن تيسبياي. وقد انطلق هؤلاء من تيناريوم في لاكونيا وكانوا أول من نزل إلى البحر، ولكن سرعان ما أرسل الكورنث– بعدما غادر أولئك– خمسمئة من المشاة الثقيلة، وكان منهم مواطنون كورنث ومرتزقة من أركاديا. وجعلوا على رأس هذا الجيش ألكسارخوس، وهو كورنثي. كذلك أرسل السيكيون مئتين من المشاة الثقيلة بقيادة سرجيوس، وهو سيكيوني، وكان ذلك متزامناً مع رحيل الكورنث. وفي تلك الفترة كان ثمة خمس وعشرون سفينة كورنثية– وقد سبق تجهيزها في فصل الشتاء– تلقي مراسيها قبالة السفن الأثينية العشرين في نوبكتوس، وظلت هناك حتى تأكدت أن السفن التجارية التي حملت المشاة الثقيلة قد ابتعدت عن البيلوبونيز. وكان هذا هو السبب في تجهيز هذه السفن أصلاً، بحيث إذا اتجه انتباه الأثينيين إلى السفن الثلاثية المجاذيف انصرفوا عن السفن التجارية فمضت وشأنها دون عائق.

وفي غضون ذلك أرسل الأثينيون في بداية فصل الربيع، وعندما كان تحصين ديسيلها جار على قدم وساق، ثلاثين سفينة لتدور حول البيلوبونيز بقيادة خاريكليس بن أبولودوروس، ويحمل توجيهات بالمضي إلى آرجوس ، وطلب عناصر من المشاة البحرية لرفد أسطوله، وفق شروط التحالف. وكانوا قد أرسلوا ديموستينيس إلى صقيلية، كما كان مقرراً من قبل، ومعه ستون سفينة من أثينا وخمس سفن من خيوس وألف ومئتان أثيني من المشاة الثقيلة من قوائم الاحتياط، وكل ما تمكن من تجنيدهم من أبناء الجزر للخدمة في صفوف جيشه. ثم أخذوا من حلفائهم كل ما استطاع هؤلاء توفيره ، وكان مفيداً في الحرب. وأعطيت التعليمات لديموستينيس بأن يقوم أولاً بالدوران حول البيلوبونيز مع خاريكليس ويشترك معه في الهجوم على سواحل لاكونيا. ولذلك أبحر إلى إيجينا ثم لبث ينتظر وصول بقية قواته وخاريكليس لينقل القوات من آرجوس. في صقيلية، ونحو ذلك الوقت من الربيع تقريباً، وصل جيليبوس إلى سيراكوزة ومعه أكبر قوة استطاع تعبئتها من مختلف المدن التي تمكن من إقناعها بالمؤازرة في هذا الجهد. ثم قام بدعوة السيراكوز للاجتماع وأشار بأن عليهم الآن تجهيز ما يستطيعون من السفن واختبار حظهم، في معركة بحرية، قائلاً : إن الأثر الذي سيكون لهذه المعركة في الحرب عموماً جدير في اعتقاده بالمجازفة. وقد نال رأيه أشد التأييد من هيرموكراتيس، الذي عمل معه على إقناع السيراكوز بأنه لن ينالهم ضير من مواجهة الأثينيين في البحر، وقال في حثهم على خوض المعركة : إن خبرة الأثينيين بالبحر ليست أمراً من صميم تكوينهم يوم يولد أحدهم، ولن يستمر إلى الأبد. فالواقع أن الأثينيين كانوا من ساكني البر أكثر من السيراكوز، ولم يخرجوا إلى البحر إلا حين أرغمهم الفرس على الخوض فيه. وزاد أن أشد ما يكرهه أصحاب الجرأة كالأثينيين هو أن يجدوا أمامهم قوماً لا يقلون عنهم جرأة وإقداماً. وقد اعتادت أثينا- أحياناً- مع أنها لم تكن تملك تفوقاً فعلياً في القوة — أن تروع جيرانها بهجماتها الجريئة. ومثل هذا الأسلوب يمكن أن يستخدمه السيراكوز أيضاً

ضد أثينا. وقال: إنه واثق كل الثقة من أنه سيكون لنهوض السيراكوز للتصدي للبحرية الأثينية- حيث لا يتوقع منهم هذه الجرأة- الأثر المقلق عند العدو ويعوض عن أي خسارة أمام مهارة الأثينيين وافتقارالسيراكوز للخبرة. وعليه فقد ذهب يحثهم على تبين ما يمكن أن ينجزوه بأسطولهم، وألح عليهم بالمضي قدماً في هذا الأمر والثبات عليه.

وهكذا عزم السيراكوز، اعتماداً على نصيحة جيليبوس وهيرموكراتيس وآخرين سواهما، على القتال في البحر وشرعوا يجهزون سفنهم لهذه الغاية. فلما أصبح الأسطول مستعداً للعمل، خرج جيليبوس بكل ما لديه من المشاة ليلاً، يريد الهجوم على الحصون عند بليميريوم من ناحية البر. وفي الوقت ذاته، كانت خمس وثلاثون سفينة ثلاثية المجاذيف سيراكوزية تنطلق من المرفأ الكبير، كما هو متفق عليه مسبقاً، لتهاجم العدو وخمس وأربعون أخرى تخرج ملتفة من المرفأ الأصغر، حيث أحواض السفن، لتنضم إلى السفن الأخرى في الداخل وتهدد بليميريوم في الوقت ذاته، مما يثير البلبلة في صفوف الأثينيين حين يجدوا أنفسهم يواجهون الهجوم من الاتجاهين.

أما الأثينيون فقد أسرعوا إلى تجهيز سفنهم الستين. فاشتبكت خمس وعشرون سفينة مع السفن الخمس والثلاثين السيراكوزية في الميناء الكبير، بينما خرجت السفن الأخرى لقتال السفن التي كانت في طريقها من الأحواض. ثم وقع الاشتباك بين السفن عند مدخل المرفأ الكبير، حيث كان أحد الأسطولين يحاول أن يشق طريقه إلى الداخل والثاني يحاول إبقاءه في الخارج. وقد ظل الطرفان على هذه الحال دون أن يتزحزح أحدهما أمام الآخر قيد أنملة.

وفي تلك الأثناء كان الأثينيون قد نزلوا من بليميريوم إلى البحر وأصبحوا يولون المعركة البحرية كل اهتمامهم. فأخذهم جيليبوس على حين غرة بهجوم مباغت على الحصون في الصباح الباكر، فاستولى أولاً على أضخمها ثم الحصنين الآخرين أيضاً؛ إذ لم

تبق حاميتاهما بانتظار قدومه فلاذتا بالفرار حين وجدتا الحصن الأكبر يسقط بسهولة بالغة. ولقد عانى أولئك الذين كانوا في الحصن الذي سقط أولاً حتى تمكنوا من الفرار إلى إحدى السفن التجارية وبعض القوارب، وبعد مشقة كبيرة وعناء وصلوا إلى المعسكر؛ إذ كانت تطاردهم سفينة ثلاثية المجاذيف سريعة أرسلها السيراكوز في إثرهم. وكان السيراكوز في ذلك الحين يسيطرون على المعركة الدائرة في الميناء الكبير. ولكن الأمور دارت رأساً على عقب، بعد الاستيلاء على الحصنين؛ إذ كان السيراكوز قد بدأوا يخسرون المعركة، فاستطاع أولئك الذين هربوا من الحصنين الوصول إلى الشاطئ بيسر أكبر مما لو كانت الأمور تجري كسابقتها. وما حدث هو أن السفن السيراكوزية التي كانت تقاتل عند مدخل المرفأ اضطرت السفن الأثينية للتراجع ثم أبحرت إلى الداخل. ولكن لما عجز السيراكوز عن الالتزام بالنظام ووقع الاضطراب بينهم قدموا النصر للأثينيين الذين كسروهم أولاً، ثم هزموا السفن الأخرى التي كانت لها السيطرة حتى ذلك الحين في المرفأ الكبير. فقد أغرقوا إحدى عشرة سفينة سيراكوزية وقتلوا معظم من كان على ظهرها إلا بحارة ثلاث سفن، وقعوا أسرى. وكانت خسارة الأثينيين ثلاث سفن. ثم قاموا بسحب حطام السفن السيراكوزية، ورفعوا نصباً على الجزيرة قبالة بليميريوم، وقفلوا عائدين بعدئذ إلى معسكرهم.

إن بلاء السيراكوز في المعركة البحرية لم يكن بالبلاء المحمود، لكنهم ظلوا يتمسكون بالحصون الثلاثة في بليميريوم ومن أجلها أقاموا ثلاثة نصب. ولقد هدموا أحد الحصنين اللذين استولوا عليهما في النهاية، إلا أنهم قاموا بترميم الاثنين المتبقيين وأقاموا عليهما حاميتين للحراسة. ولقد سقط الكثيرون في الاستيلاء على هذه الحصون فكان منهم قتلى وأسرى، ووقع القدر الكبير من المتاع والأملاك في يد العدو. ذلك أن الأثينيين كانوا يستخدمون هذه الحصون مستودعات يختزنون فيها ما يحتاجون إليه من أشياء، وفيها الكثير من المتاع والحاجات والغلال التي يملكها التجار، والكثير مما يعود للقباطنة أيضاً.

والواقع أن صواري السفن الأربعين الثلاثية المجاذيف وتجهيزاتها وجدت هناك وتم الاستيلاء عليها، عدا السفن الثلاثية المجاذيف التي كانت قد سحبت إلى الشاطئ. ولقد كان الاستيلاء على بليميريوم فعلاً أعظم سبب، بل السبب الرئيس، في تدهور الجيش الأثيني. ولم يعد من الممكن ضمان سلامة قوافل المؤن حتى عند مدخل المرفأ،؛ إذ كان السيراكوز يضعون سفناً مخصصة لاعتراضها، فأصبح القتال ضرورياً الآن إذا كان للمؤن أن تبلغ هذه المحطة . كذلك كان لهذا الحدث أثره الكبير في مجالات أخرى أيضاً، من إحساس عام في الجيش بالذهول وانحطاط المعنويات.

بعد ذلك أخرج السيراكوز اثنتي عشرة سفينة، بقيادة أجاثارخوس، وهو سيراكوزي. فيممت إحدى هذه السفن شطر البيلوبونيز وعلى متنها موفدان محملان برسالة تفيد بأن الآمال في سيراكوزة عالية. وكان على هؤلاء أن يحثوا أهل البلاد على إبداء نشاط أكبر في الحرب في هيلاس. أما السفن الإحدى عشرة الأخرى فقد توجهت إلى إيطاليا؛ إذ بلغهم أن قوارب محملة بمختلف المواد كانت في طريقها إلى الأثينيين. فاعترضت هذه السفن تلك القوارب ودمرت معظمها. كذلك قصدت منطقة كولونيا وأحرقت كمية من الأخشاب كانت مخصصة لبناء السفن وجاهزة لينقلها الأثينيون. ثم وصلت بعدئذ إلى لوكري. وبينما كانت راسية هناك وصلت إحدى السفن التجارية من البيلوبونيز وعلى ظهرها بعض المشاة الثقيلة النيسبيان فقام السيراكوز بنقلهم إلى سفنهم، وتوجهوا بهم إلى بلدهم مبحرين بمحاذاة الساحل. فخرج الأثينيون بعشرين سفينة يبحثون عنهم في ميجارا وتمكنوا عندئذ من إحدى هذه السفن ومعها بحارتها، إلا أنهم عجزوا عن الاستيلاء على السفن الأخرى؛ فأفلتت جميعها حتى بلغت سيراكوزة.

ولقد دار بعض القتال بين السفن عن بعد في المرفأ حول المتاريس التي أقامها السيراكوز أمام الأحواض القديمة، لتتمكن سفنهم من الرسو خلف هذا الحاجز، فلا

يستطيع الأثينيون بلوغها. ولكن الأثينيين أتوا الآن بسفينة ذات حمولة عشرة آلاف تالنت وثبتوا عليها أبراجاً من الخشب وصفائح على الجانبين. ثم ركبوا قوارب ومضوا بها إلى حيث الأوتاد والعوارض وقاموا بربطها بالحبال وأخذوا بجرها بوساطة البكرات او بالتحطيم أو بالغطس إليها ونشرها تحت الماء. فقام السيراكوز عندئذ برميهم من مواقعهم من أحواض السفن فردت عليهم السفينة الأثينية الضخمة. وكان أصعب جانب من هذه الموانع على التناول هو الطرف المستور؛ ذلك أن بعض تلك الأوتاد لم يكن بارزاً ليظهر منه ما ينبئ عنه فوق الماء، فكان من الخطر أن تسير السفن في تلك الناحية فتصبح عرضة للاصطدام بحاجز خفي. غير أن هذا الأمر تُرك للغطاسين المأجورين فكانوا ينزلون إلى الماء ويتبينون مسالكه ليرشدوا الملاحين إلى الطرق الميسرة. ومع ذلك فقد أفلح السيراكوز في نصب أوتاد أخرى محل تلك التي اقتلعها الغطاسون. ولقد توسل كلا الطرفين بعراقيل أخرى، وكل يسعى ليفسد على الآخر عمله، كما هو متوقع من جيشين يقفان بمواجهة بعضهما البعض. وكانت المناوشات لا تنقطع بينهما ولجأ كل منهما إلى ما في جعبته من الحيل والخدع.

ولقد أرسل السيراكوز وفوداً من الكورنث والأمبراس والإسبارطيين إلى مختلف المدن حاملين معهم نبأ الاستيلاء على بليميريوم وليبينوا أن هزيمتهم في المعركة البحرية كان مردها إلى اضطرابهم أكثر منها لتفوق العدو. وكانت مهمتهم بعد أن يوضحوا أن الوضع يعتبر على وجه العموم يدعو للأمل والطلب إلى تلك الدول، بعد، إرسال المزيد من التعزيزات البرية والبحرية معاً، نظراً لتوقع وصول الأثينيين مع جيش جديد. فإذا أمكن القضاء على الجيش الحالي قبل وصول الجيش القادم فإن الحرب ستكون قد بلغت نهايتها.

وفيما كان هذا كله يجري في صقلية جمع ديموستينيس قوة نجدة للسير بها إلى هناك. فانطلق مبحراً من إيجينا إلى البيلوبونيز وانضم إلى خاريكليس والسفن الأثينية

الثلاثين. ثم حملا المشاة الثقيلة الأرجوس ومن ثم أبحرا إلى لاكونيا. وكان أول ما قاما به تدمير جزء من إبيداروس ليميرا. ثم نزلا في لاكونيا قبالة سيثيرا، حيث يقوم معبد أبولو، فأعملا الخراب في بعض أرجاء البلد وقاما بتشييد ما يشبه البرزخ بحيث يمكن لأرقاء إسبارطة أن يجدوا مكاناً يلجؤون إليه، ويكون قاعدة أيضاً للجماعات المغيرة تنطلق منها، كما في بيلوس. فلما أنجز ديموستينيس عمله وساعد خاريكليس في احتلال هذه البقعة توجه فوراً إلى كورسيرا ليحمل منها قوات حليفة إلى صقيلية بأسرع وقت ممكن. أما خاريكليس فقد مكث حيث هو حتى أتم أعمال التحصين، ثم غادر عائداً إلى الوطن بالسفن الثلاثين، بعد أن ترك في الموقع حامية تقوم بالحراسة هناك. كما غادر الأرجوس عائدين إلى الوطن أيضاً.

وفي الصيف ذاته وصل إلى أثينا ألف وثلاثمئة من الرماة من الدي، وهي إحدى القبائل التراقية التي تتسلح بسيوف قصيرة. وكان مقدراً لهؤلاء أن يبحروا مع ديموستينيس إلى صقيلية، ولكنهم حين تأخروا في الوصول آثر الأثينيون إعادتهم إلى تراقية؛ لأن ارتفاع أجورهم - إذ كان أجر الفرد منهم دراخمة في اليوم - لا يمكنهم من الاحتفاظ بهم واستخدامهم في التصدي للهجمات التي تُشن عليهم من ديسيليا.

وكان واقع الحال أن أثينا عانت الكثير منذ أن قام الجيش الغازي بتحصين ديسيليا في ذاك الصيف واستخدامها منذ ذلك الحين قاعدة للعدوان على البلد، ومعهم حاميات من مختلف المدن تتناوب فيما بينها العمل في مواعيد محددة. والحق أن احتلال ديسيليا وما أدى إليه من خراب عظيم لحق بالممتلكات وخسارة للطاقة البشرية كان من بين الأسباب الرئيسة لانحسار قوة أثينا. فلم تكن الغزوات السابقة لتدوم طويلاً ولا حالت دون تمتع الأثينيين باستثمار أرضهم طوال الوقت الباقي. أما الآن فإن العدو أصبح يطاردهم طوال العام، وأحياناً كان يتوفر له بعض القوات فيرسلهم في غزو البلد. وكان الأمر يقتصر أحياناً أخرى على قيام حامية عادية باكتساح الأرض أو الإغارة للاستيلاء

على المؤن. ثم إن الملك آجيس الإسبارطي كان هناك يتولى بنفسه توجيه العملية وكأنما هي حملة كبرى. ولذلك كانت خسائر الأثينيين كبيرة؛ فقد انتزع منهم الريف وفر أكثر من عشرين ألفاً من عبيدهم، ومعظمهم عمال مهرة، وفقدوا كل أغنامهم والحيوانات الداجنة في مزارعهم. وكانت جيادهم تعاني كل يوم السير في الأرض الوعرة كلما خرجت الخيالة إلى ديسيليا لمهاجمة العدو أو للقيام بأعمال الدورية فيصيبها العرج أو الانهاك من شدة العناء، أو بما تصاب من الجراح على يد العدو. ثم إن المؤن التي كانت ترد من يوبوية عبر طريق أوروبوس البري عبر ديسيليا – وهو الأسرع – باتت تأتي الآن عبر البحر عن طريق سونيوم، وبتكاليف أعلى. وكان كل ما يحتاجه البلد مستورداً، وهكذا غدت أثينا قلعة بدلاً من مدينة. وكانت السرايا تتناوب الحراسة في الأبراج، وفي الليل كانت جميعها تستنفر عدا الخيالة، وكان منهم من يقف خفيراً في مراكز الحراسة المختلفة بينما كان بعضهم يقف على الأسوار. وهكذا لم يكن ثمة نهاية لتعبهم في الصيف والشتاء على حد سواء. وكان أشد ما ينهكهم اضطرارهم لخوض الحرب على جبهتين في آن واحد. والحق أنهم تورطوا في حال من العناد الشديد حتى إنه ما من أحد كان ليصدق قيام هذا الوضع لو قيل له ما ينتظره قبل وقوع هذا فعلاً؛ ذلك أنه كان أمراً معجزاً أن الأثينيين الذين يحاصرهم البيلوبونيز الموجودين في حصن في أتيكا، كان عليهم لا أن يبقوا في صقيلية ولا يغادروها فحسب، بل أن يصمدوا ويحاصروا سيراكوزة أيضاً، وهي مدينة كبرى كأثينا ذاتها، ثم يستعرضوا قوتهم وجرأتهم أمام العالم الهيليني استعراضاً مثيراً للعجب. أما مدى إثارة هذا الاستعراض للدهشة فيتجلى فيما اعتقد البعض في بداية الحرب بأن أثينا قد تصمد سنة، إن غزا البيلوبونيز أتيكا، بينما جنح البعض إلى أنها ربما تصمد سنتين أو ثلاث، ولكن ما من أحد كان ليتخيل أن صمودها قد يستمر أطول من ذلك، ومع هذا فهاهم الأثينيون يخرجون الآن في السنة السابعة عشرة منذ الغزو الأول– وبعدما عانوا وكابدوا كل ضروب المعاناة في الحرب–

ويزجون بأنفسهم في حرب أخرى باتساع سابقتها التي كانوا يشنونها طوال الوقت على البيلوبونيز.

لهذه الأسباب- الدمار الكبير الذي نجم عن احتلال ديسيليا وما تكبدوه من تكاليف باهظة - أصبح الأثينيون في وضع مالي حرج، ففرضوا على رعاياهم نحو ذلك الوقت ضريبة تبلغ خمسة بالمئة على كافة المستوردات والصادرات عن طريق البحر، اعتقاداً منهم بأن هذه الضريبة ستوفر لهم مزيداً من المال. ولم يعد الإنفاق كما كان من قبل، بل ازداد مع اتساع الحرب، بينما كانت العوائد تتقلص.

مع هذه المصاعب المالية الحالية، لم يرغب الأثينيون في أن يكلفوا أنفسهم مزيداً من النفقات، ولذلك ردوا التراقيين الذين تأخروا في الوصول للعمل مع ديموستينيس. وعينوا ديترفيس لقيادتهم في طريق العودة، وكلف بأن يستخدمهم عند مرورهم بأوريبوس في تدمير كل ما يمكن أن تطاله أيديهم من ممتلكات العدو أثناء رحلتهم البحرية بالقرب من الساحل. فنزل بهم أولاً في تناجرا وقاموا ببعض أعمال النهب في إغارة سريعة، ثم أبحر بهم عبر الأوريبوس في المساء من خالكيس في يوبوية، ثم أنزلهم في بويوطيا وهاجم ميكاليسوس. وأمضى الليل دون أن يكتشف أمره بالقرب من معبد هرمس، الذي يبعد نحو الميلين عن ميكاليسوس، وهاجم المدينة عند طلوع النهار، وهي ليست بالمدينة الكبيرة، فاستولى عليها. وقد أُخذ السكان على حين غرة؛ إذ لم يكونوا يتوقعون أن يأتي أحد من مكان بعيد ليهاجمهم عبر البحر. ثم إن سور البلد كان ضعيفاً فانهارت أجزاء منه، بينما كانت أجزاء أخرى منه لم تبلغ ارتفاعاً عالياً، والأبواب مفتوحة على مصراعيها؛ إذ لم يكن أهل البلد يخشون الهجوم عليهم من أحد. فاقتحم التراقيون ميكاليسوس وراحوا ينهبون البيوت والمعابد، ويعملون ذبحاً بالسكان دون تمييز بين صغير أو كبير، فكانوا يقتلون كل من يصادفونه في طريقهم من النساء والأطفال سواء بسواء، بل حتى حيوانات المزارع وكل ما هو حي وقعوا عليه؛ ذلك أن التراقيين شأنهم

شأن كل البرابرة المتعطشين للدماء يزدادون همجية حين تجري الأمور كما يشتهون. وهكذا دبت الفوضى والاضطراب من كل ناحية وسرى الموت بكل شكل وهيئة. وكان من جملة أفعالهم أنهم دخلوا مدرسة للصبية، وهي أكبر مدرسة هناك، والأطفال قد دخلوها لتوهم، فقتلوهم عن آخرهم. وهكذا حلت الكارثة فأصابت المدينة كلها، وكانت كارثة لا مثيل لها بتمامها، وقد داهمت القوم فكانت مفاجئة أكثر من أي إغارة أخرى وأشد ترويعاً.

وفي تلك الأثناء كان النبأ قد بلغ الطيبيين فهرعوا لنجدة ميكاليسوس، فأدركوا التراقيين قبل أن يمضوا بعيداً، فانتزعوا منهم ما نهبوه وراحوا يروعونهم ويثيرون الرعب في قلوبهم، ثم ردوهم إلى أوريبوس فالبحر، حيث كانت ترسو القوارب التي حملتهم. وقد قتل معظم من قتل من هؤلاء وهم يحاولون ركوب القوارب؛ إذ كانوا يجهلون السباحة. فلما رأى البحارة ما كان يجري على الشاطئ ابتعدوا بسفنهم وألقوا مراسيهم بعيداً عن مدى السهام المتطايرة، ولكن التراقيين أبلوا بلاء حسناً أثناء تراجعهم أمام الخيالة الطيبيين الذين هاجموهم أولاً، ثم أبدوا دفاعاً جيداً باستخدام الأساليب التي يأخذ بها بلدهم، أي بالهجوم في فصائل ثم التراجع. وكانت خسائرهم من الرجال في القتال قليلة، لكن عدداً كبيراً ممن تخلف منهم بسبب انشغاله بالنهب قتل في المدينة نفسها. وقد بلغ مجموع قتلى التراقيين نحو مئتين وخمسين رجلاً من أصل ألف وثلاثمئة هم مجموع القوة التي نزلت إلى اليابسة. أما قتلى الطيبيين والآخرين في قوة النجدة فقد بلغ عددهم العشرين من الخيالة والمشاة الثقيلة، ومنهم سكيرفونداس، وكان أحد قادة البويوط، بينما خسرت ميكاليسوس جزءاً لا بأس به من سكانها. لقد كانت مدينة صغيرة، لكن المصائب التي حلت بها في هذه النكبة كانت من الفظاعة ما يجعلها لا تختلف بخال عن المصائب التي وقعت في الحرب.

الفصل الثالث: ديموستينيس في الطريق إلى سيراكوزة، هزيمة الأثينيين في الميناء الكبير

تابع ديموستينيس طريقه كما رأينا، إلى كورسيرا بعد بناء الحصن في لاكونيا. ثم وجد سفينة راسية في فيا بايليس، وكان المشاة الثقيلة الكورنث يعتزمون ركوبها إلى صقيلية. فقضى عليها، إلا أن رجالها أفلتوا منه وأخذوا فيما بعد سفينة أخرى ليبحروا بها. وبعد هذا وصل إلى زاكينثوس وسيفالينيا وحمل معه عدداً من المشاة الثقيلة وأرسل في طلب المزيد من الميسينيين في نوبكتوس، ثم مضى إلى بر أكارنانيا قبالتها، فأليزيا وأناكتوريوم، التي كان الأثينيون يحتلونها. وبينما كان في تلك البقعة التقى يوريميدون الذي كان يبحر عائداً من صقيلية، التي كان قد أرسل إليها – كما سبق القول- أثناء الشتاء حاملاً المال للجيش. فأخبره هذا في جملة ما أخبره أنه سمع أثناء رحلته بأن السيراكوز قد استولوا على بليميريوم. وكان كونون قائد القوات في نوبكتوس قد انضم إليهما وأخبرهما أن السفن الكورنثية الخمس والعشرين المرابطة قبالته لم تبد ما ينم عن تخليها عن مسلكها العدواني، بل إنها كانت في الواقع تعتزم فرض المعركة بتحرشاتها. وبناء على ذلك طلب منهما إمداده ببعض السفن لعدم كفاية السفن الثماني عشرة الموجودة لديه للتعامل مع السفن الخمس والعشرين المعادية. فأرسل ديموستينيس ويوريميدون مع كونون عشراً من أسرع السفن لتنضم إلى المجموعة المرابطة عند نوبكتوس. والتفت القائدان بعد ذلك إلى توحيد صفوف قواتهما. وأبحر يوريميدون إلى كورسيرا وأمر بتزويد خمس عشرة سفينة بالرجال، وكان قد رجع، طبعاً، مع ديموستينيس وأصبح يشاركه مهام القيادة التي كانت قد أوكلت إليه، بينما أخذ ديموستينيس يجند رماة المقاليع والرماح القصيرة من المنطقة الأكارنانية.

وفي تلك الأثناء كان موفدو سيراكوزة يزورون مختلف المدن كما سبق القول، بعيد

الاستيلاء على بليميريوم، وقد فازوا بقبول حسن وباتوا الآن على وشك العودة ومعهم ما توفر لهم من الجند. إلا أن أمرهم بلغ نيسياس فأرسل إلى السنتوريباي والأليساي وغيرهما من قبائل الصيقيل وهم حلفاؤه ولهم السيطرة على الطريق، وطلب منهم منع التعزيزات القادمة من المرور، وأن يعملوا معاً ويسدوا الطريق أمامهم، نظراً لعدم وجود طريق آخر يستطيعون حتى محاولة سلوكه؛ إذ أن الأجريجنتيين لا يمكن أن يسمحوا لهم بالمرور عبر أراضيهم. فامتثل الصيقيل لطلب الأثينيين، وأثناء سير قوات المدن الصقلية، نصبوا كميناً بثلاث وحدات من قواتهم وأطبقوا على العدو في لحظة غفلة، فقتلوا منهم نحو الثمانمئة، ومن بينهم الموفدون إلا واحداً. وكان هذا كورنثياً فقاد الناجين، وعددهم ألف وخمسمئة، إلى سيراكوزة.

نحو ذلك الوقت وصل الكامرينيون ومعهم تعزيزات إلى سيراكوزة، وهم خمسمئة من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من رماة الرماح القصيرة وثلاثمئة من رماة السهام. كذلك قدم الجيلوان طواقم لخمس سفن وأربعمئة من رماة الرماح القصيرة ومئتي خيال. وقد باتت صقيلية كلها متحدة الآن، عدا أجريجينتوم التي كانت تلتزم الحياد، وانضم الجميع إلى سيراكوزة ضد الأثينيين، عوضاً عن الوقوف ومراقبة تطور الأمور، كما كانوا يفعلون من قبل.

وكان السيراكوز قد تخلوا عن فكرة مباشرة الهجوم على الأثينيين، بعد الكارثة التي حلت بهم في أرض الصيقيل. وفي تلك الأثناء كانت قوات ديموستينيس ويوريميدون من كورسيرا والبر الرئيسي قد أصبحت جاهزة، فعبرا الخليج الأيوني بكامل قوات الحملة إلى منطقة لسان إيبجيا. وبعد أن انطلقت الحملة من هناك أنزلا القوات في الجزر الإيبيجية المعروفة بالخويراديس وحملا معهما مئة وخمسين من رماة الرماح القصيرة الإيبجيين من قبيلة الميسابيان. وجددا مواثيق الصداقة القديمة مع الحاكم المحلي أرتاس الذي وفر لهما رماة الرماح القصيرة، ثم تابعا الرحلة حتى ميتابونتوم بإيطاليا. حيث

حملا القوم على تزويد الحملة بثلاثمئة من رماة الرماح القصيرة وسفينتين ثلاثية المجاذيف، استناداً لما يقتضيه التحالف بينهم وبين أثينا. وبهذا الرفد الذي نالته قواتهما أبحرا على امتداد الساحل إلى ثيوري، حيث وجدا البلد في ثورة والحزب المناهض لأثينا مطارداً. ولما كان يبغيان جمع كل القوات المتوفرة لهما لاستعراضها والتحقق من أنهما لم يهملا أو يسهوا عن أي أمر، وكانا في نفس الوقت حريصين على إقناع الثيوريين بالانضمام إلى حملتهما بأقصى ما يمكن من الرضى وطيب الخاطر، واستغلال الوضع الراهن في إقامة تحالف هجومي دفاعي مع أثينا - مكثا في ثيوري وأشغلا نفسيهما في وضع هذه الترتيبات.

ونحو هذا الوقت تقريباً اتخذ البيلوبونيز وسفنهم الخمس والعشرون مواقعهم مقابل المجموعة الأثينية في نوبكتوس لحماية قوافل السفن التجارية المتوجهة إلى صقيلية، واستعدوا للمعركة وجاؤوا ببعض السفن إضافة إلى ما لديهم ليقللوا من الفارق بين أسطولهم وأسطول الأثينيين. وكان مرساهم عند إرينوس في آخاية في أرض الرايباي، أما المشاة الذين جاؤوا من كورنثة والحلفاء الآخرين المؤازرين في المنطقة، فقد جرى صفهم على امتداد الرؤوس الناتئة من البر على شكل هلال، بينما تولت السفن المتوضعة في المساحة بين القطع البحرية سد الطريق إلى الداخل. وكان قائد الأسطول بوليانثيس الكورنثي.

وأبحر الأثينيون من نوبكتوس للاشتباك مع هذا الأسطول في ثلاث وثلاثين سفينة، بقيادة ديفيلوس. ولقد التزم الكورنث الهدوء فلم يأتوا بحركة بادئ الأمر، ثم حين اعتقدوا أن الوقت حان للتحرك أعلنوا الإشارة وتقدموا نحو الأثينيين. وظل الطرفان فترة طويلة على ثباتهما لا يتزحزح أحدهما أمام الآخر قيد أنملة. وكانت خسارة الكورنث ثلاث سفن، أما الأثينيون فقد أعطبت لهم سبع سفن، وإن لم تغرق لهم سفينة واحدة في تلك الاشتباكات؛ وكان العطب الذي أصاب السفن نتيجة المناطحة بعضها مع بعض

واصطدام سفن المقدمة بالسفن الثلاثية المجاذيف الكورنثية التي كانت أعرض من ناحية الجانبين، وكان بناؤها على هذا الشكل خصيصاً لمثل هذا الغرض. وإذن فقد كان من العسير تحديد لأي من الطرفين كانت الغلبة، فيمكن لكل منهما ادعاء النصر، مع أن الأثينيين استولوا على السفن المحطمة؛ لأن الريح رمت بها إلى عرض البحر ولم يبد الكورنث نزوعاً للخروج من مواقعهم والقتال من أجلها. وهكذا انفك الاشتباك ولم تليه مطاردة ولم يقع أي من الطرفين في أسر الطرف الآخر. وكان مرد ذلك أن الكورنث والبيلوبونيز كانوا يقاتلون قريباً من اليابسة ولذلك كان من السهل عليهم الهرب، كما لم يغرق للجانب الأثيني أي سفينة. ولقد أبحر الأثينيون بعدها وعادوا أدراجهم إلى نوبكتوس، فأقام الكورنث فوراً نصباً، ادعاء منهم بالنصر، وأنهم فازوا به بإعطابهم عدداً من السفن أكبر مما تحقق للأثينيين، وقد اعتبروا أنهم لم يهزموا في المعركة لنفس السبب الذي جعل الأثينيين لا يدعون النصر؛ ذلك أن الكورنث كانوا يعتبرون أنفسهم منتصرين إن لم يهزموا تماماً، والأثينيون يعتبرون أنفسهم خاسرين، إن لم يتحقق لهم الفوز بسهولة. بيد أن الأثينيين أقاموا نصباً في آخاية بدعوى النصر أيضاً، بعد أن رحل البيلوبونيز وجرى تفكيك قوات المشاة. وقد رفع هذا النصب على بعد ميلين من أرينوس، حيث كانت ترسو سفن البيلوبونيز. وهكذا كانت نهاية العراك في البحر.

ولقد غدا أهالي ثيوري الآن في وضع يحتم عليهم الانضمام إلى قوات ديموستينيس ويوريميدون فكان أن شاركوا بوحدات من سبعمئة من المشاة الثقيلة وثلاثمئة من رماة الرماح القصيرة، وعندئذ أمر القائدان الأسطول بالإبحار على طول الساحل إلى ناحية كروتونا، بينما قاما بتفقد الجيش عند نهر سيباريس. ثم قادا الجيش عبر أراضي ثيوري فلما بلغا نهر هيلياس أرسل لهما أهالي كروتونا وأخبروهما بأنهم لن يسمحوا للجيش بدخول أرضهم. ولذلك نزل الأثينيون وأقاموا معسكرهم على الشاطئ عند نهر هيلياس حيث كان الأسطول في انتظارهم. وفي اليوم التالي ركبوا السفن مبحرين، وقد نزلوا في

كل المدن، عدا لوكري، حتى بلغوا بيترا في منطقة ريجيوم.

وفي تلك الأثناء كانت الأنباء قد بلغت السيراكوز باقتراب الأثينيين فغدوا مشتاقين للقيام بهجوم في البحر وهجوم آخر بما لديهم من القوات في البر. وكانوا قد أتوا بهذه القوة خصيصاً لمهاجمتهم قبل وصول التعزيزات الأثينية. وقد أحدثوا تغييرات مختلفة في تجهيزات أسطولهم التي قدروا – بناء على خبرتهم المستفادة من المعركة السابقة– أنها ستوفر لهم بعض المميزات. وكان من ذلك، على الأخص، تقليص طول مقدمة السفينة ليصبح أشد متانة، وتدعيم جانبي السفينة بالرجام [الخشبة البارزة من السفينة وتعلق عليها المرساة؛ وقد تكون من المعدن]، ومن الرجام أخرجوا عوارض خشبية تمتد عبر طرفي السفينة بطول تسع أقدام تقريباً وتبرز إلى الخارج بذات الطول. وكانوا في ذلك يتبعون طريقة الكورنث الذين قاموا بتدعيم مقدمة السفينة قبل الاشتباك مع الأثينيين عند نوبكتوس. وقد اعتقد السيراكوز أنهم يحققون بهذه الطريقة ميزة على السفن الأثينية التي كانت تتسم بالخفة عند المقدمة، ولم تكن مصممة مثل سفن السيراكوز؛ لأن تكتيكات الأثينيين تعتمد على تفادي الهجوم الجبهي المباشر، بل الدوران والمناورة ثم صدم العدو في وسط السفينة. وبما أن المعركة ستدور في المرفأ الكبير، حيث السفن كثيرة والمساحة صغيرة، فإن هذا سيكون في صالح السيراكوز؛ إذ هنا سوف تصطدم مقدمة السفينة بمقدمة الأخرى وذات المنقار القوي سوف تضرب السفن الأضعف فتتحطم مقدمة سفن العدو الهشة والضعيفة. وفي المساحة الصغيرة لن يكون بوسع الأثينيين الاستفادة من مهارتهم في المناورة التي يعولون عليها، كما أنها مصدر شعورهم بالثقة. فلا مجال هنا للالتفاف والتحويم والتراجع؛ لأن السيراكوز سيبذلون أقصى ما لديهم لمنع الأثينيين من محاولة المناورة. والواقع أن أسلوب الهجوم الجبهي المباشر الذي كان يعتبر في الماضي دلالة على افتقار القبطان للمهارة أصبح الآن الأسلوب المعتمد الذي سيأخذ به السيراكوز لما يوفره من مزايا عظيمة. ولن يكون أمام الأثينيين عندئذ

سوى التراجع بإتجاه الشاطئ، ولمسافة قصيرة وإلى جزء محدود منه - أي الجزء المقابل لمعسكرهم. أما بقية المرفأ فستكون السيطرة فيه للسيراكوز. وإذا عاد الأثينيون فسوف يجدون أنفسهم محشورين في المساحة الصغيرة ذاتها فيصطدمون بعضهم ببعض وسط الفوضى والاضطراب. والواقع أن هذا ما أنزل أشد الضرر بالأثينيين في كافة معاركهم البحرية؛ إذ كانوا لا يملكون كل مساحة المرفأ، كما هو حال السيراكوز، ليفيدوا من مساحة يلجؤون إليها في مناورة التقدم والتراجع. أما الالتفاف والإبحار في عرض البحر حيث المياه الواسعة فمستحيل؛ لأن السيراكوز في موقع مناسب يمكنهم من الدخول إلى المرفأ والانطلاق منه إلى عرض البحر أو الارتداد باتجاه المياه الراكدة، ومما يزيد من صعوبة الوضع على الأثينيين وقوع بليميريوم في أيد معادية. ثم إن مدخل الميناء لم يكن بالعريض الذي يستفاد منه.

بعد وضع هذه المخططات لتلائم حالة السيراكوز من حيث المهارة والقوة، والذين أصبحوا الآن أكثر ثقة بالنفس بعد المعركة البحرية، باشروا بالهجوم على الأثينيين في البر والبحر معاً. فخرج جيليبوس بقواته من المدينة متقدماً على القوات الأخرى. واتخذوا مواقعهم عند السور الذي بناه الأثينيون في الجزء المواجه للمدينة. وفي تلك الأثناء تحركت القوات من أوليمبيوم، وكانت تضم المشاة والخيالة والقوات السيراكوزية الخفيفة، نحو السور من الطرف الآخر. وما إن تم هذا حتى خرجت سفن السيراكوز وحلفائهم فوراً للهجوم. ولقد اعتقد الأثينيون في بداية الأمر أن العدو سيقتصر في هجومه على البر وحسب، فلما رأوا السفن تبرز لهم فجأة وتحمل عليهم أيضاً، شاع بينهم قدر من الاضطراب؛ فاتخذ بعضهم مواقعهم عند الأسوار أو أمامها. كذلك خرجت بعض القوات الأخرى للتصدي للقوات الزاحفة، واندفعت أعداد كبيرة من الخيالة والرماة من أوليمبيوم والريف لمواجهتهم. وكان هناك آخرون يقومون على تشغيل السفن ويتخذون مواقعهم على امتداد الشاطئ لدعمهم. وما إن أصبحت السفن جاهزة

حتى خرجوا بخمس وسبعين سفينة لقتال العدو. وكان لدى السيراكوز نحو ثمانين سفينة.

ومضى معظم اليوم في شن الهجمات والانسحاب واختبار كل منهما قوة الآخر، دون أن يتمكن أي منهما من إنجاز ما يستحق الذكر، رغم أن السيراكوز أغرقوا سفينة أو اثنتين من سفن الأثينيين. وبعد ذلك توقفت العمليات وانسحبت القوات البرية في الوقت ذاته عن الأسوار.

وفي اليوم التالي التزم السيراكوز الهدوء ولم يأتوا بحركة أو ما يشير إلى ما سوف يقومون به. ولكن نيسياس، إذ لم يجد ثمة فائدة من الخيار بين الطرفين في المعركة البحرية وتوقع أن يقوم العدو بهجوم آخر، وجه القباطنة إلى إصلاح كافة السفن المعطوبة وتجهيزها، وأقام صفاً من الزوارق التجارية خارج الموانع المنصوبة أمام سفنهم لتكون كمرفأ مغلق. وكانت الزوارق التجارية قد وضعت على نحو يجعل ما بين السفينة والأخرى مسافة مئتي قدم، بحيث يمكن لأي سفينة أن تتراجع وتنسحب بسهولة عند الشدة، ثم تبحر من جديد وقتما تشاء. وقد أمضى الأثينيون طوال اليوم وحتى المساء في إنجاز هذه الترتيبات.

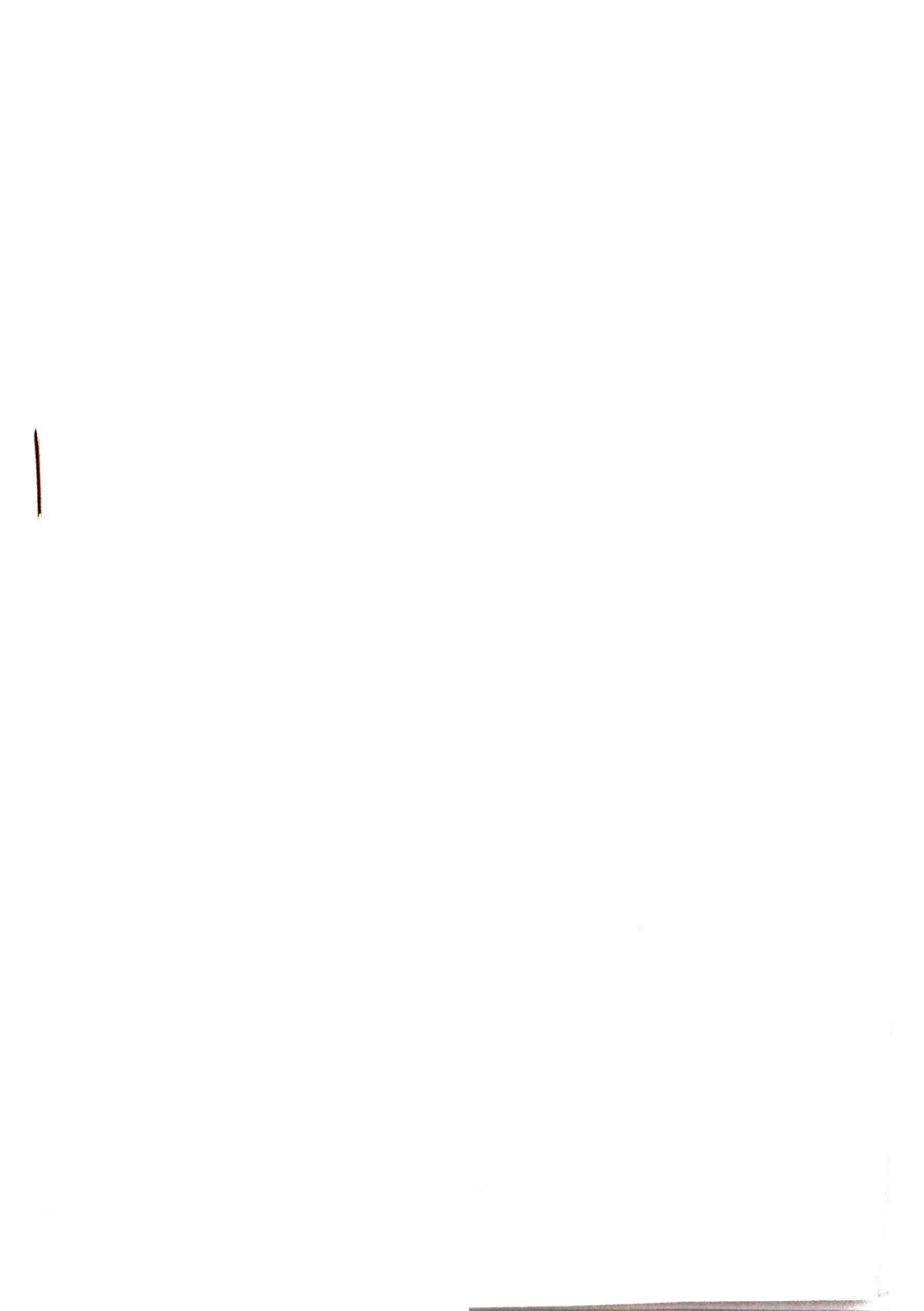
في اليوم التالي، في وقت أبكر من المعتاد، ولكن حسب الخطة المرسومة، خرج السيراكوز للاشتباك مع الأثينيين في البر والبحر. ولقد ثبت الأسطولان بعضهما أمام بعض وقضيا معظم اليوم بين هجوم وهجوم مضاد كسابق عهدهما. واستمر هذا الحال لكن أخيراً تمكن أريسطون بن بريكوس – وهو كورنثي وأفضل قائد دفة في أسطول السيراكوز– من إقناع قادة البحر بإرسال الأوامر إلى المسؤولين المعنيين في المدينة بنقل السوق إلى البحر بأسرع ما يمكن ، والزام البائعين بإحضار بضائعهم إلى السوق الجديدة وبيع ما لديهم هناك، وبذلك يمكنهم إنزال البحارة إلى الشاطئ فوراً، فيتناولون طعامهم بالقرب من سفنهم، ويرتاحون لفترة قصيرة، ثم يقومون بعد ذلك وفي اليوم ذاته،

بهجوم آخر مباغت على الأثينيين وهم لا يتوقعونه.

ولقد أخذ القادة بهذه النصيحة؛ فذهب موفد عنهم إلى المدينة وتم نقل السوق. وفجأة ارتدت سفن السيراكوز إلى الخلف واتجهت ناحية المدينة ثانية، ثم نزلوا من سفنهم فوراً وتناولوا طعامهم حيث توقفوا. أما الأثينيون فكان الانطباع لديهم أن السيراكوز قد عادوا أدراجهم إلى مدينتهم لاعتقادهم بأنهم دحروا في المعركة، ولذلك أخذ بحارتهم بالنزول متمهلين، وذهبوا للعناية بشؤونهم وإعداد الطعام، اعتقاداً منهم بأنهم لن يخوضوا قتالاً في ذلك اليوم. وإذ بالسيراكوز يركبون سفنهم فجأة ويخرجون بها للهجوم مرة ثانية. فراح الأثينيون يتدافعون ويتزاحمون في جو من الفوضى وسط هذا الاضطراب العظيم الذي ساد صفوفهم، ومعظمهم لم يكن قد تناول طعامه بعد، لكنهم استطاعوا بمشقة عظيمة الخروج للتصدي للعدو، ولقد ظل الطرفان يرصدان بعضهما بعضاً دون أن يبادر أحدهما بالهجوم على الآخر. وفي النهاية قرر الأثينيون بأن من الأفضل لهم دخول المعركة فوراً بدلاً من أن يجهدوا أنفسهم بالانتظار، وهكذا أخذوا بإطلاق صيحات الحماس واندفعوا للاصطدام بالعدو، وعندئذ بدأ القتال. ورد السيراكوز بالقتال وجهاً لوجه، كما كانوا قد عزموا، واستطاعوا بفضل مناقير مصممة خصيصاً لسفنهم أن يطيحوا بمجاذيف الأثينيين مسافة كبيرة، كما أن رماة الرماح القصيرة أنزلوا بالأثينيين من مواقعهم على ظهر السفن الكثير من الأذى، لكن الضرر الأكبر جاء من السيراكوز الذين كانوا يركبون قوارب صغيرة ويتسللون مبحرين تحت مجاذيف السفن الأثينية، ويستمرون في الإبحار بجانبها وهم يرمون بحارتها بأسلحتهم.

وكان النصر حليف السيراكوز في هذا القتال الصعب، وأما الأثينيون فقد استداروا وفروا بين السفن التجارية إلى مراسيهم. وظلت سفن السيراكوز تتابعهم حتى مواقع السفن التجارية؛ إذ منعهم من التقدم العوارض المسلحة "الدلافين" المدلاة من السفن التجارية التي قصد بها منع المرور بينها. وتم تدمير سفينتين من سفن السيراكوز كانتا قد

اقتربتا كثيراً في غمرة الحماس من سفن الأثينيين، فوقعت إحداهما في الأسر مع بحارتها. كذلك أغرقت سبع سفن أثينية وأُعطب الكثير منها. أما طواقم الملاحين فإن السيراكوز أخذوا معظمهم أسرى وقتلوا آخرين. ثم تراجع السيراكوز وأقاموا نصبين تخليداً لذكرى المعركتين البحريتين. لقد غمرهم الآن شعور بالثقة من امتلاكهم التفوق البحري الحاسم، واعتقدوا أنهم فوق ذلك قادرون على التعامل مع قوات العدو على اليابسة.



الفصل الرابع: وصول ديموستينيس، هزيمة الأثينيين عند ايبيبولاي، نيسياس يرفض الانسحاب

والآن، وبينما كان السيراكوز يستعدون لشن هجوم آخر في البر والبحر، وصل ديموستينيس ويوريميدون مع قوات مؤازرة من أثينا - نحو ثلاث وسبعين سفينة، بما فيها قوارب أجنبية وقرابة خمسة آلاف من المشاة الثقيلة من أثينا وحلفائها، وقوة كبيرة من رماة الرماح من هيلاس وخارجها، ورماة المقاليع ورماة السهام وكل ما يمكن أن يطلبه المحاربون. ولقد كانت لحظة مشهودة حين انتاب السيراكوز وحلفاءهم شعور حقيقي بالضيق؛ إذ بدا لهم أنه ما من موعد محدد لخلاصهم من الخطر، وكان مبعثه ما رأوه من قدوم جيش آخر بقدر ضخامة الجيش الذي أرسلته أثينا لأول مرة، وذلك بالرغم من تحصين ديسيليا، ولأن أثينا كانت تعبر عن عظمة قوتها في كل ناحية. أما فيما يتصل بالقوة الأثينية الأولى فإنها عانت العثرات، إلا أنها أخذت الآن تستعيد ثقتها بنفسها.

ولقد شهد ديموستينيس كيف تجري الأمور، ووجد أنه لن يطيق أن يجد الأمور تفلت من بين يديه ويرى نفسه في الوضع الذي خبره نيسياس؛ ذلك أن نيسياس بدا على قدر كبير من المهابة حين حل هنا أول الأمر، لكنه حين أمضى الشتاء في كاتانة بدلاً من الهجوم على سيراكوزة فوراً، جلب لنفسه الازدراء وأتاح لجيليبوس أن يتقدم عليه خطوة بأن أتى بجيش من البيلوبونيز. وما كان السيراكوز ليرسلوا حتى في طلبه لو أن نيسياس قام بالهجوم فوراً؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن بمقدورهم التعامل مع نيسياس وحين يصلون إلى إدراك مبلغ ضعفهم سيكونون محاصرين تماماً بالأسوار، بحيث إنهم وإن طلبوا الإمداد حينئذ فلن ينتفعوا به كثيراً. وإذ أخذ ديموستينيس هذا كله في الحسبان وأدرك أنه هو أيضاً أصبح الآن في أروع وضع في اليوم الأول لوصوله، أراد الإفادة فوراً من الرعب الذي أثاره جيشه في تلك اللحظة. ورأى أن السور المضاد الذي أقامه السيراكوز وحالوا

بوساطته دون إحكام الأثينيين الحصار عليهم كان مجرد سور واحد مفرد. فإذا استطاع المرء السيطرة على الطريق إلى إيبيبولاي ثم المعسكر الموجود هناك، كان بوسعه الاستيلاء بسهولة على هذا السور طالما أنه ما من أحد سوف يبقى هناك حتى من أجل المقاومة؛ ولذلك هب لتنفيذ هذه الخطة. ورأى أن هذه أسرع طريقة لوضع نهاية لهذه الحرب، فإما أن يفلح ويستولي على سيراكوزة، وإما أن يسحب قوات الحملة فلا يدع الأثينيين العاملين فيها أن يزهقوا أرواحهم أو تضيع ثروات البلد وطاقاته هباء.

وكان ما فعله الأثينيون بادئ ذي بدء أن خرجوا وأشاعوا الخراب والدمار في أراضي السيراكوز حول نهر الأنابوس. فقد أصبحوا يتمتعون الآن بما كانت تتمتع به قواتهم البرية والأسطول في البحر من تفوق في بداية الأمر، إذ لم يخرج السيراكوز لاعتراضهم، إن على اليابسة أو في البحر، إلا بالخيالة ورماة الرماح القصيرة من أوليمبيوم. ثم عزم ديموستينيس بعد ذلك على استخدام آلات الحصار في محاولة أولى للهجوم على السور المضاد. غير أنه لما حمل الآلات إلى الأعلى قام جنود العدو المدافعين عن السور بإشعال النيران فيها، ثم تمكنوا من إحباط كافة الهجمات التي قام بها بقية الجيش على نقاط مختلفة وردوهم. ورأى ديموستينيس بناء على ذلك أنه لا يستحسن الانتظار بعد هذا الوقت، وبعد أن حصل على موافقة نيسياس وزملائه القادة بدأ بتنفيذ خطته الأصلية بالهجوم على إيبيبولاي.

وبدا أنه من المستحيل التحرك في النهار وارتقاء التل دون ملاحظة العيون، فطلب توفير مؤونة لخمسة أيام واصطحب معه كل ما لديه من البنائين والنجارين وحمل معه كمية وافرة من السهام وكل ما يحتاجه لبناء التحصينات، إن حالفه النجاح في الوصول إلى رأس التل. وخرج عندئذ قاصداً إيبيبولاي والليل في منتصفه ومعه يوريميدون وميناندر والجيش كله، وبقي نيسياس عند التحصينات الأثينية.

ولقد وصلوا إلى إيبيبولاي عن طريق أوريلوس – وهو الدرب ذاته الذي كان الجيش

الأول قد سلكه في الصعود – وبلغوا حصن السيراكوز دون أن يلحظهم حراس العدو، واستولوا عليه وقتلوا بعض عناصر الحامية هناك. غير أن معظمهم تمكنوا من الهرب فوراً إلى معسكراتهم، وهي ثلاثة عند إيبيبولاي وتحيط بها تحصينات خارجية للدفاع عنها، وكل منها تختص به فئة؛ فأحد المعسكرات يختص به للسيراكوز، والثاني للصقليين والثالث للحلفاء. فلما لجأ إليها الحراس راحوا يخبرونهم عن الهجوم، كما أخبروا به ستمئة سيراكوزي كانوا المدافعين عن إيبيبولاي في الهجمة الأولى وخرجوا الآن فوراً للتصدي لهذا الهجوم. ولقد خدعهم ديموستينيس والأثينيون وهزموهم، رغم أنهم أبلوا أحسن بلاء وأبدوا شجاعة وإقداماً. ثم أخذ الأثينيون يشددون ضغطهم ويتقدمون إلى الأمام لئلا يفقدوا زخم هجومهم الراهن قبل أن يبلغوا أهدافهم. بينما كان آخرون قد احتلوا السور المضاد السيراكوزي منذ البدايات الأولى لهذا الهجوم؛ إذ لم تبد الحامية هناك مقاومة أمامهم، وراحوا يزيلون شُرَف الحصن. وهنا خرج السيراكوز وحلفاؤهم وجيليبوس وجنوده من التحصينات الخارجية وانضموا إلى المعركة، ولكن جرأة هذا الهجوم الذي تم ليلاً كان مفاجأة لهم غير متوقعة. ثم إن اندفاعهم افتقد التصميم اللازم مما اضطرهم للتراجع في بداية الأمر. فتقدم الأثينيون إلى الأمام، ولكنهم كانوا قد بدؤوا يفقدون الآن تماسكهم. واعتقدوا أن النصر بات لهم، فأرادوا أن يشقوا طريقهم بسرعة ويقطعوا الطريق على بقية جيش العدو الذي لم يكن قد زج به في المعركة بعد، لئلا تخف وطأة الهجوم ولا يكون للعدو فرصة لجمع صفوفه ثانية. وقد كان البويوط أول من تصدى لهم، فاندفعوا بالهجوم على الأثينيين واكتسحوهم واضطروهم للهرب.

ولقد أخذت فوضى عظيمة تدب في صفوف الأثينيين منذ تلك اللحظة، ولم يعودوا يدرون أين يلتفتون. والحق أنه من الصعب معرفة من أي من الطرفين كيف جرت الأمور حينذاك على وجه الدقة. ففي ضوء النهار كان بوسع من شاركوا في الأعمال الحربية تكوين فكرة أوضح عن الأسباب التي أدت إلى هذه الحال، وإن كانوا لا يستطيعون حتى

في ذلك الحين رؤية المشهد كله. والحق أنه ما من أحد من هؤلاء كان يعلم أكثر مما دار من حوله وخبر بنفسه. ولكن كيف بوسع أي كان أن يأتي بقول حاسم ودقيق حول ما جرى في المعركة في الليل؟ - وهي المعركة الوحيدة التي دارت بين جيشين كبيرين في هذه الحرب-. كان القمر مضيئاً، ولكن وضوح الرؤية لم يكن إلا بالقدر الذي يمكن للمرء أن يتوقعه في ضوء القمر. لقد كان بوسع الجنود أن يتبينوا معالم الأشكال التي أمامهم، ولكن لم يكن بوسعهم أن يتبينوا إن كانت هذه تنتمي إلى هذا الطرف أو ذاك. ثم إن كلا الطرفين كانت لديه أعداد غفيرة من المشاة الثقيلة وهم يتنقلون في مساحة ضيقة. وكان بعض الأثينيين قد هزموا وآخرون لم يهزموا، ودخلوا المعركة بكل حيويتهم ليهاجموا العدو. ثم كان هناك جزء كبير من بقية جيشهم قد انتهى لتوه من ارتقاء الهضبة أو مازال في طريقه يصعد إلى قمة المرتفع، فكانوا لا يدرون بأي اتجاه يكون زحفهم. وبعد أن تمت هزيمتهم أصبح كل شيء أمامهم فوضى عارمة الآن. أما الضجيج فلا يمكن تبين مصدره. وأخذ السيراكوز وحلفاؤهم يحيون بعضهم مهنئين بالنصر بصيحات مدوية - وهي الطريقة الوحيدة الممكنة للتخاطب في ظلام الليل الدامس- ويتصدون في الوقت ذاته للهجمات. وأخذ الأثينيون يحاولون اكتشاف بعضهم بعضاً باستقبال كل من يصادفونه كأعداء، مع أنهم قد يكونون منهم ويحاولون الهرب والعودة إلى صفوفهم من جديد. وباستمرارهم في سؤال من يصادفونه عن كلمة السر، وهي الطريقة الوحيدة للتعارف، أثاروا القدر الكبير من الفوضى فيما بينهم، فالجميع يسألون عنها، ويكشفون في الوقت ذاته كلمة السر هذه للعدو أيضاً. في حين أنه كان أمراً أشد صعوبة عليهم أن يكتشفوا كلمة السر بين السيراكوز الذين لم يكونوا يعانون ذات المشكلة في تعرف إلى بعضهم إلى بعض، فهم المنتصرون وقواتهم في تشكيل متماسك ومتراص. وكانت النتيجة أنه عندما يلتقي الأثينيون بكتيبة معادية أضعف منهم، يتمكن هؤلاء من النجاة لمعرفتهم كلمة السر، بينما يتعرض الأثينيون أنفسهم للقتل إذا

لم يعرفوا كلمة السر الصحيحة. ولقد تعرضوا لنفس الضرر أو أشد منه بسبب غنائهم لنشيد النصر، إذ كان الطرفان ينشدان النشيد بعبارات مماثلة تقريباً فلا يدري أحدهم إن كان الماثل أمامه صديقاً أم عدواً. فإذا أخذ الأرجوس والكورسير والعناصر الدورية الأخرى في الجيش ينشدون نشيد النصر الخاص بهم أثاروا بين الأثينيين الفزع ذاته الذي يثيره العدو، وهكذا ما إن سرى الاضطراب والالتباس حتى انتهى الأمر بأن أخذت قطاعات عديدة من الجيش تتقاتل فيما بينها، الصديق يهم بالصديق والمواطن بالمواطن فلا يقتصر الأمر على إثارة الذعر في صفوفهم، بل ويتحول إلى قتال قريب ولا يتم الفصل بين المتقاتلين إلا بصعوبة شديدة. وكان الطريق الوحيد للنزول من إيبيبولاي درباً ضيقاً، وقد أزهقت فيه أرواح كثيرة أثناء المطاردة، حين كان الرجال يرمون بأنفسهم من أعلى الصخور إلى المنحدرات السحيقة. أما الذين نزلوا من المرتفعات ووصلوا إلى السهل بأمان فإن معظمهم- وخاصة الجنود الذين شاركوا في الحملة الأولى- كانت لهم خبرة بالأرض أفضل من الآخرين، وقد تمكنوا من الهرب إلى المعسكر، إلا أنه كان هناك عدد من الذين وصلوا مؤخراً إلى تلك الأصقاع قد ضلوا طريقهم وضاعوا في أرجاء المنطقة. فلما كان النهار ذهب الخيالة السيراكوز في أثرهم ثم جمعوهم وعملوا فيهم قتلاً.

وفي اليوم التالي أقام السيراكوز نصبين: أحدهما على الطريق إلى إيبيبولاي، والثاني حيث وقف البويوط وقفتهم الأولى. أما الأثينيون فقد استعادوا جثث قتلاهم في هدنة. ولقد قتل في هذه المعركة الكثيرون، من الأثينيين والحلفاء معاً، وكانت كميات السلاح التي استولى عليها المنتصرون تزيد عن عدد القتلى، نظراً لتخلي أولئك الذين اضطروا للقفز من فوق الصخور عن تروسهم، وكان مقابل من قتلوا في المعركة آخرون تمكنوا من الهرب.

ولقد استعاد السيراكوز بعد هذه الموقعة، وبسبب مثل هذا الحظ غير المتوقع، كل ما كان لهم من الثقة بالنفس في الماضي. فأرسلوا سيكانوس ومعه خمس عشرة سفينة إلى

أكراجاس وكانت قد اشتعلت فيها ثورة ليرى إن كان بوسعه أن يكسب المدينة إلى صفهم. ومضى جيليبوس براً يجوب أطراف صقيلية الأخرى ليجند جيشاً آخر، وهو واثق من أن ثمة إمكانية لا بأس بها بكسر خطوط الأثينيين واختراقها، وكانت ثقته مبنية على الطريقة التي سارت عليها معركة إيبيبولاي.

وفي تلك الأثناء كان القادة الأثينيون يناقشون الموقف في ضوء الهزيمة التي نزلت بهم وما لاحظوه من ضعف عام يعانيه جيشهم. وأقروا بأن جهودهم في الجيش باءت بالفشل، ووجدوا أن الجنود ينفرون من فكرة استمرارهم في الحرب. وأن الكثيرين منهم يعانون المرض الذي مرده في بعضه إلى هذا الفصل الذي يشيع فيه المرض، في منطقة حافلة بالمستنقعات وأرض غير ملائمة للصحة في بعضه الآخر، كما أن المستقبل إجمالاً بدا لهم غير مبشر بالأمل. وعليه لم يستحسن ديموستينيس البقاء في تلك المنطقة بعد تلك الواقعة. ونظراً لفشل مغامرتهم في إيبيبولاي مما أدى إلى عدم تحقيق ما كان يريده من هذه المغامرة، دعا إلى الانسحاب وعدم تبديد الوقت في هذا البلد، في حين أنه مازال بامكانهم عبور البحر، ما دام بوسعهم ادعاء التفوق لأسطولهم، أو للسفن التي وصلت حديثاً على الأقل. وقال: إن من الأفضل لأثينا أن يقاتلوا من يبنون التحصينات في أتيكا من أن يقاتلوا السيراكوز، الذين لم يعد بالإمكان قهرهم بسهولة، علاوة على أنه من غير المعقول أن نستمر مرابطين أمام المدينة وننفق المبالغ الضخمة، دون أن نكسب شيئاً من وراء هذا الإنفاق.

كانت تلك نظرة ديموستينيس. أما نيسياس فكان مستعداً تمام الاستعداد للموافقة على الرأي القائل: إن أحوالهم تجري مجرى سيئاً، لكنه لم يكن يريد لضعفهم الإشهار أو ليبلغ العدو أن الأثينيين قد اجتمعوا جميعاً للتصويت على الانسحاب صراحة. والسبب في ذلك أنه سوف يشق عليهم الانسحاب سراً متى عزموا على القيام بهذه الخطوة، بالإضافة إلى أنه مازال لديه من مصادر معلوماته الخاصة ما يحمله على الأمل بأن

يتردى وضع العدو ويغدو أسوأ من حالهم، إن استمروا في حصارهم له. وقد ساقه الأمل إلى أن يتمكنوا من إنهاك السيراكوز بنقص المال، خاصة وأنهم باتوا يتمتعون الآن بفضل ما لديهم من سفن بسيطرة أوسع من ذي قبل على البحر. ثم أخذ يعول على وجود حزب في سيراكوزة يريد تسليم المدينة للأثينيين. وكان على اتصال دائم بنيسياس ويحثه على ألا يتخلى عن الحصار. وكان نيسياس يحيط بهذه الأوضاع. وإذا كان قد تردد في القرار فلأنه لم يستطع حزم أمره وظل يقلب الأمور على وجوهها؛ إذ كان قد رفض في الخطاب الذي ألقاه صراحة في هذه المناسبة الانسحاب بجيشه من مواقعه. وقد قال يومئذ: إنه واثق من أن الأثينيين لن يوافقوا على الانسحاب، ما لم يتم التصويت في أثينا ذاتها، أما هم فيستطيعون تبين حقائق الوضع بأنفسهم ويتوصلوا إلى القرار الذي لا يكون مبنياً على تقارير نقاد معادين، لكن هذا لا يصدق على من يملكون التصويت في أثينا الذين لا بد أن تتأثر أحكامهم بأي خطاب حاذق يراد منه إثارة الانحياز والتعصب. ثم قال، بعدإن الكثير من الجنود، بل معظم من هم في صقيلية، الذين يصرخون الآن بالشكوى من وضعهم البائس، سوف يبدلون مواقفهم حالما يبلغون أثينا، ليتهموا قادتهم بالرشوة والخيانة لدفعهم للعودة، وهم يأبون ذلك. ولكونه يعلم بطبيعة الأثيني فإنه يؤثر المجازفة ومواجهة الموت- إن لزم الأمر- على أيدي أعدائه، على أن يموت بتهمة مشينة وحكم ظالم من الأثينيين. ثم قال: إن السيراكوز بالرغم من كل أمر في وضع أسوأ من وضع الأثينيين. وآية ذلك أن إنفاقهم على المرتزقة وما دفعوه من أموال في بناء الحصون في السهول، وبأسطول كبير طوال عام، جعلهم يعانون شح في المال ولن يمضي وقت إلا ويصبحوا في وضع لا يدرون فيه إلى أين يلتفتون للحصول على المال اللازم. وقدر أنهم أنفقوا ألفي تالنت حتى الآن. وترتبت عليهم فوق ذلك ديون طائلة. فإذا عجزوا عن تدبير ما يلزم للإنفاق فإنهم سيسخرون جزءاً ولو صغيراً من قوتهم الراهنة، وسوف تسوء حالتهم عندئذ نظراً لاعتمادهم على المرتزقة عوضاً عن رجال ملزمين

بالخدمة كحال الأثينيين. وخلص إلى القول: إنه يجدر بهم والحالة هذه أن يلزموا مواقعهم ويتابعوا الحصار، وألا يرحلوا مهزومين بسبب المال، الذي لديهم منه كميات تفوق ما لدى السيراكوز بما لا يقاس.

ولقد تمسك نيسياس بهذه النقطة اعتماداً على ما لديه من معلومات دقيقة عن الأحوال السائدة في سيراكوزة. فكان يعلم أن السيراكوز في ضائقة وبينهم حزب يعتد بحجمه مؤيد للأثينيين وما انقطع يرسل إليه الرسائل ويحثه على أن يبقى على حصار المدينة. وعدا ذلك فإنه كان أكثر ثقة بالنصر في البحر على الأقل مما كان من قبل.

أما ديموستينيس فكان بالمقابل معارضاً كل المعارضة للاستمرار في الحصار. وقال: إذا كانوا لا يستطيعون الانسحاب بالجيش دون قرار من أثينا، وإذا اضطروا للبقاء في صقيلية، فإنه ينصح بالانتقال إلى ثابسوس أو كاتانة؛ ذلك أن أياً من هذين الموقعين يوفر للجيش إمكانية التحرك واجتياح رقعة كبيرة من الأرض، والتزود بالمؤن من نهب أرض العدو، وبذلك يتم إلحاق الأذى بالعدو. كما يمكن للأسطول في تلك الأثناء القتال في عرض البحر، وعوضاً عن الوجود في مساحة ضيقة، مما يعطي العدو ميزة عليهم يفيد منها، يصبح الأسطول قادراً على الحركة في مجال واسع رحب، وبذلك يستطيع رجاله الإفادة من مهاراتهم، فلا يضطرون لتنفيذ فنون الحرب البحرية – كلما تقدموا أو تراجعوا – في نطاق ضيق مزدحم. وأضاف أنه لا يملك بعد عرض الأسباب أن يوافق بحال من الأحوال على البقاء حيث يقفون، بل الأحرى بهم التحرك فوراً ودونما تأخير. وقد أيده في هذا الرأي يوريميدون. أما نيسياس فقد استمر في مناهضة هذه الفكرة، وبدأ يبرز في هذه القضية كلها تردد وانقسام في الرأي؛ فكان هناك تسويف وتردد، وفي الوقت ذاته اعتقاد بأن نيسياس ربما كان يعتمد في التشبث برأيه على مصادر خاصة للمعلومات. وهكذا أرجأ الأثينيون القرار واستمروا حيث كانوا.

الفصل الخامس: نصر آخر لسيراكوزة، القوى على الجانبين

كان جيليبوس وسيكانوس قد رجعا الآن إلى سيراكوزة. وقد فشل سيكانوس في أكراجاس، بعد طرد الحزب المؤيد لإسبارطة حين كان لا يزال في جيلا. أما جيليبوس فقد جاء ومعه جيش ضخم آخر قام بتأسيسه في صقيلية بالإضافة إلى المشاة الثقيلة الذين كانوا قد أتوا في الربيع من أرض البيلوبونيز في السفن التجارية التي قدمت إلى سيلينوس من ليبيا. وكانت أحوال الطقس السيء قد حملتهم إلى ليبيا وقدم لهم أهالي كيرينة سفينتين من السفن الثلاثية المجاذيف مع ربان لكل منهما. وفي أثناء رحلتهم على طول الساحل قدموا العون لليوسبيريتاي الذين كان الليبيون يحاصرونهم. ولما تم لهم دحر الليبيين، ركبوا على امتداد الساحل حتى بلغوا مستوطنة نيابوليس القرطاجية التجارية التي يمكن الوصول منها إلى صقيلية مباشرة، وتستغرق الرحلة يومين وليلة، وقد عبروا من هذه النقطة ووصلوا سيلينوس.

وما إن وصل هؤلاء حتى استعد السيراكوز لشن هجوم آخر على الأثينيين براً وبحراً. وقد رأى القادة الأثينيون أن العدو يعزز قواته الآن بجيش آخر، وأن موقفهم بات يزداد سوءاً مع مرور كل يوم ومن كافة النواحي، وكان يزداد صعوبة على الأخص بسبب المرض الذي يصيب الرجال، وذلك ما جعلهم يأسفون لعدم تحركهم في وقت أبكر، فأعطوا الأوامر بأقصى درجة ممكنة من السرية ليستعد الجميع للإقلاع مبحرين من معسكراتهم حالما تصدر الإشارة لهم، وذلك بعد ما كف حتى نيسياس عن مناهضة فكرة الانسحاب، واقتصر على معارضة طرح الموضوع للتصويت علناً. فلما تهيأت الأمور وأوشك الجميع على الإبحار حدث خسوف القمر، وكان القمر بدراً. ولقد أخذ معظم الأثينيون هذه الواقعة بمنتهى الجدية وذهبوا يلحون على قادتهم ليتمهلوا، وقال نيسياس الذي كان شديد الاهتمام بالنبوءات وما إلى ذلك: إنه لن يكون طرفاً في أي مداولات حول تنفيذ التحرك، ما لم يأخذوا بالانتظار المدة التي حددها العرافون وهي ثلاثة أمثال

تسعة الأيام. وهكذا استمر الأثينيون في مكانهم، وقد أخر الخسوف رحيلهم.

وكان السيراكوز قد بلغهم هذا النبأ فازدادوا تصميماً على ألا يرخوا قبضتهم عن الأثينيين، الذين أخذوا الآن يعترفون فيما بينهم بأنهم ما عادوا يتمتعون بالتفوق إن في البر أو في البحر، وإلا لما كانوا قد عزموا على الإبحار ووضعوا خطة للرحيل. وفي الوقت ذاته لم يكن السيراكوز يريدون أن يستقر الأثينيون في أي جزء آخر من صقيلية حيث يصعب الهجوم عليهم؛ بل كان هدفهم إكراه الأثينيين على القتال في البحر في أسرع وقت، وفي الوضع الذي تكون فيه الأفضلية إلى جانبهم. فزودوا سفنهم بالرجال وحملوا طواقمها على التدرب عدداً معيناً من الأيام. فلما حان الوقت شنوا هجوماً في اليوم الأول على أسوار الأثينيين. فخرجت إليهم قوة صغيرة من المشاة الثقيلة والخيالة من بعض أبواب التحصينات، وقطع السيراكوز الطريق على بعض المشاة الثقيلة وذهبوا يطاردونهم وردوهم على أعقابهم. وقد فقد الأثينيون في هذه الموقعة سبعين حصاناً وبضعة رجال من المشاة الثقيلة.

ولقد انسحب جيش السيراكوز وتراجع ذلك اليوم، ولكنهم خرجوا في اليوم التالي بست وسبعين سفينة وتقدموا بقواتهم البرية في الوقت ذاته نحو الأسوار. وخرج الأثينيون بست وثمانين سفينة فلما أصبحوا على مقربة منهم اندفعوا لمقاتلتهم وابتعد يوريميدون– وكان قائد الجناح الأيمن الأثيني– عن الحشد متجهاً نحو البر وغرضه تطويق العدو، لكن السيراكوز وحلفاءهم قاموا أولاً بكسر مركز قوات الأثينيين، ثم أدركوا يوريميدون في ذلك القسم من المرفأ حيث يوجد خليج ضيق؛ فقتل يوريميدون وقضي على السفن التي كانت برفقته. وانسحب الأسطول الأثيني بكامله وفرض على السفن النزول عند الشاطئ.

ولما رأى جيليبوس الهزيمة تنزل بأسطول العدو، ثم يدفع إلى الشاطئ وراء ملجئه من

الأوتاد والمعسكر، أخذ بعض جيشه وتقدم عند مكسر الماء للدعم، وهدفه القضاء على بحارة السفن عند نزولهم وليسهل على السيراكوز قطر السفن، لكون هذا الجزء من الشاطئ بأيديهم. وعلى الجانب الأثيني كان الأتروسكيون يرصدون هذه النقطة، فلما شاهدوا رجال جيليبوس يتقدمون في حال من الفوضى اتجهوا إليهم مهاجمين وهزموا طلائعهم ودفعوا بهم إلى سبخة ليسيميليا. ولكن سرعان ما ظهر السيراكوز وحلفاؤهم بقوة أكبر، فخشي الأثينيون على سفنهم فبرزوا للتصدي لهم، فكانت معركة تمكنوا فيها من ردهم على أعقابهم. ولقد تمكن الأثينيون من قتل بعض المشاة الثقيلة من السيراكوز وحلفائهم، كما أنقذوا معظم سفنهم وعادوا بها إلى ملاذ معسكرهم. ومع ذلك فقد استولى السيراكوز وحلفاؤهم على ثماني عشرة سفينة وقتلوا كل من كان على ظهرها من الرجال. ولقد حاول السيراكوز إشعال النيران في بقية السفن بأن عمدوا إلى حشو سفينة تجارية قديمة بحزم من الأخشاب وقطع من خشب الصنوبر وأشعلوا فيها النار وتركوها تجري مجراها مع الريح التي كانت تهب باتجاه الأثينيين. فعمد الأثينيون إلى إجراءات مضادة ليكفلوا السلامة لسفنهم بإطفاء الحرائق، فلما أخمدوا النيران ومنعوا السفن من الاقتراب منهم، نجوا من هذا الخطر الداهم.

فأقام السيراكوز بعد هذه الواقعة نصباً بمناسبة المعركة البحرية ومعركة السور حيث قضوا على المشاة الثقيلة واستولوا على الخيول. كذلك أقام الأثينيون نصباً تذكيراً بالقتال الذي دار حين طارد الأتروسكيين مشاة العدو إلى السبخة وفازوا بالنصر مع بقية الجيش.

وكان ذلك نصراً مؤزراً للسيراكوز لا شك فيه، وقد فازوا به في معركة بحرية. وكانوا يخشون حتى ذلك الحين من تلك التعزيزات البحرية التي حملها ديموستينيس معه. وكان الأثينيون قد بلغوا الآن حد القنوط، حتى إنهم كادوا لا يصدقون ما صادفهم، وتمنوا لو أن هذه الحملة لم تقم أصلاً. وكانت هذه هي المدينة الوحيدة التي اشتبكوا معها في القتال، والتي كان نمطها مماثلاً لهم، وديمقراطية مثلهم، وذات مواقع واسعة

وتتمتع بقوات بحرية وخيالة. وقد عجزوا عن التوسل بمناصرين لهم أو طرح إمكانية إحداث تغيير في شكل الحكم لفرض سلطانهم على تلك الدول، بل الحق أن معظم ما بذلوه من الجهود ذهب هباء، ولا هم استطاعوا الإفادة مما لهم من تفوق عظيم في القوة المادية، بل إن معظم جهودهم لم تأت لهم بنجاح. والواقع أنهم كانوا في حال من الارتباك فلا يدرون سبيلهم حتى قبل وقوع هذا، أما الآن فقد ذهبت هذه الهزيمة غير المتوقعة في البحر بعقولهم.

شرع السيراكوز بالإبحار بالقرب من المرفأ دونما خوف من هجوم وهم يعتزمون سد المدخل بحيث يمتنع على الأثينيين التسلل والهرب من بينهم، ولو شاؤوا ذلك؛ إذ إن المسألة لم تعد تعني عندهم مجرد النجاة بأنفسهم، بل أصبح مسعاهم الآن الحيلولة دون العدو والنجاة. وقد اعتقدوا – وهم على صواب تماماً في اعتقادهم – أنهم غدوا الآن في حال أقوى من العدو، وأدركوا أنهم وحلفاءهم سيحققون إنجازاً عظيماً، إن استطاعوا هزيمة الأثينيين في البر والبحر، وستطير شهرتهم وتعم هيلاس كلها. وإذا تم لهم ذلك تحرر الهيلينيون الآخرون فوراً أو تحرروا من مخاوفهم على الأقل؛ إذ لن يكون بوسع أثينا أن تصمد في الحرب التي ستشن عندئذ ضدها بما تبقى لها من القوة، وسيكون الفضل في ذلك للسيراكوز، وسينالون أعظم التكريم في الوقت الحالي وللأجيال اللاحقة أيضاً. ولقد كانت هناك أسباب أخرى أيضاً جعلت هذا الصراع مجيداً، منها: أن نصر السيراكوز لن يقتصر على دحر الأثينيين وحدهم بل وحلفائهم الكثيرين أيضاً؛ ثم إن السيراكوز لن يقفوا وحدهم في هذاالصراع، بل سيكون حلفاؤهم معهم أيضاً، كذلك ستكون لهم القيادة بصحبة الكورنث والإسبارطيين، بعدما جعلوا مدينتهم في واجهة الخطر، وكانوا المهندسين الرئيسيين للنصر في البحر وأصحابه.

وإنه لأمر لا شك فيه أن مجموع القوى المشاركة في هذه الحرب بقيادة أثينا وإسبارطة كانت أكبر مما لديهم، ولولاهم لما اجتمع مثل هذا الحشد أمام مدينة واحدة. ودونكم

الدول التي اجتمعت على الجانبين، مع صقيلية وعليها، وجاءت إلى سيراكوزة وقاتلت على أرضها لتؤازر في غزو الجزيرة أو الدفاع عنها. ولقد اجتمعت هذه الدول ليس بدافع من أي مبدأ أخلاقي أو لصلة دم، وإنما بسبب ائتلاف المصالح واختلافها أو لنزوع فرض نفسه حسب الحالة. فالأثينيون الأيونيون خرجوا لقتال السيراكوز الدوريين بمحض إرادتهم، وخرج معهم بعض المستعمرين منهم الذين كانوا مازالوا ينطقون بلغتهم ويأخذون بذات القوانين التي يأخذ بها الأثينيون - وهؤلاء هم اللمنيان والأمبريان والايجنتان - أي القوم الذين كانوا يحتلون إيجينا يومذاك- والهيستيان وكانوا يقيمون في هيستيايا في يوبوية، ومن بقية القوى التي شاركت في الحملة رعايا الأثينيين، كما كان منهم من انضم إلى الحملة بصفة حلفاء مستقلين، ومرتزقة أيضاً. أما الرعايا الذين يدفعون الإتاوة فهم الأقوام اليوبوية من إيرتريا وخالكيس وستيريا وكاريستوس، والأقوام التي تسكن جزر كيوس وأندروس وتينوس، ومن أيونيا أهالي ملطية، وساموس وخيوس. وأهالي خيوس لا يدفعون إتاوة إنما يقدمون بدلاً منها السفن وقد جاؤوا كحلفاء مستقلين. وكان هؤلاء جميعاً أيونيين، إلا الكارستيان فكانوا من عشيرة الدرويوبيس ومن نسل الأثينيين. ولقد كان هؤلاء رعايا وقد فرضت عليهم المشاركة، إلا أنهم ظلوا أيونيين يقاتلون دوريين. وكان هناك بعدُ قوم من الأيوليين هم الميثيمنيون، وهم رعايا قدموا سفناً عوضاً عن الإتاوة، والتنديان والإنيان، وكانوا من فئة دافعي الإتاوة. وقد فرض على هؤلاء الأيوليين قتال أيوليين من بني جلدتهم ومؤسسين لمستوطناتهم، وهم البويوط الذين كانوا إلى جانب السيراكوز. وكان البلاطيون وحدهم من قاتل البويوط، مع أنهم ينتمون إليهم، إنما كان قتالهم لسبب وجيه هو العداء الذي كان قائماً بينهما. وكان القومان اللذان يسكنان رودس وسيثيرا من الدوريين أيضاً. وكان السيثيريان مستوطنين قدموا من إسبارطة وقاتلوا إلى جانب الأثينيين ضد جيليبوس والإسبارطيين. أما الروديون فكانوا ينتمون إلى الأرجوس من ناحية العنصر، واضطروا لمحاربة السيراكوز

الدوريين ومستوطنيهم الجيلوان الذين كانوا يقاتلون في صف السيراكوز. أما أهالي الجزر حول البيلوبونيز، وهم السيفالينيون والزاكنثيون، فإنهم انضموا إلى الحملة بصفتهم من الدول المستقلة، وإن كان موقعهم – من حيث أنهم من أهل الجزر – لا يدع لهم مجالاً كبيراً للخيار، وأثينا هي المسيطرة على البحار. ولم يكن الكورسير من الدوريين وحسب بل إنهم في الواقع كورنث، وقد انضموا إلى الحملة في قتال الكورنث والسيراكوز صراحة، مع أنهم كانوا مستوطنين كورنث ويتصلون بالسيراكوز من ناحية العنصر. وكان بوسعهم تبرير موقفهم بالزعم أنهم حملوا على سلوك هذا الطريق، إلا أنهم كانوا يتصرفون بكامل إرادتهم في حقيقة الأمر، ويحملهم على ذلك كراهيتهم لكورنثة. كذلك فإن الميسينيين– كما يعرفون الآن– من نوبكتوس وبيلوس، وكانت في ذلك الوقت محتلة من الأثينيين – قد فرض عليهم دخول الحرب. وكان هناك بعدُ بعض المنفيين من ميجارا، وقد وجدوا أنفسهم الآن يقاتلون ميجاريين من أبناء جلدتهم من أهالي سيلينوس. أما بقية جند الحملة فكانوا قد انضموا إلى صفوف الحملة بصورة أقرب إلى التطوع. فالأرجوس الدوريون حاربوا دوريين آخرين إلى جانب الأثينيين الأيونيين لا بسبب الحلف بقدر ما كان بسبب كراهيتهم للإسبارطيين وأملهم بجني مكاسب سريعة. كما اعتاد المانتينيون والمرتزقة الآخرون من أركاديا قتال أي عدو يشار إليه في حينه أنه كذلك. ولما كانوا يقاتلون الآن لقاء أجر فإن ذلك جعلهم يعتبرون الأركاد العاملين في خدمة الكورنث كالأعداء الآخرين. وكان من الجنود المأجورين الكريتيون والآيتوليون، حتى إن الكريتيين الذين انضموا إلى أهالي رودس في تأسيس جيلا، أخذوا في قتال مستوطنتهم مأجورين ومتطوعين معاً، بدلاً من الدفاع عنها. وكان في الخدمة الأكارنان أيضاً، وقد أتى بعضهم لقاء أجر، إلا أن معظمهم قاتل إلى جانب ديموستينيس بدافع من الصداقة ومشاعر الود حيال حلفائهم الأثينيين. وكان هؤلاء يعيشون جميعاً على الطرف الهيليني من الخليج الأيوني. أما المدن الإغريقية في إيطاليا والتي انضمت

إلى الحملة فكانت مدن الثيوريان والميتابونتيان، وقد اضطروا إلى ذلك بسبب وضع الثورة الذي أدركهم. أما المدن الإغريقية في صقيلية فهي مدن أهالي ناكسوس وكاتانة. أما الذين كانوا لا ينطقون الإغريقية فهم الإيجيست الذين طالبوا بتدخل أثينا، ومعظم الصيقيل. أما خارج صقيلية فهم الأتروسكان الذين حملهم على القتال بغضهم لسيراكوزة، وبعض المرتزقة الايبيجيين، وكان هؤلاء جميعاً في صف الأثينيين.

وكانت على الجانب الآخر الدول التالية التي أتت لمؤازرة سيراكوزة، ومنهم أهالي كامرينا المجاورة، وجيلا التي تليها، ثم ندع أكراجاس التي لم تشارك في الحرب، ونصل إلى أهالي سيلينوس الذين يعيشون في أقصى الجزيرة. وجميع هذه المدن قائمة في الجانب المقابل لليبيا من صقيلية. أما أهل هيميرة فأتوا من الجانب المقابل للبحر التيراني، وهم الهيلينيون الوحيدون في تلك المنطقة، والشعب الوحيد الذي جاء من هناك لعون سيراكوزة. وهؤلاء الذين تقدم ذكرهم هم الأقوام الهيلينية في صقيلية الذين حالفوا سيراكوزة، وجميعهم دوريون مستقلون. وكان بعض الصيقيل من بين الأقوام غير الهيلينية الذين لم ينحازوا إلى الأثينيين. وكان من الهيلينيين خارج صقيلية الإسبارطيون، وهم الذين قدموا من بينهم ضابطاً من الجيش النظامي ليتولى منصب القائد، وجيشاً من العتقاء والرقيق. والكورنث الذين شاركوا بقوات برية وأسطول أيضاً، والليوكاد والامبراس الذين انضموا بسبب صلة الدم بينهم وبين الكورنث، والمرتزقة من أركاديا ممن استخدمهم الكورنث؛ وهناك عدد من المجندين من سيكيون، ومن خارج البيلوبونيز البويوط. غير أن الصقيليين الذين يعيشون في المدن الكبرى، قدموا - بالمقارنة مع هذه الأفواج الوافدة من الخارج، وعلى نفقتهم الخاصة - القسم الأعظم من الأسلحة من مختلف الصنوف. وضمت الحملة بعدُ عدداً كبيراً من المشاة الثقيلة والسفن والخيول وما يكاد لا يحصى من العمالة البشرية للأغراض الأخرى. ولعل بوسع المرء أن يقول : إن السيراكوز زادت مساهمتهم على النصف مما قدمه الآخرون مجتمعين،

بسبب من حجم مدينتهم ، ولأنهم كانوا الأكثرين عرضة للخطر.

تلكم هي القوى التي زجت في المعمعة إلى هذا الجانب أو ذاك. وهنا كانوا جميعهم حاضرين، كل في صفه، وبعد هذا انقطع المدد لأي منهما.

الفصل السادس: التحضير للمعركة النهائية في البحر، نصر حاسم للسيراكوز

اجتمعت الأسباب الآن لتحمل السيراكوز وحلفاءهم على الاعتقاد بأن من المناسب أسر كل القوة الأثينية الضخمة دون أن يفلت منها أحد سواء عن طريق البر أو البحر، بعد تلك الموقعة البحرية. وهكذا بدؤوا فوراً بإغلاق مدخل المرفأ الكبير الذي يبلغ عرضه نحو ميلين بخط من السفن الثلاثية المجاذيف مصطفة عرضاً فضلاً عن السفن التجارية وغير ذلك من الزوارق. كذلك قاموا بكل استعداداتهم الأخرى تحسباً من مغامرة الأثينيين بخوض معركة أخرى في البحر. والواقع أن استعداداتهم شملت كل ناحية فلم يهملوا جانباً واحداً من المعركة لتكون معركة واسعة النطاق.

ولما رأى الأثينيون المرفأ مغلقاً وأدركوا ما أعده العدو لهم، دعوا إلى مجلس حرب للتداول فيما ينبغي عمله. فكان أن اجتمع قادة الجيش وكبار أعوانهم الضباط وأخذوا يناقشون الصعوبات التي تحيط بموقفهم، ومن أبرزها نفاد مؤونتهم. فالافتراض بأنهم كانوا على وشك ركوب البحر فوراً حملهم على إرسال رسول إلى كاتانة يطلبون إليها التوقف عن إرسال المؤن، وقد رجح لديهم الآن أنهم لن يحصلوا على شيء منها مستقبلاً إلا إذا توفر لهم تفوق في البحر. فكان قرارهم التخلي عن الأسوار العليا وبناء سور معاكس قريب من السفن يضم أصغر مساحة ممكنة وتكون كافية لتضم العنابر والمرضى، واستخدام بقية الجيش – بعد ترك فصيل للخفارة – في تعبئة كل سفينة لديهم، سواء كانت صالحة للبحر أم غير صالحة، ثم وضع الجميع على ظهر السفن، وحسم المعركة في البحر. فإذا قدر لهم النصر تابعوا طريقهم إلى كاتانة، وإلا أحرقوا السفن ثم تابعوا الزحف براً في تشكيل قتالي حتى يبلغوا أقرب بلد صديق، هيلينياً كان أم أجنبياً.

ولما حزموا أمرهم واعتمدوا هذه الخطة ذهبوا لوضعها موضع التنفيذ فوراً. فنزلوا عن الأسوار العليا وجهزوا كل سفينة لديهم بما تحتاج إليه من الرجال، وفرضوا الخدمة على ظهرها على كل من بلغ السن المناسبة. وقد بلغ مجموع هذه السفن مئة وعشراً، ووضعوا على متنها عدداً كبيراً من رماة السهام والرماح القصيرة من أكارنانيا وسواهم من الكتائب الأجنبية الأخرى، باذلين في الواقع كل ما في طاقتهم ضمن الحدود التي تفرضها الضرورة وطبيعة الخطة. فلما اكتملت الاستعدادات، دعا نيسياس الجنود جميعاً، وقد وجدهم ناقمين ومحبطين بسبب الهزيمة الشاملة والمفاجئة التي نزلت بهم في البحر، ونقص المؤن، ويريدون حسم المعركة مع العدو بأسرع ما أمكن، فبدأ حديثه ببعض كلمات التشجيع، ثم تابع قائلاً:

"يا جند الأثينيين والحلفاء، إن الكفاح الذي ينتظرنا يعنينا جميعاً، ولسوف يقاتل كل فرد منا – كذلك العدو أيضاً– في سبيل حياته وبلده؛ لأنه إذا ما قدر لنا كسب هذه المعركة بسفننا، فإن كل فرد سيتمكن من أن يرى مدينته مرة أخرى، متى قدر له ذلك. ولكن ليس علينا أن نقنط أو نسلك مسلك الأغرار الذين لا تجربة لهم، فيصابون بالذعر إن خسروا المعارك الأولى، ويتلبسهم الجزع مدى الحياة فيحسبون أن أمورهم ستنتهي دوماً على هذا النحو. إن الأمر على العكس من ذلك، وعليكم أنتم، أيها الأثينيون أن تتذكروا – وقد خبرتم العديد من الحروب، وأنتم أيها الحلفاء الذين كنتم تحاربون على الدوام إلى جانبنا – أن في الحرب عنصراً ينأى عن التنبؤ، وعليكم أن تعدوا للاشتباك في المعركة من جديد لتقاتلوا قتالاً جديراً بجيشكم العظيم هذا الذي بوسعكم أن تروه بأم أعينكم، آملين أن يكون الحظ حليفنا أيضاً.

"ولقد تباحثنا هذه المرة مع الملاحين الذين يتولون قيادة الدفة، ووفرنا حسب إمكاناتنا كل ما من شأنه في اعتقادنا أن يساعدنا في الحملة على سفن العدو، الذي يجب أن نتوقع الاصطدام به في المرفأ الضيق، وعلى ما لديه من قوات تقف على أسطح السفن،

وهذان الأمران هما السبب في أكثر ما أصابنا من الضرر. ولسوف يكون لدينا أعداد كبيرة من الرماة بالسهام والرماح القصيرة وحشد من الرجال الذين ما كنا لنحتاج إليهم لو كنا نخوض معركة في عرض البحر؛ لأن زيادة وزن السفن سوف يحول دون الإفادة من مهارتنا التي نتفوق بها؛ ولكننا سوف نجد فائدة في كل هذا؛ لأننا مضطرون لخوض حرب بحرية بأساليب الحرب البرية. كذلك اكتشفنا أموراً ذات شأن، فقمنا بتعديل تصميم سفننا، ولكي نتغلب على غلظ هيكل سفن العدو، وهو الأمر الذي كانت له الوطأة الأشد علينا. سوف يكون لدينا كلابات حديدية لتمنع السفينة المعادية من التراجع مرة أخرى، ما دام جنودنا يؤدون عملهم على ظهر سفينتهم على الوجه الكامل، حين يندفعون نحوها. ذلك أننا كنا قد اضطررنا للقتال من سفننا بأسلوب الحرب البرية. ونحن في البحر. فيبدو لنا أن أفضل ما يمكننا عمله هو ألا نتراجع وألا نسمح للعدو أيضاً بالتراجع، خاصة وأن الشاطئ كله أرض معادية، ماعدا القسم الذي تحتله قواتنا.

"تذكروا هذا، واستبسلوا في قتالكم حتى أقصى حدود قوتكم. حذار من أن تُكرهوا على التراجع إلى الشاطئ. أما إذا التقت السفينتان فاجهدوا ألا توقفوا الاشتباك حتى تكونوا قد أخليتم سطح سفن العدو من المشاة الثقيلة. ولست أقصد في هذه الكلمة مخاطبة البحارة بقدر ما قصدت المشاة الثقيلة؛ فهذه مهمة الرجال الذين يرابطون على السطح. وإننا ما زلنا نتمتع بالتفوق في معظم النواحي بفضل مشاتنا. وأما البحارة فإني أنصحهم، بل أرجوهم وأتضرع إليهم ألا تنال أحداث الماضي من عزائمهم؛ فيصيبهم القنوط أو تفتر عزيمتهم. فلتقدروا المتع والمباهج التي نعمتم بها وحرصتم عليها طوال الوقت بأن أخذتم بلغتنا واتبعتم نهجنا في الحياة حتى غدوتم في عيون هيلاس كلها أثينيين، مع أنكم لستم بأثينيين، كما بتم موضع إعجاب فصار لكم نصيبكم الكامل من كل خيرات إمبراطوريتنا، في حين أن الاحترام الذي نعمتم به من رعايانا وتحرركم من العسف فاق ما أسهمتم به. وتلكم أمور جليلة جديرة بالعناية والتقدير من جانبكم.

وهكذا يجدر بكم وقد اختصصناكم بالشراكة في إمبراطوريتنا ألا تغدروا بنا الآن. إنه حري بكم أن تتعالوا على الكورنث الذين طالما كنتم المتغلبين عليهم، وكذلك ينبغي أن يكون حالكم مع الصقيليين الذين ما كان ليراود خيال أي منهم بأن يتحدانا حين كانت بحريتنا في ذروة القوة، وإنه لواجب عليكم أن تطردوهم من أمامكم وتبرهنوا على أن مهارتكم تزيد على نصيب أي كائن أو طرف حالياً ومستقبلاً، حتى وسط المرض أو المحنة أوالكارثة.

"أما الأثينيون منكم فعلي أن أذكركم من جديد: إنكم ما عدتم تملكون مثل تلك السفن التي غادرتموها في أحواضكم ،وليس لديكم احتياطي من الرجال يصلحون للقتال كمشاة ثقيلة، وإذ ما قدر لهذه المعركة أن تنتهي بما هو أقل من النصر المؤزر لكم، فاعلموا أن أعداءنا سوف يوجهون أشرعتهم نحو أثينا، ولن يكون بوسع من بقي من أهلنا هناك أن يقاوموا جموع القوى التي تقاتلهم هناك الآن وقوة الغزو التي ستتوجه إليهم من هنا. وهكذا فبينما ستجدون أنفسكم تحت رحمة السيراكوز – وأنتم تعلمون جيداً ما كنتم تعتزمون معاملتهم به حينما قمتم بالهجوم عليهم – سيكون مواطنيكم تحت رحمة الإسبارطيين. ولما كان قدركم وقدرهم محكوماً بما ستؤول إليه نتيجة هذه المعركة وحدها، فهذه هي لحظة الثبات وليتذكر كل واحد منكم وكلكم معاً، أن من سيصعد منكم ظهر السفن هم جنود وبحارة الأثينيين، والدولة الباقية بأكملها، واسم أثينا المبجل. وإذا كان ثمة من يملك شجاعة أو مهارة تفوق ما لدى الآخر في هذه القضية، فهذا هو الوقت ليظهرها في اللحظة التي يمتلك فيها القدرة على السيطرة على مصيره وإنقاذنا جميعاً."

وبعد أن أنهى نيسياس هذا الخطاب أمر بتجهيز السفن بالرجال. وكان واضحاً لجيليبوس والسيراكوز مما شاهدوه من الاستعدادات الفعلية القائمة على قدم وساق أن الأثينيين عازمون على القتال في البحر. وكانوا قد علموا بنيتهم باستخدام الخطافات

الحديدية. ولذلك حرصوا على الاحتياط من هذا في جملة ما اتخذوه من الإجراءات الأخرى، بتغطية مقدمة السفن ومعظم الجزء الأعلى منها بمد جلود الحيوانات عليها، بحيث تنزلق عليها الخطافات إن ألقيت عليها فلا تتمكن منها. فلما تمت الاستعدادات أخذ جيليبوس يثير وكبار القادة حماس الجنود بمخاطبتهم على النحو التالي:

"أيها السيراكوز، أيها الحلفاء، إننا نعتقد أن معظمكم مدرك للشرف الذي نلناه والذي سنناله بعد في المعركة القادمة. ولولا ذلك لما سعيتم إليه بهذه الشجاعة. أما إذا كان منكم من لا يدرك هذا كما ينبغي له أن يدركه، فإننا سنعرضه له. فلقد جاء الأثينيون إلى هذا البلد قبل كل شيء ليستعبدوا صقيلية، فإذا وفقوا في هذا انتقلوا لاستعباد بلاد البيلوبونيز وهيلاس كلها. وكان لديهم حتى ذلك الحين أعظم إمبراطورية ملكها الهيلينيون ماضياً وحاضراً. ولقد كنتم أول من هبَّ وتصدى لأسطولهم الذي أتاح لهم هذا كله، ثم أنزلتم بهم الهزائم فيما خضتم من المعارك قبل الآن، وهناك سبب وجيه يحمل على الاعتقاد بأنكم ستلحقون بهم الهزيمة في هذه المعركة مرة أخرى. حين يعتقد قوم أنهم مبرزون في أمر ما ثم يكتشفون أنهم دون هذا الاعتقاد يصابون بالإحباط، وتتغير نظرتهم إلى أنفسهم فيصبحون أقل ثقة بالنفس مما لو أنهم لم يعتقدوا بأنفسهم التفوق في المقام الأول؛ ذلك أن فشلهم غير المتوقع في تحقيق طموحاتهم يؤدي إلى ميل للاستسلام حتى حين لا تبرره القوة المتوفرة لهم. وهذا ما نرجح أنه حال الأثينيين. أما نحن فإن الروح التي كانت لدينا أصلاً ومكنتنا من السعي وراء الخطر، وكنا ما نزال يومئذ أغراراً هي الآن أشد رسوخاً ومتانة. ولدينا فضلاً عن ذلك الاعتقاد بأننا بعدما هزمنا الأبطال، غدونا نحن الأبطال. وإذن فإن الأمل الذي يحمله كل منا قد تضاعف عما كان. وحين يزج المرء بنفسه في المعركة تكون الهمم كبيرة قدر العزائم.

"أما محاولاتهم لتقليد أسلحتنا فمعروفة لدينا من أساليبنا في القتال، ولدينا الوسائل المضادة لها. وحين يفكر المرء بما لديهم من المشاة الثقيلة الذين سيضعونهم على أسطح

السفن، وهذا مغاير لأسلوبهم المألوف، وكل رماة الرماح القصيرة - وكافة البحارة الأغرار تقريباً وضعوا على ظهر السفن، ومعهم الأكارنان والبقية الذين سوف لن يعرفوا كيف يمكنهم القيام بالرمي من وضع الجلوس - فيصعب على المرء أن يرى كيف يستطيعون أن يحولوا دون إضعاف كفاءة السفن وانتشار الفوضى بينهم وهم يتحركون على نحو لم يألفوه من قبل. ولكم أن توقنوا بأن مجرد تراكم أعداد السفن لن يأتيهم بطائل، إن كان منكم من أفزعه أن يتورط في خوض معركة مقابل عدد يفوق ما لدينا من السفن؛ ذلك أن كثرة السفن يعمل على إبطاء حركتها حين تتحرك في مساحة ضيقة ويفسد عليها تنفيذ المناورة اللازمة، ويجعلها ضعيفة الأداء خصوصاً أمام أساليب الهجوم التي اعتمدناها. أما بشأن حقيقة الموقف فعليكم أن تسمعوا ما نعتقد أنها معلومات موثوقة. فالواقع أن معاناتهم الشديدة بسبب وضعهم الراهن الذي لا يرجى معه أمل أوصلتهم إلى حالة من اليأس سوف تحملهم على المجازفة، اعتماداً منهم على الحظ أكثر من حسن التدبير، فإما أن يشقوا طريقهم عنوة ويتمكنوا من الإبحار والابتعاد عنا، أو يتراجعوا بعد المحاولة وينسحبوا براً؛ إذ أنهم يعلمون أن الأمور لن تزداد سوءاً عما هي عليه الآن.

"إذن فلنمض إلى المعركة، ولنواجه هؤلاء الرجال الذين هم ألد أعدائنا، وهم في حالة من الفوضى وقد خانهم الحظ، والغضب ملء قلوبنا. ولتكن قناعتنا أنه عدل كل العدل وحق كل الحق في التعامل مع العدو أن نشفي الغليل عند الرد على المعتدي، وأن نجد أعظم المتعة كما تذهب الحكمة الشائعة في الانتقام من عدو. أما أنهم ليسوا أعداء لنا وحسب، بل ألدهم أيضاً، فأمر يعرف كل واحد منكم أنه قول حق؛ فقد قدموا إلينا وهم يبيتون النية على استعباد بلدنا، ولو قدر لهم النجاح في مسعاهم لساموا الرجال أشد العذاب ، وأذاقوا أولادنا وأزواجنا مر العلقم، ولألحقوا بمدينتنا كلها أسوأ الصفات والنعوت. وإذن فليس ثمة عذر لرقة القلب أو للاعتقاد بأنه من الخير لو أنهم يغادرون

فنسلم من شر القتال. فهم لا بد راحلون في مطلق الأحوال، حتى ولو قُدِّر لهم النصر. ولكننا إنما نقاتل لقضية جديرة بالقتال؛ لأننا إن تحققت أمانينا، كما يحق لنا أن نتوقع، وأنزلنا العقاب اللازم بهؤلاء الرجال فإننا بذلك نقدم لصقيلية كلها الحرية التي ألفت التمتع بها، إنما على نحو أشد رسوخاً مما كان عهدها بها من قبل. والمجازفات التي قد نتكلفها هي الأندر بين المجازفات؛ إذ لن نخسر عند الفشل إلا القليل أما الفوائد في النجاح فليست بالضئيلة."

ولقد أخذ القادة السيراكوز وجيليبوس بإعداد سفنهم فوراً بعد هذا الخطاب الذي قُصد به إثارة حماس الجنود، وهم يرون الأثينيين يهيئون سفنهم استعداداً لمباشرة العمل. وعاد نيسياس، وقد ناله هذا الوضع بشيء من الذهول، مدركاً ما ينطوي عليه من مجازفة وخطر، وهو يفكر، كما يفعل الرجال في اللحظات التي تخيم فيها أزمة عظيمة لئلا يكون قد أهمل أمراً بعدما أنجز كل أمر وبقي هناك ما ينبغي قوله بعد أن قيل كل قول، فاستدعى إليه كافة قباطنة السفن الثلاثية المجاذيف، فرداً فرداً، مخاطباً كلاً منهم باسم أبيه واسمه وقبيلته. وراح يرجو أولئك الذين أصابوا شهرة واسعة واكتسبوا صيتاً مترامياً عظيماً ألا يذهبوا بسمعتهم وأجدادهم المشاهير ويضحوا بمآثر أسلافهم الآن. وأخذ يذكرهم ببلدهم البلد الأكثر حرية في العالم، وكيف نعم كل من عاش فيه بالحرية كما شاء العيش، ثم تطرق إلى أمور أخرى أيضاً ؛ أمور يتوقع من الرجال التحدث عنها حينما يشرفون على مواجهة حدث كبير ولا يجشمون أنفسهم العناء والإيحاء بتحاشي اللغة العادية المألوفة في الحديث، بل يعرضون كل أشكال المناشدة التي يستخدمونها عموماً في كل المناسبات، من توسل بالأزواج والأطفال وآلهة البلد. ويرفعون أصواتهم وهم ينطقون بهذه الأسماء اعتقاداً منهم – تحت تأثير رهبة اللحظة – أن في ذلك خيراً.

وهكذا بدت عبارات التشجيع هذه لنيسياس قاصرة عن بلوغ الهدف الذي رمى إليه وتكاد لا تزيد عن مألوف الكلام. ولما فرغ من الحديث مع هؤلاء القادة، عاد إلى موقعه

وسار بجنود المشاة إلى البحر، وقام بنشرهم على طول الشاطئ بقدر ما توفر له منهم، ليكونوا عندئذ مصدراً لاطمئنان الرجال القائمين على السفن. وخرج الآن قادة الأسطول وديموستينيس وميناندر ويوثيديموس من معسكرهم وأبحروا فوراً إلى ستار الموانع عند مدخل المرفأ والفتحة التي تركت فيه ليحاولوا شق طريقهم عبرها.

وكان السيراكوز وحلفاؤهم قد خرجوا بنفس العدد من السفن الذي كانوا خرجوا به من قبل. وقام قسم من أسطولهم بحراسة الطريق أثناء الخروج، بينما انتشر قسم منه في بقية أنحاء المرفأ ليهاجموا الأثينيين من كافة الاتجاهات في آن واحد. وكان المشاة على أهبة الاستعداد للعمل في كل النقاط على الشاطئ حيث يمكن للسفن أن ترسو. وكان قائدا أسطول السيراكوز هما سيكانوس وأجاثارخوس، وقد تولى كل منهما قيادة جناح من مجموع القوة، وفي الوسط بايثين والكورنث.

ولما وصل الأثينيون إلى منطقة الحواجز تمكنوا بفضل زخم هجومهم الأول من السيطرة على السفن الموجودة أمامها وحاولوا تهديم تلك العوائق. وبعد ذلك أطبق عليهم السيراكوز وحلفاؤهم من كل ناحية، وسرعان ما اندلع القتال وعم المرفأ كله. وكان ذاك قتالاً ضارياً ، بل أشد ضراوة مما شهدته المعارك السابقة. وبالنسبة للمجذفين على الجانبين فليس ثمة مجال للتهاون أو التلكؤ في عملهم لكي تدخل السفن ساحة القتال، حيثما كان قادتهم يوجهونهم، وقد احتدمت المنافسة بين موجهي الدفات، وكل منهم يحاول أن يبرز مهارته في المعارك الضخمة التي كانت تنشب بين السفن. وكان الجنود المرابطون على ظهر السفن يجهدون إذا التقت سفينة بأخرى ليكون ما يجري على السطح بمستوى ما يجري في المواقع الأخرى؛ فكان الجميع، بل كل فرد، في الواقع، يقوم بعمله، ويحاول أن يكون الأفضل بين الرجال. وأخذت السفن تتزاحم فيما بينها، وكل سفينة تحاول أن تجد لنفسها مكاناً في هذه الرقعة الضيقة الصغيرة – والحق أنه لم يصادف أن اجتمع مثل هذا الحشد الكبير من السفن في مثل هذه المساحة الضيقة من

نبل، إذ بلغ عدد السفن على الجانبين حوالي المئتين -، ولذا لم يقع الكثير من عمليات الاختراق وتحطيم وسط السفن. وكان السبب في ذلك عدم توفر المساحة اللازمة للمناورة من اندفاع إلى الأمام والتفاف، ولكن كثرت حوادث اصطدام السفن بعضها ببعض أو بالقوارب أثناء محاولات الهرب منها أو الهجوم عليها . وكلما حاولت إحدى السفن التغلب على سفينة أخرى فإن الرجال الذين على السطح لا ينقطعون عن قذف الرماح ورمي السهام أو إلقاء الحجارة على السفينة الأخرى. وإذا اصطدمت السفن بعضها ببعض أخذ الجنود بالقتال بأيديهم وكل منهم يحاول القفز إلى سطح السفينة الأخرى. وكانت السفن في كثير من الأحيان تخترق كل منهما الأخرى في آن واحد بسبب ضيق المساحة، كما كان كثيراً ما يصادف أن يزدحم المكان بالسفن؛ فيحمل ذلك أصحاب الدفة على التفكير في طرق للدفاع عن سفنهم والهجوم على السفن الأخرى في آن معاً. وعوضاً عن توجيه الانتباه إلى نقاط معينة كانوا يضطرون للاهتمام بالكثير من النواحي وفي كل الاتجاهات. ولم تكن الضجة العظيمة التي يحدثها تصادم السفن بعضها ببعض مثيرة للخوف في حد ذاته وحسب، بل وكانت تحول دون سماع الأوامر التي يصدرها عرفاء الملاحين. والحق أن الكثير من التعليمات كانت تصدر عن مختلف مراتب القيادة وسط صياح هؤلاء من طرف إلى آخر من السفينة، ومثل هذا الضجيج كان مألوفاً في سياق العمل العادي، وهو مألوف طبعاً في لحظات الانفعال الذي يرافق المعركة الراهنة. فكانوا يصيحون بالأثينيين أن يشقوا طريقهم عبر الممر واغتنام الفرصة إن أمكنهم والعودة إلى الوطن سالمين. أما النداءات التي كانت توجه إلى السيراكوز وحلفائهم فكانت لحثهم على الحصول على المجد بقطع الطريق على العدو ومنعه من الهرب ، والطلب من كل واحد منهم أن يشرف وطنه بالنصر المؤزر. وكان القادة من الطرفين على حد سواء، إذا وجدوا أي قبطان يتراجع دون سبب وجيه، صاحوا بأعلى الصوت منادين باسمه يسألونه إن كان هذا الانسحاب- في حال كان هذا أثينياً- سببه الرغبة في

الانتقال إلى اليابسة حيث الأعداء أكثر تفوقاً مما هم في البحر الذي بات لهم بعد عناء عظيم، مثل هذا القول كان يقال للسيراكوز، إن كانوا يهربون من العدو وهو نفسه هارب من المعركة، إذ كانوا يعلمون الشوق الأثينيين أنفسهم للهرب، إن أمكنهم ذلك.

وبينما كان أمر المعركة البحرية ما يزال غير محسوم كان الضيق يأخذ بالنفوس وصراع الإرادات على أشده بين الجيشين على الشاطئ، والسيراكوز على وشك تحقيق مجد أعظم مما تحقق لهم حتى الآن، والغزاة في خوف من أن يجدوا أنفسهم في وضع أسوأ مما هم فيه الآن. كان مصير الأثينيين يتوقف على أسطولهم، وكان خوفهم مما يحمله المستقبل عظيماً لم يخبروا مثله من قبل. وفي غضون ذلك وفيما المعركة تتأرجح كانت انطباعاتهم تنتقل بالضرورة تبعاً لتحولات المعركة وهم يرصدونها من موقعهم على الشاطئ. وكان المشهد قريباً منهم وتحت أنظارهم. ولما كانوا لا ينظرون جميعاً إلى نفس المشهد في اللحظة ذاتها، رأى بعضهم وهم ينظرون إلى نقطة معينة أن رجالهم ينتصرون، أثار ذلك المشهد في نفوسهم حماساً وأخذوا يتضرعون للآلهة ألا يحرموهم من الخلاص من هذه الشدة، بينما كان ثمة آخرون يرصدون ما يجري في ناحية أخرى فشاهدوا رجالهم يُهزمون، فراحوا يصرخون نادبين، ومعنوياتهم في أسوأ حال لمشاهدتهم ما يجري أكثر من الذين يقاتلون فعلاً. وكان هناك آخرون اتجهت أنظارهم إلى جانب من المعركة حيث ليس ثمة إمكانية للتمييز بين الطرفين. وبينما استمر القتال محتدماً دونما حسم، كانت أجسادهم تكشف وهي تترنح وتميل من طرف إلى آخر عما في عقول الجنود من خوف ورعب، وقد كانوا حقاً في أسوأ حال وهم في تأرجح دائم بين قرب السلامة وحافة الفناء حيناً بعد آخر. وهكذا كان بوسع المرء أن يسمع والمعركة لم تبلغ الحسم بعد أصواتاً من كل نوع تنبعث وتتداخل بعضها ببعض في آن واحد من هذا الجيش الأثيني وحده ؛ صيحات الحزن وصيحات الابتهاج، فهذه تقول: "النصر لنا" وتلك تقول: "إننا نخسر" ، وكل هتافات الاستغراب التي تصدر عن جيش عظيم

يواجه خطراً عظيماً. ومثل هذه المشاعر كان يعبر عنها الرجال على ظهر السفن، حتى استطاع السيراكوز وحلفاؤهم أخيراً، وبعد وقت طويل استغرقته المعركة لتبلغ نهايتها، تحطيم مقاومة الأثينيين، ثم أخذوا في مطاردتهم وهم يطلقون الصيحات والهتافات المدوية إلى أن تمكنوا من ردهم على نحو جلي وقاطع إلى اليابسة. فأصبحت الآن سفن الأسطول كله، ما عدا السفن التي وقعت في أيدي السيراكوز طافية على الماء، عند الشاطئ وموزعة هنا وهناك، وقد هجرها الرجال وفروا لاجئين إلى المعسكر. أما الجيش على البر فقد قطع عنده الشك باليقين، وغلب على رجاله أمر واحد، وهم يئنون ويصرخون والألم يعتصر قلوبهم، فنزل بعضهم ليساعد في أمر السفن، وقام آخرون بحراسة السور، فيما شرع بعضهم الآخر – وقد أصبح هؤلاء الآن الكثرة الغالبة– في التفكير بأنفسهم ومحاولة تدبر السبل للهرب والوصول إلى الأمان. والحق أن الذعر الذي أصابهم حينذاك يفوق كل ما خبروه في حياتهم كلها. وها هم الآن يتجرعون نفس الكأس التي أجبروا أعداءهم على تجرعها في بيلوس؛ فحين فقد الإسبارطيون سفنهم آنذاك فقدوا في الوقت ذاته الرجال الذين عبروا إلى الجزيرة. والآن لم يعد أمام الأثينيين أي أمل بالهروب عن طريق البر، إلا إذا وقعت معجزة ما.

الفصل السابع: القضاء على الحملة الأثينية

بعد هذا القتال الضاري الذي سقط فيه لكلا الجانبين الكثير من الرجال وفقدا الكثير من السفن، قام السيراكوز المنتصرون وحلفاؤهم بانتشال حطام السفن وحمل قتلاهم، ثم عادوا مبحرين إلى مدينتهم، وأقاموا نصب النصر. ولكن الأثينيين باتوا يرزحون الآن تحت وطأة الكارثة التي نزلت بهم حتى لم يخطر ببالهم أن يطلبوا السماح لهم بنقل قتلاهم أو انتشال حطام السفن، بل كل ما فكروا فيه هو الانسحاب فوراً وفي تلك الليلة ذاتها. ولقد مضى ديموستينيس واقترح على نيسياس تعبئة السفن التي هجروها بالرجال وبذل ما أمكنهم لشق طريقهم والخروج مع الفجر، وأشار إلى أنه مازال لديهم أكثر مما لدى العدو من السفن الصالحة للخدمة؛ إذ مازال لدى الأثينيين ستون سفينة تقريباً مقابل أقل من خمسين لدى خصومهم. فوافق نيسياس على هذا الاقتراح، ولكن حينما رغب القائدان بتجهيز السفن بالرجال وجدا البحارة يرفضون ركوبها، نتيجة الإحباط الذي أصابهم بسبب هزيمتهم حتى إنهم ما عادوا يعتبرون أن النصر ممكن بعد الآن. ولذلك فإن الأثينيين توصلوا الآن إلى القرار بالانسحاب براً. ولقد خامر هيرموكراتيس السيراكوزي بأن هذا ما سيسعى إليه الأثينيون، ورأى في ذلك خطراً عظيماً على سيراكوزة، إذا تمكن جيش على هذا القدر من الضخامة من الهرب ثم الاستقرار في بقعة من صقيلية واتخاذها قاعدة ينطلق منها لشن الحرب عليهم من جديد. ولذلك مضى إلى السلطات المسؤولة وأشار بضرورة عدم السماح للأثينيين بالهرب ليلاً، وقال: إنه يرى أن يخرج السيراكوز وحلفاؤهم من المدينة فوراً بكامل عدتهم وعتادهم ويقيموا العوائق على الطرق ويحتلوا الممرات ويقيموا عليها الحاميات. فرأى المسؤولون قوة حجته بوضوح وضرورة اتباع خطته، غير أنهم لم يروا أنه سيكون من السهولة بمكان حمل قومهم على إطاعة الأوامر؛ لأنهم كانوا قد بدأوا لتوهم بالاحتفال بالمناسبة وهم يستريحون الآن بعد النصر العظيم الذي أحرزوه في البحر، كما أنهم كانوا يقيمون في تلك الآونة احتفالاً –

إذ صادف أن كان ذلك اليوم هو موعد تقديم القرابين لهيركليس-. وكان معظمهم قد شرعوا في الواقع بشرب الخمر في الاحتفال تعبيراً عن شدة ابتهاجهم بالنصر، بحيث إنه كان من المستبعد جداً أن يحملوا السلاح في تلك اللحظة بالذات ليخوضوا القتال. وكان قرار الحكام آنذاك أنه من المستحيل بعد أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار وضع هذه الفكرة موضع التنفيذ. فلما وجد هيرموكراتيس أنه لن يستطيع المضي أبعد من هذا معهم، مضى لتنفيذ خطته الخاصة التالية. وكان ما يخشاه هو أن يسبقهم الأثينيون فيخرجوا في الليل، ويتجاوزوا أصعب ما في الدرب دون أن يعترضهم أحد؛ ولذلك ما إن أخذ الظلام يحل حتى أرسل بعض أصدقائه وثلة من الخيالة إلى معسكر الأثينيين. فلما بلغ هؤلاء مسافة يسمع فيها صوتهم نادوا بعض الجنود زاعمين أنهم من أصدقاء الأثينيين. والواقع أن هناك من كان يزود نيسياس بالأخبار وما يجري داخل المدينة. وطلبوا إليهم نقل رسالة إلى نيسياس بألا يخرج بالجيش في الليل؛ لأن السيراكوز يقومون بحراسة الطريق. وأشار هؤلاء بأن الأجدر به، عوضاً عن ذلك، الانسحاب وقتما يجد ذلك مناسباً، وبعد أن يكون قد أتم استعداداته على الوجه الأكمل اللازم في النهار. قال هؤلاء هذا ثم انصرفوا. أما من سمع تلك الرسالة فقد حملها إلى القادة الأثينيين الذين اعتقدوا بصحة ما بلغهم فأرجؤوا الانسحاب ليلاً.

أما الآن فإن القادة الأثينيين آثروا الانتظار إلى اليوم التالي أيضاً، بعد أن تأخر بهم الوقت أصلاً لبدء الانسحاب حتى بعد ورود النصيحة، وذلك ليتمكن الجنود من ترتيب لوازمهم على النحو المناسب، ثم شرعوا بالانسحاب، تاركين وراءهم كل ما لا ضرورة له، ولم يحملوا إلا ما كانوا يحتاجون إليه ولا يستغنون عنه في رحلتهم. وكان السيراكوز وجيليبوس قد سبقوا الأثينيين بالخروج على رأس قواتهم البرية، وأخذوا يقيمون الحواجز في دروب الريف حيث كان يرجح أن يسير الأثينيون، ثم أقاموا الحراس عند مخاضات الجداول والأنهار، وعملوا على تنظيم أنفسهم على النحو الذي يسمح لهم باعتراض

الجيش المنسحب وإيقافه حيثما شاؤوا. ثم ركبوا سفنهم وأبحروا إلى السفن الأثينية وقاموا بسحبها من الشاطئ. وكان الأثينيون قد أحرقوا بعض تلك السفن، حسب خطتهم الموضوعة. أما السفن الأخرى فقد عمد السيراكوز إلى قطرها كما يحلو لهم بعيداً عن المكان حيث وجدوها، وأبحروا بها دونما معارضة إلى مدينتهم. وحينما رأى نيسياس وديموستينيس أن استعداداتهما قد اكتملت، حان الوقت ليتحرك الجيش، وذلك بعد يومين من المعركة البحرية. وكان المشهد رهيباً، وقد أسهمت عوامل عديدة في إثارة الرهبة في نفسيهما في هذا الموقف؛ ذلك أنهما لم يكونا ينسحبان الآن بعد أن خسرا كل ما لديهما من سفن وحسب، بل وعوضاً عن الآمال العريضة التي كانا يحملانها أصبحا الآن ودولة أثينا أيضاً في خطر. وشاهدا عند مغادرة المعسكر مشاهد محزنة لكل عين، وخواطر مؤلمة ترد إلى كل عقل. وكانت الجثث متناثرة في الخلاء فإذا تعرف المرء جثة أحد الأصدقاء بينها امتلأت نفسه حزناً وأسى. وترك الأحياء من بينهم، مرضى كانوا أم جرحى أثارت فيه مشاعر الألم أكثر مما ثار في نفسه وهو يرى الموتى، وكانوا أدعى للأسى من المفقودين. وكان نواحهم وصلواتهم تثير في بقية الجند شعوراً بالعجز واليأس، وهم يرجون رفاقهم اصطحابهم معهم ويناشدون كل صديق أو قريب يصادفهم ويصرخون بأعلى الصوت يرجون المساعدة. وكانوا يرددون صرخاتهم ودعواتهم تلك وهم يتعلقون بأعناق من كانوا يشاركونهم الخيام ويسيرون معهم قدر ما يستطيعون وإذا خارت قواهم رددوا صرخاتهم، حتى تبلغ عنان السماء. وهكذا كانت مقل الجند تنبئ بدموع الحزن، وهم في حال من الضيق واضطراب الفكر حتى شق عليهم أن يفارقوا أرض أعدائهم في وقت سكبت فيه الدموع من شدة العذاب والألم، ومازال ينتظرهم المزيد في المستقبل المظلم أمامهم وذلك ما كانوا يخشونه. وكان يعتمل في النفوس، بعدُ شعور عارم بالعار وتقريع الذات. والواقع أنهم كانوا أشبه بقوم يفرون من مدينة استسلمت لتوها لمحاصريها، مدينة ليست بالصغيرة؛ إذ لم يكن هذا الحشد

الزاحف ليضم أقل من أربعين ألف جندي، وكل يحمل معه ما يلزمه. وكان المشاة الثقيلة والخيالة يحملون مؤنهم بأنفسهم وهم بكامل أسلحتهم، على عكس ما جرت عليه العادة؛ لأن بعضهم كانوا بدون خدم، ومن كان لديهم خدم لا يطمئنون إليهم؛ فللكثير من هؤلاء سوابق بالفرار، كما يفر الآن العديد ممن بقوا في عداد الجيش. ومع ذلك فإن ما حملوه معهم لم يكن بالمقادير الكافية، بعد ما خلا المعسكر من الطعام. وكان هناك بعد هذا كله الإذلال الذي ينطوي عليه الوضع والبلاء الذي عم الجميع. ورغم أن العبء يخف حين يشارك في حمله الآخرون، فإن هذا لن يجعل تحمل ذلك العبء أسهل آنذاك، خاصة حين يتذكرون الروعة والبهاء اللذين خرجوا بهما ثم يرون ما انتهى إليه الأمر من ضعة وحقارة. وكانت نفوسهم تحدثهم فلا يرون ثمة جيشاً هيلينياً آخر عانى من قبل مثل هذه النكسة. فلقد جاؤوا لاستعباد الآخرين، وإذا بهم ينسحبون الآن والخوف يملؤهم من أن يسترقوا هم ذاتهم. وكان بوسع المرء أن يسمع الآن- بدلاً من الصلوات وأناشيد النصر التي كانوا يصدحون بها- عبارات هي عكس ما كانت تلهج به ألسنتهم يومذاك، وتشي بالخوف من شر يتربص بهم في طريق عودتهم إلى مدنهم، وهم بحارة يسيرون في الطريق البرية ويعتمدون على المشاة الثقيلة بدلاً من السفن التي ألفوا ركوبها. ومع ذلك فقد بدا لهم كل هذا أمراً مقبولاً المقارنة بالخطر العظيم الذي مازال يخيم عليهم.

ولقد مضى نيسياس إلى الجنود، حين رأى الإحباط الذي أصاب الجيش وتلاشي آماله، وبذل لهم كل ما يستطيع لتشجيعهم وتهدئة خواطرهم، ثم أخذ صوته يعلو فيما هو يتنقل من صف إلى آخر، في سعيه لإعانة الجند على أمرهم وأمله بأن تبلغ كلماته القاصي والداني معاً:

"أيها الأثينيون، أيهاالحلفاء، يجب أن نتمسك بالأمل الآن حتى في هذه اللحظات. فلقد مررتم بصعاب أشد من هذه. فيجدر بكم ألا تبالغوا في لوم النفس لما مررنا به من

المحن في الماضي أو الآلام التي أصابتنا دونما ذنب. وإنني لا أتفوق في القوة الجسدية على أي واحد منكم – والواقع أنكم ترون ما فعل بي المرض–، ولا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يعتبر نفسه قد أصاب من الحظ مثلما نلت في حياتي الخاصة وسواها من جوانب الحياة، بيد أنني غارق الآن في لجة المخاطر شأني شأن أصغر جندي بيننا. ومع ذلك فلقد دأبت طوال حياتي على التعبد للآلهة كما ينبغي، وكنت في مسلكي تجاه البشر منصفاً لا يؤخذ علي ما يعيب. ولذلك أجدني أنظر إلى المستقبل بأمل قوي، لا تهزني هذه المصائب التي نزلت، كما يمكن لها أن تفعل بل لعل هذه المصائب قد انتهت. ولقد أصاب أعداؤنا حظاً حسناً، وإذا كان ثمة بين الآلهة من غضب وارتضى لنا السوء يوم خرجنا لهذا الأمر، فإننا نلنا ما يكفي من العقاب حتى الآن. وكانت هناك أقوام سابقة علينا وهاجمت جيرانها وبعد أن فعلوا ما يفعله البشر في مثل هذه الأحوال لم ينلهم من الضير أكثر مما يحتمله البشر. وإذن فإنه من الإنصاف أن نأمل الآن من الآلهة أن يكونوا أشد رأفة بنا؛ لأننا غدونا نستحق الآن منهم الشفقة أكثر من الغيرة. ثم انظروا إلى حالكم بعد وكم من المشاة الثقيلة الأشاوس يسيرون في صفوفكم. فلا تبالغوا في القلق – ولتعتبروا أنفسكم، أينما حللتم واستقر بكم المقام– مدينة، وليس هناك من مدينة في صقيلية تستطيع أن تصمد أمام هجومكم أو تزيحكم عن موقعكم. أما الزحف فعليكم أن تحرصوا على سلامته، وليكن هذا في خاطر كل رجل منكم – ليكن الموقع حيث يقاتل المرء، إن انتصر، بلداً له وحصناً. إننا لسوف نسرع الخطا، ولسوف تتواصل مسيرتنا ليلاً نهاراً؛ لأن مؤننا قليلة، وبالتالي فإننا متى بلغنا أرضاً صديقة لدى الصيقيل يمكننا أن نعتمد عليهم بسبب خوفهم من سيراكوزة، ولذلك تستطيعون أن تعتبروا أنفسكم في أمان واطمئنان. ولقد كنا قد بعثنا نسألهم لقاءنا، حاملين معهم المؤن. وصفوة القول، أيها الجنود: عليكم أن تعوا أن الشجاعة الآن قضية ضرورة؛ إذ ليس ثمة أرض قريبة يمكن لجبان أن يلجأ إليها، ثم إنكم إن استطعتم الهرب من العدو

الآن، فسوف ترون جميعاً المنازل التي تتوقون إليها، والأثينيون بينكم سوف يعيدون بناء عظمة أثينا من جديد بعد سقوطها. إن الرجال هم من يبنون المدينة، لا الأسوار أو السفن الخالية من الرجال."

وكان نيسياس يطوف بين صفوف الجنود وهو يتحدث، وإذا وجد صفاً متخلخلاً أو يفتقد للنظام رص صفوفهم بعضها إلى بعض حتى ينتظموا ووضع كلاً منهم في مكانه المناسب. وكان هذا ما فعله ديموستينيس مع قواته وقد تحدث إليهم بمثل هذا الحديث أيضاً. ثم زحف الجيش في تشكيل المربع المجوف، وكانت قوات نيسياس في المقدمة، وقوات ديموستينيس في المؤخرة، وكانت المشاة الثقيلة تشكل المجنبتين، وفي الوسط حمالو الأمتعة وجمع الجيش عموماً.

ولما بلغ هذا الحشد نقطة العبور عند نهر أنابوس وجدوا أمامهم جمعاً من السيراكوز والحلفاء يقومون على حراستها. فهزموا هؤلاء وسيطروا على المخاضة وتقدموا إلى الأمام، بينما الخيالة السيراكوز يهاجمون الجناحين والقوات الخفيفة يضايقونهم باستمرار بقذائفهم.ولقد تقدم الأثينيون مسافة أربعة أميال ونصف، ثم توقف زحفهم لقضاء الليل فوق أحد التلال. وفي اليوم التالي نهضوا للزحف مبكرين، فقطعوا نحو الميلين ثم نزلوا في أرض مستوية حيث أقاموا معسكرهم بقصد الحصول على الطعام من البيوت المسكونة في الجوار وحمل المياه منها؛ لأن أمامهم مسافة طويلة عليهم أن يقطعوها، فالطريق التي ينوون السير فيها شحيحة المياه. وأخذ السيراكوز، يقومون بتحصين الممر الذي عليهم اجتيازه. وفي تلك الأرض كان هناك تل شديد الانحدار وعلى كل من جانبيه واد صخري سحيق، وكان يسمى "تل الأكريان".

وفي اليوم التالي تقدم الأثينيون وتابعوا مسيرتهم، فداهمهم خيالة السيراكوز وحلفاؤهم ورماتهم بأعداد كبيرة من كلا الجانبين، وأخذوا يعرقلون مسيرتهم بموجات

من الرماح وهجمات الخيالة على أجنحتهم. وبعد قتال طويل عاد الأثينيون إلى معسكرهم ذاته. ولكن ذخيرتهم من المؤن قد نقصت عما كانت عليه، واستحال عليهم الآن الحصول على مؤن جديدة لاضطرارهم للزوم معسكرهم تفادياً للاشتباك مع خيالة العدو.

وفي الصباح الباكر انطلقوا إلى الأمام من جديد وشقوا طريقهم إلى التل المحصن. وهناك وجدوا مشاة العدو قد استعدوا للدفاع عن التحصينات وكونوا حشداً من التروس اصطف أصحابها في خطوط متتالية، نظراً لضيق المكان. فاندفع الأثينيون وهاجموا السور، فانهالت عليهم السهام والرماح كالمطر من التل، فكان من الأيسر على أولئك أن يتمكنوا من موقعهم العالي من إصابة هدفهم. ولما وجد الأثينيون أن من المستحيل عليهم اختراق تلك الصفوف تراجعوا وخلدوا إلى الراحة. كانت السماء ترعد بين الحين والآخر في ذلك الوقت وترسل بعض المطر، كما يحدث كثيراً مع اقتراب الخريف، وهذا ما زاد من وهن عزيمة الأثينيين؛ إذ وجدوا في تلك الأحداث إشارات تنبئ بفنائهم. وفيما كان الأثينيون يرتاحون، أرسل جيليبوس والسيراكوز قسماً من جيشهم ليشيدوا بعض التحصينات خلف الأثينيين على الطريق الذي ساروا عليه في تقدمهم، لكن الأثينيين عمدوا إلى توجيه بعض رجالهم ليقابلوا هذا التحرك وأفلحوا في ردهم على أعقابهم. ثم تراجعوا بعد ذلك ناحية السهل حيث أمضوا الليل هناك.

وفي اليوم التالي استأنف الأثينيون تحركهم من جديد فأحاط بهم السيراكوز من كل جانب وسقط منهم عدد كبير من الجرحى، وكان السيراكوز يفسحون الطريق للأثينيين كلما شنوا هجوماً، ثم يعاودون هجماتهم حالما يجدونهم قد تراجعوا. واهتم السيراكوز بأن يركزوا هجماتهم على المؤخرة، يحملهم على ذلك الأمل بأن يتمكنوا من القضاء على بعض الوحدات المنفصلة عن الجيش، فيؤدي ذلك إلى إشاعة الذعر في الجيش كله. ولقد صمد الأثينيون فترة طويلة وهم يقاتلون على هذا النحو، وأخيراً توقفوا في السهل

لينالوا قسطاً من الراحة بعد أن تقدموا مسافة نحو نصف الميل فتركهم السيراكوز وشأنهم وعادوا إلى معسكرهم.

ولقد كان نيسياس وديموستينيس قد قررا خلال الليل إشعال أكبر عدد ممكن من النيران لإنارة الدرب أمام جيشهم، وذلك بعدما شاهدا الوضع الرهيب الذي وصل إليه الجيش، إذ بات بحاجة لكل ما هو ضروري بالإضافة إلى إصابة أعداد منه في الهجمات العديدة التي شنها عليه العدو. وبدلاً من السير في الطريق الذي كانوا ينوون أن يسلكوه، فإن الطريق الذي يريدون السير فيه الآن يتجه نحو البحر، بعكس اتجاه القسم الذي كان السيراكوز يقومون على حراسته. وهذا الطريق الجديد يؤدي بالجيش إلى الطرف الثاني من صقيلية، نحو كامرينا وجيلا والمدن الهيلينة وغيرها في تلك المنطقة، بدلاً من أي يؤدي إلى كاتانة. وهكذا أوقدوا عدداً من المشاعل وأخذوا بالزحف ليلاً. وما وقع لهم كان أمراً تصادفه كل الجيوش، وأكثر ما تتعرض له الجيوش الكبرى. فكان لا بد من أن تنشأ المخاوف ومعها أسباب التوجس، خاصة حين يكون الزحف ليلاً، عبر أرض معادية والعدو غير بعيد عنهم. وهكذا كان الجيش الأثيني في حال من الاضطراب. ولقد ظلت الفرقة التي يقودها نيسياس، وهي في المقدمة، متماسكة وتتقدم على بقية القطعات مسافة طويلة، بينما فقدت قوات ديموستينيس الاتصال بعضها ببعض، وكانت تشكل أكثر من نصف مجموع الجيش كله وتابعت زحفها في حال من الفوضى. ومع ذلك فقد بلغت هذه القوات البحر مع طلوع الفجر، ثم اتخذت طريق هيلورينة وتابعت المسير ومقصدها الوصول إلى نهر كاسيباريس ومتابعة السير مع مجراه والتوغل في داخل المنطقة، آملاً بالالتقاء مع قوات الصيقيل التي كانوا قد أرسلوا في طلبها. فلما بلغوا النهر وجدوا عنده فصيلاً من السيراكوز يبنون سوراً وموانع لتسد عليهم الطريق عند نقطة العبور. فمضوا وشقوا طريقهم عنوة بين تلك القوة وعبروا النهر، وتابعوا الزحف حسب نصيحة المرشدين، حتى بلغوا نهراً آخر يدعى إرينوس.

وحين طلع النهار، ثارت ثائرة السيراكوز وحلفائهم، حين وجدوا أن الأثينيين قد تمكنوا في غضون ذلك من الإفلات، فاتهموا جيليبوس بتسهيل هربهم عمداً، فأخذوا يجدون في أثرهم، إذ لم يكن من العسير معرفة الطريق الذي اتخذه هؤلاء، حتى أدركوهم وقت تناول وجبة الغداء. وكانت القوات التي لحقوا بها هي القوات التي يقودها ديموستينيس، وقد تخلفت عن بقية الجيش؛ لأنها كانت تسير بصورة أبطأ من غيرها وبغير نظام، بسبب الاضطراب الذي وقع في الليل كما سبق القول. واندفع السيراكوز عندئذ إلى القتال فوراً، فشنوا عليهم الهجمات وأحاط بهم الخيالة من كل جانب، وكان ذلك يسيراً عليهم، نظراً لانفصالهم عن بقية الجيش، ثم أحكموا عليهم الطوق ولم يعد بوسعهم التحرك. وكانت قوات نيسياس تتقدمهم بنحو خمسة أميال أو ستة بسبب إسراعه، لاعتقاده بأن سلامة جنوده لا تكون بثباتهم والقتال على الأرض حيث يقفون، إلا إذا اضطرتهم الظروف إلى ذلك، وإنما بالتراجع بأسرع ما يمكن والقتال عند الضرورة وحسب. أما ديموستينيس فكان لا ينقطع يواجه المصاعب، نظراً لاستمرار العدو في الهجوم أولاً على قوات المؤخرة، وحين أدرك أن العدو يطارده، فإنه بدلاً من أن يتقدم إلى الأمام، عمد إلى تنظيم قواته في تشكيلات قتالية لخوض المعركة، ما أدى إلى تبديد الوقت في هذه العملية وإحكام الطوق حوله. وهنا أصبح والأثينيون معه في حال عظيمة من الفوضى، وهم جميعاً محاصرون في موقع يحيط بهم سور، وعلى كل جانب منه طريق وعدد من أشجار الزيتون، فوقعوا تحت وابل منهمر من القذائف التي تأتيهم من كل اتجاه. وكان السيراكوز قد أخذوا بهذا الأسلوب في الهجوم عوضاً عن أسلوب القتال القريب بالاشتباك بالأيدي، وقد آثروا هذا الأسلوب؛ لأن التورط في القتال القريب ضد قوم استبد بهم اليأس يفيد الأثينيين الآن أكثر مما يفيدهم. وفي الوقت ذاته، بدأ السيراكوز يجنبون أنفسهم الوقوع في الخطر قليلاً لئلا يبددوا حياتهم قبل لحظة النصر الذي أصبح الآن حقيقة مؤكدة، وكانوا يعتقدون فضلاً عن ذلك أنهم يستطيعون

كسر مقاومة الأثينيين بهذه الأساليب ويأخذونهم أسرى.

وكما هو الحال، فبعد أن أمضى السيراكوز اليوم بطوله في شن الهجمات على الأثينيين وحلفائهم بقذائفهم من كل جانب، وجدوا أن هؤلاء قد أصبحوا الآن منهكين ومثخنين بالجراح ويعانون الآلام. قام جيليبوس والسيراكوز وحلفاؤهم بتوجيه بيان إلى أهالي الجزر أولاً يعرضون الحرية لكل من ينتقل منهم إلى صفهم، فقامت بعض المدن بالاستجابة لهذه الدعوة. ثم جرى الاتفاق لاحقاً على شروط الاستسلام لكل القوات العاملة بإمرة ديموستينيس: كل من يلقي السلاح تحفظ له حياته ولا يتعرض للموت، إما بالقتل الفوري أو بالسجن أو بمنع ضرورات الحياة عنه. فلما تم الاتفاق استسلم الأثينيون وحلفاؤهم، وكانوا ستة آلاف رجل، وتخلوا جميعاً عما كان في حوزتهم من المال، ووضعوه كله في تجاويف التروس فملأ أربعة منها، ثم قاموا على الفور بنقلهم إلى المدينة. وفي اليوم ذاته بلغ نيسياس ورجاله نهر إرينوس، فعبروه، وتوقف الجيش على أرض مرتفعة هناك.

وفي اليوم التالي لحق السيراكوز بنيسياس وأخبروه باستسلام قوات ديموستينيس ودعوه للاقتداء بهم أيضاً. ولم يصدق نيسياس ذلك النبأ، فتم ترتيب هدنة ليرسل أحد الفرسان ليستطلع الأمر بنفسه. فلما مضى هذا وعاد بنبأ استسلام قوات ديموستينيس أرسل نيسياس إلى جيليبوس والسيراكوز موفداً يخبرهم باستعداده للاتفاق معهم باسم الأثينيين بأن يدفعوا للسيراكوز كل ما أنفقوه من المال في هذه الحرب، مقابل السماح لقواته بالانسحاب. وعرض أن يقدم لهم مواطنين أثينيين كرهائن لديهم حتى يتم تسديد المبلغ، فيقدم رجلاً مقابل كل تالنت. ولكن السيراكوز وجيليبوس قابلوا هذا العرض بالرفض. وعمدوا عندئذ إلى مهاجمة نيسياس وقواته ثم قاموا بتطويقهم وراحوا يمطرونهم بوابل من القذائف من كل جانب حتى المساء. وكان هؤلاء يعانون نقصاً في الأغذية وسواها من الضروريات، شأنهم في ذلك شأن الآخرين. ولكنهم كانوا قد عزموا

مع ذلك على الانتظار حتى هدأة الليل ليتابعوا عندئذ مسيرتهم. فلما أخذوا ينتضون أسلحتهم أدرك السيراكوز ما يدبرونه وانطلقوا ينشدون أنشودة النصر. فألقى الأثينيون أسلحتهم، بعدما أدركوا أن السيراكوز اكتشفوا ما كانوا يخططون له، غير أن ثلاثمئة من أولئك الأثينيين ظلوا متمسكين بأسلحتهم فخرجوا وشقوا طريقهم عبر الحرس وأسرعوا بالهرب تحت جناح الظلام.

فلما طلع النهار سار نيسياس بجيشه وراح السيراكوز وحلفاؤهم يضيقون عليهم كسابق عهدهم ويمطرونهم بالقذائف ويرمونهم بالرماح من كل جانب. فأسرع الأثينيون إلى نهر أسيناروس، وكان بعض السبب في ذلك شدة الهجمات عليهم من الخيالة وكتل القوات الأخرى، فضلاً عن اعتقادهم بأن أمورهم لن تسوء كثيراً إذا ما بلغوا النهر، وفي بعضه ما نالهم من الإرهاق وحاجتهم الماسة للماء. فلما بلغوا النهر هرعوا إليه وبذلك انتهى كل النظام والانضباط. وأخذ الجنود يتدافعون ويتسابقون، وكل يريد أن يكون السباق إلى عبور النهر، ولكن ذلك غدا الآن أمراً صعباً بعد أن اشتد العدو في حملته عليهم. ولما ضيق عليهم الخناق وحصرهم في رقعة ضيقة حشروا فيها أخذوا يسقطون بعضهم فوق بعض، ومنهم من كان يقع تحت أقدام رفاقه فيدوسونه، كما قتل عدد منهم فوراً برماحهم ذاتها، بينما أخذ بعضهم يتعثرون بمتاعهم فكان أن جرف النهر بعضهم بتياره. وكان ثمة جنود من السيراكوز قد توضعوا على الضفة الأخرى من النهر، وكانت ذات ارتفاع شاهق. فأخذ هؤلاء الجنود عندئذ يرمون الأثينيين بأسلحتهم من موقعهم المرتفع، وكان معظم هؤلاء في حالة من الفوضى العارمة، فاندفعوا إلى النهر لينهلوا الماء من أعماقه، فنزل إليهم البيلوبونيز وراحوا يعملون فيهم قتلاً وذبحاً، وخاصة من كانوا في النهر وأصبح مشهد النهر كريهاً مقززاً للنفس، إلا أن الجنود استمروا في الشرب بالرغم مما شابه من الأوحال واصطباغه بالدماء؛ بل إن معظمهم كانوا في الواقع يتقاتلون فيما بينهم لينالوا شيئاً من مائه.

وأخيراً استسلم نيسياس لجيليبوس الذي وثق به واطمأن إليه أكثر مما وثق بالسيراكوز، وسلّم أمره له وللإسبارطيين ليفعلوا به ما يشاؤون، شرط أن يوقفوا هذه المذبحة عن جنوده. وكانت جثث القتلى تتراكم حينذاك بعضها فوق بعض في قاع النهر، ومن أفلت من المذبحة أدركته الخيالة وقضت عليه. فأصدر جيليبوس أمره بأخذ الأسرى، وأُحضر إليه كل من بقي حياً، إلا عدداً كبيراً منهم خبأهم الجنود بعد أن وقعوا في قبضتهم. وذهبوا بعدئذ يطاردون الجنود الثلاثمئة الذين غلبوا على الحراس وفروا في الليل، فأوقعوا هؤلاء في الأسر أيضاً. ولم يكن عدد الأسرى الذين وقعوا في يد الدولة بالعدد الكبير جداً، بل كان العدد الأكبر من الأسرى بيد من تمكنوا من أسرهم. والواقع أن صقيلية كلها حافلة بهؤلاء الأسرى؛ إذ لم تكن هناك اتفاقات محددة تحكم عملية الاستسلام، كما كان الحال مع ديموستينيس. والجدير بالذكر أن قسماً كبيراً من الجيش قضي عليه قضاء مبرماً في هذه المذبحة الكبيرة ، وكانت مذبحة دونها أية مذبحة أخرى وقعت في هذه الحرب. كذلك سقط عدد كبير من الجند في الهجمات المستمرة التي كانت تنال منهم أثناء زحفهم. ومع ذلك كان هناك كثيرون ممن أمكنهم الهرب والمعركة جارية، بينما هرب آخرون بعد استرقاقهم. وقد وجد هؤلاء ملجأ لهم في كاتانة.

جمع السيراكوز وحلفاؤهم قواتهم الآن وقاموا بتوحيدها في قوة واحدة، وأخذوا الغنائم وما استطاعوا من الأسرى وعادوا بعد هذا إلى مدينتهم. ثم وضعوا أسراهم من الأثينيين وحلفائهم في مقلع للحجارة، اعتقاداً منهم أن هذه أسلم طريقة للحفاظ عليهم في الأسر. أما نيسياس وديموستينيس فقد نفذ فيهما حكم الإعدام، بالرغم من معارضة جيليبوس اعتقاداً منه بأنه سيكسب مجداً إن استطاع بعد كل هذا الذي تحقق له أن يحضر معه إلى إسبارطة قائدا الحملة. وقد صادف أن كان أحد هذين القائدين، وهو يدموستينيس، عدو إسبارطة الألد منذ الحملة على بيلوس وفي الجزيرة ذاتها، بينما كان الآخر صديق إسبارطة الحميم لذات الأسباب. ذلك أن نيسياس كان قد بذل أقصى

جهده لإطلاق سراح الأسرى الإسبارطيين في الجزيرة بحمل الأثينيين على عقد معاهدة السلام. ولذلك كانت إسبارطة تأنس إليه، وكان هذا ما جعل نيسياس يطمئن ويسلم نفسه إلى جيليبوس. لكن بعض السيراكوز ممن كانوا على اتصال به خشوا على ما قيل من أن يكشف أمرهم تحت التعذيب فتنقلب عليهم الدوائر في لحظة نجاحهم. أما الكورنث فقد كانوا يخشون من أن يتمكن من رشوة حراسه بفضل ثرائه الطائل فيغدو مصدراً للمتاعب لهم في المستقبل. وهكذا أقنعوا حلفاءهم بالموافقة على إعدامه. وكانت هذه الأسباب أو ما شابه هي ما دفع إلى قتله، وكان رجلاً دون كل الهيلينيين لا يستحق مثل هذه النهاية البائسة، وهو الذي كرس حياته كلها لدراسة الفضيلة وممارستها.

أما أولئك الذين كانوا سجناء في مقالع الحجر فقد نالوا أسوأ المعاملة أولاً على يد السيراكوز. وكان عدد هؤلاء كبيراً، وكثيرون منهم كانوا يحشرون في حفرة ضيقة بلا سقف فوق رؤوسهم يحميهم فيعانون من حرارة الشمس وقلة الهواء، ثم أتت ليالي الخريف الباردة وتغير الحرارة ومعهما المرض. وقد فرض ضيق المكان عليهم تأدية كل شيء في الموقع ذاته. وفوق هذا كانت هناك الجثث المتراكمة بعضها فوق بعض وقد مات أصحابها بسبب ما أصابهم من الجروح نتيجة تقلبات الحرارة أو سوى ذلك من الأسباب. والسجناء هناك يعانون من الروائح الكريهة أشد المعاناة، بل ومن الجوع والعطش أيضاً. فكانت حصة الفرد منهم لا تزيد في اليوم عن مقدار نصف باينت من الماء وباينت كامل من الذرة، وذلك طوال ثمانية أشهر. والواقع أن هؤلاء السجناء كانوا قد عانوا كل أشكال البلاء التي يمكن أن يعاني منها من يسجنون في مثل هذا المكان. ولقد ظل هؤلاء يعيشون على هذه الحال طوال عشرة أسابيع، ثم بيع الجميع – عدا الأثينيين وإغريق إيطاليا أو صقيلية، ممن شاركوا في هذه الحملة– في سوق النخاسة. ولئن كان من الصعوبة بمكان تحديد عدد السجناء على وجه الدقة فإن التقدير يجنح إلى أنهم لم

يكونوا يقلون عن سبعة آلاف.

وكانت هذه أضخم معركة بين الهيلينيين في هذه الحرب، وهي في رأيي أضخم معركة، في التاريخ الهيليني ،فكانت عند المنتصرين نجاحاً رائعاً وعند المهزومين أفدح الهزائم؛ فقد مني هؤلاء بالهزيمة التامة، وكانت هزيمة ساحقة ماحقة، ومعاناتهم هائلة، وخسائرهم - كما يقولون- كاملة. وقد قضي فيها على الجيش والأسطول وكل شيء بعد ذلك، ومن تلك الجحافل لم يعد إلى الوطن إلا القلة. وهكذا انتهت الأحداث في صقيلية.

الكتاب الثامن

الفصل الأول: ذعر في أثينا، بداية التدخل الفارسي، ثورة خيوس

ظل الناس في أثينا فترة طويلة من الزمن لا يصدقون ما بلغهم من أنباء عن تلك الأحداث، ومع أن الجنود الذين شهدوا الواقعة وكانوا حاضرين في تلك الأحداث وتمكنوا من الهرب قدموا لهم المعلومات الدقيقة عن مجرى الأمور آنذاك، فقد اعتقدوا أن الحديث عن الدمار الشامل لا يمكن أن يكون صحيحاً. فلما أدركوا الوقائع، التفتوا إلى الخطباء الذين كانوا يؤيدون الحملة، وراحوا ينددون بهم، وكأنما هم لم يؤيدوها ويصوتوا بالموافقة عليها، كذلك انصبت نقمتهم على أصحاب النبوءات والعرافين، وكل أولئك الذين كانوا يزينون لهم بمختلف الطرق الاعتقاد بأنهم لا ريب سيقهرون صقيلية. ولقد كانوا يشعرون بالضغط الواقع عليهم في كل منطقة عسكرية وعلى كل جبهة، أما الآن بعد هذه الضربة الأخيرة فقد امتلأت نفوسهم بالخوف والجزع الشديدين. وأصبحت المشاعر والخواطر في الدولة وعند كل شخص مثقلة بهذا العدد الكبير من الخسائر من المشاة الثقيلة والخيالة والشباب المؤهلين للخدمة العسكرية، وهم عندهم خسائر لا تعوض. كذلك وجدوا أن السفن في الأحواض غير كافية، والمال في الخزانة قليل، وافتقدوا الطواقم اللازمة لتسيير السفن. وهكذا كان أملهم بتجاوز المحنة في تلك اللحظة ضئيلاً. ورسخ في أذهانهم هم أن أعداءهم في صقيلية سيقصدون بأسطولهم مرفأ بيرايوس بعد هذا النصر الكبير الذي تحقق لهم. و من المؤكد أن أعداءهم في وطنهم سوف يضاعفون جهدهم الآن بكل ما لديهم من القوة للهجوم عليهم من البر والبحر، وحلفاءهم سيعلنون العصيان ويشاركون في الهجوم عليهم. ومع ذلك استقر العزم لديهم، بالرغم من شح مصادرهم، ألا يقبلوا بالاستسلام، وأن يقوموا بتجهيز أسطول والحصول على الأخشاب اللازمة لبناء السفن من كل مصدر ممكن، كذلك أخذوا في

الحسبان جمع المال، والعمل على أن يبقى حلفاؤهم على ولائهم، وخصوصاً يوبوية. وتقرر بعد أن يتخذوا الإجراءات الاقتصادية والقيام بالإصلاحات في أثينا ذاتها، وتعيين هيئة من أهل الخبرة والتجربة لتقديم المشورة حول الوضع كلما استدعت الظروف الاستئناس بخبرتهم. والواقع أن الأثينيين باتوا الآن في حال من الهلع، وأصبحوا مهيئين لإصلاح أحوالهم وترتيب أوضاعهم، شأنهم في ذلك شأن كافة الدول الديمقراطية. وتم تنفيذ هذه القرارات حال صدورها. وهكذا انتهى الصيف.

وفي الشتاء التالي انقلبت هيلاس كلها على أثينا إثر الكارثة العظيمة التي نزلت بها في صقيلية. ورأى أولئك الذين لم يتحالفوا مع أي من الطرفين أنه ليس من الحكمة البقاء خارج الحرب على الأثينيين، وباتوا يجنحون لخوض الحرب ضد أثينا طواعية، دون أن يطالبهم أحد بالانخراط فيها، وحجتهم في ذلك أن الأثينيين كانوا سيستهدفونهم بلا ريب، لو أنهم وفقوا في حملتهم في صقيلية، ومالوا إلى الاعتقاد بأن الحرب ستنتهي سريعاً فيكون لهم فضل المشاركة فيها. ثم إن حلفاء إسبارطة باتوا أشد توقاً للتحرر سريعاً مما ظلوا يعانونه ردحاً طويلاً. وكان رعايا أثينا على الأخص أكثرهم استعداداً للعصيان. والحق أن هؤلاء الرعايا كانوا أكثر ميلاً للثورة من كونهم قادرين على النهوض بها، نظراً لعدم قدرتهم على النظر إلى الأمور بصورة موضوعية، وعدم تسليمهم بإمكانية صمود أثينا حتى الصيف القادم. وقد اجتمعت هذه الأسباب لتثير في إسبارطة شعوراً بالثقة، وزاد في تشجيعهم الاحتمال بأن ينضم إليهم في الربيع حلفاؤهم في صقيلية بحشد كبير فضلاً عن الأسطول الذين كانوا يعتزمون بناءه. وهكذا لما توفرت للإسبارطيين الأسباب الوجيهة للاعتزاز بقوتهم في كل ناحية باتوا عازمين على الاندفاع للحرب دونما تحفظ، وفي حسبانهم أنها متى انتهت لصالحهم غدوا أحراراً من كل خطر يتهددهم في المستقبل، وكان يمكن لأثينا أن تفرضه لو توفرت لها ثروات صقيلية، ثم إذا تم للإسبارطيين القضاء على سلطان أثينا كانت لهم الزعامة على هيلاس كلها دون

منازع.

وهكذا خرج ملكهم آجيس فوراً في هذا الشتاء بقوة من ديسيليا، وجمع الأموال من الحلفاء لتمويل بناء أسطول لهذه الغاية. والتفت عندئذ نحو الخليج المالياني، وانتزع من الأويتيان معظم ممتلكاتهم، وفرض عليهم دفع مبلغ من المال لخلاف قديم معهم. وانتقل بعدئذ إلى الآخيين في فثيوتيس وغيرهم من رعايا الثيسال ففرض عليهم دفع المال وأخذ منهم الرهائن، بالرغم من اعتراض الثيسال ذاتهم. وأرسل الرهائن ليحتجزوا في كورنثة ثم حاول أن يدفع بأهل بلدهم للانضمام إلى حلف الإسبارطيين. كذلك أرسل الإسبارطيون إلى المدن يطلبون منهم بناء مئة سفينة، يتولون هم – الإسبارطيون – بناء خمس وعشرين منها، وخمس وعشرون أخرى من البويوط، أما الفوك واللوكريان فيقدمون خمس عشرة مشاركة، وخمس عشرة من الكورنث، وعشراً من الأركاد والبلينيين والسيكيون معاً، وعشراً أخرى من أهالي ميجارا وتريويزن وإبيداروس وهيرميونة معاً. وقام الإسبارطيون فوق ذلك بكل الاستعدادات الأخرى لابتداء الحملة في مطلع الربيع.

كذلك كان الأثينيون أيضاً منهمكين في اتخاذ الإجراءات التي استقر عزمهم على القيام بها، فحصلوا في ذلك الشتاء على الأخشاب وبدؤوا العمل بتشييد السفن، وقاموا بتحصين سونيوم ليوفروا الحماية لسفنهم التي تحمل الغلال عند دورانها حول المنطقة، وقاموا بإخلاء الحصن في لاكونيا، الذي كانوا قد أقاموه وهم في طريقهم إلى صقيلية، وأخذوا يقتصدون في نفقاتهم عندئذ إلا في وجهها الصحيح، وحرصوا بعد على رصد حلفائهم وتوخوا الحذر لئلا تنشب بينهم ثورة. وفيما كان الطرفان يستعدان للحرب على هذا النحو الذي كانوا قد جروا عليه منذ البداية، كان أهالي يوبوية أول من بعث إلى الملك آجيس في هذا الشتاء لبحث إعلان الثورة على أثينا. وقد رحب آجيس بما عرضه السفراء من أمر الثورة واستدعى من إسبارطة ألكامينيس بن ستينلايداس

وميلانثوس ليتوليا القيادة في يوبوية. وقد وصل هذان القائدان ومعهما ثلاثمئة من العبيد المعتقين، وأخذ آجيس يعد لعبورهم. ووصل بعض الموفدين من ليسبوس في تلك الأثناء معلنين رغبتهم في الثورة أيضاً، واقتنع آجيس بدعاوى هؤلاء وحمله تأييد البويوط لهم على ترك يوبوية وشأنها في الوقت الراهن. فمضى لينظم الثورة في ليسبوس وقدم لهم ألكامينيس الذي كان مقدراً له أن يبحر إلى يوبوية ليتولى منصب الحاكم فيها. وقد وعد البويوط بتقديم عشر سفن كما وعد آجيس بتقديم مثل هذا العدد أيضاً. وهذا كله جرى دون الرجوع إلى الحكومة في إسبارطة، وذلك بفضل ما كان يتمتع به آجيس من سلطات منذ أن نزل وجيشه في ديسيليا؛ فقد كان مخولاً بتوجيه القوات أينما يشاء وتجنيد الجنود، وجباية الأموال على النحو الذي يراه مناسباً. والواقع أنه من الحق القول : إن الحلفاء ظلوا طوال هذا الوقت يرجعون إليه أكثر مما كانوا يرجعون إلى الحكومة في إسبارطة؛ إذ كان يملك أن يفرض نفسه بجيشه أينما توجه.

وفيما كان آجيس ملتفتاً لليسبيين، أظهر الخيون – أهالي خيوس– والإريثراي استعدادهم للثورة، لكنهم اتصلوا بإسبارطة وليس بآجيس. وقد جاء معهم ممثل من تيسافيرنيس، الذي كان الملك داريوس ابن أرتحششتا قد عينه حاكماً على المنطقة الساحلية. وكان تيسافيرنيس يؤيد أيضاً فكرة تدخل إسبارطية وتعهد بالإنفاق على جيشها. وكان الملك قد طلب منه مؤخراً تحصيل الضرائب من منطقته، إلا أنه كان يفتقر للمال لعجزه عن جمع الأموال من المدن الهيلينية بسبب تدخل الأثينيين. ولذلك اعتقد أنه بإلحاقه الضرر بهم ستزداد حظوظه بتحصيل المال وسيجتذب إسبارطة إلى إقامة تحالف مع الملك، وبذلك يتمكن من تنفيذ أمر الملك في أمورجيس الولد غير الشرعي لبيسوثنيس الذي يتزعم ثورة في كاريا، فيقبض عليه حياً أو ينفذ فيه حكم الإعدام.

وهكذا كان الخيون وتيسافيرنيس يعملون في سبيل هدف واحد. ونحو ذلك الوقت وصل إلى إسبارطة كاليميتوس بن لاوفون الميجاري، وتيماجوراس بن أثيناجوراس

السيريسيني، وكان كل منهما منفياً من مدينته، ويقيم في قصر فارنابازوس بن فارناسيس. وكان فارنابازوس قد بعث بهما ليحاولا الحصول على أسطول للعمل في الهليسبونت علّه يستطيع أن يقوم بالذي كان تيسافيرنيس يريد القيام به، أي تحصيل الضرائب بتحريض المدن في مقاطعته على الثورة والانفصال عن أثينا، ونيل رضى الملك بضم الإسبارطيين إلى حلفه.

وكان هذان الطرفان –فارنابازوس وتيسافيرنيس–يحاولان، كل من ناحيته، تنفيذ ترتيباته الخاصة، ولذلك كان النقاش يجري طويلاً في إسبارطة حول أيهما أفضل إرسال الجيش أو الأسطول أولاً إلى أيونيا وخيوس أو إلى الهليسبونت. وكان الإسبارطيون يؤيدون أهالي خيوس وتيسافيرنيس الذي كان ألسيبياديس يؤيده أيضاً. وألسيبياديس صديق إنديوس، أحد أعضاء مجلس الإيفور في إسبارطة، وله صلة طيبة به وبأسرته، وقد اتخذ بسبب هذه الصلة العائلية اسماً لاكونياً لأسرته. والواقع أن السيبياديس هو اسم اختاره إنديوس لأسرته. ومع ذلك فقد أرسلوا فرينيس – وكان إسبارطياً من غير الطبقة الحاكمة – إلى خيوس أولاً ليتحقق من صدق رواية القوم هناك عن عدد السفن المتوفرة لديهم وإن كانت المدينة بالقوة التي زعمتها لنفسها في المجالات الأخرى. ولما عاد فرينيس وأكد لهم صدق كلام الخيون قاموا على الفور بعقد الحلف معهم ومع الإريثراي. وتم التصويت على أن يبعثوا إليهم بأربعين سفينة بناء على الاعتقاد بأن ثمة ستين سفينة جاهزة للعمل، وفق حديث الخيون. وكانت أولى نيّاتهم توجيه عشر من هذه السفن من جانبهم بقيادة أمير البحر ميلانخريداس. وقد وقع فيما بعد زلزال، وبدلاً من إرسال ميلانخريداس أرسلوا خالكيديوس لقيادة السفن، ثم إنهم لم يجهزوا من السفن العشر في لاكونيا سوى خمس. وهكذا انتهى الشتاء ومعه العام التاسع عشر من الحرب التي دون وقائعها ثوسيديديس.

وفي مطلع الصيف التالي أخذ الخيون يلحون في طلب السفن، وهم يخشون أن يعلم

الأثينيون بما كان يدبر لهم. وكانت المفاوضات تجري، بطبيعة الحال، سراً. وعليه أرسل الإسبارطيون ثلاثة من مواطنيهم من طبقة الضباط إلى كورنثة لقطر السفن بأسرع ما يمكن عبر البرزخ من طرف من البحر إلى طرف أثينا منه وتوجيه الأسطول كله، بما في ذلك السفن التي كان آجيس قد أعدها لليسبوس للإبحار إلى خيوس. وكان مجموع السفن هناك المقدمة من الدول المتحالفة تسعاً وثلاثين.

أما كاليجيتوس وتيماجوراس اللذان كانا يمثلان فارنابازوس فلم يشاركا في حملة خيوس ولم يسهما بما كانا قد حملاه معهما من المال -ويبلغ خمسة وثلاثين تالنتاً- لتمويل إرسال قوة؛ إذ كانا قد اعتزما الإبحار في وقت لاحق مع حملة أخرى من تدبيرهما. وعلى كل حال، فإن آجيس وافق على رأي الإسبارطيين حين وجدهم يريدون التوجه إلى خيوس أولاً. واجتمع الحلفاء في كورنثة لتداول الرأي، وتقرر عندئذ أن يبحروا إلى خيوس أولاً بقيادة خالكيديوس الذي كان يقوم بتجهيز خمس سفن في لاكونيا، ثم يتوجهوا بعدئذ إلى ليسبوس بقيادة ألكامينيس الذي كان آجيس قد اختاره، ثم إلى الهليسبونت في النهاية حيث تولى كليرخوس بن رامفياس القيادة هناك. وتقرر أن يعبر الأشموس – ممر كورنثة – بادئ الأمر نصف سفن الأسطول، ليتشتت انتباه الأثينيين بين السفن الخارجة وتلك التي ترد فيما بعد. وكانت هذه الرحلة تجري علانية، تعبيراً عن ازدرائهم لضعف الأثينيين، إذ لم يظهر ما ينم عن امتلاكهم أسطولاً ذا شأن. وهكذا تم تنفيذ ما كان قد سبق أن تقرر بين الحلفاء، فأخرجوا إحدى وعشرين سفينة وعبروا بها الأشموس.

ولقد استبد بهم الشوق الآن للشروع بالرحلة، لولا أن صادف هذا موعد احتفالات أهالي الأشموس، وبدا على الكورنث التردد بالإبحار وإيثارهم البقاء ليشاركوهم احتفالاتهم. وكان آجيس مستعداً في ذلك الحين للقيام بالحملة على مسؤوليته الخاصة، لئلا يصبح الكورنث في وضع من ينتهك اتفاقية الأشموس، سوى أن الكورنث ما كانوا

ليوافقوه على هذا الأمر فظلت الأمور معلقة. وخلال هذا الوقت أخذ الأثينيون يدركون ما كان يجري في خيوس فأرسلوا إليهم أرسطوكراتيس، وهو أحد قادة جيشهم، فواجههم بالدليل على ما كانوا يدبرون. فلما أنكروا طالبهم الأثينيون بإظهار حسن نيّاتهم بإرسال سفنهم والانضمام إلى أسطولهم، فأرسل الخيون سبع سفن. وكان السبب في ذلك أن الحزب الأوليجاركي هناك كان يجري مفاوضاته خفية عن الشعب، ولم يكن مستعداً بعد لمواجهة نقمته حتى يكون قد توفر له أساس صلب يعتمد عليه في المواجهة، فضلاً عن أنه فقد الأمل بقدوم البيلوبونيز بعد هذا التأخير.

وكانت ألعاب أهالي أشموس قد بدأت في تلك الأثناء. وتلقى الأثينيون الدعوة رسمياً لحضورها، وقد حضروها فعلاً. وهنا باتت لديهم فكرة أشد وضوحاً عن وضع خيوس كله، ولذلك ما إن عادوا إلى أثينا حتى اتخذوا الإجراءات التي تحول دون مغادرة الأسطول لسنكرياي دون علم منهم. فلما انتهت الاحتفالات أبحرت سفن العدو قاصدة خيوس، وقد بلغ عددها إحدى وعشرين سفينة وكانت بقيادة ألكامينيس. فخرج الأثينيون بادئ الأمر بمثل هذا العدد، وحاولوا استدراجهم للقتال في عرض البحر. ولكن البيلوبونيز استداروا على أعقابهم دون أن يمضوا طويلاً في ملاحقتهم، فتراجع الأثينيون كذلك؛ لأنهم لم يكونوا يطمئنون إلى سفن الخيون السبع التي كانت معهم. ثم عمدوا بعدئذ إلى تجهيز بعض السفن الأخرى حتى بلغ مجموعها سبعاً وثلاثين، وأخذت تلاحق أسطول العدو وسفنه تبحر على طول الساحل، حتى دفعتهم إلى دخول سبيرايوم، وهو مرفأ غير مأهول في منطقة تابعة لكورنثة ويقع بالقرب من حدود إبيداروس تقريباً. وقد فقد البيلوبونيز سفينة واحدة في عرض البحر. ولكنهم استطاعوا جمع بقية سفنهم الأخرى بعضها إلى بعض حتى ألقت مراسيها. ثم هاجمهم أسطول الأثينيين من ناحية البحر، كما قاموا بإنزال على الشاطئ. وقد أثار هذا ذعراً واضطراباً عظيمين عند العدو. إذ إن الأثينيين استطاعوا إعطاب معظم سفن العدو وتمكنوا من قتل القائد ألكامينيس،

دون أن يمنوا إلا ببعض الخسائر.

ولما تمت العملية غادر الأثينيون بعد أن تركوا من السفن ما يكفي لحصار أسطول العدو، ثم ألقوا مراسيهم عند جزيرة قريبة، وهناك أقاموا معسكرهم. وأرسلوا إلى أثينا يطلبون رفدهم بالتعزيزات؛ لأن البيلوبونيز قاموا بتعزيز قواتهم. إذ قدم إليهم الكورنث لإنقاذ السفن بعد يوم من المعركة، ثم تقاطرت عليهم الأقوام الأخرى في الجوار بعد ذلك لتقديم النجدة. وقد وجد البيلوبونيز أنفسهم في حيرة حين تبين لهم مدى صعوبة وضع حامية في هذه البقعة النائية المقفرة، فكان أول ما خطر ببالهم إحراق السفن، حتى قرروا في النهاية سحبها إلى الشاطئ والنزول وتولي حراستها مع الجيش إلى أن يسعفهم حسن الحظ بإيجاد وسيلة للخروج. وأرسل آجيس أيضاً حين بلغته الأنباء بقائد إسبارطي يدعى ثيرمون، وهو من ضباط الجيش النظامي. وكان الإسبارطيون السباقين إلى سماع أخبار إبحار الأسطول من الأشموس؛ لأن الإيفور طلبوا من ألكامينيس أن يبعث إليهم بأحد الخيالة حاملاً النبأ، حالما يبحر، وغرضهم من ذلك أن يوجهوا خمس سفن من طرفهم فوراً بقيادة خالكيديوس ومرافقة ألسيبيادیس.أما الآن فقد أصابهم الإحباط، حين بلغهم نبأ لجوء الأسطول إلى سبيرايوم، وهم على أهبة الاستعداد لإرسال تلك السفن، ومصدر هذا الشعور فشلهم في أول محاولة لهم في الحرب الأيونية، حتى إنهم أقلعوا عن فكرة إرسال السفن من بلدهم، بل وأصبحوا ينزعون إلى استدعاء بعض السفن التي كانت قد خرجت للعمل في البحر.

ولقد تبين ألسيبياديس هذا النزوع فتوسل بنفوذه مرة أخرى لدى إنديوس والإيفور الآخرين وحثهم على ألا ينفروا من الرحلة، وبين لهم أنهم سيبلغون خيوس قبل أن يسمع الخيون بالكارثة التي حلت بالأسطول. وقال : إنه ما إن ينزل بأرض أيونيا حتى يستطيع أن يقنع المدن بالثورة بمجرد أن يعلمهم بضعف أثينا، ويعرض لهم السياسة النشيطة التي تأخذ بها إسبارطة، وشاهده على ذلك موثوق لا سبيل إلى دحضه وقد أسر

إلى إنديوس بأنه من المفيد له أن يكون الوسيلة لتنظيم الثورة في إيونيا ويضمن لإسبارطة التحالف مع ملك فارس، عوض أن يذهب الفضل في ذلك لآجيس، ولم يكن السيبياديس على علاقة طيبة مع آجيس. وهكذا تم له إقناع إنديوس وأعضاء مجلس الإيفور الآخرين، وخرج عندئذ بالسفن الخمس ومعه خالكيديوس الإسبارطي، وبدأ رحلته بأقصى سرعة ممكنة.

ونحو ذلك الوقت كانت السفن الست عشرة البيلوبونيزية التي تولى جيليبوس قيادتها طوال الحرب في صقيلية، تمضي في طريقها إلى موطنها. وقد أدركتها السفن الاثينية عند ليوكاديا، فعانت أشد العناء من السفن السبع والعشرين بقيادة هيبوكليس ابن مينيبوس، الذي كان هناك لاعتراض السفن المغادرة من صقيلية. ولقد خسر البيلوبونيز سفينة واحدة واستطاعت السفن الأخرى الهرب من الأثينيين واتجهت نحو كورنثة.

وفي تلك الأثناء قام خالكيديوس وألسيبياديس باحتجاز كل من صادفهما وأخذوهم معهما في رحلتهما، ليحافظا على سرية تحركاتهما، وقد نزلا أول الأمر في كوريكوس على البر الرئيسي، حيث أطلقا سراح سجنائهما وتدبرا اجتماعاً مع بعض الخيون الذين كانوا ضالعين في المؤامرة. فحثهما هؤلاء على أن يقصدا المدينة دون إعطاء موعد لوصولهما، فاتبعا النصيحة، وظهرا فجأة أمام خيوس. وفيما كان الحزب الديمقراطي قد أصبح في حال من الحيرة والذعر، كان الأوليجاركيون قد رتبوا الأمور بحيث يكون مجلس الحكم جاهزاً للعمل عندما يحين الوقت المناسب. وقد ألقى خالكيديوس وألسيبياديس خطباً تفيد بأن ثمة سفناً أخرى في طريقها إليهما الآن، دون أن يرد فيها إشارة إلى محاصرة الأسطول في سبيرايوم. فأعلن الخيون ثورتهم على أثينا ثم لحق بهم الإريثريون. بعد هذا أبحرا إلى كلازوميناي بثلاث سفن وحملوا هذه المدينة أيضاً على إعلان الثورة على أثينا. فعبر الكلازومينيون إلى البر الرئيسي وقاموا بتحصين بوليخنة،

لتكون لهم نقطة يرجعون إليها- إذا دعت الضرورة- عند الانسحاب من الجزيرة حيث يقيمون. والواقع أن كل من انضم إلى الثورة أصبح الآن منهمكاً في بناء التحصينات والاستعداد للحرب.

الفصل الثاني: الثورة تنتشر، الأثينيون يحققون بعض النجاح

لقد بلغت أخبار خيوس أثينا سريعاً. ورأى الأثينيون أنهم باتوا الآن فعلاً في خطر، ولم يعد لهم أن يثقوا بالتزام بقية حلفائهم بالهدوء بعدما تحولت أعظم مدنهم إلى صف الأعداء. وقد بلغ بهم الذعر ما جعلهم يلغون فوراً العقوبات التي تنزل بكل من يقترح استخدام الألف تالنت أو يعرض للتصويت الاقتراح باستخدامها، وهو المبلغ الذي كانوا يحرصون أشد الحرص على ألا تقع أيديهم عليه. ولكنهم صوتوا الآن مؤيدين استخدام هذا المال في تجهيز عدد كبير من السفن. وكان عليهم أن يوجهوا فوراً ثماني سفن بقيادة سترومبيخيديس بن ديوتيموس من القوة المحاصرة في سبيرايوم. وكانت قد تركت هذه القوة لمطاردة السفن التي بإمرة خالكيديوس ثم عادت بعد أن فشلت في الاتصال بها. وكان من المقدر أن تعزز هذه السفن لاحقاً باثنتي عشرة سفينة أخرى بقيادة ثراسيكليس، من مجموعة الحصار أيضاً. وقد استدعيت السفن الخيوسية السبع التي كانت تشارك في الحصار في سبيرايوم. وأعتق يومئذ الأرقاء العاملون في تلك السفن وجرى سجن الأحرار. وسرعان ما قاموا بتجهيز عشرة سفن جديدة لإلقاء الحصار على البيلوبونيز ولتحل محل السفن التي سحبت وأعدوا لتجهيز ثلاثين سفينة أخرى. والحق أن القوم أبدوا نشاطاً عظيماً وقاموا بكل ما من شأنه نجدة خيوس على أوسع نطاق.

وفي تلك الأثناء قدم سترومبيخيديس إلى ساموس ترافقه ثماني سفن ثم اتجه إلى تيوس ومعه سفينة ساموسية وحذر الأهالي من الإتيان بأية حركة معادية. وكان خالكيديوس يبحر أيضاً في تلك الأثناء إلى تيوس، منطلقاً من خيوس، ومعه ثلاث وعشرون سفينة وجيش من الكلازومينيين والإريثراي يزحف على امتداد الساحل للمؤازرة. ولقد علم سترومبيخيديس بالأمر في حينه فأبحر من جديد من تيوس، وحين بلغ عرض البحر ورأى كم من السفن خرجت من خيوس هرب من ناحية ساموس والعدو في أعقابه. ولم يسمح أهالي تيوس للجيش بدخول مدينتهم بادئ الأمر، ثم أجازوا لهم

ذلك بعدما هرب الأثينيون. وقد التزم الجنود جانب السكينة في تلك البرهة، بانتظار عودة خالكيديوس من عملية المطاردة. ولكن لما طالت غيبته بادر هؤلاء بهدم التحصينات التي أقامها الأثينيون في مدينة تيوس في الجهة المقابلة للبر الرئيسي. وقد انضم إليهم في هذا العمل عدد قليل من الجنود المحليين الذين قدموا إلى الموقع بقيادة ستاجيس، وهو أحد الضباط الذين كانوا في خدمة تيسافيرنيس.

ولقد تمكن خالكيديوس وألسيبياديس من دفع سترومبيخيديس إلى ساموس. وبعد أن قاما بتسليح بحّارة السفن البيلوبونيزية ثم تركهم في خيوس، راحا يجندان المجذفين من هذه المدينة ويعبئان عشرين سفينة أخرى بالرجال، ثم توجها إلى ملطية لإشعال ثورة هناك. وكان ألسيبياديس على علاقة جيدة بزعمائها ويريد أن يجتذبها إلى صفه قبل وصول السفن من البيلوبونيز. وهكذا باشعال أكبر عدد من الثورات في المدن بمساعدة قوات خيوس وخالكيديوس، فإن الفضل في ذلك يعود للخيون ولنفسه ولخالكيديوس، وكما وعد لإنديوس الذي أمر بخروج الحملة. ولقد تمكنا من الإفلات من رصد الأعداء معظم الرحلة، وأشعلا الثورة في ملطية قبل وصول سترومبيخيديس وثراسيكليس، وكانا قد خرجا للتو من أثينا باثنتي عشرة سفينة وانضما إلى عملية المطاردة. ولقد أبحر الأثينيون وراءهم بتسع عشرة سفينة. واتخذوا مواقعهم عند لادة، وهي جزيرة تقع على مقربة من ملطية، بعد أن رفض أهالي ملطية نزولهم في المدينة. وبعد قيام ثورة ملطية مباشرة تم عقد أول حلف بين ملك فارس والإسبارطيين على يد تيسافيرنيس وخالكيديوس. وفيما يلي نص المعاهدة:

" اتفق الإسبارطيون وحلفاؤهم على التحالف والملك وتيسافيرنيس وفق البنود التالية:

" ١- يكون للملك كل المناطق والمدن التي هي في ملكه الآن، أو كانت في ملك أسلافه في الماضي.

"٢- أما الأموال وكل ما كان يرد من هذه المدن إلى الأثينيين فسوف يتعاون الملك والإسبارطيون وحلفاؤهم في منع الأثينيين من الحصول عليها أو على أي شيء آخر.

"٣- سوف تستمر الحرب ضد الأثينيين بمشاركة الملك والإسبارطيين وحلفائهم. ولا تنتهي الحرب على الأثينيين إلا بموافقة الفريقين: الملك من جهة، والإسبارطيون وحلفاؤهم من جهة أخرى.

"٤- سوف يعتبر كل شعب يعلن العصيان على الملك عدواً للإسبارطيين وحلفائهم، كذلك يعتبر كل من يثور على الإسبارطيين وحلفائهم عدواً للملك."

تلكم هي معاهدة التحالف الذي قام بين الإسبارطيين وحلفائهم وملك الفرس. بعيد ذلك جهز الخيون عشر سفن أخرى وتوجهوا إلى أنايا لمعرفة الأحوال في ملطية وتنظيم الثورات في المدن في الوقت ذاته. وحدث أن تلقى الخيون عندئذ رسالة من خالكيديوس يطلب منهم العودة، ويقول فيها : إن أمورجيس قادم بجيش من ناحية البر. وهكذا أبحروا إلى معبد زيوس ودخلوا على مشهد من ست عشرة سفينة بقيادة ديوميدون الذي كان قد خرج من أثينا متأخراً، بعد أن أبحر ثراسيكليس. فهرب الخيون لدى رؤيتهم لهم، واتجهت إحدى سفنهم إلى إفيسوس بينما ذهبت بقية السفن ناحية تيوس. واستولى الأثينيون على أربع سفن خالية من رجالها الذين تمكنوا من النزول إلى البر. أما البقية فقد لجؤوا إلى مدينة تيوس. وبعد هذا رحل الأثينيون إلى ساموس، بينما قام الخيون بالتنسيق مع قواتهم البرية، بالابحار ببقية سفنهم، وأخذوا يشعلون الثورة أولاً في ليبيدوس ثم في إراي. ثم عاد الأسطول والجيش بعد هذا إلى بلدهما.

ونحو الوقت ذاته كانت السفن البيلوبونيزية العشرون في سبيرايوم قد دخلت الموقع بعد مطاردة، كما نذكر، وكان يحاصرها مثل هذا العدد من السفن الأثينية، لكنها خرقت هذا الحصار فجأة ودحرت الأثينيين واستولت على أربع من سفنهم، وغادرت

بعدئذ عائدة إلى سيكراي، حيث استعدت من جديد للإبحار إلى خيوس وأيونيا. وهنا ورد إليهم من إسبارطة أستيوخوس بصفة أمير البحر، وقد منح الآن منصب القائد الأعلى للبحرية.

بعد انسحاب القوات البرية من تيوس، ورد إليها تيسافيرنيس وبرفقته جيش، وراح يهدم ما تبقى من التحصينات في تيوس، ثم رحل. ولم يمض وقت طويل على مغادرته حتى وصل ديوميدون مع عشر سفن أثينية وعقد اتفاقاً مع أهل تيوس يتعهدون بموجبه باستقبال الأثينيين كما استقبلوا العدو من قبل. وأبحر بعدئذ بمحاذاة الساحل إلى إراي، حيث حاول أخذ البلد عنوة، فلما فشلت محاولته استأنف رحلته.

ونحو ذلك الوقت ثار أهالي ساموس على الطبقات الحاكمة فيها، وكان ذلك بالتعاون مع بعض الأثينيين هناك وثلاث سفن. فقام أهالي ساموس بإعدام مئتين من أبرز شخصيات الطبقة الحاكمة، وعمدوا إلى نفي أربعمئة آخرين واستولوا على أراضيهم وبيوتهم وحلوا فيها. ثم أصدر الأثينيون بعد هذا قراراً بمنحهم الاستقلال، واعتبروهم الآن جديرين بالثقة واستولوا على الحكم في المدينة تحسباً للمستقبل. وقد استبعد أصحاب الأراضي من الحكم كلياً ولم يعد يسمح بعدئذ بالمصاهرة بينهم وبين بقية الناس.

بعد هذا خرج في الصيف ذاته الخيون الذين ظلوا على ما عرف عنهم من نشاط، وهم بقوة تكفي لحمل المدن على الثورة حتى بدون البيلوبونيز. وكان لديهم سبب قوي لحمل أكبر عدد من المدن لمشاركتهم الخطر، وقصدوا ليسبوس بثلاث عشرة سفينة. وكانت تعليمات إسبارطة تقضي بالتوجه بعد ذلك إلى ليسبوس ومنها إلى الهليسبونت. وفي نحو ذلك الوقت تحرك الجيش، وكان مؤلفاً من البيلوبونيز والحلفاء في تلك المنطقة، ومضى على امتداد الساحل إلى كلازوميناي وكوماي، وهو بقيادة أوالاس،

وكان ضابطاً في الجيش النظامي. أما الأسطول فكان بإمرة دينياداس، وهو إسبارطي من غير طبقة ضباط الجيش النظامي، وأبحر أولاً إلى ميثيمينة وقام بضمها إلى الدول الثائرة. وقد ترك هناك أربع سفن ومضى مع البقية وتمكن من ضم ميتيلينة أيضاً إلى الثورة.

وهنا خرج أمير البحر أستيوخوس الإسبارطي بأربع سفن حسب الخطة، من سينكرياي وحل في خيوس. وبعد ثلاثة أيام وصل الأسطول الأثيني المؤلف من خمس وعشرين سفينة بقيادة ديوميدون وليون، الذي قدم من أثينا لاحقاً مع عشر سفن لتعزيز الأسطول، وأبحرا إلى ليسبوس. وفي وقت متأخر من مساء اليوم ذاته خرج أستيوخوس إلى البحر ومضى إلى ليسبوس ومعه سفينة خيونية واحدة، ليقدم للجزيرة ما بوسعه من المساعدة. فبلغ بيرا ومضى في اليوم التالي إلى إريسون حيث علم باستيلاء الأثينيين على ميتيلينة دون مشقة .فبينما كانوا يبحرون دخلوا المرفأ فجأة دونما توقع فهزموا سفن الخيون ونزلوا إلى اليابسة وتمكنوا من رد معارضيهم واستولوا على المدينة. وقد تلقى أستيوخوس هذه الاخبار من أهالي إريسوس والسفن الخيونية التي كانت قد تركت مع أبولوس في ميثيمنة ثم هربت بعد الاستيلاء على ميتيلينة. وكانت إحدى هذه السفن قد سقطت بيد الأثينيين، ولكن ثلاثاً منها صادفت أستيوخوس في طريقها وانضمت إلى سفنه. فلم يكمل طريقه إلى ميتيلينة كما كان ينوي سابقاً، بل انصرف عوضاً عن ذلك إلى تنظيم ثورة إريسوس وتسليح الشعب. ثم أرسل المشاة الثقيلة من سفنه وسلم قيادتها لإيتيونيكوس وأعطى تعليماته بأن تسير هذه القوات براً على طول الساحل متجهة إلى أنتيسا وميثيمنة، بينما أبحر مع سفنه والسفن الخيونية الثلاث بمحاذاتهم. وكان يأمل بأن يجعل ظهورهم أهالي ميثيمنة يستعيدون ثقتهم بأنفسهم ويتمكنون من الصمود والاستمرار في الثورة. ولكن لما كانت الأمور في ليسبوس تجري على غير ما يريد، فإنه حمل قواته على متن السفن وعاد بها إلى خيوس. أما الجنود الذين كانوا على ظهر السفن متأهبين للذهاب إلى الهليسبونت فقد أعادهم إلى مدنهم. وبعد هذا خرجت ست من

السفن التابعة للتحالف البيلوبونيزي والراسية في سينكرياي وانضمت إلى تلك الموجودة في خيوس. ولقد أبحر الأثينيون بعد إعادة الوضع إلى ما كان عليه في ليسبوس، ومضوا إلى بوليخنة على البر الرئيسي التي كان الكلازومينيون قد قاموا بتحصينها، فاستولوا عليها وأعادوا الأهالي إلى مدينتهم في الجزيرة، باستثناء من شاركوا في الثورة؛ لأن هؤلاء قد انسحبوا إلى دفنوس. وهكذا عادت كلازوميناي أثينية من جديد.

وفي ذلك الصيف قام الأثينيون المعسكرون في لادة ويحاصرون ملطية بعشرين سفينة بالنزول في المنطقة الميليسية عند بانورموس وقتلوا القائد الإسبارطي خالكيديوس، الذي كان قد جاء إلى هذه المنطقة للقائهم مع بعض رجاله. وبعد ثلاثة أيام نزلوا إلى اليابسة وأقاموا نصباً تذكارياً، إلا أن الميليسيين قاموا بهدم النصب؛ لأنه لم تتم إقامته عندما كان الأثينيون سادة الميدان.

وهنا كان ليون وديوميدون يخوضان الحرب مع الأسطول الأثيني من ليسبوس على الخيون من سفنهما. وكانت القواعد التي تنطلق منها هذه العمليات في الجزر الواقعة قبالة خيوس والتي تعرف بالأونوساي وقلعتي سيدوسة وبتيليوم اللتين كانتا في قبضتهما في منطقة إريثراي وليسبوس ذاتها. وكان مع جنودهما مشاة ثقيلة تم انتقاؤهم من صفوف الجيش النظامي، وفرض عليهم الخدمة في البحرية. وقد تمت عمليات الإنزال في كاردامايلة وبوليسوس، وهزم الأثينيون الخيون الذين ظهروا لقتالهم في المعركة، وأنزلوا بهم خسائر فادحة، وعملوا سلباً ونهباً في تلك المنطقة. ثم عادوا فدحروهم ثانية في معركة أخرى عند فاناي وفي معركة ثالثة عند ليوكونيوم. وبعد هذا لم يعد الخيون يخرجون إلى القتال، بينما راح الأثينيون يعملون نهباً وسلباً في هذا البلد الذي كان غنياً بالمؤن ولم يتعرض للتخريب منذ حروب الفرس. والحق أن أهالي خيون هم وحدهم ممن أعرف – عدا أهالي إسبارطة – الذين حافظوا على رخائهم، والذين كلما ازدادت مدينتهم قوة كانوا يزيدون من الإجراءات الضرورية للمحافظة على أمنها. وقد يحسب

المرء أن هذه الثورة مثال على التيه والخيلاء، إلا أنهم ما كانوا ليغامروا بالقيام بها لولا أن توفر لهم حلفاء كثر يعتد بهم ومستعدون لمشاركتهم الخطر حتى رأوا – بعد الكارثة التي نزلت في صقيلية – أن الأثينيين أنفسهم لم يعودوا يتظاهرون بأن أحوالهم لم تبلغ حد اليأس. وإذا كانوا قد ارتكبوا خطأ – على ما في حياة الإنسان من مجاهيل – فإن هناك كثيرين اعتقدوا مثلهم أن أثينا بلغت حد الانهيار ثم أدركوا خطأهم أيضاً. وبعد أن انقطعت عنهم سبل البحر ونهبت أراضيهم أخذ بعضهم يسعون للانتقال بمدينتهم إلى صف الأثينيين. وكانت السلطات الحاكمة تدرك هذا لكنها لا تأتي بحركة من جانبها. بل إنها عوضاً عن ذلك استقدمت أمير البحر أستيوخوس من إريثراي مع أربع سفن كانت معه، وذهبت هذه السلطات تتدبر السبل لقطع دابر المؤامرة بأقل قدر من الإزعاج، سواء باحتجاز الرهائن أو بأي سبيل آخر.

وبينما الأحوال تجري على هذا النحو في خيوس ورد من أثينا في نهاية هذا الصيف ألف من المشاة الثقيلة الأثينيين وألف وخمسمئة من الأرجوس – خمسمئة منهم قوات خفيفة، ولكن الأثينيين زودوهم بدروع ثقيلة – وألف من المشاة الثقيلة من الحلفاء. وقد أبحرت هذه القوات في ثمان وأربعين سفينة، كان بعضها سفن نقل، ويتولى قيادتها كل من فرينيخوس وأونومكلس وسكيرونيديس. فأبحروا إلى ساموس أولاً ثم انتقلوا إلى ملطية، حيث أقاموا معسكرهم. وخرج الميليسيون بثمانمئة من مشاتهم الثقيلة، والبيلوبونيز الذين جاؤوا مع خالكيديوس وبعض المرتزقة الذين كانوا في خدمة تيسافيرنيس الذي كان حاضراً ومعه خيالته، واشترك في المعركة ضد الأثينيين وحلفائهم. ولقد أسرع الأرجوس من موقع الجناح، وتقدموا مستبقين الجميع وهم واثقون بأن معركتهم تقتصر على الأيونيين، الذين لا يقوون على الوقوف أمامهم. فمضوا إليهم وهم على قدر من الفوضى فدحرهم الميليسيون، وسقط منهم نحو ثلاثمئة رجل. ومن ناحية أخرى هزم الأثينيون البيلوبونيز أولاً، ثم ردوا الجنود من أهالي المنطقة

والجيش على وجه العموم، دون أن يتصلوا بالميليسيين الذين وجدوا بقية جيشهم يهزم بعدما هزموا الأرجوس شر هزيمة، فانكفؤوا عندئذ إلى داخل المدينة. وهكذا توقف الأثينيون، دون أن يواجهوا مقاومة عند أسوار ملطية ذاتها. وفي هذه المعركة دحر الأيونيون الدوريين على الجانبين؛ فقد هزم الأثينيون معارضيهم البيلوبونيز؛ وقهر الميليسيون الأرجوس. ثم أخذ الأثينيون- بعدما أقاموا نصب النصر- يعدون للحصار بتشييد سور يطوق المدينة من كافة الجهات،، وهو السور القائم على البرزخ. وكانوا يعتقدون أنهم إن استطاعوا أخذ ملطية فسوف تهرع المدن الأخرى وتنضم إليهم دون أي صعوبة.

وفي تلك الأثناء وردتهم الأخبار على كل حال، في وقت متأخر من المساء بأنه من المتوقع أن تصل خمس وخمسون سفينة قادمة من البيلوبونيز وصقيلية في أية لحظة. ولقد وردت اثنتان وعشرون من هذه السفن من الصقيليين؛ عشرون من سيراكوزة واثنتان من سيلينوس، وهي السفن التي حثهم هيرموكراتيس السيراكوزي على تقديمها لتكون نصيبهم في القضاء على ما تبقى من قوة أثينا. أما السفن التي كانت قيد التجهيز في البيلوبونيز فقد باتت الآن جاهزة للعمل، وأعطي الأسطولان إلى ثيرمينيس الإسبارطي ليسلمهما إلى أمير البحر أستيوخوس. فتوجهت السفن أولاً إلى ليروس، وهي جزيرة تقع قبالة ملطية، ثم تابعوا الرحلة من هناك حين بلغهم أن الأثينيين موجودون أمام المدينة، وهم يقصدون خليج إياسوس ليستطلعوا الوضع في ملطية، ثم علموا أخبار المعركة من ألسيبياديس الذي جاء راكباً حصاناً إلى تيخيوسة في المنطقة الميليسية، وهي تقع على الخليج حيث أقاموا معسكرهم لقضاء الليلة. وكان ألسيبياديس قد حضر المعركة وقاتل إلى جانب الميليسين وتيسافيرنيس. وكانت نصيحته لهم أن يهرعوا لنجدة ملطية بأسرع وقت لئلا تطبق عليها أسوار الحصار، إلا إذا كانوا يريدون خسارة أيونيا والحملة كلها. فقرروا الذهاب وإغاثة ملطية حالما يبزغ الفجر.

وكان القائد فرينيخوس الأثيني قد بلغته معلومات دقيقة من ليروس عن أسطول العدو، وقال لرفاقه الذين كانوا يحبذون التشبث بمواقعهم وخوض معركة دفاعية في البحر: إنه يعارض هذا الرأي وسوف يجهد للحيلولة دونهم أو أي شخص آخر واتخاذ هذا الموقف، وأضاف أنه لن يخوض معركة إلا بعد أن يستوعب ظروفها ويعرف عدد قوات العدو وما أعدوه ضده، وبعد أن يكون قد استعد جيداً واختار الوقت المناسب، وأنه لن يقاتل بسبب الخوف من أن يقال أنه من العار عدم القتال؛ إذ ليس من العار أن ينسحب أسطول أثيني في اللحظة الملائمة، والأدعى للعار من كل وجه أن يهزم المرء. ولا يقتصر مصاب أثينا على العار وحسب وإنما أن تغدو في مواجهة الخطر الأشد. فبعد النكبات التي حلت بها لم تعد في وضع يسمح لها بالقيام بعمل هجومي، إلا إذا اضطرت إلى ذلك أشد الاضطرار، حتى لو كانت إلى جانبها قوة يعتد بها حقاً. فليس ثمة مبرر حقاً لتورط نفسها في خطر حين لا يكون ثمة ما يفرض عليها ذلك. وطلب إليهم أن يحملوا الجرحى والجنود والعتاد وكل ما جلبوه معهم إلى السفن بأسرع ما يمكن، ويتركوا كل ما أخذوه من أرض العدو، لئلا يثقل ذلك على تلك السفن، والإبحار إلى ساموس لتكون عندما تصل وتجتمع السفن كلها هناك قاعدة تنطلق منها للهجوم في الوقت المناسب. كانت هذه آراءه وعليها قامت تصرفاته. وقد أدرك الجمع الحصافة في قراره فيما بعد أكثر مما أدركوها في حينه. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يتجلى فيها ذكاء فرينيخوس وإنما في كل موقع كان مسؤولاً عنه. وهكذا حرك الأثينيون قواتهم من ملطية هذا المساء دون جني ثمار انتصارهم، بينما أسرع الأرجوس بالإبحار من ساموس عائدين إلى وطنهم، وهم غاضبون أشد الغضب للهزيمة التي نزلت بهم .

وفي الفجر ترك البيلوبونيز تيخيوسة ودخلوا ملطية بعدما رحل عنها الأثينيون. ومكثوا هناك يوماً واحداً. وفي اليوم التالي أخذوا السفن الخيونية التي كانوا قد دفعوا بها من قبل إلى المرفأ مع خالكيديوس ورحلوا لحمل العتاد الذي كانوا قد تركوه في

تيخيوسة. فلما وصلوا جاءهم تيسافيرنيس وجيشه وأقنعهم بالإبحار إلى إياسوس التي يحتلها عدوه أمورجيس. وهكذا شنوا هجوماً مفاجئاً على إياسوس واستولوا عليها. ولم يكن سكانها يتخيلون إلا أن هذه السفن أثينية. وقد برز السيراكوز في هذه المعركة على أحسن وجه، وفي هذه المعركة أيضاً وقع أمورجيس- الابن غير الشرعي لبيسوثنيس، وكان ثائراً على الملك- حياً بيد البيلوبونيز فسلموه إلى تيسافيرنيس ليسلمه بدوره إلى الملك، إن شاء، حسب تعليماته إليهم. ثم قاموا بنهب إياسوس وقد استولى الجيش على الكثير من الغنائم؛ فقد كانت إياسوس معروفة بالثراء منذ عهد قديم. كما أنهم ضموا قوات المرتزقة الذين كانوا في خدمة أمورجيس إلى قواتهم، دون أن يلحقوا بهم أي أذى؛ لأنهم كانوا من البيلوبونيز. ثم سلموا المدينة إلى تيسافيرنيس وجعلوا أهلها جميعاً أسرى لديهم، أحراراً ورقيقاً سواء بسواء. وجعلوا ثمن الواحد منهم ستاتراً دورياً واحداً، ثم قفلوا عائدين إلى ملطية. وكان بيدارتيوس بن ليون قد أرسل من إسبارطة لتولي القيادة في خيوس، وتدبروا له أن يمضي براً حتى إريثراي ومعه مرتزقة أمورجيس. وفي ملطية نصبوا فيليب حاكماً عليها. وهكذا انتهى فصل الصيف.

الفصل الثالث: العمليات البحرية في أيونيا، معاهدات مع تيسافيرنيس ينكرها مفوضون من إسبارطة،ثورة في رودس

وفي الشتاء التالي مضى تيسافيرنيس الذي كان يتولى حماية إياسوس إلى ملطية. وكما وعد في إسبارطة، فقد دفع أجر شهر لكافة العاملين في السفن، بواقع دراخمة أتيكية في اليوم. وعرض أن يدفع المبلغ المترتب كله بالدارخمة إذا شاء الملك. وقد عارض هذا الاقتراح هيرموكراتيس السيراكوزي، بينما لم يتدخل ثيرمينيس في الأمر؛ إذ لم يكن أميراً للبحر بل مرافقاً للأسطول لتسليمه إلى أستيوخوس، ثم تم الاتفاق على دفع مبلغ إضافي يعادل أجر خمس سفن، إضافة إلى ثلاثة أوبولات يومياً لكل رجل. وكان المبلغ الذي يدفعه تيسافيرنيس عن خمس وخمسين سفينة ثلاثين تالنتاً في الشهر، أما مازاد عن هذا العدد فكان المبلغ المدفوع يجري بذات النسبة.

وفي هذا الشتاء جمع الأثينيون في ساموس كل سفنهم من خيوس وسواها، وقد انضمت إليهم السفن الخمس والثلاثون الواردة من أثينا بقيادة خارمينوس وسترومبيخيديس وإكتيمون، وغرضهم إجراء القرعة بين القادة وتوزيع القوة المتوفرة للقيام بحملة بحرية لحصار ملطية وحملة بحرية وبرية مشتركة على خيوس. ولقد تم الأخذ بهذه الخطة وتنفيذها؛ فكانت خيوس من نصيب سترومبيخيديس وأونوماكليس وإكتيمون، فأبحروا متجهين إليها بثلاثين سفينة ومعهم ألف من المشاة الثقيلة ممن كانوا في ملطية وقد حملوهم في سفن للنقل، أما بقية القادة، وكان لديهم أربع وسبعون سفينة فظلوا في مواقعهم في ساموس، للسيطرة على البحر واستخدام قوتهم البحرية ضد ملطية.

وكان أستيوخوس- كما سبق القول- في خيوس يجمع الرهائن بسبب المؤامرة. وقد توقف عن هذا العمل حين سمع بوصول السفن وثيرمينيس، وعلم أن أحوال الحلف في

تحسن، وخرج إلى عرض البحر بعشر سفن بيلوبونيزية وعشر سفن خيونية. وبعد هجوم فاشل على بتيليوم، أبحر أستيوخوس قريباً من الساحل إلى كلازوميناي وأمر الحزب المناصر لأثينا بالتحرك براً إلى دافنوس والانضمام إلى القوات البيلوبونيزية. كذلك كان تاموس ممثل ملك فارس في أيونيا قد أصدر أوامر تحمل ذات المعنى وفي الوقت ذاته، ولما رفض أهالي كلازوميناي الخضوع للأمر عمد إلى شن هجوم على مدينتهم التي لم تكن محمية بسور؛ وحين فشل هذا الهجوم، أبحر بسفنه مبتعداً عنها. ثم إن ريحاً شديدة دفعت بسفينته إلى فوكايا وكوماي، في حين ألقت بقية السفن مراسيها في جزر ماراثوسا وبيلة ودريموسة القريبة من كلازوميناي. وقد مكثوا هناك مدة ثمانية أيام بسبب الرياح، وكانوا يعملون في أملاك الكلازومينيين ومستودعاتهم نهباً وسلباً. ثم حملوا ما بقي منها على ظهر سفنهم وأبحروا نحو فوكايا وكوماي لينضموا إلى أستيوخوس.

وبينما كان أستيوخوس في تلك النواحي وفد إليه ممثلون عن أهالي ليسبوس وأعلنوا رغبتهم في بدء ثورة جديدة. وقد اقتنع أستيوخوس بالحجج التي عرضها هؤلاء، ولكن الكورنث والحلفاء الآخرين لم يبدوا حماساً لفكرة الثورة، بسبب ما أصابهم من فشل في تجربتهم السابقة، ولذلك أقلع بسفنه قاصداً خيوس. وفي الطريق صادفتهم عاصفة، إلا أنهم تمكنوا أخيراً من الوصول إلى مقصدهم من اتجاهات مختلفة. أما بيداريتوس الذي كان يسير براً من ملطية على طريق الساحل- كما سبق القول- فقد وصل إلى إريثراي، ومنها عبر وجيشه إلى خيوس. وكان بإمرته في خيوس نحو خمسمئة رجل مع أسلحتهم، وهم الذين خلفهم خالكيديوس هناك من سفنه الخمس. فلما جاء الليسبيون يعلنون استعدادهم للثورة أحال أستيوخوس الأمر إلى بيداريتوس والخيون قائلاً : إن عليهم توفير الدعم البحري لهؤلاء وإشعال الثورة في ليسبوس، فإن نجحوا كسبوا إلى صفهم المزيد من الحلفاء، وإلا أنزلوا ضرراً بالأثينيين في كل الأحوال. ولكنهم لم يوافقوه

الرأي ورفض بيداريتوس تسليمه السفن الخيونية.

فأخذ أستيوخوس عندئذ خمس سفن من كورنثة وسفينة من ميجارا وأخرى من هيرميونة والسفن التي جاء بها من إسبارطة وأبحر إلى ملطية ليتسلم القيادة أميرا للبحر. وقال للخيون بصريح العبارة: إنهم إن احتاجوا إلى مساعدته فلن ينالوها بالتأكيد بعد الآن. وقد ألقى مراسيه عند كوريكوس في منطقة إريثراي وأمضى الليلة هناك. وكان هناك الأثينيون من ساموس الذين يبحرون مع جيشهم لقتال خيوس وقد رسوا عند الجانب الآخر من تل يفصل بين القوتين، بحيث لم تر إحداهما الأخرى. ولكن وردت في الليل رسالة من بيداريتوس تفيد بوصول بعض السجناء الإريثراي من ساموس الذين اتهموا بخيانة إريثراي لصالح الأثينيين. وما كان من أستيوخوس إلا أن أبحر عائداً إلى إريثراي فوراً، وتفادى بذلك الاصطدام بالأثينيين. وكان بيداريتوس قد أبحر أيضاً للالتقاء به. وأخذا يبحثان عندئذ في قضية الخيانة المزعومة، وبعد أن تبين لهما أن المسألة قصة اختلقها من أرادوا الفكاك من المعتقل في ساموس، حكما ببراءة هؤلاء ثم أبحرا، فذهب بيداريتوس إلى خيوس، بينما تابع أستيوخوس رحلته إلى ملطية.

وفي تلك الأثناء صادفت القوة الأثينية التي كانت تبحر من كوريكوس ثلاث سفن خيونية عند أرجينوس فراحت تطاردها حالما وقعت عليها. ولقد هبت حينئذ عاصفة قوية، ومع ذلك استطاعت السفن الخيونية الوصول إلى المرفأ بأمان، إلا أن السفن الأثينية الثلاث الأبعد في المقدمة أصيبت بالعطب وأجبرت على الرسو عند الشاطئ قريباً من مدينة خيوس، وأصبح بحارتها ما بين قتيل وأسير. أما بقية السفن فوصلت بأمان إلى المرفأ أسفل جبل ميماس والمعروف باسم فينيقوس، ومنه مضت بعد حين ورست في ليسبوس، حيث استعدت القوة لبناء التحصينات.

وفي ذلك الشتاء أبحر هيبوكراتيس الإسبارطي من البيلوبونيز مع عشر سفن ثيورية

بقيادة دوريوس بن دياجوراس وقائدين آخرين، ومعهم سفينة إسبارطية وأخرى سيراكوزية، فوصلوا إلى سنيدوس حيث كان تيسافيرنيس قد عمل على تنظيم ثورة. فلما بلغ ملطية نبأ وصولهم صدرت إليهم التعليمات باستخدام نصف الأسطول في حراسة سنيدوس ووضع النصف الآخر عند تريوبيوم والاستيلاء على كافة السفن التجارية الراسية هناك العائدة من رحلة لها من مصر. وتريوبيوم أرض من سنيدوس ممتدة في البحر، وهي موقع مقدس مكرس لأبولو. فلما سمع الأثينيون بهذا خرجوا بسفنهم من ساموس واستولوا على السفن الست، التي كانت في تريوبيوم تقوم بأعمال الرصد، مع أن طواقمها كانوا قد هربوا. ثم أبحروا إلى سنيدوس وهاجموا المدينة، التي بلا أسوار، وكادوا أن يستولوا عليها. وفي اليوم التالي قاموا بهجوم آخر، إلا أن الأضرار التي ألحقوها بها كانت أقل من اليوم السابق، والسبب في ذلك أن الدفاعات التي أقامها السكان خلال الليل كانت أفضل من سابقاتها، فضلاً عن أن بحارة السفن الذين هربوا من سفنهم في تريوبيوم قد انضموا إليهم في تلك الأثناء مما زاد من قوة المدافعين. وهكذا انسحب الأثينيون ثم رحلوا إلى ساموس بعد أن عملوا نهباً وسلباً في بلاد السنيديين.

ونحو ذلك الوقت حضر أستيوخوس إلى الأسطول الراسي في ملطية. وكان البيلوبونيز مايزالون في غاية الاكتفاء من اللوازم، وهي متوفرة في معسكرهم. وكانت الرواتب مناسبة، ومازال لدى الجنود مبالغ وفيرة من المال الذي قاموا بنهبه في إياسوس. ثم إن الميليسيين أيضاً أبدوا الاستعداد والرغبة في دعم الحرب، غير أن البيلوبونيز مازالوا غير راضين عن الاتفاق الأول الذي عقده خالكيديوس مع تيسافيرنيس، اعتقاداً منهم بأن مكاسب هذا تفوق ما تحقق لهم، فعقدوا اتفاقاً آخر، أثناء وجود ثيرمينيس هناك. وهذا نص الاتفاق:

"اتفق الإسبارطيون وحلفاؤهم والملك داريوس وأبناؤه وتيسافيرنيس على معاهدة لإرساء الصداقة وفق الشروط التالية:

"١- يمتنع الإسبارطيون وحلفاء الإسبارطيين عن شن الحرب أو إلحاق الضرر بالبلاد أو المدن التي تعود للملك داريوس أو كانت تعود لوالده أو أجداده.

"٢- يمتنع الإسبارطيون وحلفاؤهم عن تحصيل العوائد من هذه المدن.

"٣- يمتنع الملك داريوس وكل أتباعه عن شن الحرب أو إلحاق الضرر بالإسبارطيين أو حلفائهم.

"٤- إذا احتاج الإسبارطيون أو حلفاؤهم لمؤازرة من الملك، أو في حال احتاج الملك لمؤازرة من الإسبارطيين أو حلفائهم، فيجب أن يقدم كل منهما ما يحتاج إليه الآخر وفق ما يتم الاتفاق عليه بين الطرفين.

"٥- يقوم الطرفان بخوض الحرب معاً ضد الأثينيين وحلفائهم، ويتم إقرار السلم باشتراك الطرفين معاً.

"٦- يقوم الملك بالإنفاق على كافة القوات في بلده، والتي جاءت بناء على طلبه.

"٧- إذا شنت أي من الدول المشاركة في هذا الاتفاق مع الملك هجوماً على بلده تقوم الدول الأخرى باتخاذ كافة الإجراءات العملية لإيقاف الهجوم والدفاع عن الملك.

"٨- إذا قام أحد في بلد الملك أو في البلدان الخاضعة له بهجوم على الإسبارطيين أو حلفائهم فإن الملك سوف يتخذ كافة الإجراءات العملية لمنع الهجوم والدفاع عن الإسبارطيين وحلفائهم."

بعد هذا الاتفاق قام ثيرمينيس بتسليم الأسطول إلى أستيوخوس، وغادر في قارب صغير وضاع في البحر.

أما الأثينيون فإنهم كانوا قد عبروا بقواتهم الآن من ليسبوس إلى خيوس، وبدؤوا، وقد باتوا مسيطرين على البر والبحر، بتحصين ديلفينيوم، وهو موقع يسهل الدفاع عنه

من ناحية البر، ويتمتع بمرافئ، وغير بعيد عن مدينة خيوس. وأما الخيون فقد نال من عزائمهم ما انتهت إليه المعارك العديدة السابقة، كما أنهم أصبحوا أبعد ما يكون عن الوحدة فيما بينهم. ولما كان بيداريتوس قد أعدم تيديوس بن إيون وحزبه لموالاتهم للأثينيين فإن الحكم بات في بقية المدينة أوليجاركياً وأقلية تتحكم فيها بالقوة، وصار الناس يرتابون بعضهم في بعض وغلب عليهم القنوط. ثم ساد الرأي بأن لا هم ولا مرتزقة بيداريتوس يستطيعون الصمود أمام الأثينيين. ومع ذلك فإنهم أرسلوا إلى ملطية من يطلب من أستيوخوس النجدة، ولكن أستيوخوس رفض طلبهم فأرسل بيداريتوس إلى إسبارطة يشكو مسلكه.

وبينما كان هذا حال الأثينيين في خيوس، كانت سفنهم تواظب على الخروج من ساموس وتهاجم أسطول العدو في ملطية. ولكن لما كان العدو يصر على البقاء في مواقعه ويأبى الاشتباك معهم فإنهم آثروا العودة إلى ساموس ولم يعودوا للاصطدام به.

وفي الشتاء ذاته خرجت السفن السبع والعشرون التي جهزها الإسبارطيون لفارنابازوس بعد المفاوضات التي أجراها كاليجيتوس الميجاري وتيماجوراس السيزيني إلى البحر من البيلوبونيز قاصدة أيونيا نحو الانقلاب الشتوي. وكانت هذه السفن بإمرة إنتيسثينيس، وهو إسبارطي من طبقة الضباط. وكان برفقته أحد عشر ضابطاً من الجيش النظامي ليكونوا مستشارين لأستيوخوس، ومنهم ليخاس بن أريسلاؤس. وقد أنيطت بهم مسؤولية العمل معاً، عند وصولهم إلى ملطية، لإدارة الأمور عموماً على أفضل نحو، وتوجيه أسطول- إذا وجدوا ذلك مناسباً- بما عندهم من السفن أو أي عدد من السفن إلى الهليسبونت وفارنابازوس. ولهم الحق بإزاحة أستيوخوس عن القيادة، بقرار جماعي من المستشارين الأحد عشر، وتعيين أنتيسثينيس محله. وكان السبب في ذلك أن أستيوخوس بات يعتبر موضع شك بعد رسالة بيداريتوس. وأبحر هؤلاء من ماليا ثم نزلوا في ميلوس وصادفوا هناك عشر سفن أثينية، فاستولوا على ثلاث منها وهي فارغة

وأحرقوها. بعد هذا أبحروا إلى كريت، خشية أن تذيع السفن الأثينية التي هربت من ميلوس خبر اقترابهم من الأثينيين في ساموس - وهذا ما كان فعلاً - . وهكذا ألقوا مراسيهم في مرفأ كاونوس بآسيا، بعد أن قطعوا رحلة طويلة للوصول إليه، توخياً للحذر. وهنا اعتبروا أنفسهم في بر الأمان، ثم أرسلوا إلى الأسطول في ملطية يطلبون تزويدهم بسفن لمرافقتهم على طول الساحل.

وكان الخيون وبيداريتوس ما انقطعوا طوال هذا الوقت يبعثون بالرسل إلى أستيوخوس بالرغم من رفضه التحرك لمؤازرتهم. وكانوا يرجونه في رسائلهم أن يأتي بأسطوله كله لنجدتهم؛ إذ كانوا محاصرين، وألا يسمح لأعظم المدن الحليفة في أيونيا أن تُعزل عن البحر وتكون هدفاً للنهب والسلب والدمار من ناحية البر. وكان في خيوس الكثير من الأرقاء ، بل ويزيدون عن أي مدينة أخرى، عدا إسبارطة، وبهذا كان الخيون يشتدون في عقابهم كلما أتوا بأمر سيئ، أما الآن فعندما بدا أن الجيش الأثيني قد تحصن وراء دفاعات قوية فإن هؤلاء الأرقاء أخذوا يفرون إلى صف الأثينيين، فكانوا السبب في أسوأ ما وقع من ضرر، نظراً لمعرفتهم بالبلد. وبناء على ذلك اشتد الخيون في طلب العون من أستيوخوس، مادام ثمة بعض الأمل بإيقاف الأثينيين، وديلفينيوم لما تكتمل تحصيناتها بعد، ومادام العدو منهمكاً في بناء سور أعلى لحماية معسكرهم وأسطولهم. ومع أن أستيوخوس لم يعتزم مساعدتهم بعد تهديداته، إلا أنه غدا مستعداً الآن لمد يد العون إليهم، نظراً لإلحاح الحلفاء على توفير الدعم لهم.

وفي تلك الأثناء وردت أنباء من كاونوس عن وصول السفن السبع والعشرين والمفوضين من إسبارطة. وقد بدا لأستيوخوس أن توفير المرافقة لأسطول كهذا، ستحقق له قدراً أعظم من السيطرة على البحر، ويؤمن سلامة الإسبارطيين الذين قدموا للتحقيق في مسلكه. وهذه أمور اعتبرها جديرة بأن تتقدم على أي أمر آخر، فكان أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى خيوس، مؤثراً الرحيل إلى كاونوس. وفي طريقه بمحاذاة الساحل نزل

في ميروبيد كوس. وكانت هذه مدينة غير حصينة خربها زلزال عظيم لا يذكر أحد أنه سمع بمثله من قبل. وهناك قام بنهب المدينة التي كان سكانها قد هربوا إلى الجبال، وذهب يحمل كل ما صادفه إلا الرجال الأحرار الذين أطلقهم. ومن كوس بلغ سنيدوس ليلاً، إلا أن نصيحة أهلها حملته على المضي دون إنزال البحارة، لاعتراض السفن الأثينية العشرين بقيادة خارمينوس، وهو أحد القادة في ساموس. وكان يرصد قدوم السفن السبع والعشرين ذاتها من البيلوبونيز التي كان أستيوخوس سينضم إليها. وكان الأثينيون في ساموس قد بلغهم من ميلوس نبأ قدومهم فذهب خارمينوس يبحث عنهم قرب سايمة وخالكة ورودس وليسيا، بعدما سمع بأنهم في كاونوس.

ولذلك أبحر أستيوخوس إلى سايمة وهو على هذه الحال، قبل أن يعلم أحد بوصوله، آملاً باللحاق بهذه السفن، وهي في عرض البحر. ولكن سفنه فقدت اتصالها بعضها بعض نتيجة الأمطار الغزيرة وسوء الرؤية فعمت فيها الفوضى وسط الظلام وعند الفجر كان أسطوله مشتتاً، وقد أصبح جناحه الأيسر في مدى النظر من الأثينيين، بينما بقية السفن ماتزال ترد الواحدة تلو الأخرى وتدور حول الجزيرة. وأسرع خارمينوس والأثينيون وخرجوا بما هو دون كامل قوتهم المؤلفة من عشرين سفينة لمواجهة العدو، اعتقاداً منهم بأن السفن التي شاهدوها هي تلك القادمة من كاونوس وهدفهم من البحث. فأغرقوا ثلاث سفن في التو واللحظة وأعطبوا بعض السفن الأخرى، وكانت لهم اليد العليا في الاشتباك عموماً حتى فاجأهم ظهور الجسم الأساسي لأسطول العدو فوجدوا أنفسهم مطوقين من كافة الجهات. فعمدوا عندئذ للهرب وتمكنوا من الإفلات بعد خسارة ست سفن ولجؤوا إلى جزيرة تيوتلوسا ثم توجهوا نحو هاليكارناسوس. وبعد هذا دخل البيلوبونيز ميناء سنيدوس حيث انضمت إليهم السفن السبع والعشرون القادمة من كاونوس. ثم أبحروا من هناك مع كامل أسطولهم وأقاموا نصباً في سايمة وعادوا ليلقوا مراسيهم من جديد في سنيدوس.

وخرج الأثينيون بكل ما لديهم من السفن من ساموس حين بلغهم خبر المعركة البحرية وتوجهوا إلى سايمة. ولكنهم لم يحاولوا الاشتباك مع الأسطول الراسي في سنيدوس، ولا حاول هذا الأسطول منازلتهم. فحملوا العتاد الذي تركوه في سايمة ثم أبحروا عائدين إلى ساموس، بعد أن نزلوا فترة قصيرة في لوريمي على البر الرئيسي.

وكانت السفن البيلوبونيزية كلها قد اجتمعت الآن في سنيدوس، حيث تمت لها الإصلاحات اللازمة، وبدأت عندئذ المناقشات بين المفوضين الأحد عشر الإسبارطيين وتيسافيرنيس، الذي حضر للقائهم، حول أي من النقاط المتصلة بالاتفاقات السابقة التي لم تحظ بقبولهم والمسائل المتعلقة بالسياسة التي ستتبع مستقبلاً في الحرب على الوجه الأنجع والأكثر فائدة لهم وله. وكان لليخاس على وجه الخصوص نظرة هامة حول الوضع القائم فقال: إنه لا يمكن الأخذ بأي من الاتفاقيتين، لا تلك التي عقدها خالكيديوس ولا هذه التي توصل إليها ثيرمينيس. فلسوف يكون أمراً فظيعاً لو طالب الملك بكل الأراضي التي كان يسيطر عليها هو أو أسلافه في الماضي، فلو تم له هذا لاستعبد كافة الجزر مثل ثيسالي ولوكريس وكل ما يقع حتى حدود بويوطيا. وهذا يعني أن إسبارطة لا تقدم للهيلينيين الحرية وإنما هيمنة فارس. ولذلك فقد اقترح صياغة معاهدة أخرى أفضل، وقال: إن هذا الاتفاق غير مقبول وهم لا يريدون منه مالاً بهذه الشروط. وهنا ثار تيسافيرنيس وأرغى وأزبد وغادر وهو في هياج دون أن يتوصل إلى حل للموقف.

وكان البيلوبونيز قد وردتهم نداءات للتدخل من بعض كبار القوم في رودس، فقرروا الآن أن يتجهوا إليها، أملاً بكسب جزيرة ذات أهمية يعتد بها، بسبب خبرة سكانها الكثر بالبحر وقواتها البرية. كما اعتقدوا أنهم يستطيعون تسديد تكاليف أسطولهم من عوائد حلفهم، دون طلب المال من تيسافيرنيس. وهكذا أبحروا من سنيدوس فوراً في ذلك الشتاء، فنزلوا أولاً في كاميروس في منطقة رودس في أربع وتسعين سفينة. ولقد هلع السكان حين رأوا هذا المشهد وهم لا يعلمون بالمفاوضات الجارية ففروا من أمامهم

خاصة وأن مدينتهم لم تكن محصنة. ولكن الإسبارطيين قاموا بجمعهم لاحقاً في مؤتمر ضمهم وأهالي مدينتي ليندوس وإياليسوس وتمكنوا من إقناع الروديين بالثورة والانفصال عن أثينا. وهكذا دخلت رودس في حلف البيلوبونيز.

ونحو ذلك الوقت أبحر الأثينيون الذين بلغ مسامعهم ما كان يجري من أحداث وتوجهوا بأسطولهم من ساموس يقصدون رودس، وهم يريدون الوصول إليها قبل البيلوبونيز، ولكنهم تأخروا في الوصول قليلاً، فقصدوا خالكة ومنها انتقلوا إلى ساموس. وفيما بعد بدؤوا الحرب على رودس بشن هجمات من قواعدهم في خالكة وكوس. وقد حصل البيلوبونيز على مبلغ اثنين وثلاثين تالنتاً من الروديين، وكان هذا جملة نشاطهم، وما عدا ذلك فقد ظلوا في سكون ثمانين يوماً وسفنهم على الشاطئ.

الفصل الرابع: مؤامرات ألسيبياديس مع الأثينيين وتيسافيرنيس، نهاية السنة العشرين للحرب.

في ذلك الوقت وربما أبكر، وقبل انتقال البيلوبونيز إلى رودس دارت مؤامرات هذه تفاصيلها: بعيد موت خالكيديوس ومعركة ملطية، غدا ألسيبياديس موضع ريبة من البيلوبونيز، فبعثوا إلى أستيوخوس بكتاب من إسبارطة يأمر بإعدامه. وكان ألسيبياديس عدواً شخصياً لآجيس الذي يكن له حقداً ويعتبره على العموم شخصاً لا يركن إليه. فقام ألسيبياديس وهو في حال من الذعر باللجوء إلى تيسافيرنيس، ثم توسل بنفوذه لديه للإساءة قدر المستطاع إلى قضية البيلوبونيز. وأصبح منذ ذلك الحين مستشاره في كل أمر، فكان هو الذي عمل على خفض الأجر اليومي من دراخمة أتيكية إلى ثلاثة أوبولات، ودون انتظام في الدفع؛ إذ طلب من تيسافيرنيس أن يقول للبيلوبونيز إن الأثينيين– وهم أكثر منهم خبرة بإدارة الأساطيل– يدفعون لرجالهم ثلاثة أوبولات، وليس ذلك لقلة المال لديهم بقدر ما هو لرغبتهم في منع بحارتهم من الخروج عن قبضتهم؛ لأن كثرة المال بين أيديهم يجعلهم ينفقونه على أمور تسيء إلى صحتهم أو ترك سفنهم؛ وهو أمر محتمل، إن لم يتركوا وراءهم مستحقات ضماناً لحسن سلوكهم. كما أنه نصحه برشوة قباطنة السفن ثلاثية المجاذيف والقادة من مختلف الدول ليضمن موافقتهم، فيما عدا السيراكوز. وكان هيرموكراتيس الوحيد الذي عارضه نيابة عن مجموع القوة المتحالفة. أما المدن التي جاءت تطلب المال فإنه ردها دون أن تبلغ طلبها، وكان هو الذي رد طلباتهم باسم تيسافيرنيس، قائلاً: إن الخيون أغنى شعب في هيلاس، وإنها لوقاحة منهم أن يطلبوا من الآخرين أن يجازفوا بالأرواح والمال في سبيل حريتهم، وهم الذين تقوم قوات من الخارج – على كل حال– بتوفير الحماية لهم؛ وأما في أمر المدن الأخرى فقال: إنهم كانوا مضطرين لدفع المال لأثينا قبل ثورتهم رغماً عنهم، وهم يخطئون كل الخطأ إن امتنعوا عن المساهمة بالمثل، بل وأكثر من ذلك في

سبيل الدفاع عنهم. وأشار بعدُ إلى أن تيسافيرنيس يخوض الحرب وينفق عليها من ماله، فليس ثمة ما يؤخذ عليه، إذن، إن راعى الاقتصاد في الإنفاق، فإذا ورد المال من الملك فسوف يسارع إلى دفع ما يترتب لهم كاملاً غير منقوص وسيقدم للمدن كل مساعدة معقولة.

وقد نصح ألسيبياديس تيسافيرنيس بألا يتسرع بإنهاء الحرب، وألا يستقدم الأسطول الفينيقي الذي كان يقوم بتجهيزه أو يزيد من عدد من يدفع لهم من الهيلينيين؛ ذلك أنه إن فعل ذلك ترك السيطرة في البر والبحر لقوة واحدة، في حين أنه يستحسن أن يكون لديه فريقان، لكل منهما مجاله الخاص من النفوذ، بحيث يمكن للملك إن عانى من أحدهما أن يتوسل بالآخر ويستعين به عليه. أما إذا كانت السيطرة في البر والبحر معاً لدولة واحدة فسوف يشق على الملك أن يجد حلفاء يساعدونه في الحد من هيمنة هذه الدولة، إلا أن يكون الملك مستعداً للتقدم في النهاية ليقاتل هذه القوة، على ما في هذا من كلفة مادية عظيمة وخطر كبير. والأجدى للملك أن يدع الهيلينيين ينهكو بعضهم بعضاً فلا يتكبد في ذلك إلا بعض النفقات ودون أي مخاطرة. وزاد ألسيبياديس بأن قال: إنه يرى أن الأثينيين أفضل من يشاركونه السيطرة؛ لأنه لا مطمح لهم في حيازة إمبراطورية في البر، ثم إن سياستهم وتصرفاتهم في الحرب تلائم مصالح الملك على أفضل وجه؛ لأن التحالف مع الأثينيين سيقوم على أساس سيطرة الأثينيين في البحر وسيطرة الملك على أولئك الهيلينيين الذين كانوا يعيشون في ملكه. وبما أن الإسبارطيين جاؤوا محررين لتلك الأقوام فليس من المرجح إذن أنهم بعد أن تم تحرر الهيلينيين من نير إخوانهم، ألا يقوموا بكل ما يساعد على تحريرهم من العبودية للغرباء، إلا إذا قام الملك بالتخلص منهم أولاً. ولذلك فقد نصحه ألسيبياديس بأن ينهك الطرفين معاً، فإذا تم له ذلك يقوم- بعد إضعاف قوة أثينا إلى أبعد حد ممكن- بطرد البيلوبونيز من البلاد فوراً. وقد وافقه تيسافيرنيس على إتباع هذه السياسة، أو هكذا بدا، كما ظهر من تصرفاته.

فقرب ألسيبياديس منه وجعله مستودع أسراره بفضل حسن نصيحته. ثم إنه كان بخيلاً في دفع مستحقات البيلوبونيز وعارض فكرة خوض معركة في البحر، وبدلاً من ذلك تظاهر بأن السفن الفينيقية قادمة وتستطيع عندئذ أن تقاتل فتكون كل المزايا في جانبهم. وهذا ألحق بهم ضرراً عظيماً وتسبب في ضعف كفاءة أسطولهم وتدني معنويات مقاتليهم إلى أبعد حد. وقد أظهر بكل جلاء إعراضاً عن مساعدتهم في الحرب.

ولم يعرض ألسيبياديس نصيحته للملك وتيسافيرنيس، لمجرد اعتقاده بأنها أفضل هدية لديه ليقدمها وحسب، وإنما لأنه وجد فيها ضالته التي تجعل قومه يستدعونه إلى بلده. فقد كان يعلم أنه إن جنبها الدمار، فسوف يأتي وقت يستدعيه فيه الأثينيون من منفاه، وخطر بباله أن أفضل ما يمكنه من إقناعهم بذلك سيكون بأن يظهر لهم أنه على صلة طيبة مع تيسافيرنيس. وهذا ما حدث في الواقع؛ ذلك أنه لما أدرك قادة القوات الأثينية في ساموس أن للرجل نفوذاً عظيماً لدى تيسافيرنيس بادروا للاتصال به من تلقاء أنفسهم. كما شجعهم على ذلك ما بعث به من رسائل إلى أبرز أولئك القادة يطلب فيها عرض آرائه بين المقدمين في الجيش وبسط قوله أمامهم: إنه لو كان في أثينا حكماً يقوم على نخبة أوليجاركية عوضاً عن الديمقراطية الفاسدة لكان مستعداً للعودة إلى وطنه والقيام بدوره إلى جانب مواطنيه وكسب تيسافيرنيس صديقاً لهم. وهكذا أخذ القباطنة الأثينيون في ساموس والقادة في الجيش يعدون للإطاحة بالديمقراطية في أثينا.

وقد بدأ التوتر في القوات الموجودة في ساموس ثم انتشر لاحقاً إلى أثينا. وأخذ شتى الناس من ساموس يقصدون ألسيبياديس ليناقشوا معه أموراً وقضايا. وكان هو يحمل في ذاته الآمال بكسب صداقة تيسافيرنيس أولاً فالملك لاحقاً، ويعول على كسب ثقة الملك بالإطاحة بالديمقراطية. وقد أخذ أفراد أقوى طبقة من الأثينيين، الذين كانوا يعانون أشد المعاناة من الحرب، يحملون الآمال العريضة بالاستيلاء على السلطة والخروج من الحرب

منتصرين. فلما عادوا إلى ساموس اجتمعوا بالأشخاص وقاموا بتأسيس حزبهم الخاص من بين هؤلاء، وذهبوا يقولون صراحة لمجموع القوات: إن الملك ينشد صداقتهم وسوف يوفر لهم المال إن تمت إعادة ألسيبياديس من منفاه وإنهاء الحكم الديمقراطي. ولعل الرأي العام في المعسكر قد أزعجته هذه المؤامرات لفترة، إلا أنه هدأ في النهاية وأخذ أصحابه يمنون النفس بنيل المال من الملك.

وبعد أن عرض دعاة الأوليجاركية آراءهم على جمع الجنود، عقدوا اجتماعاً بينهم وبين معظم أعضاء حزبهم وتدارسوا ما قدمه ألسيبياديس لهم من العروض. وكان الرأي السائد يميل إلى الثقة بمخططاته ووجدوا أنه من اليسير تنفيذها، إلا أن فرينيخوس الذي كان مايزال قائداً، عارض هذا الأمر برمته؛ فقد اعتقد- وكان محقاً في اعتقاده- أن الأوليجاركية والديمقراطية سواء عند ألسيبياديس. ومقصده من هذا الأمر أن يحمل أصدقاءه على استدعائه للعودة إلى أثينا نتيجة تعديل في الدستور القائم، والأمر الذي ينبغي على الأثينيين الحذر منه كل الحذر هو نشوب ثورة داخلية. وأما الملك فليس من الملائم له ولا هو من اليسير عليه أن يتورط في مشكلات يجرها عليه انضمامه إلى الأثينيين، خاصة وأنه لم يكن ليثق بهم، فضلاً عن أن البيلوبونيز يحتلون مدناً هامة في إمبراطوريته، كما أنهم برهنوا على مقدرتهم بالوقوف نداً لأثينا في البحر، في حين أن الفرصة تهيأت له لكسب صداقتهم، وهم الذين لم ينل منهم أي أذى. أما الدول التي تؤلف الحلف الأثيني، والتي قطع لها الوعد بإقامة حكومات أوليجاركية بلا ريب لمجرد أن الاتفاق جرى على الإطاحة بالديمقراطية في أثينا، فقد قال فرينيخوس: إن لديه الثقة التامة بأنه لن يكون لذلك أي أثر سواء في كسب المدن الثائرة الآن أو في جعل المدن الأخرى موثوقة أكثر؛ ذلك أنهم أكثر اهتماماً بنيل الحرية مهما تكن طبيعة الحكومة من أن يكونوا مستعبدين، سواء كانت الحكومة أوليجاركية أم ديمقراطية، فضلاً عن ذلك أن هذه الدول لا تجد سبباً يحملها على الافتراض بأنها ستكون أفضل حالاً وهي في حكم

ما يسمى الطبقات العليا منها وهي في حكم الديمقراطية، علماً بأن الديمقراطية حين ارتكبت الجرائم فعلت ذلك بتحريض من هذه الطبقات العليا وتوجيهها، وعادة لمصلحتها. فإذا كانت لهذه الطبقات السيطرة أمكن قتل البشر دون محاكمة، بينما وفرت الديمقراطية الأمان للإنسان العادي وأبقت الطبقات العليا على مراتبها. وقال فرينيخوس: إنه واثق كل الثقة من أن هذا ما تعلمته المدن من تجربتها، وهو ما تعتقده. ومن جهته فإنه يعارض لهذا الأسباب الأفكار التي عرضها ألسيبياديس والمؤامرات الدائرة الآن.

ولكن بالرغم من هذا العرض فقد ظل أعضاء الحزب الحاضرون ثابتين على موقفهم ولم يتحولوا عن أفكارهم. فاعتمدوا البرنامج المعروض أمامهم واستعدوا لتوجيه بيساندر وآخرين معه ممثلين عنهم إلى أثينا ليفاوضوا بشأن استدعاء ألسيبياديس والإطاحة بالحكم الديمقراطي والعمل لكسب تيسافيرنيس صديقاً للأثينيين.

ولقد رأى فرينيخوس الآن أن الاقتراح باستدعاء ألسيبياديس محقق، وخلص إلى أن الأثينيين سيوافقون بلا ريب على الأخذ به. فخشي بعد خطابه أن ينكل به ألسيبياديس إن عاد، جزاء لمحاولته إحباط مساعي من يحاولون إعادته. فلجأ للخطة التالية بأن أرسل كتاباً إلى أمير البحر الإسبارطي أستيوخوس سراً، وكان مايزال حينئذ في جوار ملطية وأخبره بتآمر ألسيبياديس على إسبارطة والعمل على استمالة تيسافيرنيس ليكون صديقاً للأثينيين. وقد تضمنت الرسالة بعدُ عرضاً واضحاً لكافة الأمور الأخرى، ومناشدته بأن محاولته الإيقاع بعدو شخصي، ولو أثر ذلك في مصالح بلده، أمر جدير بالتفهم. ولكن هذه الرسالة لم يكن لها الصدى الذي رجاه صاحبها؛ إذ إن أستيوخوس لم يكن يعتزم معاقبة ألسيبياديس الذي لم يعد على كل حال في متناوله الآن. وبدلاً من ذلك فإنه رحل عن الساحل لمقابلته وتيسافيرنيس في مجنيسيا وأخبرهما بفحوى الرسالة التي وردت إليه من ساموس، وتحول هو ذاته إلى مخبر. والواقع أن القول قد شاع بأنه باع نفسه

لتيسافيرنيس في سبيل كسب المال بأن عرض عليه إطلاعه على معلوماته حول هذا الموضوع وكافة القضايا الأخرى، وكان هذا هو سبب تهاونه في موضوع عدم دفع الأجور بالكامل.

فبادر ألسيبيادس بإرسال كتاب إلى السلطات في ساموس فوراً حمل فيه على فيرينيخوس وكشف أمره وطالب بإعدامه. ولقد أُخذ فرينيخوس الآن من حيث لا يتوقع ووجد نفسه في خطر عظيم بسبب هذه المعلومات التي كشفت أمره. فكتب إلى أستيوخوس مرة أخرى محتجاً على كشف مضمون رسالته الأولى، وقال: إنه مستعد الآن لتوفير الفرصة لهم للقضاء على كل القوات الأثينية الموجودة في ساموس. ومضى فدون تعليماته المفصلة حول الأسلوب الذي سوف يتبعه في ساموس غير المحصنة، وقال صراحة ألا ملامة عليه إن أقدم على هذا الأمر أو سواه ليفلت من براثن ألد أعدائه، طالما أن حياته في خطر.

ومرة أخرى عاد أستيوخوس فأسر بهذه المعلومات إلى ألسيبيادس، غير أن فرينيخوس علم في اللحظة المناسبة بخيانة أستيوخوس الأمانة، وأن رسالة من ألسيبيادس تتعلق بهذا الموضوع يمكن أن تصل في أي لحظة. ولذلك خرج أولاً وأخبر الجيش بأن العدو في سبيله للهجوم على المعسكر مستفيداً من افتقار ساموس للتحصين وغياب الأسطول عن المرفأ، وقال: إنه واثق من وقوع هذا الهجوم، وحثهم على تحصين ساموس بأسرع ما يمكن، وطلب إليهم الانتباه والحذر. ولما كان هو الذي يتولى القيادة الآن فإنه أخذ بيده صلاحيات القائد وصار يشرف على تنفيذ ما أمر به. وراح الأثينيون يعملون في إقامة التحصينات؛ فباتت ساموس محصنة بأسرع وقت، علماً بأن تحصينها كان على كل حال أمراً مقرراً من قبل. ولم يمض إلا حين حتى ورد كتاب ألسيبيادس يفيد بأن فرينيخوس قد غدر بالجيش والعدو في سبيله لشن الهجوم. ومع ذلك فإن القوم لم يكونوا يطمئنون إلى ما أتى به ألسيبيادس، وكان الظن أنه يعلم بمخططات العدو وهو يحاول الآن

لضغينة يحملها في نفسه أن يلصق بفرينيخوس تهمة الضلوع فيها. وهكذا لم يؤد كتابه إلى إضرار بفرينيخوس وإنما جاء ليؤكد ما سبق له قوله وحسب.

ولقد مضى ألسيبياديس بعد هذا وتابع محاولاته لإقناع تيسافيرنيس بمصادقة الأثينيين. وكان تيسافيرنيس ذاته يخشى البيلوبونيز، لامتلاكهم من السفن أكثر مما لدى الأثينيين في تلك المنطقة. وكان مايزال على استعداد من الناحية الأخرى لأن يستمال، لو عرف السبيل إلى ذلك، خاصة وأنه بات يدرك الآن معارضة البيلوبونيز في سنيدوس للمعاهدة التي عقدها ثيرمينيس. وكان الصراع قد نشب في ذلك الحين حول هذه المعاهدة؛ لأن البيلوبونيز كانوا الآن في رودس. وكانت الحجة التي أتى بها ألسيبياديس حول قيام البيلوبونيز بتحرير المدن لاحقاً قد أثبتها قول ليخاس: إنه لا يمكن القبول باتفاق يسمح للملك أن يفرض حكمه على دولة خضعت له أو لأسلافه من قبل. ولذلك دأب ألسيبياديس، الذي كانت أعماله ستؤدي به إما لربح عظيم أو خسارة فادحة، على الاتصال باستمرار بتيسافيرنيس وبذل كل جهده ليكسبه إلى رأيه.

وها هو ذا بيساندر وممثلو الأثينيين الآخرين قد خرجوا الآن من ساموس وبلغوا أثينا وخاطبوا أفراد الشعب وعرضوا أمامهم فكرة عامة عن مشروعهم الذي يدعون إليه، مشددين على وجه الخصوص على أنهم إن استدعوا ألسيبياديس وتحولوا عن دستورهم الديمقراطي فقد يتخذون من الملك حليفاً ويفوزون في الحرب على البيلوبونيز. وكانت أكثر الاعتراضات التي واجهوها تتصل بمسألة التحول عن الديمقراطية. وصرخ أعداء ألسيبياديس منددين بفكرة المجيء به من منفاه على نحو ينطوي على انتهاك للقانون. وبسطت الأسر الدينية الأومولبيدية والسيريكية دعاواها المتصلة بالأديان السرانية – وهي السبب في نفيه – وطالبت باسم الآلهة بمنع عودته. فتقدم بيساندر عندئذ في وجه معارضة عنيفة وتناول كل من عارض اقتراحه واحداً تلو الآخر، وتوجه إليه بالسؤال التالي: "إن البيلوبونيز لديهم الآن من السفن مثل ما لدينا وهم جاهزون لقتالنا في البحر،

ولهم مدن حليفة أكثر منا، والملك وتيسافيرنيس يمدانهم بالمال، بينما نفد مالنا نحن، فهل لديكم أي أمل ببقاء أثينا إلا إذا تمكن أحدهم من إقناع الملك بتغيير تحالفاته والانتقال إلى صفنا؟" فلما جاءه الرد بالنفي انتقل للحديث المباشر وخاطبهم قائلاً: "حسناً إذن فهذا مستحيل ما لم يتوفر لنا شكل من الحكومة، أشد تماسكاً من هذا الشكل القائم الآن، حيث تكون السلطة في أيد أقل، فيستطيع الملك عندئذ أن يثق بنا. وما علينا في هذه اللحظة إلا أن نفكر في بقائنا واستمرارنا، لا بشكل دستورنا. -إذ نستطيع أن نغير هذا الشكل في وقت لاحق، إن لم يرق لنا-. ويجب علينا أن نعيد ألسيبياديس إلى البلد، فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع تدبير الأمر لنا."

ولقد استقبل القوم فكرة الحكم الأوليجاركي بادئ الأمر استقبالاً سيئاً، ولكن مخاوفهم حملتهم على القبول بها، بعدما أوضح لهم بيساندر على نحو لا لبس فيه أن هذا مخرجهم الوحيد من المأزق -وقد ازدادوا ارتياحاً مع احتمال تغيير الدستور فيما بعد-. فصوتوا على قرار بتوجيه بيساندر وعشرة مفوضين آخرين والإبحار لوضع أية ترتيبات يجدونها مناسبة مع تيسافيرنيس وألسيبياديس. ولما أثار بيساندر اعتراضات على مسلك فرينيخوس، قام المؤتمر بإعفائه وزميله سكيرونيديس من مهام القيادة وأرسلوا ديوميدون وليون ليحلا محلهما في قيادة الأسطول. وكان بيساندر قد شكك بفرينيخوس متهماً إياه بخيانة إياسوس وأمورجيس. وقد حمله على ذلك اعتقاده بأن فرينيخوس لا يصلح للأمر الذي يجري الإعداد له مع ألسيبياديس. كذلك اتصل بيساندر بكافة الأحزاب الموجودة في أثينا ليكفل تعاونها في الدعاوى القضائية والحصول على التعيينات، وقد حثها على الاتحاد واتباع سياسة مشتركة للتخلص من نظام الديمقراطية. وبعد أن أنجز كل ما يقتضيه الوضع من الترتيبات تفادياً للمزيد من التأخير خرج ورفاقه العشرة في رحلتهم لمقابلة تيسافيرنيس.

وفي ذلك الشتاء قام ليون وديوميدون اللذان انضما الآن إلى الأسطول الأثيني

بمهاجمة رودس فوجدا السفن البيلوبونيزية قد سحبت إلى الشاطئ، إلا أنهما نزلا البر مع ذلك، وبعد أن هزما الروديين الذين خرجوا لاعتراضهما انسحبا إلى خالكة التي جعلا منها الآن قاعدة لعملياتهما، عوضاً عن كوس، نظراً لسهولة رصد حركة الأسطول البيلوبونيزي من هذا الموقع.

وفي ذلك الوقت جاء إلى رودس زينوفانتيداس اللاكوني، الذي كان بيداريتوس في خيون قد أرسله، وأخبر البيلوبونيز باكتمال التحصينات التي أقامها الأثينيون، وأضاف أن خيوس سوف تسقط، إلا إذا هرعوا لنجدتها بكامل الأسطول. فقرر البيلوبونيز القيام بذلك وتقديم النجدة اللازمة. وفي الوقت ذاته قام بيداريتوس والمرتزقة لديه وجيش الخيون بكامله بمهاجمة التحصينات التي توفر الحماية للسفن الأثينية، واستولوا على مقطع من تلك التحصينات وعدد من السفن الراسية على البر. ورد الأثينيون بهجوم مضاد وكسروا الخيون أولاً، ثم دحروا بقية الجيش الذي كان بيداريتوس يتولى قيادته، ولقد تم قتل بيداريتوس، وأسر عدد كبير من الخيون والاستيلاء على كميات من السلاح.

وبعد هذا تم تضييق الحصار على الخيون وازداد إحكاماً من البر والبحر معاً، واشتدت معه المجاعة.

وفي هذا الوقت وصل بيساندر وممثلو الأثينيين إلى قصر تيسافيرنيس وبدؤوا المفاوضات للوصول إلى الاتفاق الذي جاؤوا سعياً إليه. وكان ألسيبياديس لا يدري موقعه عند تيسافيرنيس الذي كان يخشى البيلوبونيز أكثر من خشيته من الأثينيين، ومازال يتبع نصيحة ألسيبياديس ويريد إنهاك الجانبين معاً. وليتخلص ألسيبياديس من المأزق اتبع الخطة التالية التي تقوم على فرض شروط تعجيزية ليمنع الاتفاق. وإني لأرى أن تيسافيرنيس سعى إلى هذه النتيجة نفسها مع أن السبب في حالته كان الخوف، في

حين أن ألسيبياديس - حين وجد تيسافيرنيس عازماً على تفادي الاتفاق- أراد أن يدخل في روع الأثينيين أن التقصير في بلوغ الاتفاق ليس مرده عجزه عن كسب تيسافيرنيس إلى رأيه، وإنما لأنهم قصروا في تقديم ما يغريه بالقبول، بعدما كان قد استماله إلى رأيه وبات مستعداً للانضمام إليهم. ولما أخذ يخطب في الأثينيين نيابة عن تيسافيرنيس، وكان حاضراً، ذهب يبالغ في شروط الاتفاق حتى جعل الأثينيين في موقف المسؤول عن انهيار المحادثات، بالرغم من أنهم كانوا يبدون الموافقة على كل ما كان يطلب منهم. فطالب في البداية بكامل أيونيا لتيسافيرنيس ثم الجزر قبالة الساحل وسوى ذلك من التنازلات. ولم يعارض الأثينيون أي من هذه المطالب، وفي النهاية طالب - في الجلسة الثالثة، وخشية أن يكتشفوا مبلغ ضعف نفوذه - بأن يكون للملك أن يبني السفن ويبحر على سواحله حيث شاء وبأسطول ضخم كما يشاء. وكانت هذه نقطة لا يستطيع الأثينيون أن يتنازلوا عندها بعد ما قدموا من التنازلات. ولم يجدوا عندئذ جدوى من متابعة النقاش فغادروا بعد ما تبين لهم خداع ألسيبياديس، وعادوا إلى ساموس، وهم في ضيق.

بعد ذلك، وفي هذا الشتاء، أبحر تيسافيرنيس بمحاذاة الساحل إلى كاونوس. وكان يريد عودة البيلوبونيز إلى ملطية، بعد أن يعقد وإياهم معاهدة أخرى بأفضل شروط يمكنه ترتيبها، ويدفع لهم المال لئلا يجد نفسه معهم في عداء مكشوف. فقد كان يخشى إن قصروا عن دفع مرتبات عدد كبير من سفنهم أن يضطروا لقتال الأثينيين ويندحروا أمامهم أو تبقى السفن دون بحارة فيحقق الأثينيون مراميهم دون مساعدة منه. وكان مايزال عندئذ يخشى من أن يقوم البيلوبونيز بنهب البر الرئيسي للحصول على المؤن. فأرسل إلى البيلوبونيز بعد موازنة مختلف العوامل وفق سياسته القائمة على حفظ التوازن بين القوتين الهيلينيتين بوضع إحداهما في مواجهة الأخرى، فقدم لهم المال وعقد وإياهم معاهدة ثالثة، وفيما يلي نصها:

"في السنة الثالثة عشرة من عهد داريوس وفي حكم الإيفور ألسيبياديس في إسبارطة، تم عقد معاهدة في سهل مياندر بين الإسبارطيين وحلفائهم.

"١- تبقى أرض الملك في آسيا ملكاً له، ويقوم الملك بما يرضيه من إجراءات في بلده.

"٢-يمتنع الإسبارطيون وحلفاؤهم عن الاعتداء على البلد التابع للملك، كذلك يمتنع الملك عن الاعتداء على بلد الإسبارطيين وحلفائهم.

"٣- إذا هاجم أي من الإسبارطيين أو حلفائهم بلد الملك فيقوم الإسبارطيون وحلفائهم بمنع هذا الهجوم، كذلك إذا وقع على بلد الإسبارطيين أو حلفائهم هجوم مصدره بلد الملك فإن الملك يقوم برده.

"٤- يتولى تيسافيرنيس تقديم المرتبات - وفق الاتفاق القائم - للسفن العاملة حالياً حتى وصول سفن الملك. وبعد وصول سفن الملك، يكون للإسبارطيين وحلفائهم، إن شاؤوا، تولي دفع نفقات سفنهم الخاصة، أما إذا آثروا تلقي نفقاتها من تيسافيرنيس فإنه سيقوم بتوفير المال لها، وفي نهاية الحرب يقوم الإسبارطيون وحلفاؤهم برد الأموال هذه إليه.

"٥- يتعاون أسطول الإسبارطيين وحلفائهم وأسطول الملك، بعد وصول سفنه، في الحرب على النحو الذي يراه تيسافيرنيس والإسبارطيون وحلفاؤهم ملائماً.

"٦- إذا شاء الطرفان في هذه المعاهدة عقد السلم مع الأثينيين فإن للطرفين كليهما حق إبداء الرأي في هذا السلم."

تلكم هي المعاهدة التي توصل إليها تيسافيرنيس. وبعدها قام بالاستعدادات لاستقدام الأسطول الفينيقي، وفق شروط المعاهدة، ولتنفيذ وعوده الأخرى، وقد هدف لأن يبدو على الأقل بمظهر البدء بتنفيذ أقواله.

وحينما كاد هذا الشتاء يشرف على نهايته استولى البويوط على أوروبوس بالخيانة، وكانت تحرسها حامية أثينية. وكان المتواطئون مع البويوط أشخاص من إيرتريا وأوروبوس أيضاً وقصدهم إثارة الثورة في يوبوية. وأوروبوس هذه تقع قبالة إيرتريا، ووقوعها في يد الأثينيين جعلها مصدر تهديد خطير لإيرتريا ويوبوية معاً. أما وقد باتوا يسيطرون عليها فإن الإيرتريين هرعوا إلى رودس وسألوا البيلوبونيز التدخل في يوبوية. ولكن البيلوبونيز كانوا أشد ميلاً لنجدة خيوس وخلاصها من محنتها. فما كان منهم إلا أن ركبوا سفنهم وخرجوا من رودس ومعهم الأسطول بكامله. وعند تريوبيوم شاهدوا الأسطول الأثيني يخرج من خالكة. ولم يحاول أي من الأسطولين الاشتباك مع الآخر. وعاد الأسطول الأثيني إلى ساموس، والبيلوبونيزي إلى ملطية؛ وقد أدرك كلاهما الآن أنه يستحيل نجدة خيوس دون معركة في البحر.

وهكذا انتهى الشتاء، ومعه انتهت السنة العشرون من الحرب التي دون وقائعها ثوسيديديس.

الفصل الخامس: انقلاب أوليجاركي في أثينا، رد فعل ديمقراطي في الجيش في ساموس

في مطلع الصيف التالي أرسل الإسبارطيون درسيلداس، وهو من ضباط الجيش النظامي، ومعه قوة صغيرة براً إلى الهليسبونت، لإحداث ثورة في أبيدوس، وهي مستوطنة تابعة لملطية، وفي الوقت ذاته فإن وطأة الحصار الشديد الذي كان الخيون يعانونه، وعدم تمكن أستيوخوس من إيجاد وسيلة لنجدتهم، فرضت على الخيون خوض المعركة في البحر. وكان الخيون قد استعانوا بضابط إسبارطي من ملطية يدعى ليون، فخرج إليهم برفقة إنتيستنيس وذلك بعد موت بيداريتوس، وأستيوخوس مايزال في رودس. فجاء ليون هذا ومعه اثنتا عشرة سفينة كانت تقوم بالحراسة في ملطية – خمس سفن ثيورية وأربع سيراكوزية وواحدة من أنايا، وواحدة يملكها ليون– ولقد زحف الخيون عندئذ بكامل قوتهم واتخذوا موقعاً منيعاً، وفي الوقت ذاته خرجوا في ست وثلاثين من سفنهم واصطدموا بالأسطول الأثيني المؤلف من اثنتين وثلاثين سفينة. وبعد قتال عنيف في البحر كانت السيطرة فيه للخيون وحلفائهم، تراجعوا منسحبين إلى مدينتهم لتأخر الوقت.

وكان درسيلداس قد أتم زحفه على طول الساحل من ملطية بعيد تلك المعركة مباشرة. ولقد ثارت أبيدوس في الهليسبونت وانضمت إليه وإلى فارنابازوس، وبعد يومين لحقت بها لمبساكوس. فلما بلغ النبأ سترومبيخيديس أسرع بالخروج من خيوس لنجدة تلك المواقع، ومعه أربع وعشرون سفينة أثينية منها بعض سفن النقل التي تحمل المشاة الثقيلة. فخرج أهالي لمبساكوس لقتاله، ولكنه دحرهم في المعركة واستولى دون مشقة على لمبساكوس التي لم تكن حصينة. وغنم الرقيق والمتاع، ومضى إلى أبيدوس، بعد أن أعاد الأحرار إلى بيوتهم. وفي أبيدوس أعرض الناس عن الانضمام إليه، ثم فشل

في الاستيلاء على المدينة عنوة؛ لذلك عبر البحر إلى الساحل المقابل إلى سيستوس وهي مدينة في خيرسونيس كان الفرس قد احتلوها من قبل، وجعلها قاعدته للدفاع عن الهليسبونت بأكمله.

وكانت للخيون خلال هذا الوقت معظم السيطرة على البحر. وازداد أستيوخوس والبيلوبونيز ثقة بالنفس حين بلغتهم أخبار المعركة البحرية ورحيل سترومبيخيديس وسفنه. فأبحر أستيوخوس على امتداد الساحل إلى خيوس مع سفينتين وجمع أسطولاً هناك ومضى به لمهاجمة ساموس. ولما كان الأثينيون يرتابون بعضهم ببعض فإنهم لم يخرجوا لقتاله؛ فأبحر عائداً إلى ملطية.

ويرجع سلوك الأثينيين هذا إلى انهيار حكم الديمقراطية في أثينا نحو ذلك الوقت. فبعد أن ترك بيساندر والمندوبون الآخرون تيسافيرنيس أخذوا يدعمون نفوذهم في الجيش في ساموس حين عادوا إليها، ثم راحوا يتقربون من الأعيان البارزين فيها، وهم يقصدون إغراءهم بالانضمام إليهم في إقامة حكم أوليجاركي، بالرغم من أن أهالي ساموس قد خبروا منذ قريب ثورة أوليجاركية. وكان الأثينيون في ساموس قد تداولوا الأمور فيما بينهم وقرروا أن يدعوا ألسيبياديس وشأنه طالما أنه لم يرغب في الانضمام إليهم -ولم يبد أنه الشخص المناسب للمشاركة في الحكم الأوليجاركي-، ولكنهم اختاروا أخذ زمام الأمور بأيديهم، طالما أن وضعهم مهدد أساساً، ثم يتدبرون ما يمكن أن يطرأ على الأوضاع، وقرروا بعد أن يستمروا في الصمود أمام العدو في الحرب، والمساهمة بالمال وكل ما يتطلبه الأمر من أملاكهم الخاصة؛ لأن المصاعب المتوقعة لا تستهدف مصالح الآخرين بل مصالحهم ذاتها.

وبعد أن انتهوا من تشجيع بعضهم بعضاً بمثل هذه الحجج وسواها أرسلوا بيساندر ونصف المندوبين إلى أثينا لتحفيز القوم هناك على العمل، ووجهوهم إلى إقامة حكومات

أوليجاركية في كافة الدول التابعة التي يمرون بها في طريقهم. أما النصف الآخر فقد أرسلوا في اتجاهات مختلفة إلى مدن تابعة أخرى. كذلك فإن ديتريفيس الذي كان في منطقة خيوس، قد عين قائداً في منطقة تراقية، وأرسل ليتولى مهمته. فلما بلغ ثاسوس أطاح بالحكومة الديمقراطية هناك. وفي غضون شهرين من مغادرته المنطقة أخذ أهالي ثاسوس بتحصين مدينتهم، باعتبار أنه لم يعد هناك ما ينالونه من حكومة أرستقراطية تربطهم بأثينا، في الوقت الذي يتوقعون فيه نيل حريتهم كل يوم من إسبارطة. وكان بعض الذين قام الأثينيون بنفيهم من البلد وصاروا الآن مع البيلوبونيز يجهدون بالتعاون مع أصدقائهم في المدينة، لاستدعاء أسطول وإشعال ثورة في الجزيرة. وقد رأى هؤلاء الأشخاص أن الأمور تجري كما كانوا يرغبون؛ فها هي ذي مدينتهم تسير على الطريق الصحيح دون أن يتورطوا في أي مجازفة، ثم ها هي ذي الديمقراطية التي ناهضتهم قد انتهى أمرها. وهكذا ففي ثاسوس كان للإجراءات التي اتخذها الحزب الأوليجاركي الأثيني عكس الأثر المقصود. وفي رأيي أن مثل هذا الوضع تكرر في عدد من الدول التابعة الأخرى، ففي المدن التي أصبحت حكوماتها تمسك بقدر أعظم من السلطات – وليس ثمة خوف من التشهير بأفعال المرء – انتقل الناس فوراً إلى الحرية التامة دون أن يربطهم شيء بالوهم الذي قدمه لهم الأثينيون باسم "الإصلاح".

وكان بيساندر والآخرون كلما مروا ببلد في طريقهم أطاحوا بالحكومة الديمقراطية فيه على نحو ما تقرر، وجندوا من بعض البقاع المشاة الثقيلة أيضاً لتدعيم قوتهم، وهكذا حتى بلغوا أثينا. وهنا وجدوا معظم العمل اللازم قد أنجز على يد أعضاء حزبهم. كذلك قام بعض الشباب بتشكيل جماعة فيما بينهم، وكان من أفعالهم قتلهم رجلاً يدعى أندروكليس دون أن يتم اكتشاف أمرهم، وهو أحد زعماء حزب الأغلبية وكانت له اليد الطولى في معاقبة ألسيبياديس. فكان لديهم، إذن، سببان لاغتياله : أولهما تأثيره على الجماهير، وثانيهما أنه خيل إليهم أنهم يقومون بعمل يسر ألسيبياديس الذي اعتقدوا

أنه عائد من المنفى ومعه صداقة تيسافيرنيس. وكان هناك بعض الذين يعتبرونهم أشخاصاً غير مرغوبين فعمدوا إلى التخلص منهم سراً. وفي العلن طرح هؤلاء برنامجاً يمنع تقاضي الرواتب إلا لمن كان في صفوف القوات المسلحة. وأن يقتصر عدد العاملين في الحكومة على خمسة آلاف، على أن يكون هؤلاء الأفضلين لخدمة الدولة من حيث كفاءتهم الشخصية أو ملاءتهم المالية. وكان هذا الإعلان مجرد دعاية موجهة للجمهور عموماً؛ لأن السلطة في المدينة سوف يستولى عليها الثوريون أنفسهم.

وبالرغم مما تقدم فقد ظل المجلس التشريعي والمجلس الاستشاري اللذان تم اختيار أعضائهما بالقرعة يعقدان اجتماعاتهما. غير أن قراراتهما لم تكن تصدر إلا بموافقة حزب الثورة. والحق أن كافة الخطباء جاؤوا من صفوف هذا الحزب، وكان كل ما يجري على ألسنتهم مقرراً سلفاً منه. وكان الناس يخافون هؤلاء ولا يجرؤ أحد على معارضتهم. وإذا غامر أحدهم فقال قولاً لا يرضون عنه دبروا طريقة مناسبة لقتله، وليس هناك من يجرؤ على التحقيق في هذه الجرائم حين تقع أو القيام بإجراء حيال من يُظن بأن له ضلعاً فيها. فكان الناس يلتزمون الصمت، وفي حال من الخوف يجعلهم يعتبرون أنفسهم محظوظين إن لم ينلهم أذى حتى ولو لم يصدر عنهم أي قول مهما كان. وقد كانوا يتخيلون أن حزب الثورة أكبر من حقيقته ما جعلهم يفقدون الثقة بأنفسهم؛ إذ لم يكن بوسعهم أن يتبينوا الحقائق بسبب اتساع المدينة وعدم توفر معرفة بعضهم الكافية ببعض . ولهذا السبب أيضاً كان من المستحيل على المرء أن يجد من ينصفه ويأخذ بيده إذا ما شعر بأنه قد لقي معاملة سيئة، فقد يشكو أمره لشخص لا يدري كيف يتصرف أو لشخص عارف إنما لا يعول عليه. وكان الناس من أول الحزب الديمقراطي إلى آخره يتعاملون بعضهم مع بعض في جو من الشك والريبة وكل منهم يظن بأن لجاره يداً فيما يجري. والواقع أنه كان بين الثوريين أشخاص ما كان لأحد أن يتخيل وجودهم في حزب أوليجاركي. وهؤلاء هم المسؤولون أساساً عن إشاعة الشك والريبة بين الناس وكانوا أعظم

عون في سلامة الأقلية، بسبب ترسيخهم مبدأ الشك والارتياب في المجالس الشعبية.

تلكم هي الحال السائدة حين وصل بيساندر والآخرون إلى المدينة، فالتفتوا فوراً لإنجاز ما كان ينقص في هذا الوضع. فكان أول ما فعلوه أن دعوا إلى مؤتمر عام واقترحوا قيام لجنة من عشرة أشخاص يتمتعون بسلطات تامة. ويتولى هؤلاء العشرة وضع مقترحات لعرضها في يوم معين أمام الشعب فيما يتعلق بأفضل شكل ممكن للحكم. فلما حل ذلك اليوم عقدوا المؤتمر في رقعة ضيقة في كولونوس، وهو مكان يبعد مسافة ميل عن المدينة على الأرض المكرسة للإله بوسيدون. وهنا قدمت اللجنة للمجتمعين اقتراحاً وحيداً، وهو أن يسمح لكل أثيني بتقديم أي اقتراح يخطر بباله دون أن يعاقب وأن يتم فرض أشد العقوبات على كل من يعترض على خطيب من الخطباء بدعوى انتهاك القوانين، أو يتناوله بالأذى بأي شكل من الأشكال. والآن حان وقت الكلام الصريح، فطرح على الفور اقتراح بأن تبؤ المناصب ودفع الرواتب المعمول بهما حسب الدستور الحالي يجب أن يتوقفا، ويجب انتخاب خمسة أشخاص لمنصب الرئيس، وأن يختار هؤلاء مئة شخص، وكل واحد من المئة ينتخب ثلاثة أشخاص؛ فيشكل الأربعمئة هيئة تشريعية تتمتع بكامل السلطات للحكم على النحو الذي يرونه الأفضل، ولهم أن يدعوا الأعضاء الخمسة آلاف للاجتماع كلما وجدوا ذلك ضرورياً.

وكان صاحب هذا المشروع بيساندر الذي كشف صراحة عن نزوعه إلى التخلص من النظام الديمقراطي. ولكن ثمة رجلاً آخر خطط ليبلغ الأمر هذا الحد وهو الذي فكر فيه أكثر من أي شخص آخر. ذلكم هو أنتيفون الذي كان أحد أقدر الأثينيين في زمانه، وذا عقل جبار ومقدرة عظيمة على التعبير عن أفكاره، وكان يؤثر ألا يظهر للحديث في المجلس، إلا إذا دعت الضرورة القصوى إلى ذلك، وما كان يسعى للبروز بأي شكل في الحياة العامة؛ لأن الشعب على العموم لم يكن ليوليه الثقة بسبب ما عرف عنه من الخبث والدهاء، ومع ذلك فقد كان أفضل من يقدم أحسن المشورة لمن يطلبها منه حين

يتنازع الناس في المحاكم أو يريدون عرض أمر أمام المجلس. وبعد استعادة الديمقراطية وقيام المحاكم للحكم على أعمال الأربعمئة حيث واجهوا أسوأ معاملة. وقف أنتيفون مدعى عليه يواجه حكم الإعدام بتهمة العمل على إقامة هذه الحكومة؛ فقدم أمام المحكمة مرافعة دفاعاً عن نفسه فكانت مرافعته أعظم وأمجد دفاع قدمه إنسان حتى يومنا هذا. كذلك أظهر فرينيخوس حماساً بارزاً للأوليجاركية. وكان الرجل يخشى ألسيبياديس ويدرك أنه يعرف بمؤامرته التي حاكها مع أستيوخوس في ساموس. وقد زين له الفكر أنه ليس من المرجح أن يستدعى ألسيبياديس من الحكومة الأوليجاركية. ولقد أظهر بعد انضمامه إلى الحركة قلباً هو الأقسى والأشجع في مواجهة الخطر. كذلك كان من زعماء الحزب الذي أطاح بالديمقراطية بعدُ ثيرامينيس بن هاجنون، وهو خطيب مفوه ورجل ذو فكر ورأي. فلا عجب إذن إن نجحت حركة كهذه قام عليها مثل هذا العدد الكبير من ذوي الفكر والنجابة رغماً عن كل ما واجهها من الصعاب؛ إذ لم يكن من اليسير انتزاع الحرية من شعب أثينا بعد انقضاء مئة عام على طرد الطغاة – شعب ليست سمته أنه لم يعتد الخضوع وحسب، بل واعتاد طوال أكثر من نصف هذا الزمن أن يفرض سلطته على الآخرين أيضاً.

أما ما كان من أمر المؤتمر فإنه قد حل بعد إقرار المقترحات دون كلمة من معارض. ثم جعلوا الأربعمئة أعضاء الهيئة التشريعية على النحو التالي: فلقد جرت العادة على أن يكون الأثينيون بسبب وجود العدو في ديسيليا عند الأسوار أو قريبين من سلاحهم في نقاط الحراسة المختلفة. وهكذا ففي هذا اليوم المعين سمح لمن لم يكن لهم اطلاع على السر بالذهاب إلى بيوتهم كالمعتاد بينما أوعز لأعضاء الحزب بالانتظار والتزام الهدوء، وألا يحملوا الأسلحة، بل أن يكونوا على مقربة منها، وإذا ظهرت أي معارضة لما يجري فعليهم أن يأتوا مسلحين ويقمعوها. وكان هناك بعدُ بعض الأندريان والتنيان وثلاثمئة من الكارستيان وبعض المستوطنين من إيجينا الذين أرسلوا للعيش إلى جانب الأثينيين.

وقد جاء هؤلاء جميعاً لهذا الغرض مع أسلحتهم، وكانوا يحملون مثل تلك التعليمات التي يحملها الآخرون. ولما اتخذ الجميع مواقعهم ظهر الأربعمئة وكل منهم يحمل خنجراً أخفاه في طيات ثوبه، ويصحبهم أعضاء "الشباب الهيليني" المئة والعشرين الذين كان الحزب الأوليجاركي يستخدمهم للقيام بأية أعمال عنف. فدخل هؤلاء على أعضاء المجلس الذين كانوا منتخبين بالقرعة وقالوا لهم أن يأخذوا مرتباتهم وينصرفوا، وكانوا قد أحضروا معهم كل مستحقات هؤلاء عن الفترة المتبقية من عملهم في المجلس فأعطوهم مرتباتهم أثناء خروجهم.

ولما خرج هؤلاء الأعضاء على هذا النحو دونما اعتراض ولزم بقية المواطنين الصمت ولم تبدر عنهم أية حركة،حل الأربعمئة محلهم أعضاء في الهيئة التشريعية والتفتوا لاختيار المناصب فيما بينهم بالقرعة لإدارة شؤون المجلس، والقيام بالطقوس، وتقديم القرابين الواجبة عند تسلم منصب. ثم قاموا بعد ذلك بإحداث تحولات عظيمة فيما كان نظاماً ديمقراطياً في الحكم، مع أنهم لم يتخذوا أية خطوة لإعادة المنفيين، وذلك بسبب ألسيبياديس، ولكنهم في النواحي الأخرى حكموا المدينة بيد قوية.

ولقد كان من أعمالهم إعدام بعض الرجال، وهم ليسوا كثراً، لأنهم وجدوا في التخلص منهم ما يريح. وهناك آخرون كان مصيرهم السجن أو النفي. وكان من أعمالهم أيضاً التقرب من ملك إسبارطة آجيس الذي كان في ديسيليا، وأعربوا عن استعدادهم للتفاهم معه، وبينوا أنه من المنطق أن يتجاوب وإياهم؛ لأن تفاهمه سيكون معهم عوضاً عن الديمقراطية التي لا يؤمن لها جانب.

غير أن آجيس لم يكن يعتقد أن الوضع قد استقر في أثينا أو أن الشعب قد تخلى عن إرث الحرية القديم بهذا القدر من السرعة. ورأى أن الاضطرابات سوف تعم متى رأى الأثينيون جيشاً إسبارطياً عظيماً، بل الواقع أنه لم يكن مقتنعاً بأن وضعهم حتى الآن

خال من أسباب الضيق والاضطراب. وعليه فقد جاء رده على الرسائل التي وجهها مجلس الأربعمئة رداً جافاً، ثم إنه خرج من ديسيليا على رأس قوة، بعد أن طلب إمداده بقوات إضافية من إسبارطة، حتى بلغ أسوار أثينا، آملاً بأن يؤدي ما سوف يحدثه هذا التحرك من اضطراب إلى حملهم على الخضوع لشروط تفرضها إسبارطة، أو ربما تستسلم له أثينا حين تسود الاضطرابات والفوضى في الداخل. وكان واثقاً من قدرته على الاستيلاء على الأسوار الطويلة لافتقارها لأسباب الدفاع اللازمة. غير أنه عند اقترابه وجد الأثينيين يرسلون خيالتهم وفصائل من المشاة الثقيلة والقوات الخفيفة والرماة، عوضاً عن الفوضى في الداخل وإذ بهذه القوات تسقط بعض قواته حين ازدادت اقتراباً منهم، فحمل الإسبارطيون جثث القتلى وأسلحتهم وانسحبوا. فأدرك آجيس الآن حقيقة الوضع، فانسحب وعاد بجيشه من حيث أتى إلى ديسيليا ومكث هناك مع قواته في مواقعها. أما التعزيزات فإنها قفلت راجعة إلى موطنها بعد أن ظلت بضعة أيام في أتيكا. ولقد استمر مجلس الأربعمئة بالتقرب من آجيس، حتى بعد تلك الواقعة، وبات أشد استعداداً الآن لاستقبالهم. فبعثوا بسفارة إلى إسبارطة بناء على نصيحته، للتفاوض على تسوية، وهم تواقون لإنهاء الحرب.

ولقد أرسل الأثينيون كذلك عشرة رجال إلى ساموس ليكفلوا حسن النية من جانب الجيش. وكانت مهمة هؤلاء أن يبينوا أن الأوليجاركية لم تقم لتلحق الأذى بالمدينة أو بالمواطنين، وإنما هدفها الحفاظ على الدولة كلها، وأن السلطة لا يحتكرها أربعمئة شخص وإنما يقوم عليها خمسة آلاف. وبالرغم من هذا القول فإن الأثينيين لم يسبق لهم أن عقدوا مجلساً ضم ما يبلغ الخمسة آلاف، مهما تكن أهمية الموضوع؛ وذلك لأسباب منها حملاتهم والمهام الأخرى التي كانت تحملهم على السفر إلى الخارج. كذلك عرضوا لهم الخط السليم الواجب التزامه في الموضوعات الأخرى. ثم سافر هؤلاء عائدين حالما قامت الحكومة الجديدة؛ إذ كان الأربعمئة يخشون -وقد أثبتت الوقائع صحة مخاوفهم-

من أن يعرض رجال البحرية عن العمل في ظل النظام الأوليجاركي، ولربما بدأت المشكلات من هناك لتنتهي بالإطاحة بالحكومة الجديدة ذاتها.

والواقع أنه كان قد وقع تحول في الرأي في ساموس ضد الأوليجاركية. وقد وقعت الأحداث التالية حين كان الأربعمئة يخططون لمؤامراتهم: ومن ذلك أن السميان الذين كانوا قد ثاروا- كما سبق القول- على الطبقات المهيمنة وأسسوا الديمقراطية قد تحولوا ثانية، وانقلبوا إلى صف بيساندر الذي استمالهم حينما حل في ساموس، كما استمالهم الأثينيون فيها الذين كانوا ضالعين في المؤامرة. وقد انضم إليهم فيها نحو ثلاثمئة منهم، وأصبحوا يعتبرون بقية السكان" ديمقراطيين"، ويعدون للهجوم عليهم. كما قاموا يومئذ بإعدام أحد الأثينيين ويدعى هايبربولوس، وكان شخصاً مشرداً ذا طباع سيئة، وذلك ليس خوفاً من سلطانه أو نفوذه، وإنما بسبب سوء خلقه وحقارته التي جعلت منه وصمة عار للمدينة. وقد تم لهم التخلص منه بمساعدة خارمينوس، وهو أحد الضباط الكبار، وبعض الأثينيين الذين أعانوهم في أمره. وهكذا برهنوا على جدارتهم بالثقة لدى الأثينيين الذين خاضوا معهم بعض العمليات من هذا القبيل، وباتوا مستعدين الآن لشن هجوم على حكومتهم الديمقراطية. ولكن الديمقراطيين السميان أدركوا ما كان يدبر لهم، فقاموا بنقل معلوماتهم عن المؤامرة إلى ليون وديوميدون - وهما من قادة الجيش- اللذين لم يبديا إلا تأييداً ضعيفاً وحسب لفكرة إقامة حكومة أوليجاركية، بسبب ما كانا يحظيان به من احترام لدى شعب أثينا. كذلك قاموا بنقل النبأ إلى ثراسيبولوس، وكان قبطاناً لسفينة ثلاثية المجاذيف، وثراسيلوس، وهو من المشاة الثقيلة، وغيرهما ممن وفروا الانطباع بمعارضتهم الشديدة للمتآمرين. وقد ألحوا بالرجاء على هؤلاء بألا يدعوا السميان يتعرضون للفناء وألا يبعدوا ساموس عن أثينا، وهي وحدها التي أتاحت لهم أن يحافظوا على وحدة إمبراطوريتهم. فلما سمع هؤلاء ما بلغهم ذهبوا يتصلون بالجنود فرادى ويحثونهم على وضع حد لتلك التصرفات. وقد أولوا بحارة السفينة «تارالوس

عناية خاصة والتي كان كل فرد منهم مواطناً أثينياً حراً ابن حر، وكانوا دوماً معارضين أشد المعارضة لفكرة حكم أوليجاركي حتى حين لم يكن هناك شيء من هذا القبيل. كذلك أفرز ليون وديوميدون بعض السفن لحماية السميان، في حال أبحرا إلى مكان آخر. وكانت نتيجة هذا أن هؤلاء جميعاً، وخاصة طاقم البارالوس، هرعوا لنجدة الشعب حين قام الثلاثمئة بالهجوم عليه. وكان النصر حليف الديمقراطيين السميان في هذه الواقعة، وأعدم نحو ثلاثين من الثلاثمئة هؤلاء، وتم نفي ثلاثة آخرين كانوا المسؤولين الأساسيين في الثورة. ولكنهم لم يتعرضوا للآخرين ومنحوهم كافة الحقوق كاملة ليعيشوا وإياهم مستقبلاً في ظل دستور ديمقراطي.

وكان السميان والجيش قد أرسلوا السفينة بارالوس إلى أثينا على الفور، وعلى ظهرها خايرياس بن أرخستراتوس – وهو أثيني أبدى نشاطاً عظيماً في إحداث التحول إلى الديمقراطية – وذلك لإعلام القوم هناك بما حدث، وهم لا يعلمون أن الأربعمئة في السلطة. وما إن دخلت السفينة المرفأ حتى قام الأربعمئة باعتقال اثنين أو ثلاثة من البحارة، واستولوا على السفينة، بينما وضعوا البقية على متن سفينة أخرى، وكانت ناقلة جند تقوم بأعمال الدورية حول يوبوية. وقد تكمن خايرياس من الهرب، حالما رأى هذا الوضع، وعاد إلى ساموس ثانية، حيث قدم للجنود رواية مبالغ فيها عن حالة من الرعب قال: إنها تسود أثينا، وروى أن الضرب بالسياط هو الأسلوب السائد في العقاب هناك، ولا أحد يقوى على انتقاد الحكومة، والفظائع تنزل بنساء الجند وأطفالهم، والأربعمئة يخططون لاعتقال أقارب العاملين في ساموس ممن لا يشاركونهم أفكارهم وسجنهم وإعدامهم ما لم يسلم الجيش في ساموس هؤلاء الأشخاص. وقد زاد وأفاض في الروايات وكان جل ما رواه لا سند له من الحقيقة.

كان أول ما تبادر إلى أذهان الجند بعد سماع هذه الروايات هو مهاجمة كبار دعاة الأوليجاركية. وكل شخص له علاقة بها وقتلهم جميعاً. غير أنهم أقلعوا عن هذه الفكرة

في النهاية وأخذوا بالإصغاء للحزب الأكثر اعتدالاً الذي بين لهم خطر ضياع كل شيء، وأسطول العدو قريب منهم وعلى استعداد للقتال. وبعد هذا أراد ثراسيبولوس بن ليكوس وثراسيلوس- وكانا أنشط القوم في إحداث التحول في الرأي- أن يكون واضحاً الآن أن الحكم في ساموس سيكون للديمقراطية. فقاما بحمل الجنود، وخاصة المناصرون للحزب الأوليجاركي، على القسم الذي لا رجوع عنه على الالتزام بالدستور الديمقراطي والابتعاد عن العصيان ومتابعة الحرب بلا هوادة على البيلوبونيز ومعاداة الأربعمئة، وألا يقيموا معهم أية علاقة. وقد انضم إلى هؤلاء في القسم كل السميان الذين بلغوا سن الخدمة العسكرية؛ كذلك أبدى الجيش تعاوناً مع السميان في كل ناحية، وكان مستعداً لمشاركتهم نتائج المجازفات التي كانوا يخوضونها؛ إذ لم يكن ثمة ما يكفل السلامة سواء للسميان أو للجيش، فالأمر الوحيد المؤكد هو الفناء، إن سيطر الأربعمئة أو العدو في ملطية.

كانت هذه إذن فترة من الصراع الحاد بين الجيش الذي يحاول فرض الديمقراطية على المدينة والأربعمئة الذين يسعون لفرض الأوليجاركية على الجيش. فعقد الجيش اجتماعاً على الفور، وقرروا فيه طرد القادة من مناصبهم ومعهم كافة بحارة السفن الثلاثية المجاذيف الذين كانت تراودهم الشكوك حولهم، واختاروا بدلاً عنهم بحارة وقادة جدداً للجيش، وكان من بينهم ثراسيبولوس وثراسيلوس اللذين كانا يتوليان الآن قيادة الجيش. وقام الخطباء بإلقاء خطابات حماسية، قالوا فيها : لا محل لليأس إن كانت المدينة قد عصت، فهؤلاء أقلية افترقت عن الأكثرية، وإنهم أفضل تجهيزاً من كل ناحية، ثم إنهم يسيطرون على الأسطول بكامله، وبوسعهم فرض الضريبة على كل المدن كما لو كانت قاعدتهم في أثينا؛ لأنهم باستيلائهم على ساموس كانوا يمسكون بمدينة ليست بأي حال مدينة ضعيفة، وهي في الواقع وقت الحرب مع أثينا تحرم الأثينيين من السيطرة على البحر، ويتمتعون بقدر ما يتعلق الأمر بالعدو بقاعدة العمليات ذاتها، كما كان الوضع

عليه من قبل. وبامتلاكهم البحرية فإنهم في وضع يجعلهم أفضل حالاً من أهل أثينا من حيث توفر المؤن، بل وحتى قبل ذلك كان الفضل في امتلاك الأثينيين في الوطن السيطرة على الطرق البحرية إلى بيرايوس لحيازتهم ساموس هذا الموقع المتقدم. وكان الوضع الآن على نحو يجعل عقاب أثينا بحرمانها من استخدام البحر أيسر على الجيش في ساموس، في حال رفض الناس هناك إعادة الدستور والعمل به من جديد. أما أمر النصر على العدو فلم يكن لأثينا شأن يعتد به؛ إذ لم يكن من قبيل الخسارة افتقاد قوم نضب المال لديهم ولم يعد يعول عليهم – بل إن الجنود أخذوا في الواقع يتدبرون أمورهم بما تيسر – كما أنهم باتوا عاجزين عن توفير المشورة السليمة – وهو الأمر الذي يبرر سيطرة الدولة على الجيش – وفي الحقيقة أن الحكومة المركزية وضعت نفسها في موقع الخطأ، حين قامت بحل المؤسسات في البلد، بينما ظل الجيش متمسكاً بها ويحاول حمل الشعب في المدينة الأم على ذلك أيضاً. وإذن فلو كانت القضية تتصل بتوفر المستشارين الأكفاء فإن للجيش الميزة مرة أخرى على المدينة. ثم إن هناك ألسيبياديس، وحسبهم أن يضمنوا له سلامته ويقوموا باستدعائه من منفاه، وما يهم في الأمر أنهم، ولو فشلوا في كل أمر، يستطيعون اللجوء بما لديهم من أسطول ضخم إلى العديد من البقاع حيث يجدون المدن والأرض معاً.

وهكذا كان الحديث قد دار في الاجتماع، وكل يثير حماس الآخر. ولم يكن هذا الحديث ليشغل القوم عن النشاط في الإعداد للحرب. وكان الموفدون الذين أرسلهم مجلس الأربعمئة إلى ساموس قد سمعوا وهم في ديلوس ما بين لهم حقيقة الموقف هناك؛ فلزموا مكانهم ولم يقوموا بأية حركة.

وقد ثارت في ذلك الحين اضطرابات في الأسطول البلوبونيزي في ملطية؛ إذ راح الرجال يشكون علناً من ضياع آمالهم على يدي كل من تيسافيرنيس وأستيوخوس. وكان أستيوخوس قد رفض قبل حين أن يخوضوا معركة في البحر، في وقت كان فيه

أسطولهم في ذروة كفاءته والأسطول الأثيني صغيراً، كما أنه لا يريد القتال الآن والأثينيون على ما يفترض في حرب أهلية ولم يجمعوا بعد سفنهم في بقعة واحدة. بل تركوا ينتظرون ورود الأسطول الفينيقي من طرف تيسافيرنيس، وهو موجود نظرياً وحسب، والأغلب أنهم سوف ينهكون وهم في هذا الانتظار. أما تيسافيرنيس فإنه فضلاً عن تقصيره في إظهار هذه السفن، كان يعمل على خراب أسطولهم بعدم تسديد مرتبات رجاله بصورة منتظمة أو امتناعه عن تسديدها أبداً. وشددوا الطلب في هذه الحال على رفض قبول التأخير. كما ألحوا على ضرورة خوض معركة حاسمة في البحر. وكان السيراكوز أشدهم إلحاحاً في هذا.

وكان الحلفاء وأستيوخيس على دراية بأجواء النقمة هذه ما حملهم على عقد اجتماع تقرر فيه خوض معركة بحرية حاسمة. وهكذا فإنهم حين بلغهم خبر وقوع الاضطرابات في ساموس أسرعوا بإنزال أسطولهم كله المؤلف من مئة واثنتي عشرة سفينة ويمموا شطر ميكالة، بينما وجهوا الميليسيين بالزحف براً. وكان الأثينيون القادمون من ساموس وسفنهم الاثنتان والثمانون في جلاوكة في ميكالة، حيث لا يفصل بين ساموس والبر الرئيسي إلا مسافة قصيرة. فلما رأوا سفن البيلوبونيز تقترب تراجعوا نحو ساموس، تقديراً منهم بأنهم من ناحية العدد لا يملكون المجازفة بكل ما لديهم في معركة واحدة. كما أنهم كانوا يتوقعون قدوم سترومبيخيديس من الهليسبونت لدعمهم بالسفن التي انتقلت من خيوس إلى أبيدوس؛ ذلك أنه بلغهم قبل حين من ملطية أن العدو كان عازماً على القتال، وقد بعثوا برسول إلى سترومبيخيديس. وعليه فقد انسحب الأثينيون إلى ساموس ودخل البيلوبونيز ميكالة حيث أقاموا معسكرهم مع المشاة القادمين من ملطية والمناطق الأخرى القريبة من الموقع. فلما كان اليوم التالي وقد تهيؤوا للخروج وهم يقصدون ساموس وردت الأنباء بوصول سترومبيخيديس مع السفن من الهليسبونت، فداروا على أعقابهم عائدين إلى ملطية. وبما أنه قد وردت الآن التعزيزات إلى الأثينيين

فإن هؤلاء خرجوا أيضاً يقصدون ملطية بمئة وثمانية سفن لخوض معركة حاسمة، ولكن لما لم يخرج أحد لقتالهم عادوا إلى ساموس من جديد.

الفصل السادس: استدعاء ألسيباديس إلى الجيش في ساموس، شكوك البيلوبونيز في تيسافيرنيس

في هذا الصيف وعقب تلك الأحداث كان البيلوبونيز غير ميالين للخروج إلى قتال الأثينيين بكل أسطولهم، اعتقاداً منهم بأنهم دونهم مقدرة، ثم لصعوبة تأمين المال لهذا العدد الكبير من السفن، خاصة وأن تيسافيرنيس كان يقصر في الدفع بانتظام، فأرسلوا كليارخوس بن رامفياس بأربعين سفينة إلى فارنابازوس وفق التعليمات التي وردت إليهم من بلادهم. وكان فارنابازوس يطالب بتوجيه هذا الأسطول إليه، وهو مستعد لدفع نفقاته، وكانت قد وردتهم في الوقت ذاته عروض من بيزنطة لإشعال الثورة هناك. وهكذا خرجت سفن البيلوبونيز إلى عرض البحر لتكون بعيدة عن أنظار الأثينيين أثناء رحلتها. وفي البحر صادفت هذه السفن عاصفة فدخل معظمها ديلوس ومعها كليارخوس، ثم عادت بعدئذ إلى ملطية. ثم خرج كليارخوس من جديد ووصل الهليسبونت براً، حيث تولى القيادة هناك. وفي تلك الأثناء مرت عشر من سفنه بقيادة هيليكسوس الميجاري بسلام ووصلت إلى الهليسبونت لإشعال الثورة في بيزنطة. ولقد بلغت أخبار هذه الواقعة الأثينيين في ساموس؛ فأرسلوا وحدات بحرية لرصد الأحوال في الهليسبونت، ثم وقعت بعدئذ معركة بحرية عند بيزنطة لم يطل أمدها وكان قوام القوات التي اشتبكت فيها ثماني سفن من كل جانب.

كان القادة في ساموس – وخاصة ثراسيبولوس، الذي قام بتدبير انقلاب الحكم– قد واظبوا على سياسة فحواها دعوة ألسيبياديس إلى العودة. ومازالوا على هذا النهج حتى حملوا معظم الجنود في الاجتماع على الأخذ بوجهة نظرهم. فاتخذوا القرار بعودته وضمان سلامته، ثم أبحر ثراسيبولوس إلى تيسافيرنيس وعاد بألسيبياديس إلى ساموس، اعتقاداً منه بأن أملهم الوحيدة بالنجاة من هذا الوضع يكمن في إبعاد تيسافيرنيس عن

البيلوبونيز وجعله في صفهم. وتم عقد اجتماع وقف فيه ألسيبياديس خطيباً وذهب يشكو مرّ الشكوى مما أصابه من صعوبة الأقدار حين عانى النفي، ثم تناول مطولاً الوضع السياسي العام حتى امتلأت نفوس الحضور بالأمل بالمستقبل. وقدم للحضور فكرة مبالغ فيها عن مبلغ نفوذه لدى تيسافيرنيس. وقد قصد منها إثارة الخوف في الأوليجاركيين في أثينا فينحل عقد العصب السياسية ويزداد نفوذه في الجيش في ساموس، ويعطيهم المزيد من الثقة، كما تحبط آمال العدو بجعل العلاقات بينهم وبين تيسافيرنيس تتدهور إلى أبعد حد ممكن. وهكذا ذهب ألسيبياديس بعد أن نسب إلى نفسه كل الفضل في هذه الأمور فقطع على نفسه الوعود التالية: فقال: إن تيسافيرنيس قد أكد له تأكيداً قاطعاً أنه مادامت ثقته بالأثينيين قائمة، فلن يقصر في إمدادهم بالمؤن مادام لديه شيء منها، ولو اضطر لبيع فراشه ليستمر في إمدادهم بالغلال. كذلك تعهد بأن يأتي بالأسطول الفينيقي من أسبندوس لإمداد الأثينيين عوضاً عن البيلوبونيز، وأنه لن يطمئن إلى الأُثينيين إلا إذا أعادوا ألسيبياديس آمناً من منفاه ليكون الضامن لهم.

وبعد أن سمع الجنود هذا كله، بل وأكثر منه، قاموا بانتخاب ألسيبياديس قائداً للجيش إلى جانب قادة الجيش وأعطوه كل الصلاحيات والسلطات. ولم يعد هناك رجل واحد يرضى بأن يتخلى عن الآمال التي تراوده بالخروج من الأزمة آمناً والانتقام من عصبة الأربعمئة مقابل أي شيء في العالم. والواقع أنهم بلغوا الآن مبلغاً كبيراً من الازدراء بأعدائهم بعد سماعهم ما قيل أمامهم حتى إنهم باتوا مستعدين للإبحار لأخذ بيرايوس. ولكن ألسيبياديس كان يعارض فكرة الهجوم على بيرايوس، وترك أعدائهم الأقربين خلفهم، بالرغم من أن المؤيدين للفكرة كثر.

وقال: إنه بعدما انتخب قائداً للجيش، سوف يبحر أولاً للقاء تيسافيرنيس والاتفاق معه على أسلوب خوض الحرب. فمضى مباشرة بعد انفضاض الاجتماع ليوحي بوجود ثقة تامة بينهما، ورغبة منه بعدُ بزيادة فائدته في عيني تيسافيرنيس وإثارة اهتمامه به

بعدما انتخب الآن قائداً للجيش، فيكون بذلك قادراً على نفعه أو الإضرار به. والواقع إذن هو أن ألسيبياديس كان يستخدم الأثينيين لإخافة تيسافيرنيس، ويستخدم تيسافيرنيس لإخافة الأثينيين.

ولقد علم البيلوبونيز في ملطية بنبأ استدعاء ألسيبياديس، فباتوا الآن يشعرون بالمرارة تجاه تيسافيرنيس فوق ارتيابهم بنيّاته من قبل. وتفصيل ذلك أن تيسافيرنيس نال صيتاً سيئاً حين ظهر الأثينيون في البحر عند ملطية ورفض البيلوبونيز التصدي لهم وتقاعس من جانبه عن دفع نفقات الأسطول، وكان قد فقد قدراً من مكانته من قبل بسبب مسلك ألسيبياديس. ولذلك أخذ الجنود يتجمعون في جماعات، كما فعلوا من قبل،ثم ضموا إليهم آخرين من ذوي النفوذ، ولم يكن هؤلاء جميعهم من الجيش وحده. وأخذوا يجهرون بالشكوى من عدم استلام المرتبات كاملة، وإذا تلقوا شيئاً فهو دون كامل المبالغ المستحقة، ومواقيت الدفع غير منتظمة؛. وكان الرأي الجاري بينهم هو إما أن يخوضوا معركة حاسمة في البحر وإما الانتقال إلى مكان آخر تتوفر فيه المؤن، وإلا فسوف يهجر الرجال سفنهم. وكان المسؤول عن هذا كله أستيوخوس الذي كان يعاضد لأسباب تتعلق بفائدته الخاصة كل ما يأتي به تيسافيرنيس.

وكان من نتائج هذه المداولات والشكاوى اضطراب هدد أستيوخوس نفسه. وتفصيل ذلك أن الغالبية من طواقم السفن كانوا من السيركوز والثيوريين الأحرار، فلا يتحرجون في الحديث وهم يتجمعون حول أستيوخوس ويطالبون بمرتباتهم. فرد عليهم بعجرفة وتوعد. ولما تحد ث إليه دوريوس نيابة عن بحارته رفع أستيوخوس عصاه مهدداً، فما كان من البحارة إلا أن فقدوا سيطرتهم على أنفسهم وهم يرون هذا المشهد، وهذا شأن البحارة عموماً وأخذوا يرشقونه بالحجارة. ولما رأى ما هم مقدمون عليه لجأ إلى أحد المذابح، وبذلك نجا من الرجم.

كذلك شن الميليسيون هجوماً على الحصن الذي بناه تيسافيرنيس في ملطية واستولوا عليه وطردوا منه الحامية التي كانت تقوم على حراسته. وكانت هذه العملية قد حظيت بموافقة الحلفاء كافة، وخاصة السيراكوز، باستثناء ليخاس الذي عارضها، وقال : إن على الميليسيين وكافة الأقوام في المناطق التابعة للملك أن يسلموا بحاجتهم لتيسافيرنيس بكل ما هو في حدود المعقول وينشدوا رضاه حتى تنتهي الحرب على الوجه المرجو لها. وقد أغضب هذا الرأي وأمور أخرى من هذا القبيل الميليسيين منه، فلما قضى بعد مرض أصابه لم يسمحوا بدفنه في ملطية حيث أراد الإسبارطيون أن يوارى.

وبينما كان النفور والضيق من أستيوخوس وتيسافيرنيس قد بلغا هذا الحد وصل مينداروس من إسبارطة ليتسلم القيادة خلفاً للأول. فأبحر أستيوخوس عائداً إلى بلده ومعه موفد من حلقة تيسافيرنيس، وهو كاري يدعى جاوليتيس، وكان يتحدث باللغتين. وقد كلف بالاحتجاج على تصرف الميليسيين في موضوع الحصن والدفاع عن مسلك تيسافيرنيس الذي كان يعلم بأن سفراء ميليسيين في طريقهم إلى إسبارطة وهدفهم الهجوم عليه، وبرفقتهم هيرموكراتيس الذي كان يريد الإعلان بأنه وألسيبياديس يفسدان على الإسبارطيين أمورهم، وأن تيسافيرنيس يقوم بدور مزدوج. وكان هيرموكراتيس على خلاف دائم معه في موضوع تسديد كامل الرواتب. فلما أصبح هيرموكراتيس منفياً من سيراكوزة وجاء قادة جدد – بوتاميس، مايسكون، ديمارخوس – إلى ملطية لتسلم الأسطول السيراكوزي، أخذ تيسافيرنيس – وقد بات عدوه اللدود منفياً الآن – يزداد تهجماً عليه ويكيل له الاتهامات، ومنها أنه طلب منه مالاً ذات مرة، فلما رفض إعطاءه المال تحول إلى عدو مقيم.

وهكذا أبحر أستيوخوس والميليسيون وهيرموكراتيس إلى إسبارطة، وكان ألسيبياديس قد عاد الآن من مقابلة تيسافيرنيس إلى ساموس ثانية، ثم وصلت سفارة الأربعمئة من ديلوس الذين – كما ذكر – أرسلوا لعرض الأمور على الجيش في ساموس

وكسب صداقته. فتم عقد اجتماع لهذا الغرض وحاول فيه السفراء الحديث أمام الجنود. وقد رفض الجنود في البداية سماعهم، وظلوا يصيحون قائلين: إن من أسقط الديمقراطية حق عليه القتل، ولكنهم هدؤوا في النهاية، بعد بعض العناء، وجلسوا يصغون إلى هؤلاء السفراء وهم يعرضون قضيتهم.

وقد أعلن الوفد عندئذ أنه ليس القصد من تغيير الدستور إضعاف الدولة وإنما الحفاظ عليها، ولا الهدف منه تسليم أثينا للعدو. ذلك أن الفرصة كانت متاحة لهم، وهم في الحكم، والعدو يغزو أراضيهم. وقالوا بعدُ: إن الخمسة آلاف سيكون لهم بدورهم نصيب في الحكم، كما انكروا- على العكس من رواية خايرياس المضللة - أن يكونوا قد تعرضوا لأهالي الجنود بأعمال انتقام أو سوء معاملة من أي نوع، بل الحق أن الجميع ظلوا يتمتعون بملكياتهم كعهدهم دائماً.

ولقد قال هؤلاء السفراء الكثير وأفاضوا في الحديث، إلا أن الجنود ظلوا على إعراضهم عن الإصغاء إليهم منذ البداية. والحق أنهم كانوا في حالة من الغضب، حتى لقد تداولوا فيما بينهم، من بين اقتراحات أخرى، قراراً بالإبحار والهجوم على بيرايوس. وحين بلغت الأمور هذا الحد قدم ألسيبياديس أول خدمة عظيمة لبلده، على ما يبدو، وكان ذلك عملاً بالغ الأهمية. فعندما استولت الرغبة بالأثينيين في ساموس وهموا بالإبحار والهجوم على مواطنيهم - وكان ذلك يعني قطعاً احتلال العدو أيونيا والهليسبونت فوراً - بادر السيبياديس ووقف دونهم وهذا الأمر.

ولم يكن ثمة رجل في العالم كله يملك أن يسيطر على الغوغاء في ذلك الحين. فتدخل ألسيبياديس ومنعهم من الإبحار والهجوم على أثينا، ولقد توسل بلسانه وأحسن التوسل به حتى بدد عنهم الغضب الذي استبد بهم حيال هؤلاء السفراء ونفورهم منهم. فكان هو من قدم الرد لهم وهم يطردون. فأخبرهم بأنه لا يعارض أن يكون الحكم بيد

الخمسة آلاف، ولكنه طالبهم بطرد الأربعمئة وإعادة مجلس الخمسمئة الأصلي. كذلك قال: إنه يؤيد بالتأكيد كل إجراء اقتصادي من شأنه أن يؤدي إلى تحسين مرتبات القوات المسلحة. وحثهم على العموم على الصمود وعدم التنازل أمام العدو، قائلاً: إن ثمة أملاً باتفاق الحزبين اللذين ينتمي إليهما المواطنون، طالما ظلت المدينة في أمان، أما إذا هُزم أحدهما، سواء كان من الرجال في ساموس أم في أثينا، فلن يبقى ثمة من تُعقد وإياه تسوية مهما تكن.

وقد حضر أيضاً بعض المندوبين من آرجوس لتقديم التأييد للديمقراطية الأثينية في ساموس. فأعرب لهم ألسيبياديس عن الشكر لمبادرتهم وردهم، طالباً منهم العودة حين تبلغهم رسالة منه بهذا المعنى. وكان الأرجوس قد وصلوا مع بحارة السفينة بارالوس، التي أسند إليها مجلس الأربعمئة مهمة حاملة جنود، كما سبقت الإشارة، ومعهم تعليمات للإبحار حول يوبوية. ثم كان عليهم أن يحملوا معهم بعدئذ بعض مندوبي الأربعمئة وهم ليسبودياس وأريستوفون وميليسيوس، ولكنهم حين وصلوا في رحلتهم إلى آرجوس قاموا باعتقال المندوبين وعمدوا إلى تسليمهم إلى الأرجوس باعتبارهم مسؤولين كثيراً عن الإطاحة بالحكم الديمقراطي، ثم عوضاً عن العودة إلى أثينا حملوا مندوبين عن الأرجوس وتوجهوا إلى ساموس في سفينتهم الثلاثية المجاذيف.

وفي ذلك الصيف استعد تيسافيرنيس للتوجه إلى أسبندوس لاستلام الأسطول الفينيقي ودعا ليخاس لمرافقته. وكان ذلك في الوقت الذي انحدرت فيه مكانته عند البيلوبونيز بسبب سلوكه عموماً، وخصوصاً بسبب استدعاء ألسيبياديس، وقد ذهب بهم الاعتقاد أنه بات يتواطأ مع الأثينيين صراحة الآن، وأراد تيسافيرنيس، أو لعله أراد أن يبدو راغباً بتبرئة نفسه من هذه الشكوك. وقال: إنه سوف يترك نائبه تاموس مع تعليمات بدفع مرتبات الجيش في غيابه. وقد جرى تداول تفسيرات مختلفة لهذا المسلك، إلا أنه ليس من اليسير معرفة حقيقة مقصده من السفر إلى أسبندوس، ثم عدم

... بالسفن بعد ذلك. ذلك أنه من المحقق أن مئة وسبعاً وأربعين سفينة فينيقية كانت وصلت إلى أسبندوس. وقد ذهبت التقديرات شتى المذاهب في تفسير عدم حضورها هناك. وذهب أحد تلك الآراء أن رحلة تيسافيرنيس أملتها خطته الأصلية بإنهاك ... البيلوبونيزية؛ ولا ريب بأن تاموس وهو الذي كلفه بالإنفاق كان أكثر تقتيراً منه ... دفع المرتبات، بدلاً من أن يزيد فيها. كذلك ذهب آخرون إلى أن غرضه من استقدام ... فينيقيين إلى أسبندوس تحقيق مكسب مادي من بحارة السفن الذين ما كان يقصد ... استخدامهم أصلاً، وكان عليه أن يدفع لهم التعويضات عند التسريح. وهناك نظرية ... تذهب بعدُ إلى أنه سلك مسلكه هذا بسبب الهجمات التي كالها له منتقدوه في ... سبارطة، وقد قصد أن يحمل الناس على القول: إنه لم يكن مخطئاً في مسلكه، وإنما ... فعلاً أن يأتي بأسطول مجهز تماماً بالرجال. وأنا أميل شخصياً للجزم بأنه لم يأت ... بأسطول لينهك القوات الهيلينية وليبقي الأمور معلقة، فينال الزمن من كفاءة الرجال ... السفن طوال الوقت الذي تستغرقه الرحلة إلى أسبندوس والانتظار هناك، وفي غضون ... ذلك يبقى الطرفان في حالة من التوازن بأن يظل دون التزام حيال أي منهما لئلا ترجح ... كفة هذا أو ذاك. ولا ريب بأن تدخله- إن كان حازماً، ولا يشوبه وهن، وكان الرجل ... يأنيه- كان كفيلاً بأن يأتي بنهاية الحرب. وكان بوسعه لو جاء بالأسطول أن يمكن ... الإسبارطيين من النصر على الأرجح، وهم الذين واجهوا الأثينيين بقوة بحرية تعادل ... قوتهم ولا تقل عنها. وكانت لديه بعدُ حجة قوية تبرر له عدم إحضار السفن، ... استطاع جمعه من السفن كان دون ما أمر به الملك، ولا ريب بأن هذه الذريعة ... تكسبه مكانة فوق مكانته لإمساكه عن إنفاق الكثير من مال الملك وحسن التصرف ... بقليل من المال ليأتي بالنتائج المطلوبة.

وعلى أية حال فإن تيسافيرنيس - أياً تكن مقاصده - ذهب إلى أسبندوس والتقى ... الفينيقيين. وقد أرسل البيلوبونيز بناء على طلبه إسبارطياً يدعى فيليب ومعه سفينتان ...

عودته بالسفن بعد ذلك. ذلك أنه من المحقق أن مئة وسبعاً وأربعين سفينة فينيقية كانت قد وصلت إلى أسبندوس. وقد ذهبت التقديرات شتى المذاهب في تفسير عدم حضورها من هناك. وذهب أحد تلك الآراء أن رحلة تيسافيرنيس أملتها خطته الأصلية بإنهاك القوات البيلوبونيزية؛ ولا ريب بأن تاموس وهو الذي كلفه بالإنفاق كان أكثر تقتيراً منه في دفع المرتبات، بدلاً من أن يزيد فيها. كذلك ذهب آخرون إلى أن غرضه من استقدام الفينيقيين إلى أسبندوس تحقيق مكسب مادي من بحارة السفن الذين ما كان يقصد استخدامهم أصلاً، وكان عليه أن يدفع لهم التعويضات عند التسريح. وهناك نظرية أخرى تذهب بعدُ إلى أنه سلك مسلكه هذا بسبب الهجمات التي كالها له منتقدوه في إسبارطة، وقد قصد أن يحمل الناس على القول: إنه لم يكن مخطئاً في مسلكه، وإنما أراد فعلاً أن يأتي بأسطول مجهز تماماً بالرجال. وأنا أميل شخصياً للجزم بأنه لم يأت بالأسطول لينهك القوات الهيلينية وليبقي الأمور معلقة، فينال الزمن من كفاءة الرجال والسفن طوال الوقت الذي تستغرقه الرحلة إلى أسبندوس والانتظار هناك، وفي غضون ذلك يبقى الطرفان في حالة من التوازن بأن يظل دون التزام حيال أي منهما لئلا ترجح كفة هذا أو ذاك. ولا ريب بأن تدخله- إن كان حازماً، ولا يشوبه وهن، وكان الرجل جاداً فيه- كان كفيلاً بأن يأتي بنهاية الحرب. وكان بوسعه لو جاء بالأسطول أن يمكن الإسبارطيين من النصر على الأرجح، وهم الذين واجهوا الأثينيين بقوة بحرية تعادل قوتهم ولا تقل عنها. وكانت لديه بعدُ حجة قوية تبرر له عدم إحضار السفن، وهو أن ما استطاع جمعه من السفن كان دون ما أمر به الملك، ولا ريب بأن هذه الذريعة كانت ستكسبه مكانة فوق مكانته لإمساكه عن إنفاق الكثير من مال الملك وحسن التصرف بقليل من المال ليأتي بالنتائج المطلوبة.

وعلى أية حال فإن تيسافيرنيس - أياً تكن مقاصده - ذهب إلى أسبندوس والتقى الفينيقيين. وقد أرسل البيلوبونيز بناء على طلبه إسبارطياً يدعى فيليب ومعه سفينتان

ليأتي بالأسطول على ما كان يفترض.

وحين بلغ ألسيبياديس أن تيسافيرنيس في طريقه إلى أسبندوس أبحر بثلاث عشرة سفينة، وقد أخبر الأثينيين في ساموس بأنه واثق كل الثقة من أن مهمته ستحقق خيراً عظيماً لهم، فإما أن يأتي بالأسطول الفينيقي إلى الأثينيين وإما أن يحول دون وصوله إلى البيلوبونيز. ويرجح أنه كان يعلم طوال الوقت أن تيسافيرنيس لم يكن يعتزم الإتيان بالأسطول من أسبندوس، وقد قصد أن يحط من مكانته في أعين البيلوبونيز بأن يحملهم على الاعتقاد بأن الرجل صديق له وللأثينيين بحيث ربما يقسر هذا الأمر تيسافيرنيس في النهاية على الانتقال إلى صفهم. وهكذا خرج ألسيبياديس وأبحر شرقاً نحو فاسيليس وكاونوس.

الفصل السابع: صراع حزبي في أثينا. ثورة يوبوية، الإطاحة بالأربعمئة

كان السفراء الذين أرسلهم الأربعمئة قد عادوا في تلك الأثناء من ساموس إلى أثينا وقاموا بتسليم رسالة ألسيبياديس التي حثهم فيها على الصمود وعدم التنازل للعدو، وقال فيها : إن لديه الآمال العظام بجمعهم والجيش معاً والنصر على البيلوبونيز. وكان غالبية المحيطين بالحكم الأوليجاركي قد باتوا يضيقون به حتى قبل هذا، ويسعدهم أن يخرجوا من ورطتهم، إن استطاعوا سحب أيديهم منه بأمان. وقد أتت هذه الرسالة لتزيدهم تصميماً على الانسحاب. فأخذوا ينظمون أنفسهم للمعارضة وينتقدون أسلوب إدارة الشؤون. وكان زعماؤهم بعض الذين في الحلقات الداخلية للأوليجاركية ويحتلون مناصب هامة في الدولة، مثل: ثيرامينيس بن هاجون، وأرسطوكراتيس بن سيلياس وسواهم، أشخاص كانوا يخشون– مع أنهم يحتلون مناصب هامة في الحكومة الأوليجاركية– الجيش الموجود في ساموس كما يخشون ألسيبياديس – وكان خوفهم من هذا حقيقياً–، من أن ينال الدولة أذى من أولئك الذين ذهبوا لمفاوضة إسبارطة دون مشاورة أغلبية الحزب. ولكن هؤلاء لم يذهبوا إلى حد القول بالإطاحة بالأوليجاركية كلياً، بل كل ما قالوا به هو وجوب تعيين مجلس الخمسة آلاف ليكون مجلساً حقيقياً وليس مجرد اسم، ثم قيام الحكومة على قاعدة أوسع. وكان هذا القول في واقع الحال مجرد دعاية سياسية؛ فمعظم هؤلاء كانت مطامحهم الخاصة تحملهم على اتباع الخط الذي يلحق أشد الضرر بالأوليجاركية حين تستلم الحكم من حكومات ديمقراطية. ذلك أنه ما إن يقع الانقلاب حتى يرى كل شخص نفسه في مرتبة أعلى ويتفوق على أي شخص آخر. أما في الحكم الديمقراطي فإن من يفشل في الوصول إلى منصب عبر الانتخاب يملك أن يعزي نفسه بالاعتقاد بأن فشله كان مرده افتقار العدل على نحو ما. ولكن ما كان له الأثر الواضح في حفز حزب الثائرين هو موقع ألسيبياديس في ساموس

واعتقادهم بحتمية نهاية الأوليجاركية. ولذلك أخذ كل منهم يسابق سواه في أن يكون الزعيم وبطل الشعب عموماً.

ومن بين الأربعمئة كان فرينيخوس زعيم الجماعة التي تناهض فكرة قيام حكومة ديمقراطية، وهو الرجل الذي قارع ألسيبياديس حين كان يتولى القيادة في ساموس. وكان إلى جانبه أريستارخوس الذي ظل لفترة طويلة من الزمن عدواً لدوداً للحكم الديمقراطي ولبيساندر وأنتيفون وآخرين من أبناء أقوى الأسر. وقد أرسلوا قبل هذا الوقت – في الواقع حالما تسلموا السلطة وانشق عنهم الجيش في ساموس وأعلن نفسه ديمقراطياً – وفوداً من حزبهم إلى إسبارطة وبذلوا كل ما بوسعهم لإحلال السلام. وكانوا يقومون أيضاً ببناء سور في إيتيونيا. أما الآن فإن هؤلاء غدوا أشد نشاطاً بعد عودة ممثليهم من ساموس؛ إذ وجدوا أن ليس العامة وحدهم، بل وأعضاء من حزبهم ممن كانوا يعتبرون قبلاً أهل ثقة، أخذوا ينقلبون عليهم. فأسرعوا، وهم في قلق من اضطراب وضعهم في ساموس وأثينا معاً، بإرسال أنتيفون وفرينيخوس وعشرة آخرين مع توجيهات بعقد سلم مع إسبارطة بأية شروط يرونها محتملة بأي شكل. وقد استمروا في الوقت ذاته. وهم أشد نشاطاً في بناء السور في إيتيونيا. وكان غرضهم منه، حسبما قال ثيرامينيس ورفاقه، ليس إبقاء جيش ساموس خارج بيرايوس، إن حاول دخولها عنوة، بل ترك العدو يدخلها بأسطوله وجيشه متى شاء. وإيتيونيا هي حاجز الأمواج لميناء بيرايوس وتقع عند مدخله مباشرة. والحق أن ما كانوا بصدده الآن هو إقامة سور يتصل بالتحصينات على جانب البر بحيث إن قوة صغيرة في الداخل تكفي للسيطرة عليه؛ ذلك أن اتصال السورين – يقع السور القديم على طرف البر والجديد الذي كان يجري العمل في بنائه في تلك الآونة يقع على البحر – كان يتقاطع وأحد البرجين المنتصبين عند المدخل الضيق للمرفأ. وقد جعلوا منظومة التحصينات تتضمن مستودعاً غاية في الضخامة وملاصقاً لسورهم، بل يقع في الحقيقة في نقطة من بيرايوس تجاوره. وقد استولوا على

هذا المخزن وأجبروا كل شخص أن يأتي بما لديه من الغلال، وأن يقوم الجميع بالعمل في تفريغ ما يحمله البحر من الغلال، ثم كانوا يخرجون ما لديهم في هذا العنبر الكبير لبيعه بعد ذلك.

وكان ثيرامينيس قد دأب منذ حين على التذمر من هذه الحال أينما توجه أو حل، فلما عاد السفراء من إسبارطة خاليي الوفاض من أي اتفاق على تسوية لحل الأمور، خرج عليهم هذا بقوله : إن هذا السور لا بد آت بخراب المدينة. وقد صادف أن بعض السفن - وبعضها إيطالية من تارنتوم ولوكري وبعضها من صقيلية، ومجموعها اثنتان وأربعون سفينة، كانت ترسو عند لاس في لاكونيا وقد وردت من البيلوبونيز، وهي بقيادة إجساندريداس بن إجساندر، وكان إسبارطياً من طبقة الضباط. وكانت هذه السفن قد جاءت بدعوة من أهالي يوبوية. وزعم ثيرامينيس بأن هدف هذا الأسطول ليس مؤازرة يوبوية بقدر ما هو لإعانة الناس الذين يقومون بتحصين إيتيونيا، وأنهم إن لم يقوموا بإجراءات احترازية على الفور، فإن المدينة سوف تضيع منهم قبل أن يدروا ما الذي جرى. وكان في الأمر أكثر من مجرد محاولة لإلحاق الأذى بهم والتحامل عليهم؛ لأن أولئك الذين اتهمهم كانوا يعدون فعلاً لمثل هذا الأمر. وكان مقصدهم في المقام الأول استمرار الحكم الأوليجاركي واستمرار السيطرة على الحلفاء أيضاً. وكان الهدف التالي، إن استحال تنفيذ هذا الأمر، هو الإمساك بالأسطول وتحصينات أثينا والاحتفاظ باستقلال البلد. أما إذا كان هذا أيضاً يتجاوز طاقتهم، فمن المؤكد أنهم لن يخاطروا بأن يجدوا أنفسهم أول قوم تقضي عليهم الديمقراطية بعد عودتها إلى الحكم، وآثروا عوضاً عن ذلك الاستعانة بالعدو والتخلي عن الأسطول والتحصينات وعقد اتفاق مهما تكن شروطه من أجل مستقبل أثينا، شرط أن تضمن لهم حياتهم. ولذلك أخذوا ينهمكون في بناء سورهم، بما فيه من أبواب صغيرة ومداخل وطرق لإدخال العدو، ومن هنا كان شوقهم لإنجازه قبل أن يداهمهم طارىء.

كانت الثورة عليهم تقتصر بادىء الأمر على قلة من الناس ويجري الإعداد لها سراً. ولكن الأمور تغيرت بعد ما قام أحد عناصر القوات الشعبية بالاعتداء على فرينيخوس عند عودته من سفارته إلى إسبارطة، إذ اعترضه في سوق المدينة والزحام على أشده، وعلى مسافة غير بعيدة عن مبنى الهيئة التشريعية الذي كان قد غادره لتوه، فمات فرينيخوس لتوه، بينما استطاع الجاني الهرب، وقبض على شريكه، وكان من الأرجوس، وتعرض للتعذيب من الأربعمئة، ومع ذلك فإن الرجل لم يكشف عن اسم المحرض، واقتصر على القول : إنه علم بوجود أشخاص كثر يلتقون في بيت قائد القوات المحلية وبيوت آخرين سواه. ولما بلغت الأمور هذا الحد، دون اتخاذ إجراءات أخرى حيال هذه الحادثة، أخذ ثيرامينيس يزداد جرأة وبدأ بالعمل الإيجابي بمؤازرة أرسطوكراتيس وآخرين يشاركونه الرأي، من بين الأربعمئة ومن خارجهم. وكان الأسطول قد أبحر الآن من لاس وطاف حول الساحل ثم ألقى مراسيه عند إبيداروس وتجاوز إيجينا. فقال ثيرامينيس الآن أنهم إذا كانوا متجهين إلى يوبوية فمن المستبعد أن يصلوا عبر الخليج حتى ايجينا، ثم يعودوا ثانية لترسو سفنهم في إبيداروس، وإن التفسير الوحيد لقدومهم هو دعوة وجهت إليهم وللأسباب التي كان يعرضها دائما في انتقاداته للحكومة؛ وبناء على ذلك لم يعد من الممكن ترك الأمور على حالها.

وفي النهاية، أخذ ثيرامينيس ورفاقه بزمام الأمور، بعد عدة خطب ثورية والشكوك بالحكومة ماتزال في ازدياد، واندفعوا إلى العمل فعلاً. فقام المشاة الثقيلة في بيرايوس الذين كانوا يتولون بناء السور في إيتيونيا– ومن بينهم أرسطوكراتيس، وكان برتبة قائد فوج ويتقدم عشيرته – باعتقال ألكسيكليس، وهو أحد قادة الجيش الأوليجاركي ومن كبار منظمي الجمعيات السياسية. فاقتادوه إلى أحد البيوت وأقاموا عليه الحراسة، وكان من بين الذين آزروهم هيرمون قائد الحرس الشعبي في مونيخية. ولكن أهم ما في الأمر كان التأييد الذي نالته حركتهم من أفراد المشاة الثقيلة.

حين وصلت الأنباء إلى الأربعمئة وكانوا في اجتماع للهيئة التشريعية أراد الجميع، ما عدا الذين يناهضون النظام القائم، أن يذهبوا فوراً إلى حيث كانت الأسلحة مكدسة، وأخذت التهديدات تنهال على ثيرامينيس وحزبه، لكنه وقف يدافع عن نفسه في مواجهة متهميه، قائلاً : إنه على استعداد للمضي فوراً وإنقاذ ألكسيكليس. وذهب الرجل مصطحباً معه أحد قادة الجيش وكان يشاركه آراءه وانطلقا إلى بيرايوس، ومعهما أريستارخوس وبعض الفرسان الشباب. وكان الوضع كله في هرج ومرج والذعر عاماً والناس في أثينا يحسبون أن بيرايوس قد سقطت وأعدم ألكسيكليس، وأهالي بيرايوس يتوقعون أن تطبق عليهم القوات القادمة من أثينا في كل لحظة. وبذل الكبار في السن كل ما يستطيعون لإيقاف أولئك الذين كانوا يجرون وكأنما أفلتوا من عقالهم في كل أرجاء المدينة إلى حيث كانت مستودعات السلاح، بينما خرج إليهم ثوسيديديس الفارسلاني، ممثل المصالح الأثينية في فارسالوس، وكان في أثينا، فاعترضهم وصاح بهم ألا يدمروا البلد والعدو على الأبواب ينتظر المناسبة لتحقيق مآربه. وهكذا هدأت الأمور ولو أن ذلك استغرق بعض الوقت، ولم يقم الناس بإيذاء بعضهم بعضاً.

وفي تلك الأثناء وصل ثيرامينيس إلى بيرايوس. وكان هو نفسه أحد قادة الجيش، وبدا في حالة من الهياج مع أنه كان حسبه أن يصيح بالمشاة الثقيلة آمراً فيمتثلوا له. أما أريستوخوس والفصيل المقابل فكانوا غاضبين ثائرين. وظل معظم المشاة الثقيلة مثابرين على ما هم فيه يجدون في عملهم بكل دأب وحزم، ولم يبد عليهم ما ينم عن تحول لديهم. وقد سألوا ثيرامينيس إن كان يرى أن ثمة فائدة في بناء السور، وما إذا كان من الأفضل هدمه، ورد بأنهم إن وجدوا أن هدمه مفيد فإنه شخصياً يوافقهم الرأي في هذا الأمر. فما كان من جنود المشاة ومعهم الكثير من مواطني بيرايوس إلا أن تسلقوا الجدار بعد هذا الحوار وراحوا يعملون فيه هدماً. وراح هؤلاء يهيبون بجمع الناس أن يقدموا المساعدة لمن يريدون حكم الخمسة آلاف عوضاً عن الأربعمئة. وكان هؤلاء مازالوا

يتوسلون باسم الخمسة آلاف ستاراً لهم ويحذرون القول صراحة: "من يريد حكم الشعب". خشية أن يكون مجلس الخمسة آلاف قائماً فعلاً فيتلفظ أحدهم بقول أمام واحد من هؤلاء وهو يجهله فيتورط فيما لا يرضيه. وكان هذا في الواقع السبب الذي جعل الأربعمئة لا يريدون أن يكون للخمسة آلاف وجود أو يكون عدم وجودهم معلوماً، اعتقاداً منهم بأن مشاركة هذا العدد الكبير من الناس في السلطة يعادل الديمقراطية. أما المحافظة على هذا الالتباس الذي يحيط بالموضوع فحري به أن يثير جواً من الخوف المتبادل بين الناس بعضهم من بعض.

وفي اليوم التالي عقد الأربعمئة – وهم على حالهم من التوجس – اجتماعاً في مبنى المجلس. وكان المشاة الثقيلة في بيرايوس قد أطلقوا سراح ألكسيكليس الذي كانوا قد اعتقلوه قبل حين ثم قاموا بهدم الحصن وتقدموا بعدئذ باتجاه مسرح ديونيسوس بالقرب من مونيخية حيث وضعوا أسلحتهم وعقدوا مؤتمراً تقرر فيه أن يزحفوا على المدينة. ولقد قاموا بتنفيذ هذا القرار فوراً حتى توقفوا مرة أخرى عند أناكيوم. وهناك التقوا بجماعة كان الأربعمئة قد اختاروهم لهذا الغرض، فتقدم منهم هؤلاء وذهبوا يتحدثون إلى كل فرد على حدة، ليحاولوا إقناع من يتوسمون فيهم العقلانية بألا يتابعوا طريقهم، وأن يساعدوهم في وقف الآخرين عن المضي أبعد من هذه النقطة. وقالوا: إنهم سوف يذيعون أسماء أعضاء مجلس الخمسة آلاف، وسيجري اختيار أربعمئة من بينهم ويكون تداول السلطة على النحو الذي يقرره الخمسة آلاف، وناشدوهم عندئذ ألا يأتوا بعمل يكون من شأنه تدمير الدولة أو تركها تسقط بيد العدو. وبعد كثرة المناشدة لعدد من الجنود جنح المشاة إلى الهدوء، وأصبح قلقهم منصباً على حال الدولة على العموم. وقد اتفق الجمع على عقد مؤتمر في يوم معلوم في مسرح ديونيسوس لتسوية الخلافات.

وفي اليوم المعين لهذاالمؤتمر، وبينما الناس قد اتخذوا أماكنهم، أو كانوا بالأحرى يتواردون إلى مكان الاجتماع، ذاع الخبر بأن الاثنتين والأربعين سفينة التي يقودها

أجيساندريداس كانت تبحر من ميجارا بمحاذاة ساحل سلاميس. واعتقد الجميع أن هذا النبأ مصداق لقول ثيرامينيس وحزبه، وأن هذه السفن في طريقها إلى التحصينات، وأن هدمها كان من حسن حظهم. وقد يكون ذلك، طبعاً، أمراً مدبراً بحيث ينتظر أجيساندريداس عند إبيداروس وجوارها. ومن جهة أخرى، ففي الوضع الثوري السائد بين الأثينيين، من الطبيعي بالنسبة له أن يرجىء موعد مغادرته علّ المصادفة تساعده فتمكنه من التدخل في اللحظة المناسبة. وعلى أية حال، فإن الأثينيين ما إن سمعوا بتلك الأنباء حتى ركضوا مسرعين إلى بيرايوس وهم بكامل قوتهم، يدفعهم إلى ذلك إحساسهم بأن هذه الحرب – وأمامهم عدو مشترك، وهو غير بعيد– أشد خطراً من الحرب بين بعضهم بعضاً، فتلك الحرب على أبوابهم تهدد مرفأهم. فركب بعضهم السفن التي كانت راسية هناك بينما أنزل آخرون سفناً لم تكن حسنة الإعداد. واتخذ بعضهم مواقع على الأسوار وعند مدخل المرفأ.

ولكن سفن البيلوبونيز تابعت إبحارها، على كل حال، وتجاوزت سونيوم إلى أن ألقت مراسيها ما بين ثوريكوس وبرازياي. ثم وصلت لاحقاً إلى أوروبوس. ولما كان الأثينيون، يواجهون ثورة داخل مدينتهم ومشتاقين لنجدة هذا الموقع الهام – إذ كانت يوبوية كل ما لديهم الآن بعدما أصبحوا معزولين عن أتيكا – فقد اضطروا للإسراع بوضع رجال على متن السفن لم يكونوا قد تلقوا تدريباً على أعمال الملاحة أبداً. وأرسلوا ثيموخاريس مع بعض السفن إلى إيرتريا، فلما وصلوا، كان مجموع السفن مع تلك الموجودة في يوبوية من قبل ستاً وثلاثين سفينة، واضطروا للقتال فور وصولهم. وقد خرج أجيساندريداس من أوروبوس بعد أن تأكد من تناول رجاله طعامهم، وكانت هذه تبعد سبعة أميال بحراً عن إيرتريا. وما إن خرج للقتال حتى بدأ الأثينيون فوراً بتعبئة سفنهم وهم يتصورون أن البحارة مستعدون. والواقع أن هؤلاء كانوا منشغلين بتدبير طعامهم لا من السوق وإنما من البيوت عند أقصى أطراف المدينة، وكان ذلك بفعل الإيرتريين الذين تعمدوا سحب

الطعام من السوق ليعرقلوا عمل الأثينيين في إعداد سفنهم فيأخذهم العدو على حين غرة؛ فيضطروا للخروج إلى البحر وهم على تلك الحالة من عدم الاستعداد. ولقد صدرت عندئذ شارة من إيرتريا لتخبر البيلوبونيز في أورووبوس بالموعد المناسب لخروجهم إلى البحر. وهكذا خرج الأثينيون وهم في حالة سيئة من الاستعداد وقاتلوا قبالة مرفأ إيرتريا ومع ذلك استطاعوا الصمود لفترة قصيرة، لكنهم اضطروا في النهاية للهرب والنزول على الشاطئ. وقد واجه أولئك الذين التجؤوا إلى إيرتريا، وهم يظنون أنها بلد صديق، أسوأ مصير؛ إذ راح الايرتريون يعملون فيهم ذبحاً وقتلاً. أما الآخرون الذين هربوا إلى الحصن الذي يسيطر عليه الأثينيون في المنطقة الإيرتيرية فإنهم نجوا وكذلك السفن التي استطاعت الوصول إلى خالكيس. وكان من أمر هذه المعركة أن استولى البيلوبونيز على اثنتين وعشرين سفينة من الأثينيين وقتلوا أو أسروا بحارتها. وأقاموا نصباً لهذه المناسبة ثم سرعان ما حملوا يوبوية على الثورة –ما عدا أورووبوس التي كان يحتلها الأثينيون – وقاموا بتنظيم الأمور عموماً هناك.

حين بلغت أنباء ما وقع في يوبوية أثينا أثارت فزعاً شديداً لم يعرف أهلها مثله من قبل، أين منه رهبة الكارثة في صقيلية، وإن بدت خطيرة الوقع يومذاك، أو أي حدث آخر؟. والحق أنه كان للقوم كل الأسباب التي تحملهم على الشعور باليأس: فالجيش ثائر في ساموس، ولم يعد لديهم سفن أو بحارة تستطيع أن تسير السفن إن توفرت. ثم إن هناك الاضطرابات الأهلية القائمة بينهم، ولا أحد يملك أن يتنبأ متى تتحول إلى اقتتال. وفوق هذا وذاك تحل الآن هذه الكارثة التي خسروا فيها أسطولهم وأضاعوا – وهذا هو الأسوأ– يوبوية التي كانت أشد نفعاً لهم من أتيكا ذاتها. وكان أشد ما أزعجهم وأصبح تقريباً هاجساً مقيماً هو أن يسير إليهم العدو بعد هذا النصر مباشرة ويبحر إلى بيرايوس التي أصبحت الآن بلا أسطول تدافع به عن نفسها، بل الحق أنهم أخذوا الآن يتوقعون مداهمتهم في أية لحظة. والواقع أنه كان بوسع البيلوبونيز الإطباق عليهم بكل يسر، لو

أنهم كانوا أكثر جرأة. ولو ساروا إليهم لكان بوسعهم إما أن يزيدوا في الشقاق بينهم، بمجرد أن يلقوا مراسيهم قبالة المدينة، أو إذا بقوا هناك وحاصروا المدينة، لاضطروا الأسطول في أيونيا للإسراع لنجدة قومه وفك الحصار عن المدينة، مهما يكن عداؤه للأوليجاركية، وفي تلك الأثناء تكون هليسبونت وأيونيا قد سقطتا في أيديهم ومعهما كل الجزر والأراضي حتى يوبوية - أي في الواقع كل أراضي الإمبراطورية الأثينية- ولكن الإسبارطيين شاؤوا أن يكونوا في هذه المناسبة، كما في العديد من المناسبات الأخرى، أرحم أعداء يمكن أن تصادفهم أثينا وأشدهم عوناً. ذلك أن أثينا، خاصة من حيث هي قوة بحرية، أفادت أعظم الفائدة من الفارق العظيم في الطباع التي يتسم بها كل قوم؛ سرعتها مقابل بطئهم، روح الإقدام لديها وافتقارهم للمبادرة. وقد تجلى هذا الاختلاف لدى السيراكوز الذين كانوا أقرب إلى الأثينيين من حيث الطباع وبرزوا في القتال ضدهم.

ولما بلغت الأنباء الأثينيين نهضوا بالرغم من كل الصعاب وعبؤوا عشرين سفينة. كما دعوا فوراً لاجتماع أول مجالسهم. فالتأم المجلس في بنيكس حيث اعتادوا الاجتماع من قبل. وتم حل هيئة الأربعئمة وتقرر بالتصويت تسليم السلطة إلى مجلس الخمسة آلاف، الذين باتوا يضمون بينهم كل من يملك عتاد المشاة الثقيلة، وحظر على العضو أن يتقاضى أي مبلغ من المال لقاء إشغاله منصباً، وإلا حلت عليه اللعنة. وبعدئذ تم عقد عدد من المجالس الأخرى، وجرى فيها اختيار المستشارين القانونيين كما اتخذت كل الإجراءات الأخرى لوضع الدستور. والحق أن الأثينيين بدوا في الفترة الأولى من نظامهم الجديد في حكم أفضل مما كان لديهم في أي وقت سابق، أو على الأقل في زماني. وكان الحكم يقوم على مزيج معتدل معقول من القلة والكثرة، وهذا ما أتاح للمدينة في المقام الأول أن تعيد للدولة عافيتها بعد أن تردت أحوالها. كذلك قرر الجمع بالتصويت استدعاء ألسيبياديس وآخرين معه وأرسلوا إليه وإلى الجيش في ساموس يحثونهم على

القيام بدورهم الكامل في الحرب.

وما إن تبدلت الحكومة حتى قام بيساندر وألكسيكليس وأصدقاؤهما وأشد أعضاء الحزب الأوليجاركي تطرفاً بمغادرة المدينة هاربين إلى ديسيليا. وكان أريستارخوس الوحيد الذي صمد من هذه العصبة، وهو أحد قادة الجيش، وقد أسرع وحشد بعض الرماة الأقل هيلينية من سواهم وزحف بهم إلى أوينوي، وهذه حصن أثيني يقع على الحدود البويوطية ويحاصره الكورنث الذين كانوا قد دعوا البويوط لمؤازرتهم. والسبب في ذلك ما مني به الكورنث من خسارة حين قُتل جماعة من رجالهم بيد الحامية في أوينوي، وهم عائدون من ديسيليا. فاتصل أريستارخوس الآن بالكورنث وخدع حامية أوينوي بأن أخبرهم أن الأثينيين قد توصلوا مع الإسبارطيين إلى تسوية عامة تسلم بموجبها أوينوي إلى البويوط. وقد أخذت الحامية كلامه على محمل الصدق، باعتبار أنه من قادة الجيش، وهم بعيدون عن مواقع الأحداث بسبب الحصار المفروض عليهم فلا يدرون بما يجري، فانسحبوا من الموقع في ظل هدنة. وهكذا تم الاستيلاء على أوينوي التي باتت بيد البويوط، وفي أثينا انتهت الأوليجاركية والاضطرابات الأهلية.

الفصل الثامن: انتصار الأثينيين في سينوسيما

في هذا الصيف ونحو الوقت الذي جرت فيه الأحداث التي سبق الحديث عنها، كان وضع البيلوبونيز في ملطية كما يلي: كان الجنود قد انقطعت عنهم رواتبهم من ضباطهم الذين عهد إليهم تيسافيرنيس بمسؤوليتها، كذلك لم يصل الأسطول الفينيقي، ولا ظهر تيسافيرنيس ذاته بعد غيابه، وقد أرسل فيليب الذي ذهب برفقته وضابط إسبارطي آخر يدعى هيبوكراتيس- وكان هذا في فاسيليس- إلى أمير البحر ميندراوس يخبرانه بأن يقطع الأمل بقدوم السفن وعرضا له سوء معاملة تيسافيرنيس لهما. وفي الوقت ذاته كان فارنابازوس يلح عليهما في طلب المعونة والسفن، والسبب في ذلك أنه كان يسعى شأنه- شأن تيسافيرنيس لإشعال الثورة في المدن التي تتبع أثينا في مقاطعته ويتوقع أن تتحقق له مكاسب عظيمة منها. وأخيراً خرج ميندراوس من ملطية بعد تخطيط دقيق وفي اللحظة الأخيرة، لئلا يستلفت انتباه الأثينيين في ساموس، ومعه ثلاث وسبعين سفينة قاصداً الهليسبونت. وكانت قد وصلت قبله في الصيف ذاته ست عشرة سفينة واجتاحت جزءاً من خيرسونيس. وقد اضطر ميندراوس لدخول إيكاروس بعد أن واجهته عاصفة في الطريق. وحملته الأحوال الجوية السيئة على البقاء هناك خمسة أيام أو ستة، ثم تابع رحلته ووصل إلى خيوس.

وحين بلغ ثراسيلوس أنه غادر ملطية خرج فوراً من ساموس بخمس وخمسين سفينة بكامل سرعته ليستبق ميندراوس إلى الهليسبونت. ولكنه حين وجد أن ميندراوس مايزال ملقياً مراسيه في خيوس ذهبت توقعاته إلى أنه سوف يمكث هناك، فأقام كشافته في ليسبوس وعلى البر الرئيسي المقابل بحيث لا يأتي البيلوبونيز بحركة إلا ويكون قد علم بها، ثم أبحر على طول الساحل إلى ميثيمنة. وهناك أمر بجمع مقادير من الشعير والمؤن الأخرى، وقصد أن يشن حملة على خيوس من ليسبوس، إن طالت إقامة ميندراوس فيها. وقرر في تلك الأثناء القيام بحملة على إريسوس في ليسبوس وتدميرها

إن استطاع، عقاباً لها لثورتها. وكان بعض كبار المنفيين من ميثيمنة قد جاؤوا من كوماي ومعهم نحو خمسين من المشاة الثقيلة، وقد غدوا أعضاء في حزبهم، كما استأجروا آخرين مثلهم من البر الرئيسي حتى بلغ تعدادهم نحو الثلاثمئة، وكانت القيادة لألكسندر، وهو من طيبة، لصلة الدم بين ليسبوس وطيبة. وكان أول عمل قاموا به هو الهجوم على ميثيمنة ولكنهم فشلوا في هذه المحاولة حين خرجت إليهم الحامية الأثينية في ميتيلينة وأحبطت خطتهم. كذلك ارتدوا على أعقابهم بعد معركة خارج المدينة. وبعد أن تمكنوا من عبور الجبال، استطاعوا حمل إريسوس على إعلان الثورة. ولذلك أبحر ثراسيلوس بكل سفنه يريد الهجوم على إريسوس. وكان ثراسيبولوس قد سبقه إليها ومعه خمس سفن من ساموس؛لأنه بدأ رحلته حالما سمع بعبور المنفيين. ولكن وصوله جاء متأخراً بحيث لا ينفع معه أي عمل ذي أثر، إلا أنه ذهب إلى إريسوس وألقى مراسيه قبالة المدينة. وقد انضمت إليهم بعدُ سفينتان أخريان كانتا في طريقهما إلى الوطن من الهليسبونت وخمس سفن من ميثيمنة. فبلغ الحشد سبعاً وستين سفينة. وهناك قاموا بما لديهم من القوات بهجوم قوي استخدموا فيه آلات الحصار وسواها للاستيلاء على إريسوس، إن أمكنهم ذلك.

وفي تلك الأثناء كان مينداروس والأسطول البيلوبونيزي الراسي في خيوس قد حملوا كل المؤن في غضون يومين وتلقوا من الخيون مبلغ ثلاث قطع من العملة المحلية عن كل رجل من خيوس يخدم في صفوفهم. وفي اليوم الثالث خرجوا من خيوس بأسرع ما يمكن وأبحروا باتجاه البر الرئيسي وليسبوس إلى ميسرتهم، بدلاً من الإبحار في عرض البحر، ليتفادوا بذلك مواجهة السفن في إريسوس. ثم دخلوا مرفأ كارتيريا في منطقة فوكايا لتناول وجبة الفطور ثم أبحروا بمحاذاة الساحل الكومائي، ثم كانت وجبة العشاء في أرجنوساي قبالة ميتيلينة. ومن هناك أبحروا بمحاذاة الساحل مدة قبل الفجر حتى بلغوا هرماتوس على البر الرئيسي قبالة ميثيمنة، وهناك تناولوا وجبة الفطور على عجل، ثم

مروا بليكتوم ولاريسا وهماكسيتوس والبلدات في تلك المنطقة، حتى بلغوا رويتيوم التي تقع في الهليسبونت قبيل منتصف الليل. كذلك دخلت بعض سفنهم إلى سيجيوم ومرافىء أخرى في المنطقة.

كان الأثينيون في سيستوس ومعهم ثماني عشرة سفينة. وقد علموا من إشارات النار– وكانت قد برزت عدة إشارات منها فجأة على الشاطئ – أن البيلوبونيز في البحر فأقلعوا في تلك الليلة على عجل وسارت بهم السفن بمحاذاة ساحل الخيرسونيس إلى إيلايوس للوصول إلى عرض البحر بعيداً عن أسطول العدو. ولم تلحظهم السفن الست عشرة في أبيدوس، وكانت هذه السفن قد أرسلت رسالة إلى الأصدقاء تطلب إليهم رصد الأثينيين في حال خروجهم إلى عرض البحر، ولكن الأثينيين وجدوا عند الفجر أسطول ميننداروس الذي مضى فوراً لمطاردتهم، ولم يفلتوا من هذه المطاردة إلا بخسارة، وإن تمكنت أغلب السفن من الهرب إلى إمبروس وليمنوس. وكانت الحصيلة سقوط أربع سفن قبالة ايلايوس. وكانت إحدى هذه السفن قد خرجت إلى اليابسة بالقرب من معبد بروتيسلاؤوس فتم الاستيلاء عليها مع بحارتها؛ كما وقعت سفينتان أخريان في يد مطارديهما، إنما دون بحارتهما؛ وأما الرابعة فقد وجدت مهجورة على الشاطئ عند إمبروس، وقد أحرقها العدو. ثم انضم أبيدوس. وقد بلغ مجموع سفن الأسطول الآن ستاً وثمانين سفينة. ثم أمضوا هذا اليوم في حصار إيلاوس، إلا أنهم قفلوا عائدين إلى أبيدوس بعدما وجدوا المدينة تمتنع عن الاستسلام.

في تلك الأثناء لم يتلق الأثينيون من كشافتهم المعلومات التي كانوا يتوقعونها، واستمروا في أعمال الحصار وهم لا يدرون أن أسطول العدو قد يكون مر بهم دون أن يلحظوه، فثابروا على ما هم فيه وكأنما شيئاً لم يحدث. فلما بلغتهم الأخبار تركوا إريسوس فوراً وهرعوا إلى الهليسبونت للقاء العدو. فصادفوا سفينتين من سفن البيلوبونيز واستولوا عليهما، وكانتا قد أبدتا جرأة بالغة في مطاردتهم في المعركة

السابقة. وفي اليوم التالي بلغوا إيلايوس حيث ألقوا مراسيهم. ثم أتوا بالسفن التي لجأت إلى إمبروس وأمضوا خمسة أيام في الاستعداد للمعركة القادمة.

وكانت المعركة بعد ذلك. وقد جرت على النحو التالي: أبحر الأثينيون في صف طويل بمحاذاة الساحل إلى سيستوس. فلما شاهدهم البيلوبونيز قادمين خرجوا إليهم من أبيدوس. وكان جلياً الآن أن المعركة لاريب واقعة، وعليه قام كل طرف بإطالة خطوطه؛ الأثينيون بست وسبعين سفينة على امتداد خيرسونيس من إيداكوس حتى أرياني، والبيلوبونيز بست وثمانين سفينة من أبيدوس حتى دردانوس. وعلى الجانب البيلوبونيزي كان السيراكوز يشكلون الميمنة، بينما كان ميندااروس ومعه أسرع السفن على الميسرة. أما على الجانب الأثيني فكان ثراسيلوس في الميسرة وثراسيبولوس في الميمنة، والقادة موزعين بين تشكيلات الأسطول. وكانت خطة البيلوبونيز تقوم على المبادرة بالهجوم وكسر جناح الأثينيين الأيمن بجناحهم الأيسر وقطع الطريق أمامهم لئلا يخرجوا إلى عرض البحر، إن أمكن، ودفع الوسط في التشكيل الأثيني إلى الشاطئ، ولم يكن هذا بعيداً. وقد أدرك الأثينيون هذه الخطة فعمدوا إلى توسيع جناحهم الأيمن بالاتجاه الذي كان العدو يحاول تطويقه فنجحوا في تجاوزهم. وكان الجناح الأيسر الأثيني قد التف حول رأس سينوسيما، لكن الوسط أصبح ضعيفاً ومضطرباً نتيجة عملية الالتفاف هذه، خاصة وأن أسطول الأثينيين كان الأصغر والشاطئ عند رأس سينوسيما بشكل زاوية حادة بحيث يستحيل رؤية ما يجري من جانب على الجانب الآخر.

وهكذا انقض البيلوبونيز على الوسط الأثيني واضطروا سفنهم للالتجاء إلى الشاطئ، فلما نزلوا إلى البر ذهبوا يطاردونهم. وهنا كانت الأمور تجري على هواهم، فلم يكن بوسع الوسط تلقي المساعدة من سفن ثراسيبولوس على الميمنة؛ إذ حال دون ذلك غلبة أعداد البيلوبونيز الذين كانوا يواجهونه، ولا من سفن ثراسيلوس على الميسرة، بسبب نتوء الأرض عند سينوسيما، فلم يعد بوسعه أن يرى ماذا يجري في الناحية الأخرى،

بينما يضيق عليه السيراكوز والسفن المعادية الأخرى وهي لا تقل عما لديه. وفي النهاية، وإذ اطمأن البيلوبونيز إلى امتلاكهم النصر بدؤوا ينتشرون لملاحقة السفن فرادى، حتى سادت الفوضى في جزء كبير من خطوطهم. وحين رأى ذلك ثراسيبولوس ورجاله التفتوا فوراً وأخذوا بمهاجمة سفن العدو التي كانت تطبق عليهم، بدلاً من أن يستمروا في توسيع خطوطهم. فلما ألحقوا بهذه السفن هزيمة منكرة انقضوا على ذلك التشكيل المنتصر في أسطول البيلوبونيز، فدحروه وشتتوا شمله واضطروا معظم السفن للهرب دون مقاومة. كذلك أخذ السيراكوز يتراجعون الآن أمام ثراسيلوس وباتوا ينشدون الهرب أيضاً حين وجدوا باقي الأسطول يولي الأدبار.

وهكذا أصيب البيلوبونيز بهزيمة منكرة. فلجأ معظمهم بادئ الأمر إلى نهر الميديوس ثم أبيدوس. ومع أن الأثينيين لم يستولوا إلا على بضعة سفن – لأن ضيق الممر المائي عند الهليسبونت كان يمكن العدو إن مضى قليلاً أن يجد الأمان من مطارديه– فإن الفوز في هذه المعركة البحرية كان غاية المنى في ذلك الحين. فقد ظل الأثينيون يخشون إلى الآن الأسطول البيلوبونيزي، وهم تحت تأثير فشلهم في بعض الاشتباكات الثانوية والكارثة التي نزلت بهم في صقيلية، أما الآن فقد تخلصوا من مشاعر النقص وطرحوا عنهم الاعتقاد بجدارة العدو في ركوب البحر. أما السفن التي نجحوا في الاستيلاء عليها من العدو فكانت ثماني من خيوس وخمساً من كورنثة واثنتين من إمبراسيا ومثلهما من بويوطيا وواحدة من كل من ليوكاس وإسبارطة وسيراكوزة وبيلينة، بينما خسروا خمس عشرة سفينة.

ولقد أقاموا عندئذ النصب التذكاري عند الرأس البري في سينوسيما وحملوا حطام السفن وسلموا للعدو قتلاه في هدنة، ثم أرسلوا سفينة ثلاثية المجاذيف إلى أثينا حاملة أنباء النصر. فلما وصلت السفينة وسمع الأثينيون هذا الخبر السعيد غير المتوقع سروا لذلك أيما سرور، بعدما عانوا ما عانوه مؤخراً في يوبوية وما مروا به أثناء الثورة واعتقدوا

أن النصر مازال ممكناً، إن أدوا دورهم كما ينبغي أن يكون الأداء، بحزم وعزم.

وفي اليوم الرابع بعد تلك المعركة البحرية أبحر الأثينيون في سيستوس الذين جهدوا حتى أصبحت سفنهم جاهزة للعمل، وتوجهوا يقصدون سيزيكوس بعدما أعلنت الثورة. فظهرت لهم عند هاريجيوم وبريبوس ثماني سفن من بيزنطة راسية هناك. فتابعوا طريقهم إلى تلك السفن وتمكنوا من أن يهزموا الجنود على الشاطئ ويستولوا على السفن. ثم تابعوا طريقهم حتى بلغوا سيزيكوس، وكانت بلا تحصينات ترد عنها الهجمات فأعادوا سيطرتهم عليها، وفرضوا على أهلها غرامة. وكان البيلوبونيز قد خرجوا من أبيدوس في تلك الأثناء وهم يقصدون إيلايوس حيث استردوا سفنهم التي تم الاستيلاء عليها والتي كانت صالحة للخدمة، بينما أحرق أهالي إيلايوس البقية. وكان من أعمالهم بعدُ أن أرسلوا هيبوكراتيس وإبيكليس إلى يوبوية ليأتيا بالسفن الراسية هناك.

وكان ألسيبياديس قد عاد في ذلك الوقت تقريباً ومعه ثلاث عشرة سفينة من كاونوس وفاسليس إلى ساموس حاملاً معه الأنباء بأنه تمكن من منع الأسطول الفينيقي من الانضمام إلى البيلوبونيز واستطاع أن يجعل تيسافيرنيس أكثر وداً حيال الأثينيين مما كان عليه من قبل. ثم جهز تسع سفن أخرى إضافة إلى ما لديه وفرض على أهالي هاليكارناسوس التبرع بمبالغ كبيرة من المال وتحصين جزيرة كوس وعين عليها حاكماً، وأبحر عائداً إلى ساموس والخريف يكاد يقبل.

أما تيسافيرنيس فإنه قوض معسكره حين بلغه أن أسطول البيلوبونيز قد خرج من ملطية قاصداً الهليسبونت، وأسرع عائداً من أسبيندوس إلى أيونيا.

وبينما كان البيلوبونيز في الهليسبونت قام الأنتاندريان وهم من الأيوليين بتجنيد بعض المشاة الثقيلة من أبيدوس وعبروا بهم إلى جبل إيدا براً. وأدخلوهم مدينتهم،

وكانوا يلقون أسوأ المعاملة من أرساكيس الفارسي الذي كان تيسافيرنيس قد عينه فيها. وكان أرساكيس قد أتى بالدليان الذين كانوا قد استقروا في أتراميتيوم، بعدما طردهم الأثينيون من بيوتهم بقصد الحفاظ على نقاء ديلوس، وعرض الخدمة العسكرية على أفضلهم لياقة. وكانت حجته في المجيء بهم زعمه أن له خصومة مع بعض أهل البلد ويرغب في أن تبقى سرية، وبعد أن استطاع إقناعهم بمغادرة مدينتهم على عهد الصداقة والتحالف، أخذ يتربص بهم وانتظرهم حتى جلسوا ذات يوم للغداء فعمد إلى تطويقهم برجاله الذين أخذوا يمطرونهم بالرماح حتى قضوا عليهم. وقد تهيب الأنتاندريان منه بسبب هذه الجريمة وباتوا يخشون أن يكرر فعلته معهم ذات يوم. وكان أرساكيس يثقل عليهم ويحمّلهم فوق ما يطيقون؛ فثاروا وطردوا حاميته من الأكروبول.

ولما بلغ تيسافيرنيس خبر فعلة البيلوبونيز فوق ما حدث في ملطية وسنيدوس حيث طردوا حامياته هو أيضاً من تلك المنطقة أدرك أن علاقته بهم أصبحت فعلاً في أسوأ حال وخشي أن ينزلوا به المزيد من الضرر. وكان قد أزعجه بعدُ تلقي فارنابازوس منهم عوناً، في وقت أقصر وبكلفة أقل، وربما أبلوا في مواجهة الأثينيين أفضل من بلائه. وعليه تأهب للمضي ومقابلتهم في الهليسبونت ليحتج على ما كان منهم في أنتاندروس وليبرىء نفسه مما يأخذونه عليه في أمر الأسطول الفينيقي وسوى ذلك من القضايا. فتوجه أولاً إلى إفسوس حيث قدم قرباناً للإلهة أرتميس......

الفهرس

الكتاب الثاني

الكتاب الثالث

الكتاب السادس

الكتاب السابع

الكتاب الثامن